

مقدمة

فضيلة الشيخ أبي بكر الحنبلي حفظه الله

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ

القرآن العظيم كلام ربنا منه بدأ وإليه يعود، وهو معجز كله، وقد تحدى الله عز وجل به

الأمم كلها، ففيه الإعجاز اللغوي والتشريعي والعلمي، وهو محكمٌ بألفاظه ومعانيه، وكلُّه

متشابهٌ في الكمال والجودة، ومنه آياتٌ محكماتٌ لا خفاءَ في معانيها، منه آياتٌ متشابهاتٌ في الفهم،

يفهمها الراسخون في العلم بردها إلى المحكم، وقد نزل جملةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل

على النبي ﷺ مفرقاً حسب الأحوال والأحداث في ثلاث وعشرين سنة، وأول ما نزل منه

﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، وآخر ما نزل منه ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وتفسير القرآن يكون بالقرآن وبالسنة النبوية وأقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين المعتمدين بالتفسير وبالمعاني اللغوية الموافقة لأصول الشريعة، وقد جُمع القرآن في زمن رسول الله ﷺ حفظاً في الصدور وكتابةً في السطور، وجمعه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موقعة اليمامة في مصحفٍ واحدٍ موافقٍ للعرضة الأخيرة وقد أجمع عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأما الخليفة الثالث صهر النبي ﷺ ذي النورين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد جمعه علي حرفٍ واحدٍ بعد اختلافهم في أرمينية وأذربيجان.

وترتيب السور والآيات توقيفيٌّ، ولا بد أن يتوفر في القراءة الصحيحة موافقةً العربية وموافقةً الرسم العثماني مع صحة السند.

فالقرآن الكريم الذي فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قسمه الله، ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله، هو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيُستعَب، ولا يُعْوجُّ فيُقْوَم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلُقُ عن كثرة التردد، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بتلاوته، فقال في سنن الترمذي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "اتلوا القرآن فإن الله يأجركم على تلاوته، أما إني لا أقول لكم (الم) حرف، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولا مٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ، والحرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها"^(١) أو كما قال رسول الله ﷺ.

ويكفي أن من تعلَّمه وعَلَّمه كان من خير الناس، بشهادة من أنزل عليه ﷺ، حيث قال في صحيح البخاري من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"

وأما صاحب القرآن فهنيئاً له ثم هنيئاً له، حيث ثبت عند أبي داود والترمذي بإسنادٍ حسنٍ

(١) أخرجه الدارمي في "السنن" (٣٣٤٢)، وعبد الرزاق في "المصنف" (٦٠١٧) والحاكم في "المستدرک"

(٢٠٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارتنق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها"^(١)

فالقرآن العظيم آية باقية على وجه الدهر، ومعجزة خالدة من جهة فصاحة لفظه، وبلاغة نظميه وأسلوبه ودقة أحكامه وأوامره ونواهيه، وبيان أسماء الله وصفاته ودلائله اليقينية وبراهينه العقلية، في أمثاله المضروبة، وإخباره بالغيب، وتحدي الثقلين بالإتيان بمثله، وغير ذلك من العجائب الخارقة للعادة، وقد تولى الله سبحانه حفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] حفظ الله القرآن الكريم من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص فيه حقاً، فلم يزل محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ونفى عنه التبديل والتحريف فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] وقد بينه رسول الله ﷺ لأمته فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فالسنة مفسرة للقرآن وموضحة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وقال ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"^(٢)

وقد أنزل الله تعالى القرآن لتحاكم إليه حيث قال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٤٦٤)، والترمذي في "سننه" (٣١٦٢)، وأحمد في "مسنده" (٦٧٩٩)، وصححه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٢٢٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٦٠٤)، وأحمد في "مسنده" (١٧١٧٤)، وغيرهما، والحديث صححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٤٦٠٤)، من حديث المقدم ابن معدي كرب رضي الله عنه، به.

يُحْكَمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾
 [النساء: ٦٥] وكذلك أنزله جل وعلا ليفهموه ويتدبروه ويعملوا به قال الله تعالى: ﴿كِتَبَ
 أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾﴾ [ص: ٢٩] وقد يسر الله فهمه
 لمن أراد الانتفاع به، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]
 ، وقد أنزله الله تعالى باللغة العربية ليعقله العرب ويؤمنوا به ويبلغوه إلى بقية الأمم، قال الله
 تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

واعلم أيها الحبيب المحب للوحيين بفهم الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ
 الذي أنزله الله عز وجل على خاتم الأنبياء وأفضلهم محمد ﷺ هو آخر الكتب السماوية وأعظمها
 وأكملها وأحكمها أنزله الله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين، فهو أفضل الكتب، نزل به
 أفضل الملائكة وهو جبريل على أفضل الخلق وهو محمد ﷺ على أفضل أمة أخرجت للناس
 بأفضل الألسنة وأفصحها وهو اللسان العربي المبين، فيجب على كل أحد الإيمان به والعمل
 بأحكامه والتأدب بآدابه، ولا يقبل الله العمل بغيره بعد نزوله، وتكفل الله بحفظه فسلم من
 التحريف والتبديل ومن الزيادة والنقصان كما بينت آنفاً بالأدلة الشرعية.^(١)

وهذا أخونا في الله تعالى فضيلة الشيخ متولي عبد الخالق قد وفقه الله عز وجل أكثر من مرة
 لتفسير كتاب الله جل وعلا وذلك في مسجده، فأشار عليه بعض إخوانه وطلابه أن يفرغ ما من
 المنان به عليه من تفسير القرآن العظيم، فأراد أن يبدأ بأواسط المفصل وأواخره أي جزء عم
 كاملاً، فأحسن بي الظن فأطلعني عليه، وقد استعان بعد الله عز وجل بتفاسير سلفية قديمة

(١) قد استفدت هذه المقدمة بمجموعها وبتصرف من الكتب الآتية :

١- التفسير الميسر من مقدمة الدكتور عبدالله التركي ٢٠- البداية في علوم القرآن للشيخ سامي بن بامي ٣- مختصر-
 الفقه الإسلامي لفضيلة الشيخ/ محمد بن إبراهيم التويجري. ٤- التوجيهات الإسلامية لفضيلة الشيخ محمد

ومعاصرة، وما استعان به من التفاسير الأخرى انتقى منه ما يوافق المنهج الصحيح، وبعد اطلاعي على ما فرغ من تفسيره - وهو هذا الجزء - وجدت بحمد الله تعالى:

صحة اعتقاد - وبعداً عن التحريف - وتجرداً عن الهوى - وعلماً بالحديث النبوي وكذلك بأقوال كثيرين من المفسرين والأصول واللغة العربية، أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، وأسأل الله لي وله ولعموم المسلمين والمسلمات بأسماء ربنا الحسنى وصفاته العلى العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إليه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة والثبات حتى الممات وصحيح السنة بفهم سلف الأمة معتقداً وقولاً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً فإنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى اللهم وسلم وبارك على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين .

وكتبه الراجي عفو مولاه

أبو بكر بن محمد الحنبلي

٩ / ٣ / ١٤٤١ هـ

مقدمة

الشيخ أبي داود يحيى حزة حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد القهار مكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل وهو العزيز الغفار، أنزل إلينا كتاباً حوى الهداية والأنوار ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، تكفل الله بحفظه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أعجز به البلغاء وأخرس به الفصحاء، وتحدى به الأولين والآخرين والسابقين واللاحقين، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، لا تنقضي عجائبه ولا تنتهى مواهبه، من حكم به عدل، ومن أعرض عنه فقد زاغ وضل.

وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، الذى بلغ البلاغ المبين، ونزل على قلبه القرآن العظيم.

أما بعد:

فإن أنفس ما صُرِفَتْ فيه الأعمارُ، وأنفق فيه الليل والنهار، سواء في الحضر والأسفار، العناية بكتاب الله المنزَّل تدبراً وفهماً وحفظاً وتلاوةً واستنباطاً وتفسيراً، حتى صارت المؤلفات في التفسير بالمئات، يدل هذا على عناية علماءنا بالكتاب المنزَّل، فلم يتركوا جزئية أو مسألة إلا ألقوا فيها.

وهنا قولٌ للراغبِ الأصبهاني يدل على شرف التفسير والمفسرين في مقدمة تفسيره، قال: "إن أشرف صناعةٍ يتعاطاها الإنسانُ تفسيرُ القرآنِ وتأويله... وهو أن موضوع التفسير كلامُ الله؛ الذى هو ينبوعُ كلِّ حكمةٍ، ومعدنُ كلِّ فضيلةٍ، وصورة فعله إظهار خفيات ما أودعه منزله من أسرارٍ ليتدبروا آياته وليتذكر ألوا الألباب، وغرضه التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول الى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها، ولهذا عظم الله محله بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قيل: هو تفسير القرآن اهـ."

وفي الصحيح أن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما فقال: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"^(١) حتى صار حبر الأمة وترجمان القرآن وما هذا إلا لشرف التفسير وأهميته.

ولقد تشرفت والله الحمد بالإطلاع على هذا العمل المبارك والجهد المشكور في تفسير (جزء عم) لأخينا فضيلة الشيخ / متولى عبد الخالق حفظه الله ورعاه؛ فوجدت الفوائد الجمة مع الأسلوب السهل الميسر، والنقل الموثق، والعلم المحقق، ولقد فتح الله على فضيلة الشيخ بجهود دعوية ونشاط علمي مبارك في أنحاء شتى وبلدان عديدة مع المعتقد السليم والخلق القويم ولا أزكي على الله أحداً، فاسأل الله لحبيبنا المفضل التوفيق والسداد إلى يوم المعاد إنه سبحانه خير مسؤول وأكرم مأمول وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه راجي عفوره

أبوداود يحيى مسعد أحمد الدمياطي

بتاريخ (٢/٣/١٤٤١هـ)

الموافق (٣٠/١٠/٢٠١٩م)

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٠٣٢)، من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، به.

مقدمة المصنف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ بِكَرَمِكَ

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد:

فإن أعظم ما تقضى فيه الأعمار هو تدبر القرآن الكريم واتباع نوره وهداه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] فأقوم الطرق في العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك والمعاملات وفي كل خير في الدنيا والآخرة يهدي إليه كتاب ربنا جل وعلا، وصدق الله حيث قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.^(١)

وأمر الله سبحانه بتدبر كلامه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، لذا كان سلفنا الصالح يقبلون على تعلم القرآن الكريم علماً وعملاً.

قال عبد الرحمن السلمي رحمه الله: "حدثنا الذين كانوا يقرؤنا القرآن عثمان بن عفان وعبد

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٩٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

الله بن مسعود رضي الله عنه قالوا: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم نجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم فتعلمنا العلم والعمل جميعاً¹.

فمن عظيم نعمة الله علينا أن أكرمنا بالاعتناء بكلام الله تعالى، بتفسيره، والبحث عن معانيه، ومراد الله تعالى من أي الذكر الحكيم، واستنباط أحكامه، والسير في ذلك على طريقة سلفنا الصالح وهي:

تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة فإنها شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له، وقد قال الإمام الشافعي رحمته الله: "كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن" اهـ، ثم بعد ذلك أقوال الصحابة رضي الله عنهم ثم أقوال التابعين، وهذا هو أكمل الهدى وأجمله.

ويتسم تفسير هذا الجزء المبارك جزء عم - الذي نحن بصده - بأنه جمع بين أول سورة أنزلت، وهي سورة العلق، وآخر سورة أنزلت وهي سورة النصر، وتعرض في أكثر سورته للحديث عن البعث بعد الموت واليوم الآخر ومقدماتها من أشراط الساعة الكبرى، وذكر الجنة والطريق الموصل إليها ونعيم أهلها، وذكر النار والطريق الموصل إليها وعذاب أهلها - أجازنا الله منها -.

منهجني في الكتاب:

قمت بوضع مقدمةٍ يسيرةٍ في أول كل سورةٍ؛ يثبت فيها هذه السورة مكية أم مدنية، وعدد آياتها ومناسبتها لما قبلها.

ثم قمت ببيان غريب القرآن وذكرت ما صح من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك مما تيسر من علوم القرآن التي تأتي في ثنایا آيات الكتاب العزيز.

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٣٤٨٢)، وابن أبي شيبة في "مسنده" (٤١٣ / ٢) وغيرهما من حديث أبي عبد الرحمن السلمي، به.

وهذا التفسير أرجو من الله تعالى أن يكون حديقه غنّاء، يجد فيها القارئ الكريم ما ينفعه الله به في سيره إلى الله تعالى وإصلاح عقيدته وعبارته ومعاملاته وأخلاقه وسلوكه .

وقد قمت بالاعتناء جداً بإظهار مسائل الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة من مسائل الإيمان، وأنه قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، وأنه يزيد وينقص، وكذلك الإيمان بوجود الله تعالى، والأدلة على ذلك، والإيمان بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق به جل جلاله على طريقة السلف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وكذلك الإيمان بالوحيته سبحانه وأنه المستحق للعبادة وهذا هو أصل الدين.

ويجد القارئ الكريم في هذا التفسير إن شاء الله ما يزيده إيماناً ويُقرِّبه من الرحمن بأسلوب رائع ممتع سهل مُيسِّر، وكذلك في مباحث الإيمان عموماً من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وكذلك يجد القارئ اعتناءً واضحاً في هذا التفسير بالجوانب الإيمانية، وتركيز النفس، وتعلُّق العبد بربه ومراقبته سبحانه، والتوكل عليه، وحسن الظن فيه، وغير ذلك مما يعتني بطهارة النفس وتركيتها، كيف لا وقد قال ربنا: ﴿وَأَنذَرْتُكَ لَكَ وَلَقَوْمَكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والذكر هنا بمعنى التذكر والاعتبار والاتعاظ وأيضاً بمعنى الشرف.

وكذلك يجد القارئ الكريم في هذا التفسير المبارك تنزيلاً مستفاداً من آيات الذكر الحكيم على واقع الحياة في معاملاته مع الآخرين وفي أخلاقه وعبادته .

وكذلك اعتنيت بإظهار المستفاد من الآيات الكريمات في أبواب الفقه مع عدم الإسهاب المُملِّ ولا الاختصار المُخلِّ، وكذلك بحمد الله بأسلوب سهل مُيسِّر لا يجد أحدٌ صعوبةً في الحصول على الفائدة على اختلاف ثقافات الناس، والحمد لله أولاً وآخراً.

وما يظهر في هذا الكتاب المبارك جلياً: أنني اعتنيت بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم في محله، إذا جاء الحديث عن آيات التقوى، أو المراقبة، أو الصدق، أو الصبر، أو كظم الغيظ، والعفو، والإحسان، والنفقة، وما شابه ذلك، أركز على هذا الموضوع ليستفيد القارئ، فيكون

زاداً بإذن الله تعالى في هذا الباب لعموم المسلمين وللخطباء والوعاظ .
مع الاعتناء بالأحاديث النبوية ولا أذكر إلا حديثاً صحيحاً إلا في النذر اليسير من باب
التنبيه على ضعفه .

ولا أذكر من الإسرائيليات إلا ما صح منها ولا أذكر الضعيف منها إلا من باب التنبيه على
ضعفه .

وكذلك اعتنيت بدرء التعارض الذي قد يظهر لبعض الناس بين بعض آيات كتاب الله
الكريم وأظهرت أقوال الأئمة في تجلية هذا التعارض .
وقد أسميته (نور البيان في تفسير آي القرآن) وأسأل الله أن يجعله حجةً لكاتبه وقارئة بمنه
وفضله

المنهج الذي اعتمدته في العزو والتخريج والحكم على الأحاديث:

أولاً: أقوم بعزو التفسير في الأصل إلى مصادره ومراجعته الأصلية إن وُجد، وربما أزيد في
الحاشية بعض التتمات أو التنبيهات المهمة من كلام المفسرين الذي لا يتسع المقام لذكرها في
الأصل .

ثانياً: أقوم بتخريج الأحاديث والأقوال والآثار من مصادرها الأصلية إن وجدت مع
التوسع في التخريج قدر الحاجة .

ثالثاً: إن كان الحديث في الصحيحين أقتصر على العزو لهما .

رابعاً: لو كان في أحد الصحيحين أذكره وأعزو إلى مصدرين مثلاً معه .

خامساً: لو كان في غير الصحيحين أتوسع في التخريج قدر المستطاع، وأصدّر الحكم أولاً .

سادساً: أقوم بالحكم على الأحاديث بالصحة أو الضعف، ملتزماً بتصحيح أو تضعيف
الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ غالباً .

تنبيه: الحكم الذي أصدره حكم الألباني رحمه الله وليس حكمي، فإن خالف الشيخ الألباني
الأئمة المتقدمين مخالفة واضحة أخذ بقول الأئمة، وإلا فالتزم حكم الألباني رحمه الله، إلا إذا لم
أجد حكماً للألباني رَحِمَهُ اللهُ .

ونظرتُ أحكام الأئمة إن وُجد كالحافظ ابن حجر أو الإمام الذهبي رحمهما الله ونحوهما،

فإن لم أجد نظرتُ كلام أهل العلم المعاصرين من المحدثين، كالشيخ الأرنبوط رَحِمَهُ اللهُ، أو الشيخ مصطفى العدوي أو الشيخ الحويني حفظهما الله، ونحوهم، فإن لم أجد من تكلم فيه نظرتُ في كتب العلل فإن لم أجد مَنْ أَعْلَهُ أو طعن في سنده اكتفيتُ بالتخريج.

الكتب التي أعتمد عليها في اختيارات وجه التفسير :

الحقيقة أنني أطلع كثيراً من كتب التفسير، ولكن هناك كتبٌ تلازمُني دائماً، منها: تفسير ابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، وأضواء البيان للشنقيطي، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي رحمهم الله، مع الاستفادة كثيراً من كتب المعاصرين مثل تفسير أحمد المراغي وابن عثيمين رحمهما الله، والشيخ مصطفى العدوي حفظه الله.

سبب تأليف الكتاب :

أما عن سبب تأليف هذا السفر المبارك: فهذا الكتاب في الحقيقة دروسٌ أَلْقَيْتُها في مسجدي وبحمد الله أتم الله عليَّ ختم كتابه تفسيراً ومدارسه في مسجدي مرةً وأنا الآن في المرة الثانية فأشار عليَّ بعضُ إخواني الأحبة ممن لا أَرُدُّ نصحهم في أن أجمع ذلك في كتاب ينفع الله به المسلمين .

فاستخرتُ الله كثيراً خاصةً وأنا أعلم في نفسي أن هذا الباب العظيم أكبر مني - ولكن حسبي أن الله يعلم مني حسن القصد واتباع الهدى المبارك - هدي القرآن والسنة ما استطعت - ثم استشرتُ كثيراً من مشايخي وإخواني وأحبابي فما كان منهم إلا أن شجعوني .

وبتوفيق الله أولاً وآخرأ أقام إخواني الأعزاء فضيلة الشيخ محمد النشار وفضيلة الشيخ عبد الله الزغبى وفضيلة الشيخ محمد سلامة بتكوين فريق عملٍ تحت إشرافهم، وقاموا بجهدٍ مباركٍ مشكورٍ في تفرغ التفسير وضبطه، وتخريج أحاديثه وتحقيقها على الطريقة المرضية، حتى خرج هذا السفر في أبهى حلةٍ يمكن أن يخرج عليها، فجزاهم الله جميعاً عني خير الجزاء وأعظمه وأكرمه.

ولا أنسى أن أشكر كلَّ مَنْ نظر في هذا الكتاب وأفادني واستفدتُ منه، وأخص بالشكر فضيلة الشيخ الحبيب أبا بكر الحنبلي، وفضيلة الشيخ الحبيب أبا داود يحيى حزه شكر الله جهدهما في مراجعة الكتاب.

فما كان من توفيقٍ فمن الله وحده وهو المشكور، وما كان من خطأٍ أو زللٍ فمن نفسي ومن

الشیطان، وجزى الله من أسدى إلیّ نصیحةً لله تعالى وستر عیباً، ووالله إن هذا الباب من أبواب العلم بابٌ عظیمٌ ولست له بأهل وأنّی لمثلی أن یرکب أهلاً لذلك؟ ولكن حسبي قول القائل:

أسیر خلف ركب النّجب ذا عرجٍ **** مؤملاً كشف ما لا قیة من عوجٍ
 فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا **** فكم لرّب الوری فی ذاك من فرجٍ
 وإن بقيت بظهر الأرض منقطعاً **** فما على أعرجٍ فی ذاك من حرجٍ

ونحمد الله رب العالمین

كتبه

أبو أسامة متولي بن عبد الخالق

منتصف لیل ٨ ربيع الأول

١٤٤١ هـ

٥ نوفمبر ٢٠١٩ م

سُورَةُ النَّبَاِ

سورة النبأ سورة مكية^(١) وعدد آياتها أربعون، نزلت بعد سورة المعارج.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه:

(١) اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا

به .

(٢) أن في هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعاً للمكذبين، فهناك قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ

مَّهِينٍ^(٢٠)﴾ [المرسلات: ٢٠] وهنا قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا^(٢١)﴾ [النبأ: ٦].

(٣) أن في كلٍّ منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون، ويعذب به المكذبون.

(٤) أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك عن يوم الفصل، فهناك قال: ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ^(٢٢)

لِيَوْمٍ الْفَصْلِ^(٢٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ^(٢٤)﴾ [المرسلات: ١٢ - ١٤] وهنا قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ

الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا^(٢٥)﴾ [النبأ: ١٧] إلى آخر السورة^(٢٦).

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (٨ / ٣٨٩) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن

ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما

قال: أنزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ بمكة، وقال ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٢٣) وهي مكية بإجماع،

وقال الشوكاني في " فتح القدير " (٥ / ٤٣٧) وهي مكية عند الجميع، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن

مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت عم يتساءلون بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير

مثله.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٣)

فائدة في الفرق بين القرآن المكي، والمدني، وضابط ذلك:

كما هو متقرر فثم فرق بين القرآن المكي، والقرآن المدني، فلكل منهما طابع خاص يميزه عن الآخر، فبالنظر إلى سورة البقرة كسورة مدنية، فهي مليئة بالأحكام، والآداب، وما فيها من أوامر ونواهي، أما القرآن المكي فيتكلم عن البعث بعد الموت، ويتكلم عن تصحيح العقيدة، ويذكرنا بالجنة والنار، ويمتاز بقصر آياته، فالآيات المدنية طويلة،

والضابط الفاصل بين المكي والمدني هو الهجرة النبوية، فكل ما كان قبل الهجرة من قرآن كان مكياً، وما كان بعد الهجرة كان مدنياً، فمثلاً قول الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] هذه الآية نزلت في مكة، في الحج، ولكن العلماء يصنفونها في القرآن المدني؛ لأنها نزلت بعد الهجرة النبوية، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن طارق بن شهاب، قال: قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ يَهُودَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] نَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ، لَا تَخْذُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ، وَالسَّاعَةَ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ، «نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْرَفَاتٍ» وفي رواية البخاري قال " وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ " ^(١) وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهي مدينة بإجماع. ^(٢)

(١) (متفق عليه) أخرج البخاري في " صحيحه " (٤٦٠٦)، ومسلم في " صحيحه " (٧٦٢٩) واللفظ لمسلم

(٢) ينظر القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٣٠ / ٦)، والشوكاني في " فتح القدير " (٥ / ٢) قال القرطبي:

هي مدينة بالإجماع. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: المائدة مدنية.

في هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ^(١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ^(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ^(٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ^(٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ^(٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا^(٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا^(٧) وَخَلَقْنٰكُمْ أَرْوَاجًا^(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا^(٩) وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا^(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا^(١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا^(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا^(١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا^(١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا^(١٥) وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا^(١٦)

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ^(١)﴾ عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث بعد الموت، وينكرون نبوة النبي محمد ﷺ، ويكذبون بالقرآن^(١)

﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ^(٢)﴾ يتساءلون عن النبأ العظيم، وقد ورد في المقصود بـ(النَّبَاِ الْعَظِيمِ) أكثر من وجه في التفسير منها:

الوجه الأول: النبأ العظيم هو: القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَرُ^(١٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ^(١٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ^(١٨)﴾ [ص: ٦٦ - ٦٨]، فأعظم نبأ في الحياة كلها، هو القرآن الكريم لأنه كتاب الله جل جلاله، ولذلك قال ربنا تعالى نصاً صريحاً: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ^(١٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ^(١٨)﴾، وقد روي هذا القول عن ابن

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٥) عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون بالله ورسوله من قريش يا محمد؟ وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أن قريشا جعلت فيما ذكر عنها تختصم وتتجادل، في الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعث، فقال الله لنبيه: فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون؟، وينظر أيضاً "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ١٧٠) و"النكت والعيون" للماوردي (٦ / ١٨٢) والوجيز" للواحيدي (ص: ١١٦٥)

عباسٍ رضي الله عنه، ومجاهدٍ، وغيرهما، قال الواحدي: هو القرآن في قول الجميع،

ويدل على أن المراد به القرآن، قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾^(١) وذلك أنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم كهانةً وشعراً، وبعضهم أساطير الأولين.^(٢)

الوجه الثاني: قيل النبأ العظيم هو: البعث بعد الموت، وقال به قتادة.

الوجه الثالث: قيل هو: يوم القيامة، وقال به ابن زيد.

الوجه الرابع: كذلك قيل هو محمد ﷺ.^(٣)

والناس كانوا يتنازعون في هذا، فالكفار ينكرون ذلك، فينكرون البعث بعد الموت، وبعض النصارى يثبت البعث الروحاني للروح فقط، لكن لا يثبتون بعث الأجساد، فينكرون ذلك ويكذبون به، وأيضا يكذبون بالقرآن، ويكذبون بنبوة النبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ^(٥) [النبأ: ٢-٣] وهذه الآية جعلت بعض أهل العلم - كيحى بن سلام - يقولون: الذين يتساءلون عن النبأ العظيم هم مسلمون، وذلك لأن المسلمين كانوا يؤمنون بهذه الثلاث كلها وأما الكفار فكانوا مكذبين بها، فالكفار ما اختلفوا في القرآن، بل كانوا يكذبون به وكذلك البعث والنبوة كانوا يكذبون بها.^(٦)

(١) ينظر "الوسيط" للواحدي (٤/ ٤١١)، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٧٠)، البغوي في "تفسيره" (٨/ ٣٠٩) وقال الشوكاني في "فتح القدير" (٥/ ٤٣٨)

(٢) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٨٢)، و"جامع البيان" للطبري (٢٤/ ٥) و"الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ١٩١) وغيرهما.

(٣) قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ فِي "النكت والعيون" (٦/ ١٨٣) وفيه قولان: أحدهما: أنه اختلف فيه المشركون من بين مصدق منهم ومكذب، الثاني: اختلف فيه المسلمون والمشركون، فصَدَّقَ به المسلمون وكَذَّبَ به المشركون. قاله يحيى بن سلام. وانظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٤/ ٣٨٨) و"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" للزمخشري (٤/ ٦٨٥) و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٠٢)

والقول الأرجح: أنها في شأن الكفار كما وردت أقوالهم عن القرآن الكريم فمنهم من كان يقول إنه سحرٌ، ومنهم من كان يقول عنه كلامٌ بشرٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار، وبه يندفع ما قيل إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين، فإنه إنما يتوجه الردع، والوعيد إلى الكفار فقط. (١)

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ إبطال لما تقدم، وردعٌ، وزجرٌ أيضاً، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ذكر الله الأدلة على قدرته على بعث الخلق بعد الموت، ومنها إحياء الأرض بعد موتها، فالله جل جلاله يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ من الذي جعل الأرض ممهدة قارةً بأهلها، يمشون، ويذهبون، ويحيئون عليها؟ هو الله الواحد الأحد. ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ الله تعالى خلق الأرض، ولما خلقها جعلت تميد، وتضطرب بأهلها، فخلق الجبال فأرساها، كما قال تعالى ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢] أي سكنت الأرض، واستقرت بالجبال؛ ولذلك قال رب العالمين: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ يعني: الجبال بالنسبة للأرض كالوتد الذي يدق في الأرض ويربط فيه الجبل لاستقرار الحيمة وما شابه، وكذلك الأرض استقرت، وثبتت، وسكنت؛ بخلق الجبال فيها.

﴿وَخَلَقْنَاهُمْ أَزْوَاجًا﴾ هذه الآية في تفسيرها وجهان محتملان عند أهل العلم بالتفسير: **الوجه الأول:** وخلقناكم أزواجاً أي ذكراً وأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَ

(١) ينظر الشوكاني في "فتح القدير" (٥ / ٤٣٩).

(٢) وهذا المعنى هو التي تدل عليه السياقات القرآنية، وقد ورد في حديثٍ، أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٦٩)، وأحمد في "مسنده" (١٢٢٥٣)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٢١٣)، والبيهقي في "الشعب" (٣١٦٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به. وضعفه الألباني في "ضعيف سنن الترمذي" (٤٧٧٠).

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فالله تعالى خلق المخلوقات ذكراً وأنثى.

الوجه الثاني: وخلقناكم أزواجاً يعني أصنافاً، فمنكم الغني، ومنكم الفقير، منكم القوي، ومنكم الضعيف، منكم العالم، ومنكم الجاهل، منكم الأبيض، ومنكم الأسود، ومنكم دون ذلك، وهكذا أصنافاً.

قال الرازي رحمه الله: المراد منه كل زوجين وكل متقابلين من القبيح، والحسن، والطويل، والقصير، وجميع المتقابلات، والأضداد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وهذا دليلٌ ظاهرٌ على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان، فيتعبد الفاضل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويتعرف حقيقة كل شيء بضده، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف، فيكون ذلك أبلغ في تعريف النعم. ^(١)

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ سباتاً: يعني قطعاً للحركة؛ هدوءاً واستقراراً وطمأنينةً وفيه أربع تأويلات حكاهما الماوردي وغيره:

أحدها: نعاساً. **الثاني:** سكوناً.

الثالث: راحةً ودعةً، ولذلك سمي يوم السبت سبتاً لأنه يوم راحة، ودعة، قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقال سَبَتَ الرجل إذا استراح.

الرابع: سباتاً أي قطعاً لأعمالهم، لأن أصل السبات القطع ومنه قولهم سبت الرجل شعره إذا قطعه، قال الأنباري: وسمي يوم السبت لانقطاع الأعمال فيه.

(١) ينظر " مفاتيح الغيب " للرازي (٣١ / ٩).

ويحتمل **خامساً**: أن السُّبَّات ما قَرَّت فيه الحواس حتى لم تدرك بها الحس.^(١)
فالنوم آيةٌ عظيمةٌ من آيات الله؛ تدل على عظمته، وقدرته، وتدُل على قدرة الله على البعث بعد الموت.

ولولا النوم لهلك الناس، فالإنسان يعمل، ويذهب، ويحجى، ثم يضعف، ويتعب، فيأتيه النوم يقطع هذا التعب، فيستريح، وتتجدد قواه، ويكون نشيطاً، كي يعاود العمل في هذه الحياة مرةً أخرى.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ جعل الله تعالى الليل يغطي الناس بظلامه، مثل اللباس الذي يلبسه الإنسان، وهذا فيه منةٌ عظيمةٌ على العباد، والمعنى: أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو، أو بيتاً له، أو إخفاءً ما لا يجب الإنسان إطلاع غيره عليه، فالإنسان الذي يريد العبادة؛ يقوم بعيداً عن الناس لكي لا يراه أحدٌ، كذلك إنسانٌ خائفٌ من ظالمٍ يفر بالليل منه، ويهرب ليستر نفسه عن العيون، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عَالٍ لُّوطٌ نَّحْنِيْنَهُمْ بِسَحْرِ﴾ [القمر: ٣٤] نجاهم الله عز وجل في وقت الليل، كذلك في الليل يسكن الحبيب إلى حبيبه، ويأوي إليه، وكذلك كان الحبيب ﷺ، إذا أراد أن يغزو قوماً، يُغير عليهم بالليل ولا يغزوهم إلا الفجر، يعني يذهب إليهم بالليل حتى إذا طلع الفجر يغزوهم ﷺ، كما روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بَنَاءَ قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بَنَاءَ حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْرٍ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ^(٢)

(١) ينظر الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ١٨٣)، و"مفاتيح الغيب" للرازي (٩/ ٣١)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠) وأخرجه مسلم في "صحيحه" (١٣٦٥) وأخرجه الترمذي في "سننه" بلفظ " (١٧١٣) " لَا يُغِيرُ إِلَّا عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ "، وأحمد في "مسنده" (١٢٦١٨) ولفظه

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وجعلنا النهار مضياً مشرقاً لمعيشكم، تذهبون، وتحيئون، وتعملون، وتسافرون، وكل ذلك لصالح معاشكم.

﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ شداداً أي: قوية، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] فالسماء محكمة قوية أحكمها رب العالمين سبحانه جل جلاله، وسبعاً أي: سبع طباق، طبقة فوقها طبقة فوقها طبقة، وهكذا، والسموات السبع أكبر، وأعظم من خلق الإنسان، وخلق الأرض، وقد قرر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن الخلق كلما علا ارتفع، واتسع، وكبر، ومعنى ذلك أن السماء الأولى أكبر من الأرض والسماء الثانية أكبر من الأولى والأرض كذلك، والسماء الثالثة أكبر من السماء الأولى والثانية والأرض وهكذا، تبارك الله رب العالمين.^(١)

وقفة: قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] آية باهرة عظيمة تدل على عظمة الله، فأكبر مهندس في الأرض إذا أراد أن يبنى بيتاً؛ فلا بد لسقف البيت أن يكون له أعمدة تحمله، وتحمل هذا البيت، أما السماء؛ هذه الآية العظيمة التي خلقها الله، آية يراها العباد مرفوعةً بغير عمد يرونها كما قال العظيم جل جلاله وتباركت أسماؤه.

فائدة في الاستدلال بأن القادر على الخلق قادرٌ على البعث من باب قياس الأولى:

الآيات الماضية من أول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبأ: ٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] استدل بها أهل العلم على قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت، فالذي أنشأ الأرض، ومهدّها، وهيأها، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبأ: ٦-٧]، ثم قَرَّبَ ذلك للأذهان بذكر ما يرون حياته بعد موته

"لَمْ يَعْزُبْنَا لِيَأْخُذْ بِصَبْحٍ"، وغيرهم من طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) ينظر "التفسير" ابن كثير (٨/ ٣٠٣)

وهي الأرض تحيا بنزول الماء عليها، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۖ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبا: ١٤-١٥] فكما أن الله العظيم يحيي الأرض بعد موتها، فهو قادرٌ سبحانه أن يحيي الإنسان بعد موته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَلِشَةً ۖ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۖ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ ۖ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقفه: الله سيميتنا ثم يحيينا بعد الموت، وبعثنا أهون عليه من خلقنا في أول مرة، ثم نعرض عليه تعالى، ويحاسبنا، فالمحسن يفوز فوزاً عظيماً، والمسيء يخسر خسراناً مبيناً نسأل الله العافية والسلامة.

وأيضاً يُستدلُّ بقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: الذي خلق الإنسان قادرٌ على أن يحييه مرةً أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه، تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].^(١)

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ استدلالٌ على قدرة الله على البعث بعد الموت، وكما أخبر الله تعالى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] وقد جاء في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ، قَالَ: «بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا» وَإِذَا قَامَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" ابن كثير (٥/ ٢٥١)

بَعْدَ مَا أَمَاتْنَا وَإِلَيْهِ الشُّورُ^(١)، فالإنسان عندما ينام ، وعندما يستيقظ، يتذكر الموت والبعث ، فالنوم أخو الموت، والله تعالى يميت الخلائق ويفنيها ، ثم يبعثها وقتما يشاء سبحانه وتعالى .
قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: دلهم على قدرته على البعث، أي: قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة.^(٢)

ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾^(٣) وهي هذه الشمس العظيمة، فأشار الله تعالى بقوله: (سِرَاجًا) إلى نورها فيمتن الله عز وجل على عباده بأن جعل الشمس تنير الكون، وبقوله: (وَهَّاجًا) أشار إلى حرارتها وإلى المنافع التي تحصل من الشمس من ضوءها وحرارتها.
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٤) للعلماء في قوله تعالى: (الْمُعْصِرَاتِ) أوجه:

الوجه الأول: بعض العلماء قال: المعصرات هي السماء، قاله الحسن وقتادة.

الوجه الثاني: وبعضهم قال: المعصرات هي الرياح، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة.

الوجه الثالث: وبعضهم قال: المعصرات هي السحاب المحملة بالماء، قاله سفيان والربيع، وهذا هو القول الأصح؛ لأن الغيث منها كما هو معروف، ولو قال تعالى بالمعصرات لكان الريح، والله أعلم.^(٥)

فالله تعالى أنزل من السحاب ماءً، وسقاه العباد، وأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج به من صنوف الزروع، والثمار، والنبات، والحبوب، وغير ذلك مما فيه نفع للإنسان، والحيوان.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٦) ثجاجاً أي: متتابعاً كثيراً، وقد روى أبو

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣١٢) واللفظ له، ومسلم في " صحيحه " (٦٩٨٦)

وغيرهما، من حديث البراء رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩ / ١٧١)، و " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥ / ٤٢٤)

(٣) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦ / ١٨٤)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩ / ١٧٣)

داود في سننه عَنْ هَمَّةَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْتَفْتِيهِ وَأُخْبِرُهُ، فَوَجَدْتُهُ فِي بَيْتِ أُخْتِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا قَدْ مَنَعْتَنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ قَالَ: أَنْعْتُ لَكَ الْكُرْسُفَ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ الدَّمُ قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: فَاتَّخِذِي ثَوْبًا فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا أَتَّجُ ثَجًّا" ^(١) يعني ينزل الدم بكثرة متتابعاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فالشاهد أن ثجاً جاً في الآية يعني: ماءً كثيراً متتابعاً.

وقفة: ونحن نرى الناس عندما ينزل المطر كأنه غنيمةٌ -وهو كذلك- لأن هذا المطر الذي ينزل من السماء به حياة الإنسان، والحيوان، والنبات، وصدق الله حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ونحن نرى الحروب الآن تقوم على المياه، ولو أمسك ربنا المطر عن عباده هلك الناس - نسأل الله العافية والسلامة -.

﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ومن آياته الباهرة أنه سبحانه ينزل الماء من السماء، لينخرج به حَبًّا وَنَبَاتًا، فالحبُّ مثل الحنطة، والأرز، والذرة، والشعير، وغير ذلك، والنبات هو الأخضر الذي يكون فيه طعامٌ للحيوان، وكذلك للإنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: يخرج الله بهذا الماء جناتٍ أي: حدائق عظيمة، والجنة يُقال لها جَنَّةٌ إذا جَنَّتْ مَنْ بداخلها أي سترت الذي يدخلها، وَجُنَّتْ أي: تستره فلا يظهر لمن بخارجها، يعني تحيط بها الأسوار، أو الأشجار الكبيرة العالية، فيقال لها جنة، (ألفافاً) ^(٢) أي:

(١) (حسن) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٨٧) وأحمد في "مسنده" (٢٧٤٧٤) والترمذي في "سننه" (١٢٨)،

وابن ماجه في "سننه" (٦٢٢) وحسن الالباني في "صحيح سنن أبي داود" (٢٨٧)

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في "النكت والعيون" (٦ / ١٨٤) فيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** أنها الزرع المجتمع بعضه إلى جنب بعض، قاله عكرمة. **الثاني:** أنه الشجر الملتف بالشمر، قاله السدي. **الثالث:** أنها ذات الألوان، قاله

ملتفةً مُحَدِّقَةً، محيطَةٌ بهذه البساتين.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ ﴿١٩﴾ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٢٠﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢١﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٢﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿٢٣﴾ لِّلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٤﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا خَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٦﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٩﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣١﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾﴾ لما ذكر مولانا فيما سبق آياته الباهرة الدالة على قدرته العظيمة والتي تدل على أنه رب العالمين، وأنه يحيي الأرض بعد موتها، وأنه يحيي الإنسان، ويميت الخلق، وأنه قادرٌ على إحيائهم مرةً أخرى بعد موتهم^(١)، وذكر بعض نعمه، ذكّر العباد بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾﴾ لكيلا يغفلوا عن هذا اليوم الذي خلقهم لأجله.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾﴾ إن يوم القيامة كان ميقاناً أي: محددًا بوقتٍ لا يتقدم ولا يتأخر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

الكلبي، ويحتمل رابعاً: أنها التي يلف الزرع أرضها والشجر أعاليها، فيجتمع فيها الزرع والشجر ملتفات. وانظر "مفاتيح الغيب" للرازي (٩ / ٣١)

(١) قال ابن عاشور رحمه الله في "التحرير والتنوير" (٢٥ / ٣٠) استدلال بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات وجعلها منشأً شبيهاً بحياة بعد شبيه بموت أو اقتراب منه ومنشأً تخلق موجودات من ذرات دقيقة. وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتنبت الأرض به سنابل حب وشجرا، وكلاً، وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة الإنسان والحيوان وهي حياة النماء فيكون ذلك دليلاً للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شبه إحالة البعث.

[الحج: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 [غافر: ٥٩] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]،
 وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] فهذه خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل.

و سمي الله يوم القيامة يوم الفصل، لأن الله يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل^(١)؛ فأحياناً يكون الذي يفصل بين الناس في الدنيا كافر أو ظالم، أما يوم القيامة فهو يوم الفصل، يفصل مولانا بين أهل الايمان وبين أهل الكفر، بين المصلحين وبين المفسدين، بين المظلوم والظالم، فيقتص من الظالم للمظلوم، بل يفصل الله بين البهائم العجماوات، كما جاء عند الإمام أحمد في مسنده عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَتَطَحَّانِ، فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ تَتَطَحَّانِ؟" قَالَ: لَا. قَالَ: "لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا"^(٢)
وقفة: فينبغي على المؤمن أن يطمئن إذا ظلم في الدنيا وكانت له قضية حُكِمَ فيها بالظلم،

(١) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥ / ٤٢٥) وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (١٩ /

١٧٥) أَي وَقْتًا وَمَجْمَعًا وَمِعَادًا لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْثَوَابِ..

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٤٣٨) وأبو داود الطيالسي في "مسنده" (٤٨٢) وعبد الرزاق في "التفسير" (٧٨٧) وابن أبي الدنيا في "الأهوال" (١٨١) وأبو بكر الشافعي في "الغيلانيات" (١١٢٤) من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الالباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٤ / ١١٧)، وله شاهد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٦٧٢)، والترمذي في "سننه" (٢٤٢٠) وأحمد في "مسنده" (٧٩٩٦) (٩٣٣٣) وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٦٣) وغيرهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءُ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنََاءُ."

فليطمئن قلبه، ولتهدأ نفسه، فسيعاد الحكم أمام ملك الملوك، يفصل فيها بالحق جل جلاله، وتقصدت أسأؤه.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨) أي: جماعاتٍ، والصور: قرنٌ ينفخ فيه، فقد روى الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ التَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْعَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفَخَ فَيَنْفَخُ». ^(١)

وقفة: متى قال الرسول ﷺ هذا الحديث؟ قاله منذ زمن بعيدٍ من أكثر من ألفٍ وأربعمائة وثمانٍ وثلاثين عاماً، قالها الرسول - ﷺ -؛ ونحن وكأنا آمنون، كأن الدنيا عندنا آلاف وملايين السنين، وهو ﷺ منذ أربعة عشر قرناً كان يتهيب يوم النفخ في الصور.

فالسعيد الذي يوفق للعمل الصالح، ويعلم أن الدنيا ما هي إلا أنفاسٌ، أنفاسٌ تخرج لا تعود، النفسُ الذي يخرج من العبد لا يرجع، فالدنيا هكذا ساعاتٌ، ودقائقٌ، وثوانٍ، والسعيد الذي يسابق غيره في فعل الخيرات، ويغنم وقته.

فائدة في دفع تعارضٍ ظاهري:

قال ربنا تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨) كيف يُجمع مع قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَانِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٢٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا (٩٥) [مريم: ٩٣-٩٥]

قال علماؤنا: يأتون أفواجا وقت النفخ في الصور، ووقت الخروج من القبور، لكن عند لقاء

(١) (صحيح) أخرجه والترمذي في "سننه" (٣٢٤٣)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٧٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٨٢٣)، وأحمد في "مسنده" (١١٠٣٩) والحاكم في "مستدركه" (٨٩٠٣) وغيرهم، من حديث أبي سعيد، به، صححه الألباني في "الصحيحه" (٦٦ / ٣) وقال: روي من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وزيد بن أرقم وأنس بن مالك وجابر ابن عبد الله والبراء بن عازب رضي الله عنهم.

مولانا للحساب والعرض فكل واحد يأتي بمفرده^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ كل هذا يوم الفصل ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا أي أن السماء الشديدة المحكمة غاية الإحكام تُفْتَحُ، وتصير - من كثرة الأبواب التي تفتح - كأنها كلها أبواب، لماذا؟

قال علماء التفسير: أصبحت السماء طرقاً لنزول الملائكة، والملائكة كثير لا يعلم عددهم إلا الله، فقد روى الترمذي في سننه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَطْطَّ فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاصِعٌ جَبْهَتُهُ لِلَّهِ سَاجِدًا، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْصَدُ^(٢).

وقال النبي ﷺ عن البيت المعمور - وهو في السماء السابعة باتجاه الكعبة - فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَاتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنِيِّ، فَرَفَعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ " فكل يوم يدخل البيت المعمور، ويطوف به سبعون ألف ملك. فقول ربنا تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] يعني: تنزل ملائكة

(١) مصطفى العدوي في "التسهيل" (٢٥/٣٠)

(٢) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣١٢)، وابن ماجه "سننه" (٤١٩٠)، والبخاري في "مسنده" (٣٥٢٤)، والحاكم في "المستدرک" (٥٤٤)، والبعوي في "شرح السنة" (٤١٧٢) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، به. وحسنه الألباني في "الصحيحة" (١٧٢٢)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٧) ومسلم في "صحيحه" (٣٣٥) وغيرهما، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، به. وانظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٧٦)

السماء الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة في منظرٍ مهيبٍ، وقد ورد أن أهل المحشر من الإنس، والجن، والطير، والدواب، وجميع الخلق يقفون، وينزل أهل السماء الأولى وعددهم أضعاف الخلق فيحيطون بهم، وينزل أهل السماء الثانية وعددهم أضعاف المخلوقين السابقين قبلهم، ويحيطون بالخلق، وهكذا ينزل كل ملائكة السماء يحيطون بما قبلهم، كما روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ وَتَنْشُقُ السَّمَاءُ الدُّنْيَا فَيَنْزِلُ أَهْلُهَا وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ فَيَحِيطُونَ بِالْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَبِجَمِيعِ الْخَلْقِ ثُمَّ تَنْشُقُ السَّمَاءُ الثَّانِيَةَ فَيَنْزِلُ أَهْلُهَا وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ أَهْلِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ فَيَحِيطُونَ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلَهُمْ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ، ثُمَّ تَنْشُقُ السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَيَنْزِلُ أَهْلُهَا وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ أَهْلِ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالسَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَيَحِيطُونَ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلَهُمْ وَبِالْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ، ثُمَّ كَذَلِكَ كُلُّ سَمَاءٍ حَتَّى تَنْشُقَ السَّمَاءُ السَّابِعَةَ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ نَزَلَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَيَحِيطُونَ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلَهُمْ وَبِالْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَرَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَحَوْلَهُ الْكَرُوبِيُّونَ وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ هُمْ قُرُونٌ كَأَكْغَبِ الْقَنَا، وَهُمْ تَحْتَ الْعَرْشِ هُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْخِجِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا بَيْنَ أَخْصَصٍ قَدِمَ أَحَدِهِمْ إِلَى كَعْبِهِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كَعْبِهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى أَرْبَتَيْهِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ أَرْبَتَيْهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ تَرْقُوتِهِ إِلَى مَوْضِعِ الْقُرْطِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَجَهَنَّمُ مُجْتَمِعَةٌ»^(١)

(١) (سنده قوي) أخرجه أسد بن موسى في "الزهد" (٥٢) والحاثر بن أبي أسامة في "مسنده" (١١٢٢)

والحاكم في "المستدرک" (٨٦٩٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٥٠٨٩). وقال الذهبي في "التلخيص"

وقفه: سبحانه ربنا يا من هذا بعض خلقك وأحطت به علماً ولا يخفى عليك شيء من أعمال عبادك!

ربنا على العرش استوى، ولا تخفى عليه الذرة، يسمع ويرى النملة السوداء في الليلة الظلماء، ولا تختلف عليه الأصوات؛ يعلم السر وأخفى من السر، لذلك على العبد أن يعلم أنه ملاق ربه، وأنه سيُعرض عليه، وأن السرَّ عنده علانية؛ فمهما أخفى العبد على الناس فالله يعلمه، فعليه أن يسارع في الخير ما استطاع.

قال تعالى: ﴿وُسِّيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ سبحانه الله العظيم! ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] فهذه الجبال الرواسي تُسير فتصير هباءً، ﴿وُسِّيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فكما أن الظمان في وقت الظهيرة يرى من بعيد ماءً، وإذا ذهب، ووصل إليه لا يجده شيئاً، فكذلك الجبال تحسبها جامدةً، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، فتمرُّ مروراً وتسير تسييراً بقدرة الله القدير العظيم، وتحملها الرياح وتذهب بها إلى حيث شاء الله.

وقد ذكر الإمام الماوردي رحمه الله أحوال الجبال المذكورة في القرآن فقال:

اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله:

أول أحوالها: الاندكاك وهو قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

والحالة الثانية لها: أن تصير كالعهن المنفوش، وذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ

كما في "المستدرک" (٨٦٩٩) (إسناده قوي) قال الحويني في "الزهد" لأسد بن موسى (٥٢) (إسناده قوي).

النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ [القارعة: ٤ - ٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝﴾ [المعارج: ٨ - ٩].

والحالة الثالثة: أن تصوير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

والحالة الرابعة: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة فتتسلف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبارٌ فمن نظر إليها من بُعدٍ حسبها لتكاثفها أجساماً جامدةً وهي في الحقيقة مازّة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها صيرها مندكةً متفتتةً، وهي قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [النمل: ٨٨]، ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ٤٧].

الحالة السادسة: أن تصوير سراباً، بمعنى لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بُعدٍ إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾ [النبأ: ٢٠] والله أعلم.^(١)

وقفه: الذين يسافرون بسياراتهم يرون آيات الله باهراتٍ، فينظرون للجبال ويقولون: سبحان من خلقها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

(١) ينظر "مفاتيح الغيب" للرازي (٣١ / ١٣ / ١٤)

فُتِّلِفًا أَلْوُنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوُنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ [فاطر: ٢٧]
 سبحانه من خلق فسوى، وقدر فهدى جل جلاله!، هذه الجبال الرواسي العظيمة إذا جاء أمر الله
 بزوال الدنيا تُزال، وتُخلع عن أماكنها، وتُدكُّ، **(﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
 وَاحِدَةً ﴿٢٨﴾﴾** [الحاقة: ١٤] وأيضا تصير كالعهن ثم تسير.

قال تعالى: **(﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٩﴾﴾** أي: مُعَدَّةٌ ترصد الكفار وترصد من يقع فيها،
 لأن العبد المؤمن لن يدخل الجنة حتى يجوز النار، فالنار مثل البحر، وينصب جسر على هذا
 البحر: وهو الصراط، ثم بعد الصراط جنة النعيم، فلا يدخل أحدُ الجنة حتى يجوز الصراط،
 فيأتي العبد ويُمَرُّ على الصراط؛ فإن كان من أهل النار وقع فيها، وينجو أهل الإيمان، وقال
 الحسن، وقتادة في قوله: **(﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٩﴾﴾** يعني: أنه لا يدخل أحدُ الجنة حتى يجتاز
 بالنار، فإن كان معه جوازُ نجا، وإلا احتبس.^(١)

(﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٩﴾﴾ مرصاداً كالرَّصَد الذي يَرُصُّ عدوّه ليأخذه، فهكذا النارُ
 ترصد للنصارى، وترصد لليهود، وترصد للبوذيين، وترصد أعداء الله، وتوقعهم فيها،
 فيعذبون، نسأل الله النجاة والعافية.

وبعض أهل العلم من أهل التفسير - كالرازي - قال " أن مجاز المؤمنين وممرهم كان على
 جهنم، لقوله تعالى: **(﴿وَأَنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾** [مريم: ٧١]،
 فَخَزَنَةُ الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم، ويرصدونهم عندها، " فالمؤمن بإذن الله آمن يوم
 القيامة، وتلك كرامةٌ من الله - نسأل الله ان يجعلنا من عباده الصالحين -.^(٢)

(﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٩﴾﴾ لمن؟ **(﴿لِّلطَّاغِيَةِ مَعَابًا ﴿٣٠﴾﴾** الطاغون الذين ظلموا وطمعوا

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٢١) و " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير وقال: (٨ / ٣٠٥)

(٢) ينظر " مفاتيح الغيب " للرازي (٣١ / ١٤)

وتجاوزوا حدهم، فهذا هو الطاغى الذي تترصده النار، كانت له مآباً أي: مرجعاً يؤوب ويرجع إليه، لاثنين فيها كم؟ عشرة سنوات؟ ألف عام؟ مائة ألف عام؟

قال الله عز وجل (أَحْقَابًا)، أكثر أهل العلم على أن أحقاباً جمع حقب والحقب: ثمانون عاماً،^(١) والعام اثنا عشر شهراً، والشهر ثلاثون يوماً، واليوم مقداره ألف عام، نسأل الله العافية.

﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾^(٢) فهل يخرجون بعد هذه الأحقاب؟ لن يخرجوا؛ فأهل النار الذين هم أهلها لا يخرجون منها أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾^(٣) [السجدة: ٢٠]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾^(٤) [طه: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥) [النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٦) [المائدة: ٣٧] - نسأل الله أن يجيرنا من النار، ومن عذابها -

(١) (صح هذا عن جمع من الصحابة) كما أخرج الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٤) وأخرجه سعيد بن منصور في "التفسير" (٢٤٧ / ٨)، وهناد في "الزهد" (٢١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: الحقب: ثمانون سنة والسنة: وثلاثمائة يوم، واليوم: ألف سنة وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في قوله: ﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، قال: الحقب الواحد: ثمانون سنة، ونحوه عن ابن عباس وعلي وابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهلal الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وصح كذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه، أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٣٩٣٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] قَالَ: «الْحَقْبُ ثَمَانُونَ سَنَةً هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» وصححه الذهبي. وانظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٣٠٦ / ٨) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٧٩ / ١٩) حيث ذكر خلاف العلماء فيه

وبعض السادة العلماء - كالزجاج - قالوا في قوله تعالى: ﴿لَيْشِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ٣٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٣٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٣٥﴾ يلبثون أحقاباً في هذا العذاب، ثم يُلَوَّنُ لهم عذابٌ آخر وشكلٌ آخر وصنفٌ آخر، كما قال الله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ٣٦ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ٣٧﴾ [ص: ٥٧- ٥٨] يعني: أصناف - نسأل الله العافية والسلامة - ٣٨
﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٣٩﴾ لا يشعر أهل النار بالبرد، ولا يذوقون ذرة بردٍ تُبَرِّدُ أجوافهم، أو جلودهم، وأيضا لا يذوقون ريحاً بارداً ولا ماءً بارداً.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٤٠﴾ والحميم هو الماء الذي انتهى غليانه، إلى أقصى درجات الغليان، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ٤١﴾ [محمد: ١٥] فيُقطَّعُ الأمعاء، وقبلها يشوي الوجوه، والغساق هو: صديد أهل النار، فأهل النار يُعَذَّبون فيها حتى الشواء فيسيل منهم الصديد أوديةً، وعندما يعطشون يشربون من هذا الصديد، لشربهم الحرام في الدنيا، فكم شربوا الخمر، وغيره من المحرمات، وطغوا على حدود ربهم.

فلذلك قال الله عز وجل: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا ٤٢﴾ فما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، جزاء كفرهم، وعتوهم على الله.

قال ربنا تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٤٣﴾ كانوا لا يؤمنون بيوم الحساب ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ٤٤﴾ أي إنهم كذبوا بآيات الله تكذيباً وراء تكذيب، هذا من شدة عداوتهم، وعظم كفرهم.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ٤٥﴾ أي: كل شيء مكتوبٌ عند الله، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٤٦﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٧﴾ [الحاثية: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى أيضا: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ ﴿١٩﴾ [القمر: ٥٣] بمعنى: كل كبيرة وكل صغيرة حتى ولو كان أمراً على سبيل اللهو والمزاح، فكل صغير وكبير مُسْتَطَرٌّ عند الله سبحانه وتعالى، وقال ربنا أيضا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْخَفِيزِينَ ﴿٢٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١] وقال أيضا: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿٢١﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٢٢﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، ثم بيّن ربنا مشهد الحسرة للكافر حينما ينظر في كتابه يوم القيامة، بقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لِي هَذَا أَلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۖ وَلَا يَظِلُّمُ لِرَبِّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الكهف: ٤٩]، يعني: ما وضعنا سيئةً زيادةً عليه، إلا الداعي للمنكر الذي يدعو للحرام، ويدعوا لنشر الفساد، ويدعوا لنشر الزنا والربا، ويدعوا لنشر الرعب في أوساط المسلمين، ويُعَلِّمُ غيره ذلك، فأولئك يزداد عليهم، والزيادة من كسبهم، فكما جاء عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١)، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٢٥﴾ قال أهل العلم عن هذه الآية: هي أشد آية في القرآن على الكافرين، كما روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لم تنزل على أهل النار آيةً أشدَّ من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٣١٤) والترمذي في "سننه" (٢٦٧٥)، وابن ماجه في "سننه"

(٢٠٣) وأحمد في "مسنده" (١٩١٥٦) وغيرهم، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

عَذَابًا ﴿٣٦﴾ قال: فهم في مزيدٍ من العذاب أبداً. ^(١).

وهذه الآية تدل أيضاً على أن النار لا تفتنى، ولا يفنى أهلها، فالنار باقيةٌ أبد الآباد - نسأل الله العافية -.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٧﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٩﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٤٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٤١﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٤٢﴾﴾

وإذا ذكر مولانا في القرآن عذاب أهل النار، فمن عاداته أن يذكر الطريق الطيب الصالح، ومآل الأبرار، حتى يتضح للعبد الطريقان، ويعلم أيَّ الطريقين يسلك، ويختار طريقه. قال الله تعالى بعد ذلك ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٧﴾﴾ المتقون هم الذين اتقوا الشرك - فأعظم ما يجب على العبد أن يتقيه هو الشرك بالله -.

وهم الذين اتَّقُوا الظلم، فالمتقي لا يظلم أحداً، فلا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً، واحذر الظلم، فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

والمتقون هم الذين اتَّقُوا المعاصي ما استطاعوا.

فهؤلاء المتقون الذين اتقوا حق الله، وحق العباد، لهم {مَفَازٌ} أي: لهم فوزٌ ونجاةٌ من النار، وبعض العلماء قالوا: مَفَازٌ أي متزهةً.

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١٦٩) والطبراني في "المعجم الكبير" ملحق لمن يبدأ بحرف النون من الصحابة جمع من مخطوطتي زوائد المعجم الكبير له، والمنتهى من المعجم الكبير للطبراني (٢٢١) وانظر "مجمع الزوائد" (١٤٦٣) وابن أبي حاتم في "التفسير" (١٩١٠٣) وابن أبي الدنيا في "صفة النار" (١٨٤) و (١٨٦) والثعلبي في "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (١٠ / ١١٧) وابن منده في "مجالس من أمالي" (٣٥٨)، و الخازن في "لباب التأويل في معاني التنزيل" (٤ / ٣٨٨)، وانظر أيضاً (لسراج المنير) (٤ / ٣٤٤) و "إعراب القرآن" للنحاس (٥ / ٨٥)

أيحسب الإنسان أن أهل الدنيا لهم حقائق وبساتين ومنتزهات، وأهل الجنة ليس لهم؟ بل الله أعد لأهل الجنة في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقفه: للعبد في الجنان حقائق لا يستطيع أن يصفها الواصفون، فلو أن أعظم المهندسين والمنسقين للجماليات جلسوا ليتخيلوا أعظم ما يمكن أن يصمموه في الدنيا ما استطاعوا أن يقربوا من وصف هذه الجنة، لأن هذه الجنان أعدها الرحمن، كما جاء في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ «أَعَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمَ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»^١.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ﴾ ثم فسرنا ربنا بقوله: ﴿حَدَائِقُ وَأَعْنَابًا ۖ﴾ أي أنها تحيط بها الأسوار البعيدة، وذكر الأعناب لشرفها وكثرتها في هذه الحدائق.

﴿وَكَوَاعِبُ أَتْرَابًا ۖ﴾ هن الحور العين، قال أهل العلم يعني أن ثديهن لم تتدلى بل هن نواهد، فمثل الكاعب مثل الرمان مستدير من جماهن وحسنهن^٢.

{أتراب} يعني في سنٍّ واحدة، في أبهى ما يكون من الشباب، قال بعض العلماء: في سنٍّ الثلاث والثلاثين، واستدلوا على ذلك بما رواه الترمذي في سننه وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرَدًا، مُرَدًّا، بِيضًا، جَعَادًا، مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثِ

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (٧٢٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(٢) ينظر "التفسير القيم" لابن القيم، (٥٦٠)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣٠٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومجاهد، وغير واحد وانظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٨)، و "مفاتيح الغيب" للرازي (٣١ / ١٩)، و "التحرير والتنوير" لابن عاشور (٣٩ / ٣٠)

وَتَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أذْرُعٍ.^(١)

وقيل: {أتراباً} يعني متآلفات متوافقات، غير متباغضات^(٢)، وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ حَلِيمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ مِيلًا. لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا"^(٣)، وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدُّ كَوْكَبِ إِضَاءَةٍ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَرَى مِخْ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حِمَمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، لَا يَسْتَقْمُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ، آيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ - قَالَ أَبُو الْيَمَانِ: يُعْنِي الْعُودَ -، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ"^(٤) فللمؤمن زوجتان من الحور العين لا اختلاف بينهما ولا تباغض، فلا كيد بين الزوجات كما في الدنيا قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فأهل الجنة ليس في صدورهم إلا كل خير، ونعيمهم نعيم لا يكدره شيء.

(١) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥٣٩)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٣٣)، والدارمي في "سننه" (٢٨٢٨)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥١٤٠)، وابن أبي داود في "البعث" (٦٤)، والطبراني في "الصغير" (٨٠٨)، وأبو نعيم في "صفة الجنة" (٢٥٥)، وغيرهم، من حديث من حديث معاذ رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (٩٠٧)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٤٥) ومسلم في "صحيحه" (٧٢٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٤) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٤٦) والترمذي في "سننه" (٢٥٣٧) وأحمد في "مسنده" (٧١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

وقفه: تستحق الجنة من العبد أن يتعب، وأن يقوم بالليل، ويصوم النهار، وأن يقرأ القرآن، وحين يُدفع العبد إلى الحرام دفعاً؛ يقول لا أفعل بل أصبر، فما هي إلا أيامٌ يسيرةً، وألقى ربي، وهو عني راضٍ، وأنعم في النعيم المقيم، فالجنة تستحق منا أن نجاهد أنفسنا لله عز وجل .

قال تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ كأساً أي: من الخمر، قال الضحاك: كل كأسٍ في القرآن فهو خمرٌ، وذكر أهل العلم في الدهاق أقوالاً منها:

الأول: دهاقاً أي: ممتلئاً، وهو قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد، ودعا ابن عباس رضي الله عنه غلاماً له فقال: اسقنا دهاقاً، فجاء الغلام بها ملاً، فقال ابن عباس: هذا هو الدهاق قال عكرمة، ربما سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول: اسقنا وأدهق لنا.

القول الثاني: دهاقاً أي: متتابعةً، وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه وسعيد بن جبير ومجاهد، قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: ادهقت الحجارة ادهاقاً وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض، ذكرها الليث، والمتتابع كالمتداخل.

القول الثالث: دهاقاً أي: صافيةً، وهذا القول يروى عن عكرمة، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق، وهو خشبتان يُعصر بهما الخمر،... التقدير: وخمرًا ذات دهاقٍ، أي عصرت وصفيت بالدهاق.^(١)

وقفه: المؤمن الذي لا يعاقر الخمر لعلمه أن الخمر حرام، ويخشى ذواق كأسٍ منها، ولا حتى قطرة، فيوم القيامة يسقيهم ربهم من نهرٍ عظيمٍ من خمرٍ، ففي الجنة أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشاربين، فهذا خمرٌ حلالٌ، وليحذر المؤمن فإن من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمَ منها في الآخرة، وكذلك حقاً على الله أن يسقيه من طينةِ الخَبَالِ، وقد ورد هذا في حديث رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ

(١) ينظر " مفاتيح الغيب " للرازي (٣١ / ٢٢)

جَيْشَانِ، وَجَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَرَابٍ يَشْرُبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذَّرَّةِ، يُقَالُ لَهُ: الْمِزْرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَوْ مُسْكِرٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ.^(١)

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ ومناسبة هذا لما قبله: أن أهل الدنيا إذا شربوا الخمر ذهب عقولهم فيتكلمون بكلام لا يليق بهم، أما أهل الجنة فعندما يشربون الخمر لا يتكلمون، ولا بكلمة لغو، لأنها لذة للشاربين دون إضعاف لعقولهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ [الصفات: ٤٤-٤٧] أي: لا تذهب بعقولهم ولا يتكلمون بكلام لا يليق كما روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.^(٢)

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ ولأهل العلم في عود الضمير في قوله تعالى (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا) وجهان: أحدهما: في الجنة، قاله مجاهد. الثاني: في شرب الخمر، قاله يحيى بن سلام.

وفي اللغوها هنا أيضا أربعة أوجه:

أحدها: الباطل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني: الحلف عند شربها، قاله السدي.

الثالث: الشتم قاله مجاهد.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٢٦٥) والنسائي في " سننه " (٥٧٠٩) وأحمد في " مسنده "

وغيرهم، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " التفسير البسيط " للواحيدي (٢٣/ ١٤٠)

الرابع: المعصية قاله الحسن.

وفي (كِذَابًا) ثلاثة أوجه: أحدها: لا يكذب بعضهم بعضاً قاله سعيد بن جبير. الثاني: أنه الخصومة قاله الحسن. الثالث: أنه المأثم قاله قتادة.^(١)

والمعنى أن العبد في الجنة لا يسمع فيها إلا سلاماً، كما قال تعالى: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [سَلَامٌ عَلَيْهِمْ] [الرعد: ٢٣-٢٤]، أما الكلام اللغو أو غير اللائق، فلا يسمع في الجنة أبداً، ولا يُكذَّب أهل الجنة بعضهم بعضاً، ولا يسمعون كلمة تكذيب، عند شربهم الخمر، وكذلك الجنة ليس فيها كلام لغوٍ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من النقص.^(٢)

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أي أن هذا الجزاء، وهذا العطاء، هو من ربِّ العرش العظيم جزاءً لتوفيقهم للأعمال الصالحة، عطاءً حساباً أي: كافياً لأن الله سيعطي العباد جزاء أعمالهم فلا تضيق عنده مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وفوق ذلك أن الله من فضله يعطي العبد زيادةً على عمله، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال الله في الحديث القدسي الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا

(١) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٨٩)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٠٨)

كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً^(١)

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾^(٣٦) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ ۚ مَتَابًا﴾^(٣٧) إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٣٨﴾

قال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾^(٣٦) لا يجرؤ مخلوق أن يتكلم بحرفٍ أمام رب العالمين جل جلاله يوم القيامة، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً أي: وقال قولاً حقاً.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(٣٧) اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا، على أوجه:

أحدها: أنهم أرواح بني آدم، رواه العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني: هم بنو آدم، قاله الحسن، وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس رضي الله عنهما يكتبه.

الثالث: أنهم خلقٌ من خلق الله، على صور بني آدم، وليسوا بملائكة ولا بشر، وهم يأكلون ويشربون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وأبو صالح، والأعمش.

الرابع: هو جبريل، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٦﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقال

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٩١) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٥)، من حديث ابن

عباس رضي الله عنهما، به.

مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب عز وجل، وصاحب الوحي^(١) ولعل هذا هو الأرجح^(٢)

{وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا} أي: صفوفاً، ذكر بعض أهل العلم أن بني آدم يقومون صفّاً بين يدي الله عز وجل، على حسب منزلتهم، الأكمل وبعده الأقل، وهكذا على حسب منزلتهم عند الله عز وجل.

قال الله جل جلاله: **{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ}** يوم القيامة هو اليوم الذي لا ريب فيه، ولا شك، وأنه يوم الحق لأن الحق يعلو فيه، ولا مجال فيه للباطل وأهل الباطل، وأهل الكبر في هذا اليوم يطؤونهم أهل المحشر بأقدامهم، كما صح عن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ يَعْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْحَبَالِ".^(٣)

وأيضاً **{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ}**، لأن أهل الإسلام وهم أهل الحق الذين كانوا مستمسكين به، يعليهم الله على غيرهم.

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٣٠٩ - ٣١٠)

(٢) قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ فِي " مفاتيح الغيب " (٣١ / ٢٢) وعن الضحاك والشعبي هو جبريل عليه السلام وهذا القول هو المختار عند القاضي قال لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام وثبت أن القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه ويصح أن يؤذن له فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام

(٣) (حسن) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٦٦١)، وأحمد في " مسنده " (٦٦٧٧) والحميدي " مسنده " (٦٠٩) والنسائي في " الكبرى " (١١٨٢٧)، وغيرهم، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به. وحسنه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣ / ١٠٧)

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مآباً أي: مرجعاً وطريقاً يرجع فيه إلى الله، وهذه الآية وإن كان ظاهرها التخيير، لكن مفادها التهديد والمعنى: اتخذوا يا عباد الله مآباً وارجعوا إلى ربكم قبل الموت.

ثم ختم الله عز وجل هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هذه الآيات نزلت على النبي ﷺ منذ زمن بعيد، والله قال: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ فلا شك أننا الآن أقرب للآخرة من أيام النبي ﷺ، فلا ينبغي للمؤمن أن يأمن في الدنيا، وقد نبهنا الرسول ﷺ لذلك فيما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١)، فالجنة قريبة من العبد جداً، والنار قريبة منه جداً، وليس بين العبد المؤمن، وبين دخول الجنة إلا أن يموت على التوحيد، فهنئاً لمن مات على التوحيد، هنئاً لمن مات مسلماً وربه راضٍ عنه، وأما الآخر - عافانا الله - يموت كافراً؛ نصرانياً، أو يهودياً أو غير ذلك فمصيره إلى نار الجحيم - نسأل الله العافية والسلامة -.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ متى هذا اليوم؟ ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ يوم يرى كل إنسان ما قدّم، بعض السادة العلماء - كالحسن - فصل وقال: المرء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ هو المؤمن، بدلالة أن الكافر يقول: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾^(٢) ولا شك أن الجميع سيرون جميع أعمالهم^(٣)، فمعنى قوله

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٨٨) وأحمد في "مسنده" (٣٦٦٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦١) وغيرهم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ١٨٨)، وانظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٣)

(٣) قال الرازي في "مفاتيح الغيب" (٣١ / ٢٦) المسألة الثانية: في الآية ثلاثة أقوال: الأول: وهو الأظهر أن المرء

تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أن المؤمن يرى ما قدّمت يده من خيرٍ اكتسبه في الدنيا، أو شرٍ سلفه، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها .

وقفة: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، فلو أن العبد يعلم أن أعماله التي يعملها ستعرض على رئيس أو أمير أو ملك، أيسره ذلك؟ ، فما بالنا بأننا سنُعرض على ملك الملوك، وكلُّ منا سيرى عمله، الطيب، والسيء، والحسن، والأحسن منه، والمعصية الصغيرة، والكبيرة، والسرّ، والعلن، فسبحان من ستر ولطف، فوالله لولا ستر الله لفضحنا، ولولا الله ما أَعَنَّا على طاعةٍ، ولذلك إذا أيقن المرء أنه سيرى عمله، سَيَحْسِنُ هذا العمل ويَجْمَلُهُ لأنه يومَ يراه سيسعدُ سعادةً ليس بعدها سعادةٌ، ذلك حين يجد في صحيفته تسبيحاً أو تحميداً أو قراءة قرآن، أو صدقةً أو صلاةً أو صياماً، ويشقى ويحزن حزناً عظيماً، لو وجد سيئةً في صحيفته.

فينبغي على العبد أن يوقن أن الله سيريه أعماله، روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن صفوان بن محرز، قال: بَيَّنَّا ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - أَوْ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ - سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "يُدْنِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ - وَقَالَ هِشَامٌ: يَدْنُو الْمُؤْمِنُ - حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ، فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تَطْوِي صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ - أَوِ الْكُفَّارُ - فَيُنَادِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ

عام في كل أحد، لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين، فليس له إلا الثواب العظيم، وإن كان قدم عمل الكافرين، فليس له إلا العقاب الذي وصفه الله تعالى، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين في أمر سوى هذين، فهذا هو المراد بقوله: ويوم ينظر المرء ما قدمت يده " فطوبى له إن قدم عمل الأبرار، وويل له إن قدم

عمل الفجار

كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ آلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ [هود: ١٨] ^(١) ، كما أشار الله لسعادة المؤمن حينما تعرض أعماله عليه يوم القيامة ، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِۦ ۖ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٢﴾ فُتُوفَهَا ذَانِيَةً ﴿١٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْحَالِيَةِ ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤] ، وأما الكافر فيقول ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ وذلك لأن الله الجليل العظيم، يفصل بين البهائم ، فيأخذ الحق من الظالم للمظلوم، ثم يقول الله لها: كوني تراباً، فعندها يتمنى الكافر أن لو كان بهيمةً فيصير تراباً مثلها ، ولا يُعَذَّبُ في النار، كما روى الطبري في تفسيره عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمُ﴾ [الأنعام: ٣٨] قَالَ: " يُحْسَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبَهَائِمُ، وَالِدَوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَذَلِ اللَّهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا فَذَلِكَ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَدَّ الْأَدِيمَ، وَحُسِرَ الدَّوَابُّ وَالْبَهَائِمُ وَالْوَحْشُ، ثُمَّ يَحْصُلُ الْقِصَاصُ بَيْنَ الدَّوَابِّ، يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا، فَإِذَا فُرِغَ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَ الدَّوَابِّ، قَالَ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ^(٢). هذا الكافر الذي حَكَمَ وَمَلَكَ وَتَجَرَ وفعل وفعل؛ يتمنى لو كان بهيمة، فيكون تراباً

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٦٨٥)، ومسلم في "صحيحه" (٧١١٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، به .

(٢) قال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣١١) إنها يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب. وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وغيرهما.

حتى لا يُعَذَّب في نار الله، وحتى لا يسخط الله عليه.

انتهى تفسير سورة النبأ بحمد الله وحمته

وورد عنهما بسند صحيح ما يؤيد هذا الوجه موقوفا وله حكم الرفع لأنه لا يقال من قبيل الرأي
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩ / ٢٣٦) و (٢٤ / ٥٤)، و (٢٤ / ٥٥) وابن أبي حاتم في "تفسيره"
(١٠٧٧٤) وعبد الرزاق في "التفسير" (٢ / ٤٦)، والحاكم في "المستدرک" (٨٧١٦) وابن أبي الدنيا في "
الأهوال" (١٨٢) وغيرهم، به. وصححه الالباني في "الصحيحة" (١٩٦٦)
وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢٤ / ٥٤) وغيره وانظر "الجامع
لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ١٨٩) و "مفاتيح الغيب"

﴿سُورَةُ النَّازِعَاتِ﴾

وهي سورة مكيةٌ بإجماع^(١)، وآيها ست وأربعون، نزلت بعد سورة النبأ.

وجه اتصالها بما قبلها: أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن البعث حق

لا ريب فيه.^(٢)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا^١ وَالنَّدِشِطَاتِ نَشْطًا^٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا^٣ فَالْسَّيِّقَاتِ سَبْقًا^٤
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا^٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ^٦ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ^٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ^٨ أَبْصَرُهَا
خَشِيعَةٌ^٩ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ^{١٠} أَيْدَا كُنَّا عِظْلًا نَخِرَةً^{١١} قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ^{١٢} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ^{١٣} فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ^{١٤}﴾

يقرر الله جل جلاله في هذه السورة البعث بعد الموت، ويؤكد على ذلك بالقسم، وقد مرَّ في سورة النبأ أن الله تعالى أخبر عن يوم القيامة تقريراً، وهنا أقسم بعدة أقسام، فيقول:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا^١ وَالنَّدِشِطَاتِ نَشْطًا^٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا^٣ فَالْسَّيِّقَاتِ سَبْقًا^٤
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا^٥﴾ الراجع أن كل هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال

(١) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٣٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٤/ ٣٩٣)، و"الجامع

لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٩٠) وفتح القدير "للشوكاني (٥/ ٣٧١).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠/ ٢١)

انقيادهم لأمر الله، وإسرايعهم في تنفيذ أمره. (١)

فقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هي ملائكة تنزع أرواح الكفار بكل شدة وقسوة.

وقوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ فهي ملائكة كرامٌ مُخْتَصَّاتٌ بالمؤمن تُنْشِطُ روحه عند خروجها من الجسد، وذلك لأنها تُريها كرامة الله لها، وما أعدّه الله للمؤمنين في الجنان فتخرج روح المؤمن نشيطة للقاء الله تبارك وتعالى. (٢)

وفي الحديث العظيم الذي رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ (أي لم يدفن بعد) فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ - (وطيبٌ مخصوصٌ من عند ربِّ العالمين يُطَيَّبُ به بعد الموت لأنه كان طيباً في الدنيا وروحاً ونفساً وقولاً وفعلاً، وصدق الله حيث قال { الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل: ٣٢]) - حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتْهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ - (أي تخرج برفق ولين، كخروج قطرة من الزجاج أو من القربة العظيمة الكبيرة) - قَالَ

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " (٩٠٨)، و " التفسير الوسيط " للواحدى (٤ / ٤١٨)، " ومفاتيح الغيب "

للرازي (٢٩ / ٣١)

(٢) حكى ذلك ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، ومسروق، وسعيد بن

جبير، وأبي صالح، وأبي الضحى، والسدي (٨ / ٣١٢)

: فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ : فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَيَقُولُونَ فَلَانٌ ابْنُ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلَيَّيْنِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فِي مَكَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّي اللَّهُ، يَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ، فَيَقُولُ : دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ : وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا وَيُنْفَسِحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرَّيْحِ فَيَقُولُ لَهُ : أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ - (أكفان من النار) - فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَضَبٍ، قَالَ : فَتَفَرِّقُ فِي جَسَدِهِ - (أي تهرب الروح في الجسد فلا تريد أن تخرج) - فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْلُولِ - (وهو الحديدية التي يشوى بها اللحم، فيبقى معها بقية من المحروق فيستصحب عند الجذب شيئاً من ذلك الصوف مع قوة وشدة) - فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ حَيْفَةٍ وَجِدْتَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا وَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ فَيَقُولُونَ

فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَفْجَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ { لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } فيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَيَطْرَحُ رُوحَهُ طَرَحًا ثُمَّ قَرَأَ { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } فَعَادَ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ يَقُولُ هَاهُ هَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ يَقُولُ هَاهُ هَا لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهُ هَا لَا أَدْرِي فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَالْبُسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَيْحُ الْوَجْهِ قَيْحُ الثِّيَابِ مُتَيْنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ . (١)

فقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ملائكة تنزع أرواح الكفار بكل قسوة، كما مرَّ في

الحديث

وقوله: ﴿وَالنَّاسِطَاتِ نَسْطًا﴾ ملائكة تُنَسِّطُ روح المؤمن عند موته، فتخرج نشيطة بكل سهولة ويسر، كما جاء في بعض الآثار عن زيد بن أسلم قال : تأتي الملائكة المؤمن إذا حضر، وتقول له: لا تَحْزَنْ مَا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ - فيذهب الله خوفه - ولا تحزن على الدنيا وأهلها، وأبشر بالجنة، فيموت وقد جاءته البشري. (٢)، وذكر الذهبي في ترجمة (سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في "المستدرک" (١٠٨)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

به. وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٦٣٠)

(٢) ينظر "جامع العلوم والحكم" لابن رجب (٢/ ٣٥٨)

بُقَيْرَةَ امْرَأَةٍ سَلَمَانَ، أَنَهَا قَالَتْ: لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، دَعَانِي وَهُوَ فِي عُلْيَةِ لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، فَقَالَ: افْتَحِي هَذِهِ الْأَبْوَابَ، فَإِنَّ لِي الْيَوْمَ زُورًا لَا أَدْرِي مِنْ أَيِّ هَذِهِ الْأَبْوَابِ يَدْخُلُونَ عَلَيَّ. ثُمَّ دَعَا بِمَسْكِ، فَقَالَ: أَدْفِيهِ فِي تَوْرٍ، ثُمَّ انْصَحِيهِ حَوْلَ فِرَاشِي. فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَخَذَ رُوحَهُ، فَكَانَهُ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِهِ..^(١)

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه، أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه"^(٢).

مَنْ عاش على حبِّ الخير والمعروف، يوفقه الله لعملٍ صالحٍ يَخْتِمُ له به، وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَسَلَهُ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَسَلَهُ؟ قَالَ: يُفْتَحُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ.^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئَاتِ سَبْحًا﴾ في تفسيرها وجهان عند أهل العلم:

الوجه الأول: ذهب جماهير أهل العلم إلى أنها الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين.

وقال بعض السلف: يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء. فأحياناً ينغمس،

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٦٠٤٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (١ / ٢٠٨)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد"

(١٥٨٤٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩ / ٣٤٤) رواه الطبراني من طريق الجزل عن بقيرة ولم أعرفها،

وبقية رجاله رجال الصحيح، وذكر الذهبي في "سير أعلام النبلاء" ترجمة (سلمان الفارسي) (١ / ٥٥٣)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٢ / ٨٧)

(٣) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٧٧٨٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٤٢)، والحاكم في "المستدرک

" (١٢٥٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٧٥٢٢)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في

"الصحيحة" (١١١٤).

وأحياناً يرتفع، يسألونها سلاً رفيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح. (١)

الوجه الثاني: هي النجوم، والشمس، والقمر، كل في فلكٍ يسبحون، قاله قتادة، وأبو

عبدة. (٢)

قوله تعالى: ﴿فَالسَّيِّئَاتِ سَبَقًا﴾ في تفسيرها وجهان عند أهل العلم:

الوجه الأول: ذهب جماهير أهل العلم إلى أنها الملائكة تسبق الشياطين بنزول الوحي من

السماء على الأنبياء، روي عن علي فواله مسروق ومجاهد.

الوجه الثاني: هي الملائكة تسبق بروح المؤمن إلى الجنة، قاله مقاتل. (٣)

قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَيِّرَاتِ أَمْرًا﴾ هي الملائكة تُدَبِّرُ الأمرَ بإذن الله تعالى، فهناك ملائكةٌ كرامٌ موكِّلةٌ بالقدر، وملائكةٌ كرامٌ موكلةٌ بقبض الأرواح، وجبريل الأمين موكَّلٌ بنزول الوحي من السماء، وغير ذلك مما أمر الله تعالى الملائكة بأن تدبره بإذن الله جل جلاله. (٤)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما النفختان الأولى والثانية، وهكذا قال مجاهدٌ، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغير واحد.

وعن مجاهدٍ: أما الأولى -وهي قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾] [النازعات: ٦] -فكقوله

(١) ينظر ما تقدم في أول السورة، ونقله الواحدي في "التفسير البسيط" عن علي، ومقاتل، ومسروق، وابن عباس (في رواية الكلبي)، ثم قال: "والسابع بالشيء في الماء يرفق به لثلا يغرق ذلك الشيء، ولثلا يتعب هو في سبحه، فجعل الملائكة الذين يقبضون روح المؤمن برفق سابحات بها. (١٦٣ / ٢٣) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٤١ / ٢٢).

(٢) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٤ / ٣٩٤)

(٣) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٤ / ٣٩٤)، وانظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٢)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ١٩٠)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٣)

جلت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]،
والثانية -وهي الرادفة- فهي كقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:
١٤]. (١)

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ
أَرْبَعُونَ). قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا:
أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. (٢)

ومعناه: أبَيْتُ أَنْ أَجْزَمَ أَنَّ الْمُرَادَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا أَوْ سَنَةً أَوْ شَهْرًا بَلِ الَّذِي أَجْزَمَ بِهِ أَنَّهَا أَرْبَعُونَ
مَجْمَلَةٌ. (٣)

وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلَاثًا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا
فِيهِ). (٤)

وقفة: واجبٌ على العبد الذي يؤمن بالنفخ في الصور، والعرض على الله، والحساب، أن
يُصلح عمله، ويحسن نيته.

قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قلوبُ الكفار يومئذٍ واجفةٌ أي خائفةٌ لمُعابِئِهَا

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٣)، وانظر "النكت والعيون" للماوردي (٦ / ١٩٤)، و"
معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٣٢٦)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨١٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٥٥)

(٣) ينظر "شرح النووي على مسلم" (١٨ / ٩١)

(٤) (حسن) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٢٤١) والترمذي في "سننه" (٢٤٥٧) والحاكم في "المستدرک"

(٣٥٧٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، به. وحسنه الألباني في "الصحيحه" (٩٥٢)

الأهوال والشدائد، ولما يحلُّ بها من مصائب وكُرَباتٍ (١).

﴿أَبْصُرْهَا خَشِيعَةً﴾ أي ذليلة حقيرة، لأنها ليس لها إكرامٌ في هذا اليوم، بل لها إهاناتٌ وكُرَباتٌ تحلُّ عليها. (٢)

﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ الحافرة أي الحال الأول، يعني أنردُّ إلى حالنا الأول، قال أهل اللغة: رَجَعَ فُلَانٌ عَلَى حَافِرَتِهِ، إِذَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، كما قال القائل:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ *** مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارٍ

والمعنى: أأرجع إلى حالٍ شبابي الأول، وأرجع إلى السفه والطيش، بعدما كبرت وصرتُ أصلعَ وصار شعري شيباً، معاذ الله من سَفَهٍ وعارٍ. (٣)

فالكفار كانوا ينكرون البعث بعد الموت، يقولون: أإنَّا لَنُردُّ مرةً ثانيةً إلى الأرض، ونُبْعَثُ ونَحْيَا.

وقيل: الحافرة هي الأرض المحفورة التي حُفِرَتْ فِيهَا قُبُورُهُمْ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ: أئنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي قُبُورِنَا أَمْوَاتًا؟

﴿أَعِذَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً﴾ معنى (نَخْرَةً) أي باليةً مُتَفَسِّتَةً، فهم ينكرون البعث ويقولون نحن سنصير عظاماً باليةً مُتَفَسِّتَةً، أفنرجع مرةً ثانيةً بعد الموت وبعد البلاء. (٤)

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٦)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٩)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٧)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٧١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٧)

(٥) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٨)

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (إِذَا): يَعْنِي الْآنَ، وَ(كَرَّةٌ): يَعْنِي رَجْعَةٌ، وَ(خَاسِرَةٌ) يَعْنِي

غَابِئَةٌ. (١)

أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرةً، جهلاً منهم بقدرة الله، وَتَجَرُّوْا عَلَيْهِ (٢)، فقالوا لو كان الأمر كذلك إِذَا هِيَ رَجْعَةٌ خَاسِرَةٌ، وهي كذلك بالنسبة لهم، فَأَيُّ خُسْرَانٍ أَعْظَمُ مِنْ خَسَارَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَذَهَابِهِمْ إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، -نسأل الله النجاة والعافية-. (٣)

فَيُبَيِّنُ رَبُّنَا تَعَالَى أَنَّ الْأَمْرَ يَسِيرُ عَلَيْهِ، فيقول:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي نفخة واحدة.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١) والساهرة يعني الأرض، فَإِذَا هُمْ أَيِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعُونَ بِالسَّاهِرَةِ أَيِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، بَعْدَ مَا كَانُوا فِي بَطْنِهَا، وَسُمِّيَتْ بِهَذَا الْأَسْمِ، لِأَنَّ فِيهَا نَوْمَ الْحَيَوَانِ وَسَهَرَهُمْ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْفَلَاةَ وَوَجْهَ الْأَرْضِ سَاهِرَةً، بِمَعْنَى ذَاتِ سَهَرٍ، لِأَنَّهُ يُسَهَّرُ فِيهَا خَوْفًا مِنْهَا، فَوَصَفَهَا بِصِفَةِ مَا فِيهَا. (٢)

فهذه المليارات التي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ، التي ذهبت والتي ستأتي بعدنا، وهذه الخلائق من الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالِدَوَابِّ وَالسَّبَاعِ وَالْأَسْمَاكِ وَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ، يَبْعَثُونَ جَمِيعاً

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٧٣ / ٢٤)

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٩٠٩)

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥٠ / ٢٢)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٧٣ / ٢٤)

(٥) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٥١ / ٢٢)

بنفخةٍ واحدةٍ ، والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ليس الأمرُ عسيراً عليه، قال عز وجل: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فأرضُ المحشرِ ليس عليها معلّمٌ ولا أثرٌ لمخلوقٍ، ولم يُعصِ اللهُ عليها، وهي كقرصَةِ النقيّ، أي كقرصَةِ الخبزِ البيضاء.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾

وبعد ما أنكر ربُّنا تعالى على المنكرين للبعث، وأثبت يوم القيامة، وأن الأمر عليه يسيرٌ، يُذَكِّرُنَا بِقِصَّةِ بَعثِ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ إِلَى أَعْتَى الْعَتَاةِ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ، والذي كان ينكُرُ الْبَعْثَ بعد الموتِ، فقال سبحانه:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي هل أتاك يا محمدُ ويا أيُّها التالي لهذه الآياتِ خبرُ موسى؟

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ناداه الله بالوادي المقدسِ يعني المطهر وهو طورُ سيناء، و{طُوًى} يعني مرّتين، أي قدّس مرّةً بعد مرّةٍ.

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٧٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٤)

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٧) اذهب يا موسى إلى فرعون، فادعُهُ إلى الله فإنه طغى وتجاوزَ حدَّهُ (١)، والطغيانُ هو مجاوزةُ العبدِ حدَّهُ، والطاغوتُ هو ما جاوزَ العبدُ حدَّهُ به من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ (٢)، وقد تجاوز فرعونُ حدَّ العبوديةِ حتى قال ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢٤) [النازعات: ٢٤]، وقال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فلا يوجد أعظمَ من هذا الطغيانِ.

﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَهُ﴾ (١٨) هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنْ تَتَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ، وَتُؤْمِنَ بِرَبِّكَ؟ (٣).
﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (١٩) وأدلك على الله فتخشاه وتخافه.

﴿فَآرَنُهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٠) الدالة على عظمةِ الله ووحدانيته، وهي العصا واليدُ وغيرُ ذلك من الآياتِ الباهرَاتِ التي جاء بها نبيُّ الله موسى عليه السلام لفرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَخَّلَ بِنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١١) [الإسراء: ١٠١] وذكرنا هذه الآياتِ قبل ذلك بشيءٍ من التفصيل في سورة الأعراف وغيرها، فمنها العصا وهي أكبرُ الآياتِ، ومنها اليدُ كذلك وهي من أكبرِ الآياتِ، ومنها انفلاقُ البحرِ، ومنها تظليلُ الغمامِ، ومنها إنزالُ المنِّ والسلوى، وغيرُ ذلك كالطوفانِ والجرادِ والقملِ. (٤)

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ (٢١) كَذَّبَ بقلبه، وكَذَّبَ بجوارحه، فجمع بين شرِّ الأوصافِ.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ (٢٢) معادياً لله ورُسُلِهِ ودينه، وتولَّى مُدبراً عن هدي الله، والانقيادِ لأمره،

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٨٠ / ٢٤)

(٢) ينظر "إعلام الموقعين" لابن القيم (٤٠ / ١)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٨٠ / ٢٤)، ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٥٤ / ٢٢)

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥٥ / ٢٢)

يسعى في إطفاء نوره. (١)

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي جمع جنوده، وحاشيته، وسحرتة، ثم نادى بأعلى صوته (٢):
﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ نعوذ بالله فلا أكبر من هذا الطغيان.

فعندها قال الله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي: انتقم الله منه
انتقاماً جعله به عبرةً ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَأُثْبِتُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصاص: ٤١] (٣)، ولذلك إذا رأيت العبد تجاوز حده وأمهله
الله فاعلم أن الله إما أنه أراد به خيراً أو أراد به شراً، فإذا تمادى فاعلم أن الله أراد به هلكة عظيمة،
وبلاءً شديداً، فهذا فرعون طغا وتكبر وتجر حتى قال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله وانتقم منه
فأغرقه ﴿وَجَلَّوْنَا بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النار: ١٠٠]
وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِنَدِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢]

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ في هلاك هذا الطاغية مع كثرة جنوده،
وعظيم أمنه وأمانه، ونفوذ كلمته في أرجاء مصر، وتكبره ومجبره، ففي هلاكه آية وعبرة لمن يخشى
الله تعالى (٤).

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٤ / ٨٣)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥)

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٥)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٨٨)

﴿عَأْنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ^(٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ^(٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضَحَلَهَا ^(٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ^(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ^(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ^(٣٢)
مَتَلَعَا لَكُمُ وَالْأَنْعَامُ ^(٣٣)

﴿عَأْنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ^(٢٧) أأنتم يا عباد الله أشد خلقاً أم السماء؟ لا شك أن
السماء أكبر وأعظم خلقاً، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٥٧) [غافر: ٥٧].

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ ^(٢٨) أي هذه السماء التي أحكمها الله تعالى، (رَفَعَ سَمَكَهَا) أي
جعلها مرتفعة عالية بدون أعمدة نراها، (فَسَوَّاهَا) أي أحكمها سبحانه، كما قال تعالى:
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ^(٥٧) [الذاريات: ٤٧] أي بقوة وإحكام ^(١).

﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَلَهَا﴾ ^(٢٩) أي جعل ليلها بهيماً أسود وجعل ضحاحها منيراً
مُشْرِقاً ^(٢)، وكل هذه آياتٌ مُتَضَادَّةٌ مختلفةٌ تدلُّ على أنه لا يستطيع ذلك إلا ربُّ العالمين.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ^(٣٠) دحاهها مفسرةً بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ^(٣١)
هل خُلِقَتِ الْأَرْضُ أَوْ لَا أَمْ خُلِقَتِ السَّمَاءُ أَوْ لَا؟

قال كثيرٌ من أهل العلم أن الأرض خُلِقَتِ أولاً ثم خُلِقَتِ بعد ذلك السماء، ثم دحا الله
الأرض، وجعل فيها المعادن وكل ما في باطنها من المياه وغير ذلك، ويُستدل على ذلك بقوله

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٧)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٦).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٦).

تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاقَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١﴾ [فصلت: ٩ - ١١] وهنا قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٣٠﴾ إذن خلق الأرض قبل السماء ثم بعد ذلك بنى السماء، ثم بعد ذلك دحا الأرض، سبحانه جل جلاله وتباركت اسماءه. (١)

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١﴾ أَي أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ (مَاءَهَا) أَيِ الْعُيُونِ الْمُتَفَجِّرَةِ بِالْمَاءِ، (وَمَرْعَاهَا) أَيِ النَّبَاتِ الَّذِي يُرْعَى. (٢)

﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَلَهَا ٣٢﴾ أَيِ ثَبَّتَهَا، فَأُولَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ جَعَلَ تَمِيدُ بَمَنْ فِيهَا فَخَلَقَ اللَّهُ الْجِبَالَ فَكَانَتْ كَالْأَوْتَادِ، فَثَبَّتَ اللَّهُ بِهَا الْأَرْضَ (٣).

قال تعالى: ﴿مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَعْلَمِكُمْ ٣٣﴾ أَي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ تَمْتَعُونَ بِهَا، وَجَعَلَ لَأَنْعَامِكُمْ مَا تَسْتَمْتَعُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، ﴿مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَعْلَمِكُمْ ٣٣﴾ .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٣٥ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ٣٦ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ٣٧ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ٤١﴾

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٦)، و"جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٩٢)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٩)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٦١)

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٦)

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الظَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣١) وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، سُمِّيتِ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطْمُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْطِعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، لَأَنَّ نَبَاهَا عَظِيمٌ وَخَبَرَهَا يَطْمُ وَيُنْسِي كُلَّ الشَّدَائِدِ قَبْلَهَا. (١)

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ قال أهل العلم يتذكر حسناته وسيئاته، فيسعدُ بأيِّ حسنةٍ وإن كانت صغيرةً، ويحزنُ أعظمَ الحزنِ أن يجد سيئته -أي سيئته- في ميزان سيئاته. (٢)

وقفة: إذا كنا سنتذكر هذه الأعمال وتعرض علينا، ويسرنا جداً أن نجد حسنةً وإن كانت يسيرة في ميزاننا ويحزننا أعظم الحزن أن نجد سيئته، وجب علينا أن نستعين بالله تعالى ونجتهد في الأعمال الصالحات حتى نثقل موازين حسناتنا، حتى إذا جئنا للقاء رب العالمين وتذكر أعمالنا نجد أعمالنا كثيرةً مهيبةً طيبةً تُبَيِّضُ وجوهنا أمام الله تعالى، ونسعد بالحسنات التي وفقنا الله تعالى لها، ونجتنب السيئات مهما عظمت أو قلت، وإن كانت يسيرة.

﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ أي أظْهَرَتْ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُجْرُ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُونَهَا" (٣).

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ أي تجاوز حده، ولم يكن عبداً للرب.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٦٢)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٧)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٧)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، من حديث ابن مسعود

﴿وَعَاثِرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وجعل همّه الدنيا، مِن أجلها يحب ومن أجلها يُبغض، ومن أجلها يوالي ومن أجلها يعادي، فآثر الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ مأواه نارٌ تَلَطَّى، والعياذ بالله.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ أي خاف القيام بين يدي ربّه، وخاف مقام الله وعظّم جنباه.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ فالنفس تدعو إلى الهوى وإلى الحرام، وتدفع الإنسان دفعاً إلى السوء، فإذا به ينهى نفسه عن هواها، ويحاسبها ويجاهدها ويدفعها دفعاً إلى الاستقامة، فيُقدّم حب الله ورسوله على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " (١).

وعن عبد الله بن هشام قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي. فَقَالَ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْآنَ يَا عُمَرُ» (٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٩٨ / ٢٤)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤)، ومسلم في " صحيحه " (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، به.

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٦٣٢)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٥٠٣) والطبراني في " المعجم الأوسط " (٣١٧)، من حديث عبد الله بن هشام، به.

وَرَسُولِهِ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾
[التوبة: ٢٤]

أما إذا ترك العبد دين الله عز وجل، وأتبع هواه صار هواه إلهاً له، كما قال تعالى:
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى
بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجن: ٢٣]، فالهوى كل ما خالف
الله وسنة رسوله ﷺ.

والعبد الذي ينهى نفسه عن هواها عبد قوي الإيمان، قد أعانه الله وأمدّه بمدده، ولا يمكن
لأحد أن يبعد عن الحرام ولا أن يقوم بطاعة أبداً إلا بمدد الله وتوفيقه، ولو وكل العبد لنفسه
لصار شراً من البهائم، قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٢٥﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٢٦﴾
إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٢٧﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٢٨﴾

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ يسألك الناس يا محمد عن الساعة،
والسائلون عن الساعة منهم كفارٌ ومنهم مسلمون، فالكفار كانوا يسألون سؤال إنكارٍ، وبعض
المسلمين كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة كما ثبت في الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:
جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَا أَعَدَدْتَ لِلْسَّاعَةِ؟» قَالَ:
حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ
قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو

أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ. (١)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ أي متى قيام الساعة؟

قال الله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ أي لا علم لك بها لأن الساعة علمها عند الله، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِ إِلَّا هُوَ يُفَلِّتُ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالساعة آتية لا شك فيها، لكن الله خبأها حتى تجتهد كل نفس، وتعمل أعمالاً صالحة، لأن الساعة لا يعلمها لا ملكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌ مُرْسَلٌ ولا عبدٌ لله صالحٌ، ولا إنسٌ ولا جنٌ ولا شيءٌ، لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى،

فلذلك قال الله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ وفي بعض أوجه التفاسير: أن المراد أنت يا محمد من ذكراها، فبعثتك من ذكرى الساعة، ولذلك قال النبي ﷺ: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَذِهِ كَهَاتَيْنِ" وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى (٢)، يعني أن مبعثه عنوانٌ على قُرب الساعة، فانه لا نبي بعده ﷺ.

فائدة: يستفاد من هذا أن الإنسان لا يشغل نفسه بالمسائل التي لا تعود عليه بفائدة في دينه أو دنياه، ولما جاء جبريل إلى النبي ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا. (٣)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٦٨٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٣٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٣٠١)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٥٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠) ومسلم في "صحيحه" (١٠)، من حديث عمر بن

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾^(١) منتهى علمها إلى الله ليس إلى أحدٍ سواه.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾^(٢) أنت يا محمد تُنذِرُ مَنْ يَخَافُ السَّاعَةَ، فإذا خاف العبدُ يومَ القيامة تجده يخشى اللهَ ويراقبه ويُعَظِّمُهُ، وَيُعَظِّمُ رِسْلَهُ وَيَتَّبِعُ شَرْعَهُ، وينقادُ لأمره ويمتنعُ نهيه. (١)

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾^(٣) يخبرنا الله جل جلاله عن قُرْبِهَا وعن سرعةِ زوالِ الدنيا، وأنها لا شيءَ بالنسبة للآخرة، وأن الناس عندما يرون الساعةَ، كأنهم لم يلبثوا شيئاً في الحياة الدنيا^(٤)، وصدق الله حيث قال: ﴿وَيَوْمَ يَجْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٥) [يونس: ٤٥].

﴿لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾^(٦) مَعْنَاهَا إِلَّا آخِرَ يَوْمٍ أَوْ أَوَّلُهُ، وما ذلك إلا لسرعةِ زوالِ الدنيا وانقضائها.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله ومنتته الانتهاء من تفسير سورة النازعات

الخطاب، به.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٦٦)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٦)

(٢) قال الطبري في "جامع البيان": وَالْعَرَبُ تَقُولُ: آتِيكَ الْعَشِيَّةَ أَوْ عَدَاتَهَا، وَآتِيكَ الْعَدَاةَ أَوْ عَشِيَّتَهَا، فَيَجْعَلُونَ مَعْنَى الْعَدَاةِ، بِمَعْنَى أَوَّلِ النَّهَارِ، وَالْعَشِيَّةُ: آخِرُ النَّهَارِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾^(٣) إِنَّهَا مَعْنَاهَا إِلَّا آخِرَ يَوْمٍ أَوْ أَوَّلُهُ. (٢٤ / ١٠١)

﴿سُورَةُ عَبَسَ﴾

سورة عبس سورة مكية بإجماع العلماء (١)، وآياتها ثنتان وأربعون، نزلت بعد سورة النجم.

ومناسبتها - لما قبلها: أنه ذكر هناك أنه منذرٌ مَنْ يخشاها - وذكر هنا مَنْ ينفعه الإنذار. ٢

سبب نزولها:

أجمع أهل العلم أن الذي عَبَسَ هو الحبيب محمد ﷺ، وأن الذي عَبَسَ في وجهه هو ابن أم مكتوم، الأعمى ﷺ (٣)، قيل عبدالله بن أم مكتوم، وقيل عمرو بن أم مكتوم، (١) وهو ابن خال

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ فِي "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٣٦) وهي مكية بإجماع المفسرين، ونقل الإجماع على ذلك أيضاً القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩ / ٢١١)، وانظر "فتح القدير للشوكاني" (٥ / ٤٦٢).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٣٨)

(٣) قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ فِي "أحكام القرآن دار إحياء التراث" (ص: ٢٣٤٢)، لَا خِلَافَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى.

ونقل الإجماع على ذلك أيضاً القرطبي والشوكاني كما في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩ / ٢١١)، و"فتح القدير" (٥ / ٤٦٢). وقد صح عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ فِيهِ، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠ / ٣٢)، وأبو يعلى في "المسند" (٤٨٤٨)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٦٩)، والواحدي في "أسباب النزول" (٢٩٧)، والحاكم (٣٨٩٦) من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ﷺ، أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُ عَنْهُ وَيَقْبَلُ عَلَى الْآخَرِ، وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟» فَيَقُولُ: لَا، فَنُزِلَ هَذَا أَنْزَلَ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "صحيح سنن الترمذي"

أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . (١)

وقصة ذلك: أن الحبيب صلواتُ ربي وسلامه عليه، كان قد جاءه بعضُ صناديد المشركين، وجعل رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في أن يسلموا، وبينما هو يكلمهم إذ جاء ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقول: يا رسول الله أرشدني، يا رسول الله علّمني مما علمك الله، وهو لا يرى أن رسول الله ﷺ معه أحدٌ لأنه أعمى، وتنى الرسول ﷺ لو سكت ابنُ أم مكتوم الآن حتى يُتِمَّ كلامه مع هؤلاء الكبراء من المشركين، فإنهم لو أسلموا أسلم من ورائهم، فإذا به يعبس في وجهه، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ...﴾ (٢)

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: كما في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٢١) والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو. والله أعلم. وقال الحافظ في "الإصابة في تمييز الصحابة" (٧ / ٣٣٠) عمرو بن أم مكتوم، القرشي، ويُقال: اسمه عبد الله وعمرو أكثر وهو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، ومنهم من قال عمرو بن زائدة لم يذكر قيساً ومنهم من قال قيس بدل زائدة، وقال ابن سَعْدٍ أهل المدينة يقولون اسمه عبد الله وأهل العراق يقولون اسمه عمرو.

(٢) قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في "الإصابة في تمييز الصحابة" (٧ / ٣٣١)، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإن أم خديجة أخت قيس بن زائدة واسمها فاطمة.

(٣) وردت الآثار في سبب النزول بأكثر من سياق يكمل بعضها بعضاً، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما لكن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضعيفٌ جداً فنقتصر على الصحيح أما أثر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد سبق تخريجه: قالت: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بها أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففي هذا أنزل.

وأما أثر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال السيوطي كما في "الدر المنثور في التفسير بالمأثور ط هجر" (١٥ / ٢٤١)

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن

وما أعرض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم احتقاراً له، ولا طمعاً لما في أيدي هؤلاء الكبراء من مالٍ وجاهٍ ومنصبٍ - حاشاه - ، وإنما طمع في إسلامهم وهدايتهم .

خلف فأعرض عنه فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه .
ونقله الشوكاني في " فتح القدير ط / الوفاء " (٥ / ٥٤٤) عن السيوطي في الدر المنثور وأقر أنه من رواية أنس رضي الله عنه ، وكذا الشيخ مقبل كما في " الصحيح المسند من أسباب النزول " (٢٣١) وصححه ونص أنه من حديث أنس بن مالك إلا أنه يظهر أنه اعتمد على ما في تفسير بن كثير
* لكن الذي وقفت عليه في " تفسير عبد الرزق ط / الرشد " (٢ / ٣٤٨) ، " جامع البيان ط / هجر " (٢٤ / ١٠٤) أ
" مسند أبي يعلى الموصلي ط / المأمون " (٥ / ٤٣١) ، " تفسير ابن كثير ط / سلامة " (٨ / ٣١٩) حيث ساق الحديث بسند أبي يعلى كما في مسنده كلهم ذكروا الحديث عن قتادة ، أي أنه من مراسيل قتادة ، ونبه المحقق في طبعة المأمون على أن محقق مسند أبي يعلى أقحم زيادة أنس بن مالك رضي الله عنه ونص أنها ليست في النسخ لكنه أضافها من تفسير ابن كثير ، ونبه محقق تفسير ابن كثير طبعة دار طيبة أن زيادة أنس ليست في تفسير عبد الرزاق ، ولا مسند أبي يعلى وقال أظن أنها مقحمة من النسخ والله أعلم بالصواب ، فلو ثبتت من طريق أنس فهي صحيحة وإلا فهي من مراسيل قتادة ويشهد لها ما قبلها من حديث عائشة رضي الله عنها ، وربما دخل الوهم لو ثبت على من أثبت أنس بن مالك رضي الله عنه بسبب أن قتادة قال بعدها ، وأخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء . فظن أن الكل من طريق أنس والله أعلم .

وورد أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها ما أخرجه المخلص في " المخلصيات " (٢ / ١٦٧) ، ومن طريقه ابن عساكر " معجم ابن عساكر " (٢ / ٦٨٦) ، السيوطي في " الدر المنثور في التفسير بالمأثور ط هجر " (١٥ / ٢٤٠) وعزاه لابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ مع رجال من وجوه قريش فيهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة ، فيقول لهم : « أليس حسناً أن جئت بكذا وكذا » ، فيقولون : بلى والدماء ، فجاء ابن أم مكتوم وهو مشتغل بهم ، فسأله فأعرض عنه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۖ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۖ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ وَهُوَ يَخْشَى ۖ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝﴾ [عبس : ٥ - ١٠] يعني ابن أم مكتوم رضي الله عنه .

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ
الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ
يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ﴿١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ عبس يعني كبح بوجهه ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أي: وما يدريك لعله يسمع منك شيئاً من أوامر هذا الشرع
الكريم، ونواهيهِ وآدابه، فيحصل له به زكاة يزكو بها.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو يتعظ فتففعه الذكرى.

قال علمائنا: وهذه الآيات هي عتاب من الله جلّ جلاله لحبيبه ﷺ.

ولكنه أجمل وأرق عتاب، لأنه ما قال له عَبَسْتَ وتَوَلَّيْتَ بصيغة الخطاب، بل قال عبس
وتولى بصيغة الغائب تعظيماً له ﷺ. (١)

وفي هذه الآيات فائدة عظيمة: وهي أن الانسان لا يعرض عن الضعفاء من أجل ضعفهم،
ولا عن الفقراء من أجل فقرهم، ولا يقبل على الأغنياء من أجل ما معهم من مال، وإنما يسوي

(١) قال القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢١٣ / ١٩) ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: عبس وتولى
بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له ولم يقل: عبست وتوليت. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له
فقال: وما يدريك أي يعلمك لعله يعني ابن أم مكتوم يزكى بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين،
بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه. ، وانظر "لجواهر الحسان في تفسير القرآن" للثعالبي (٤ /

بين الغني والفقير في الإقبال عليه وتعليمه الدين، وإرشاده إلى الله ودلالته على الهدى والحق.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وَمِنْ هَاهُنَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَلَّا يُخَصَّ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا، بَلْ يَسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، ثُمَّ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ. (١)"

فلذلك رسولُ الله ﷺ عبَّته مولاهُ، لما أَعْرَضَ عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ، ابْنِ أُمَّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى وَأَقْبَلَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكِبَرَاءِ مِنْ صُنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ، رَغِمَ أَنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ فِي إِسْلَامِهِمْ، فَقَالَ لَهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾ ، وهذا كما قال ربنا: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۚ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۚ﴾ [الكهف: ٢٨] (٢) أي لا تصرف بصرَكَ عَنْ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءِ الْغُرَبَاءِ الْمَسَاكِينِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَاجْعَلْ عَيْنَكَ عَلَيْهِمْ، وَتَفَقَّدْ أَحْوَالَهُمْ، وَتَعَاهَدُهُمْ (٣).

وثبت بالإسناد الصحيح أن سعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفرٍ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطردهؤلاء لا يجترؤن علينا.

قال: وكنت أنا، وابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ورجلٌ مِنْ هَذِيلٍ، وبلاؤُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ورجلان لستُ أُسمِّيها، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأَنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۚ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣١٩)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ٢١٤)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (١٥ / ٢٣٧)، و"فتح القدير" للشوكاني (٣ / ٣٣٣).

وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢] (١)

وأيضاً صح عن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان رضي الله عنه، أتى على سلمان رضي الله عنه، وصهيب رضي الله عنه، وبلال رضي الله عنه في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي. (٢)

وفي صحيح الإمام البخاري في قصة هرقل مع أبي سفيان، وفيها: أن هرقل سأل أبا سفيان فقال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: فقلت بل ضعفاؤهم، ثم قال له: وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرفهم، فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. (٣)

وقفة: الضعفاء والفقراء هم أسبق إلى الخير من الأغنياء في الغالب، لأنهم لا يخافون على

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٣٢٠)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٢٨)، والنسائي في "الكبرى" (٨١٦٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٧٣)، وغيرهم، وقد ورد في بعض الطرق تسمية الرجلين، أخرجها ابن ماجه في "سننه" (٤١٢٨)، وصححه الالباني في "الصحيحه" (٣٢٩٧)، عن سعد، قال: "نزلت هذه الآية فينا ستة: في، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال رضي الله عنه، قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهم، فاطردهم عنك، قال: فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٤٩٦)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٦٤٠)، وابن أبي شيبة في "مسنده" (٩٢٢)، وغيرهم، من حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧)، ومسلم في "صحيحه" (٤٦٣٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما به.

دنيا تفوتهم. احذر أن تؤذي ضعيفاً، فإن أغلب الناس - إلا من رحم الله - يؤذون الضعيف من أجل ضعفه، يؤذون الغريب لأنه غريب؛ ليس له عائلة تدافع عنه، ويؤذون من ليس له منصب ولا جاه، فاحذر فإن الضعفاء في حماية رب الأرض والسماء، في جناب الله تعالى وحفظه وولايته، فعلى العبد أن يكرمهم لعل الله أن يكرمه فمن أكرم الضعفاء أكرمه الله تعالى، فاحذر الحذر من أذية الضعفاء والاستهانة بهم، فإن الله يعينهم وينصرهم.

إشكال، والجواب عنه:

كيف نجمع بين قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، وبين قوله تعالى

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]؟

الجواب: قال أهل العلم: المنهي عنه أن يكون على سبيل التعيير، أو أن هذا الشخص يكره

هذا اللقب، أما إن كان هذا اللقب قد اشتهر به، ولا يعرف إلا به، فلا كراهة حينئذ. (١)

وقد تواتر عندنا في أسماء السادة العلماء الكبار، الأعرج عبدالله بن هرمز الأعرج، والأعمش سليمان بن مهران، والدراوردي عبد العزيز بن محمد، وَكَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ: أُنْدَرُونَ؟ فَلَقَبُوهُ الدَّرَاوَرْدِيَّ، وخالد الحذاء ولم يكن حذاءً بل كان يجلس عندهم، ويجلس عندهم فقيل له خالد الحذاء، وزيد الفقير، ليس لأنه كان فقيراً بل كانت تؤلمه فقرات ظهره، وأبو سعيد المقبري قيل لأن بيته كان قريب من المقابر.

وأيضاً عندنا في السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي

(١) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٣٧)، و"تنمية أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٤٣٠).

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٨/ ٣٦٦)

(٣) ينظر "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/ ١١٢)

العشي، قال: فصلى بنا ركعتين، ثم سلم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد، فاتكأ عليها كأنه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى، وشبك بين أصابعه، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السرعان من أبواب المسجد، فقالوا: قصرت الصلاة؟ وفي القوم أبو بكر، وعمر، فهابا أن يكلماه، وفي القوم رجلٌ في يديه طولٌ، يقال له: ذو اليدين، قال: يا رسول الله، أنسيت أم قصرت الصلاة؟ قال: لم أنس، ولم تقصر، فقال: أكما يقول ذو اليدين؟ فقالوا: نعم، فتقدم، فصلى ما ترك، ثم سلم... الحديث^(١)

قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۖ فَأَن ت لَهُ تَصَدَّىٰ ۖ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۖ﴾ يعني من استغنى بهاله وجاهه وحسبه ونسبه، عن الله وعن رسوله ﷺ وعن دينه، فأنت تتصدى له، وتقبل عليه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۖ﴾ أي وما يضرك إن لم يهتد، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ فَأَن ت عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۖ﴾ جاءك أنت يسعى قاصداً لك، ليَهْتَدِي بما تقول له.^(٢)
من فضائل ابن أم مكتوم رضي الله عنه:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ﴾ هذا من تمام تشريف الله لابن أم مكتوم، ومن تمام تزكية الله

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٢٢٥)، وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به.

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٣١٩ / ٨)

له أن شهد له أنه ممن يخشى الله. (١)

ومن فضائل ابن أم مكتوم رضي الله عنه -أيضاً-: أنه أنزلت فيه آية، وهي: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] قال النبي ﷺ «ادعوا فلاناً» فجاءه ومعه الدواة واللوح، أو الكتف، فقال: "اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله" وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضريّر، فنزلت مكانها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢)

(١) قال ابن الملحق رحمه الله في "نظم الدرر" (٨/ ٣٢٥)، افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه لهم فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله ﷺ وأعلى منزلته لديه (رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره) ومنهم ابن مكتوب الأعمى مؤذن رسول الله ﷺ وهو الذي بسببه نزلت السورة ووردت بطريق العتب وصاة لنبية ﷺ، ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره عدم الصيت الدنياوي ولا أخل به عماه بل عظم ربه شأنه لما نزل في حقه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنِّي﴾ أو يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ؟، فإيا له صيتاً ما أجله بخلاف من قدم ذكره ممن طرد فلم يترك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾، كابن أم مكتوم.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٥٩٤)، ومسلم في "صحيحه" (٤٩٤٧)، وغيرهما، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه به.

ومن فضائله - أيضاً - : أن الرسول ﷺ أمره على المدينة مرتين .

وكان يحمل راية المسلمين يوم القادسية .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ اسْتَخْلَفَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فِي غَزَوَتَيْنِ غَزَاهُمَا يُصَلِّي بِأَهْلِهَا ، وفي رواية : اسْتَخْلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ مَرَّتَيْنِ عَلَى الْمَدِينَةِ وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ مَعَهُ رَايَةً سَوْدَاءُ . (١)

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٥٩٥)، وأحمد في "مسنده" (١٢٣٤٤)، والطبري في "جامع البيان"

(٢٤ / ١٠٤)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٢٨٨٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥١١٧)

وصح كذلك من طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٢١٣٤) "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الْمَدِينَةِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ" ، وصححه الألباني في "موارد الظمان" (٢١٣١)

قال الحافظ في "الإصابة في تمييز الصحابة" (٤ / ٦٠١) وقال بن عبد البر روى جماعة من أهل العلم بالنسب والسير أن النبي ﷺ استخلف بن أم مكتوم ثلاث عشرة مرة في الأبواء وبواط وذوي العشيرة وغزوته في طلب كرز بن جابر وغزوة السويق وغطفان وفي غزوة أحد وحمراء الأسد ونجران وذات الرقاع وفي خروجه من حجة الوداع وفي خروجه إلى بدر ثم استخلف أبا لبابة لما رده من الطريق قال وأما رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ استخلف بن أم مكتوم فلم يبلغه ما بلغه غيره انتهى .

تنبيه: الآثار الواردة في الباب صريحة أنه ﷺ استخلفه في الصلاة على المدينة أي الإمامة في الصلاة وورد في بعض الروايات الصلاة وغيرها ومن ثم حصل خلاف بين العلماء

قال الحافظ رحمه الله في "التلخيص الحبير" (٢ / ٣٤) وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَطَاءٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه . أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الْمَدِينَةِ . وإسناده حسن

قال المنذري رحمه الله في "مختصر سنن أبي داود" (٢ / ٣٠٣) ؛ وقال بعضهم : إنما ولاه الصلاة بالمدينة ، دون القضايا والأحكام ، فإن الضرر لا يجوز له أن يقضي بين الناس ، لأنه لا يدرك الأشخاص ، ولا يُثبت الأعيان ، ولا يدري لمن يحكم ؟ وعلى من يحكم ؟ وهو مقلد في كل ما يليه من هذه الأمور ، والحكم بالتقليد غير جائز .

وقد قيل : إنه - ﷺ - إنما ولاه الإمامة بالمدينة إكراماً له ، وأخذاً بالأدب فيما عاتبه الله عليه في أمره في قوله : **عَبَسَ**

و عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ «وَعَلَيْهِ دِرْعٌ وَبِيَدِهِ رَايَةٌ» وَفِي رَوَايَةٍ
وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ. (١)

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝﴾ فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي
سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝﴾ لفظ (كلا) ردع وزجر، أي: كلا، لا تفعل هذا أبداً. (٢)
﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝﴾ أي الموعظة التي وعظناك بها يا محمد، هي تذكرة لك ولغيرك من
أُمَّتِكَ. (٣)

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝﴾ أي فمن شاء ذكر الله في جميع أموره ولم يكن غافلاً،

وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝﴾ [عبس: ١ - ٢]. وروى أن الآية نزلت فيه.

(١) (موقوف حسن) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٣١٢٣)، والحاثر بن أبي أسامة في "مسنده" (٦٦١) وانظر
"المطالب العالية" (٤٠٣٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١٠٥)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني"
" (٨٢٦)، الطيالسي في "مسنده" (٣١٠)، من طرق عن قتادة عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... به، ولم يصرح قتادة
في جميع الطرق بالسماع من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مدلس، إلا أنه تابع علي بن زيد بن جدعان فالأثر يحسن
والله أعلم.

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ٢١٥).

(٣) قال القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩ / ٢١٥) إِنَّهَا أَيْ السُّورَةُ أَوْ آيَاتُ الْقُرْآنِ تَذْكِرَةٌ أَيْ مَوْعِظَةٌ
وَبَصِيرَةٌ لِلْخَلْقِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الْقُرْآنَ قَوْلُهُ: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ أَيْ كَانَ حَافِظًا لَهُ غَيْرَ نَاسٍ، وَذَكَرَ الضَّمِيرُ،
لِأَنَّ التَّذْكِرَةَ فِي مَعْنَى الذِّكْرِ وَالْوَعْظِ، وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٢١) أَيْ: هَذِهِ
السُّورَةُ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالسَّوَادَةِ يَنْبَغِي النَّاسَ فِي إِبْلَاحِ الْعِلْمِ مِنْ شَرِّ فِيهِمْ وَوَضْعِهِمْ.

وقيل: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) أي القرآن. (١)

وقيل: فَمَنْ شَاءَ الله له الخير ذكر القرآن وفهمه، وَاتَّعَظَ بِمَشِيئَةِ الله وَتَفْهِيمِهِ. ٢

قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) هذا القرآن أو هذه التذكرة، في صحف مكرمة. (٢)

قوله تعالى: ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤) أي عالية مُطَهَّرَةٍ مِنَ الدَّنَسِ أو مِنْ أَنْ يَصِيبَهَا شَيْءٌ. (٣)

قوله تعالى: ﴿بِأَيِّدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) وهم الملائكة الكرام البررة. (٤)

فضيلة أهل القرآن:

هذه الآية بُشِّرَى لصاحب القرآن، وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ". (٥)

(١) قال الشوكاني في "فتح القدير" (٥ / ٤٦٣) أي: أن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك فمن شاء ذكره أي: فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره.

قيل: إن معنى فمن شاء ذكره فمن شاء الله أهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به، والأول أولى .

(٢) ينظر "تفسير البغوي" (٨ / ٣٣٦)

(٣) قال ابن جرير في "جامع البيان" (٢٤ / ١٠٨) يَعْنِي "فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ، وَهُوَ الْمَرْفُوعُ الْمُطَهَّرُ عِنْدَ اللَّهِ"، وانظر "الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي" (١٠ / ١٣١)

(٤) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ٢١٦)

(٥) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ١٠٩).

(٦) (صحيح) أخرج هذه الرواية على هذا الوجه، النسائي في "السنن الكبرى" (٨١٨٨) في التفسير، سورة عبس، وفي (٨١٨٩) وبوب لها باب (المتتبع في القرآن) وابن ماجه في "سننه" (٣٧٧٩) وأحمد في "مسنده" (٢٦٢٩٦) وإسحاق في "مسنده" (١٣١٣) والفرباي في "فضائل القرآن" (٣)، وغيرهم عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. والحديث في المتفق عليه، أخرجه "البخاري" (٤٩٣٧)، و"مسلم" (١٨١٢)، أيضاً

ولذلك قال أهل العلم: حامل القرآن سفيرٌ بين الله تعالى وبين عباده، لأنه يُبلِّغُ عن الله عز وجل كلامه، وسُمِّيَت الملائكةُ سفرةً لأنهم سفراءُ بين الله تعالى وبين عباده، جل جلاله وتباركت أسماؤه.^(١)

قوله تعالى: ﴿كَرَامَ بَرَّةٍ﴾ أي بارئين في طاعة الله دائماً، لا يفترّون عن طاعة ربهم.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ وَقَافَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ قُتِلَ أي لُعِنَ، والمعنى: لُعِنَ الإنسانُ ما أَشَدَّ كُفْرَهُ.

وقيل أيضاً: (مَا أَكْفَرَهُ) أي ما الذي جعله يكفر، وهو يرى آلاءَ الله عليه تترا.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ هنا يُدَكِّرُ الله عباده بنعمه عليهم، وبأصل خلقتهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، كما قال الله تعالى في

سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (١) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢) - يعني الرحم -

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٣) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ (٤)﴾ [المرسلات: ٢٠: ٢٣]

بلفظ: «مِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ، وَمِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»

(١) ينظر "النكت والعيون" (٦ / ٢٠٤)، و" تفسير البغوي" (٨ / ٣٣٧)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩ / ٢١٧).

﴿مِنْ نُّطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (١٩) أي قَدَرَهُ نُطْقَةً، ثُمَّ عَلَقَهُ ثُمَّ مُضِغَةً ثُمَّ جَعَلَ لَهُ عِظَامًا ثُمَّ كَسَاهُ لَحْمًا ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ثُمَّ قَدَرَهُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، وَقَدَرَهُ صَحِيحًا أَوْ مَرِيضًا، وَقَدَرَهُ طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا، وَقَدَرَهُ حَسَنًا أَوْ دُمِيًّا، وَقَدَرَهُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ، وَقَدَرَهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا (٢٠)، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. (٢)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ (٢٠) قال أكثر أهل العلم: المعنى أن الله يَسِّرَ له السبيل من الخروج من بطن أمه. (٢)

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ٢١٨)، وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣١٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْقَةً، يَا رَبِّ عَلَقَةً، يَا رَبِّ مُضْغَةً، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ" وكذلك ما أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (٦٨١٦)، من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيَوْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"

(٢) أخرج مسلم في "صحيحه" (٦٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢١٥٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٦١٣٨)، وغيرهم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ.، وانظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣٢٢)

(٣) أخرج عبد الرزاق في "تفسيره" (٣ / ٣٩٢) والطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١١١) وغيرهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ [عبس: ٢٠] يعني بذلك: خروجه من بطن أمه يسره له، أو رداً عن جرير

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ: المعنى ثم يسر له سبيل الهدى، ودله عليه.(١)، وكلا المعنيين صحيح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته بعد انقضاء أجله، فأقبره: أي جعل له قبراً يُقْبَرُ فيه، وهذه نعمة عظيمة، لم يجعلنا الله عز وجل مثل الحيوانات إذا مات الواحد منا يُلقى على ظهر الأرض تنهش فيه السباع وغير ذلك.(٢)

وهنا فائدة: وهي أن الانسان تعلّم الدفن من الغراب، قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَثَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوبِلْتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة ٢٧: ٣١].(٣)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي ثم إذا شاء الله البعث والنشور أنشَرَهُ، أي بعث العباد من قبورهم للعرض والحساب بين يديه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان، من أنه قد أدّى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ لم يؤدّ ما فُرِضَ عليه من الفرائض.(٤)

نحوه عن مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم.

- (١) قال ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٢٢)، وهذا هو الأرجح والله أعلم.
- (٢) ينظر " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥ / ٤٣٩)، و " مفاتيح الغيب " للرازي (٣١ / ٥٨)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩ / ٢١٩)، و " النكت والعيون " للماوردي (٦ / ٢٠٦)، و " الوسيط " للواحيدي (٤ / ٤٢٤).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٦ / ١٤٣).

(٤) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ١١٤)، وينحوه قال جُلّ المفسرين، انظر " الجامع لأحكام القرآن "

والعبدُ مهما فعل فلن يؤدي حقَّ الله على أكمل وجه، بل إن العبد لا يقوم بطاعةٍ من الطاعات ولا ينتهي عن معصيةٍ من المعاصي إلا بتوفيق الله، وإعانتة ومده.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "قَارِبُوا وَسَدُّوا، وَعَلِّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ". (١)

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَيْنًا وَقُضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ٣١ مَتَعَا
لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ ٣٢

بعد أن ذكر الله العبدَ بيده خلقه وأصل نشأته، شرع في تذكيره بالطعام الذي خلقه له، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ أي كما أن الله خلقك يا عبد الله من نطفة وجعلها في قرارٍ مكينٍ في رحم الأم، ثم تعاها ذلك جل جلاله بالرعاية والعناية حتى خرجت إنساناً

للقرطبي (١٩ / ٢١٩)، "والنكت والعيون" للماوردي (٦ / ٢٠٦)، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد نقل كلام السلف كما في "التفسير" (٨ / ٣٢٣) ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك -والله أعلم- أن المعنى: (ثم إذا شاء أنشره) أي: بعثه، (كلا لما يقض ما أمره) أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تنهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٦٣) وأخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٢١٩) وهذا لفظه، وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

لك سمعٌ وبصرٌ ويدانٍ ورجلانٍ وغيرُ ذلك، كذلك يُذكِّرُك اللهُ بالطعامِ الذي تأكلُه.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِۦ﴾ ﴿١٤﴾ لِيَنْظُرَ الْعَبْدُ نَظْرَةَ اعْتِبَارٍ وَاتِّعَاضٍ، عِنْدَمَا يَأْكُلُ فِي

الصَّبَاحِ أَوْ فِي الْغَدَاءِ أَوْ الْعِشَاءِ، وَأَمَامَهُ مَا لَدُوْطَابٍ، لِيَتَفَكَّرَ كَيْفَ جَاءَ هَذَا الطَّعَامُ؟

وها هو ربنا سبحانه يبين لنا ذلك، فيقول:

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿١٥﴾ أَي صَبَّهَ اللهُ تَعَالَى صَبًّا كَثِيرًا مِنَ السَّمَاءِ.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿١٦﴾ أَي شَقَّ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْمَاءَ الْأَرْضَ فَدَخَلَ فِي ثُجُومِهَا.

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿١٧﴾ أَي أَنْبَتَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْمَاءَ - الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَدَخَلَ إِلَى

الْأَرْضِ - الْحُبُوبَ مِنَ الذَّرَّةِ وَالْأَرْزِ وَالْحِنْطَةِ وَالْعَدَسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَبُوبِ الَّتِي يُخْرِجُهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ.

﴿وَعَنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿١٨﴾ أَي وَفَاكِهَةً يَتَفَكَّهُونَ بِهَا وَيَسْتَلْذِنُونَ، وَمَعْنَى قَضْبًا أَي طَعَامًا لِلْحَيَوَانِ،

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: هُوَ الْبَرَسِيمُ، وَهُوَ كُلُّ مَا قَطَعَ يَنْتِجُ أَصْلُهُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَهُوَ طَعَامٌ لِلْحَيَوَانِ^(١)

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿١٩﴾، وَالزَّيْتُونُ شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّ النَّخْلَ يُنْتَفَعُ بِهِ

فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ ضَرَبَ الرَّسُولُ ﷺ مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِ بِالنَّخْلَةِ، فَعَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدَّثُونِي مَا هِيَ؟»

(١) (التخيم) الحُدُ الْفَاصِلُ بَيْنَ أَرْضَيْنِ وَالْعَالَمِ يَهْتَدِي بِهَا فِي الطَّرِيقِ، وَجَمْعُهَا: تَخُومٌ يَنْظُرُ "المعجم الوسيط" (١/

(٢) أخرج الطبري بسنده في "جامع البيان" (٢٤/ ١١٦)، عن الحسن قال: (وقضبا) قال: القضب: العلف.

وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٢٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٣٩)، شرح

فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَمَّا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: «لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا».(١)

﴿وَحَدَّثَ ابْنُ عَبَّاسٍ﴾ الأغلب هو عظيم العنق، أي حدائق عظيمة وكبيرة(٢)، ﴿وَفَكَهَةً وَأَبَّابًا﴾ أي فاكهة أخرى كالنجاح والموز والبرقوق وغير ذلك.

وقوله (وَأَبَّابًا): الأبُّ هو ما تأكله البهائم من العُشبِ والنبات ٣.

وقد ورد عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ﴿وَفَكَهَةً وَأَبَّابًا﴾، فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ.(٤)
وأيضا ثبت هذا عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.(٥)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٢) ومسلم في " صحيحه " (٧٢٠٠) وغيرهما، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (١١٧ / ٢٤) والغلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة من الرجال؛ ومنه قول الفرزدق: عوى فائئار أغلب ضيغميا... فويل ابن المراغة ما استشارا

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (١١٩ / ٢٤) وبنحوه أسند عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الأب: ما أنبتت الأرض للأنعام، وقال الأب: الكلاء والمرعى كله.

(٤) (ضعيف) أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٣٠٧٢٧) وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٢٥١ / ١٥) لأبي عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وساق ابن كثير سند أبي عبيد كما في " تفسيره " (٣٢٤ / ٨) عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا مَنْقُطٌ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ وَالصَّدِيقِ، وَكَذَا الْحَافِظُ بْنُ حَجْرٍ كَمَا فِي "فتح الباري" (٢٧١ / ١٣) قَالَ: وَهَذَا مَنْقُطٌ بَيْنَ النَّخَعِيِّ وَالصَّدِيقِ.

(٥) (صحيح) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢٠ / ٢٤)، وأبو عبيد في "فضائل القرآن" (٦٨٨)، والحاكم في "المستدرک" (٣٨٩٧)، جميعاً من طرق، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ - عَلَى الْمَنْبَرِ - "عَبَسَ"

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وهذا محمولٌ على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلٌ من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض. (١)

قوله تعالى: ﴿مَتَنَعَا لَكُم وَلَا نَعْمِيكُمْ﴾ أي تتمتعون بهذه الخيرات التي أخرجها الله لكم، وكذلك تستمتع أنعامكم، إلى حين، حتى تنتهي هذه الحياة الدنيا.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ (٣٣) يَوْمُ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقَتِهِ (٣٦) وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ (٣٣) المراد بالصاحخة النفخ في الصور وهي الساعة يوم القيامة، وسميت صاخّة لأنها صوت شديد عظيم يصُخُّ الأذان، أي يصيبها الصمم.

﴿يَوْمُ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقَتِهِ (٣٦) وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ {يَفِرُّ الْمَرْءُ} من أعزّ الناس إليه، وأشفقهم لديه، {مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ} {وَصَاحِبَتِهِ} أي: زوجته {وَبَنِيهِ} أبناءه. (٢)

قال أهل العلم: يفرُّ المرء من أقاربه، حذراً من مطالبتهم إياه، بما بينه وبينهم من التبعات

وَتَوَلَّى "حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: "وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" قَالَ: قَدْ عَلِمْنَا مَا الْفَاكِهَةُ، فَمَا الْأَبُّ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا هُوَ التَّكْلُفُ. وفي رواية "بِحَسْبِنَا مَا قَدْ عَلِمْنَا"، وفي رواية: "هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ التَّكْلُفُ، فَخُذُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَيْنَ لَكُمْ مِنْهُ، فَمَا عَرَفْتُمْ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَكَلُوا عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٢٥).

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (٩١١).

والمظالم، ولا بد أن تُعطى وترجع الحقوق لأهلها.(١)

حتى أن الله سبحانه يأخذ الحق من البهيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَتُؤَدَّنَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ).(٢)

وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: قد شغلته نفسه، واهتم لفكائها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، وفي قراءة ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ بعين مهملة أي يخصه ويختص به ويهتم به.(٣)

فحيث ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فقال تعالى فيهم:

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ وهي وجوه أهل الإيمان، (مُسْفِرَةٌ) أي مُشْرِقةٌ مستنيرةٌ، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]

(١) قاله الطبري رحمه الله: في "جامع البيان" (٢٤ / ١٢٥)

(٢) (متفق عليه) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٦٧٢)، والترمذي في "سننه" (٢٤٢٠)، وأحمد في "مسنده" (٧٢٠٤)، و (٧٩٩٦)، و (٨٢٨٨)، وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" للسيوطي (٢ / ٣١٦)، وقال ابن عاشور في "التحرير والتنوير" (١ / ٥٩)، وأما صحة السند الذي تروى به القراءة لتكون مقبولة فهو شرط لا محيد عنه إذ قد تكون القراءة موافقة لرسم المصحف وموافقة لوجوه العربية لكنها لا تكون مروية بسند صحيح، كما ذكر في المزهر أن حماد بن الزبرقان قرأ ﴿إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] بالباء الموحدة وإنما هي إياه بتحتية، وقرأ {بل الذين كفروا في غرة} بغين معجمة وراء مهملة وإنما هي "غزة" بعين مهملة وزاي، وقرأ ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] بعين مهملة، وإنما هي "يغنيه" بغين معجمة، ذلك أنه لم يقرأ القرآن على أحد وإنما حفظه من المصحف، و "البحث اللغوي عند العرب" (٢٣)

﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ صَاحِكَةٌ لَّأَنهَا نَالَتْ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ، مُسْتَبْشِرَةٌ بِكُلِّ خَيْرٍ وَنَعِيمٍ، لَّأَنهَا فِي مَأْمَنِ مِنْ كُلِّ هَمٍّ.

﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بَعْطَاءُ اللَّهِ لَهَا وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهَا. (١)

وَأَمَّا الْأَشْقِيَاءُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ:

﴿وَوُجُوهٌُ يُؤْمَدُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أَي: غُبَارٌ وَكُدُورَةٌ لَمَّا تَرَاهُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْعَذَابِ، تَرَهَّقُهَا قَتَرَةٌ أَيْ: يَغْشَاهَا وَيَعْلُوهَا سَوَادٌ وَكُسُوفٌ، وَقِيلَ: ذَلَّةٌ، وَقِيلَ: شِدَّةٌ.

فَهِىَ سَوْدَاءُ مَظْلَمَةٌ مَدْلُومَةٌ، قَدْ أَيسَتْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَرَفَتْ شَقَاءَهَا وَهَلَاكَهَا. ٢

قَالَ تَعَالَى: ﴿تَرَهَّقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أَي أُولَئِكَ الْكَفَّارُ الْمَجْرُمُونَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَلَى اللَّهِ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَشِيعُونَ الْكُفْرَ وَالْفُسَادَ، وَيَحَارِبُونَ دِينَ اللَّهِ بِكُلِّ مَا أَوْتُوا، سَتَرَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْلَاءً، ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الْكَفَّارُ الْمَجْرُمُونَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَلَى اللَّهِ، وَيَتَكَبَّرُونَ

عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَشِيعُونَ الْكُفْرَ وَالْفُسَادَ، وَيَحَارِبُونَ دِينَ اللَّهِ بِكُلِّ مَا أَوْتُوا، تَرَاهُمْ أَذْلَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ١٢٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٤ / ٢٦٤)، و"الجامع

لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩ / ٢٢٥)، و"مفاتيح الغيب" للرازي تفسير الرازي (٣١ / ٦٢)، و"النكت

والعيون" للماوردي (٦ / ٢٠٩)، و"الوسيط" للواحدى (٤ / ٤٢٦)

(٢) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥ / ٤٦٧)، و"تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (٩١١)

رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ [الشورى: ٢٢]
 اللهم اجعلنا منهم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ ﴿٢٣﴾ أراد كل كافر فاجر، فهم الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم فجمعوا بين الكفر والفجور، فالكفر أعظم الذنوب لكنه يتفاوت.

وقفه: الكفر أعظم الذنوب، ولذلك علينا أن نكون من أهل الإيمان في عقيدتهم وسمتهم وهديتهم وأخلاقهم، لعل الله أن يختتم لنا بعمل من أعمال أهل الإيمان، فنفوز بالسعادة الأبدية، ونكون من الناجين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تم بحمد الله ومنتته الانتهاء من تفسير سورة عبس.

﴿سُورَةُ التَّكْوِينِ﴾

وهي سورة مكيةٌ باتفاق أهل العلم^(١)، وآياتها تسعٌ وعشرون، نزلت بعد المسد.

ومناسبتها لما قبلها: أن كليهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها.^(٢)

روى الترمذي في سننه، عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ»^(٣).

فهذه السور الثلاث، التكوين، والانفطار، والانشقاق، تُصَوِّرُ لك القيامة كأنك تراها رأي عين، وتفقه مواقفها جميعاً، نسأل الله أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة.

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ❶ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ❷ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ❸ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ❹ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ❺ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ❻ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ❼ وَإِذَا

(١) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٤١)، وابن الجوزي في "زاد المسير" (٣٧/ ٩) والقرطبي في "تفسيره" (٢٢٦/ ٩).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠/ ٥٢).

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٣٣) وقال "حديث حسن غريب"، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٥٩٩٧)، وأحمد في "مسنده" (٤٨٠٦)، والحاكم في "المستدرک" (٨٩٤٥)، والسيوطي في "الدر المنثور" (٢٥٧/ ١٥) من حديث ابنِ عمرَ رضي الله عنهما به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٧٩/ ٢).

الْمَوْدَةُ سِيلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا
الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ ۝١٣ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ۝١٤ ﴿

قال الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ أي، لُفَّتْ، وُجِعَ بعضها إلى بعض، ورُمي بها،
وذهب ضوءها، وهي مأخوذة من تكوير العمامة، أي يُلَفُّ بعضها على بعض، ويُجَمَع بعضها إلى
بعض، فكَذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ زَوَالَ الدُّنْيَا بِتَهَاوُهَا، هَذِهِ الْآيَاتُ الْبَاهِرَاتُ
الْعَظِيمَةُ، الشَّمْسُ، وَالنُّجُومُ، وَالْقَمَرُ، وَالسَّمَاءُ، وَالْجِبَالُ - تَتَبَدَّلُ وَتَتَغَيَّرُ -

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ هذه الشمس يُجَمَعُ بعضها إلى بعض، وتُلَفُّ، وتُكَوَّرُ، ويرمى
بها، في نار جهنم، فإذا فعل ذلك ذهب ضوءها.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢﴾ ، أي تساقطت، وهذا منظرٌ مهيبٌ، تلك النجوم لا يحصي
عددها إلا الله تعالى، تراها في هذا اليوم، تتساقط من السماء، وتتناثر، فيذهب ضوءها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ ، وكما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي
نَسْفًا ۝١٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٦ لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَابٌ ۝١٧﴾ [طه: ١٥٥ - ١٥٧]، وقال
تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٨] تحملها الرياح إلى حيث شاء الله، تُدَكُّ أولاً دَكَّةً واحدةً
قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، فتصير تراباً، ثم
تصير كالعهن، ثم تُسَيَّرُها الرياح، تحملها إلى حيث شاء الله، تراها كأنها جبالٌ، وهي ليست
بشيءٍ.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ هذه علامات عظيمة فيها تغيرٌ للكون كله.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار هي الإبل الحوامل، والرجل العربي أرغب ما يكون في الإبل إذا كانت حاملاً، وأيضاً إذا بلغت الشهر العاشر، أي أوشكت على الوضع، فهو أرغب ما يكون فيها، سيأتي على الناس يومٌ، يهملون أموالهم، ويتركونها، فتتعطل العشار، يراها الناس ويهملونها، ولا يرغبون فيها، لما داهمهم من محنٍ، وبلايا، وكرباتٍ، ينشغلون عنها بأهوال يوم القيامة، فيتركون أنفسهم أموالهم، ولا ينتفع بها، ولا يلتفت إليها، هذه الأموال التي كانوا يقتتلون من أجلها، ويقطعون رحمهم بسببها، وهذه الأموال التي قُطعت أيدي الناس - أي في إقامة حد السرقة - بسببها والعياذ بالله، تُهمَل ويُشغلون عنها بأهوال القيامة .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ تدبر هذه الآية ولا تغفل عنها، {حُشِرَتْ} أي جُمِعت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ حَشَرُ كُلِّ شَيْءٍ الموتُ، يجمع الخلق غير الجن والإنس، ولكن هذا الكلام من ابن عباس رضي الله عنهما خلاف الظاهر، فالظاهر أن الحشر هو الجمع، فالإنس، والجن، والملائكة، والطير، والدواب، والوحوش، وكل الخلق يحشرون أمام الله جل جلاله، فالذي عليه أكثر أهل العلم، أنها تجمع أمام الله سبحانه^(١).

و(الوحوش) هي السباع والحيوانات المفترسة، من الأسود، والنمور، والفهود، ونحوها. فما الحكمة من جمع هذه الحيوانات؟

الحكمة: أن يظهر عدلُ الله أمام الخلائق، ليأخذ الحق من الظالم للمظلوم، سبحانه وبحمده.

(١) قال ابن جرير رحمته الله في "جامع البيان" (١٣٧/٢٤) وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى حشرت: جمعت، فأُميتت لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع؛ ومنه قول الله: ﴿وَالطَّيْرُ نَحْشُورَةٌ﴾ [ص: ١٩] يعني: مجموعة. وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ [النازعات: ٢٣] وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله، لا على الأنكر المجهول.

ففي مسند أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَتَطَحَّانِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَتَطَحَّانِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا»^(١).

شاةٌ عجاءٌ، ولعلها ذُبحت وأكلها الآدميون، أو لعلها ماتت حتف أنفها، وإذا بها تُبعث يوم القيامة ويُقْتَصُّ منها، لأنها نطحت أختها بغير حقٍّ، - سبحان الله العظيم! -، ما بال المدير الذي يظلم مَنْ تحته، ما بال الوزير الذي لا يبالي بَمَنْ تحته، ما بال المسؤول الكبير الذي يظلم مَنْ ولَّاه الله عليه، لا بد أن يأتي يومٌ للمظلوم، يسعد فيه سعادةً يتمنى لو ترك حقه كله في الدنيا، حتى يُعوَّضَه الله عنه يوم القيامة بالدرجات العلى، والنعيم المقيم.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"^(٢)، لا بد أن تؤدَّى الحقوقُ فمن أخذ مال غيره بغير حقٍّ، ومن ظلم إنساناً وبغى عليه، ومن شهد شهادة زورٍ، ومن أخذ أرضاً من إنسانٍ ظلماً وعدواناً، وهجره من بيته، كل ذلك من المظالم، قال الله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٣)، البحار - كالبحر المتوسط، والبحر الأحمر -، والمحيطات -

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٤٣٧)، وابن جرير في "جامع البيان" (٢٣٦/٩)، وأبو داود الطيالسي في "مسنده" (٤٨٢)، وابن أبي الدنيا في "الأهوال" (١٨١)، وابن أبي داود في "البعث" (٣٦)، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١١٧/٤).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٨٢)، والترمذي في "سننه" (٢٤٢٠)، وأحمد في "مسنده" (٧٢٠٤)، والبيهقي في "السنن الكبير" (١١٦/٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

كالمحيط الهندي، والمحيط الهادي، والمحيط الأطلسي.. وغيرها، هذه البحار العظيمة التي تحيط بالأرض، سُجِّرَتْ.

قال أهل العلم: سُجِّرَتْ أي ملئت عن آخرها وأوقدت ناراً، نعوذ بالله، تخيل النار تحيط بالأرض كلها، من جميع جوانبها.

﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ تفجرت وتأججت ناراً^١، والعياذ بالله، وهذه من علامات يوم القيامة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وقرأ قارئٌ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وفي الحاضرين أبو الوفا ابن عقيل.

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ يَا سَيِّدِي هَبْ أَنَّهُ أَنْشَرَ الْمُوتَى لِلْبُعْثِ وَالْحِسَابِ، وَزَوَّجَ النُّفُوسَ بِقِرْنَائِهَا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَمَا الْحِكْمَةُ فِي هَدْمِ الْأَبْنِيَّةِ وَتَسْيِيرِ الْجِبَالِ وَدَكِّ الْأَرْضِ وَفَطْرِ السَّمَاءِ وَنَثْرِ النُّجُومِ وَتَخْرِيبِ هَذَا الْعَالَمِ وَتَكْوِيرِ شَمْسِهِ وَخَسْفِ قَمَرِهِ؟

فَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ عَلَى الْبَدِيَّةِ: إِنَّمَا بَنِي هَؤُلَاءِ الدَّارِ لِلسُّكْنَى وَالتَّمَتُّعِ وَجَعَلَهَا وَمَا فِيهَا لِلْإِعْتِبَارِ وَالتَّفَكُّرِ وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ بِحَسَنِ التَّامُّلِ وَالتَّذَكُّرِ، فَلَمَّا انْقَضَتْ مُدَّةُ السُّكْنَى وَأَجْلَاهُمْ عَنِ الدَّارِ وَخَرَّبَهَا لانتقال السَّاكِنِ مِنْهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَعْلَمَهُمْ بِأَنْ فِي إِحَالَةِ الْأَحْوَالِ وَإِظْهَارِ تِلْكَ

(١) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في "زاد المسير" (٣٩/٩) قوله تعالى وإذا البحار سجرت قرأ ابن كثير وأبو عمرو

سجرت بتخفيف الجيم وقرأ الباكون بتشديدها، وفي المعنى ثلاثة أقوال:

"أحدها": أوقدت فاشتعلت نارا قاله علي وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

"والثاني": يبست قاله الحسن.

"والثالث": ملئت بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها قاله ابن السائب والفراء وابن قتيبة.

الأهوال وإبداء ذلك الصنع العظيم بيّناً لكمال قدرته ونهاية حكمته وعظمة ربوبيته وعز جلاله وعظم شأنه، وتكذيباً لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعُباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم وأن معبوداتهم قد انتشرت والأفلاك التي زعموا أنها وما حوته هي الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشققت وانفطرت، ظهرت حيثئذ فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوبٌ محدثٌ مُدبرٌ له ربٌّ يُصرفه كيف يشاء، تكذيباً لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم، فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظيم عزته، وقدرته، وسلطانه، وانفراده بالربوبية، وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره، وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين. أهـ^(١)

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾، أي يُحْشَرُ الصالح مع الصالح، والطالح مع الطالح.

فيا مَنْ تحافظ على الصلاة في جماعة، يوم القيامة يحشرك مولاك مع المصلين، ويا مَنْ تنفق لله تعالى، وترجو وجه الله، أبشر، يحشرك مولاك يوم القيامة مع المنفقين المتصدقين، الذين هم في أعلى الدرجات بإذن الله تعالى - ، يا مَنْ قلبك مليء رحمةً، وشفقةً على الضعفاء، الله يرحمك مع المرحومين، ويحشرك معهم يوم القيامة، "ارحموا ترحموا"، و"الراحمون يرحمهم الرحمن"^(٢).
وفي المقابل: الجبابرة والمتكبرون و الطغاة، يُحشرون سوياً، ولذلك قال الرسول - ﷺ - عن

(١) ينظر "مفتاح دار السعادة" لابن الجوزي (٢/ ١٦٤)، و"تفسيره" له (٥٦٢)، و"بدائع الفوائد" لابن القيم (٣/ ١٨٢).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٤١)، والترمذي في "السنن" (١٩٢٤)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٥٨٦٤)، وأحمد في "مسنده" (٦٤٩٤)، والحاكم في "المستدرک" (٧٤٨٠)، من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ» صححه الألباني في "الصحيحة" (٢/ ٩٤٥).

الصلاة: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً مِّنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا، وَلَا نَجَاةً، وَلَا بُرْهَانًا، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَأَبِي بَنٍ خَلْفٍ»^(١) والعياذ بالله، والزناة يحشرون سويًا، وَقُطَّاعُ الْأَرْحَامِ كَذَلِكَ، والمتكبرون يطؤهم الناس بأقدامهم، يغشاهم الذل والهوان مِن كل جانبٍ، فهنيئًا لِمَنْ كَانَ مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَقَالِهِ، يُحْشَرُ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ أَيُّهَا سَعَادَةٌ.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾^(٨) الموءودة أي المقتولة التي وُثِدَتْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَكَانَ الْكَفَّارُ يَثْدُونُ الْبَنَاتِ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

وَوَادُ الْبَنَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ، فَهُوَ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٦٨) يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَحُلْدُ فِيهِ مُهَانًا^(٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَامَلَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٧٠) [الفرقان: ٦٨ - ٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَوْحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٥١) [الأنعام: ١٥١].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ " قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ

(١) (ضعيف) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٣٤٦)، والدارمي في "السنن" (٢٧٦٣)، وابن حبان في "صحيحه" (١٤٦٧)، والطبراني في "الكبير" (١٦٣) مطولا، و"الأوسط مختصرا" (١٧٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب"

تَقْتُلْ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ".^(١)

تنبيه: مسألة تحديد النسل ما حكمها؟ وهل فيها تفصيل؟

الذين يقولون لا نريد إنجاباً ، خوفاً من الفقر، فليعلم أن الرزاق هو رب العالمين جل جلاله،

وقد سئلت اللجنة الدائمة عن ذلك فكانت الفتوى : تحديد النسل حرام ؛ لأن كثرة النسل مطلوبة في الإسلام؛ لتكثير عدد الأمة، وأما تنظيمه بمعنى: تأخير الحمل لغرض صحيح؛ كضعف المرأة عن الحمل، أو الحاجة لإرضاع الطفل الموجود، فلا بأس به للحاجة.^(٢)

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبه -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ".^(٣)

وواد البنات كان على أشكال في الجاهلية، انظر إلى غلظتهم ، حتى ترى ما صنع الإسلام في هذا الإنسان، قبل الإسلام، كان كثير من الناس كالبهائم ، بل هم أضل سبيلاً، فجاء الإسلام فهذب هذا الإنسان، وجعله وزينه وجعله أبهى ما يكون، وغير قلبه وقالبه ، كان الواحد منهم يحفر لزوجته حفرة عند الولادة، فإن وضعت ولدًا، أخذه واستبشر به وفرح، وإن وضعت بنتًا، تلقى في الحفرة، وتهيل عليها التراب، والعياذ بالله^(٤)، ومنهم من كان يترك ابنته حتى إذا بلغت

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٤٧٧)، ومسلم في "صحيحه" (٨٦)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رضي الله عنه ، به .

(٢) ينظر "فتاوى اللجنة الدائمة" رقم (١٦٠١٣) (١٩/٣٠٠).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (٥٩٣)، واللفظ له من حديث المغيرة بن شعبه رضي الله عنه ، به .

(٤) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (٢٦٢/١٥) وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

ست سنوات، يقول لزوجته جملها، حتى أذهب بها إلى أخوالها، وقد حفر بئراً في الصحراء، فإخذ ابنته، وهى متزينة، ومتجملة، - والعياذ بالله -، ثم يلقيها بنفسه في البئر، و يهيل عليها التراب ، ويسوي بها الأرض، فهذه القلوب التي بلغت الذروة في القسوة، لما جاء الإسلام طهرها، وجملها وزينها، وحثَّ على إكرام البنت أيما إكرام، فقال النبي ﷺ: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(١)، وقال ﷺ: " مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اثْنَيْنِ؟ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ " ^(٢)، إلى غير ذلك من الأحاديث العظيمة الدالة على فضل تربية البنات وإكرامهن والإحسان لهن.

و أوَّل مَنْ وَّادَّ الْبَنَاتِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ "قيس بن عاصم التميمي"، قال الحافظ بن حجر رحمه الله: "ويقال إن أول من فعل ذلك هو قيس بن عاصم التميمي، وكان بعض أعداءه أغار عليه فأسر بنته فاتخذها لنفسه، ثم حصل بينهم صلح، فخيرَّ ابنته فاختارت زوجها، فألى قيس على نفسه أن لا تولد له بنتٌ إلا دفنها حيَّة، فتبعه العربُ في ذلك، وكان من العرب فريقٌ ثانٍ يقتلون أولادهم مطلقاً، إما نفاسَةً منه على ما ينقصه من ماله، وإما من عدم ما ينفقه عليه، وقد

عباس رضي الله عنه قال: الموءودة هي المدفونة كانت المرأة في الجاهلية إذا هي حملت فكان أوان ولادها حفرت حفرة فتمخضت على رأس تلك الحفرة فإن ولدت جارية رمت بها في تلك الحفرة وإن ولدت غلاما حبسته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فمن زعم أنهم في النار فقد كذب بل هم في الجنة .

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٢٩)، (واللفظ له) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٣١٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٣٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به .

ذكر الله أمرهم في القرآن في عدة آيات "، والعجب أن قيس بن عاصم، أدرك الإسلام، من فضل رب العالمين عليه، وجاء إلى الرسول - ﷺ - تائباً نادماً، والإسلام بحمد الله يحب ما قبله^(١)

وانظر إلى تلك الصورة المشرقة المقابلة، عن صَعْصَعَةَ بِنِ نَاجِيَةَ الْمُجَاشِعِيِّ، وَهُوَ جَدُّ الْفَرَزْدَقِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: " قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَعَرَضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، فَأَسْلَمْتُ وَعَلَّمَنِي آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَمِلْتُ أَعْمَالًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهَلْ لِي فِيهَا مِنْ أَجْرٍ، قَالَ: «وَمَا عَمِلْتُ» فَقُلْتُ: ضَلَّتْ نَاقَتَانِ لِي عَشْرَاوَانِ، فَخَرَجْتُ أَتْبَعُهُمَا عَلَى جَمَلٍ لِي فَرَفَعَ لِي يَتَانِ فِي فُضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ فَقَصَدْتُ قَصْدَهُمَا فَوَجَدْتُ فِي أَحَدِهِمَا شَيْخًا كَبِيرًا فَقُلْتُ: أَحْسَسْتُمُ نَاقَتَيْنِ عَشْرَاوَيْنِ فَأُنَادِيَهُمَا، فَقَالَ: مِقْسَمُ بْنُ دَارِمٍ قَدْ أَصَبَنَا نَاقَتَيْكَ وَبَعْنَاهُمَا وَقَدْ نَعَشَ اللَّهُ بِهِمَا أَهْلَ يَتَيْنِ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ مُضَرَ فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطِبُنِي إِذْ نَادَتْهُ امْرَأَةٌ مِنَ الْيَتِ الْآخِرِ وَلَدَتْ وَلَدَتْ، قَالَ: وَمَا وَلَدَتْ إِنْ كَانَ غُلَامًا فَقَدْ شَرِكْنَا فِي قَوْمِنَا، وَإِنْ كَانَتْ جَارِيَةً فَادْفِنِيهَا فَقَالَتْ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ: وَمَا هَذِهِ الْمُؤُودَةُ؟ قَالَ: ابْنَةُ لِي فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْتَرِيهَا مِنْكَ، فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ أَتَبِيعُ ابْنَتَكَ، وَإِنِّي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ مُضَرَ فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَشْتَرِي مِنْكَ رَقَبَتَهَا بَلْ إِنَّمَا أَشْتَرِي مِنْكَ رُوحَهَا أَنْ لَا تَقْتُلَهَا، قَالَ: بِمِ تَشْتَرِيهَا فَقُلْتُ: بِنَاقَتَيْ هَاتَيْنِ وَوَلَدِهِمَا، قَالَ: وَتَزِيدُنِي بَعِيرَكَ هَذَا قُلْتُ: نَعَمْ عَلَى أَنْ تُرْسِلَ مَعِيَ رَسُولًا، فَإِذَا بَلَغْتُ إِلَى أَهْلِي رَدَدْتُ إِلَيْهِ الْبَعِيرَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ فَكَّرْتُ فِي نَفْسِي أَنَّ هَذِهِ مَكْرَمَةٌ مَا سَبَقَنِي إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَظَهَرَ الْإِسْلَامُ وَقَدْ أَحْيَيْتُ بِثَلَاثِائَةٍ وَسِتِّينَ مِنَ الْمَوُودَةِ أَشْتَرِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِنَاقَتَيْنِ عَشْرَاوَيْنِ وَجَمَلٍ فَهَلْ لِي فِي ذَلِكَ مِنْ أَجْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَمَّ لَكَ أَجْرُهُ إِذْ مَنْنَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِالْإِسْلَامِ»، قَالَ عَبَّادٌ: وَمِصْدَاقُ قَوْلِ صَعْصَعَةَ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ: وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ ... فَأَحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ يُؤَدِّ^(٢) .

(١) ينظر "الفتح" لابن حجر (١٠/٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٦٧٢٧)، والطبراني في "الكبير" (٧٤١٢)، والسيوطي في "الدر

ولذلك قد ترى الناس في ضلالٍ، وفي تيهٍ، ويفعلون منكراتٍ عظيمةً، وتستطيع أن تمنع هذا الشر، فافعل ما استطعت، ستُحمد يوماً ما، بإذن الله تعالى، إن لم يحمدك الناس، سيحمد صنيعك ربُّ النَّاس - جل جلاله -، هذا - صعصعة بن ناجية التميمي -، كان يمنع وأد البنات، وكان يحيهن، - بفضل الله تبارك وتعالى -.

وروى الدارمي "بسندٍ فيه ضعف" عَنِ الْوَضِيِّينَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةَ أَوْثَانٍ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الْأَوْلَادَ، وَكَانَتْ عِنْدِي بِنْتُ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا، فَاتَّبَعَنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتًا مِنْ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَدَرَيْتُ بِهَا فِي الْبُئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ: يَا أَبْتَاهُ يَا أَبْتَاهُ فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخْرَزْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ» ثُمَّ قَالَ لَهُ: "أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ فَأَعَادَهُ، فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لَحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ»^(١)

فهذا البلاء العظيم، جاء الإسلام فزَيَّنَ البنت وجملها، والآن الغرب الكافر يدعي على المسلمين في كل مجالٍ، وفي كل محفلٍ، وفي كل كلمةٍ، أنهم أهملوا حق المرأة، وكأنهم يذهبون بالمرأة إلى الجنة، والمسلمون يذهبون بها إلى النار!

ووالله ما عرفت البشرية إكراماً للمرأة مثل الإسلام، ولن تعرف، والغرب الكافر الذي

المشور "(٢٦٧/١٥) عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ نَاجِيَةَ الْمَجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

(١) (مرسل) أخرجه الدارمي في "سننه" (٢)، قال الشيخ حسين سليم أسد رَحِمَهُ اللَّهُ ((إسناده رجاله ثقات غير أنه

مرسل وقد تفرد بروايته الدارمي))

يتبحر بالديمقراطية، ويدعوا إليها، وكأنها دينٌ نزل من السماء، إنما جعلوا المرأة سلعةً تباع وتشترى، لا قيمة لها ولا وزن، ويخدعون المسلمين، والمسلمون يسرون خلفهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكما روى الامام مسلمٌ في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "جَاءَنِي مَسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ".^(١)

وقال ﷺ: "مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ" وَضَمَّ أَصَابِعَهُ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى "، والجارييتين لا يلزم أن تكونا بنتين، ممكن أختين، كما ورد في بعض الروايات، "مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ"^(٢)، يمكن أن تكون بنت خالتك وبنت عمتك، ويمكن أن تكون أختك وبنت أخيك، وأولى ما يكون بناتك، وفي رواية -أيضاً- «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٣)، وفي رواية "فأحسن إليهنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ"

(١) (صحيح) أخرجه مسلمٌ في "صحيحه" (٢٦٣٠)، وأحمد في "مسنده" (٢٤٦١١)، وابن حبان في

"صحيحه" (٤٤٨)، والطبراني في "الأوسط" (٤٠١٣) كلهم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٣١)، وأحمد في "مسنده" (١٢٤٩٨) واللفظ له، والترمذي في

"السنن" (١٩١٤)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٥٩٤٨)، والحاكم في "المستدرک" (٧٥٥٤)، من حديث

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

٣ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

ما أجمل الإسلام ، شَرَفَ المرأةَ بنتاً، وشَرَفَها وعظمها زوجةً، إن الإسلام وضع للزوجة مكانةً عاليةً، ليست كنظرة الغرب الكافر للمرأة، فهي نظرةٌ قاصرةٌ من وجوه كثيرة، شَرَفَها الإسلام أمّا، وشرفها أختاً، وزوجةً، وبتناً، فجعلها في كل مكانٍ ومجالٍ مُعَظَمةً مُكْرَمةً.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾، إذا كانت الموءودة تُسأل، فهذا معناه تبيكتُ للقاتل المجرم، أي أن الموءودة عندما يسألها الله بأي ذنبٍ قتلوكي؟ فهذا خزيٌّ، وعذابٌ على القاتل، كذلك من يُقتل ظلماً، فعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قَالَ: "يَجِيءُ الْمُقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشَخَّبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلَنِي هَذَا، حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ" قَالَ: فَذَكِّرُوا لِابْنِ عَبَّاسٍ، التَّوْبَةَ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]، قَالَ: «مَا نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَا بُدِّلَتْ، وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ؟»^(١) زيادة عذابٍ له.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۖ﴾ اللهم استرنا ولا تفضحنا، أي بعد أن كانت مطويةً تُفتح، فهناك مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ لكل واحدٍ منا، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ويكتب ذلك في كتاب الحسنات، أو في كتاب السيئات، فإذا قُضِيَ الأجل، طويت الصحف، فإذا جاء يوم القيامة تُنشر الصحف، وتُفتح ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وما أجمل ما قاله علماؤنا - علماء التفسير -: عندها يسعد الإنسان بأي حسنةٍ يجدها في ميزانه، أي حسنةٍ ولو كانت صغيرةً، ولو فعلها مع كافرٍ، ولو

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "السنن" (٣٠٢٩)، والنسائي في "سننه" (٤٠٢٤)، وأحمد في "مسنده" (٢١٤٢)،

وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٨٣٠٩) عن الحسن مرسلاً... والطبراني في "الأوسط" (٧٦٦) من حديث ابن

مسعود رضي الله عنه، والجماعة رَوَوْه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

أحسن إلى بهيمة، ويحزن أتم الحزن أن يرى أي سيئة وإن قلت، فاستعين بالله ولا تعجز، وأكثر من فعل الخيرات ما استطعت.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي، أزيلت^(١)، كالجلد بالنسبة للبهيمة عندما يُكشط، أي يُزال، كذلك السماء المحكمة غاية الإحكام، تكشط وتزال عن أماكنها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾، وفي السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»،^(٢) نسأل الله النجاة والعافية.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يارب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير)^(٣).

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أي أوقدت، فهي تلهب على أهلها، الذين هم أصحاب النار.

(١) قال الماوردي رحمه الله في "النكت والعيون" (٦/ ٢١٥) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها يعني ذهبت، قاله الضحاك. الثاني: كسفت، قاله السدي. الثالث: طويت، قاله يحيى بن سلام كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ الآية.

(٢) (ضعيف) أخرجه الترمذي في "السنن" (٢٥٩١)، وابن ماجه في "سننه" (٤٣٢٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٣٠٤)، والطبراني في "الأوسط" (٢٥٨٣) من حديث عمر رضي الله عنه بسند ضعيف جداً، والجماعة رَوَوْه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً وصحح الترمذي وقفه، وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٤٧٠/ ٣).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به .

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ١٣﴾ أزلفت ، أي قربت ، فالجنة قريبة منك جداً ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعلِه ، والنار مثل ذلك» ^(١) .

أي : ما بينك وبين دخول الجنة إلا أن تموت على الإيمان والتوحيد ، فمن مات والله عنه راضٍ ، فإن مصيره إلى الجنة ، ومن يموت والله عنه ساخطاً ، فإلى جهنم وبئس القرار .

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ١٣﴾ ولذلك إذا أدرك المرء أن الجنة قريبة منه ، يسارع في كل عمل يُقربه إلى الجنة ، ولا يحقر من المعروف شيئاً ، فاعمل ما استطعت أيَّ عملٍ صالحٍ يسوقه المولى لك ، ويسره ، فاجتهد فيه ، فلا تدري أيَّ عملٍ يقبله الله منك .

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ١٣﴾ إذا حدثت هذه الآيات الباهرات ، وجاء يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ١٤﴾ أي ، علمت ساعتها كل نفس ما جاءت به من عملٍ ، سواء خيراً أو شراً .

﴿فَلَا أَسْمُ بِالْحَنَّسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٨٨) ، وأحمد في "مسنده" (٣٦٦٧) ، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦١) ، والبيهقي في "السنن الكبير" (٦٥٧٨) ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ﴾^(١٥) الخنس أي التي تختفي، قيل هي بقر الوحش، وقيل هي النجوم، وقيل غير ذلك^(١٦)، أي أن الله تعالى يقسم بكل شيء يظهر ويختفي، وهذا اختيار الإمام ابن جرير الطبري رحمته الله^(١٧)، أن الله يقسم بكل شيء يخنس، يظهر ويختفي، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَائِسِ الْخُنَاسِ﴾^(١٨) [الناس: ٤] أي أن الشيطان يخنس عند ذكر الله تعالى، ويذهب ويختفي، وقيل أيضاً في معنى الخنس، هي السفن الكبار، تجري في البحر، ثم تخنس، وتختفي

﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾^(١٩) قيل هي الكواكب، وقيل هي الطباء، وقيل هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، قال الطبري، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال إن الله تعالى ذكره أقسم بأشياء تخنس أحيانا: أي تغيب، وتجري أحيانا وتكنس أخرى، وكنوسها أن تأوي في مكانها، والمكانس عند العرب، هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والطاء، واحداها مكنس وكناس، فالكناس في كلام العرب ما وصفت، وغير منكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الطباء، فالصواب أن يعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحيانا،

(١) قال الماوردي رحمته الله في "النكت والعيون" (٢١٦/٦) {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ} فيه أربعة تأويلات: أحدها: النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت قاله الحسن وقتادة. الثاني: خمسة الأنجم وهي: زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة قاله علي عليه السلام. وفي تخصيصها بالذكر وجهان: أحدهما: لأنها لا تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني. الثاني: لأنها تقطع المجرة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. الثالث: أن الخنس بقر الوحش، قاله ابن مسعود رضي الله عنه. الرابع: أنها الطباء، قاله ابن جبير. ويحتمل تأويلاً خامساً: أنها الملائكة لأنها تخنس قال تروى. أهـ

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (١٥٨/٢٤).

والجري أخرى، والكنوس بأنات على ما وصف جل ثناؤه من صفتها^(١)

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال جماهير أهل العلم: والليل إذا أقبل وغطى الدنيا بظلامه، وتطلق أيضاً على الإقبال والإدبار^(٢)، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ: إِنَّ لَفْظَةَ "عَسْعَسَ" تُسْتَعْمَلُ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ عَلَى وَجْهِ الْإِشْتِرَاكِ، فَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ كُلُّ مِنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

والليل إذا أقبل بظلامه، أو أدبر وجاء الضياء بعده، والذي يأتي بهذه الآيات هو الله تعالى، لما في ذلك من آيات باهرة، لا يستطيع أحد في الكون أن يأتي بمثلها.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي انشق ضيؤه، وهذه أيضاً آية باهرة عظيمة، يجعلها الله تعالى لذهاب الناس في معاشهم، والسفر في تجاراتهم، وبعد أن استراحوا بالليل، وكان الليل لباساً لهم، جاء النهار، فكان النهار معاشاً لهم.

الله - جل جلاله - بعد أن أقسم بهذه الآيات - (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)، (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) - قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فالله - عز وجل - له أن يقسم بما شاء، أقسم الله ببعض مخلوقاته، والليل، والشمس، والضحي، وأقسم بحياة الرسول - ﷺ - ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/١٥٦-١٥٨)

(٢) قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٤/١٦١) وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي: قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر، وذلك بقوله: {والصبح إذا تنفس} [التكوير: ١٨] فدل بذلك على أن القسم بالليل مدبراً، وبالنهار مقبلاً... أ.هـ، وانظر، ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسيره" (٨/٣٣٨).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/٣٣٨)

سَكَرَتِهِمْ يَعْْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ [الحجر: ٧٢].

تنبيه: هل يجوز لي ولك أن نقسم بحياة الرسول - ﷺ - أو نقسم بأي مخلوق؟ الجواب: لا، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ، يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ " ^(١).

أما مولانا لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ربنا يقسم بما شاء من خلقه، ونحن لا يجوز لنا أن نقسم إلا بالله، باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، أو بكلامه - القرآن الكريم -، فقط لا غير، لا نقسم بأعظم من المخلوقين، كالنبي محمد - ﷺ -، ولا بالآباء، ولا بالأجداد،

"سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ، رَجُلًا يَحْلِفُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» وفي بعضها «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» ^(٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ هذه الآية المراد بها جبريل، وليس نبينا محمداً - ﷺ -، بدلالة الآية التي بعدها: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي أن جبريل قوي جداً، وقد رآه الرسول - ﷺ - مرتين على خلقته التي خلقه الله عليها، قال ابن مسعود: أَنَّهُ - ﷺ - «رَأَى

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠٨)، واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، به .

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" واللفظ له (٣٢٥١)، والترمذي في "السنن" (١٥٣٥)، وأحمد في "مسنده" (٦٠٧٢)، والحاكم في "المستدرک" (٨٠٢٤)، والبيهقي في "السنن الكبير" (١٩٨٥٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٣٥٨)، من حديث سعد بن عبيدة عن ابن عمر رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٩٨/٨).

جبريل، له سِتْمِائَةٌ جَنَاحٍ^(١)، قال رأيتُه قد سد الأفق، كلها بتمامها، وهو المعظم في الملائكة كلهم، فهو زعيمهم، ورئيسهم، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وصفه الله بالكرامة عليه، كريمٌ على الله، ذي قوة، لأن الذي يحمل الأمانة لابد أن يكون قوياً على آدائها، ولذلك ربنا - جل جلاله - وصف جبريل الأمين بالقوة على أداء وحمل الأمانة، وإيصال القرآن - كلام الله - إلى رسله كما أمره الله، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي عند الله له مكانةٌ عليّةٌ، فهو المُقدّم في الملائكة كلهم، فهو أميرهم، ورئيسهم.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (ثم): أي هناك، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤] أي قربنا هناك الآخرين.

(مُطَاعٍ) أي أن جبريل مطاعٌ هناك في الملأ الأعلى.

(أَمِينٍ) إذاً وصف ربنا جبريل بصفتين عظيمتين:

الأولى: القوة والأمانة، ولذلك في قول الله تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] قال أهل العلم: هذان شرطان مهمان في أي إنسانٍ تكلفه بعملٍ، فمثلاً لو أردت أن تبني بيتاً، لا يصلح أن تأتي بأتقى شيخٍ في العالم، وتقول له: ابن لي هذا البيت، هو أمينٌ، نعم، لكن ليس عنده قوةٌ للقيام بهذا العمل، لأنه لا خبرة له في هذا.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٠)، والترمذي في "السنن" (٣٢٧٧)، بسنديهما إلى الشيباني، قال:

سألت زر بن حبيش، عن قول الله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، قال: أخبرني ابن

مسعود بن عبد الله، «أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»

الثانية: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ وهذه تزكية للرسول - الملكي -.

ثم يزكي رسوله البشري محمداً - ﷺ - بقوله:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ لأن المشركين قالوا عنه مجنون، وقالوا عنه ساحر، وقالوا عنه كاهن، فقال الله تعالى، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ محمد - ﷺ - رأى جبريل بالأفق المبين، أي بجهة المشرق، الأفق الذي تتبين فيه الأشياء وتظهر، أول ما يطلع النهار، يطلع من جهة الشرق.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي، رسولنا - محمد - ﷺ - ما هو على الغيب بضنين، أي ببخيل، وفي قراءة صحيحة بظنين بالطاء^(١)، وكلاهما صحيح، أما ضنين، أي: وما هو على ما أوحيناه له ببخيل، فقد بلغكم كل ما أوحيناه إليه، عملاً بقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، أما بالطاء بظنين، أي أنه لا يتبع الظن، ليس على شك من أمره، بل عنده يقين على هذا الذي هو عليه، ﷺ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ لأن الشياطين لا تصل إلى القرآن الكريم، فقد حفظه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَتَّبِعِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]

قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ لماذا تبتعدون عن القرآن، - والله إن شرفنا، وعزنا،

(١) قال أبو علي الفارسي في "الحجة للقراء السبعة" (٦/ ٣٨٠) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: بظنين بالطاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمة: بضنين بالضاد. قال أبو علي: معنى بظنين أي: بمتهم، وهو من ظننت التي بمعنى: اتهمت، ومن قال: بضنين فهو من البخل.

وراحتنا ، واستقرارنا، وهدوء بالنا، وسعادة أولادنا، وسعادة أمتنا، في القرآن الكريم .، والله لو أقلت الأمة على القرآن ، لفتحت لها كنوز السماوات والأرض، ولكفاها الله شر أعداءها، لكن للأسف الشديد، لا نقرأه، وإذا قرأناه لا نفهمه، وإذا فهمنا شيئاً منه، لا نعمل به، ولذلك أعظم بركة، أن يمن الله عليك بالقرآن الكريم . قراءةً، وعلماً، وعملاً، ودعوةً إليه ..

قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦) أين يذهب الناس عن القرآن بعيداً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) الذكر هنا أي التذكرة، ويأتي أيضاً بمعنى الشرف^(١)، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، القرآن الكريم شرف لك، فاجتهد في قراءة القرآن، وسبباً في الأشهر المباركات، كـ شهر رمضان، والله عندنا قصص عظيمة، عن إخوان لنا، - مازالوا أحياء -، في المسارعة في تلاوة القرآن الكريم في شهر الصوم، أشياء لا تسمع بها إلا في زمان السلف الصالح، كنا نقول أنها لا تتحقق أبداً لكننا وجدناها في إخواننا الكرام، فمعنا من يختم القرآن كل يوم مرة واحدة، أخ من إخواننا، رحمة الله عليه - وهو رجل من مصر، جاء زيارةً إلى ابنته هنا العام قبل الماضي، - في قطر - بجوار مسجدنا المبارك، سمعني مرة وأنا أذكر إخواني وأقول، كان الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ يَخْتِمُ في كذا، والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يَخْتِمُ في كذا، فجاء اليوم التالي في الصباح، وقال لي: أنت قلت أن السلف كانوا يختمون القرآن كل يوم مرة، فجلست متعجباً، أقول وهل في الدنيا أحد، يقدر على ختم القرآن كل يوم مرة، فقلت أنا

(١) قال الماوردي في "النكت والعيون" (١/ ٢٤) وأما تسميته بالذكر، ففيه تأويلان:

أحدهما: أنه ذكر من الله تعالى ذكر به عباده، وعرفهم فيه فرائضه وحدوده.

والثاني: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به، وصدق بما جاء فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني أن شرف له ولقومه.

على المعاش ووقتي أضيعة بنشرة الأخبار والجرائد، فذكرت قول النبي ﷺ "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ خَيْرٍ عَسَلُهُ قِيلَ وَمَا عَسَلُهُ قَالَ يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ" قال: والله يا شيخ، أنا ختمت القرآن أمس مرة، وأنا أعدك أن أختتم القرآن كل يوم مرة، قلت له: يا عم أسامة، استعن بالله، وكل يوم بعد الفجر أذهب إليه و أسلّم عليه، وأسأله عن حاله، فيقول: والله ختمت أمس مرة، وظل هكذا إلى آخر يوم في رمضان، ختم بضعا وعشرين مرة، بعدد الأيام التي قضاها، وبعد عدة أشهر، يذهب عم أسامة للملك - عز وجل - هنيئاً له فاز وربح.

إذاً، أين تذهبون عن القرآن، لو استطعت أن تأخذ أجازة في شهر رمضان فخذها، أو تستطيع أخذ أجازة العشر الآخر خذها، نقبل على القرآن، لأن فيه سعادتنا، وسعادة أبنائنا، وأهلينا، وأمتنا، الأمة التي يستهزأ بها القاصي والداني الآن، وذلك بسبب بعدها وذهابها عن القرآن الكريم، مصدر العز والكرامة.

قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢٨﴾ لمن شاء أن يستقيم على طريق الحق عليه بالقرآن.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ أي لن تستطيعوا أن تستقيموا على طريق الله ، إلا إذا شاء الله لكم، فللعبد مشيئة، وربك له مشيئة، خلافاً لأهل

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٧٧٨٤)، من حديث سريج ، واللفظ له، وابن حبان في "صحيحه" (٣٤٢)، والحاكم في "المستدرک" (١٢٥٨-١٢٧٥)، من حديث عمرو بن الحُمَيقِ الخَزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في "الكبير" (٧٥٢٢) و"الأوسط" (٣٢٩٨) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٠٧)

البدع^(١)، فأهل البدع يقولون: العبد في القدر كريشة في مهبّ الريح، فالعبد يزني، ويشرب الخمر، ويصلي، ويصوم، أيّ فعلٍ من الطاعات أو المعاصي والذنوب، ليس له اختيارٌ فيها، هذا كلام الجبرية المبتدعة، والصحيح: أن لك مشيئةً، ولربك مشيئة، ولكن إذا علم ربك منك الخير يسره لك، واختارك له.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

انتهى تفسير سورة التكوير بحمد الله ومنته

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي "العقيدة الواسطية" (١٠٨)، والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم. وللعباد قدرة على أعمالهم، وإرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ **الْعَالَمِينَ**^(٢٩) [التكوير: ٢٨، ٢٩]. وهذه الدرجة من القدر، يكذب بها عامة «القدرية»، الذين سماهم النبي ﷺ: «مجوس هذه الأمة»، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى يسلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه؛ حكمها ومصالحها.

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

هذه السورة الكريمة مكيةٌ باتفاق أهل العلم^(١) ، وآياتها تسع عشرة، نزلت بعد سورة النازعات.

وهي كسابقتها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة^(٢).

من فضائل هذه السورة: ما ورد في الصحيحين عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي فَيُؤْمُ قَوْمَهُ، فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَنَحَرَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ فَقَالُوا لَهُ: أُنَافَقْتَ؟ يَا فُلَانُ، قَالَ: لَا. وَاللَّهِ وَلَا تَيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَا خَيْرَ لَهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحٍ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ أَفَتَأْنُ أَنْتَ؟ اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا» قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍو، إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ، حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ: اقْرَأْ وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا وَالضُّحَى، وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى، وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى^(٣)» وفي رواية في النسائي «أَفَتَأْنُ يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْنُ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَن:

(١) قال السيوطي في " الدر المنثور " (٢٨٠ / ١٥) أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيرِ وَالنَّحَّاسُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ بِمَكَّةَ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي " المحرر الوجيز " (٤٤٦ / ٥)

وهي مكية بإجماع.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٦٣ / ٣٠)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٠٥)، ومسلم في " صحيحه " (٤٦٥)، من حديث جابر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، و{وَالضُّحَى}، و{إِذَا السَّمَاءُ انفطرت} «^(١) هذه من أفراد النسائي، أما رواية الصحيحين فليس فيها (إذا السماء انفطرت) فأمره الرسول ﷺ: أن يقرأ بهذه السور في صلاة العشاء، الشمس وضحاها، إذا السماء انفطرت، وأشباهاها، وفي الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انفطرت، وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» ^(٢) فهذه السور الثلاث تصور لك كأن يوم القيامة حيٌّ أمام عينيك.

يقول الله تعالى في هذه السورة الكريمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتثرت ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ

بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴿

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴿١﴾﴾ يعني: انشقت؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ

وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥] وكقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:

١] تشقق؛ وكقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [النبا: ١٩] يعني: تشققت،

وفتحت بنزول الملائكة الكرام من السماء للعرض، والفصل بين يدي الله رب العالمين.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتثرت ﴿٢﴾﴾ وهذه لازمةٌ متلازمةٌ مع إذا السماء انفطرت؛ فإذا تفتت

السماء تناثرت الكواكب وذهب ضوءها وتساقطت.

(١) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (١١٦٢)، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٣٣)، وأحمد في "مسنده" (٤٨٠٦)، والحاكم في "المستدرک"

(٨٧١٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما به. وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٠٨١).

وقفة: منظرٌ مهيبٌ حين يرى الناسُ السماءَ تتشقق، والنجوم تتساقط، وتتناثر عن أماكنها، ويذهب ضوءها.

ورب العالمين في هذه الآيات الأولى يذكر آيتين، من آيات زوال هذه الدنيا، وقيام الساعة، آيتين علويتين، وآيتين سفليتين. أما الآيتان العلويتان فكون السماء تنفطر، والكواكب تنتثر، وأما الآيتان السفليتان الأرضيتان فقولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ أي: مُلِّتْ، وُفِّتْ بعضها على بعض، وأزيل البرزخ الذي بينهما؛ فالبهار والأنهار الآن بينهما برزخ لا يبغيان كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۚ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۚ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] لكن يوم القيامة تنفجر هذه البحار عذبها على مالحها؛ وهذا علامةٌ على خراب هذه الدنيا وزوالها.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۙ﴾ بُحِثَتْ وَرُجَّتْ، حينما تحدث زلزلةٌ عظيمةٌ جداً فتُقلب هذه القبور، ويُزال التراب الذي على الموتى، وذلك لخروج الموتى من قبورهم للعرض على الله عز وجل -نسأل الله أن يسترنا وأن يجعل هذا اليوم لنا جميعاً أبرك الأيام وأبرك الساعات، يوم لقاء رب الأرض والسموات -.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۙ﴾ عندها ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۙ﴾ علمت نفسٌ أي: علمت كل نفسٍ، المحسن، والمسيء، المجد، والهازل، المؤمن، والكافر؛ فعلمت كل نفسٍ ما قدمت من خيرٍ وما أخرت من خيرٍ خلفها يُقْتَدَى به فيها.

وقفة: بعض الناس مباركٌ في حياته؛ يقوم من الأعمال الصالحة ما استطاع؛ وإذا به بعد موته تجده خلف سنناً يعمل الناس بها من بعد، تجده لا زال الخيرُ يصل إليه في قبره، ولذلك قال ﷺ فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنِ الْمُثَنَّرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ

يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ^(١)

وكذلك ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي ما قدمت من خير، وأخرت أي: قصرت في هذا الخير، والمعنى: علمت نفس ما قدمت في حياتها من خير، وشر، وأخرت، سواءً كان هذا التأخير ذنباً وقعت فيها أو تقصيراً في الواجبات، علمت كل نفس ما قامت به في حياتها - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من عباده السعداء -.

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾ [التكوير: ١٤] ما أحضر معها، وما جاءت به من أعمال.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ^(٣) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ^(٤)

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) هذه الآية تبكيك؛ يعني: إن ربك كريم، فهل يليق بك أن تستهين بحق الكريم ولا تقوم به؟ أليق بك وربك الكريم أكرمك، وأنعم عليك، ونعمه عليك تترى، وتقصر في أمره؟ أليق بك وربك الكريم؛ خلقك؛ فسواك؛ فعدلك، وأحسن إليك، ولا زالت نعمه تترى ليل نهار عليك، وعلى أحبابك أليق بك أن تنتهك ما حرم؟ وللآية أوجهٌ في تفسيرها منها: -

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠١٧)، والنسائي في "سننه" (٢٥٥٤)، وأحمد في "مسنده"

(١٩١٥٦)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه به.

الوجه الأول: قول جماهير أهل العلم من أهل التفسير^(١) أن هذه الآية مدعاة للعبد أن يستحي من ربه الكريم؛ فيدفعه كرم الله إلى إجلال الله، وإلى توقير الله، وإلى تعظيم ربه، وإلى المسارعة في أمره، وإلى اجتناب نهيه لأنه كريم أي: عظيم.

الوجه الثاني: بعض السلف قالوا بظاهر الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢)، فقالوا غَرَّهُ والله كَرَّمُ الله فوقه فيما حرم الله عليه وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "لو قيل لي ما غرك ربك، لقلت: ستورك المرحلة - ستورك التي أرخيت علي"^(٣)

ولكن هذا ليس بصحيح؛ فالصحيح أن الكريم ينبغي أن تستحي منه؛ فإذا أيقنت أن ربك كريم أعطاك الصحة، ومنحك المال، ورزقك الزوجة، ورزقك دابة، وينعم عليك بالهواء، وصحة البدن، وأنعم عليك بالإسلام، ولا تزال نعمه ليلاً نهاراً عليك، وعلى الكون كله؛ فلا شك أن هذا الكريم ينبغي للعبد أن يعظمه، وأن يبجله، وأن يوقره، وألا يستهين بأمره؛ فلا يجعل رب العالمين أهون الناظرين إليه؛ بل ينبغي على العبد أن يعظم أمر الله.

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٤٢) وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟: هَذَا تَهْدِيدٌ، لَا كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ إِرْشَادٌ إِلَى الْجَوَابِ؛ حَيْثُ قَالَ: {الْكَرِيمُ} حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: غَرَّهُ كَرَمُهُ، بَلِ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ - أَيِ: الْعَظِيمِ - حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيْقُ؟ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ابْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ بِي؟، ابْنَ آدَمَ، مَاذَا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟".

(٢) أخرجه الثعلبي في " الكشف والبيان " (١٠ / ١٤٦)، والواحدي في " الوسيط " (٤ / ٤٣٥) والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ١٢٢) وقال ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٤٢) وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: لَوْ قَالَ لِي: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} لَقُلْتُ: غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ.

الوجه الثالث: غره جهله بالله، وصح ذلك عن عمر، وكذلك عن عبد الله بن عمر، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: غره والله جهله^(١)

وفعلاً ما ترى عبداً من العباد يعصي الله إلا بجهل، إلا وهو جاهل بمكانة الله عز وجل، وعظمة الله، وما يليق بالله، ولو أنه على علم بالله، وعظمة الله، وجلال ربه، وعظم الله حق تعظيمه ما عصى ربه عز وجل؛ ولكن يدفعه للوقوع في المعاصي جهله بالله تبارك وتعالى.

الوجه الرابع: عَرَّه الشيطان^(٢)، صح عن بعض السلف؛ فما من ذنب في الكون كله إلا والشيطان، والجهل وراء هذا الذنب؛ لذلك فإن الجاهل عدو للإنسان، والشيطان عدوه أيضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] والجهل يدفع بالعلم، والشيطان تُكْفَى شره بأن تلجأ إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

وقفه: فلذلك علينا دائماً وأبداً بالعلم النافع نتعلم كل يوم ولو شيئاً يسيراً من ديننا؛ فالشيء اليسير مع الشيء اليسير يصير علماً بالشرعية، وعلماً بالدين يُكْرَمُ به العبد بإذن الله؛ فيعرف به العبد الحلال، ويعرف الحرام، يعرف ما يجوز له، وما يحرم عليه؛ وبذلك يتبين للمرء دينه، لكن ما من عاقل يترك نفسه لهذه الحياة الدنيا، ومشاغلاً؛ فيجد حصيلته في الدين صفراً؛ فأنى له أن ينجو يوم القيامة.

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٤٢)، و " مسند الفاروق " له (١ / ٦٣) وعزاها لابن أبي حاتم،

والسيوطي في " الدر المنثور " (١٥ / ٢٨٣) وعزاها أيضاً لابن المنذر وسعيد ابن منصور

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ١٧٨)، والبغوي في " معالم التنزيل " (٨ / ٣٥٦)، عن قتادة به.

فمن الممكن أن يكون الإنسان قد وصل إلى أعلى الشهادات الدنيوية في عصره؛ ولا يعرف أركان الوضوء، ولا أركان الصلاة، والمرأة لا تعرف ما هو الواجب عليها في رمضان، وغير ذلك من هذه الواجبات المهمة التي يجب على العبد أن يعتني بها.

فلذلك قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(١) هذه الآية زاجرٌ للعبد منا حتى لا يعتزَّ بالله تعالى؛ بل هذا الكرم يدفعه إلى الاستقامة على طريق ربه، والمسارة في أمره. ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ^(٣) كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٤﴾﴾ [المزلات: ٢٠ - ٢٣] سبحانه وبحمده

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ﴾ الله تعالى هو الذي خلق فسوى {فَعَدَلَكَ} أي: فجعلك في أبهى صورة، وفي أجمل منظرٍ

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٤) روى الإمام أحمد في المسند عن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَرَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: ابْنُ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟" وهذا حال أكثر الناس إذا أنعم الله عليه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾^(٥) [العلق: ٦] متى؟ ﴿أَن رَّءَاهُ أَسْتَغْنَى﴾^(٦) [العلق: ٧] إذا رأى نفسه استغنى، فأصبح يملك ألفاً، وألفين، ومائة ألف، ومليوناً؛ حينئذٍ يستغنى عن الناس، ويستغنى عن رب الناس، وإذا به يتعدى حدود الله عز وجل، ويترك ما أذن الله له، ويوقع فيما حرم الله عليه بسبب غناه الذي أنعم الله به تعالى عليه؛ لذلك قال

(١) (حسن) أخرجه ابن ماجه في " سننه " (٢٧٠٧)، وأحمد في " مسنده " (١٧٨٤٢)، من حديث بسر ابن

جحاش رضي الله عنه به. وحسنه الشيخ الألباني في " الصحيحة " (١٠٩٩)

أهل العلم من السلف في هذه الآية الكريمة: "والله لو شاء ربنا لجعلك في صورة قرْدٍ أو خنزيرٍ يعني لو شاء الله لجعل الإنسان في صورة قردٍ أو خنزيرٍ لكن شَرَّفَه وَجَّهَهُ" ^(١) وجعله في أبهى صورة، وأجل منظرٍ يمكن أن يكون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وبعض أهل العلم قال: والله لو شاء الله تعالى لجعل العبد في صورة كلبٍ، أو حمارٍ، ولكن شرفه الله تعالى؛ فجعله في هذا المنظر الجميل، وهذه الصورة البهية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ من بني فزارةٍ إلى النبي ﷺ، فقال: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟» قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرُقًا، قَالَ: «فَأَتَى أَتَاهَا ذَلِكَ؟» قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ، قَالَ: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ» ^(٢) فلذلك الولد إما أن يشبه أمه، وإما أن يشبه أباه، وإما أن يشبه أخواله، أو أعمامه، أو أجداده، أو على أي صورةٍ ما شاء الله يركبه -سبحانه وبحمده- بدون شبه للأقارب ^(٣)، فترى بعض الأبناء مثلاً؛ فنقول هذا يشبه خاله، وهذا يشبه عمه، وهذا صورةٌ مطابقةٌ للأصل من فلان، وتجد بعض الأبناء في العائلة شيئاً فريداً حتى يُذكرك ربك ببعض ربوبيته على عباده سبحانه وبحمده.

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١٧٩)، عن إساعيل وأبي صالح وعكرمة قال: إِنَّ شَاءَ فِي صُورَةِ

قَرْدٍ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خَنْزِيرٍ. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٢٤)

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٣٠٥) ومسلم في "صحيحه" (١٥٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به.

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١٧٩) عن مجاهد قال في أي شَيْءٍ: أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٥﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْعًا وَلَا أَمْرٌ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الأعظم الذي يدفع الناس لعدم الإيمان بيوم القيامة فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ يعني: تكذبون بيوم القيامة، وسمي يوم القيامة بيوم الدين لأن الناس يُدانون فيه بأعمالهم، فكل إنسانٍ يدين بعمله، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ [الطور: ٢١] رهين يعني مُرتَهَن، والمعنى: أنت رهين عملك؛ إما أن يُعتَقَكَ عملك الصالح، وإما أن يُوبَق الطَّالِحَ عمله الفاسد نسأل الله العفو والعافية.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الملائكة الكرام؛ فهم كما قال الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قُعُودٌ﴾ [ق: ١٧] وهما: ملك الحسنات وملك السيئات؛ وملك الحسنات أمينٌ على ملك السيئات، ومن كرامة مولانا أن العبد إذا عمل حسنةً يكتبها ملك الحسنات مباشرةً، وإذا عمل العبد سيئةً؛ فإذا أراد ملك السيئات أن يكتبها يقول ملك الحسنات له انتظر واتركه لعله ينزع، لعله يتوب؛ فترك بعض الساعات؛ فإذا لم يتب العبد كتبها الملك عليه، وإذا تاب، وترك، ونزع، ورجع إلى الله لم تكتب هذه السيئة عليه. وقد ورد ذلك في حديثٍ ضَعَفَهُ بعض أهل العلم عَنْ كِنَانَةَ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَبْدِ كَمْ مَعَهُ مِنْ مَلَكٍ؟ قَالَ: "مَلَكٌ عَلَى يَمِينِكَ عَلَى حَسَنَاتِكَ، وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ لِلَّذِي عَلَى الْيَمِينِ: أَكُتِبَ؟ قَالَ: لَا لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَيَتُوبُ، فَإِذَا قَالَ ثَلَاثًا، قَالَ: نَعَمْ، أَكُتِبَ، أَرَأَيْتَ اللَّهُ مِنْهُ، فَبَسَّ الْقَرِينُ، مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ اللَّهَ، وَأَقَلَّ اسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا يَقُولُ اللَّهُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨] وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وَمَلَكَ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ، فَإِذَا تَوَاضَعْتَ لِلَّهِ رَفَعَكَ، وَإِذَا تَجَبَّرْتَ عَلَى اللَّهِ قَصَمَكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْكَ لَيْسَ يَحْفَظَانِ عَلَيْكَ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَمَلَكَ قَائِمٌ عَلَى فِكَ لَا يَدْعُ الْحَيَّةَ تَدْخُلُ فِي فِكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنِكَ فَهَوْلَاءِ عَشْرَةُ أَمْلاكٍ عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ، يَنْزِلُونَ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ عَلَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ، لِأَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ سِوَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ، فَهَوْلَاءِ عَشْرُونَ مَلَكًا عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ، وَإِبْلِيسُ بِالنَّهَارِ وَوَلَدُهُ بِاللَّيْلِ " ^(١)

وقفه: قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٩﴾﴾ فينبغي على العبد أن يتذكر هذا جيداً فكل ما يعمل به، وما يقوم به، وما يتكلم به - في السر، أو في العلن، سواء كان أمام الناس، أو بخفية من الناس - محفوظاً عليه، قال شيخ الأزهر السابق الشيخ أحمد مصطفى المراغي رحمته الله - هذا العالم العلامة الكبير: (وقد ذُكرَ ذلك في غير موضع من الكتاب الكريم كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١] وليس علينا أن نبحت عن كنه هؤلاء الحفظة، ولا أن نعرف من أي شيء خلقوا وما عملهم، وكيف يحفظون الأعمال، وهل عندهم أوراقٌ وأقلامٌ، أو هناك ألواحٌ ترسم فيها الأعمال، أو هم أرواحٌ تتجلى فيها تلك الأعمال، فتبقى فيها بقاء المداد في القُرطاس. كل ذلك لم نكلّف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر، وتفويض الأمر في حقيقته إلى الله). قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤] ^(٢)

(١) (موضوع) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣ / ٤٥٧) وينظر "الضعيفة" (٢٢٣٧) للآلبياني

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٦٩)

﴿كَرَامًا كَتِيبِينَ﴾ الله تعالى وصف الملائكة أنهم كرامٌ، ولذلك إذا كان معك إنسانٌ كريمٌ عليك، عزيزٌ عليك، تستحي منه؛ فإنك تستحي أن تعصي الله أمامه.

وقفة: هَبْ أَنْ إِنْسَانًا فِي عَائِلَتِكَ مَبْجَلًا تَهَابَهُ وَتَعْظُمُهُ؛ فَإِنَّكَ تَسْتَحِي أَنْ تَفْعَلَ أَمَامَهُ مَا تَحْجَلُ مِنْهُ، وَقد ورد عند الإمام الطبراني أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَوْصِنِي قَالَ: «أَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ»^(١) فالنبي ﷺ يقرب له المسألة: فكما أنك تهاب الشريف، وتعظمه؛ فالله أشد تعظيمًا سبحانه، وبحمده، فالعبد عندما يعلم أن معه اثنان كريهان جدًّا عليه ولهما مكانةٌ عليَّه أيعصي الله أمامهما؟ فما بالك وهذا الملكان الكريهان معك ليلاً نهاراً، لا يفارقانك إلا عند بعض الحالات التي لا يجوز أن يدخلوا معك فيها^(٢)، ورغم ذلك يكتبان ما تقوم به في هذا.

فإذا دخل الإنسان إلى الخلاء؛ فالملائكة لا تكون معه، ولكن تكتب ما يفعل، وإن كانت خارج الخلاء لأن رب العالمين يطلعهم على أقواله، وأفعاله؛ فيكتبان أفعاله، وأقواله؛ فإذا كنت موقناً أن الملائكة كرامٌ؛ فهذا يدفعك إلى الاستحياء من الله، والاستحياء من الملائكة البررة.

﴿كَرَامًا كَتِيبِينَ﴾ وصفهم الله بقوله كاتبين أي يكتبون أعمالنا وأقوالنا وما نهمُّ به.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) أي يعلمون ما تفعلون بعد وقوعه، أو يعلمون ما تفعلون من نسخه في اللوح المحفوظ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولكنهم يعلمون بعد أن يقع فيكتبونه،

(١) (صحيح) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥٥٣٩)، والخراطي في "مكارم الأخلاق" (٣١٣)، وأحمد

في "الزهدي" (٢٤٨)، وصححه الألباني في "الصحيحة" (٧٤١)

(٢) أخرج الترمذي في "سننه" (٢٨٠٠)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ فَإِنَّ مَعَكُمْ

مَنْ لَا يَفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الْغَائِطِ وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ" وضعفه الألباني في "إرواء الغليل" (٦٤)

ويعلمونه .

ثم ذكر الله مآل الناس في الآخرة، وأن الناس يوم القيامة فريقان لا ثالث لهما؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، فريق سعيدٌ، وفريقٌ شقيٌّ عافانا الله وإياكم. ^(١)

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ قال علماءنا: الأبرار سموا أبراراً؛ لأنهم بروا ربهم أولاً؛ ثم بروا آباءهم، وبروا أبناءهم، وهذا حتى ينظر العبد أين هو من هؤلاء؟ وأين هو من هذه الآية؟

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ نعيمٌ لقلوبهم، ولأبدانهم، ولأرواحهم، نعيمٌ ليس مثله نعيمٌ؛ فالأبرار الذين بروا الله، وأدوا واجباته، وسارعوا فيها يحب ما استطاعوا، والأبرار الذين بروا آباءهم، وكذلك بروا أبناءهم فربّوهم على كتاب الله وسنة رسوله = هؤلاء الأبرار في نعيمٍ ليس مثله نعيمٌ.

﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الفجار جمع فاجرٍ؛ والفاجر: الذي يتهك الحرام، ولا يبالي برّبٍ، ولا بدِينٍ، ولا بإنسانية، ولا بشيءٍ، ولا يراقب رباً، ولا يراقب فطرةً، ولا يستحي من العباد؛ فالفجار كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢] فالمراد بهم هم الكفرة.

﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يعني لفي نارٍ تأجج؛ أو قد عليها ألف عامٍ حتى احمرت، وألف عامٍ حتى ابيضت، وألف عامٍ حتى اسودت ^(٢) فهي سوداء مظلمةٌ، وجاء في الصحيحين

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٢٧)

(٢) (ضعيف) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥٩١)، وقد رجح أنه موقوف على أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه في

سننه (٤٣٢٠) وضعفه الألباني في "الضعيفة" (١٣٠٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: أَوْقَدَ عَلَى

عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِرِ " ^(١) نعوذ بالله من النار .

قال الله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يصلونها يعني: يُغَمَّرُونَ بها من جميع جهاتهم الست؛ من فوق، وتحت، ويمين، وشمال، وأمام، وخلف، ويصلونها كما قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَوْنَهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] أي: لا يغمر فيها، ويعذب بعذابها إلا الأشقى - عافنا الله والمسلمين أجمعين ونعوذ بالله من عذابه وغضبه وعقابه ونسأل الله أن يُنعمنا وإياكم من نعيم مقيم بلا حساب ولا عذاب

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الدين يوم القيامة لأن العبد يُجازى بعمله.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] يعني: آيسون من الخروج، ولا يفتّر العذاب عنهم طرفة عين، ولا يستريحون يوماً واحداً من العذاب؛ ينادوا يا مالك يا مالك يا مالك مئات بل آلاف السنين لا يجيبهم، وفي نهاية المطاف تنقطع أمانيتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وكما قال أهل العلم: إن أشد آية على الكفار هي قوله تعالى: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠] فأهل النار عذابهم أبد الآباد لا يخفف عنهم

النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٦٠)، ومسلم في " صحيحه " (٦١٧)، من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه به .

طرفة عين ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿جَزَاءً وَفَقًا﴾ [النبا: ٢٤ - ٢٦] نعوذ بالله من الخذلان .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وما أدراك فهذا يومٌ عصيبٌ أمامك ، هذا اليوم الذي ينبغي على كل عاقل أن يفكر كيف ينجو فيه ؛ فكما أن العاقل دائماً ما يفكر في عمله ، ويخطط له ويريد أن يكون موفقاً حتى يرضى عنه مديره ، وإذا أيقن أن مديره غاضبٌ عليه ؛ فإنه يهتم ، ويغتم ، ويسعى بكل ما أوتي أن يطور من نفسه ، ويعمل ما يسر مديره ؛ فليعلم العبد أن أمامه يوم الدين ؛ وهو عقبةٌ عظيمةٌ أمام العباد ، إما أن يرتفع فيها أقوامٌ رفعةً عاليةً جداً ، أو ينخفض فيها أقوامٌ - والعياذ بالله - إلى أسفل الدركات ، والسعيد من يدرکه الله برحمته ؛ فعلى العبد أن يهتم ، ويفكر كيف ينجو ؟ وكيف يُنجي أهله وأولاده ؟ وكيف يُنجي من يُعول من شر يوم القيامة ؟ وكيف يكون في مأمنٍ في كرامة الله تعالى ؟ ولا يكون ذلك أبداً إلا بالمسارعة بالصالحات ما استطاع .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثم يعظم الله هذا اليوم أكثر ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٨

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩ فلا يملك ابنٌ لأبيه شيئاً ، ولا أبٌ يملك لابنه شيئاً ، ولا زوجةٌ تملك لزوجها شيئاً ، ولا زوجٌ يملك لزوجته شيئاً ، ولا أخٌ لأخيه ، ولا عمٌ لابن أخيه ؛ الكل يفر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۚ وَصَدِيقَتُهُ ۚ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

وقفه: هؤلاء هم الذين يشقى الإنسان من أجلهم ؛ ولعله - والعياذ بالله - يهلك نفسه من أجل هؤلاء ، من أجل الزوجة ، ومن أجل الأولاد ، ومن أجل إخوانه ، ومن أجل أمه ، ومن أجل أبيه ، ولعله يأكل حراماً صرفاً - والعياذ بالله - من أجل أن يأتي لهم بما يريدون ، ويشتهون ؛ فيوم

القيامة كل واحدٍ من هؤلاء يقول: نفسي نفسي، نفسي نفسي؛ بل إن الرسل الكرام يوم القيامة يقولون: نفسي نفسي، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أُنِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَا بَلَغَهُمْ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذُّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَهَسَ مِنْهَا نَهَسَةً فَقَالَ: "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيُلْغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ هُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَحَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ هُمْ: إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذْبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى رضي الله عنه، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ هُمْ مُوسَى رضي الله عنه: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى رضي الله عنه،

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمُهْدِ، وَكَلِمَةً مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ هُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي^(١)؛ فعلى العبد من الآن أن يعلم أنه سيلقى الله وحده، ويُسأل وحده لا أحد معه، ولا أحد يدافع عنه، ولا مخلوق سيعمل عنه ذرة، ولا مخلوق سيعطيه حسنة.

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة قال: (في قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب، سل هذا: لم كان يغلق بابه دوني. وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك يداً، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا؟ وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار. وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والدٍ كنت لك؟ فيشني خيراً، فيقول له: يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجه فيقول: يا فلانة - أو: يا هذه - أي زوجٍ كنت لك؟ فتشني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنةً واحدةً تهينها لي، لعلني أنجو بها مما ترين. قال: فتقول: ما أيسر ما طلبت. ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوف مثل الذي تتخوف^(٢) فلا يعطيه أي حسنةً ويقول: نفسي نفسي؛ إلا إذا كانوا صالحين متقين؛ كما قال ربنا: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٤٠) ومسلم في "صحيحه" (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَوَاهُ اللَّهُ بِهِ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٦/ ٥٤٢)

المتقون ينتفع بعضهم ببعض

وقفه: ما أجمل أن ينتفع المرء بإخوانه في أمس الأوقات ،وأصعب الظروف ،وهذه منفعة عظيمة ،جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل وفيه " حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحْجُونَ، فَيَقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مِنْ عَرَفْتُمْ، فَتَحَرَّمَ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا " (١)

فمن الذي سيسأل عن الآخر؟ الصالح سيسأل عن إخوانه ؛لأنهم كانوا صالحين ؛فلو كان لهم بعض الذنوب استوجبت لهم النار ؛فلا يزالون يبحثون عنهم حتى يخرجوهم من النار ،وفي تمامة الحديث السابق "ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا " (٢)

وقفه: من عرفه العبد ولو مرة من المرات ولو رآه مرة من المرات أو تكلم معه بكلمة مرة من المرات أو أحسن إليه وأعطاه شربة ماء فالعبد ينتفع بإخوانه الصالحين .

وورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ يعني: لا تنفع نفس نفساً أبداً؛

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٥٨١) ومسلم في " صحيحه " (١٨٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه به .

(٢) الحديث السابق، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به

لكن جاء في بعض الأدلة أن بعض النفوس نفوسٌ طيبةٌ مباركةٌ تنفع في الحياة، وفي الممات منها:

١ - الشهيد فقد جاء في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(١) فيشفع لمن شاء الله، لوالدته، ووالده، وأخته، وأخيه، وأولاده، وزوجته، وأقربائه، سبعون من أهل بيته يسعدون بسعادته.

٢ - وكذلك صاحب القرآن -نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن -يُكسَى والداه يوم القيامة تاج الوقار لما روى الإمام أحمد في مسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ". قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: "تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظْلَانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ أَوْ غَيَّتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَطْمَأَنَّاكَ فِي الْهُوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى الْمُلْكُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى والداهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ هُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمِ كُسِينَا هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرْفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلاً"^(٢)

لذلك فالعالم الذي يعلم الناس العلم ويترك علماً ينتفع الناس به من بعده يأتي يوم القيامة

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٥٢٢) والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٨٥٢٧)، من حديث أبي

الدرداء رضي الله عنه به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٤٠٥٣)

(٢) (حسن) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٩٥٠) والدارمي في "سننه" (٣٤٣٤)، من حديث بريده رضي الله عنه.

وحسنه الألباني في "الصحيحة" (٢٨٢٩)

في ميزان حسناته كل هؤلاء ؛ لما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا.^(١) فهذا العبد قد انقطعت حياته ؛ لكنه يتنفع بعمله ؛ وكذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ"^(٢) إلى يوم القيامة.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(١٩) الأمر لله وحده في الدنيا ،والآخرة ولكن لماذا قال الله تعالى عن يوم القيامة {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} ؟ لأن الآن في الدنيا كما نرى بعض الملوك ،وبعض الأمراء ،وبعض الرؤساء يظن أن الأمر له فيصدر أوامره ،ويظن أنه لا أحد فوقه ؛ولكن يوم القيامة الملك يومئذ لله يفصل بينهم سبحانه جل جلاله ؛كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢٠) [غافر: ١٦] فليختر العبد لنفسه ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢١) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ^(٢٢) [الانفطار: ١٣-١٤]. فنسأل الله أن يبصرنا بديننا وأن يجعلنا من خير عباده وأن يوفقنا لكل خير

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله ومنتها الانتهاء من تفسير سورة الانفطار

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٦٩٠١) ، وأبو داود في " سننه " (٤٦٠٩) ، وأحمد في " مسنده " (١)

(٢) (٩١٦٠) ، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به .

(٢) تقدم تخريجه .

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

سورة المطففين، آياتها ست وثلاثون، نزلت بعد سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة.

ومناسبتها لما قبلها: أنه - تعالى - قال هناك: «وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ» وذكر هنا ما يكتبه الحافظون: «كِتَابٌ مَرْقُومٌ» يجعل في عليين أو في سجين.^(١)

واختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية أو نزلت بين مكة والمدينة أو الآيات الأول منها مكية والباقي مدنية نقل ابن عطية والقرطبي والسيوطي تلك الأقوال، ورجح ابن كثير أنها مدنية والله أعلم.^(٢)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

(١) تفسير المراغي (٣٠ / ٧١)

(٢) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ فِي "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٤٩) "وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبها هو في كل أمة لا سيما مع كفرهم، وقال ابن عباس والسدي والنقاش وغيره: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص، فنزلت السورة فيه، يقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضاً فيها روي عنه: نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله تعالى بهذه السورة، وقال آخرون: نزلت السورة بين مكة والمدينة، وذلك ليصلح الله تعالى أمرهم قبل ورود رسوله عليهم." وينظر "الدر المنثور" (٨ / ٤٤١)، ورجحه ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٤٦)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنِلَّ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَنِلَّ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ الويل: هو وعيدٌ بالعذاب الشديد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، والويل أيضاً: شدة العذاب^(١)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه هو وادي في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار - والعياذ بالله -^(٢)، فالويل: وعيدٌ شديدٌ، وعذابٌ أليمٌ، ووادي في جهنم، كل ذلك ثابتٌ عن السلف الصالح^(٣) فالله أعدَّ هذا العذاب الشديد للمطففين، والمطففون هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾^(٤)

(أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ) أي كان لهم حقٌّ على الآخرين، يأخذونه وافيّاً كاملاً، وإذا كالوا لغيرهم يخسرون ويُنقصون حق الناس، والتطفيف في الكيل أو الوزن أن يُنقص في الكيل أو

(١) ذكره الثعلبي في "الكشف والبيان" (١/ ٢٢٤) والواحدي في "السيط" (٣/ ٩٠) والبغوي في "معالم

التنزيل" (١/ ١١٥)، وأخرجه الطبري "في جامع البيان" (٢/ ١٦٣)

(٢) أخرجه يحيى بن سلام في "تفسيره" (١/ ٢٣٠)، وذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٤/ ٢٣) السيوطي

في "الدر المنثور" (١٥/ ١٧٨)

(٣) ينظر "تممة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٧/ ٤٥٠)

الوزن شيئاً يسيراً، لا يكاد ينتبه له - نسأل الله العافية والسلامة -^(١)

وهذا مُهَدَّدٌ بعذاب الله جل جلاله، ومُتَوَعَّدٌ بوعيد رب العالمين سبحانه، ولذلك التطفيف في الكيل والميزان حرمه الله تعالى، وهو كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وربنا جل جلاله في غير ما آية حرم التطفيف في الكيل والميزان، فقال جل جلاله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]

وقفه: لا شك أن بخس الناس حقهم فسادٌ في الأرض، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه إذا كان التطفيف في الكيل والميزان الحسي الحقيقي حراماً، فكذلك في الحقوق المعنوية^(٢)، يحرم على العبد أن يأخذ حقه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم، حتى ضربوا مثلاً بالحجج والمقالات؛ فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحدٍ منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يُعرف إنصافُ الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه^(٣)

وكذلك في المشكلات، فمثلاً إذا أردنا أن ننزلها على واقعنا الحالي، إذا حدث اختلافٌ بين

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤ / ١٨٥) وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْءِ الطَّفِيفِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ النَّزْرُ، وَالطُّفُفُ: الْمُقَلَّلُ حَقَّ صَاحِبِ الْحَقِّ عَمَّا لَهُ مِنَ الْوَفَاءِ وَالتَّامِّ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْقَوْمِ الَّذِي يَكُونُونَ سَوَاءً فِي حِسْبَةٍ أَوْ عَدَدٍ: هُمْ سَوَاءٌ كَطَفَّ الصَّاعُ، يَعْنِي بِذَلِكَ: كَقُرْبِ الْمُتَلَيِّ مِنْهُ نَاقِصٍ عَنِ الْمُلءِ، وينظر "نتمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٨ / ٤٥٤)

(٢) أخرج عبد الرزاق في "مصنفه" (٣٧٥٠) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٩٦) عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

(٣) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للشيخ السعدي (ص ٩١٥)

اثنين فمن باب الإنصاف ومن باب الوفاء، إذا كان يعلم لخصمه حجةً، يظهرها له حتى يكون منصفاً أمام الله رب العالمين، وعزَّ أن ترى هذا الخُلُق بين الناس عند الخصومة؛ أن يقول لصاحبه لك حقٌّ في كذا وكذا

بل إن كثيراً من الناس إلا من رحم الله إذا خاصم فجر - والعياذ بالله -، فيثبت لنفسه الحق بكل ما أوتي من الحجاج والبراهين والقوى، وإن كان لصاحبه حقٌ يتغاضى ويتعمى عنه وكأنه لا يراه فهذا من التطفيف، فكما أنك تحب أن تأخذ حقك وافيةً، أعط الناس حقوقهم وافيةً.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَبِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١).

فليت منّا من يتصف بهذه الصفة الجليلة، يأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، إن كثيراً من الناس في المعاملات - إلا من رحم الله - يبخس الناس حقهم، المعاملات والاختلافات والقيَل والقَال والدرهم والدينار عندما يدخل في التعاملات بين الناس، تجد أحوال الناس فسدت، واختلفوا كثيراً وتغيروا عن تلك الحال، التي كانوا يعيشون بها، بدون هذه المعاملات من مالٍ وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَالِإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٤٤) وأحمد في " مسنده " (٦٧٩٣) والنسائي في " الكبرى "

(٧٧٦٦) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ رضي الله عنه، به، في قصة طويلة.

وقال تعالى: ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْجِطُونَ ۚ وَيَقَوْمُ أُوفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ۖ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝﴾ [هود: ٨٤ - ٨٥] فامة من الأمم أهلكهم الله بسبب هذا الذنب وبسبب هذه المعصية، وهى التطفيف في الميزان وبخس الناس أشياءهم فأهلكهم الله جل جلاله وعذبهم عذاباً أليماً، أهلكهم الله بالصيحة فصاروا صرعى وهلكى أجمعين، نسأل الله العافية والسلامة.

وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَظْهَرُوا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]

وهذا العذاب الأليم مُتهدّد به هذا الذي يُطفف في الكيل والميزان.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝﴾ والظن هنا بمعنى اليقين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٢٠] يعنى أيقنت أنى ملاقٍ حسابيه، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝﴾ [البقرة: ٤٦، ٤٧] يعنى يوقنون أنهم ملاقوا الله وأنهم راجعون إليه. ^(١)

والمعنى: ألا يوقن هؤلاء أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ، في هذا اليوم يجدون ثواب أعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ، وألا يوقن هؤلاء بيومٍ سيقفون فيه بين يدي ربهم جل جلاله، ويحاسبهم على الصغير والكبير، والجليل والحقير، والسر والعلانية - اللهم استرنا ولا تفضحنا، ولا تكشف سترك عنا-.

وقفة: كثيرٌ من المعاصي نفع فيها لأنه يغيب عن أذهاننا أننا سنقف بين يدي رب العالمين

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٣٥)

جل جلاله، ولو أن العبد راقب ربه في كل أحواله وفي كل حركاته وسكناته، وفي حالاته كلها، في السر والعلن، لو راقب العبد ربه وعلم أنه موقوفٌ بين يدي الجبار المنتقم جل جلاله، لترك كثيراً من المخالفات، ولفعل كثيراً من الطاعات.

وفي هذه الآية الجليلة ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ وجاء في الحديث أحوال قيام الناس يوم القيامة، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»^(١).

وقفة: تخيل إنساناً يقف في بحرٍ من ماءٍ، يصل مثلاً إلى ركبتيه، أو حجزيه، أو يقف في الماء حتى يبلغ العرق أنصاف أذنيه، يعني هذا الرشح عرقٌ هائلٌ، كل ذلك بسبب الذنوب - نسأل الله اللطف والسلامة، يا رب لا تؤاخذنا بذنوبنا، يا رب عاملنا بما أنت أهلُه، ولا تعاملنا بما نحن أهلُه -.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ، رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَخُمْسُهُمْ النَّارُ تَبَيْتَ مَعَهُمْ، حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»^(٢).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٣٨)، واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٦٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٢٢) ومسلم في "صحيحه" (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حُفَاءَ عُرَاةٍ غُرْلًا: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ.^(١)

" يا أيها الناس " الخطاب للمسلمين والكافرين، الأغنياء والفقراء، السادة المملوك والعبيد، كل واحدٍ محشورٌ إلى الله حافياً عارياً، على خلقتها التي خلقه الله عليها أول مرة، كامل الأعضاء، أي القطعة التي قطعت من الولد الصغير عند الختان تعاد مرة ثانية، يرجع ويقف بين يدي الله حافياً ليس في رجله نعلٌ، وعارياً، ليس عليه ثيابٌ، كما ولدته أمه.

وقفه: هذا الذي يتشبث بالدينا، ويوالي من أجلها، ويعادي من أجلها، ويسعى فيها سعيًا حثيثًا، يأتي يوم القيامة مفلس لا شيء معه أفلس في الدنيا والآخرة، حافياً عارياً أغرل، فليعمل العبد لهذا اليوم، وليأخذ معه زاداً يتزود به في هذا اليوم العصيب، وزاده إنما يكون بذكر ربه وبالقرب منه وباللجوء إليه، بالتوبة النصوح بالعودة إلى الله سبحانه، بأداء الحقوق بالبراءة من المظالم، هذا زاد عظيم ينفعه الله به يوم القيامة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: "إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاةٍ غُرْلًا: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} الْآيَةِ، وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ} - إِلَى قَوْلِهِ: {الْحَكِيمُ} قَالَ: فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ "^(٢).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٢٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٢٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

وفي الصحيحين - أيضاً - عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمِشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وصدق الله حيث قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

وقفه: انظر إلى حال الكافر المجرم الذي كان إذا أشار بأصبعه يفعلون له ما يريد وما يشاء، يحكم العالم بكلمة، هذا يذله رب العرش العظيم أمام الخلائق كافة، أمام الإنس، والجن، والطير، والدواب، لأنه يحشر على وجهه أمام الله سبحانه ذليلاً حقيراً، أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم، أعمى لا يرى، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [١٦٥] **قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** [طه: ١٢٥ - ١٢٦] والنسيان هنا الترك، ترك العمل بالقرآن، وترك اتباع الشرع الكريم - نسأل الله العافية -^(٢).

وفي الصحيحين - أيضاً - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟»، قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَاهُمَا» ثُمَّ قَالَ: "يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيْبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَعُذْرَاتُ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٧٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، به.

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٠٢ / ١٦) وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾: فَكَمَا نَسِيتَ آيَاتِنَا فِي الدُّنْيَا، فَتَرَكْتَهَا وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا، فَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَنْسَاكَ، فَتَتْرُكُكَ فِي النَّارِ.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تَعْرُضُ كَأَنَّمَا سَرَابٌ، فَيَقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ اللَّهُ صَاحِبَهُ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِينَا، فَيَقَالُ: اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ اللَّهُ صَاحِبَهُ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِينَا، فَيَقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا يَجْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْتَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقَ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلَا يَكْلُمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقِ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدُ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيَجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: "مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ، وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيقَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالزَّبْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مُخْذُوسٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشِدَةً فِي الْحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُوهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا " قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ

تُصَدِّقُونِي فَأَقْرَأُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، "فِيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عِتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَأَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمًّا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفَرُ وَأَخْيَضُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضُ؟" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: "فَيَخْرُجُونَ كَاللَّوْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا" (١)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٣٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٣)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ

الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

وقفة: اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، فأعلى، وأعلى، وأطيب نعيم الجنة هو أن يُكرم العبد برؤية مولاه عز وجل، فليس هناك أعظم من هذا، وليس هناك نعيم أكمل ولا أعلى منه، أن ترى مولاك في الجنة، تنسى كل ما أصابك في الدنيا من بؤسٍ وهموم، بل إن المسلم الذي يكرم بالجنة مع أول صبغة في الجنة ولو كان أبأس خلق الله ينسى كل بؤسه مع أول نعيم في الجنة لو عاش عمره كله، بل لو عاش الدنيا بتمامها هموماً وأمراضاً، وأحزاناً وسجوناً، فمع أول صبغة في الجنة ينسى ذلك كله.

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنَعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ".^(١)

ينسى كل هذا بغمسة واحدة في الجنة، فما بالك بأن تكرم بالنظر إلى الله الجليل جل جلاله إنه أعلى مقام وأعظم نعيم نسأل الله من فضله العظيم.

فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون رسول الله ﷺ هذا السؤال العظيم، "يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟" أي ليس هناك سحاب، هل يحصل ضرر في رؤية الشمس؟

"قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا ثُمَّ قَالَ:

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٠٧) وابن ماجه في "سننه" (٤٣٢١)، وأحمد في "مسنده"

(١٣١١٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

يُنَادِي مُنَادٍ

في هذا المقام يسعد السعداء ويشقى أهل الصليب البعداء، ويشقى اليهود الملعونين، ويشقى كل كافر عنيذ، خالف الشرع المجيد

"ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيلِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آهَةٍ مَعَ آهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ" أي ممن يعبد الله من المسلمين ففيهم أبرارٌ وفيهم فجارٌ.

"حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُيَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" غُيَّرَاتٌ: أي بقايا من أهل الكتاب موحدون لم يغيروا دينهم، مثل ورقة بن نوفل مثلاً، كان قد تنصر في الجاهلية ولكن على النصرانية الحقة، وغيرهم ممن بقي على التوحيد الذي جاء به الرسل الذين قبل محمد

ﷺ

فيبقى بقيةٌ ممن كان يعبد الله من برٍّ أو فاجرٍ وكذلك غبرات من أهل الكتاب.

"ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيَقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تَرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَسْقِيَنَّ"

وقفه: لو يعلم العبد مدى العطش الذي يصيب العباد يوم القيامة، والله لملأ الدنيا ماءً يسقي به عباد الله، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "وَأَيُّهَا مُسْلِمُ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْمُخْتُمِ".^(١)، فلو استطعت أن تضع ثلاثة أمم مسجدة ضوعها، تضع ثلاث في بلد فيها فقراء يشربون منها فاعمل، تأتي بكرتونة ماءٍ للفقراء فاعمل، اسق

(١) (ضعيف) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٦٨٢)، والترمذي في "سننه" (٢٤٤٩)، وأحمد في "مسنده"

(١١١٠١)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به. وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٢٢٤٩)

المسلمين، وابدأ بأقربك اغنهم عن السؤال، وافعل الخير ما استطعت فستجد هذا الخير يوماً ما، وأنت في أشد حاجة إليه.

"قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَسْقِيَنَا، فَيَقَالَ: اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَقَالَ لِلنَّصَارَى: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالَ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةً، وَلَا وَلَدًا، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ نَسْقِيَنَا، فَيَقَالَ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيَقَالَ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ" تركناهم في الدنيا لأننا كنا نوحدهم الله.

"وإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقَ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِيهِ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْفَا يَسْجُدُ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا"

وقفة: فليحذر العبد النفاق، فهناك الفضيحة العظمى، والبلاء الشديد والحسرة والندامة، فالمنافق يحاول السجود فلا يستطيع.

فائدة في إثبات صفة الساق لله تعالى:

صفة الساق، من الصفات الجليلة لربنا تعالى، نؤمن بأن الله تعالى ساقاً تليق بجلاله وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، ولا نعرف كنهه وحقيقة هذه الساق لأن نبينا ﷺ أخبرنا أن الله ساقاً، ولكن لم يخبرنا عن كنهها، وكل ما يدور ببالك فالله بخلاف ذلك، فاحذر أن تجلس تتخيل ساقاً عظيمة مثلاً، لها وصف معين في ذهنك، تتخيله أو تشبهه بغيره من المخلوقات.

بل تؤمن بأساء الله وصفاته كما جاءت في القرآن والسنة، ولكن من غير تكييف ولا تمثيل،

ولا تعطيل ولا تحريف، بل تؤمن بالصفات كما جاءت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، على لسان نبينا ﷺ.

"فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْفَا يَسْجُدُ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ"

ما هو الجسر؟

الجسر هو الصراط، ومن مشى اليوم على الصراط في الدنيا مستقيماً، فإن شاء الله غداً يمر على صراط الله عندما ينصب بين ظهري جهنم، يمر أسرع ما يكون وينجيه الله من الشدائد، فإن الله نصب الصراط في الدنيا؛ وهما الكتاب والسنة، فمن تمسك بهما ينجو بفضل الله يوم القيامة، ويمر على الصراط كاسرع ما يكون.

"ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيَجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيْبٌ، وَحَسَكَةٌ مُفْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقِيَاءٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ"

ما هو الطرف؟

أي يمر كطرف العين هنيئاً لهم، يا رب اجعلنا منهم وأولادنا وأزواجنا وذرياتنا وأحبابنا في الله أجمعين.

"الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ" من المؤمنين من يمر كالطرف، ومنهم كالبرق، ومنهم كالريح، ومنهم كأجاويد الخيل، ومنهم كالركاب يعني الجمل، وفي بعض الروايات كأشد الرجال، أي: رجل يجري بسرعة.

والذي جعل هؤلاء يتفاوتون في المرور هو العمل الصالح - نسأل الله الإعانة عليه، والغنيمة من كل بر - لكن هناك عقبات الله بها عليم "فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَنَاجٍ مُخْذُوشٌ" أي خدشه

الخطاف، فلعله تكلم بكلمة في غير محلها، لعله تكلم بغيبة، لعله أكل بدرهم حراماً مرة، أو غير ذلك من الأعمال التي تسخط الله؛ فلذلك قال ﷺ "فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" ومكدوس، أي: تلقى على رأسه الخطاطيف تخطفه ويلقى في نار جهنم - نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء -.

"حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا" أي آخر الموحدين، هو موحدٌ لكنَّ ذنوبه كثيرة، بعض المسلمين - نسأل الله الستر والعافية - لا يأبه أن يأكل حراماً، لا يأبه أن يزني، لا يأبه أن يشرب الخمر، لا يأبه أن يتشبه بالكفرة والمجرمين، لا يأبه أن يوالي اليهود والنصارى، اسمه مسلمٌ، يصلي مرةً ويترك مرتين أو ثلاثة أو أربعة، فالموحد سينجو بإذن الله، ومآله إلى الجنة ليس مخلداً في النار، ولكن ما تدري ما الصعاب التي تواجه العبد إذا قدر الله عليه عقاباً - نسأل الله العافية -.

"حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشِدَةً فِي الْحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا"

وقفه: تلك الشفاعة كرامةٌ للمؤمنين، فدعك من مصاحبة الفساق والفجَّار؛ فإنهم لا ينفعونك، ولا يشفعون لك عند الله.

"فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ"، وفي رواية أخرى في الصحيحين (حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَنَّهُ

السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ^(١)

لأنه سجد عليه للملك جل جلاله، فلذلك رب العزة يشرف هذه المواضع التي سجد العبد عليها، فلا تأكلها النار لو قَدَّرَ الله عليه عذاباً، ويحرم الله صورهم على النار، أي يرى صورة أخيه ويعرفه.

"فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ، فَيَخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا"
وفي بعض الآثار عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُصَفُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفُوفًا - وَقَالَ: ابْنُ نُمَيْرٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ - فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْتَ فَسَقَيْتَكَ شَرْبَةً؟ قَالَ: فَيَشْفَعُ لَهُ، وَيَمُرُّ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَوَلْتُكَ طَهُورًا؟ فَيَشْفَعُ لَهُ قَالَ: ابْنُ نُمَيْرٍ - وَيَقُولُ: يَا فَلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي فِي حَاجَةٍ كَذَا وَكَذَا فَذَهَبْتُ لَكَ، فَيَشْفَعُ لَهُ"^(٢)

هذه آثارٌ صحيحةٌ عن بعض السلف، فيخرج من النار بسبب شربة الماء، هذا الإحسان الذي أحسنه للمؤمن، فإذا خرج من النار، يقول أهل النار لماذا خرج، فيقولون خرج بسبب شفاعَةِ صديقٍ حميمٍ، فعندها يقول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١] - نسأل الله العافية -^(٣)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (ضعيف) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٣٦٨٥)، وأبو يعلى في "مسنده" (٣٤٩٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٩٣)

(٣) أخرج الثعلبي في "الكشف والبيان" (١٧٢/٧) والواحدي في "الوسيط" (٣٥٧/٣) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقُولُ فِي الْجَنَّةِ: رَبِّ مَا فَعَلَ صَدِيقِي فَلَانُ وَصَدِيقِي فِي

"ثُمَّ يَعُودُونَ ، فيَقُولُ : اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيُخْرِجُونَهُ مِنْ عَرْفُورٍ ، ثُمَّ يَعُودُونَ ، فيَقُولُ : اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرَجْتُمُوهُ ، فَيُخْرِجُونَهُ مِنْ عَرْفُورٍ قَالِ أَبُو سَعِيدٍ : فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَأَقْرَأُوا : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا } ، فيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فيَقُولُ الْجَبَّارُ : بَقِيَتْ شَفَاعَتِي ، فيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ، فيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَشُوا (صاروا فحماً) ، فيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ : مَاءُ الْحَيَاةِ ، فيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ (الزرعة الصغيرة) قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ ، فيُخْرِجُونَهُمْ كَأَنَّهُمْ اللَّوْلُؤُ ، فيَجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمَ ، فيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ ، أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فيَقَالُ لَهُمْ : لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"

ومن مشاهد الحشر، والقيام لله تعالى، ما ثبت عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ. قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ

الحميم؟ فيقول الله سبحانه: أخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقي فما لنا من شافعين ولا صديق حميم.

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما اجتمع ملاً على ذكر الله تعالى فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم وإن أهل الإيمان شفعا بعضهم في بعض، وهم عند الله شافعون مشفعون. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (١٢٠/٦)، وذكر القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٤٧/١٦) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عُدَّةُ الدُّنْيَا وَعُدَّةُ الْآخِرَةِ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ أَهْلِ النَّارِ: "فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ"

قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" (١)، وفي رواية ثابتة صحيحة أن أمة النبي ﷺ ثلثي أهل الجنة (٢).

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، ثُمَّ نُونٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ» (٣) -نسأل الله أن يرزقنا الجنة، وأن ينجينا وإياكم من النار-.

حكم القيام للإنسان، والقيام لقادم:

صَحَّ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ عَامِرٍ فَقَامَ ابْنُ عَامِرٍ وَجَلَسَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِابْنِ عَامِرٍ: اجْلِسْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمَثَلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (٤).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٤٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (مرسل صحيح) أخرجه الحميدي في " مسنده " (٨٥٣)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واللفظ له، والطحاوي " في شرح مشكل الآثار " (٣٦٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه (قال سفيان انتهى حفظي الى النصف ولا أعلم إلا أنه قال إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة) وأخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٣٢٣٧٠) من حديث الشعبي مرسلًا.

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥٤٦)، وابن ماجه في " سننه " (٤٢٨٩)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٩٤٠) من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، به. وصححه الألباني في " مشكاة مصابيح " (٥٦٤٤).

(٤) (صحيح) أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٩٧٧)، وأبو داود في " سننه " (٥٢٢٩)، والترمذي في " سننه " (٢٧٥٥)، وأحمد في " مسنده " (١٦٩١٨)، من حديث أبي مجلز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في " الصحيحة " (٣٥٧).

هذا حديثٌ ثابتٌ صحيحٌ لكن له فقهاً وله حكماً، فالقيام إذا كان لعلّة، لإنسانٍ قادمٍ من سفرٍ أو طال العهد به، فقامت ترحب به أو قامت لإكرامه، أو كبيراً في السن كوالدٍ مثلاً، فقامت إليه، أو ابنٌ عزيزٌ قادمٌ فقام الأب له أو الأم له، كل هذا جائزٌ.

فقد ثبت بالإسناد الصحيح، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ كَانَ أَشْبَهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَلَامًا وَلَا حَدِيثًا وَلَا جِلْسَةً مِنْ فَاطِمَةَ، قَالَتْ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَاهَا قَدْ أَقْبَلَتْ رَحَبَ بِهَا، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا، ثُمَّ أَخَذَ يَدَيْهَا فَجَاءَ بِهَا حَتَّى يُجْلِسَهَا فِي مَكَانِهِ^(١).

أما قول النبي ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمَثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" فهذا يرجع إلى الشخص نفسه، إذا كان يحب - والعياذ بالله - أن يقوم الناس له وهو جالسٌ، وهم قائمون طول المجلس كبيراً وبطراً، لا شك أن هذا الذي حرمه الإسلام والله أعلم.

ومن الأدلة - أيضاً - قيام النبي ﷺ لعكرمة ابن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاءه مسلماً، كما ثبت ذلك في السنة^(٢).

وأيضاً قيام الصحابة لسعدٍ، لما جاء سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكم في بني قريظة، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ، بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» صلوات ربي وسلامه عليه^(٣).

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٩٤٧)، وأبو داود في "سننه" (٥٢١٧)، والترمذي في "سننه"

"(٣٨٧٢) والنسائي في "السنن الكبرى" (٩٣٨٩)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. وصححه

الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٩٤٧/٧٢٩)

(٢) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣٩/٥)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٣/٤١)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٠٤٣) ومسلم في "صحيحه" (١٧٦٨)، من حديث أبي

وأيضاً في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، قَالَ كَعْبٌ: " حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لَطْلَحَةً " ^(١)

فلو حدثت نعمة لإنسانٍ، فقامت إليه تهنته بهذه النعمة، فهذا جائزٌ ولا يدخل في النهي والله أعلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: في قول الرسول ﷺ "قوموا إلى سيدكم" أو إلى خيركم" فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام، قال القاضي: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالسٌ، ويمثلون قياماً طويلاً جلوسه). ^(٢)

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ جوابٌ مفصّلٌ في هذه المسألة:

فقد سئل عن القيام والنهوض الذي يعتاده الناس، من الإكرام عند قدوم شخص معين معتبر، هل يجوز أم لا؟

وإذا كان يغلب على ظن المتقاعد عن ذلك أن القادم ينجل، أو يتأذى باطناً، وربما أدى ذلك إلى بغضٍ وعداوةٍ ومقتٍ، فما الحكم؟

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: لم تكن عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، أن يعتادوا القيام

سَعِيدُ الْحُدْرِيِّ رضي الله عنه، به.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٤١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٦٩)، من حديث كعب

بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، به.

(٢) ينظر "شرح صحيح مسلم" للنووي (١٢ / ٩٣)

كلما يروونه - ﷺ - كما يفعله كثير من الناس، بل قد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك، ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبة تلقياً له، كما روى عن النبي ﷺ "أنه قام لعكرمة"، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ: "قوموا إلى سيدكم" وكان قد قدم ليحكم في بنى قريظة لأنهم نزلوا على حكمه.

والذي ينبغي للناس أن يعتادوا، اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد رسول الله ﷺ، فإنهم خير القرون، وخير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، فلا يعدل أحدٌ عن هدى خير الورى، وهدى خير القرون إلى ما هو دونه.

وينبغي للمطاع ألا يقر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له إلا في اللقاء المعتاد. وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن^(١).

تنبيه: بعض الناس في المجالس كلما دخل يقوم أهل المجلس، فإذا ذهب ليقضي شيئاً ما ورجع، فإذا بأهل المجلس يقومون، ولعلمهم يقومون له في المجلس الواحد مراتٍ ومراتٍ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وقفةٌ فقهية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ولو ترك لاعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يُقام له؛ لأن ذلك أصلح لذات البين، وإزالة التباغض والشحناء" نسأل الله التوفيق.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" (١/ ٣٧٤)

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾ إِذَا
تُثِّلَ عَلَيْهِ عَائِثُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ الفجار: هم الكفار وبعض أهل العلم قالوا بأن الآية صالحة لأن تشمل الفجار من أهل هذه الملة

والفاجر: هو الذي لا ينزوي عما حرم الله تعالى عليه^(١)، ويكتب كتابه في سجين ، ولكن ، عندما نقرأ قول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: ٤٢] فالكفار كلهم فجرة لأنهم ليس عندهم شيء محرم وقد ثبت في مسند الامام أحمد، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة" إلى أن ذكر بعد خروج الروح، روح الكافر، "حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين^(٢) سجين يعني أضيق مكان في الأرض السابعة السفلى والعياذ بالله .

وفي رواية صحيحة "وأما المنافق" فيمكن أن يحمل هنا على نفاق الاعتقاد والله أعلم.

ونفاق الاعتقاد يخرج من الملة، فكتاب المنافق أيضا يكون في سجين، مع كتاب الكفار في أضيق مكان في الأرض السفلى، نسأل الله العافية والسلامة.

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله في " تيسير الكريم الرحمن " (ص ٩١٥) يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده " (١٨٥٣٤)، والحاكم في " المستدرک " (١٠٨)، من حديث البراء بن

عازب رضي الله عنه الطويل، به. وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (١٦٣٠)

ولما لم تعلق أرواحهم ولم ترتقِ إلى الله تبارك وتعالى، ولم تزكوا نفوسهم بالعمل الصالح والهدى في الحياة الدنيا، ضُيِّقَ عليهم عند الموت وكان كتابهم في أضيق مكانٍ في الأرض السابعة السفلى - نسأل الله العفو والعافية -.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِئٌ ﴿٨﴾﴾ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ "فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة." ^(١)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِئٌ ﴿٨﴾﴾ تهويل لهذا الضيق وهذه الشدة، التي يلغاها ذلك الفاجر - نسأل الله العافية والسلامة -.

﴿كِتَبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ مرقوم أي: مكتوب ^(٢)، كَالرَّقَمِ في الثوب لا يمحي أبداً، والمعنى كتابٌ مكتوبٌ فيه أسماء الفجار، لا يزداد فيهم ولا ينقص، كتبه رب العالمين منذ الأزل بعلمه الواسع سبحانه جل جلاله، كما ثبت في صحيح الإمام مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ." ^(٣)

﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ ويلٌ: وهو وعيدٌ بالعذاب الشديد، ووادٍ في جهنم، كما مرَّ

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣٤٩)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ١٩٧)، وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (أي مَكْتُوبٌ كَالرَّقَمِ فِي الثَّوْبِ، لَا يُنْسَى وَلَا يُمَحَى). (٢٢ / ١٤١)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٥٣)، والترمذي في "سننه" (٢١٥٦)، أحمد في "مسنده"

(٦٥٧٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٦١٣٨)

معنا في أول السورة^(١)

مسألة: هل يدخل المزاح في هذا الوعيد إن كان كذباً؟

ثبت، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ"^(٢)

وقفة: ما أكثر هذا في هذه الأيام، يتكلمون بالكذب حتى يضحكون الناس، فيدخلون في هذا الوعيد الشديد - نسأل الله العفو والعافية والسلامة -.

الله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي عذابٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، بالعذاب والإهانة لهذا الذي يكذب بيوم الدين.

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ ويوم القيامة سُمي بيوم الدين لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم^(٣)، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: ٢١] أي: مرتبه بعمله

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ما يكذب بيوم الدين إلا معتدٍ في أفعاله تجاوز الحلال ووقع في الحرام، وكذلك هو أثيمٌ، أي: جمع بين شر الأوصاف، معتدٍ على عباد الله يظلمهم، وكذلك أثيمٌ في أفعاله لا يفعل البر ولا يدل عليه، وكذلك لا يسلمُ الناس من شره، بل ينتهك الحرمات^(٤).

(١) تقدم تخريجه في أول السورة.

(٢) (حسن) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٩٠)، والترمذي في "سننه" (٢٣١٥)، والنسائي في "الكبرى" (١١٠٦١)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٠٢١)، من حديث بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ بِهِ. وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٤٨٣٨).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ١٣٤)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/ ١٩٨)، وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٣٥٠)

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا سَطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) إذا تلى عليه آيات القرآن الكريم قال هذا ليس بكلام الله، بل هي خرافات وحكايات الأولين، (أَسْطِيرُ) أي: خرافات وحكايات الأولين.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

عَقَّبَ اللهُ عز وجل على ذلك بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) (كَلَّا): إبطال لما تقدم، وردع وزجر لهؤلاء، (بَلْ رَانَ): أي طبع على قلوبهم، وحال بين قلوبهم وبين أن تعي كلام الله الذي عليها ألا وهو الذنوب التي غطتها وأحاطت بها^١ فقد صح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُفِّلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) [المطففين: ١٤]".^٢

أَي: مُعْتَدٍ فِي أَعْمَالِهِ؛ مِنْ تَعَاطَى الْحَرَامِ وَالْمَجَاوَزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ وَالْإِثْمِ فِي أَقْوَالِهِ: إِنْ حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ.

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ١٩٩) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُكَذِّبًا هُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ: كَلَّا، مَا ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ يَقُولُ: غَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَغَمَرَهَا، وَأَحَاطَتْ بِهَا الذُّنُوبُ فَغَطَّتْهَا؛ يُقَالُ مِنْهُ: رَانَتْ الْحُمُرُ عَلَى عَقْلِهِ، فَهِيَ تَرِينُ عَلَيْهِ رَيْنًا، وَذَلِكَ إِذَا سَكِرَ، فَغَلَبَتْ عَلَى عَقْلِهِ.

(٢) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٣٤)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٤٤)، والنسائي في "الكبرى" (١١٥٩٤)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٥٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٩٣٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وحسنه، الألباني في "صحيح الجامع" (١٦٧٠)

فالنظرة الحرام - عافانا الله - نكتة سوداء في قلب الواحد منا، أكل الربا نكتة سوداء في قلب المرء، الغيبة والنميمة - عافانا الله والمسلمين - الزنا، شرب الخمر، عقوق الوالدين، على قدر المعصية، والمعاصي تتفاوت، فمن الممكن نكتة عظيمة تحجب القلب، ومن الممكن نكتة سوداء لكنها أخف، على حسب الذنب تكون هذه النكتة، فإذا انغمس العبد في المعاصي - نسأل الله النجاة والعافية يا رب العالمين - طُبع على قلبه وصار على قلبه غلافٌ أسود؛ لأنه إذا كثرت الذنوب فإنها تحول بين القلب وبين أن يعي العبد الخير، وأن يفهم كلام الله وأن تكون عنده بصيرة، فتحجب بصيرة القلب - نسأل الله العافية والسلامة -.

وقد ثبت عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "تُعْرَضُ الْقُلُوبُ كَعَرْضِ الْخَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا. فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَاضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا. لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ".^(١)

وقفة: فلذلك لا تحتقر سيئة ولا تقل هذه يسيرة، كحال كثير من الناس تكلمه مثلاً في أمرٍ محرم، يقول أنا أعرف أنه مكروه، إذا كنت موقناً بأنه مكروه، يكرهه الله ويكرهه رسول الله ﷺ، فلماذا تفعل المكروه؟ لماذا تفعل شيئاً يكرهه الله عز وجل ويكرهه حبيبك محمد ﷺ؟ إذا كنت تحب الله وتحب رسوله ﷺ، فعليك أن تجتهد في ترك الحرام والمكروه كله ما استطعت.

وفي صحيح الإمام مسلم، عَنِ الْأَعْرَابِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ "إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٤٤)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢٨٠)، من حديث حذيفة رضي الله عنه، به.

وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ^(١).

فالران يكون على قلوب الكفار، يحجبها تماماً، والغين يأتي على قلوب المقربين، والغيم بالميم يحدث أيضاً للأبرار، والأبرار أقل منزلة من المقربين.

فرسول الله ﷺ وهو أعلى الناس منزلة، قَالَ: "إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي"^(٢)

وقد فصل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، بين تلك الحجب فقال: "الغين رقيق لطيف جداً أما الغيم أشد منه والران حجاب غليظ يحجب القلب، فلا يبصر الهدى"^(٣) وما ذاك إلا بسبب الذنوب كما ذكرنا - نسأل الله العافية والسلامة -.

والله تبارك وتعالى في هذه الآية الجليلة لما قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ما حجبهم عن معرفة القرآن، وأنه كلام الله، وعن اتباعه والسير خلفه إلا الذنوب التي حدثت لهم، أو صار بسببها الران على قلوبهم فحجبت هذه القلوب أن تعي كلام الله تعالى، عقب على ذلك بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾

وهذا من أشد العقاب، وأعظمه، أن يعاقب الله تعالى الكفرة، فيحجبهم عن رؤيته، ﴿كَلَّا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٠٢)، وأبو داود في " سننه " (١٥١٥)، والنسائي في " الكبرى " (١٠٣٨٣)، وأحمد في " مسنده " (١٧٨٤٨)، من حديث الأغر المزني رضي الله عنه، به.

(٢) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في " شرح صحيح مسلم " (١٧ / ٢٣) قَوْلُهُ ﷺ إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْغَيْنُ بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْغَيْمُ بِمَعْنَى الْمُرَادُ هُنَا مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ قَالَ الْقَاضِي قِيلَ الْمُرَادُ الْفَتْرَاتُ وَالْعَفَلَاتُ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي كَانَ شَأْنُهُ الدَّوَامَ عَلَيْهِ فَإِذَا فَرَّ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ قَالَ وَقِيلَ هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَقِيلَ سَبَبُهُ.

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في " مدارج السالكين " (١ / ١٣٠) (الران) هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ أي: زيادةً على أنهم معذبون في النار العذاب الأليم ، يحجبون عن رؤية ربهم سبحانه وتعالى ، ولذلك أعلى نعيم أهل الجنة - رزقنا الله وإياكم هذا النعيم - هو رؤية رب العالمين في الجنان، ورؤية الله تعالى في الجنة متواترة، أي في أدلة كثيرة من القرآن والسنة، واتفق عليها الأئمة ، اتفق أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عياناً، وليست رؤية معنوية، بل رؤية حقيقية، ترى مولاك جل جلاله بعينك ، وهذا أعلى نعيم أهل الجنة .^(١)

ومن الأدلة على ذلك هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾، قال الإمام الشافعي رحمه الله عليه " لما حجب قوماً بالسخط، دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا"^(٢)

وأيضاً قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] -اللهم ارزقنا وإياكم هذه الزيادة- (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ) وهي الجنة، (وَزِيَادَةٌ) وهي النظر إلى وجه مولاهم تبارك وتعالى^(٣)

(١) قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ فِي " شرح العقيدة الطحاوية " (ص ١٨٨) وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه { الدالة على الرؤية فمتواترة رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن)، وينظر " تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨ / ٢٨٠)

(٢) أخرجه البيهقي في " مناقب الشافعي " (١ / ٤١٤) والشعلبي في " الكشف والبيان " (١٠ / ١٥٤) والواحدي في " الوسيط " (٤ / ٤٤٦) وذكره ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٥٢) والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ١٤٦) وابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٥١) وقال: وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ قَوْلِهِ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٣٠﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٣١﴾﴾ وَكَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، رُؤْيَا بِالْأَبْصَارِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَّةِ الْفَاخِرَةِ.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨١)، والترمذي في " سننه " (٢٥٥٢)، والنسائي في " الكبرى "

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ألا وهو النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى.^(١)

وأيضاً قال النبي ﷺ: "جَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ"^(٢) وروى مسلمٌ في صحيحه، عن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَتْ تِلَا هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾^(٣) . - اللهم اجعلني وإياكم منهم يارب العالمين -.

وأخرج البخاري ومسلمٌ في صحيحيهما عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ قَالَ: كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٧٧١٨)، وابن ماجه في "سننه" (١٨٧) من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (١٢ / ١٦٢) الْحُسْنَى: هِيَ الْجَنَّةُ، جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْ خَلْقِهِ جَزَاءً، وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (٧ / ٤٠٧) وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ الْمَزِيدَ: النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. وَيَنْظُرُ "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٢١ / ٤٥٩)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٧٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٠)، من حديث أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٨١)، والترمذي في "سننه" (٢٥٥٢)، والنسائي في "الكبرى" (١١١٧٠) وابن ماجه في "سننه" (١٨٧) من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

يُحَدِّثُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَلْ تُصَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟" قَالُوا: لَا قَالَ: "فَهَلْ تُصَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟" قَالُوا: لَا قَالَ: "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ" ^(١) ﷺ.

وفي الصحيح عن جرير بن عبد الله، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ -، ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]" ^(٢)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لِمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ الْفَلْيَ سَنَةِ يَرَى أَقْصَاهَا يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ وَسُرُرِهِ، وَإِنْ أَفْضَلُهُمْ مَنْزِلَةً لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ» ^(٣) والحديث ضعيفٌ ولكن قال به جمعٌ كثيرٌ من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٤) وغيره.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٧٣)، ومسلم في "صحيحه" (٦٣٣)، من حديث جرير ابن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (ضعيف) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥٥٣)، أبو يعلى في "مسنده" (٥٧٢٩)، وأحمد في "مسنده" (٤٦٢٣)، والحاكم في "المستدرک" (٣٨٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به. وضعفه الألباني في "الضعيفة" (١٩٨٥)

(٤) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في "مجموع الفتاوى" (٤٥٥ / ٦) (وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَاقَ "الْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ" عَلِمَ أَنَّ التَّجَلِّيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَهُ عِنْدَهُمْ وَقَعٌ عَظِيمٌ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ؛ وَهَذَا يُقْتَضِي أَنَّ هَذَا النَّوعَ أَفْضَلُ مِنَ الرُّؤْيَا الْخَاصَّةِ كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ أَكْثَرَ فَاِذَا مُنِعَ النِّسَاءُ مِنْ هَذَا الْفَضْلِ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يُمْنَعَنَّ بِمَا دُونَهُ

فنعيم أهل الجنة يتفاوت، والنظر إلى رب العزة جل جلاله يتفاوت، على حسب الأعمال.

وسئل العلامة ابن عثيمين^(١) والشيخ عبد الله الغنيان^(٢) وغيرهما من العلماء الكبار في زماننا، عن هذه المسألة فأجابوا: لا شك أن أهل الجنة يتفاوتون في النظر إلى الله تبارك وتعالى وذلك على حسب أعمالهم، فكلما كَمَلَ إيمان العبد وعَظُمَ، وكانت مسارعته في الأعمال الصالحة أكثر، كلما كان نصيبه من رؤية الله أعظم، وكلما كان العبد متباطئاً - نسأل الله الغفران والعافية - كلما كانت رؤيته إلى الله أقل لا شك، كما تتفق أنه لا يستوي إيمان "أبي بكر" مثلاً مع فساق المسلمين

فالذي يشرب الخمر ويقرب الزنا، وإن كنا نقول بأن شارب الخمر الغير مستحل لها، مآله إلى الجنة فإذا دخل الجنة هل منزلته تستوي مثلاً مع أبي بكر وعمر وعثمان وهؤلاء السادة الكرام؟

الجواب لا، ولذلك وجب علينا أن نسارع في الخيرات ما استطعنا، لأن الله تعالى يكرمنا به أولاً، ويتفضل علينا بالقبول بإذنه تعالى، ويرزقنا جنته، ويرزقنا أعلى نعيم الجنان، ألا وهو رؤية الله تعالى في الجنة نسأل الله من فضله الكريم.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وَهَذَا يَبَيِّنُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ

(١) ينظر " لقاء الباب المفتوح " (٢٢٨ / ١١)

(٢) ينظر شرح " العقيدة الواسطية " للغنيان (١٣ / ٢٩)

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٨) وهذا مقابل أولئك الفجار، فلما كان كتاب الفجار في سجين وفي أضيق مكان، فعكسهم تماماً بتمام هؤلاء الأبرار، الله تعالى يكتب كتابهم في عليين، ومعنى (عليون) قال ابن جرير الطبري رحمته الله: "إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاع إلى حد قد علم الله جل وعزّ منتهاه، ولا علم عندنا بغايته، غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك." (١)

أي أن مكانتك عليّة جداً، وكتاب أعمالك في السماء السابعة لا يقصر عن هذا المكان، وروى الإمام أحمد بسند صحيح عن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ".....فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَاٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيَّينَ" (٢) - يارب اجعلنا منهم، في أعلى مكان -.

لفتة لطيفة: قال ربنا تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٨) كما قلت كتاب أعمالهم، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب قيامه بالليل، الكتاب الذي كتب فيه حرصه على مجالس العلم، الكتاب الذي كتب فيه طاعته لله تعالى وبكاؤه في الخلوات، الكتاب الذي فيه أداء الأمانات، كتاب الأبرار في عليين، الله يعظم ويفخم هذا المكان.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٩) **كِتَابُ مَرْقُومٍ** (٢٠) **يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** (٢١) يعني يطلع على كتابك

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢١١)

(٢) (صحيح) وقد تقدم تخريجه.

المقربون من الملائكة الكرام، جبريل الأمين، ميكائيل، إسرافيل، حملة العرش، وسائر الملائكة المقربون^(١)

مولاك العظيم رب العرش العظيم يطلعهم على كتابك، يقول انظروا هذا عبيدي مواظبٌ على الصلوات في جماعة، مواظبٌ على حضور حلق العلم، مواظبٌ على نفقة شهرية ينفقها، كل شهر ينفق على الأيتام والمساكين، انظروا كيف بكى من خشيتي، يطلع الملائكة الكرام المقربون، على أعمالك يا عبد الله، فأني نعيمٌ هذا النعيم، وأي سعادةٍ يتخيلها العبد، إنه نعيمٌ لا يبيد وسعادةٌ لا تُكدر.

وقفه: لو ان العبد أنجز في عملٍ من الأعمال أو ابتكر شيئاً تميز به فإنه يُطلع عليه أحبائه وذوي الوجاهة من الناس الذين يثق فيهم ويحبهم ويعلم أنهم يحبون له الخير فله المثل الأعلى فالملائكة الكرام يشهدون كتابك يشهدهم الرب تبارك وتعالى عليه، ولو أن ملكاً من الملوك، عظمَ إنساناً، ولو أنه يكتب كتاباً ويشهد عليه بعض الأمراء، في مجلسه ومحضره يكتب كتاباً بخط يده باسم فلان الفلاني، فلا شك أنها كرامةٌ لمن كتب الملك اسمه، وأشهد عليه الأمراء والوزراء، فما بالك بربك العظيم الذي ليس كمثله شيءٌ يُطلع على أعمالك ملائكته المقربين عنده - اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين -.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ نعيم لقلوبهم وأبدانهم، نعيم لا يشمل أي نقصٍ بأي وجهٍ من الوجوه.

(١) قال الطبري رحمته الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢١١) يَقُولُ: يَشْهَدُ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَكْتُوبَ بِأَمَانِ اللَّهِ لِلْبَرِّ مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ، وَفَوْزِهِ بِالْجَنَّةِ، الْمُقَرَّبُونَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٥٠)

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾^(١) الأرائك: هي السرر وأهل العلم يقولون موضوعه في الحجلة، والحجلة هي ما يحيط السرر من الحرير أو غيره من القماش، من كل جانب كأنه بيت يظله من كل جانب على سرير، أسرة مزينة مزخرفة، على أبهى ما يكون.^(٢)

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾^(٣) بهاء النعيم بادٍ عليهم، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾^(٤) الرحيق اسم من أسماء الخمر^(٥)

﴿خَتَمَتْهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾^(٦) قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف الصالح، قالوا مختومٌ يعني مخلوط^(٧)، أي خليطه بالمسك.^(٨)

﴿خَتَمَتْهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾^(٩) في هذا المآل يتنافس المتنافسون، ويشمر المشمرون، ويجد ويجتهد المجتهدون، ويعمل العاملون، هذا ما ينبغي أن نتنافس فيه، لا أن نتنافس في شيء يبعدنا عن الله عز وجل.^(١٠)

﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾^(١١) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١٢) أي أن هذا الشراب (مِزَاجُهُ)

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢١٢)، وقال القرطبي رحمته الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٥٠) عَلَى الْأَرَائِكِ وَهِيَ الْأَسْرَةُ فِي الْحِجَالِ

(٢) قال الطبري رحمته الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢١٥) يَقُولُ: يُسْقَى هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارُ مِنْ خَمْرٍ صَرَفٍ لَا غِشَّ فِيهَا

(٣) قال الطبري رحمته الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢١٧) وَأَمَّا قَوْلُهُ: {مَخْتُومٌ خَتَمَتْهُ مِسْكٌ} فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: مَمْزُوجٌ مَخْلُوطٌ، مِزَاجُهُ وَخِلْطُهُ مِسْكٌ) وأخرجه عن ابن مسعود

وعلقمة رضي الله عنه

(٤) قال الطبري رحمته الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢١٨) وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ آخِرَ شَرَابِهِمْ يُخْتَمُ بِمِسْكٍ يُجْعَلُ فِيهِ.

(٥) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٢٠)

أي يخلط من عينٍ يقال لها التسنيم، هذه العين يشرب منها صرفاً، لا يخلط معها غيرها، لا تخلط بماءٍ غير ماءها،

فالأبرار كما قال الله تعالى عن شرايهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ - ٦] فالأبرار، يخلط ماؤهم بماءٍ آخر، لكن عباد الله المقربين، يشربون منها صرفاً، وكلها في منتهى الجمال والروعة - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المقربين عند الله -^(١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۖ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۖ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۖ هَلْ تُؤِثِرُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ يخبرنا مولانا عز وجل بحال الكفار مع أهل الإيمان، وأن عادة أهل الكفر أنهم يستهزئون بالمؤمنين، ويستهزئون بكتاب رب العالمين، وبسنة سيد الأولين والآخرين، بل استهزأوا برسولنا الأمين ﷺ، بل استهزأوا بجميع الرسل، ولذلك يقول الله عز وجل، لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٢١) أَمَا سَائِرُ أَهْلِ التَّوْبِيلِ، فَقَالُوا: هُوَ عَيْنٌ يُمَزَّجُ بِهَا الرَّحِيقُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَمَا الْمُقَرَّبُونَ، فَيَشْرَبُونَهَا صَرَفًا.

قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ١٠] أي حلّ على الكفار ما كانوا يستهزئون به، و حلّ عليهم عذاب الله جل جلاله.

وأخبر الله تعالى أن هذه سنة من سنن الكفر، أنهم يستهزئون بالمؤمنين وبالإيمان وبشريعة الله تعالى التي أنزلها على رسله، قال الله عن نبيه نوح: **﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾** [هود: ٣٨]

من أي شيء يسخر هؤلاء الكفار على مدار الزمان؟

يسخرون من الإسلام وأهله، يسخرون منهم لأنهم لا يأكلون الحرام، يسخرون منهم لأنهم لا يقعون في الزنا، يسخرون منهم لأن نساءهم يلتزمون بالحجاب الشرعي، ولا يفسقون، يسخرون منهم لأنهم يصلون ويزكون، ويحافظون على شعائر ربهم وشرائعه، كما قال رب العزة جل جلاله - أيضاً-: **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [التوبة: ٧٩] سبحانه الله العظيم، هؤلاء قومٌ ضعفاء، فقراء، سمعوا أن الله تعالى حثهم على الصدقة، ورسولنا الكريم أمرهم بالصدقة وليس عندهم ما ينفقون، فكان الواحد منهم يعمل طوال اليوم والذي يأخذه أجره يطعم أهله وما تفضل على نفقة أهله، يتصدق به لله جل جلاله، فمنهم من جاء بصاع، ومنهم من جاء بمُد من طعام، لله ولرسوله، فقال المنافقون: إن الله غني عن صاع هذا، وعن مُد هذا، ولما جاء الصحابة الكرام الأبرار من الأغنياء مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بأموال كثيرة، قالوا هؤلاء يراءون بأعمالهم، فسخروا من أهل الإيمان، من الذين قلت نفقتهم، ومن الذين كثرت نفقتهم، فعندما تجد مثل هذا تظمن أنه استهزئ بالصالحين قبلك ولك فيهم أسوة، بل لك أسوة في نبي الله محمد ﷺ، وكذلك إخوانه من الأنبياء الكرام البررة، صلوات الله وسلامه عليهم، استهزئ بهم فصبروا على ما أودوا وكذبوا حتى أتاهم نصر الله جل جلاله،

وتباركت أسماؤه.

وقد قال الله تعالى ﴿رُزِقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
[البقرة: ٢١٢]

هذا هو الواقع، وهذا هو الحاصل، أهل الكفر زُيِّنَ لهم الدنيا، يقبلون عليها ويركنون إليها، ولا يذكرون الآخرة، ويسخرون من الذين آمنوا، يسخرون من طهارتهم، ونقائهم، وأمانتهم، وصلاتهم وتوحيدهم واستمسакهم بهدي ربهم، ولذا قال الله بعدها: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ اللهم اجعلنا وإياكم منهم، والذين اتقوا ربهم واستمسكوا بهديه وشريعته، هم في منازل عالياً فوق الكفار يوم القيامة - نسأل الله من فضله، ورضوانه -.

والله تعالى حكى قول الكفار عن نبيه محمد ﷺ أنهم قالوا ﴿وَقَالُوا بِنَايَيْهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] سبحانه الله العظيم، يصفون أعقل الورى وسيد بني آدم، يصفونه ﷺ بأنه مجنون، بل قالوا عنه ساحرٌ، وقالوا عنه كاهنٌ، والله جل جلاله نزهه وبرأه، مما رماه به المعتدون الكافرون، ولكن هذه هي سنتهم، اسمع لقول الله تعالى في خواتيم سورة المؤمنون: ﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] اخسأوا في النار ولا تكلمون ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١] أي جعلتموهم هزواً ليس لكم حديثٌ إلا الاستهزاء بأهل الإيمان (فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي) يعني شغلتم ليلكم ونهاركم استهزاءً بالمؤمنين وسخريةً منهم، حتى تركوا ذكر الله من كثرة انشغالهم بالاستهزاء بأهل الإيمان، (وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) قال تعالى: (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا

أَتَهُمْ هُمُ الْفَآيُزُونَ) اللهم اجعلنا منهم يا رب .

وقفة: يا عبد الله لا بد لك من الصبر على هذا الدين وعلى هذه الشريعة، وعلى هذه الأخلاق الفاضلة، وعلى التوحيد الذي جاء به سيد الأولين والآخرين ﷺ لأن الدنيا سريعة الزوال وأنت تمر في حياتك بصنوف شتى من استهزاء الكفار، في الجرائد، في وسائل الإعلام، أمامك أحياناً في وجهك، فاصبر لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين.

وقد قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] سبحانه الله يصفون أهل الإيمان وأهل العقل، وأهل النهى وأهل البر والخير أنهم سفهاء، فقال ربنا تعالى مدافعاً عن أهل الإيمان: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]

الله تعالى يستهزأ بمن يستهزأ بأوليائه، سبحانه جل جلاله ويمكر بمن يمكر بعباده الصالحين، وقد جاء في الصحيحين، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جُزُورٍ (هي الجلدة التي تكون فيها أمعاء البهيمة) فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ أَوْ أَبِي بَنٍ خَلْفٍ شُعْبَةَ الشَّاكِّ فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَأَلْقُوا فِي بَرٍّ غَيْرِ أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ أَوْ أَبِي تَقَطَّعَتْ أَوْ صَالَهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبَرِّ " .^(١)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٨٥٤)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٩٤)، من حديث ابن

فالصبر الجميل للمؤمن الحق، الذي يعلم أن الله ناصر عباده، وناصر أوليائه وأن الله لا يحب الكفر ولا الكافرين، وأن الله لا يرضى أبداً باستهزاء الكافرين من أهل الإيمان، فيصبر المؤمن لله رب العالمين ويعلم أن الله ناصره، هذا رسولنا الكريم ﷺ هو الأسوة الحسنة، الأسوة الكاملة الحققة، استهزئ به أشد الاستهزاء، وألقي عليه سلى جزورٍ وهو ساجدٌ حيث أقرب ما يكون العبد من ربه، و لما ألقى المشركون سلى الجزور على ظهره، جعلوا يضحكون ومن شدة الضحك جعلوا يتمايلون بعضهم على بعض كما ثبت في الصحيح، فلما رفع رأسه، وقال اللهم عليك بالملأ من قريشٍ اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وأمّية بن خلفٍ وفلانٍ وفلانٍ وعددهم ذهب عنهم الضحك وعلموا أن دعوته ستصيبهم لا محالة، وقد أصابتهم كلهم وقتلوا يوم بدرٍ وألقوا في بئرٍ خبيثٍ خبيث، هناك.

وفي صحيح البخاري عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَخْبَرَنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟^(١)

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَخْبِرُونِي بِأَشْجَعِ النَّاسِ؟ قَالُوا: - أَوْ قَالَ - قُلْنَا: أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي مَا بَارَزْتُ أَحَدًا إِلَّا أَنْتَصَفْتُ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي بِأَشْجَعِ النَّاسِ قَالُوا: لَا نَعْلَمُ، فَمَنْ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمٌ بَدْرٍ جَعَلْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرِيشًا فَقُلْنَا: مَنْ يَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا؟ يَهْوِي إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٨٥٦)، وأحمد في " مسنده " (٦٩٠٨)، وابن حبان في "

صحيحه " (٦٥٦٧)، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه، به.

المُشْرِكِينَ فَوَاللَّهِ، مَا دَنَا مِنْهُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ شَاهِرًا بِالسَّيْفِ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَا يَهْوِي إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا أَهْوَى عَلَيْهِ فَهَذَا أَشْجَعُ النَّاسِ فَقَالَ عَلِيٌّ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَخَذْتُهُ قُرَيْشٌ فَهَذَا يَجْؤُهُ وَهَذَا يُتْلَتُّهُ وَهُمْ يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَنَا مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ، يَضْرِبُ هَذَا وَيُجَاءُ هَذَا وَيُتْلَتُّ هَذَا وَهُوَ يَقُولُ: وَيَلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَ عَلِيٌّ بُرْدَةً كَانَتْ عَلَيْهِ فَبَكَى حَتَّى اخْضَلَّتْ لَحْيَتُهُ ثُمَّ قَالَ: أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ أَمْؤُومٌ آلِ فِرْعَوْنَ خَيْرٌ أَمْ أَبُو بَكْرٍ فَسَكَتَ الْقَوْمُ فَقَالَ: أَلَا تُحْيِيُونِي فَوَاللَّهِ لَسَاعَةً مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ ذَاكَ رَجُلٌ كَتَمَ إِيْمَانَهُ وَهَذَا رَجُلٌ أَعْلَنَ إِيْمَانَهُ.^(١)

وروى البخاري في صحيحه عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ (و) يوم أُحُدٍ، كسرت رباعية النبي ﷺ، وسقط في حفرة حفرها المشركون ، وكاد يموت ﷺ، وجحش شقه الأيمن ﷺ، وسال الدم الشريف من وجنتيه) فَقَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعُقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَتْنِي فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ"، قَالَ: "فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ"، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أخرجه البزار في "مسنده" (٧٦١)، وأبو نعيم في "فضائل الخلفاء الراشدين" (٢٣٧)، من حديث محمد ابن

عقيل عن علي رضي الله عنه، به.

ﷺ: «بَلْ أَرِجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ﷺ^(١).

وقفة: فإذا ضاقت الدنيا بالمؤمن، وتكالب عليه أعداء المسلمين، وتكالب الكفار من كل حذب وصوب، على الإسلام في كل مكان، فاعلم أن فرج الله قريب، ولكن للمؤمنين الخلل، الذين يستمسكون بدينهم، في أقوالهم وفي أفعالهم وفي عقيدتهم، وفي سلوكهم وفي معاملاتهم، فليس الدين قاصراً على الصلاة فحسب، بل الدين، عقيدة وشريعة، أخلاقاً و سلوكاً ومعاملاتٌ وهكذا، فهذا رسولنا الكريم ﷺ، يخرج من مكة شرفها الله لما كذبوه وكفروا به، فيذهب إلى الطائف لعله يجد له فيها نصيراً، وظهراً لهذا الدين، فإذا بأهل الطائف، يكفروا به ويستهزؤون منه أعظم من كفر واستهزاء أهل مكة به، وجعلوا الصبيان يرمون رسول الله بالحجارة، حتى سال الدم الشريف من قدميه الشريفتين، فرجع مهموماً، هماً عظيماً كيف خرجت من مكة وأنا ابنها، فذهبت حتى أجد من يؤويني وينصر دين الله فإذا بهم ينالون مني أشد مما نالت قريش مني، فرجع وهو لا يدري أين وجهته ﷺ كما في الحديث " قال فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب " وقرن الثعالب ميقات من مواقيت الحج والعمرة، وهو ميقات أهل نجد، فإذا به يأتيه النصر المبين سحابة تظله والله أرسل في هذه السحابة جبريل، وملك الجبال يناديه، "إن ربك سمع قول قومك لك "، إذن ربنا يسمع قول المستهزئين بك والله تعالى مُطَّلِع على سخرية الذين يسخرون منك، ما دمت على الكتاب والسنة وما دمت ترضي رب العالمين جل جلاله، ولا تكذب ولا تغش ولا تخون، وتؤدي أمر الله وتستمسك بهديه، فاعلم أن الله معك، وأن الله يدافع عنك وسيأتيك نصر الله ولو بعد حين، قال له ملك الجبال " يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلِكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٣١)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٩٥)، من حديث أم

المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ

والأخشبان جبلان عظيمان في مكة، يطبق عليهما الأخشبين، فيصير أهل مكة تراباً، لا شيء ولا قيمة لهم، ويصبحون صرعى جميعاً، ولكنه الرحمة المهداة والنعمة المسداة على الخلق كافة
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَرَجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» وقد كان ذلك، أخرج الله تعالى من ظهر أبي جهل سيداً كريماً من سادات أهل الإيوان، عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، وأخرج الله من ظهر أمية بن خلف، سيداً عظيماً وهو صفوان بن أمية بن خلف رضي الله عنه، وهكذا أخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يتغامزون يعني يشيرون بالجفن والحاجب، استهزاء بأهل الإيوان^(١)، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ فكهين أي: معجبين مسرورين^(٢)، مما هم فيه من شرك وكفر، ومما هم فيه من نعمة من نعم الدنيا، فكهين بالمعاصي والآثام، وبما عندهم من نعم أنعم الله بها عليهم، ولكنهم كفروا بهذه النعم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ كحال أكثر أهل الكفر الآن يرون أن المسلمين إرهابيين، متطرفين، متزمتين وهذه الأوصاف التي يصفون بها أهل الإسلام، هم أولى بها ولا شك فالمسلم الحق ليس إرهابياً، والمسلم الحق ليس متزمتاً، والمسلم الحق الذي يسير على الكتاب والسنة، ما أجمل أخلاقه وما أطيب صفاته، لأنه يحب الخير لكل من يحيا على وجه الأرض، سواء كان مسلماً أو كافراً.

﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي، أيها الكافرون، هل أرسلكم الله تعالى حافِظين

(١) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٥٥) يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُشِيرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٢٦)

تحفظوا أعمال عباد الله المسلمين، إنما كُلفتم بالإيمان به وكفرتم، ولم يخلقكم الله تعالى لتحفظوا أعمال العباد من أهل الإسلام وأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾^(٢٢) فما جزاؤهم يوم الدين؟^(٢٣)

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾^(٢٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾^(٢٥) هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢٦) نعم يارب جُوزِي أهل الكفر بما كانوا يعملون.^(٢٧)

هل أتيب الكفار وجوزوا ثواب ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين من سخرتهم منهم، وضحكهم بهم، بضحك المؤمنين منهم في الآخرة، والمؤمنون على الأرائك ينظرون، وهم في النار يعذبون و (تُوبَ) فُعل من الثواب والجزاء، يقال منه: توبَ فلانٌ فلاناً على صنيعه، وأثابه

كما قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٢٨) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾^(٢٩) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾^(٣٠) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَدِينُونَ﴾^(٣١) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِعُونَ﴾^(٣٢) فَأَظْلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾^(٣٣) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ﴾^(٣٤) وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٣٥) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾^(٣٦) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾^(٣٧) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ﴾^(٣٨) [الصافات: ٥٠ - ٦٠]

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن الجزاء من جنس العمل، حتى نحرص على إصلاح أقوالنا وأعمالنا، كما أنك تتقي الله في عباد الله، والله ييسر لك من يتق الله فيك، وكما أن من يستهزأ بالناس - عافانا الله وإياكم - ويكذب عليهم ويخونهم، لا بد أن يسوق الله له من يعامله بالمثل، الجزاء من جنس العمل، وعلى ذلك أدلة الكتاب والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ تَسْحَرُوا

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٢٧)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٢٩)

مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ [هود: ٣٨] والجزاء من جنس العمل سواءً في الخير أو الشر.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وهذه الآية نزلت في شأن أبي بكر رضي الله عنه، لما تكلم المنافقون في عرض أمنا عائشة، وكان ممن تكلم صحابي جليل من أهل بدر، ولكنه زلت قدمه فتكلم مع من تكلم، وهو مسطح بن أثاثة، ابن خالة أبي بكر وكان فقيراً معدوماً، وكان وأبو بكر ينفق عليه، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي تحكي قصة الافك " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَاتِهِ مِنْهُ وَفَقَرِهِ: وَاللَّهِ لَا أَتُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى} إِلَى قَوْلِهِ: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. ^(١)

فكما أنك تعفوا عن عباد الله، وعفوك الله، وتصفح الله، فإن الله يعفو عنك، ويصفح عنك سبحانه وبحمده، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] فالجزاء من جنس العمل.

والنبي ﷺ يقول في شأن المتكبرين، "يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنِ جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسٌ، تَعْلَوْهُمْ نَارُ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٦٦١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٧٠)، من حديث أم

المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، به.

الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ غُصَّارَةٍ أَهْلِ النَّارِ: طِينَةِ الْحَبَالِ" (١)

المتكبرون الذين يرون أنهم أفضل خلق الله، وأنهم أعلى من الناس، هؤلاء يجازون يوم القيامة بالذل والمهانة، ومحشرون أمثال الذر من الحقارة، والهوان، والناس يطؤوهم بأقدامهم، نسأل الله العافية والسلامة.

ومن الأدلة أيضاً على أن الجزاء من جنس العمل، قوله ﷺ «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" (٢).

والناس اليوم إلا من رحم الله، يتفننون في إظهار فضائح العباد، وفي كشف أستارهم، ورسولنا ﷺ يقول: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" وأنت تجد أناساً -نعوذ بالله- يتتبعون عورات المسلمين، وينشرونها على وسائل الاتصال الاجتماعي، وعلى الجولات ونشرات الأخبار، -نسأل الله اللطف والعافية -.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ) (٣)

(١) (حسن) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٥٥٧)، الترمذي في "سننه" (٢٤٩٢)، وأحمد في "مسنده" (٦٦٧٧)، من حديث عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، به. وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٠٤٠).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٩٩)، وأبو داود في "سننه" (٤٩٤٦)، والترمذي في "سننه" (٢٩٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٦٨٤)، ومسلم في "صحيحه" (٩٩٣)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

كما أنك تنفق على الفقراء والمساكين، وتساعدهم وتكون رحيماً بالعباد، يقول لك رب العالمين "أنفق أنفق عليك"، ورسولنا الكريم، ﷺ يقول: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفُوا يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُلْ لَأَقْبَاعِ الْقَوْلِ، وَيُلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(١)

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طَلَبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُجَرَّوْا، وَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»^(٢).

﴿هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٣) أي، هل جوزي الكفار وحوسبوا على ما كانوا يفعلونه في الدنيا، ويسخرون به من المؤمنين وما يقابلونهم به من الاستهزاء والتنقيص لهم أم لا؟

لا شك أن الله جل جلاله قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾^(٤) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥)

[النمل: ٨٩ - ٩١] أسأل الله العظيم ان ينفعني وإياكم بكتابه وبسنة رسوله ﷺ. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة المطففين بحمد الله ومنتته

-
- (١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٧٠٤١)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٣٨٠)، من حديث عبد الله ابن عمرو، به. وصححه الألباني في "الصحيحه" (٤٨٢).
- (٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٣٢)، واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٢٧)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، به.

﴿سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ﴾

سورة الانشقاق، هذه السورة العظيمة سورة مكية^(١)، وآياتها خمس وعشرون، نزلت بعد سورة الانفطار.

ومناسبتها لما قبلها: أنه في السابقة ذكر مقر كتب الحفظة، وفي هذه ذكر عرضها يوم القيامة.^(٢)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَى سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑬ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ⑭ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ⑮ ﴿

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (٣١٣ / ١٥) أَخْرَجَ ابن الضريس والنحاس ، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : نزلت سورة { إذا السماء انشقت } بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وقال ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٥٦) وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين .

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٨٧ / ٣٠)

وَتَخَلَّتْ ۚ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٥﴾ هذه العلامات تكون يوم القيامة^(١)؛ حين يأذن الله تعالى بزوال العالم كله؛ فتفسد هذه الحياة الدنيا، ويفسد نظامها.

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ السماء - التي هي بنيان محكم، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال عنها جل شأنه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧] أي: ذات الأحكام - يختل نظامها يوم القيامة، وتزول، وتشقق، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥] نسأل الله النجاة ونسأل الله أن يسترنا من هذه الأهوال.

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ فالسما تشقق، وتتقطع، وتتصدع، وتصير أبواباً، ومثلها قول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١] فتتشقق، وتنفطر، ويذهب بالنجوم، والكواكب، والشمس، والقمر.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٥﴾﴾ أي: استمعت لكلام الله في تصدعها، وتشققها، وأطاعت لأنها ما تشققت إلا بإذن الله جل جلاله، وأمر الله، فلما أمر الله استمعت لأمره، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] وقبلها قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١] فالسما، والأرض تطيع الله جل جلاله ولا تعصيه.

ولذلك الله جل وعلا في هذه الآية يقول: ﴿وَأَذْنَتْ﴾، أي: واستمعت لربها، واستجابت ﴿وَحَقَّتْ﴾ أي: وحق لها أن تسمع، وأن تستجيب لأمر الله^(٢) العظيم الجليل الذي يدبر الملك كله

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٥٧)

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، وسعيد، وينظر "الجامع

سبحانه ،و بحمده ، فأذنت بمعنى استمعت و أطاعت ؛لأن الإذن بمعنى الاستماع^(١) ،و منه قول الله تعالى عن المنافقين: {وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذُنْ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة: ٦١] و منه قول النبي ﷺ الثابت في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ»^(٢) ، و منه قول قعب بن أمّ صاحب^(٣) :

إِنْ يَأْذُنُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا ... مِنِّْي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذُنُوا

وهو قعب بن حمزة، أحد بني عبد الله بن غطفان، يهجو بني ضبة -حيٌّ من غطفان- فيصفهم بأنهم لئامٌ مهما تحسن إليهم يكتموا الخير، و إن جاء إنسانٌ فوشى وشاية كذبٍ عليك يسمعوها، و ينشروها قال: (إِنْ يَأْذُنُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا... مِنِّْي) إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً، سَمَاعُ شِكٍّ ليست بطمأنينةٍ، وليست بحقٍّ، و لا صدقٍ؛ طاروا بها فرحاً (وما سمعوا من صالحٍ دفنوا) و إن هم أذنوا فسمعوا، و استمعوا من كلامٍ صالحٍ بأخبارٍ، و أفعالٍ صالحةٍ دفنوها و كتموها (صُمْ إِذَا

لأحكام القرآن" للقرطبي (١٥٨ / ٢٢)

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ "جامع البيان" (٢٤ / ٢٣٠) (وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَذِنَ لَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِذَا بَعْنَى: اسْتَمَعَ لَكَ، ... وَأَصْلُ قَوْلِهِمْ فِي الطَّاعَةِ: سَمِعَ لَهُ مِنَ الْإِسْتِئْجَاعِ، يُقَالُ مِنْهُ: سَمِعْتُ لَكَ، بِمَعْنَى سَمِعْتُ قَوْلَكَ وَأَطَعْتُ فِيمَا قُلْتَ وَأَمَرْتُ) ونقل نحوه القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٥٨ / ٢٢)

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٥٤٤) ومسلم في "صحيحه" (٧٩٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(٣) كما في "عيون الأخبار" لابن قتيبة (٣ / ٩٦)، و "الأمالي" للقالبي (١ / ١٢٢)، و "الأمالي" لابن الشجري (٢ /

٢٣٣)، و "ديوان الحماسة" لأبي تمام (٢ / ١٨٧).

سمعوا خيراً ذكرت به) وإذا سمعوا عنك خيراً كتموه كأنهم صمٌ، ولم يسمعوه (وإن ذكرت بشرٍ عندهم أذنوا) وإذا سمعوا عنك سوءاً أذنوا، فسمعوا، وأشاعوا، وأظهروا، وهذا حال أكثر الناس إلا من رحم الله، فالأوفياء قليلٌ من قليلٍ.

الشاهد: أن الإذن هنا بمعنى الاستماع ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي استمعت، واستجابت، وأطاعت ربها العظيم لأنه هو الجليل سبحانه جل جلاله، الذي له الملك، فالملك ملكه، والأمر أمره، يأمر السماء فتطيع، ويأمر الأرض فتطيع سبحانه وبحمده.

والمعنى: بقيت السماء طوال الحياة الدنيا على هذا الإحكام، وعلى بديع صنع الله تعالى، ولكنها لما أذن الله تعالى، وجاء وقت زوال الدنيا؛ فإن هذه السماء تتقطع، وتنشق، وإذا بها يتبدل حالها إيداناً لزوال الحياة الدنيا، وإتيان يوم القيامة.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ تُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ كما صح عن عبد الله بن عمرو، وابن عباس رضي الله عنهما قالوا: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، وَزِيدَ فِي سَعَتِهَا كَذَا وَكَذَا. والأديم هو الجلد^١؛ فأول ما يُزَاحُ الجلدُ عن البهيمة المذبوحة تكون فيه تكسرات، وتثاني، وغير ذلك؛ لكنه إذا مُدَّ وَبُسِطَ يستوي كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] فقوله

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٣١) عن قتادة والضحاك وسعيد

(٢) (ضعيف) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٤٠٨١)، وأحمد في "مسنده" (٣٥٥٦)، وضعفه الألباني في "

الضعيفة" (٤٣١٨)، وجاء موقوفاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ /

٥٤)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري أيضاً (٢٤ / ٣٨٤)

(٣) قال الفيومي رَحِمَهُ اللهُ فِي "المصباح المنير" (١ / ١١) الْأَدِيمُ: الْجِلْدُ الْمَذْبُوحُ، وَيَنْظُرُ مَادَّةُ أَدَمَ فِي "تاج العروس"

للزبيدي (٣١ / ١٩٢) و"لسان العرب" لابن منظور (١ / ٧٣)

تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بسطت بسطاً عظيماً.

والمعنى: أن الله تعالى يدك الأرض دكاً فتستوي؛ فلا ترى فيها عوجاً، ولا أمتاً، فتسير الجبال، وتُدك الأرض دكاً، وتمد، وتُبسط حتى تسع الخلائق للوقوف عليها؛ للعرض بين يدي الله سبحانه جل جلاله، ولا يكون للمرء حينئذٍ إلا موضع قدميه.

وقفة: أمام العباد أهوالٌ إذا سُغِلوا بالاستعداد لها، والنجاة منها؛ لكن في ذلك شغلٌ شاغلٌ لهم يشغلهم عن غيرهم، ويكون سُغْلهم بصلاح حالهم.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أَلْقَتْ ما فيها من أمواتٍ^(١)، وأَلْقَتْ ما فيها من كنوزٍ، وذلك حين يأذن الله تعالى للأرض أن تتخلى عن ما في باطنها، فالله قد جعل الأرض لنا كفاتاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥] كفاتاً يعني: كِنَّا تُكِنُّ النَّاسَ، و تحملهم على ظهرها في الدنيا، وعندما يموتون تحملهم في باطنها، لكن يوم القيامة تلقي الأرض الأموات التي في باطنها من شدة الرَّجَّةِ^(٢)، والزلازل العظيم، ويخرج جميع الموتى من باطن الأرض، وتلقيهم الأرض على ظهرها، وتتخلى عنهم،

ومن المعاني أيضاً: تلقي وتخرج ما في باطنها من كنوزٍ، من ذهبٍ، وفضةٍ، و معادن^(٣)، و مما يتقاتل عليه العباد في زماننا، و تفنى أممٌ من أجلها؛ وأيد هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٣١١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والماوردي في "النكت والعيون"

(٦ / ٢٣٥) عن سعيد بن جبيرة رحمه الله قال: أَلْقَتْ ما في بطنها من الموتى وتخلت عمن على ظهرها من

الأحياء

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ١٣٣)

(٣) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٥٩) أَلْقَتْ ما في بطنها من كنوزها ومعادنها

وتخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها

رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلاذَ كِبِدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحْمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا" ^(١) و الأُسْطُوَان هي : الأعمدة الكبيرة الضخمة - وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته ^(٢) - تخرجها الأرض يوم القيامة فكل الذهب ، و كل الفضة التي في باطنها ، و كذلك غيرها من معادن نفيسة تخرجها الأرض على سطحها أمام العباد، فهذا الذي قَتَلَ الناس بعضهم بعضاً من أجله ، و هذا الذي قَطَعَ فلانٌ رحمه من أجله ، و هذا الذي سرق فقطعت يده ، و أقيم عليه الحد من أجله ؛ فيجىء القاتل الذي قتل من أجل ألف ، أو مائة ألف ، أو مليون ، أو أقل ، أو أكثر ؛ فيقول: في هذا قتلْتُ ، أي: لأجل هذه الأموال ، و هذا الذهب ، و هذه الفضة ، و يجىء قاطع الرحم يقول: في هذا قطعت رحمي ، و يجىء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه ، و لا يؤخذوا منه شيئاً ، و لا يبقى إلا الحسرات ؛ فيتحسر ، و يتندم ؛ لأنه لم يعمل خيراً في دنياه ، بل كان يلهث ، و يجري خلف الدنيا الفانية ؛ فيحب من أجلها ، و يوالي ، و يعادي من أجلها نسأل الله العافية و السلامة .

﴿وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ - أيضاً - استمعت أمر الله ، و أطاعت ، و حق لها أن تطيع الجليل الذي لا أجل منه سبحانه ، و بحمده .

ثم يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ^(٣) يا أيها الإنسان إنك عاملٌ إلى لقاء ربك عملاً ؛ فإن خيراً فخيرٌ ، و إن شراً فشرٌ ، فتعمل أفعالاً ، ثم في نهاية المطاف تلاقي هذا العمل فإن وجدت خيراً ؛ فلتحمد الله ، و تشكره ؛ أن وفقك للعمل

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠١٣) و الترمذي في " سننه " (٢٢٠٨) و ابن حبان في " صحيحه " (٦٦٩٧) ، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به .

(٢) ينظر " شرح مسلم " للنووي (٩٨ / ٧)

الصالح ، وإن وجدت الآخر فلا تلومن إلا نفسك ؛ كما روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن رب العزة وفيه (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) ^(١) قوله تعالى: (فَمَلَقِيهِ) في عود الضمير وجهان عند أهل التفسير:

الوجه الأول: فملاقي عملك ؛ فتعود الهاء هنا على العمل ؛ فيكون قوله تعالى ^(٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ بمعنى: فملاقي عملك ؛ فتسرك جداً طاعة الله تعالى عندما تجدها في ميزانك، فتفرح بذكر الله، وبمجلسِ حَضْرَتِهِ لله، وبدعاء، وبصلاة، وبصدقته، وبأي عملٍ صالح، وإن كان يسيراً، وبالمقابل يَغْتَمُ المرء، ويحزن عندما يرى سيئته، وذكر القرطبي قولاً موجهاً لمعنى ملاقي عملك فقال: " قيل تلاقي كتاب عملك فإن عملك قد انقضى " ^(٣).

الوجه الثاني: فملاقي ربك ؛ فتعود الهاء إلى (ربك) جل جلاله فيكون قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ بمعنى: إنك ملاقي الله العظيم رب العرش العظيم ^(٤) ، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه به .

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٤ / ٢٣٥) (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ عَامِلٌ إِلَى رَبِّكَ عَمَلًا فَمَلَقِيهِ بِهِ: خَيْرًا كَانَ عَمَلُكَ ذَلِكَ أَوْ شَرًّا؛ يَقُولُ: فَلْيَكُنْ عَمَلُكَ مِمَّا يُنْجِيكَ مِنْ سَخَطِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ رِضَاهُ، وَلَا يَكُنْ مِمَّا يُسَخِطُهُ عَلَيْكَ فَتَهْلِكَ) وأخرجه عن ابن عباس رضي الله عنه وقتادة وابن زيد .

(٣) ينظر القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ١٦١).

(٤) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ١٦١) (وَرَوَى الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: إِنَّكَ كَادِحٌ أَيْ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا أَيْ رُجُوعًا لَا مُحَالَةً (فَمَلَقِيهِ) أَيْ مُلَاقٍ رَبِّكَ).

النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

وهذان الوجهان متلازمان؛ فلا بد أن تلقى الله، ولا بد أن تجد عملك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ﴿٦﴾ قال قتادة: إن كدحك يا ابن آدم ضعيف، فمن استطاع أن يجعل كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله^(١) وهذا حق، فنحن مجهودنا يسير جداً، وضعفاء، ووقتنا، وزماننا ضعيف، وقوتنا ضعيفة، فإن استطاع العبد أن يجعل عمله كله لله فليفعل.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَبِإِيمَانِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ﴿٩﴾ الناس في الآخرة فريقان لا ثالث لهما: فريق منعم، وفريق معذب، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَبِإِيمَانِهِ﴾ هذا عنوان السعادة، وعنوان الفلاح، وعنوان الفوز، والإكرام من رب العالمين ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عُذِّبَ" فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فَقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ" فالعرض هو: عرض المؤمن على الله؛ فتعرض أعمال العبد على رب العزة، فإن وجد خيراً أظهره الكريم له، وإن كانت سيئة فمولاه يغفرها له، وهذا العرض يسير على المؤمن بفضل الله الكريم؛ وذلك لما ورد في الصحيحين عن صفوان بن محرز، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٣٥).

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٠٣) ومسلم في "صحيحه" (٢٨٧٦).

يَقُولُ: "يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَفَّهُ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ" ^(١) فيعطى صحيفة حسناته بيمينه ، و أما الكفار ، و المنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق الذين كذبوا على ربهم ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] يعني: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، وروى الإمام أحمد في مسنده و قال عنه الحافظ ابن كثير اسناده على شرط مسلم عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ: "اللَّهُمَّ حَسْبِي حِسَابًا يَسِيرًا" فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: "أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوْقِشَ الْحِسَابُ يَوْمَئِذٍ يَا عَائِشَةُ هَلَكَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، يَكْفُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَنْهُ، حَتَّى الشُّوْكَةُ تَشُوكُهُ" ^(٢)

وقفه: حال كثير من الناس أنهم مشغولون عن الحساب، ولو جال بخاطر أحدهم أن هناك حسابٌ يُحاسب فيه على الصغير، والكبير، والسر، والعلن، والقول، والفعل، والذي أظهره، والذي أخفاه، وأيقن بالحساب؛ فسيعمل أعمالاً جليلاً تنجيه من هول يوم الحساب.

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٨٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٦٨)، من حديث صفوان ابن محرز به.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٤٢١٥) وابن خزيمة في " صحيحه " (٨٤٩) وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٧٢) والحاكم في " المستدرک " وقال على شرط مسلم (١٩١)، من حديث عائشة رضي الله عنها به. وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٥٦٢)، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٨) فالحساب اليسير فيه العفو، والغفران من رب العالمين جل جلاله.

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾^(٩) يرجع لأهله فرحاً مسروراً سعيداً، فسعاده ليست مثلها سعادة، وسروره ليس مثله سرور، فيسعد سعادةً بالفوز الأعظم، وسعادةً بالنجاة الكبرى، فقد فاز برضوان الله، وفاز بالجنان، ونجى من النيران؛ فأى سعادة هذه حين ينقلب إلى أهله - إلى زوجته، وأولاده، والديه، وإخوانه، وأصحابه - الذين كانوا معه في الحياة الدنيا على الإيمان، وإلى أهله الذين أعدهم الله في الآخرة من الحور العين؛ فيرجع إليهم فرحاً مسروراً ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾^(١٠) [الحاقة: ١٩] فزت بفضل الله، ونجوت من النار، وأكرمت بالجنة، فاللهم اجعلنا منهم يا كريم بلا حساب ولا عذاب يا رب العالمين.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾^(١١) هذا الكافر تشنى يده ثنياً قهراً؛ ويأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره^(١٢)؛ لأنه ما أقبل على القرآن، وما أقبل على الشرع المجيد، وجعل القرآن وراءه ظهرياً؛ فلذلك أيضاً كتابه كتاب الأعمال يأخذه من وراء ظهره بيده الشمال - نسأل الله العافية والسلامة -.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾^(١٢) فيظل ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثبورا، واويلاه^(١٣)، هذا أوان الثبور والهلاك فينادي بالهلاك والدمار على نفسه.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾^(١٤) تغمره النار من جميع جوانبه، لماذا؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾^(١٥)

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٥٨)

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤/ ٢٤٠) (يَقُولُ: فَسَوْفَ يُنَادِي بِالْهَلَاكِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاثْبُورَاهُ،

وَإَوَيْلَاهُ، وَهُوَ مَنْ قَوْلِهِمْ: دَعَا فُلَانٌ هَؤُلَاءِ: إِذَا قَالَ: وَاهْتَفَاهُ)

كان في أهله فرحاً مسروراً. وما أعظم ما قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا؛ فأعقبهم به النعيم، والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ٢٧﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧] ثم قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا، والضحك فيها، والتفكُّه. فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٢٨﴾ "٥١

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٢٨﴾ كان مسروراً بالمعاصي، ومسروراً بالكفر الذي يقع فيه، ويرتكبه، ومسروراً بأكل الربا، وشرب الخمر، والزنا، والإشراك برب العالمين.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْجُورَ ٢٩﴾ ظن أنه لن يرجع إلى الله رب العالمين، وأن ليس هناك يوم القيامة وليس هناك حسابٌ فظن أن لن يحور.

ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ٣٠﴾ بلى إن ربه الذي خلقه كان به بصيراً سبحانه، وبحمده، كان بصيراً به قبل أن يخلقه، وقادرٌ جل جلاله أن يعيده مرة أخرى بعد الموت؛ فسيبعثه، ويحاسبه.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ٣١ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ٣٢ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ٣٣ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ٣٤ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٥ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ٣٦ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٣٧ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٣٨ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٩ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٤٠﴾

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ١٦٣)

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يُقسم الله بالشفق ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يعني: أقسم بالشفق ؛ والشفق هو الحمرة التي تبقى في السماء بعد غروب الشمس - من ناحية الغروب - إلى وقت العشاء^(١) وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ»^(٢) يعني: عندما تغرب الشمس يكون في جهة الغرب بعد غروب الشمس حمرة؛ هذه الحمرة تظل باقية مادام وقت المغرب باقٍ؛ فإذا غابت خرج وقت المغرب، ودخل وقت العشاء.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فإذا ظهرت الحمرة؛ فهذا عنوان ذهاب النهار، وإتيان الليل ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: الليل، وما حوى، وما جمع، فوسق أي: جمع، وحوى، وضم، ولفَّ، وأوى، وكل هذه المعاني صحيحة في وسق.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ): "إن الله أقسم بالنهار مدبراً، والليل مقبلاً. وأما الشفق الذي تحل به صلاة العشاء، فإنه للحمرة عندنا"^(٣)

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: اكتمل، وتم، واستوى، وتكامل نوره، وذلك يكون في الليالي البيض؛ وهي: ليلة الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وهكذا يقسم الله تعالى بكمال ضوء القمر.

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٤٣) (وَهَذَا قَسَمٌ أَقْسَمَ رَبُّنَا بِالشَّفَقِ، وَالشَّفَقُ: الْحُمْرَةُ فِي الْأُفُقِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ مِنَ الشَّمْسِ..... ثم قال وَمِنْ قَالَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦١٢)، والنسائي في "المجتبى" (٥٢٢)، وفي "السنن الكبرى" (١٥١٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٤٤)

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝﴾ في هذه الآيات العظيمة

الله جل جلاله أقسم بهذه المقسمات، وربنا الجليل له أن يقسم بما شاء من عباده.

فائدة: أقسم الله تعالى بكثير من مخلوقاته؛ كالليل، والشمس، والضحى، وأقسم بالشفق

، وأقسم بالقمر إذا اتسق، وأقسم بحياة الرسول ﷺ، وأقسم بغير ذلك، وأما نحن معاصر البشر فليس لنا إلا أن نقسم بالله رب البشر سبحانه، وبحمده لما روى أبو داود وغيره عن سعد بن عبيدة، أن ابن عمر رضي الله عنهما سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ.^(١)

﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾ يقسم الله على أمر عظيم؛ والمقسم عليه يتبين من ضبط قراءة

(لتركن) لأن هذه الآية فيها قراءتين وهما:

القراءة الأولى: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ على الإفراد، ولها أوجه في المقصود منها:

١ - المراد هو: النبي ﷺ، ويكون المعنى: أن الله جل جلاله يقول له يا محمد لتركن طبقاً عن طبق؛ أي: لتركن سماء بعد سماء ترتفع إلى الله جل جلاله^(٢)؛ كما قال الله تعالى مسمى السماء طباقاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝﴾ [نوح: ١٥] وذلك على معنى أن الطبق هو السماء، وعلى معنى أن الطبق يعني الحال فيكون المعنى: أن الله يقول للنبي ﷺ: لتركن يا محمد حالاً بعد حال^(٣) كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: (لَتَرْكَبَنَّ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٢٥١)، والترمذي في "سننه" (١٥٣٥)، من حديث ابن

عمر رضي الله عنه به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٢٥٦١).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (١٧١ / ٢٢)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٥١) وأخرجه الطبري عن جماعة من السلف: مجاهد وعكرمة وسعيد

وقتادة والحسن والضحاك.

طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ [الانشقاق: ١٩] «حَالًا بَعْدَ حَالٍ»، قَالَ: «هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ»^(١)؛ والمعنى: ستمر بك أحوالٌ من فقرٍ إلى غنىٍّ، و من ضعفٍ إلى قوةٍ، و ظفرٍ، و من غلبة المشركين عليك إلى النصر عليهم، يعني: يا محمد إن كنت الآن مغلوباً، و إن كنت مضطهداً، و أصحابك ضعفاء مضطهدين فأبشر فسيغير الحال فلا يبقى الحال على ما هو عليه؛ وسيأتي حالٌ بعد حالٍ، و سيأتي طبقٌ بعد طبقٍ، و سينصرك الله، و يعليك، و يرفع قدرك، و إن كنت فقيراً فسيغنيك الله جل جلاله، و يفتح لك من خزائنه سبحانه جل جلاله و تباركت أسماؤه .

٢ - المراد هو السماء، وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه، وإبراهيم بن عبد الأعلى في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾^(١٩) قالوا: هي السماء؛ أي: لتركن السماء حالاً بعد حالٍ، والمراد: أن هذه السماء تتغير أحوالها من حالٍ إلى حالٍ^(٢) فمرة كما قال الله تعالى ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(٣٧) [الرحمن: ٣٧] و أحياناً تشقق بالغيام و ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾^(٥٠) [الفرقان: ٢٥] و أحياناً تنفطر ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾^(٦٠) [الانفطار: ١] و يتغير لون السماء من لونٍ إلى لونٍ نسأل الله اللطف و السلامة .

القراءة الثانية: قراءة الجمع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾^(١٩) وهذه القراءة هي المشهورة التي يقرأ بها عامة الناس^(٣)، فالمخاطب الناس، ولها أوجهٌ أيضاً في المقصود بقوله: {طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ}

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٤ / ٢٥٦) (وَقَالَ آخَرُونَ مِمَّنْ قَرَأَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ: إِنَّمَا عُنِيَ بِذَلِكَ أَنَّهَا تَتَغَيَّرُ ضَرْبًا مِنَ التَّغْيِيرِ، وَتُشَقُّ بِالْغَمَامِ مَرَّةً، وَتَحْمَرُّ أُخْرَى، فَتَصِيرُ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ، وَتَكُونُ أُخْرَى كَالْمُهْلِ، وَرَوَاهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وإبراهيم

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٢٥٦) وقال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ١٧٢) (وَقَرَأَ الْبَاقُونَ لَتَرْكَبُنَّ بِضَمِّ الْبَاءِ، خِطَابًا لِلنَّاسِ، وَاخْتَارَهُ أَبُو عُبَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ، قَالَ: لِأَنَّ الْمَعْنَى بِالنَّاسِ

منها: -

١- المعنى: يا أيها الناس ستمر بكم أحوالٌ مختلفة؛ فإن كنتم الآن في حياتكم الدنيا ضعفاء؛ فالله تعالى سيغير حالكم، ويقويكم، وإن كنت فقراء؛ فالله تعالى سيغير الحال، ويغنيكم، وإن كنتم أذلاء؛ فالله تعالى سيغير الحال، ويعزكم، وهكذا

٢- ويحتمل أن المعنى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يعني: يا أيها الناس ستمرون بجملة أطوارٍ في حياتكم؛ فبعدما كنتم نطفةً ستكونون علقةً؛ ثم مضغةً؛ ثم تكونون عظاماً؛ ثم تكسى العظام لحماً؛ ثم يُنشئكم الله خلقاً آخر؛ ثم تخرجون من بطون أمهاتكم أطفالاً ضعفاء؛ ثم يقويكم الله سبحانه؛ ثم تصيرون شباناً أقوياء؛ ثم بعد ذلك أيضاً تصيرون شيوخاً؛ ثم تردون إلى أرذل العمر؛ ثم الموت، فهذه سنة الله لا بد وأن يمر بها الخلق، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ثَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧] فلا يبقى حالٌ بل الله يغير الأحوال؛ فالملك ملكه و العباد عباده سبحانه جل جلاله.

أشبهه منه بالنبي ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله. أي لتركبن حالاً بعد حالٍ من شدائد القيامة، أو لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب واختلاق على الأنبياء. قلت: وكلُّه مراد

٣- ويحتمل أن المعنى: يا أيها الإنسان تتغير أمور الدنيا، و الآخرة؛ فقد تكون وضعياً في الدنيا، و يرفعك الله في الآخرة، و قد يكون آخر مرتفعاً في الدنيا، و لكنه وضعياً في الآخرة؛ كما قال الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً﴾ [الواقعة: ٣] و قد يكون العبد مرتفعاً في الدنيا؛ و يزداد رفعةً في الآخرة؛ كنبى الله سليمان الذي قال الله عنه: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّوَابٍ﴾ [ص: ٤٠] و كنبى الله عيسى الذي قال الله عنه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشِيرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] و قد يكون العبد ضعيفاً وضعياً في الدنيا، و يزداد ضعفاً، ووضاعةً، و إزلالاً في الآخرة كما ذكر أهل السير "أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مر يوماً بالسوق في موكبٍ عظيمٍ، وهيئة جميلة؛ فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار، و أثوابه ملطخةً بالزيت، و هو في غاية الرثاثة، و الشناعة؛ فقبض على لجام بغلته، و قال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال: الدنيا سجن المؤمن، و جنة الكافر؛ فأبي سجن أنت فيه؟ وأي جنة أنا فيها؟ فقال: أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، و أنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة فأسلم اليهودي".^(١)

٤- ويحتمل - أيضاً - أن المعنى في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: أن أحوال الإنسان تتغير في الدنيا من صحةٍ إلى مرضٍ، و من مرضٍ إلى صحةٍ؛ فكم سقيمٍ قد يئس من الأطباء؛ و الله سبحانه يشفيه بلا سبب، و كم من صحيحٍ كان يظن أن تبقى معه صحته؛ فتتغير صحته فجأة.

(١) ينظر "فيض القدير" للمناوي (٣/ ٥٤٦)، و "منتهى السؤل على وسائل الوصول لسيرة الرسول" للحججي

(٣/ ٤١٧)، و "كشف الخفاء" للعجلوني (١/ ٤٧٠)

٥- وأيضا من الأقوال في هذه الآية العظيمة: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾ أي: لتركن طريق اليهود، والنصارى؛ لما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»^(١)

وقفه: فينبغي على العبد أن لا يركن إلى صحة، أو لا إلى مال، أو لا إلى جاه، أو لا إلى حسب، أو لا إلى نسب، أو لا منصب، أو لا شيء من أمور الدنيا، ولكن يبغي عليه أن يركن إلى الله كما قال هود عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] قال لوط عليه السلام: أو آوي إلى الله عز وجل؛ فاعتز بالله، فلا الصحة تدوم، أو لا المال يدوم، أو لا أفخر السيارات، أو لا شيء من ذلك، فالله سبحانه يغير الأمور ويقلبها؛ فإذا كان العبد مؤمناً راضياً بقضاء الله مطيعاً لله؛ فأى حال يقضيه الله له فهو الخير والسعادة؛ فإن أنعم الله شكر، وإن قدر بلاء صبر، أو احتسب؛ فيفوز على كل حال بفضل الله رب العالمين.

لذلك ربنا تعالى يواسي المسلم بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾ فلا يدوم أبداً هذا التكالب الذي تراه من أعداء الإسلام على المسلمين، وهذه الغلبة التي نراها من أعداء الله على الإسلام ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾ فسيغير الله تعالى الحال، وينصر الله عباده، ويُعْلِي رُبَّ العالمين جنده.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ما الذي يمنعهم من الايمان؟ والمعنى: يا أيها الإنسان إذا فكرت في تدبير هذا الكون كله، وأن أمور المخلوقين فيه تسير بتدبير حكيم عظيم؛ فإنك ستستدل بذلك

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٥٦) ومسلم في " صحيحه " (٢٦٦٩)، من حديث أبي

على وحدانية الله فستستدل بأفعاله على وحدانيته جل جلاله.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾^(١) وهنا سجدةٌ صحيحةٌ صحت عن نبينا محمد ﷺ؛ لما روى البخاري ومسلم عن أبي رافع، قال: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: «سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»^(٢) وأيضاً صح عنه ﷺ أنه سجد في سورة النجم كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ وَالنَّجْمَ فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ» غَيْرَ أَنَّ شَيْخًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا»^(٣) وسجدة ص سجدها رسول ﷺ؛ كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ص لَيْسَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا»^(٤) وأيضاً صحت سجدة العلق؛ كما جاء عند الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَاقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»^(٥).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٦٦) ومسلم في "صحيحه" (٥٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٠٦٧)، ومسلم في "صحيحه" (٥٧٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٠٦٩)، وأبو داود في "سننه" (١٤٠٩)، والترمذي في "سننه" (٥٧٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال عقب الحديث هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ فِي هَذَا، فَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ يَسْجُدُ فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا تَوْبَةُ نَبِيٍّ، وَلَمْ يَرَوْا السُّجُودَ فِيهَا

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٧٨)، وأبو داود في "سننه" (١٤٠٧)، والنسائي في "سننه" (٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

فائدة لطيفة في أن الناس إذا جهلوا السنة يعادونها :

من بركات الله تعالى أن يتفضل على أهل الزمان بعلماء يظهرن، وينشرون السنة، وكم رأينا من عامي لو رأى الناس يقعون في شيء خلاف ما يعتقده يظن أن هذا من أعظم المحدثات؛ فالإنسان عدو ما يجهل، ومما روي في ذلك أن الناس كانوا في زمان الإمام ابن العربي المالكي رحمته الله لا يسجدون إذا قرأوا سورة الانشقاق فقال الإمام ابن العربي رحمته الله: "لما أمت بالناس تركت قراءتها؛ لأنني إن سجدت أنكره، وإن تركتها كان تقصيراً مني، فاجتبتها إلا إذا صليت وحدي. وهذا تحقيق وعد الصادق بأن يكون المعروف منكراً والمنكر معروفاً، قال النبي ﷺ - لعائشة رضي الله عنها "لَوْ لَا حَدِثَانُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَهَدَمْتُ الْبَيْتَ وَرَدَدْتَهُ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ" ^(١)

و هناك قصة لطيفة حدثت في محضر الإمام أبي بكر ابن العربي رحمته الله - أيضاً - ذكرها (وقال كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع، وعند رفع الرأس منه، وهذا مذهب مالك والشافعي رحمهما الله، وتفعله الشيعة، فحضر عندي يوماً بمحرس ابن الشواء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم إلى الصف الأول وأنا في مؤخره قاعدٌ على طاقات البحر، أتسم الريح من شدة الحر، ومعه في صفٍ واحدٍ أبو ثمنه رئيس البحر وقائده، مع نفرٍ من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تحت الميناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنه وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به في البحر، فلا يراكم أحدٌ. فطار قلبي من بين جوانحي، وقلت: سبحان الله، هذا الطرطوشي ^(٢) فقيه الوقت. فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟ فقلت:

(١) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤/ ٣٦٩).

(٢) هو الإمام، العلامة، القدوة، الزاهد، شيخ المالكية، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب

كذلك كان النبي - ﷺ - يفعل، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه. وجعلت أسكنهم وأسكنهم، حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته فضحك، وقال: ومن أين لي أن أقتل على سنة، فقلت له: ولا يحل لك هذا فإنك بين قومٍ إن قمت بها قاموا عليك، وربما ذهب دمك. فقال: دع هذا الكلام وخذ في غير.^(١)

فالعبرة: أن الناس إذا جهلوا السنة يعادونها، وكم من أناسٍ يعادون السنة، ويعادون الشرع الكريم الحنيف، وهم يعتقدون أنهم على الحق والصواب؛ لأنهم يجهلون؛ فلذلك خير ما يتقرب العبد به إلى الله في هذا الزمان نشر العلم النافع، وأبرك العلوم علمُ كلام الله وتفسيره.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾^(٢) فالذي يمنعهم من الإيمان هو تكذيبهم؛ فهم يكذبون الرسول، ويكذبون القرآن، ويكذبون المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾^(٣) أي: والله أعلم بما يوعونه في صدورهم، ويكتمونه من التكذيب بكتاب الله وسنة رسوله، ويعملون، والله أعلم بأعمالهم؛ لأن القلوب وعاء الأعمال وروي هذا المعنى عن مجاهد وقتادة.^(٤)

الفهرِّي، الأندلسي، الطُرُوشِي، الفقيه، عالم الإسكندرية. وَطُرُوشَةُ: هِيَ آخِرُ حَدِّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شِمَالِي الْأَنْدَلُسِ، ثُمَّ اسْتَوْلَى الْعَدُوُّ عَلَيْهَا مِنْ دَهْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعْرِفُ فِي وَقْتِهِ بِابْنِ أَبِي رَنْدَةَ تُوْفِي بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ، فِي جُمَادَى الْأُولَى، سَنَةَ عَشْرَيْنَ وَخَمْسِ مِائَةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر "سير أعلام النبلاء" (١٩ / ٤٩٠)

(١) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٣٦٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٧٦)

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٥٨) وقال ابن زيد ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قَالَ: الْمُرُّ يُوعِي مَتَاعَهُ وَمَالَهُ هَذَا فِي هَذَا، وَهَذَا فِي هَذَا، هَكَذَا يَعْرِفُ اللَّهُ مَا يُوعُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مِمَّا تُوعِيهِ قُلُوبُهُمْ، وَيَجْمَعُ فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَالْقُلُوبُ وَعَاءُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا، الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بشر هؤلاء المجرمين الكافرين الذين يكذبون القرآن، والسنة، ويكذبون على المؤمنين، ويحاربونهم، ويعادونهم.

فإن قيل كيف يبشر الإنسان بالعذاب؟ وهل عذابه يقال عنه بشارة؟

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: سميت البشارة بشارة؛ لأنها أخبارٌ تؤثر في البشارة سروراً، أو غماً؛ فالبشارة تكون بالخير وبالشر^(١)؛ فيبشر الإنسان إنساناً بالخير فتستبشر، وتشرق بشرته، وآخر يُبشَّر بالشر فتظلم بشرته والعياذ بالله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ إلا هنا استثناء منقطع والمعنى: كما قال القرطبي: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعملوا الصالحات، أي: أدوا الفرائض المفروضة عليهم لهم أجرٌ أي: ثوابٌ، غير ممنون أي: غير منقوص، ولا مقطوع اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين^(٢)، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الانشقاق بحمد الله ومنتته

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَلَقَدْ وَعَى لَكُمْ مَا لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَّا هُوَ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا عَلَى مَكَارِمِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَعْضُ هَذِهِ الْحُبِّثِ مَا يُفْسِدُهَا"

(١) قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتوح الغيب" (٨ / ٣٢٤) ومن هنا سميت البشارة بشارة، لأنها أخبار تبسط بشرة الوجه بسبب انتشار الدم فيه)، وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "تيسير الكريم الرحمن" (٩١٧) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غماً

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٧٧)

سُورَةُ الْبُرُوجِ

سورة البروج سورة مكية^(١)، وآياتها ثنتان وعشرون، نزلت بعد سورة الشمس.

ومناسبتها لما قبلها:

(١) اشتغالها كالتي قبلها على وعد المؤمنين ووعد الكافرين، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته.

(٢) أنه ذكر في السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والإلقاء في حمارة القيظ. وذكر هنا أن هذه شنشنة من تقدمهم من الأمم، ففد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود. وفي هذا عظة لقريش، وتثبيت من يعذبون من المؤمنين.^(٢) في هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (٣٢٧ / ١٥) أخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : نزلت ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ بمكة، وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٦٠) مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٧٩ / ٢٢)

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٩٧ / ٣٠)

شَيْءٌ شَهِيدٌ ﴿١﴾

افتتح الله سبحانه جل جلاله هذه السورة بقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ

الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَahِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ فالله سبحانه جل جلاله يقسم بهذه المقسمات، فربنا يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس للعبد إلا أن يقسم بربه سبحانه، فلا يجوز للعبد أن يقسم بالسماء ولا بالليل ولا بالكعبة ولا بأبيه ولا بجده ولا بالنعمة ولا بالنبي ﷺ ولا بالغالي ولا بغير ذلك، لما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ، يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تُحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ" ^(١).

وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما: "إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»" ^(٢).

و الله تعالى يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ ، وقد ورد في معنى البروج عدة أوجه،

ومن ذلك :

الوجه الأول: قيل: البروج هي النجوم ^(٣).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠٨) واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه به.

(٢) (صحيح) رواه أبو داود في "سننه" (٣٢٥١) والترمذي في "سننه" (١٥٣٥) وصححه الألباني في "الصحيحه" (٢٠٤٢).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٦١) بسنده عن مجاهد وابن أبي نجيح وقتادة، وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٢٤٠) عن الحسن والضحاك ، وذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٦٣) عن السدي

الوجه الثاني: البروج يعني ذات المنظر الحسن^(١).

والبروجُ في لغة العرب هي القصور، فيكون المعنى: والسماء ذات البروج يعني ذات القصور^(٢)، كما قال الله سبحانه جل جلاله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي لو كنتم في قصورٍ عاليةٍ جداً، فالموت يأتيكم.

وورد أيضاً من معاني البروج: أي المنازل^(٣)، وهذه المنازل تنزل فيها الشمس وينزل فيها القمر وهي اثنا عشر منزلاً، كما ذكر أهل العلم، القمر ينزل في كل منزلٍ فيها يومين وثلاث، والشمس تنزل في كل منزلٍ منها شهراً^(٤)، فالله تعالى يقسم بالسماء ذات البروج، يعني ذات النجوم، وذات المنظر الحسن، وذات القصور الباهرات، قالوا وهذه القصور التي في السماء هي للملائكة الحراس.

﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ اليوم الموعود باتفاق أهل التفسير هو يوم القيامة^(٥)، نسأل الله أن

(١) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٢٤٠) والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٧٩) عن المنهال ابن عمر

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٦٠) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٧٩) عن عكرمة ومجاهد أيضاً.

(٣) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦ / ٢٤٠)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٧٩) عن أبي عبيدة به.

(٤) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: أَنْ يُقَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَالسَّمَاءُ ذَاتُ مَنَازِلِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ). (٢٤ / ٢٦١). وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٧٩).

(٥) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٦٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٨٠) وقال: هو يوم القيامة من غير اختلاف بين أهل التأويل، وقال الشيخ عطية سالم رحمه الله في "تتمة أضواء البيان" (٨ / ٤٧٦) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ.

يجعل هذا اليوم خير أيامنا، ولذلك ربنا تعالى قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤] فالיום الموعود يوم القيامة باتفاق أهل التفسير.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قد ورد في معنى الشاهد والمشهد عدة أقوالٍ لأهل العلم، وكلها صحيحةٌ معتبرةٌ، منهم من بنى قوله على أن الشاهد هو الحاضرُ المبصرُ الرائي، ومنهم من بنى قوله على أن الشاهد هو الذي تحدث به الشهادة.

ومما ورد في معنى الشاهد على القول الأول بمعنى الحاضر والمبصر والرائي^(١) :-

١ - الشاهد هم الخلائق الذين يشهدون يوم القيامة، والمشهدود يوم القيامة وما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب نسأل الله سبحانه الستر والعافية^(٢)

٢ - وقد ورد في معنى الشاهد والمشهدود أيضاً أنهم المصلون الذين يصلون يوم الجمعة فيوم الجمعة مشهودٌ^(٣)، وخير الأيام يوم الجمعة، فهو أفضل أيام الأسبوع، ولذلك أمر النبي ﷺ من

(١) قال الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللهُ فِي "تَمَتُّةُ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ" (٨ / ٤٧٧) لَمْ يُصَرِّحْ هُنَا مَنْ الشَّاهِدُ وَمَا الْمَشْهُودُ، وَقَدْ ذَكَرَ الشَّاهِدُ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الْحَاضِرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهَرُ فَلْيَضْحَكُوا﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وَذَكَرَ الْمَشْهُودُ بِمَعْنَى الْمَشَاهِدِ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ [هود: ١٠٣]، فَالشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ قَدْ يَكُونَانِ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ، وَذَكَرَ الشَّاهِدُ مِنَ الشَّهَادَةِ، وَالْمَشْهُودُ مِنَ الْمَشْهُودِ بِهِ أَوْ عَلَيْهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فَشَهِيدُ الْأَوَّلَى: أَيُّ شَهِيدٍ عَلَى الْأُمَّةِ الَّتِي بُعِثَتْ فِيهَا، وَشَهِيدُ الثَّانِيَةِ: أَيُّ شَهِيدٍ عَلَى الرُّسُلِ فِي أُمَمِهِمْ. وَمِنْ هُنَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرِينَ قَوْلًا

(٢) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥ / ٥٨٢).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٧٠) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٨٣)

الصلاة والسلام عليه في هذا اليوم كما روى أبو داود في سننه عن أوس بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - يقولون: بليت -؟ فقال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء»^(١).

٣ - ومما ورد أيضاً، قول بعض أهل العلم: الشاهد هم الحجاج والمشهود يوم عرفة^(٢) وأما الشاهد بمعنى الذي تثبت به الحقوق والدعاوى ففيه عدة أقوال وكلها صحيحة - حتى يتدبر العبد أن عليه شهوداً أكثر -:

١ - أعظمها وأولها وأكبرها شهادة الله رب العالمين، ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، الله جل جلاله يشهد على عباده بما عملوا وبما أسروا وبما أظهروا، فليس عند الله سرٌّ، الكل عنده علانية، سبحانه جل جلاله^(٣).

٢ - القول الثاني أن الشاهد هو محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٥٣١) والنسائي في "المجتبى" (١٣٩٠) وابن ماجه في "سننه"

(١٠٨٥) و صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢١٢)

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٦٥) بسنده عن ابن عباس وأبي هريرة وعلي رضي الله عنهم وقتادة وابن زيد

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنه، وذكره البغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٣٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبیر .

(٤) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ٧١) والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ١٨١) عن ابن عباس والحسن بن علي رضي الله عنهما، ونسبه الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٢٤١) للحسن بن علي وابن

شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، والمشهد لهم أمة الرسول ﷺ، وسائر الأمم^٣ - نسأل الله سبحانه أن يسترنا ويجعلنا من بيض وجهه في الدنيا والآخرة -.

٣ - وأيضاً: الشاهد الأنبياء، والمشهد سائر الأمم، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] أي نبي يشهد عليهم، فكل الذي يأتي يشهد على أمته أنه بلغهم.

٤ - وأيضاً: الشاهد هم الملائكة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] سائق يسوق الإنسان إلى أرض المحشر، ومعه ملك آخر شهيد عليك نسأل الله اللطف والسلامة^٣.

٥ - واعلم أن الشاهد أيضاً: هذه الجوارح^٣، هذه الأيدي وهذه الأرجل وهذه الجلود تشهد علينا، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ وَقَالُوا لَئِذَا دُعِيتُمْ لَنَشْهَدَنَّهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

عمر وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

- (١) ينظر " زاد المسير " لابن الجوزي (٧٢ / ٩)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٨١ / ٢٢)
- (٢) ذكر ابن الجوزي " زاد المسير " (٧٣ / ٩)، الشاهد هذه الأمة والمشهد سائر الناس قاله الحسين بن الفضل ودليله لتكونوا شهداء على الناس) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٨٢ / ٢٢)
- (٣) ذكر ابن الجوزي " زاد المسير " (٧٣ / ٩) الشاهد الحفظة والمشهد بنو آدم قاله محمد بن علي الترمذي وحكي عن عكرمة نحوه، وذكر الماوردي في " النكت والعيون " (٢٤١ / ٦) الشاهد الملائكة، والمشهد الإنسان، قاله سهل بن عبد الله، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " (١٨٢ / ٢٢)
- (٤) ذكره الماوردي في " النكت والعيون " (٢٤١ / ٦) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " (١٨٢ / ٢٢)

فإذا علم العبد أن ربه العظيم يشهد عليه، وأن نبيّه محمداً ﷺ يشهد عليه، وأن جوارحه تشهد عليه، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]، يعني أين المفر وكل هؤلاء شهودٌ على العبد.

٦- وأيضاً: الأرض تشهد عليك، في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُكَ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا"، قَالَ: «فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»^(١).

٧- قال القرطبي رحمه الله: وقد يكون المال شاهداً^(٢)، قال ويشهد لذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «... وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصْرٌ حُلُوٌّ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ لَمَنْ أَعْطَى مِنْهُ الْمُسْكِينِ، وَالْيَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ - أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وقد ذهب الإمام الطبري رحمه الله إمام أهل التفسير إلى القول بالعموم أي عموم كل الشهود حيث قال: "وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِشَاهِدٍ شَهِدَ،

(١) (ضعيف) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤٢٩)، والنسائي في "الكبرى" (١١٨٠٥) وأحمد في "مسنده"

(٨٨٦٧) وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٤٨٣٤).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٨٢).

(٣) (متفق عليه) البخاري في "صحيحه" (١٤٦٥)، أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٥٢)، من حديث أبي

وَمَشْهُودٍ شَهِدَ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا مَعَ إِقْسَامِهِ بِذَلِكَ أَيَّ شَاهِدٍ وَأَيَّ مَشْهُودٍ أَرَادَ، وَكُلُّ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: هُوَ الْمَعْنِيُّ مِمَّا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُ شَاهِدٌ وَمَشْهُودٌ^(١) يعني ربنا تعالى يقسم بكل شاهد ويقسم بكل مشهود.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾ يقسم الله تعالى على أمرٍ جَلِيلٍ.

﴿قَتِيلٌ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ ۝﴾ قَتِلَ يعني لُعِنَ، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كل ما في القرآن (قَتِلَ) يعني لُعِنَ^(٢)، واللَّعْنُ هو الطرد من رحمة الله عز وجل^(٣).

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝﴾ أي ذات الحطبِ العظيم الذي كثر جداً لتوقد به هذه النار، وقُرِأت ذات الوُقُود بالضم يعني ذات الاشتعال العظيم الرهيب^(٤)، فهي نارُ ذات حطبٍ عظيمٍ، وهي نارُ ذات اشتعالٍ جسيمٍ كبيرٍ، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝﴾ أي جلوسٌ عند النار.

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٧٠) وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِشَاهِدٍ شَهِدَ، وَمَشْهُودٍ شَهِدَ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا مَعَ إِقْسَامِهِ بِذَلِكَ أَيَّ شَاهِدٍ وَأَيَّ مَشْهُودٍ أَرَادَ، وَكُلُّ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: هُوَ الْمَعْنِيُّ مِمَّا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُ {شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}

(٢) أخرجه الطبري "جامع البيان" (١١ / ٤١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما (وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ قَتَلَ . فَهُوَ لُعِنَ)، وينظر "معاني القرآن" للفرأ (٣ / ٢٠٢) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٨٣)

(٣) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢ / ٢٣٢) وَأَصْلُ اللَّعْنِ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ وَالْإِفْصَاءُ

(٤) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٧٨) ذَاتِ الْحُطْبِ الْجَزْلِ، وَذَلِكَ إِذَا فُتِحَتِ الْوَاوُ، فَأَمَّا الْوُقُودُ بِضَمِّ الْوَاوِ، فَهُوَ (الِاتِّقَادُ) وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥ / ٤٦٢)، و"إعراب القرآن" لابن النحاس (٥ / ١٢٠).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ ٧ و قصتهم أنهم جابرة كفره عذبوا المؤمنين الذين عندهم و أرادوهم أن يتركوا دينهم فأبوا، فقالوا إما أن تتركوا الإسلام الذي أنتم عليه و تكفروا مثلنا و تعبدوا الأوثان، و إلا حرقناكم بالنار أحياء، فأبوا و ثبتهم الله جل جلاله على الحق، فأمر الملك أن تُضرم لهم أحاديث أي تُحفر لهم حفرٌ عظيمةٌ مستطيلةٌ في الأرض على هيئة خندقٍ عظيمٍ و توقد فيها النيران، فمن ترك دينه تركوه و من أبى قذفوه في هذه النار حياً، و قصتهم ذكرها الإمام مسلم في صحيحه عن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَفَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بَنِي أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِئَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بَنِي قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ،

فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ
 بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُشَارِ، فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه
 حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرِقِ
 رَأْسِهِ، فَشَقَّه بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ
 أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ
 دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَارْجَفَ بِهِمُ
 الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمِشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ،
 فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ
 دِينِهِ وَإِلَّا فَأَذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرِقُوا، وَجَاءَ
 يَمِشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ
 بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى
 جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ
 ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ
 سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ
 السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،
 آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ
 حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النَّيرانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ
 يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَخْجُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: افْتَحِمْ، فَمَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا
 فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمِّهِ أَصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ.^(١)

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٣٠٠٥)

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة جداً، ولو ظللنا نعدّد هذه الفوائد لطلال بنا المقام ولكن نأخذ منه بعض الفوائد بإيجاز:

أولاً: أن الملوك الظالمين يُوطّدون مُلكهم بالسحرة والعرافين والمشعوذين، فيقولون: سيدي فلان، وهذا موجودٌ والعياذ بالله، يشركون مع الله غيره، ويعتقدون النفع والضرر في غير الله عز وجل، ويأتون بسحرة يستعينون بهم، وأعظم أمة ينتشر فيها السحر هي أمة اليهود، لعنة الله عليهم وكل من مشى في فلکهم وفي طريقهم وسلك سبيلهم.

كان هذا الملك له ساحرٌ، وهذا الساحر كبر سنّه، فانظر إليهم وهم يتوارثون الشرك والكفر بالله، "يا أيها الملك إنه كبر سني فأرسل إليّ غلاماً أعلمه السحر فأرسل اليه غلاماً فطناً"

ونحن الآن أولى بنا أن نعلم أبناءنا القرآن الكريم والسنة النبوية، وأولى بنا جميعاً أن ندفع أبناءنا إلى حفظ القرآن، وإلى تعلّم السنة، وإلى صلاة الجماعة، ونحن في زماننا هذا في أمس الحاجة إلى هذا، وفي أمس الحاجة إلى أن يخرج في كل بيت حاملٌ للقرآن، عالمٌ بالسنة، ومع أن يكون طيباً أو مهندساً أو محاسباً أو معلماً ومدرساً أو غير ذلك، شريطة أن يكون حاملاً لكتاب الله، عالماً بسنة رسول الله ﷺ، وينبغي أن تتوارث هذا جيلاً عن جيلٍ، هكذا الآباء يعلمون الأبناء، والأبناء يعلمون الأحفاد.

ثانياً: (كل مولود يولد على الفطرة)، فانظر إلى هذا الغلام كان في طريقه ذاهباً إلى الساحر ليتعلم منه، فوجد خيراً في طريقه، الفطرة السليمة دفَعَتْه أن يجلس إلى هذا الراهب، والراهب كان على النصرانية الحقّة، فسمع منه فأعجبه كلامه، فلذلك قال الرسول ﷺ عن الغلمان الصغار، فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجِّسَانِهِ، كَمَا تَنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ

بِهَيْمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟^(١)، فالولد لو ترك على فطرته التي فطره الله عليها يخرج مؤمناً محباً لله ورسوله، ولكن الأب هو الذي يوجه، أو الأم هي التي توجه الولد وجهةً أخرى، فيبدأ فيغرس في ذهنه يا بني نحن نريد أن نكون مثل الأمريكيين، نريد أن نكون مثل فرنسا، يا بني أترى دولة إسرائيل هذه دولة كذا وكذا ... فيظل يغرس فيه هذا التوجيه، فيبدأ الولد بالانسلاخ من دين الإسلام، ويتجه و العياذ بالله إما إلى الغرب وإما إلى الشرق فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه.

ثالثاً: كرامات الله لأوليائه ثابتة، فهذا هو الغلام في يوم من الأيام يجد على طريقه دابةً عظيمةً فأجرى الله خارقاً من خوارق العادات، وكرامةً من الكرامات أجراها الله على يد هذا الغلام الصغير، والكرامات للأولياء ثابتة بالقرآن و السنة، كلما كان العبد لله ولياً كلما أجرى الله على يده كرامةً من الكرامات، وهذا الغلام كان غلاماً صغيراً أجرى الله على يده كرامةً عظيمةً، فأحياناً يكون العبد لا ذكراً له، صغير السن مثلاً، ويجري الله على يده كرامةً عظيمةً جداً، وهذه الكرامة أن الله أراح شراً عظيماً عن الأمة في زمانه بحجرٍ صغيرٍ، وصرف الله عنهم شراً وسوءاً، وجعلهم يمشون آمنين مطمئنين.

رابعاً: سنة الابتلاء:

هنا تأتي سنة الابتلاء التي لا محيد عنها للصالحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]،

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٨٥) ومسلم في " صحيحه " (٢٦٥٨) من حديث أبي

فالابتلاء ملازمٌ لكلِّ عبدٍ صالحٍ، ولذلك إذا كنت على طريق الله الحق وليس عندك ابتلاءٌ ففتش في نفسك ولا بد، قال تعالى: ﴿وَلْتَبْلَوْنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فلا بد للعبد المؤمن من ابتلاءٍ، والابتلاء يتنوعُ، فأحياناً يكون في الأنفس، وأحياناً يكون في الأولاد، وأحياناً يكون في تسليط الكفار على المسلمين، فلا بد من البلاء، إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، ليميز الله الخبيث من الطيب، والذين قبلنا ابتلوا ابتلاءً عظيماً، وصبروا على ذلك في ذات الله،

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّتْ بِي رَائِحَةُ طَيِّبَةٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ؟" فَقَالُوا: هَذِهِ رَائِحَةُ مَا شِطَّةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا كَانَتْ تَمْشِيهَا فَوْقَ الْمِشْطِ مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ ابْنَتُهُ: أَبِي؟ فَقَالَتْ: لَا، بَلْ رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ، فَقَالَتْ: أَخْبِرْ بِذَلِكَ أَبِي، قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرْتُهُ فَدَعَا بِهَا وَبَوَّلَهَا فَقَالَتْ: لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ. فَقَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَتْ: تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فَتَدْفِنُهُ جَمِيعًا، فَقَالَ: ذَلِكَ لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، فَاتَى بِأَوْلَادِهَا فَأَلْقَى وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ وَلَدِهَا وَكَانَ صَبِيًّا مُرْصَعًا، فَقَالَ: اصْبِرِي يَا أُمُّهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ أُلْقِيَتْ مَعَ وَلَدِهَا^(١)

والله تعالى قال في كتابه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤] سبحانه الله العظيم أقتلوا من؟ خليل الله عز وجل يقتل ويحرق بالنار، وأيضاً حكى الله سبحانه جل جلاله حال بعض الأقوام

(١) (حسن) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٨٢١) والحاكم في "المستدرک" (٣٨٨٠)، والبيهقي في "شعب الإیمان" (١٥١٩)، وصححه الذهبي، وقال ابن كثير رحمته الله في "تفسير القرآن العظيم" (٥ / ٢٩) "إِسْنَادٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَمْ يُجَرِّجُوهُ، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ فِي تَحْقِيقِ "مسند أحمد" (٢٨٢٢).

مع أنبياءهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٣]

وأيضاً قصة خبيب بن عدي وعاصم بن ثابت رضي الله عنهما في ابتلاء الصحابة، فعن سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قریش لحمه ثم حملوه على جذعة فقالوا: أئحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا ﷺ شيك بشوكة^(١) وثبت فوقلوه صبراً.

و قصة عاصم بن ثابت رضي الله عنه رواها سعيد بن منصور في سننه عن بريدة بن سفيان الأسلمي أن رسول الله ﷺ بعث عاصم بن ثابت، وزيد بن دينة أحد بني بياضة، وخبيب بن عدي، ومرثد بن أبي مرثد إلى بني لحيان بالرجيع، فقاتلوه حتى أخذوا لأنفسهم عقداً إلا عاصم فإنه أبى وقال: لا أقبل اليوم عهداً من مشرك ودعا عند ذلك، وقال: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحم لي حمي، فجعل يقاتل ويقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدُ نَابِلٍ ... تَرُلُ عَنْ صَفْحَتِي الْمُعَابِلِ ... الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ بَاطِلٌ
وَيَقُولُ وَهُوَ يَحْرُصُ نَفْسَهُ:

أَبُو سُلَيْمَانَ وَرِيشُ الْمُقْعَدِ ... وَضَالَةٌ كَالْجَحِيمِ الْمُوقَدِ ... إِذَا النَّوَاجِي ارْتَعَشَتْ لَمْ أُرْعِدْ
فَلَمَّا قَتَلُوهُ كَانَ فِي قَلْبِهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَذَا الَّذِي آلَتْ فِيهِ الْمَكِيَّةُ، وَهِيَ السَّلَافَةُ
أَحَدُ بَنِي الْأَقْلَحِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ عَاصِمٌ يَوْمَ أُحُدٍ قَتَلَ لَهَا نَفَرًا ثَلَاثَةً، كُلُّهُمْ صَاحِبُ لُؤَاءٍ

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٢٤٦/١)، من حديث سعيد ابن عامر رضي الله عنه، به. وأصل الحديث في "

فَرِيشِ يَوْمَئِذٍ، وَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَجَعَلَ يَرْمِي - وَكَانَ رَامِيًا - وَيَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَقْلَحِ، فَتَوَتَّى بِهِ فَتَقُولُ كُلَّمَا أُتِيَتْ بِإِنْسَانٍ: مَنْ قَتَلَهُ؟ فَيَقُولُونَ: مَا نَدْرِي غَيْرَ أَنَّا سَمِعْنَا رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَقْلَحِ، فَقَالَتْ: أَفَلَحْنَا فَحَلَفَتْ لَيْنِ قَدَرْتِ عَلَى رَأْسِهِ لَتَشْرَبَنَّ فِي قَحْفِهِ الْحُمُرَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَحْتَزُّوا رَأْسَهُ لِيَذْهَبُوا بِهِ إِلَيْهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ دَبْرٍ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحْتَزُّوا رَأْسَهُ^(١)، رَجُلًا مِنْ دَبْرٍ يَعْنِي طَائِفًا مِنَ النَحْلِ تَحْمِي بَدَنَهُ، فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ جَاءُوا لِیَأْخُذُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ أَخْفَاهُ وَ لَا يُدْرِي أَيْنَ هُوَ، وَفِي رَوَايَةِ ابْنِ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ "وَأَرَادُوا رَأْسَ عَاصِمٍ لِيَبْعُوهُ مِنْ سُلَافَةٍ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شُهَيْدٍ وَكَانَتْ نَذَرَتْ لَتَشْرَبَنَّ فِي قَحْفِ عَاصِمِ الْحُمُرَ وَكَانَ قَتَلَ ابْنَيْهَا مُسَافِعًا وَجُلَاسًا يَوْمَ أُحُدٍ فَحَمَتُهُ الدَّبْرُ فَقَالُوا: أَمْهَلُوهُ حَتَّى تُمْسِيَ، فَإِنَّهَا لَوْ قَدْ أَمْسَتْ ذَهَبَتْ عَنْهُ. فَبَعَثَ اللَّهُ الْوَادِيَّ فَاحْتَمَلَهُ"^(٢).

فَالْبَلَاءُ سَنَةٌ لِكُلِّ عَبْدِ صَالِحٍ، فَكُلُّ عَبْدِ صَالِحٍ لَا بَدَّ أَنْ يَبْتَئِلَ، رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ حُمْرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ لَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ^(٣)، إِذَا فَلَا بَدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ بَلَاءٍ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَافِيَةِ اللَّهِ أَوْسَعُ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

وَعِنْدَمَا نَسْتَقْرَأُ سِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ نَجِدُ أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا وَقَدْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ جَلَّ

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٠٨٦) والنسائي في " السنن الكبرى " (٨٧٨٨) وأحمد في " مسنده " (٧٩٢٨) من حديث بريده ابن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) أخرجه ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٥٢/٢) وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (١١٠/١)

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٩٢٥)، والنسائي في " الكبرى " (٤٤٤٧) وابن ماجه في " سننه " (٣١٠٨) وأحمد في " مسنده " (١٨٧١٥)، من حديث عبد الله ابن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٢٧٢٥)

جلاله، وهكذا هذا الغلام ابتلاه الملك ببلايا عظيمة، وجعل يراوده ليرده عن دينه، صعد به إلى أعلى قمة جبل فدعا الله فكفاه أعداءه، وتوسطوا به البحر فكفاه الله تعالى أعداءه، فإذا به يقول للملك ما ذكر: إنك لست بقاتلي إلا أن تفعل كذا وكذا، فجمع الناس في صعيد واحد، وجاء بهم كي يقتل هذا الغلام أمامهم، وكي يتنصر، فقلَّب السحر على الساحر، وانتصر الغلام، وضحى بنفسه من أجل أن يدخل الناس في دين الله أفواجا.

وهنا أهل العلم يذكرون مسألة مهمة، ألا وهي: إذا تعرض الإنسان للبلاء وكان في هذا البلاء قتله، هل يجوز له أن يصبر على هذا البلاء حتى القتل؟ أم أنه يجوز له أن يأخذ بالرخصة؟

قولان في المسألة لأهل العلم، كلاهما صحيح، والمُرَجَّحُ أن ينظر إلى المصلحة، فإذا كان المرء يقوى على الصبر و يصبر لله سبحانه، وإذا غلب على ظنه أن في ذلك نصراً لدين الله، ويتحمل هو المشاق كما فعل هذا الغلام، ويفصل ذلك الإمام القرطبي فيقول: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] فِيهِ إِحْدَى وَعِشْرُونَ مَسْأَلَةً

...الرَّابِعَةُ: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي، غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما. وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى: "إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ" الآية. وَقَالَ: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً" وَقَالَ: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ" الآية. وَقَالَ: "إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ" الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا

مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به، قاله البخاري.

الخامسة: ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا، يروى هذا عن الحسن البصري، رضي الله عنه. وهو قول الأوزاعي وسحنون من علمائنا. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراره بالسجود حيثنذ، ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ^(١) وكما فعل الإمام أحمد عند المحنة^(٢)، وكما فعل بلال كما روى الحاكم في المستدرک عن زرّ،

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٠٠٠) ومسلم في " صحيحه " (٧٠٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي سبحته حيثما توجهت به ناقته»، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٤٣٦/١٢)

(٢) قال الذهبي رحمه الله في " سير أعلام النبلاء " (٢٥١ / ١١) قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبُوشَنجِيُّ: ذَكَرُوا أَنَّ الْمُعْتَصِمَ أَلَانَ فِي أَمْرِ أَحْمَدَ لَمَّا عَلَّقَ فِي الْعُقَايِنِ، وَرَأَى ثَبَاتَهُ وَتَصَمِيمَهُ وَصَلَابَتَهُ، حَتَّى أَغْرَاهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادَ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ تَرَكْتَهُ، قِيلَ: قَدْ تَرَكَ مَذْهَبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَخَطَ قَوْلُهُ. فَهَاجَهُ ذَلِكَ عَلَى ضَرْبِهِ. وَقَالَ صَالِحٌ: قَالَ أَبِي: وَلَمَّا جِيءَ بِالسَّيَاطِ، نَظَرَ إِلَيْهَا الْمُعْتَصِمُ، فَقَالَ: اثْنُونِي بِغَيْرِهَا، ثُمَّ قَالَ لِلْجَلَادِينَ: تَقَدَّمُوا. فَجَعَلَ يَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْهُمْ، فَيَضْرِبُنِي سَوَاطِينِ، فَيَقُولُ لَهُ: شُدَّ، قَطَعَ اللَّهُ يَدَكَ! ثُمَّ يَتَنَحَّى وَيَتَقَدَّمُ آخَرُ، فَيَضْرِبُنِي سَوَاطِينِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي كُلِّ ذَلِكَ: شُدَّ، قَطَعَ اللَّهُ يَدَكَ! فَلَمَّا ضُرِبَتْ سَبْعَةُ عَشَرَ سَوْطًا، قَامَ إِلَيَّ - يَعْزِي: الْمُعْتَصِمُ - فَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، عَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ؟ إِنِّي - وَاللَّهِ - عَلَيْكَ لَشَفِيقٌ. وَجَعَلَ عَجِيفٌ يَنْحَسِي بِقَائِمَةِ سَيْفِهِ، وَقَالَ: أَتُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَ هَؤُلَاءَ كُلَّهُمْ؟

وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: وَيْلَكَ! إِمَامُكَ عَلَى رَأْسِكَ قَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، دُمُهُ فِي عُنُقِي، اقْتُلْهُ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ وَأَوْقَعُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ آتَاهُمْ كُلُّهَا أَرَادُوا غَيْرَ بِلَالٍ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَجَعَلَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ"^(١)

وغير بلالٍ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، و كما قال النبي ﷺ للصحابي فيما رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي الدرداء قال: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَسْعٍ: لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا؛

وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ صَائِمٌ، وَأَنْتَ فِي الشَّمْسِ قَائِمٌ! فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، مَا تَقُولُ؟ فَأَقُولُ: أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ أَقُولُ بِهِ. فَرَجَعَ، وَجَلَسَ، وَقَالَ لِلْجَلَادِ: تَقَدَّمْ، وَأَرْجِعْ، قَطَعَ اللَّهُ بِدَكَ. ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ، وَجَعَلَ يَقُولُ: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ! أَجْبِنِي. فَجَعَلُوا يَقْبَلُونَ عَلَيَّ، وَيَقُولُونَ: يَا أَحْمَدُ، إِمَامُكَ عَلَى رَأْسِكَ قَائِمٌ! وَجَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: مَنْ صَنَعَ مِنْ أَصْحَابِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا تَصْنَعُ؟ وَالْمُعْتَصِمُ يَقُولُ: أَجْبِنِي إِلَى شَيْءٍ لَكَ فِيهِ أَدْنَى فَرْجٍ حَتَّى أَطْلِقَ عَنْكَ بِيَدِي.

ثُمَّ رَجَعَ، وَقَالَ لِلْجَلَادِ: تَقَدَّمْ. فَجَعَلَ يَضْرِبُنِي سَوَاطِينٍ، وَيَتَنَحَّى، وَهُوَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ يَقُولُ: شُدَّ، قَطَعَ اللَّهُ بِدَكَ. فَذَهَبَ عَقْلِي، ثُمَّ أَفْقَتُ بَعْدُ، فَإِذَا الْأَقْيَادُ قَدْ أَطْلَقَتْ عَنِّي. فَقَالَ لِي رَجُلٌ مِّنْ حَضَرَ: كَبْبَنَّاكَ عَلَى وَجْهِكَ، وَطَرَحْنَا عَلَى ظَهْرِكَ بَارِيَّةً وَدُسْنَاكَ! قَالَ أَبِي: فَمَا شَعَرْتُ بِذَلِكَ، وَأَتُونِي بِسَوِيْقٍ، وَقَالُوا: اشْرَبْ وَتَقَيَّأْ. فَقُلْتُ: لَا أَفْطِرُ. ثُمَّ جِيءَ بِي إِلَى دَارِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَحَضَرْتُ الظَّهْرَ، فَتَقَدَّمَ ابْنُ سِعَاةَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْقَضَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَالَ لِي: صَلَّيْتُ، وَالِدُكَ يَسِيلُ فِي ثَوْبِكَ؟ قُلْتُ: قَدْ صَلَّيْتُ عُمُرَ وَجْرُحِهِ يَتَعَبُ دَمًا. قَالَ صَالِحٌ: ثُمَّ خَلَّى عَنْهُ، فَصَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ. وَكَانَ مَكْتُهُ فِي السَّجْنِ مُنْذُ أُخِذَ إِلَى أَنْ ضُرِبَ وَخُلِّيَ عَنْهُ، ثَمَانِيَّةً وَعِشْرِينَ شَهْرًا.

(١) (حسن) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (١٥٠)، والحاكم في "المستدرک" (٥٣٢٨) وابن حبان في "صحيحه

"(٧٠٨٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به. وحسنه الألباني في "التعليقات الحسان" (٧٠٤١)

وَأِنْ قُطِّعَتْ أَوْ حُرِّقَتْ...^(١)

فمن كان يجد في نفسه قوةً، ويعلم أن في ذلك خيراً ونصراً لدينه، كما فعل أيضاً عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه حينما راوده ملك الروم، فقد ذكر الذهبي في السير عن أبي رافع، قال: وَجَّهَ عُمَرُ جَيْشاً إِلَى الرُّومِ، فَأَسْرَوْا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَنْتَصِرَ، وَأُعْطِيكَ نِصْفَ مُلْكِي؟ قَالَ: لَوْ أُعْطِيتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مُلْكِ الْعَرَبِ مَا رَجَعْتُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَالَ: إِذَا أَقْتُلْتُكَ. قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ. فَأَمَرَ بِهِ، فَصَلَبَ، وَقَالَ لِلرُّمَّةِ: ارْمُوهُ قَرِيْباً مِنْ بَدَنِهِ. وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ، وَيَأْبَى، فَأَنْزَلَهُ، وَدَعَا بِقَدْرِ، فَصَبَّ فِيهَا مَاءً حَتَّى اخْتَرَقَتْ، وَدَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا، فَأُلْقِيَ فِيهَا، وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ، وَهُوَ يَأْبَى، ثُمَّ بَكَى.

فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: إِنَّهُ بَكَى. فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ جَزِعَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ. مَا أَبْكََاكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى السَّاعَةَ فَتَذْهَبُ، فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ شَعْرِي أَنْفُسٌ تُلْقَى فِي النَّارِ فِي اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُقْبَلَ رَأْسِي، وَأُخْلِيَ عَنْكَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَعَنْ جَمِيعِ الْأَسَارَى؟

قَالَ: نَعَمْ. فَقَبِلَ رَأْسَهُ، وَقَدِمَ بِالْأَسَارَى عَلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقْبَلَ رَأْسُ ابْنِ حُذَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ. فَقَبِلَ رَأْسَهُ.

(١) (حسن) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١٨)، وابن ماجه في "سننه" (٤٠٣٤)، والبيهقي في "شعب

الإيمان" (٥٢٠٠)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه به. وحسنه الألباني في "الإرواء" (٢٠٢٦)

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١٤ / ٢)، و"الإصابة" لابن حجر (٩٥ / ٠٦)

فهذا الرأي الأول من كان عنده صلابة في دينه وثبات و صبر و احتساب، ويعلم أن في ذلك خيراً له، وأنه يستطيع الصبر على هذا البلاء، فلا شك أن هذا له أجر عظيم، ولذلك فإن الإمام ابن العربي المالكي رحمه الله لما قال: لا يجوز للعبد أن يصبر على البلاء حتى يعرض نفسه للقتل، وقال في قصة الغلام: (وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ هَهُنَا أَنَّ الْمُرَأَةَ وَالْغُلَامَ صَبْرًا عَلَى الْعَذَابِ مِنَ الْقَتْلِ، وَالصَّلْبِ، وَالْقَاءِ النَّفْسِ فِي النَّارِ، دُونَ الْإِبْيَانِ. وَهَذَا مَنْسُوخٌ عِنْدَنَا حَسْبَمَا تَقَرَّرَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ) ^(١)، فرد عليه الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره فقال: (قُلْتُ: لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ عِنْدَنَا، وَأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ لِمَنْ قَوِيَتْ نَفْسُهُ وَصَلَبَ دِينُهُ أَوَّلَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَرِّراً عَنْ لُقْمَانَ: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]...علمائنا: وَقَدْ امْتَحَنَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَالتَّعْذِيبِ الشَّدِيدِ، فَصَبَرُوا وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْفِيكَ قِصَّةُ عَاصِمٍ وَخُبَيْبٍ وَأَصْحَابَيْهَا وَمَا لَقُوا مِنَ الْحُرُوبِ وَالْمِحَنِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْحَرْقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ مَضَى فِي "النَّحْلِ" أَنَّ هَذَا إِجْمَاعٌ مِمَّنْ قَوِيَ فِي ذَلِكَ، فَتَأَمَّلْهُ هُنَاكَ). ^(٢)

أما من لم يجد في نفسه قوة له أن يأخذ بقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

إذا جازئ للإنسان أن ينطق بالكفر، ويتكلم بالكلام الذي ظاهره الشين وظاهره السب للدين الله تعالى، حتى يدفع عن نفسه القتل إذا كان في ذلك نجاة له ^(٣)، و كما قال الله تعالى ﴿مَنْ

(١) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٣٧٤).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ١٩٢).

(٣) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٤ / ٦٠٦) وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ يُؤَالِيَ الْمَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ، إِنْقَاءً لِمُهْجَتِهِ، وَيُجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَقْتَلَ، كَمَا كَانَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْتِي عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ

كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ
 بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦] وكما حدث
 مع عمار رضي الله عنه فعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ
 يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وَذَكَرَ أَهْلَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:
 «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تَرَكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ أَهْلَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ
 تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(١)

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٦﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ ﴿٧﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٨﴾ وَهُمْ عَلَى مَا
 يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٩﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٠﴾﴾

فتش في بلاد العالم لماذا المسلم في السجون؟ ولماذا يُقتل المسلم؟ ولماذا يُشَرَّد؟ ولماذا
 يُضطهد؟ ولماذا يهدم بيته؟ ليس لشيء إلا أنه يؤمن بالله.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ العزيز: يعني عزيز الجنب الذي
 لا يُغالب، بل يَغْلِبُ كل قوى.

الحميد: يعني المحمود سبحانه جل جلاله.

وما نقموا منهم، فما هي الجريمة؟ ليس لهم ذنب إلا أنهم آمنوا بالله رب العالمين، إلا أنهم
 آمنوا بالله العزيز الحميد.

.....

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٣٤٠٤) وقال حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ، والبيهقي في
 "السنن الكبرى" (١٦٨٩٦)، من حديث عمار رضي الله عنه به.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(١) يعني أن الله شهيدٌ على هؤلاء، يُحصى أقوالهم ويُحصى أعمالهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(٢) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ^(٣)

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(٤) وهذا جزاء عملهم، كما أن هؤلاء المجرمين عذبوا المؤمنين وأحرقوهم بالنار، فإن الله جل جلاله أعدَّ لهم عذاب الحريق، بل قال الله تعالى: (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) يعني هذا العذاب عذاب جهنم جزاءً لكفرهم، ولهم عذاب الحريق زيادةً على كفرهم، فكان هذا العذاب لأنهم عذبوا أوليائه وأحرقوهم بالنار، فالله يحرقهم بالنار زيادةً على العذاب الذي أعدّه لهم على كفرهم.

و لذلك فإن الناظر في هذه الآيات العظيمة، ليقول بكيانه كله ما أكرم الله سبحانه و بحمده، فرب العزة سبحانه جل جلاله في هذه الآيات بعد أن قص قصة أصحاب الأخدود - و أنهم فتنوا المؤمنين وعذبوهم وأحرقوهم بالنار-، يقول: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) فيدعوهم إلى التوبة ويفتح لهم باب التوبة جل جلاله الله و تباركت أسماؤه، وهذا من تمام كرمه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(٥) [النساء: ١٤٧]، فما الذي يصل إلى الله سبحانه جل جلاله لو أن العباد شكروا و آمنوا؟ هل يضر الله عز وجل معصية العباد أو ينفعه طاعتهم؟ أبدأً والله، ولذلك قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى عظيم كرم الله، قتلوا أوليائه ويدعوهم إلى التوبة^(٦)، سبحانه الله العظيم! باب

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٢٧١)

التوبة مفتوح لكل عاصي، مهما عصى و بغى و طغى وأظلم وظلم و وقع في كل المعاصي، والله جل جلاله لا يغلق باب التوبة أبداً إلا إذا طلعت الشمس من مغربها أو حضر الموت للإنسان كما روى أبو داود في سننه عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١)، ولذلك ربنا جل جلاله لما ذكر: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وأيضاً ربنا جل جلاله لما قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٩]، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، نسأل الله اللطف والعافية، كحال كثير ممن ينتمون إلى الإسلام في زماننا، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، قال ربنا تعالى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا)، ثم فتح باب التوبة، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝﴾ [مريم: ٦٠] نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الجنة بلا حساب ولا عذاب وربنا الكريم جل جلاله وعز جلاله لما تكلم عن المفسدين في الأرض فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [المائدة: ٣٣]، ثم قال تعالى فاتحاً باب التوبة ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [المائدة: ٣٤] ومعنى ذلك: أنه إذا كان الكريم قد قال (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٤٧٩)، والنسائي في "الكبرى" (٨٩٦٦)، وأحمد في

"مسنده" (١٦٩٠٦)، من حديث معاوية رضي الله عنه به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٢٠٨)

رَّحِيمٌ)، يعني اعلّموا أن الله تاب عليهم وعفا عنهم سبحانه وبحمده، وأيضاً في سورة الحجرات لما قال مولانا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(١) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٢) [الحجرات: ٤، ٥] فربُّنا ما أعظمه، وهذا يدفعنا لعظيم الرجاء في الله، ولا نستعظم ذنباً أبداً مهما وقعنا، ومهما بعد العبد منا، ومهما حاد عن ربه، لا يئس منه الشيطان، ويقول له: ليس لك توبة، وإذا به يقنط من رحمة الله، لا أبداً، فدائماً الرجاء في الله سبحانه، وحسن الظن فيه، وعندنا حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَاتَّاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ هَا أَنَا سَاعِدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ" ^(٣)، وأيضاً الحديث العظيم الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ" ^(٤)، وليس معنى ذلك أن

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٤٧٠) ومسلم في "صحيحه" (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٥٠٧) ومسلم في "صحيحه" (٢٧٥٨)، من حديث أبي

يتجرأ العبد على المعاصي، وإنما معناه أن العبد منا إذا زلت قدمه لا ييأس من رحمة الله، ولا يغلق باب التوبة عن نفسه ويتبع الشيطان و ينجرف وراءه فيكون من أهل النار، ولكن مهما أغوته نفسه، أو أغواه الشيطان، فليعلم أن ربه غفورٌ رحيمٌ، وليعزم على التوبة النصوح، وإذا قدر الله عليه بعد ذلك فزلت قدمه ووقع في معصية الله، يعود أيضاً إلى التوبة النصوح مرةً ثانيةً وثالثةً وألف وأكثر من ذلك، و لذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعَزَّتْكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عَبْدَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْرُونِي"^(١)

فاللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا واغفر لأحبابنا في الله أجمعين يا ذا الجلال والإكرام ووالدينا وأزواجنا وذرياتنا ولكل من أحبنا فيك وأحبيناه فيك يا حي يا قيوم أيها الأعبة الكرام.

وهذه المنة من الله سبحانه التي نحن في غفلة عنها إلا من رحم الله، ما رواه الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ "^(٢)

هريرة رضي الله عنه به.

(١) (حسن) أخرجه أحمد في "مسنده" (١١٧٢٩) والحاكم في "المستدرک" (٧٨٨١)، من حديث أبي سعيد به رضي الله عنه.

وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٠٤)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٥٨) والنسائي في "الكبرى" (١٠٢٣٩)، من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه به.

فرجاء العبد أن يتفضل الله عليه ويكون من أهل إجابة هذا النداء، كل ليلة، ولو ليلة وليلة، ولو ليلة في الأسبوع، فيجيب قول الله تعالى: "من يدعوني فاستجب له، من يستغفرني فاغفر له، من يسألني فأعطيه" سبحانه و بحمده، وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"^(١)، فلا يستعظم العبد ذنباً أبداً مهما فعل، فإن الله يفرح بتوبته عندما يتوب إلى الله فيحبه، ففي الصحيحين عن الحارث بن سويد، قال: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ أَعُوذُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحَتِهِ وَزَادِهِ"^(٢)، ما بالك بفرحة هذا العبد الذي عاين الموت ثم رجعت إليه الحياة من أوسع الأبواب، فالله سبحانه يحب العبد التائب، قال تعالى ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

و لذلك مولانا بعد ما قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ﴾ التَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿﴾، ثم ذكر أنهم ليس هؤلاء المساكين ذنب إلا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٥٩) والنسائي في " الكبرى " (١١١٦)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٠٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٤٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه به.

الإيمان بالله العزيز الحميد، ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ ثم يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾ يعني دعاهم سبحانه جل جلاله للتوبة، وربنا يغار إذا أُوذي عبدٌ صالحٌ من عباده، ويغضب سبحانه جل جلاله، ولكن إذا تاب العبد الذي ظلم الله يتوب عليه ويغفر له، ولذلك قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُضْحَكُ اللَّهُ لِرَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يُقْتَلُ هَذَا فَيُلْجَأُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْآخَرِ، فَيَهْدِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَسْتَشْهَدُ» و في رواية يعجب ربك^(١) سبحانه و بحمده قال جل جلاله فلهم عذاب جهنم و لهم عذاب الحريق كما قال سبحانه و تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨]، فلا يظن ظانٌّ أن هؤلاء الكفرة المجرمين المفسدين في أرض الله الذين يفسدون في بلاد الإسلام و يبغونها عوجاً و ينفقون أموالهم ليلاً و نهاراً في إفساد بلاد المسلمين، لا يظن أنهم يتركون أو يُملون هكذا، بل لهم عذابٌ فوق العذاب، عذابٌ على كفرهم، و لهم عذابٌ زائدٌ بسبب إفسادهم في بلاد الله سبحانه جل جلاله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١﴾ أي إن الذين أقرؤا بوحداية الله، و عملوا صالح الأعمال، ائتماراً بأوامره و كفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه، لهم بسايتن تجرى من تحت أشجارها الأنهار، وهذا هو الظفر الكبير لهم،

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٢٦) ومسلم في " صحيحه " (١٨٩٠)، من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به. وفي رواية للنسائي في " الكبرى " (٣١٦٥) إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْجَبُ مِنْ رَجُلَيْنِ ...

كفاء ما قدموا من إيمانٍ وطاعةٍ لربهم.^(١)

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٣﴾ فبطشُ الله و انتقامه من أعدائه شديد، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٤﴾ [هود: ١٠٢]، وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمِلُّ لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٣﴾ [هود: ١٠٢] «^(٢)، فالله لا يترك الظالم هكذا بلا حساب تعالى الله عن ذلك، فمهما طالَت الأيام ومهما طال العمر، حتى لو انتهت الدنيا كلها دون أن يرى المظلوم جزاء الظالم، فلا بد أن ينتقم الله تعالى من الظالم للمظلوم، فعند الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرَنَاءِ»^(٣)، فما بالك بإنسانٍ اغتاب إنساناً، أو إنسانٍ ظلم إنساناً، أو إنسانٍ أكل مال إنسانٍ بغير حقٍّ، أو إنسانٍ قتل مسلماً بغير حقٍّ، أو سجن مسلماً بغير حقٍّ، حدَّث ولا حرج ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٠٣)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٦٨٦) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٨٢) والترمذي في "سننه" (٢٤٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به.

فربنا سبحانه جل جلاله يقول: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] وهذا فيه تسليّة للضعفاء، ومواساة للمبتلين فليعلم المؤمنون أن بطش الله شديد بأعدائه، ما عليهم إلا أن يثبتوا على طريقة الله المرضية التي ارتضاها الله لرسله ولعباده الصالحين.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ [١٣] سبحانه و بحمده يُبدئ الدنيا ويعيد الآخرة، يُبدئ العذاب على الكافرين و يعيده مرة ثانية، يُبدئ الخلق ثم يعيده مرة ثانية، سبحانه جل جلاله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، سبحانه و بحمده جل جلاله، إنه هو يُبدئ و يُعيد، يعني يبدئ العذاب على أعداءه و يعيده مراتٍ و مراتٍ، نسأل الله العافية والنجاة يارب العالمين.

ثم قال الله بعدها: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [١٤] الغفور الذي يغفر الذنب مهما كثر، وهي صيغته مبالغة يعني يغفر و يغفر و يغفر، ستورٌ سبحانه جل جلاله يستر الذنوب يمحوها و يسترها، ثم انظر إلى اقتران هذين الاسمين الجليلين و هو الغفور الودود، يعني أنه بعد أن كان العبد عاصياً بعيداً عن ربه فلا تظن أن الله بعد أن غفر له لا يحبه، لا، لأن معنى الودود الحبيب، ويعني الكريم، ويعني الذي يحب أولياءه، ويعني الذي يحبه أوليائه، ربنا سبحانه جل جلاله ربٌّ عظيمٌ كريمٌ رحيمٌ، يحب العبد التائب، يمحو ذنبه و يحبه، و ترجع محبة الله له على أكمل ما كان، وإذا علم العبد منا أن ربه ودودٌ يتودد إليه بأفعاله، ويتودد إليه بنعمه، ويتودد إليه بأن العبد إذا تاب و رجع إليه يغفر له ذنبه، فيحب هذا الربَّ العظيم، وما بالعبد من نعمة فمنه وحده سبحانه جل جلاله، ربنا يحب عباده و يحبه عباده، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، والله تعالى قال عن الذين آمنوا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُكَاةً﴾ [مريم: ٩٦]

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ العرش أعظم المخلوقات كلها وأكبرها، فالعرش أكبر من السنوات كلها، وأكبر من الأرضين، وأكبر من الكرسي، والعرش هو سقف المخلوقات كما ورد عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيَّ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»^(١).

وفي قراءة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ بكسر الدال، وهذا يعني أن المجيد صفة للعرش، يعني عرش عظيم، وفي قراءة صحيحة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ بضم الدال يعني أن هذه صفة تعود إلى الله عز وجل بأنه هو المجيد^(٢) سبحانه، يعني العظيم الذي لا أعظم منه أبداً سبحانه تبارك وتعالى.

﴿فَعَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ لا يملك العبد لنفسه شيئاً، فأنا وأنت والخلق كلهم، لا نملك لأنفسنا شيئاً إلا أن يشاء الله سبحانه، فعَنْ أَبِي السَّفَرِ، قَالَ: دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ نَاسٌ مِنْ إِخْوَانِهِ يَعُودُونَهُ فِي مَرَضِهِ فَقَالُوا لَهُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا يَنْظُرُ إِلَيْكَ، قَالَ: قَدْ نَظَرَ إِلَيَّ، قَالُوا: فَمَاذَا قَالَ لَكَ، قَالَ: قَالَ: إِنِّي فَعَالٌ لَمَّا أُرِيدُ^(٣)، والإخبار عن الله واسع، أوسع من

(١) (صحيح) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٣٦١) وابن أبي شيبه في كتاب "العرش" (٥٨) وأبو الشيخ في كتاب "العظمة" (٥٨٧ / ٢) والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٦١)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٠٩)

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩٧ / ٢٢) ((ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ إِلَّا عَاصِمًا الْمَجِيدَ بِالْحَقْفِصِ، نَعْتًا لِلْعَرْشِ. وَقِيلَ: لِ رِبِّكَ"، أَيْ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ الْمَجِيدَ لَشَدِيدٍ، وَلَمْ يَمْتَنِعِ الْفَضْلُ، لِأَنَّهُ جَارٍ مَجْرَى الصِّفَةِ فِي الشَّدِيدِ. الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ نَعْتًا لِدُو وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى. وَاخْتَارَهُ أَبُو عُبَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ، لِأَنَّ الْمَجْدَ هُوَ النَّهَايَةُ فِي الْكَرَمِ وَالْفَضْلِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُنْعَوْتُ بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَصَفَ عَرْشَهُ بِالْكَرِيمِ فِي آخِرِ ... ، وقال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣٧٢ / ٨) ((الْمَجِيدُ) فِيهِ قِرَاءَتَانِ: الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ، عَزَّ وَجَلَّ. وَالْجُرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ، وَكِلَاهُمَا مَعْنَى صَحِيحٌ).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه في "المصنف" (٣٥٥٨١) وابن سعد في "الطبقات" (٣٤٩٤)، من حديث أبي السفر به.

تسمية الله عز وجل^(١)، يعني أنك في باب تسمية الله لا يجوز أبداً أن تسميه إلا بما سمي به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، أما الإخبار عنه سبحانه جل جلاله فجائز، كما ثبت عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا مثل هذا الكلام، قال: الطبيب رأني، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال: إني فعّالٌ لما أريد، فأمر الله نافذٌ.

وقفة: في قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إذا أيقن المرء منا أن إرادة الله نافذةٌ فليس له إلا أن يفوض أمره إلى الله و يأخذ بالأسباب بما يسر الله له، وحاله: لكن أمري يا رب بيدك، اللهم يسر لي الخير واكفني الشر، فيفوض أمره إلى الله، وكلّ قضاء يقضيه الله له كلّ خير، فالظاهر إن كان بالنسبة للإنسان شرّاً، لكنه في الحقيقة غير ذلك، فالله لا يقضي للمؤمن أيّ قضاء هو في حقيقته شرّاً أبداً، روى الامام مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "عَجَبًا لِمَا مَرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"^(٢)

قال الله سبحانه جل جلاله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(٣) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ^(٤) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ^(٥) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ^(٦) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ^(٧) ثم انظر إلى ختام هذه الصورة فهو ختامٌ باهرٌ، قال الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ^(٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ^(٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ^(٩) وَاللَّهُ

(١) قال ابن القيم رحمه الله في "بدائع الفوائد" (١/ ٢٨٤) ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته العليا.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٩٩) وأحمد في "مسنده" (١٨٩٣٤)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

مِنْ وَرَائِهِمْ مُجِيطٌ ﴿١٦﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿١٧﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿١٨﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ فما المناسبة من ذكر ذلك؟

المناسبة أن المرء عندما يقرأ هذه القصة في سورة اسمها سورة البروج، وتحدث عن قوم طغاة جبابرة، قتلوا المؤمنين بل أحرقوهم بالنار وهم أحياء، فيقول الله لنا هل أتاك أيها التالي لسورة البروج، هل أتاك قصة فرعون و ثمود؟ هل أتاك يا محمد حديث الجنود؟

وتدبر قوله (الْجُنُودِ)، يعني جنودٌ كثيرٌ، وصدق الله لما قال عن فرعون: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠] يعني آلاف مؤلفة من الجنود لا حصر لها، يُوتَدُ مُلْكُهُ يعني يوطده و يقويه، سبحانه الله العظيم.

وهناك مناسبة جليّة في الارتباط بين أوّل السورة وآخرها:

ففي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود ؛ لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى وادّعى الربوبية، كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه: ألك ربٌ غيري؟

ولتعذيب فرعون بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء، وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية، إذ موسى - عليه السلام - قدّم لفرعون من آيات ربه الكبرى، فكذب وعصى، والغلام قدّم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام ؛ إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوي عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون.

وكذلك آمن السحرة ؛ لما رأوا آية موسى، وخروا لله سجداً، وهكذا هنا آمن الناس برب

الغلام، فوق الملك فيما وقع فيه فرعون، إذ جمع فرعون السحرة؛ ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فانقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيماناً بهم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان في الكل عظة وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه - والله تعالى أعلم.^(١)

واسأل الله العظيم ذا الجلال والاکرام المقتدر أن يرينا آياته الباهرات في ظلمة اليوم، الجابرة المفسدين الذين سجنوا المسلمين، والذين قتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ويؤذونهم ويحاربونهم ويضطهدونهم، لا شيء إلا أنهم يقولون ربنا الله سبحانه جل جلاله، ونسأل الله أن يُعجلَ بهلاكهم وأن يبذل المسلمين خيراً منهم بقدرته وبِعظمته إنه جواد كريم سبحانه وبحمده.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۖ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝﴾ قال الحافظ ابن كثير:
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: هم في شكٍّ ورَيْبٍ وكُفْرٍ وعِنَادٍ، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: هو قَادِرٌ عَلَيْهِمْ، قَاهِرٌ لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَ.^(٢)

فمن ذا الذي يفوت الله؟ ومن ذا الذي يغلب الله؟ ومن ذا الذي يمكر مكرًا ويخفي على الله عز وجل؟ لا أحد.

ثم يشني الله على كتابه العظيم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۖ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ۝﴾ قرآنٌ عظيم، كلامُ ربِّ العالمين، في لوحٍ محفوظٍ، ألا وهو اللوح المحفوظ الذي في السماء، هذا اللوح المحفوظ محفوظٌ من الزيادة والنقصان، محفوظٌ من التبديل والتغيير، كلام الله محفوظٌ لا يُزاد فيه ولا

(١) ينظر "تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشيخ عطية سالم (٨/ ٤٨٨)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٧٣).

يُنْقِصُ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] سبحانه جل جلاله .

وقفه: في قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقيل إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية: قد قُتِلَ عدوُّ الله فبايع، فكتب إليه: إذا بايع الناس كلُّهم بايعتُ، فقال الحجاج: والله لأقتلنك، فقال ابن الحنفية: إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرةً في اللوح المحفوظ، في كلِّ نظرةٍ ثلاثمائة وستون قضيةً، فلعل الله تعالى أن يجعلني في قضيةٍ منها فيكفيني، فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك: فأعجبه قوله، وكتب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلافٌ، فافرق به فهو يأتيك ويبايعك.

وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - إن لله ثلاثمائة وستين نظرةً - إلى ملك الروم، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدده بجميعِ من الجنود لا يطيقها أحدٌ، فكتب بكلام ابن الحنفية، فقال ملك الروم: إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك، وإنما خرج من بيت نبوة: ^(١)

إذا أراد الله سبحانه جل جلاله أن يكتب ويُمضي قَدَرَه على هذا الظالم الذي يأمر وينهى ويقتل ويسجن ويهدد المسلمين، ففي طرفه عين - والله - لا يملك هذا الظالم لنفسه نفساً، ولا يملك صحةً ولا حياةً ولا نشوراً، فمولانا عز وجل قادرٌ بقوله (كن) أن يشفي صدور الضعفاء، ولكن علينا فعلاً أن نلجأ إلى الله، حتى نكون أهلاً لنصره، نلجأ إليه ونتوب إليه، فنسأل الله سبحانه جل جلاله أن يشفي صدور المؤمنين، وأن ينصر عباده الضعفاء، وأن يخذل المتكبرين المتجبرين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة البروج بحمد الله ومنتته

(١) ينظر "البداية والنهاية" لابن كثير (٩/ ٣٩).

﴿سُورَةُ الطَّارِقِ﴾

سورة الطارق، مكية بالاتفاق، وآياتها سبع عشرة، نزلت بعد سورة البلد^(١)

مناسبتها لما قبلها:

أنه ابتدأ هذه بالحلف بالسماء كالسورة قبلها، أنه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن، وهنا وصف القرآن بأنه القول الفصل، وفيه ردّ على أولئك المكذبين.

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ التَّجَمُّ الثَّقِيبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا

حَافِظٌ ﴿٤﴾

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ التَّجَمُّ الثَّقِيبُ ﴿٣﴾﴾

والسماء والطارق ، قسمان أقسم بهما الله سبحانه - جل جلاله - ، يقسم بالسماء ، بخلقها العظيم ،

قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾﴾

[الذاريات: ٧، ٨] ، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧] ،

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (٣٤٧ / ١٥) أَخْرَجَ ابن الضريس، وابن مردويه والبيهقي عن ابن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نزلت ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ بمكة، وقال ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٦٤) وهي

مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

فربنا - جل جلاله - يقسم بالسماء ، ويقسم بالطارق ، والطارق فسره الله تعالى بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ، نجم في السماء ، هذا النجم طارقٌ ، ولا يقال له طارقٌ ، في الغالب ، إلا إذا كان يطرُق ليلاً ، وعلى ذلك هذا النجم يظهر بالليل ، وقيل له ثاقب أي ، شديد اللمعان يثقب بالليل ، قال ابن عباس رضي الله عنه وقتادة (الثَّاقِبُ) أي ، يَتَوَقَّدُ ضِيَاؤُهُ وَيَتَوَهَّجُ ^(١) ، وقيل هو نجم يرمى به الشياطين ، يثقب الشيطان إذا رُمِيَ به ^(٢) ، وكان النبي - ﷺ - " إِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ لَيْلًا ، فَلَا يَأْتِيَنَّ أَهْلَهُ طُرُوقًا ، حَتَّى تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةَ ، وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةَ " ^(٣) أي ، فالناس قديماً ، لم يكن عندهم وسائل اتصال ، فنهى النبي - ﷺ - إذا كان الإنسان غائباً عن أهله مدة ، ألا يأتيهم بغتة بالليل ، بل يعلمهم ، حتى يتأهبوا ويستعدوا لاستقباله ، والآن والحمد لله وسائل الاتصال ، من هواتف ، وما شابه ذلك قربت الأمور ، ويسرتها ، فمن الممكن أن يتصل من بأقصى مكان في العالم - بفضل الله سبحانه جل جلاله - بأهله ، ويخبرهم بموعد مجيئه ، وكان النبي - ﷺ - أيضاً يستعيد

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٨٨ / ٢٤) الَّذِي يَطْرُقُ لَيْلًا مِنَ النُّجُومِ الْمُضِيَّةِ ، وَيَخْفَى نَهَارًا ، وَكُلُّ مَا جَاءَ لَيْلًا فَقَدْ طَرَقَ وساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه وقتادة ، وقال في (الثَّاقِبُ) يَتَوَقَّدُ ضِيَاؤُهُ وَيَتَوَهَّجُ وساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة ومجاهد وقتادة ، و قال البغوي في "معالم التنزيل" (٣٩١ / ٨) الطَّارِقُ " النَّجْمُ يَظْهَرُ بِاللَّيْلِ ، وَمَا أَتَاكَ لَيْلًا فَهُوَ طَارِقٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أَيِ الْمُضِيِّ الْمُنِيرِ .

(٢) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" عن السدي (٢٤٦ / ٦) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" القرطبي وذكره أبو الليث السمرقندي في "بحر العلوم" (٥٤٦ / ٣) عن الحسن البصري رحمه الله قال: يعني هو النجم حين يرسل على الشياطين فيثقبه يعني فيحرقه .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٨٠٠) ، ومسلم في "صحيحه" (١٩٢٨) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، به

بقوله "وَمِنْ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقٌ يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ"^(١)

والقسم في قوله تعالى "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ" قد ذكرنا قبل ذلك مراراً، أن ربنا - الجليل - في كتابه العظيم ، أقسم بأشياء كثيرة من مخلوقاته، أقسم بالسماء، وأقسم بالضحى، وأقسم بالليل، وأقسم بحياة الرسول - ﷺ - ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] ، وأقسم بغير ذلك من المخلوقات^(٢)، أما نحن فلا يجوز للعبد المسلم أن يقسم إلا بربه - عز وجل - ، فالله - جل جلاله - لا يسأل عما يفعل ، ونحن نسأل ، والنبي - ﷺ - قال «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣) ، وقال «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٤) ، لا يجوز للإنسان أن يحلف بالنبي - ﷺ - ، أو بالنعمة ، أو برحمة أبيه ، أو بالغالي ، أو بغير ذلك ، إنما يحلف بالله ، كما قال رسول الله - ﷺ - .

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ، قال سفيان ، كل ما قال الله لنبية - في كتاب الله تعالى - وما أدراك فقد أعلمه إياه ، وأما وما يدريك فلم يعلمه إياه^(٥) ، وهذا في الغالب ،

(١) (صحيح) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٣٥٩٩) والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٥٣٤) والطبراني في "المعجم الأوسط" (٥٤١٥) ولفظه عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَالَ: كُنْتُ أَقْرَعُ بِاللَّيْلِ... وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٧٣٨) (٦/ ٥٣٤)

(٢) كما في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ، كما في قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى﴾ ، كما في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ، كما في قوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾ ، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ ، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ، ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ ، ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٧٩) ، ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦) ، واللفظ له ، من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - ، به .

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٢٥١) ، والترمذي في "سننه" (١٥٣٥) ، وابن ماجه في "سننه" (١٦٢٠) ، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٠٤٢) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - ، به .

(٥) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٢٠٧) عَنْ سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ: {وَمَا يُدْرِيكَ}، فَلَمْ

أن ما قال الله لنبيه - ﷺ - وما أدراك فأخبره به ، " وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ " فسرهما ، " التَّجْمُ الثَّاقِبُ " ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣] ، الساعة متى علمها ، لا يعلمها إلا الله - عز وجل - ، هذا في الغالب

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي ما من نفس إلا وعليها حافظ ، يحفظ أفعالها ، ويحفظ أقوالها ، ويحفظ سرها ، وعانياتها كل النفوس المؤمنة والكافرة ، النفوس الصالحة ، والنفوس الطالحة ، المطيعين ، والعاصين ، كلهم عليهم حافظ من الله - سبحانه جل جلاله - ، ملائكة من الله - تبارك وتعالى - يحفظون أعمال العباد ، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] فإذا أيقنت أنك عليك حافظ يحفظ أعمالك ، يحفظ أقوالك ، يحفظ حركاتك وسكناتك ، تعلم أن الله مطلع عليك ، فتتقي الله فلا تفعل إلا الخير ، ولا تنوي إلا الخير ، وتصرف نفسك عن الشر صرفاً ، ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ وقد خصه الله والمؤمن بمزية جليلة ، في قوله تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ، معقبات أي ، كما نص السلف الصالح من الصحابة وغيرهم ، أن الملائكة تتعاقب على العبد المؤمن ، ما من مؤمن إلا وهناك ملكان يتعاقبان عليه بالليل والنهار ، يحفظانه مما لم يقدره الله ، يحفظانه من الإنس ، والجن ، والهوام ، فإذا جاء قدر الله ، خليا بينه وبينه إذا ، هما يحفظانه بأمر الله تعالى^١ لهم ، يحفظون هذه

يُخَبِّرُهُ، وَمَا كَانَ {وَمَا أَدْرَاكَ} [الحاقة: ٣] فَقَدْ أَخْبَرَهُ.

(١) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (١٣/٤٥٦) و" المعقبات " التي تعتقب على العبد وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت بالنهار أعقبته ملائكة النهار ، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكة النهار ثم أعقبته ملائكة الليل .

النفس الصالحة في نومه ،وفي يقظته ،يحفظانه من الهوام ،والسباع ،وغير ذلك بفضل الله ،ورحمته ،
وكرمه له

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ ۝٦
إِنَّهُ وَعَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۚ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝٨﴾

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ﴾ الله تعالى ينبه الإنسان ،حتى لا يطغى ،ولا يتكبر ،ولا يتجبر ،ولا ينسى أنه عبد ضعيف ،وكذلك حتى يستكين لربه ومولاه ،انظر كيف خلقك الله من ماء مهين ،وخلق أباك من تراب ،خلق الله آدم من تراب ،وخلق بنيه مما ذكره الله في هذه الآية ،﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [المرسلات: ٢٠] أي ،من ماءٍ ضعيفٍ ،الله - العظيم الجبار- الذي خلق الإنسان من ماء مهين ، وخلقه من ماء دافق ، وخلق أبا البشر من تراب ، أليس قادر على أن يعيد هذا الإنسان للعرض ،والحساب يوم القيامة ،قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ دَلِيلَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾ [العنكبوت: ١٩] ،وهذه هي الفائدة العظمى من قول ربنا تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ﴾ يتدبر ،يتفكر ،كما قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: حتى يعلم ضعفه ، وضعف المادة التي خلق منها ^(١) ، خلقت يا ابن آدم ضعيفاً ، فكيف تتكبر على ربك ، كيف تترك أمره ، كيف تعصي الله - سبحانه - ،كيف تبارزه بالمعاصي ،كيف تؤذي أوليائه ، كيف تتخلى عن طاعة ربك ومولاك ، وأنت لا غنى لك عن الله

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٧٥)

طرفه عين ، لا غنى للعبد منا عن ربه طرفه عين ، بل نحن في أمس حاجة الى الله أعظم ، من حاجتنا للهواء ، والماء

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٧) الصلب، صلب الرجل أي، صلبه الذي في ظهره^(٨)، الذي يسميه الناس سلسلة الظهر، "يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" أي، ترائب المرأة، وترائب المرأة موضع القلادة منها^(٩)، موضع القلادة التي تتقلد بها المرأة ، فأت أيها الإنسان ،خلقك الله تعالى من ماء ، خرج من أبيك هذا الماء ، يخرج من بين صلبه ،أي في الظهر ،و من ترائب الأم ،وهذه حِكْمٌ عظيمةٌ شاءها ربُّ العزة - سبحانه جل جلاله - لبقاء نوع الإنسان ،حتى تستمر هذه الحياة .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾^(٨) وهناك وجهان في معنى الآية عند أهل العلم وهما:

الوجه الأول: قال جماهير أهل العلم من المفسرين ، ومعنى ذلك أنه على إحيائه بعد مماته لقادر ،ولا يعجزه ذلك^(٩) قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩] ، بلى سبحانه - جل جلاله - ،وقال تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٨) [يس: ٨١]

(١) ينظر القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٢٠٦)

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٤ / ٢٩٤) (التَّرَائِبُ : مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ مِنْ صَدْرِ الْمَرْأَةِ) وساقه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي عياض .

(٣) قاله الطبري " جامع البيان " (٢٤ / ٢٩٩) ، وكذلك الثعلبي في " الكشف والبيان " رجحه (١٠ / ١٨٠) ، وذكره الماوردي في " النكت والعيون " (٦ / ٢٤٧) عن الحسن وعكرمة ، وذكره ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورجحه .

وهذا القول هو الذي عليه جماهير أهل التفسير ، أن الله تعالى قادر على أن يعيد الإنسان مرة ثانية ، ويرجعه بعد الموت يبعثه للحساب بين يدي الله - سبحانه جل جلاله - . **الوجه الثاني:** أنه على رجعه ، أي على رجوع الماء الدافق ، يرجعه رب العزة - سبحانه جل جلاله - في صلب الرجل ، وإلى ترائب المرأة ، ربنا قادر ، ولا يعجزه شيء سبحانه ، وبحمده^(١) ،

ولكن القول الأول هو الذي عليه جماهير أهل التفسير والله أعلم .

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وهذه الآية تؤيد والله أعلم^(٢) ، قول أهل العلم الذين قالوا ، أن المراد رجوع الإنسان ، أن الله يرجعه بعد موته ، يحيه ، ويبعثه للعرض ، والنشور بين يدي رب العالمين - سبحانه جل جلاله - ، أنه على رجعه لقادر ، أي ليس هذا الآن ، إنما هو ، يوم تبلى السرائر ، نسأل الله أن يلفظ بنا - يوم تبلى السرائر ، تبلى أي تختبر السرائر^(٣) أي ، ما أسره الإنسان ولم يعلنه أمام الناس ، يوم القيامة يظهر ، ويطلع عليه ويكون ظاهراً ، بادياً ، فيا حسرة من أسر سريرة سيئة ، و يا سعادة من أسر سريرة حسنة ، فالعبد يجب عليه أن ينوي الخير ، لا ينوي الشر ، فإن العبد إن نوى سريرة خير جُوزي بها ، وإن نوى سريرة شر جُوزي بها أيضاً ، هذا غير الخاطر ، وحديث النفس ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " تَجَاوَزَ اللَّهُ لَأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ " ^(٤) ،

(١) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٤ / ٢٩٨) عَائِدَةٌ عَلَى الْمَاءِ . وَقَالُوا : مَعْنَى الْكَلَامِ : إِنَّ اللَّهَ عَلَى رَدِّ النُّطْفَةِ فِي الْمَوْضِعِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ {لِقَادِر} وساقه بسنده عن عكرمة ومجاهد والضحاك .

(٢) كما نص على ذلك الطبري " جامع البيان " (٨ / ٣٧٦)

(٣) قال الطبري رحمه الله " جامع البيان " (٢٤ / ٣٠٠) يَوْمَ تُخْتَبَرُ سَرَائِرُ الْعِبَادِ ، فَيُظْهِرُ مِنْهَا يَوْمَئِذٍ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا مُسْتَخْفِيًا عَنْ أَعْيُنِ الْعِبَادِ ، مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي كَانَ اللَّهُ أَلْزَمَهُ إِيَّاهَا ، وَكَلَّفَهُ الْعَمَلَ بِهَا .

(٤) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٢٦٩) ، ومسلم في " صحيحه " (١٢٧) ، من حديث أبي هريرة

وقفة: هناك خاطر يخطر على النفس، وهناك حديث للنفس، وهناك هم، وهناك عزم، فأما حديث النفس، والخطر، فهذا لا يؤاخذ به العبد، وأما العزم، والهَمُّ لا شك أنه يكتب في الحسنات، ويكتب أيضاً في السيئات، وقد كان السلف يوصون أبناءهم بذلك، فكان الإمام أحمد يقول لابنه، يا بني انو الخير فانك بخير ما نويت الخير^(١)، ورسولنا الكريم - ﷺ - قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى، «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٢)، سبحانه وبحمده، فكم من أناس يُسِرُّون وفي باطنهم حقداً، وحسداً، ووضغينةً، وشرّاً لعباد الله السلمين، هؤلاء يأتون يوم القيامة - والعياذ بالله -، بحسنات كأمثال الجبال، فأمرض القلوب هذه، تذهب بحسناتهم، نسأل الله العافية، والسلامة، وآخر يأتي وقد حمل قلباً طيباً، سليماً، محباً للخير لعباد الله يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم لألمهم، هذا يأتي يوم القيامة ولعل عمله قليل، ولكن تعظمه هذه النية الصالحة، كما قال سلفنا الصالح، كم من عمل قليل عظمته النية، وكم من عمل كبير صغرته النية^(٣)، اللهم استرنا، ولا تفضحننا يا رب العرش العظيم، والطف بنا يوم تبلى السرائر.

ﷺ، به.

(١) رواه ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ في "الآداب الشرعية" (١/ ١٣٣) عن عبد الله بن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٩١)، ومسلم في "صحيحه" (١٣١)، من حديث ابن

عباس رَحِمَهُ اللَّهُ، به.

(٣) كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: "رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تَعْظُمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ." ينظر

"جامع العلوم والحكم" لابن رجب (١/ ٦٩).

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ليس له قوة يتقوى بها ، وليس له ناصر ينصره ، ليس له من دون الله ولي ولا شفيع ، من ذا الذي ينصره من دون الله ، ومن ذا الذي يقويه ، فما له من قوة ولا ناصر^(١) ، لا حول للعبد ، ولا قوة إلا بالله - عز وجل - .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤْيَا﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرجع أي، المطر ، ويعني السحاب المحمل المثقل بالمطر ، وقيل لها ذات الرجع ، لأن السماء ترجع بالمطر مرة بعد مرة ، عاما بعد عام ، كل عام السماء تمطر مرة ، وهكذا^(٢)

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ذات التشقق ، تشقق الأرض ، كذلك^(٣).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ كلام الله القرآن الكريم ، كلام عظيم ، ليس ككلام البشر فهو كلام رب البشر ، سبحانه ، كلام فصل حَكَم ما بيننا ، وفيه نبأ من قبلنا ، وفيه أخبار

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٣٠١) عن قتادة قال: مِنْ قُوَّةٍ يَمْتَنِعُ بِهَا، وَلَا نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ مِنَ اللَّهِ.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي " جامع البيان " (٢٤ / ٣٠٤) تَرْجِعُ بِالْغُيُومِ وَأَرْزَاقِ الْعِبَادِ كُلِّ عَامٍ وَسَاقَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعِكْرَمَةُ وَمَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ /

٢١٥) تَرْجِعُ كُلُّ سَنَةٍ بِمَطَرٍ بَعْدَ مَطَرٍ كَذَا قَالَ عَامَةُ الْمُفْسِّرِينَ .

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٧٦) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ

النَّبَاتِ . وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ

وَاحِدٍ .

من بعدنا ، من أخذ به ، وعمل به سعد ، وفاز ، وأفلح ، ومن تركه خلف ظهره ، شقي ، وتعس -
نسأل الله العافية والسلامة- ، هو حبل الله المتين ، من عمل به أجر ، ومن أقبل عليه سعد في الدنيا
والآخرة ، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما لما قال : تكفل الله لمن قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ألا يضل في
الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة^(١) ، اللهم اجعلني وإياكم منهم يا رب العالمين ، اللهم اجعلنا ممن
أقبلوا على القرآن ، علما وعملا ودعوة إليه ، وصبرا عليه ، يا رب العالمين ، واجعلنا ممن سعدوا في
الدنيا والآخرة ، يا ذا الجلال والإكرام ،

يقول الله - عز وجل :- ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۚ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۚ ﴾^(١٤) لذلك لا يجوز أبدا لعبد
من العباد أن يهزل بالقرآن ، بعض الناس قد يأتي ببعض الآيات من كتاب الله ، ويمزج بها ، فهذا
الفعل حرام بلا خلاف ، كأن يقول " خذها ولا تخف " ، أو يعطي إنسان الكتاب مثلا ويقول " **خذ الكتاب بقوة** " ، لا يجوز ، هذا كلام الله ، ينزه عن ذلك ، ويعظم ، ويبجل ، كلام الرب -
الجليل سبحانه وبحمده - .

ثم يخبر ربنا عن حال عباده ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ ﴾^(١٥) أي الكافرين ، يكيّدون بالمسلمين
، إنهم يكيّدون كيّداً ، ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا ۚ ﴾^(١٦) سبحانه يا رب ما
أعظمك من إله ، وما أكرمك ، رب جليل يحب عباده الصالحين ، ويكره ، ويبغض الكافرين ، ربنا
تعالى لا يحب الكفر ولا الكافرين ، قال عن نفسه : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا
يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۝ ﴾ [الزمر : ٧] سبحانه وبحمده ، فهؤلاء الكفار

(١) (صح موقوفا عن ابن عباس رضي الله عنهما) أخرجه عبد الرزاق في " مصنفه " (٦٠٣٣) ، وابن أبي شيبة في " مصنفه "

(٢٩٩٥٥) ، والحاكم في " المستدرک " (٣٤٣٨) ، ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : " مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ

مَا فِيهِ هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ

هُدَاهُ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۚ ﴾ [طه : ١٢٣] ، وينظر " السلسلة الضعيفة " للألباني (٤٥٣١)

المجرمون ، الذين يمكرون بالإسلام وأهله ، ويكيدون بهم ، ربنا سبحانه يكيد بهم ، ويأتيهم الله من حيث لا يحتسبون ، سواء علمنا أو لم نعلم ، سواء رأينا ذلك أم لم نره ، هذه سنة الله ، والواجب علينا أن نلجأ إلى الله ، ونستمسك به ها هم من أول بعثت رسول الله - ﷺ - كادوا به وجمعوا الجموع ، وجاءوا في يوم بدر يريدون ليطفئوا نور الله ، ويستأصلوا رسول الله - ﷺ - . ومن معه ، فكاد الله بهم ، وأمطر مطرا ليلة بدر ، هذا المطر نزل على المؤمنين أصابهم طل خفيف ، وكما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصَاثُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝﴾ [الأنفال: ١١] سبحانه وبحمده ، وأصاب الكفار ، فكانت الأرض وحل من تحت أرجلهم ، واستدرجهم الله تعالى سبحانه إلى حتفهم ، وقتلهم ، فقتلوا جميعا إلى نار جهنم وبئس القرار^(١) ، جاءوا يوم الأحزاب جمعوا الجموع ، وجاءوا بآلاف مؤلفة ، لا قبل للمسلمين بها ، وجاءوا يريدون أن يستأصلوا الإسلام وأهله ، جاءوا إلى المدينة ، والله ردهم ، أرسل عليهم ريحا ، فرق جمعهم ، وشتت شملهم ، ودمرهم الله تدميرا ، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٥]^(٢) وعلى مدار الزمان ، منذ ذلك الزمان الأول إلى يومنا هذا ، الكفار ليل نهار ، يمكرون بالمسلمين ، يكيدون بهم ، وها أنت ترى يكيدون يوما بالدولة الإسلامية الفلانية ، ويكيدون في اليوم التالي بالدولة الأخرى وهكذا ، وهكذا فالآن الأمر أصبح واضحا أمام عينيك ، ولكن الله تعالى يطمئن عباده - أهل الاسلام - بقوله ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ ، إذا كان الله العظيم الذي لا يخفى عليه شيء ، والذي الملك كله ملكه ، يكيد كيدا بأعدائه الذين يكيدون بأوليائه ، فأبشر فإن كيد

(١) راجع تفصيل غزوة بدر الكبرى في "السيرة" لابن هشام (١/ ٦٠٧).

(٢) راجع تفصيل غزوة الخندق في "السيرة" لابن هشام (٢/ ٢١٤).

الكفار سيذهب هباءاً منثوراً ، وسيثبت الله أقدام أهل الايمان ، ويقويهم ، ويوطد ملكهم ، ويعزهم ، وينصرهم ولكن متى ذلك ؟ إذا كان المسلمون عباد لله حقاً ،

فهنا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

[الحج: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ، ولا يجوز للعبد أن

يأخذ من هذه الآية اسماً لله ، ويقول من أسماه الله الكائد - حاشا لله - ، هذه الصفة ذكرت ولكن لا يجوز أن تنسب إلى الله على سبيل الإطلاق ، وإنما تنسب لله في مقابل كيد أعدائه بأوليائه ، كقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ

النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وقال الله تعالى: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ

فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١] ما قال الله ، فقد

خانهم ، بل قال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فالكيد والمكر ، صفات جليلة لله ،

لكن لا تثبت لله على الإطلاق ، ولا تنفى عن الله على الإطلاق ، بل تثبت لله في وقت الكمال

، وتنفى عنه في وقت النقص ، تثبت لله إذا كانت في مقابلة كيد الكافرين ومكر الماكرين ، وخداع

الكافرين^(١) ، فربنا سبحانه ، قال "فمهل الكافرين أمهلهم رويدا" مهلهم ، اتركهم سيأتي يومهم

(١) جاء في "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين" (١/ ١٧٠ - ١٧١) سئل فضيلة

الشيخ: هل يوصف الله بالمكر؟ وهل يسمى به؟

فأجاب بقوله: لا يوصف الله تعالى بالمكر إلا مقيداً فلا يوصف الله تعالى به وصفاً مطلقاً ، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِطَرِيقِ الدِّينِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ففي هذه الآية دليل على أن الله مكر ،

والمكر هو التوصل إلى إيقاع الخصم من حيث لا يشعر . ومنه جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري:

"الحرب خدعة"

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟ قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر ، وأنه

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾
[الفرقان: ٢٧ - ٢٩] أسأل الله الكريم رب العرش الكريم أن يربط على قلوبنا بالإيمان ، وأن يثبتنا على دينه ، وأن يزيدنا هدى ونورا ، اللهم اشرح لنا صدورنا ، واكفنا شر ما أهمنا في الدنيا والاخرة ، ويسر لنا الخير كله ، واكفنا السوء ، والشر وأهله . وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

انتهى تفسير سورة الطارق ، بحمد الله ومنتته

غالب على خصمه ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق ، فلا يجوز أن تقول: "إن الله مكر" وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحا مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] . وقوله: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] . ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ . ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق ، بل إنها في المقام الذي تكون مدحا يوصف بها ، وفي المقام الذي لا تكون فيه مدحا لا يوصف بها . وكذلك لا يسمى الله به فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر ، والمكر من الصفات الفعلية ؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه

وسئل رعاه الله: هل يوصف الله بالخيانة؟ والخداع كما قال الله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ؟

فأجاب بقوله: أما الخيانة فلا يوصف الله بها أبدا لأنها ذم بكل حال ، إذ إنها مكر في موضع الائتمان وهو مذموم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] ولم يقل: فخاينهم ، وأما الخداع فهو كالمكر يوصف الله تعالى به حين يكون مدحا ولا يوصف به على سبيل الإطلاق قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

﴿سُورَةُ الْأَعْلَى﴾

هي مكية^(١) وآياتها تسع عشرة، نزلت بعد سورة التكويد.

ومناسبتها لما قبلها: أن الله ذكر في تلك خلق الإنسان، وأشار إلى خلق النبات بقوله: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢]. وذكر هنا خلق الإنسان في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

وخلق النبات في قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ وقصة النبات هنا أوضح وبسيط أكثر، وخلق الإنسان هناك أكثر تفصيلاً^(٢).

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾

بدأ الله تعالى هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ أي نزهه، وعظمه، ومجّد اسم ربك الأعلى تبارك وتعالى.

(١) ممن نص على ذلك الطبري في "تفسيره" (٢٤ / ٣٠٩)، وابن عطية وحكى أنه قول الجمهور (٥ / ٤٦٨)،

والبغوي في "تفسيره" (٨ / ٣٩٦) والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢١٩)

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٢٠)

وقد كان الحبيب ﷺ يقرأ بهذه السورة في الصلاة في أكثر المواطن أهمية - ﷺ - فكان يقرأ في صلاة الجمعة بالأعلى و الغاشية ، و أيضا في العيدين كان يقرأ بسورتي الأعلى و الغاشية ، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قَالَ : «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ»، قَالَ : «وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ»^(١) و كذلك كان - ﷺ - يقرأ بها في الوتر ، كما روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عبد الرحمن بن أبزي ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ " أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْوُتْرِ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ : سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ" (٢) - رضي الله عنه - و لما أطل معاذُ صلاةَ العشاء كما جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، قَالَ : أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحِينَ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي ، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ - أَوِ النَّسَاءِ - فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ ، فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «يَا مُعَاذُ ، أَفَتَانُ أَنْتَ» - أَوْ «أَفَاتِنُ» - ثَلَاثَ مَرَارٍ : «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ ، وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»^(٣) - ﷺ - و ذكر القرطبي رحمه الله : أن عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٧٨) وأبو داود في "سننه" (١١٢٢) والترمذي في "سننه" (٥٣٣)

والنسائي في "سننه" (١٤٢٤) ، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، به .

(٢) (صحيح) رواه أحمد في "مسنده" (١٥٣٥٤) والنسائي في "المجتبى" (١٧٤٨) ، من حديث عبد الرحمن بن

أبزي ، به . وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٢٧٥)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٥) ، ومسلم في "صحيحه" (٤٦٥) ، من حديث جابر رضي الله عنه ،

وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا قرأوا سبح اسم ربك الأعلى يقولون سبحان ربي الأعلى، فقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَبِي مُوسَى وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا افْتَتَحُوا قِرَاءَةَ هَذِهِ السُّورَةِ قَالُوا: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ فِي ابْتِدَائِهَا. فَيُخْتَارُ الْإِفْتِدَاءُ بِهِمْ فِي قِرَاءَتِهِمْ، لَا أَنَّ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الزَّيْغِ^(١) والمرءُ منا واجبٌ عليه أن ينزهه ربه، ويعظمه.

والإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره قال عن المقصود بقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾: هو تنزيه المسمى وليس مجرد الاسم

وكثيرٌ من أهل التفسير أجروا الآية على ظاهرها فقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزه اسم ربك الأعلى جل جلاله، أما الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قِيلَ: نَزَّهُ رَبَّكَ عَنِ السُّوءِ، وَعَمَّا يَقُولُ فِيهِ الْمُلْحِدُونَ. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ الْمَعْنَى نَزَّهُ اسْمَ رَبِّكَ عَنْ أَنْ تُسَمَّى بِهِ أَحَدًا سِوَاهُ. وَقِيلَ: نَزَّهُ تَسْمِيَةَ رَبِّكَ وَذِكْرَكَ إِيَّاهُ، أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا وَأَنْتَ خَاشِعٌ مُعْظَمٌ، وَلِذِكْرِهِ مُحْتَرَمٌ. وَجَعَلُوا الْإِسْمَ بِمَعْنَى التَّسْمِيَةِ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى. رَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَا تَقُلْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ هُوَ الْأَعْلَى^(٢).

فنزه اسم ربك الأعلى سبحانه، الذي خلق فسوى وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية العظيمة

(١) ينظر "تفسير القرطبي" (٢٢٠ / ٢٢) وهذه الآثار رواها الطبري في "تفسيره" (٣٠٩ / ٢٤) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٢٠ / ٣).

(٢) ينظر "تفسير القرطبي" (٢٢٠ / ٢)

قال الرسول -ﷺ- لأصحابه: اجعلوها في سجودكم^(١) أي قولوا في السجود (سبحان ربي الأعلى) -تبارك الله الأعلى جل جلاله-.

وقفة: العبد منا عندما ينزل بأشرف شيء ألا وهي جبهته وناصيته ووجهه، ويخر الله العظيم ساجداً، ويضع ذلك على الأرض، ويقول سبحان ربي الأعلى، ينبغي عليه أن يتذكر ويستحضر عظمة الله، وأنه لا أعلى من الله، فهو الأعلى - سبحانه جل جلاله -، أمره الأعلى، وقضاؤه الأعلى، وفعله الأعلى - سبحانه جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالى صفاته -، فربنا له الأسماء الحسنى والصفات العليا - سبحانه وبحمده^(٢) -.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ الذي خلق فسوى أي: الذي خلق الخلق فسواه على أكمل صورة فخلق الإنسان فسواه في أبهى صورة كما روى الإمام أحمد في مسنده عن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَرَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: ابْنُ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ^(٣) " و أيضاً **﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾** أي خلق الله سبحانه جل جلاله الخلق وأحكمه انظر إلى السماء، كما قال الله تعالى

(١) (ضعيف) رواه أبو داود في "سننه" (٨٦٩) وابن ماجه في "سننه" (٨٨٧) وأحمد في "مسنده" (١٧٤١٤)

وضعه الألباني في "إرواء الغليل" (٣٣٤) عن عتبة بن عامر، قال: لما نزلت **﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾**

[الواقعة: ٧٤]، قال رسول الله -ﷺ-: "اجعلوها في ركوعكم" فلما نزلت **﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾**

[الأعلى: ١] قال: "اجعلوها في سجودكم"

(٢) عقد ابن القيم في "كتاب الصلاة" (٣٦١) فصلاً ماتعاً عن الخشوع في السجود.

(٣) (حسن) رواه ابن ماجه في "سننه" (٢٧٠٧) وأحمد في "مسنده" (١٧٨٤٢)، من حديث بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٠٩٩)

عنها: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّنَهَا﴾ [النازعات: ٢٨] يعني جعل سمك السماء عالياً جداً مرتفعةً و محكمةً غاية الإحكام و في الحديث - وإن كان فيه ضعفٌ - سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام و ما بين سماء و سماء مسيرة خمسمائة عام

وقفة: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام و سمك السماء خمسمائة عام و ما بين السماء والسماء خمسمائة عام، سبع سماوات و فوقها الكرسي ثم فوق ذلك عرش الرحمن جل جلاله تبارك وتعالى ولا يخفى عليه شيءٌ من أقوال عباده، ولا أعمالهم سبحانه الله العظيم.^{١)}

(١) (ضعيف) رواه الترمذي في "سننه" (٣٢٩٨) وأحمد في "مسنده" (٨٨٢٨) ولفظ الترمذي: عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: حَدَّثَ الْحَسَنُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَمَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ إِذْ آتَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا الْعَنَانُ هَذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونَهُ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا فَوْقَكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الرِّقِيعُ، سَقْفٌ مَحْفُوظٌ، وَمَوْجٌ مَكْفُوفٌ»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءَيْنِ، مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَواتٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بَعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الْأَرْضُ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَى، بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرْضَيْنِ، بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَيْتُمْ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَيُرْوَى عَنْ أَيُّوبَ، وَيُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، وَعَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، قَالُوا: لَمْ يَسْمَعْ الْحَسَنُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَاَنْظُرْ حَكَمَ الشَّيْخِ الْأَبَانِيِّ عَلَيْهِ فِي ضَعِيفِ التِّرْمِذِيِّ وَضَعِيفِ الْجَامِعِ (٦٠٩٤)

خلق السماء فسواها وأيضاً ولا يرى العبد فيها من فتور، وكذلك خلق الأرض سواها، وأحكمها، ودحاها، أخرج منها ماءها، ومرعاها، هكذا رب العزة سبحانه جل جلاله خلق الخلق كله فأحكمه وسواه على أبهى صورة وأكملها.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ سبحانه جل جلاله، وتباركت أسماؤه، ولأهل العلم اوجهاً في المقصود بقوله تعالى: (قَدَّرَ فَهَدَىٰ) ومنها:

الوجه الأول: أي: قدر لك الإيمان، وهذا أغلى وأعلى وأعز ما قدره الله للعبد في الدنيا، وهداه الله له -اللهم لك الحمد يا رب العالمين- قدر الله للعبد أن يكون مؤمناً، وهداه أن يسلك سبيل المؤمنين، فهداه لأن يصلي، ويقرأ القرآن، ويسبح الرحمن، ويذكر الله، ويبر الوالدين، ويتقي الله في عباد الله (قَدَّرَ فَهَدَىٰ) قدر للعبد الإيمان، ويسر له سبيله، كما قال ربنا تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] (قَدَّرَ فَهَدَىٰ) قدر للعبد السعادة، ويسر له أسبابها، فيتقي العبد ربه ويخافه، ويؤدي الأمانات، و قدر على أقوام -نعوذ بالله- الشقاوة و هداهم لها وهذا من تمام الخذلان.^(١)

وقفه: أعظم الخذلان أن يكَلِّ الربُّ العظيم العبدَ الضعيفَ إلى نفسه، ويجعل الشيطان يتخبطه يميناً وشمالاً، ويجعله يسلك سبيل المفسدين، فيقع في الزنا، ويقع في القتل، ويشرب الخمر، ويؤذي الناس، ويكفر بالرحمن فلا يعظمه، ولا يعظم شرعه، ولا يعظم دينه، فيهديه لسبل الحرام؛ لأنه هان عليه، وسقط من عينه سبحانه، فلا مكانة له عند الله؛ ولذلك تركه ينعفس - والعياذ بالله - في أبواب الحرام، فكتب عليه الشقاوة ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري، (٢٤ / ٤١٩)، وذكره الماوري في "النكت والعيون" (٦ / ٣٥٦) والقرطبي في

"الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٢٣) وابن الجوزي في "زاد المسير" (٩ / ٨٨)

رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ [يونس: ٩٦] و في المقابل ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] -اللهم اجعلنا منهم اللهم واجعلنا ممن سبقت لهم منك يا رب الحسنی والسعادة و الفوز بالجنان و الرضوان يا رب العالمين -.

الوجه الثاني: (قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أي: أن الله قَدَّرَ للعباد أرزاقاً وهداهم للوصول إلى هذه الأرزاق^(١) ربنا عز وجل قَدَّرَ أن الصائد الذي يصيد السمك له رزقٌ في البحر فهدها إلى كيفية استخراج هذا السمك من البحر، وعلمه أن يأتي بالشباك ويرميها في البحر، وأن هناك علاماتٍ لأماكن تجمع الأسماك، فهذا المكان فيه أسماكٌ وهذا المكان ليس فيه أسماكٌ وهكذا ...

وقفة: قدر الله للعبد رزقاً وهداه للحصول عليه، فانظر إلى هداية الله للعبد سنين طوال حتى يصل إلى رزقه الذي قدره الله تعالى له، فالله سبحانه جل جلاله قَدَّرَ لعباده أرزاقاً، ويسر لهم أسباب طلب هذه الأرزاق، والحصول عليها، وهذا من ربوبيته تبارك وتعالى على خلقه فيشارك في هذا جميع الخلق، المؤمن والكافر، الطائع والعاصي، البر والفاجر.

الوجه الثالث: (قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أي أن الله قدر لذكران بني آدم إنثاءً، وهداهم لها، فعلمهم الله جل جلاله المناكح حتى يستمر هذا النسل^(٢)، فهداهم إلى كيفية إتيان الرجل أهله، وكذلك سائر الحيوانات قَدَّرَ الله لها ذلك حتى يستمر من أنواعها ما شاء الله تعالى لبقاء الدنيا،

وكل ذلك واردٌ في تفسير هذه الآية والقول بالعموم كما قال الطبري وغيره من أهل العلم

(١) ينظر الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ٢٥٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/ ٢٢٣) وابن الجوزي في "زاد المسير" (٩/ ٨٩).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (١٦/ ٧٩) والماوردي (٦/ ٢٥٢) والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/ ٢٢٣) وذكره وابن الجوزي في "زاد المسير" عن مقاتل (٩/ ٨٨).

هو الذي عليه أهل التفسير^(١).

والمعنى العام: أن الله تعالى قدر المقادير، وهدى العباد لها فقدر الأرزاق، وهداهم لسلك أسبابها للحصول عليها، وقدر للذكور إنثاءً، وهداهم كيف يأتون إنثاهم حتى يبقى نوعهم، وتستمر ذريتهم إلى آخر الزمان، وقدر الله الهدى ويسر له السبل؛ حتى يسلك المؤمن سبيل المهتدين، وقدر على الآخرين الشقاوة وجعلهم يسلكون سبيلها -نسأل الله العافية والسلامة-.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ الذي أخرج المرعى أي: النبات، أخرجه الله سبحانه أخضر، قال الطبري: وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ مَرْعَى الْأَنْعَامِ، مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْحَشِيشِ^(٢) (فَجَعَلَهُ غُثَاءً) والغثاء هو الذي يحمله السيل من قماشٍ، وورقٍ، وشيءٍ لا قيمة له، (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ) وكلمة أحوى يعني أسود، فبعدما كان الزرع أخضر إذا به يسود فيصير هشيماً تزرؤه الرياح^(٣).

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۖ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ تكفل الله للحبيب محمد -ﷺ- أنه سيحفظ عليه القرآن الكريم ونبينا محمد -ﷺ- أمي لا يقرأ، ولا يكتب، وإذا بالله تعالى يتحدى الفصحاء وبلغاء

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٢٣).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٢).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّبَنِى أَجْتَمَعْتَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] و كان الحبيب - ﷺ - يعالج من التنزيل شدة كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما: فَأَنَا أُحَرِّكُهَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - يُحَرِّكُهَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦-١٧] قَالَ: جَمَعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَنَاهُ جَبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جَبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ^(١) فكان - ﷺ - إذا جاءه جبريل يقرأ عليه القرآن يتعجل لكي لا ينسى، فإذا قرأ جبريل - عليه السلام -، فيقرأ معه بهرك شفته، فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا جَمَعْنَاهُ﴾ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) يعني علينا جمع القرآن لك في صدرك، و تقرأه يا محمد بعدما نقرأه عليك، لا تنسى منه شيئاً، إلا ما شاء الله لك أن تنساه.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ قال أهل العلم هذه آية باهرة للحبيب - ﷺ - يتحدثى أهل الكتابة، وأهل العلم، والعرب كانوا عندهم علماء وكان هو - عليه الصلاة والسلام - أمي لا يقرأ ولا يكتب، ورغم ذلك يحفظ هذا القرآن الكريم كله لا ينسى منه شيئاً.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥)، ومسلم في "صحيحه" (٤٤٨)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٢٢٦)

فائدة في الأسباب المعينة على حفظ القرآن وعدم نسيانه

يذكر علماؤنا بعض الأسباب التي تعين في حفظ القرآن الكريم وعدم نسيانه^(١) منها:

١ - أعظم هذه الأسباب هو المذكور في قول الحبيب - ﷺ - الذي رواه الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَقَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا»^(٢) يعني كثرة معاهدة القرآن، وكثرة تلاوته، وكثرة مدارسته، وقراءته، ومراجعته يُثَبِّت ما يحفظه العبد بإذن الله تعالى.

٢ - ومن أعظم الأسباب - أيضاً - ترك الذنوب لأن حفظ القرآن - سواءً كان جزءاً أو جزأين أو عشرة أجزاء أو القرآن كله - من عظيم النعم التي يمنح الله العبد إياها، فأشرف الأوقات هي التي تبذل في حفظ كتاب الله تعالى، وأجل ما يُحَصِّن العبد في هذه الحياة الدنيا هو حفظ كتاب الله تبارك وتعالى؛ فلما كان القرآن نعمةً والنعم إنما تزول بالمعاصي، وتدوم بالطاعات، كان ترك الذنوب والمعاصي من أعظم الأسباب المعينة على الحفظ وعدم النسيان.

وقفه: كم من إنسانٍ نُسِيَ القرآن الكريم بسبب المعاصي - نسأل الله العافية ونعوذ بالله من معصيته -؛ فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وهل هناك مصيبةٌ أعظم من أن يحفظ الإنسان كتاب الله وينساه؟ مصيبةٌ عظيمةٌ؛ لذلك - أيضاً - ينبغي على العبد أن يشكر الله كثيراً أن مَنَّ عليه وحَفَّظَه كتابه، قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]

(١) ينظر "التسهيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (١/ ٢٧٠)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٣٣)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩١)

٣ - كذلك من هذه الأسباب أن يكون ثابتاً على دينه، ثابتاً على هدي رسوله - ﷺ -، وأن يدعوا الله كثيراً أن يبارك الله له في القرآن الكريم، وأن ينفعه الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ٦ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لأهل العلم أوجهٌ في معنى الاستثناء في قوله تعالى: (إلا ما شاء الله) منها:

الوجه الأول: قال بعض أهل العلم (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أن ينسخه من القرآن فستنسأه^(١).

الوجه الثاني: وقيل (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أن ينسأه الرسول^(٢) أحياناً حتى يعلم الناس أنه بشرٌ، كما روى الشيخان في صحيحيهما عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: "رَحِمَهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةٍ كَذَا وَكَذَا"^(٣)، وكما في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن سالم عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ - صلى صلاةً فألبس عليه فيها، فلما انصرف قال لأي بن كعب: (أصليت معنا؟) قال: نعم قال: (فما منعك أن تفتح علي؟) ^(٤) - ينسى أحياناً حتى يعلم الناس أنه بشرٌ وحتى يعلم الغلاة الذين يغفلون في رسول

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٦) وذكره الواحدي في "السيط" (٢٣ / ٤٣٩) والبغوي في "تفسيره" (٨ / ٤٠١) والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٢٧)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٨٠).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٥) وذكره الواحدي في "السيط" (٢٣ / ٤٣٩) ونسبه لمقاتل. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (١٥ / ٣٦٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند ابن المنذر وابن أبي حاتم، وعن قتادة عند عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٥٥)، ومسلم في "صحيحه" (٧٨٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٤) (صحيح) رواه أبو داود في "سننه" (٩٠٨) وابن حبان في "صحيحه" (٢٢٤٢) والطبراني في "المعجم الكبير"

الله - ﷻ - أنه ليس بإله ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً - ﷻ - .

الوجه الثالث: وقيل أيضاً (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) بمعنى سنقرؤك فلا تنساه، أو فلا تنسى منه شيئاً إلا ما شاء الله، والنسيان هنا بمعنى الترك، والمعنى: إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما نسخه الله سبحانه وبحمده^(١).

﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۖ﴾ تبارك الله العظيم ربنا يعلم الجهر ويعلم ما يخفيه العبد، يعلم ربنا السر، ويعلم أخفى من السر .

وقفة: إذا كان العبد متناً يوقن بهذا يقيناً فلا يمكن له أن يخلو وحده في غرفته مع جواله ينظر إلى ما حرم الله، أو يذهب - عافانا الله والمسلمين - إلى مكان لا يراه فيه أحد؛ ويقع في معصية الله عز وجل، فإذا أيقن العبد متناً أن الله يعلم الجهر وما يخفى جعل قلبه سليماً طاهراً، لا يحمل حقداً، ولا حسداً، ولا ضغينة، ولا شحناً، وجعل صدره سليماً؛ لأن الله مطلع على السرائر، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۖ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠] وإذا أيقن المرء منا بذلك لا يمكن أن يخطط لأذية مسلم في السر أبداً؛ لأنه يعلم أن الله يراه سبحانه جل جلاله .

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ اليسرى هي الجنة، أو هي الطريقة السهلة؛ فيسرك لها حتى توصلك إلى الجنة .

(١٣٢١٦)، من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في كتاب "أصل صفة الصلاة" (٢) /

فإذا أراد الله سعادة العبد شرح صدره للأعمال الصالحة؛ فتجده يتصدق وهو سعيدٌ، وتجده يأتي لصلاة الجماعة وصدرة منشرجٌ؛ لذلك قال علماءنا: علامةٌ بين المؤمن والمنافق أن المنافق إذا أقبل على الصلاة يقبل كسلاناً، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، قال الطبري رحمه الله (وأما قوله: " وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس "، فإنه يعني: أن المنافقين لا يعملون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرب بها إلى الله، لأنهم غير موقنين بمعادٍ ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة إبقاءً على أنفسهم، وحذراً من المؤمنين عليها أن يقتلوا أو يُسلبوا أموالهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة، قاموا كسالى إليها، رياءً للمؤمنين ليحسبوه منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى" ^(١) أما المؤمن فيقوم منشرج الصدر، وإن كان في أعظم التعب والجهد وفي حاجة إلى النوم، لكنه يحب لقاء الله - تبارك الله ذو الجلال والاکرام -

، فالله يسر لعبده اليسرى، ويسهلها له ويسهل له العمل الصالح الذي يوصله إلى الجنة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ في المعنى أيضاً الطريقة اليسرى لحفظ القرآن الكريم، والطريقة اليسرى للشريعة الكريمة، فهذه الشريعة ما جعل الله علينا فيها من حرج، فهي يسيرةٌ سهلةٌ، جاءت لرفع الحرج عن المسلمين، وفيها أبواب يسر عزيمة شرعها الله تبارك وتعالى ^(٢).

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٩ / ٣٣١)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٦)

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ٩ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ١١ الَّذِي يَصْلَى
النَّارَ الْكُبْرَى ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ١٣﴾

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ يعني ذكر العباد إن نفعت الذكرى، والإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره ذكر عن الجرجاني رحمه الله: أن الذكرى واجبة نفعت أم لم تنفع^(١)، فواجب على العلماء أن يذكروا الناس ؛ وواجب على الدعاة أن يبلغوا عباد الله ؛ نفعت الذكرى أم لم تنفع^(٢) ، واستدلوا بقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ١٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ١٤﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] وفي قصة الأعراف: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مَنُ هُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعِذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦﴾ [الأعراف: ١٦٤] وأيضاً في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ١٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ١٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ١٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ١٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ٢٠﴾ [نوح: ٥ - ١٠]

لكن أحياناً يغلب على ظن الداعي إلى الله أن بعض العباد يستهزؤون بالشرعية، ويستهزؤون بحملة العلم، ويؤذون من يبلغهم شيئاً؛ فعندها يغلب على ظنه أنهم لا تنفعهم الذكرى؛ فإن انصرف الداعي عنهم لا يؤاخذ الله بذلك، ولذلك روى مسلم في مقدمة صحيحه أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، رضي الله عنه قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٢٩)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣١٧) .

لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ^(١)

لذلك ينبغي للداعي إلى الله أنه لو أراد تذكير الناس أن يأتي بالأسلوب اليسير، والعلم السهل، فلا يأت بغوامض العلم ويتكلم به مع الناس؛ بل يتكلم مع الناس بأصول شريعتهم، بفقه عبادتهم، بأخلاقهم، بغير ذلك مما جاءت به الشريعة الكريمة، فلا يأت بأمرٍ، ولا بكلامٍ لا تدركه عقول الناس؛ فيكون لبعضهم فتنةً، كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه - وروى البخاري في صحيحه معلقاً عن عليّ رضي الله عنه قال: «حَدَّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(٢)

وقفه: التذكيرُ نعمةٌ عظيمةٌ، وشرفٌ جليلٌ؛ لأنه حملٌ لباب الدعوة إلى الله تعالى، وصاحبه على أي حالٍ مأجورٌ، لكن أحياناً يُنظر إلى المصلحة الراجحة فإن غلب على ظن الداعي أن هؤلاء الناس بحاجةٍ إلى التذكير فيذكرهم، وإن غلب على ظنه حصولُ أذىٍ له من هؤلاء الناس، ولا يستطيع الصبر عليهم؛ فينصرف، والعبد الذي يُذكرُ الناس مأجورٌ على كل حالٍ.

﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾^(٣) يعني من الذي ينتفع بالذكرى؟ الذي يخشى الله، ويخشى عقاب الله، ويخشى الدار الآخرة، ويخشى عاقبة السوء، فهذا هو الذي ينتفع بالذكرى.

وقفه: إذا سمع العبد آيةً من كتاب الله، أو سنةً من سنة رسول الله فتذكر بها وانتفع؛ فليعلم أن الله أراد به الخير العظيم، وأنه شمله وأدخله في هذه الآية الجليلة (سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى) - اللهم اجعلنا ممن يخشاك يا رب في السر والعلانية -.

(١) (صح موقوفاً) أخرجه مسلم في "مقدمة صحيحه" (١٥)، والبيهقي في "المدخل" (٦١١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٢٧)، من حديث عليّ رضي الله عنه، به.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ فالأشقى هو الذي يتجنب الذكرى، ويتعد عنها، ولا يقبل عليها؛ فليس له حاجة في مجالس العلم، ولا الصلاة، ولا القرآن -نعوذ بالله من الشقاء -.

وانظر إلى قوله تعالى (الْأَشْقَى) المعرف بالألف واللام فهو بمعنى لا يوجد أشقى من هذا.

وقفة: إن قيل من أشقى إنسان في الدنيا كلها؟ قلنا هو الذي يعرض عن الذكرى، وهو الذي يحارب أهل القرآن، وهو الذي يحارب أهل العلم، وهو الذي يسجنهم، وهو الذي يقتلهم، وهو الذي يكرههم ويعاديهم، كحال المخدولين الذين يقولون بأننا شرعنا أن ميراث الرجل مثل ميراث المرأة، ثم يبررون ذلك بأن القانون ليس له دخلٌ بالشرع -سبحان الله، أحرص الله ألسنتهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، دين الله فوق الجميع - وهذا إلحادٌ - والعياذ بالله - وكفرٌ بالله عز وجل، وتغييرٌ للدين وحدث ولا حرج، فلا يوجد أشقى أبداً من عبدٍ يعرض عن ذكر ربه، ويعرض عن القرآن، ويعرض عن السنة، وينأى بنفسه عن كتاب الله والخير العميم.

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ التي هي أكبر النار، نارٌ وصفت بأنها ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] الحجارة ليست هي الحجارة التي تراها عادة بل هي حجارة الكبريت^(١) فهي أشد ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وربنا يقول: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] يعني لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْنُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ونادى هؤلاء المجرمون بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم، مالكا خازن جهنم (يَمْلِكُ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣ / ٤٩٢)

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) قال: ليمتنا ربك، فيفرغ من إمامتنا، فذكر أن مالكا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك، ويدعهم ألف عام بعد ذلك، ثم يجيبهم، فيقول لهم: (إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ) ^(١) - نسأل الله العافية - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦] ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] ما أعظم القرآن! هنيئاً للمجرمين بنار الرحمن عز وجل، بنار الجبار المنتقم تبارك وتعالى، وأيضاً في الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: " إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَصَارَ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، أُتِيَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُدْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، فَيَزِدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ " ^(٢) ساعتهما تزداد سعادة المؤمنين، وساعتهما يبأس أهل الكفر أشد اليأس، وتزداد حسرتهم حسرات - نسأل الله المعافاة والسلامة يا رب العالمين.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ^(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ^(١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ^(١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ^(١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ^(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ^(١٩)﴾

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ^(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ^(١٥)﴾ الله هو الذي شهد

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري، وساق الأثر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه (٢١/ ٦٤٠)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٤٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٥٠)، من حديث عبد الله

ابن عمر رضي الله عنهما، به.

هذه الشهادة (قَدْ أَفْلَحَ) (قَدْ) هاهنا للتحقيق^(١) بمعنى يقيناً (أَفْلَحَ) بمعنى فاز، وأنجح، وصار من المفلحين (مَنْ تَزَكَّى) الذي زكى نفسه بالقرآن، والذكر، والصلاة، واللجوء إلى الله، وترك المعاصي

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ وذكر اسم الله عز وجل فصلى، وبعض العلماء حملها على زكاة الفطر وصلاة العيد^(٢) ولكن هذا محمل بعيد وليس بصحيح لأن السورة مكية والزكوات إنما فرضت في المدينة^(٣).

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الله يخبر عن حال أكثر الخلق ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(١٧)

وقفه: لماذا يؤثر العبد الدنيا؟! ولماذا يركن إليها؟! فالدنيا ظل زائل وعارية مستردة فهي كما قال الله عنها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(١٨) [الحديد: ٢٠]، وكما روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا

(١) قال ابن هشام في "مغني اللبيب" (ص: ٢٣١). الحَامِسُ التَّحْقِيقُ نَحْوُ قَدْ أَفْلَحَ مِنْ زَكَاهَا.

(٢) رواه الطبري في "جامع البيان" عن أبي العالية (٢٤ / ٣٢٠)، وذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" عن أبي

سعيد الخدري وابن عمر رضي الله عنهما وابن المسيب (٥ / ٤٧٠)، وذكره البغوي في "تفسيره" عن أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه (٨ / ٤٠٢)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٣١)، و"الدر المنثور"

للسيوطي (١٥ / ٣٦٩)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢ / ٢٣٣).

يَرْجِعُ".^(١) وكما روى الإمام الترمذي في سننه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَسَاوَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٢)

فلماذا نحرص على الدنيا ونتشبث بها ونعادي من أجلها ونقصر في طاعة ربنا من أجل الدنيا؟ هذا خللٌ عظيمٌ ينبغي علينا أن نؤثر الباقي على الفاني، وما أجل ما قال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى، لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُؤَثَّرَ خَزَفٌ يَبْقَى، عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى. قَالَ: فَكَيْفَ وَالْآخِرَةُ مِنْ ذَهَبٍ يَبْقَى، وَالْدُّنْيَا مِنْ خَزَفٍ يَفْنَى^(٣) فأي عاقل يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة؟ العاقل الحازم هو الذي يؤثر الآخرة على الدنيا.

لأن الله تعالى قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) نعيمها باقي، فهنيئاً لعبدٍ بقي تعب في حياته، و تعبت صحته، وجاع، وأصابه غير ذلك من كدر الدنيا، ففي الآخرة ينادى عليه بيشري تمحو ذلك كله، كما روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا" فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٥٨) والترمذي في "سننه" (٢٣٢٣)، من حديث المستورد بن شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) رواه الترمذي في "سننه" (٢٣٢٠) وابن ماجه في "سننه" (٤١١٠)، من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩٤٣)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٢٢).

وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]"^(١)

وقفه: هنيئاً للعبد الطائع فالجنة تستحق أن تبذل لها كل غالي، وتستحق أن تترك الدنيا بأسرها من أجلها، ولو أن عبداً من العباد ملك الدنيا كلها في قبضة يده، وصارت ملكاً له، ثم أخرجها الله سبحانه في مقابل الجنة لكان ذلك قليلاً، وكان ذلك يسيراً ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ قال الله سبحانه جل جلاله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ وجهان عند أهل العلم في عود الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ هما:

الوجه الأول: هو إثارة العباد للدنيا، وإعراضهم عن الآخرة، وغفلتهم عنها هذا مكتوب في كل الكتب التي أنزلها الله ومنها صحف إبراهيم وصحف موسى .

الوجه الثاني: عُنِيَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} [الأعلى: ١٧] فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، وروى هذا القول عن قتادة، وابن زيد^(٢).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم بحمد الله ومنتها الانتهاء من تفسير سورة الأعلى

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٣٧)، والترمذي في "سننه" (٣٢٤٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٢٤)

﴿سُورَةُ الْغَاشِيَةِ﴾

هي سورة مكيةٌ باتفاق أهل العلم^(١)، وآياتها ستُّ وعشرون، نزلت بعد سورة الذاريات. ومناسبتها لما قبلها: أنه أشير في السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً، وبسط الكلام فيها هنا..^(٢)

يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ غَامِلَةٌ تَأْسِبُ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَآنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ المخاطب هو: الرسول ﷺ، وكذلك كل من قرأ هذه الآيات.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ وهل هنا بمعنى: قد؛ كما ذكر القرطبي رحمه الله - وغيره من أهل العلم - فقال: هل بمعنى قد، كقوله: هل أتى على الإنسان، قاله قطرب.

- (١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٣٨٠) أخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقال ابن عطية رحمه الله في "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٧٢) وهي مكية لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.
- (٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٣٠)

أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، قاله أكثر المفسرين^(١)، والمعنى قد أتاك حديث الغاشية، فما كنت تعلم عنها شيئاً، ولكننا أعلمناك بها.

وفي معنى الغاشية وجهان لأهل العلم:

الوجه الأول: أنها النار، وسميت النار بالغاشية لأنها تغشى الناس بِلَهِيَّهَا - نعوذ بالله منها - كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] وقال تعالى عن أهل النار: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال به سعيد بن جبير ومحمد بن كعب ومقاتل^(٢).

الوجه الثاني: أنها يوم القيامة، وسميت القيامة بذلك لأنها تغشى الناس بالأهوال، والدَوَاهِي، وقال به جمهور أهل التأويل كابن عباس رضي الله عنه، وقتادة، وابن زيد، وسفيان^(٣).
فائدة: هل الغاشية عامة تَغْشَى كل المسلمين، والكافرين، أم هي تغشى الكافرين بالعذاب

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٣٨)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٢٧)، وأخرجه عن سعيد، وابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٧٢) والرازي في "التفسير الكبير" (٣١ / ١٣٧)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٢٦) وابن عطية "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٧٢)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٨٤)، والسيوطي في "الدر المنثور" (١٥ / ٣٨١)، وقال الرازي في "التفسير الكبير" (٣١ / ١٣٧) ذكروا في الغاشية وجوهاً: أحدها: أنها القيامة من قوله ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥] إنها سميت القيامة بهذا الاسم لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك من وجوه **الأول:** أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]، **والثاني:** أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين، والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد.

فقط؟

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: (فيها قولان:

أحدهما: أنها وجوه اليهود والنصارى، قاله ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.**والثاني:** أنه جميع الكفار، قاله يحيى بن سلام^(١)

وما أجمل ما قاله فضيلة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللهُ في تمة أضواء البيان: " وهذا يقتضي أن الغاشية عامة في الفريقين، وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها، ومنهم من تغشاه بنعيمها، وهي بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به، وهي صادقة على الفريقين.

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر، بمعنى الشمول والإحاطة التامة، ومن إطلاقها على الخير، ما جاء في الحديث: «ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢).

وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالاتي:

الأول منها: وهو الغاشية في حق أهل النار - فقد غشيتهم العذاب حساً ومعنى، ظاهراً وباطناً؛ أولاً خشوعاً في ذلة، وهي ناحية نفسية، وهي أثقل أحياناً من الناحية المادية، فقد يختار بعض الناس الموت عنها، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً، ومع النصب الشديد ﴿تُصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ وكان يكفي تصلى ناراً، ولكن إتباعها بوصفها حامية؛ فهو زيادة في إبراز عذابهم، وزيادة في غشيان العذاب لهم، ثم يُسْقَوْنَ ﴿مِنْ عَيْنٍ عَائِيَةٍ﴾: متناهية في الحرارة؛

(١) ينظر " زاد المسير " لابن الجوزي (٩/ ٩٥).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٠٠) وأبو داود في " سننه " (١٤٥٥)، والترمذي في " سننه "

(٣٣٧٨)، وابن ماجه في " سننه " (٣٧٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

فيكونون بين نارٍ حاميةٍ مِنَ الخارجِ وحميمٍ مِنَ الداخلِ تُصهر منه البطون، فهو أتم في الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه،

الثاني منها: الغاشية في حق القسمِ المقابل - أهل الجنة - فقد غشيهم النعيم حساً ومعنى، ظاهراً وباطناً؛ فهو تعميمٌ كاملٌ وسرورٌ شاملٌ، فقال ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي مكتملةُ النعمة، تعرف في وجوههم نَضْرَةَ النعيم.

وهذا في شموله من الناحية المعنوية، كمقابله في القسم الأول بدلاً من خاشعةٍ في ذلةٍ ناعمة في نضرة ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ الذي سعته في الدنيا، والذي تسعى لتحصيله، أو ثوابه ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ بدلاً من عملٍ ونَصَبٍ.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَّةً﴾ منزلةٌ أدبيةٌ رفيعةٌ؛ حيث لا تسمع فيها كلمة لغوٍ ولا يليق بها، فهو إكرامٌ لهم حتى في الكلمة التي يسمعونها، كما في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ومعلوم أنها عيونٌ وأنهارٌ تجري، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، ومن لوازم العيون والأنهار، هو كمال النعيم، فأشجار ورياحين، كما قال تعالى: ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩]، وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ وهم عليها متكئون، بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء. ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ مُتَكَأً، يعني وسائد ومرافق مصفوفةٌ غير محتاجةٍ إلى من يصفُها بل صُنِّتْ بكرامة الله تعالى لعباده،

مُتَكَأْهُمْ^(١)

﴿وَرَزَائِي مَبْثُوثَةٌ﴾ أي بُسْطُ وسجاجيد مفروشة في كل مكان^(٢)، فاكتمَل النعيم من كل جانب، حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن، وما يتذوقون طعمه من شرابٍ وغيره. فيكون بذلك قد غشيتهم النعمة، كما غشيت أولئك النعمة، وتكون الغاشية بمعنى الشاملة، وعلى عمومها للفريقين، وهي صالحة لغَةٌ وشرعاً للمعذِّبين بالعذاب، وللمنعمين بالنعيم. اهـ^(٣)

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وفي بعض الروايات وإن كان فيها ضعفٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ تَقْرَأُ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فَقَامَ يَسْتَمِعُ وَيَقُولُ: "نَعَمْ، قَدْ جَاءَنِي".^(٤)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ هي وجوه الكفار، خاشعةٌ يعني: حقيرةٌ ذليلةٌ مهانةٌ، في غاية من الذلِّ والإهانة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أهل العلم اختلفوا في هذه الوجوه الذليلة، هل هي عاملةٌ في الدنيا أم

(١) قال الطبري رحمه الله " في جامع البيان " (٣٣٧ / ٢٤) (بُعِنِي بِالنَّارِ: الْوَسَائِدُ وَالْمَرَافِقُ) ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة.

(٢) قال الطبري رحمه الله " في جامع البيان " (٣٣٧ / ٢٤) ﴿وَرَزَائِي مَبْثُوثَةٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَفِيهَا تَنَافُسٌ وَبُسْطٌ كَثِيرَةٌ مَبْثُوثَةٌ مَفْرُوشَةٌ، وَالْوَاحِدَةُ: زُرْبِيَّةٌ، وَهِيَ الطَّنْفَسَةُ الَّتِي لَهَا حَمْلٌ رَقِيقٌ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ" (٢٢ / ٢٤٩) وَقِيلَ: مُتَفَرِّقَةٌ فِي الْمَجَالِسِ، قَالَهُ الْقُتَيْبِيُّ. قُلْتُ: هَذَا أَصَوْبٌ، فَهِيَ كَثِيرَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ. وَمِنْهُ وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ.

(٣) ينظر "تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" (٨ / ٥١٦) لعطية سالم

(٤) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٨٤) وهو مرسل.

عاملة في الآخرة؟ على وجوه منها:

الوجه الأول: منهم من قال: عاملة في الدنيا كحال النصارى، ومنهم القساوسة والرهبان، الذين يعملون ويظنون أنهم على شيء، ثم يأتي يوم القيامة، كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (٣٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٣٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] وعن أبي عمران الجوني، قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب فناده: يا راهب يا راهب. قال: فأشرف عليه فجعل عمر ينظر إليه ويكي، قال: فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: "ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٣) تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِنَةٍ ﴿٥﴾" [الغاشية: ٣-٥] فذلك الذي أبكاني "١" والمعنى: أنه يعمل ويتعب ويجهد في العبادة، ويظن أنه على شيء وهو على كفر وضلال، لأنه يعتقد أن المسيح ابن الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، فهو بذلك يكون من أهل النار. ٢"

والوجه الثاني: أن ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ في الآخرة، الله جل جلاله يكافئ الكافر ويحاسبه،

(١) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٣٥٨٤) والحاكم في "المستدرک" (٣٩٧٣) وقال «هَذِهِ حِكَايَةٌ فِي وَفَّتِهَا، فَإِنْ أَبَا عِمْرَانَ الْجَوْنِي لَمْ يُدْرِكْ زَمَانُ عُمَرَ» وقال الذهبي في التلخيص الجوني لم يدرك عمر رضي الله عنه لكنها حكاية في موضعها. وأخرجها الواحدي في "الوسيط" (٤ / ٤٧٤)

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع أحكام القرآن" (٢٣٩ / ٢٢) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فَهَذَا فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ دَارَ عَمَلٍ. فَاَلْمَعْنَى: وَجُوهٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ فِي الدُّنْيَا خَاشِعَةٌ فِي الْآخِرَةِ.

وقال الماوردي رحمه الله في "النكت والعيون" (٢٥٨ / ٦) (في الدنيا عاملة بالمعاصي، قاله عكرمة) وقال البغوي في "معالم التنزيل" (٤٠٤ / ٨) (قَالَ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه): يَعْنِي الَّذِينَ عَمِلُوا وَنَصَبُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَكُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِثْلَ الرُّهْبَانِ وَغَيْرِهِمْ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ اجْتِهَادًا فِي صَلَاةٍ، يَدْخُلُونَ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

كما أنه كان في الدنيا على هواه، ويمشي على حسب مراده، فالله تعالى يكلفه عذاباً زيادةً في عذابه، ألا وهو الصعود والهبوط وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿سَأَرْهِفُهُ وَصَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وقال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].^١

الوجه الثالث: ذكر بعض أهل العلم من هذه الأعمال:

كثرة دعائهم على أنفسهم في الآخرة بالهلاك والشور، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] فيدعون على أنفسهم بالهلاك يوم القيامة، عندما يروا خسارتهم المحققة.^٢

وكذلك من هذه الأعمال محاجبة بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [٤٧] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] - نسأل الله العافية -.^٣

وقفة: هذه الآية العظيمة تجعل العبد منا يحذر أن يخالف السنة، وأن يخالف طريق الله وكتابه، وينبغي عليه دائماً وأبداً أن يلازم طريق الله عز وجل، وطريق النبي ﷺ، وإذا أشكل عليه

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٣٢٩) (يعني: عاملة في النار) ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة وابن زيد، وقال الماوردي رحمه الله في "النكت والعيون" (٦ / ٢٥٨) أنها تكبرت في الدنيا عن طاعة الله تعالى، فأعملها في النار بالانتقال من عذاب إلى عذاب، قاله قتادة.

(٢) ذكره الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" تفسير جزء عم (١ / ٢٩٢)

(٣) المرجع السابق (١ / ٢٩٣)

شيءٌ سأل أهل العلم الثقات حتى يكون دائماً وأبداً على كتاب الله وسنة رسوله وعلى ما يحب رب العالمين جل جلاله، فيكون من المستقيمين في الدنيا المنعمين في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَنْشِيَةِ ۖ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۖ غَامِلَةٌ تَأْسِبَةٌ ۖ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ ناراً وصلت إلى أعلى درجات الحرارة.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ﴾ شديدة الحرارة، أو قد عليها أعوامٌ وأعوامٌ حتى مر عليها أزمانٌ، فمعنى (آنية) أي: المدة الطويلة التي أوقد هذا الماء خلالها حتى ازداد غليانه، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥].^(١)

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ والضريع شجر شوك، وقال أهل العلم هو سمٌ قاتلٌ، والضريع عند العرب نباتٌ يُسَمَّى الشَّبْرُق إذا كان رطباً، وإذا يبس سُمِّيَ ضريعاً، وهو نباتٌ يكون في الأرض ذا شوكٍ عظيمٍ، وهو سمٌ قاتلٌ، إذا رعت فيه البهائم ماتت مباشرةً، فهذا الضريع هو طعام أهل النار.^(٢)

فائدة: ولا يأتي ملحدٌ ويقول كيف يكون بالنار نباتٌ؟

في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ فان اعترض على ذلك بأن النار تحرق الأشجار، فكيف يكون بالنار نباتٌ؟

(١) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٤٣) (الآتي: الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ، مِنَ الْإِنَاءِ، بِمَعْنَى التَّأخِيرِ. وَمِنْهُ (أَتَيْتَ وَآذَيْتَ). وَأَنَّهُ يُؤْنِيهِ إِيْنَاءٌ، أَيُّ أَحَرَّهُ وَحَبَسَهُ وَأَبْطَأَهُ. وَمِنْهُ يَطْوِفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ وَفَى التَّفَاسِيرِ مِنْ عَيْنِ آيَةٍ أَيُّ تَنَاهَى حَرُّهَا، فَلَوْ وَقَعَتْ نُقْطَةٌ مِنْهَا عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا لَذَابَتْ. وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: آيَةُ أَيُّ حَرُّهَا أَذْرَكَ، أَوْ قَدَّتْ عَلَيْهَا جَهَنَّمُ مُنْذُ خُلِقَتْ، فَدَفِعُوا إِلَيْهَا وَرَدًّا عَطَاشًا. وَعَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: بَلَغَتْ أَنَاهَا، وَحَانَ شَرْبُهَا.

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٤٣)، و"جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٣١).

فالإجابة: أن يُقال لهم: لا تعترضوا بجهلكم وسفاهتكم، فإن الله جل جلاله الذي جعل النار محرقة، قادرٌ سبحانه أن ينبت فيها شجراً هذا الشجر يُعَذَّبُ الكفارُ بأكله ولا تأكله النار، فقد جعل الله تعالى آيةً للعباد يرونها بأعينهم، وهي ما حدث لإبراهيم الخليل عليه السلام، حينما قذفوه في النار لإحراقه فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَّاوُ كُونِي بَرًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فنار الدنيا كانت أمامهم تُحَطَّمُ وتُحَرَّقُ وتوقدُ في الحطب إيقاداً عظيماً ولا تمس إبراهيم بشيء، فالله جل جلاله قادر أن يعذب الكفار بما شاء وربنا فعال لما يريد.

فائدة: اعترض بعض الملحدين بقولهم كيف يكون إبليس مخلوقاً من النار ويُعَذَّبُ بالنار؟

عذاب الله جل جلاله لا يُعَذِّبُهُ أحدٌ، فالله سبحانه جل جلاله وتباركت أسماؤه له القدرة التامة على أن يفعل ما يشاء سبحانه عز وجل، فكما أن الإنسان مخلوقٌ من طينٍ، ومع ذلك فالطين قد يؤذيه ويؤلمه إن قذف به أو دخل في فمه وأنفه، فإنه يتعدى الإيذاء إلى القتل، فكذلك إبليس وأعوانه من الشياطين فإنهم مُعَرَّضُونَ لعذابٍ من النار، ولا يُخَفَّفُ عنهم أنهم خُلِقُوا منه، فالله على كل شيء قديرٌ.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [٧] هذا الطعام الذي يأكلونه لا يسمنهم، ولا يدفع عنهم جوعاً، بل يكون زيادةً في عذابهم، و من جمال القرآن الكريم، ومن تمام تسميته مثاني، كما قال الله تعالى عنه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] فمن تمام ذلك أن الله تعالى إذا ذكر حال الكفار، يُثَنِّي ويذكر حال الأبرار أهل الجنة، حتى يتضح الفرقان أمام الإنسان، فيختار لنفسه طريقاً يسلك فيه.

﴿وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [٨] لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ [٩] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [١٠] لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً [١١] فِيهَا

عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِفُ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ وكلام اهل العلم فيها على وجهين:

الوجه الأول: قيل من النعمة، أي: أنها ذات حسن وبهجة ونضارة.

الوجه الثاني: قيل من النعمة، أي: في غاية التنعم.

﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ فيها وجهان عند أهل التفسير:

الوجه الأول: أي لعملها في الدنيا راضية، فتحمد الله أن وفقها للصلاة، وتحمد أن وفقها

للبر، وتحمد أن وفقها لمكارم الأخلاق، وتحمد أن وفقها للصدقة وهكذا، فيحمد الله ويرضى

تمام الرضا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا

اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] يعني: عن عملها الذي عملته في الدنيا راضية.^(١)

الوجه الثاني: أي عن جزاء، وثواب عملها الذي عملته راضية؛ لأنها تدخل الجنة بفضل الله

سبحانه، ثم بالسعي الذي سعته في الحياة الدنيا.

وقال الرازي رحمه الله: وهذا أولى إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد

الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه.^(٢)

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عالية لكونها درجات، كما روى البخاري في صحيحه عن أنس بن

مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيْعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بِنِ سُرَاقَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ،

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٤٧)

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣١ / ١٤١)

أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةٍ، وَكَانَ قَتْلُ يَوْمٍ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبْرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى»^(١)، روى البخاري في صحيحه أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢).

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾^(٣) واللغو يطلق على الكلام الكذب، وعلى الكلام القبيح، وأيضاً على الكلام الذي لا فائدة فيه، فلا تسمع في الجنة لا كذباً ولا كلاماً يؤذيها ولا كلاماً لا فائدة فيه، بفضل الله الكريم لأنها دارُ السلام، مُنَزَّهَةٌ مَنْ يَدْخُلُهَا عَنْ أَيِّ نَقْصٍ، فلا نقص في نعيمه، ولا نقص في صحته وعافيته، ولا نقص في أي شيء فيها، بل هي دار التمام بفضل الله رب العالمين^(٤).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾^(٥) أي عيونٌ جارياتٌ سابحاتٌ، فإذا أراد العبد أن يذهب بعيداً في ملكه، فالعيون تجري معه حيث شاء، يفجرونها تفجيراً.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾^(٦) سررٌ جمع سرير، فلماذا جعل الله السررَ عاليةً مرتفعةً؟ قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: مرفوعةٌ ليرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما خوله ربه من النعيم

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٨٠٩)، والترمذي في "سننه" (٣١٧٤)، والنسائي في "الكبرى" (٨١٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٩٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٣٤)

والملك فيها، ويلحق جميع ذلك بصره^(١)، فمن تمام النعيم أن يرى العبدُ الخيرَ الذي أنعم الله به عليه كله، قال بعض أهل العلم: وإذا جاء ولي الله ليجلس عليها تواضعت وتنزلت له، فإذا جلس عليها ارتفعت به^(٢).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾^(١٤) الأكواب جمع كوب، والكوب يقال له كوبٌ إن لم يكن له عروة، ولا خرطوم كالإبريق^(٣)، ومعنى ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾^(١٤): أنك إذا أردتَ الشراب وجدت الكوب بجوارك، على قدر ما تريد أن تشرب، وعلى قدر شعبك، وقيل: يجدون هذه الأكواب على حافة هذه العيون الجارية، بأشكالٍ وألوانٍ وأصنافٍ.

واقعة: لو أن عبداً من العباد ملكَ الدنيا كلها، بما فيها من ملكٍ وأملاكٍ وقصورٍ وكنوزٍ، ثم أنفقها كلها لله مقابل أن يكون أقلُّ أهل الجنة منزلةً، والله كان قليلاً، فالجنة تستحق منك أن تترك الحرام تماماً، وأن تترك المكروهات، وأن تسارع إلى فعل كل خيرٍ ما استطعت إلى فعل ذلك سبيلاً.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾^(١٥) وَرَزَابِي مَبْنُوتَةٌ^(١٦) ثم يلفت نظرنا إلى التدبر، وإلى

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٣٦)

(٢) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٩٨ / ٩)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٠ / ٦٤٤)، وقال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩ / ٨١) وَقَالَ قَتَادَةُ: الْكُؤُبُ الْمُدَوَّرُ الْقَصِيرُ الْعُنُقِ الْقَصِيرُ الْعُرْوَةُ. وَالْإِبْرِيقُ الْمُسْتَطِيلُ الْعُنُقِ الطَّوِيلُ الْعُرْوَةُ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: الْأَكْوَابُ الْأَبَارِيقُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا. وَقَالَ قُطْرُبُ: هِيَ الْأَبَارِيقُ الَّتِي لَيْسَتْ لَهَا عُرَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهَا الْأَنْبِيَاءُ الْمُدَوَّرَةُ الْأَفْوَاهُ. السُّدِّيُّ: هِيَ الَّتِي لَا آذَانَ لَهَا. ابْنُ عَزِيزٍ: "أَكْوَابٌ" أَبَارِيقٌ لَا عُرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ، وَاحِدُهَا كُؤُبٌ. قُلْتُ: وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ اللَّغَةِ أَنَّهَا الَّتِي لَا آذَانَ لَهَا وَلَا عُرَى.

أنه ينبغي على الإنسان أن يستدل بخلق الله على الله، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾

آيات تخلع قلب الإنسان، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾﴾ قال فضيلة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللهُ في تنمة أضواء البيان "توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة؛ لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة، وعلى البعث، وشم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه".^(١)

لأن العبد إذا أيقن بربوية الله فلا بد أن يُقر بإلهيته، فلو أنه أقر بأن الله هو خالق الخلق، ورازقهم، ومدبر أمورهم، إذ لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا هو، فيعبده وحده لا شريك له. أما الإبل: فلعلها أقرب المعلومات للعرب، وسُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَقِيلَ لَهُ: الْفِيلُ أَعْظَمُ فِي الْأَعْجُوبَةِ؟ فَقَالَ: أَمَّا الْفِيلُ فَالْعَرَبُ بَعِيدَةُ الْعَهْدِ بِهَا. ثُمَّ هُوَ لَا خَيْرَ فِيهِ لَا يُرَكَّبُ ظَهْرُهَا وَلَا يُؤْكَلُ لَحْمُهَا وَلَا يُجَلَّبُ دَرُّهَا، وَالْإِبِلُ أَعَزُّ مَالٍ لِلْعَرَبِ وَأَنْفُسُهَا تَأْكُلُ النَّوَى وَالْقَتَّ وَتُخْرِجُ اللَّبَنَ.^(٢)

قال الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللهُ "أما الإبل فهي ملازمة للعرب ومعهم وقرية منهم فالعبرة بها أعظم، فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم في مطعمهم من لحمها ومشربهم

(١) ينظر "تنمة أضواء البيان" لعطية سالم (٩/ ٢٠١).

(٢) ذكرها البغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٤١٠)، والثعلبي في "الكشف والبيان" (١٠/ ١٨٩)، والقرطبي

الجامع لأحكام القرآن " (٢٢/ ٢٥١).

من ألبانها، وملبسهم من أوبارها وجلودها، وفي حلهم وترحالهم بالحمل عليها، مما لا يوجد في غيرها في العالم كله لا في الخيل ولا في الفيلة، ولا في أي حيوان آخر، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] ثم قال - أيضاً -: ﴿وَالأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٥-٧] إنها نعمٌ متعددةٌ ومنافعٌ بالغةٌ لم توجد في سواها البتة، وكلٌ منها دليلٌ على القدرة بذاته.

أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كلِّ وقتٍ، ويشغل تفكيرهم في كلِّ حينٍ؛ لقربها من حياتهم في الأمطار والمرعى في سهولها، والمقيل في كهوفها وظللها، والرهبة والعظمة في تطاولها وثباتها في مكانها.

وقد وجه الأنظار إليها أيضاً في موطنٍ آخر في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ﴿٢﴾ [النبا: ٦، ٧] ، ثابِت كما بين تعالى أنها رواسي للأرض أن تميد بكم ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ﴿٣﴾ مَتَعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ ﴿٤﴾ [النازعات: ٣٢، ٣٣] فهي مرتبطةٌ بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا.

أما السماء ورفعها أي ورفعتها في خلقها، وبدون عمدٍ ترونها، وبدون فطورٍ أو تشقٍ على تطاول زمنها، يعني مر على السماء آلافٌ مؤلفةٌ الله أعلم من الأزمان، ولا يوجد ولا ثقبٌ ولا شقٌّ ولا شيءٌ، هذا كله يدل على عظمة الله الذي خلقها سبحانه، ومعلومٌ أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث، كما تقدم.

أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية فيها مع عمومها كما في قوله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضُ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

وقوله ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ آية ثابتة لأن جرمها مع إجماع المفسرين على تكويرها، فإنها ترى مسطحة، يعني الأرض كروية ورغم أنها كروية فهي مسطحة، ورغم ذلك يقول فإنها ترى مسطحة، أي: من النقطة التي هي في امتداد البصر، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها؛ لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى مسطحاً من نقطة النظر إليه، وفي كل ذلك آياتٌ متعددةٌ للدلالة على قدرته تعالى على بعث الخلائق، وعلى إيقاع ما يغشاهم على مختلف أحوالهم.^(١)

فالله سبحانه يلفت أنظار خلقه إلى ما يدهم عليه، وكان بعض الناس قبل النبي محمد ﷺ، يستدلون على الله بهذه الآيات الباهرات في الكون، فهذا زيد بن عمرو بن نفيل، وهو عم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان لا يأكل الميتة، ولا يتد الموءودة، ولا يشرب الخمر، ويقول يا معشر قريش: والله ليس فيكم أحدٌ على ملة إبراهيم غيري، وإذابه يقول:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ * لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

دَحَاها فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ * عَلَى الْمَاءِ أَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ * لَهُ الْمُنْزُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

إِذَا هِيَ سَيِّقَتْ إِلَى بَلَدَةٍ * أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا^(٢)

سبحانك ربي ما أعظمك

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُ

(١) ينظر "تنمية أضواء البيان" لعطية سالم (٨ / ٤١٠)

(٢) ذكرها الإمام الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١ / ١٣٢) ترجمة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي.

(٣) ينظر "تنمية أضواء البيان" لعطية سالم (٨ / ٥١٦)

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تدل على أنه الواحد^(١)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ^(١٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ^(١٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ^(١٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ^(١٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ^(١٦)﴾

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(١١) يعني: كما قال الله ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾^(١٢) أي ليس عليك إجبار الناس على الهداية^(١٧)

وقفة: وهذه مهمة جداً لو عاها العبد لاستراح، فللعبد زملاء في العمل وله جيران، وله أصدقاء وعنده زوجة و أولاد، وعنده أهل وأحباب، فينبغي عليه أن يُلْغِهم ما تعلّمه من كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، لكن سلوك سبيل الهدى إنما هو من الله وحده سبحانه، فعليه البلاغ والدعاء، فهذا الذي يملكه الواحد منا، بل هذا الذي يملكه رسول الله محمد لأحب الناس عنده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١٨) [القصص: ٥٦] وقد كان النبي ﷺ حريصاً غاية الحرص على إسلام عمه أبي طالب، فلم يسلم ومات، وقال لأستغفرون لك ما لم أُنْه عنك، كما روى الشيخان عن سعيد بن المسيب، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ

(١) أبيات أبي العتاهية كما في "ديوانه" (ص ٤٦)

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٣٤٠) وَقَوْلُهُ: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ يَقُولُ: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَلِّطٍ، وَلَا أَنْتَ بِجَبَّارٍ، تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا تُرِيدُ. يَقُولُ: كُلُّهُمْ إِلَيَّ، وَدَعْتُهُمْ وَحَكَمِي فِيهِمْ؛ يُقَالُ: قَدْ تَسَيَّرَ فُلَانٌ عَلَى قَوْمِهِ: إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ.

بِهَا عِنْدَ اللَّهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمُقَالََةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنْكَ»، فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥١﴾^١

فرينا تعالى قال لنبية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرَةٌ﴾ يعني ذكّرهم بالجنة، وذكرهم بالنار، وذكرهم بقدرة الله، وعظمة الله سبحانه أنه قادر على بعثهم، كما خلقهم أول مرة، فلا شيء يعجزه سبحانه^٢

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ يعني ليس عليك ذنب إن لم يسلموا ويؤمنوا، ولست تجبرهم على الإيمان.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿١٣﴾ إلا هنا أهل العلم يقولون: هذا استثناء منقطع بمعنى لكن، والمعنى: لكن من تولى وكفر، فتولى عن الإيمان بقلبه وقالبه^٣، وكفر بالله عز وجل.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿١٤﴾ العذاب الأكبر هو عذاب النار، وعذاب الآخرة، فهو أكبر العذاب؛ إذ لا يشبهه عذاب، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٤)، من حديث المسيب ابن حزن رحمته الله، به.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٤٢)

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٥٤)

وَنَاقَهُ وَ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦].^(١)

ثم أخبر الله تعالى أن مآل الناس كلهم إليه، فقال تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ الخلق كلهم، غنيهم وفقيرهم، صالحهم

وطالحهم، ظالمهم ومن يتق الله فيهم، الكل مردهم إليه ثم إن حسابهم عليه جل جلاله.^(٢)

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تم الانتهاء من تفسير سورة الغاشية بحمد الله ومنتته

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٤٣)

(٢) قال الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٣٤٣) وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ يَقُولُ: إِنَّ إِلَيْنَا رُجُوعَ مَنْ كَفَرَ

وَمَعَادَهُمْ.

﴿سُورَةُ الْفَجْرِ﴾

هذه السورة العظيمة مكيةٌ باتفاق أهل العلم^(١)، وآياتها ثلاثون، نزلت بعد سورة الليل.

ومناسبتها لما قبلها:

(١) أنه ذكر في تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة.

(٢) أن القسم الذي في أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد.^(٢)

يقول الله تعالى في هذه السورة العظيمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيْلٍ عَشْرِ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي

حِجْرِ ۝﴾

خمس أقسامٍ أقسم الله بها في أول هذه السورة العظيمة، وأول الأقسام قوله تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ وفي معنى الفجر أوجهٌ منها:

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (١٥ / ٣٩٢) أَخْرَجَ ابن الضريس والنحاس في ناسخه، وابن مردويه

والبيهقي من طرق عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن

الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أنزلت ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بمكة، وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في " زاد المسير " (٩ / ١٠٢) وهي

مكية كلها بإجماعهم.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٤٠)

الوجه الأول: يقسم الله تعالى بوقت الفجر، ويقسم الله جل جلاله وعزّ جاهه بانفجار الظلام وذهابه وإتيان النهار والضوء^(١).

الوجه الثاني: المراد به النهار كله^(٢)، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الوجه الثالث: هو الفجر الذي ينفجر عنه الظلام^(٣).

الوجه الرابع: هو صلاة الفجر^(٤).

واختلفوا في المراد بهذا الفجر على أوجه -أيضاً-:

الأول: هو فجر يوم النحر^(٥)، لأنه يومٌ عظيمٌ فيه أعمال الحج وهي أعمالٌ كبيرةٌ جليلةٌ تحدث في يوم النحر.

الثاني: هو فجر أول يومٍ من أيام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة^(٦).

الثالث: هو فجر أول يومٍ من المحرم^(٧)، لأن به تنفجر السنة الجديدة من أول هذا اليوم.

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٩٠) **الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ، وَهُوَ: الصُّبْحُ. قَالَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه، وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَالسُّدِّيُّ. وَعَنْ مَسْرُوقٍ، وَمُجَاهِدٍ.**

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٤٤)

(٣) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦ / ٢٦٥) عن علي رضي الله عنه والواحدي في "الوسيط" (٤ / ٤٧٨)، عن

عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما، وابن الجوزي في "زاد المسير" (٩ / ١٠٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٥٦)

(٤) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٣٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٢٥٦) عن مجاهد، والسيوطي في "الدر المنثور" (١٥ / ٣٩٣)

عنه، وعن محمد بن كعب القرظي مثله.

٦ ذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٧٦)، والواحدي في "الوسيط" (٤ / ٤٧٨)، والقرطبي في "الجامع

لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٥٧)، عن الضحاك.

والمقصود: أن الله أقسم بهذا اليوم لشرفه، ففيه لا شك صلاة عظيمة وهي صلاة الفجر، **وقفة:** هذه الصلاة - صلاة الصبح - يغفل عنها كثيرٌ من الناس، وهي في الحقيقة فارقةٌ عظيمٌ بين المؤمن والمنافق، بين أهل الإيمان وأهل النفاق - نعوذ بالله - فالؤمن لا يكاد يتخلف عن صلاة الفجر، لأنه يرجو ثواب الله، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ الْمُؤَذِّنَ، فَيَقِيمَ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا يُؤْمُ النَّاسَ، ثُمَّ أَخَذَ شُعْلًا مِنْ نَارٍ، فَأَحْرَقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ»^(١)، وهذا يقال للكسالى - نسأل الله جل جلاله أن يعافينا وإياكم من الكسل - .

وروى الشيخان - أيضاً - في صحيحيهما عن قيس بن أبي حازم، قال: سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، وَهُوَ يَقُولُ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ -، ثُمَّ قرأ جريرٌ **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾**^(٢)، فالمواظبة على صلاة الفجر عنوان الإيمان - نسأل الله سبحانه أن لا يحر منا إياها - .

(١) ذكره الواحدي في "الوسيط" (٤/٤٧٨)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/٢٥٧)، عن ابن عباس رضي الله عنه وقتادة، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٧)، ومسلم في "صحيحه" (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٥٤) ومسلم في "صحيحه" (٦٣٣)، من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه، به.

وروى مسلمٌ في صحيحه عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبُنْكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيَدْرِكُهُ فَيَكْبَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١)، فالمواعظ على صلاة الفجر هو في حفظ الله طوال اليوم بفضل الله تعالى.

﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾ أما الليالي العشر في قول جماهير أهل التفسير، فهي الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة^(٢)، أقسم الله تعالى بها لشرفها، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(٣)

وقفة: المرء يتعجب، على حال أمتنا، فنحن نعرف هذا الحديث ونسمعه من الدعاة والعلماء وطلبة العلم - وما أكثر العلم الآن بفضل الله تعالى - ورغم ذلك نجد انصراف الناس عن طاعة الله في أفضل الأوقات بصورة لا تُوصف في تهاونهم وتكاسلهم عن الطاعة، وهذا شيءٌ مذمومٌ، فيجب على العبد أن يتعرض لنفحات الله ما استطاع، فالعافية لو دامت تكون نعمةً من الله عز وجل لا تحصى، ولكن سنة الله عز وجل في هذه الدار أن يغير الأحوال على أهلها، فأحياناً نعمةٌ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٥٧)، والترمذي في "سننه" (٢٢٢) من حديث جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

رضي الله عنه، به

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٣٤٥ / ٢٤)، وابن عطية في "المحرر الوجيز" (٤٦٧ / ٥)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣٩٠ / ٨)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٥٧) و"معالم التنزيل للبعوي" (٤١٢ / ٨).

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩٦٩)، وأبو داود في "سننه" (٢٤٣٨)، وابن ماجه في "سننه"

(١٧٢٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

وأحياناً نقمةً، أحياناً صحةً وأحياناً مرضً، أحياناً غنىً، وأحياناً فقرً، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] سبحانه وبحمده، فعلى العبد أن يغتنم عافيته، وأن يغتنم وقت فراغه، وأن يغتنم أيام نفحات الله .

تبدأ هذه الأيام المباركات من أول ذي الحجة، ويأتي بعد ذلك اليوم العاشر ختام هذه الأيام العظيمة، فينبغي على العبد ألا يُفَوِّت هذه الأيام، ولا يُفَوِّت يوم عرفة، بل أولى به أن يُقَرِّعَهُ الله جل جلاله، بأن يجعل هذا اليوم كله لله من أوله إلى آخره، وأن يُحَذِّرَ الشيطان، فإنه يأتي لأهل البيت فيشغلهم عن هذا اليوم بأمور الدنيا من مطعمٍ وملبسٍ وغير ذلك، وإذا باليوم يَمُرُّ بلا فائدةٍ، فخير الدعاء دعاء يوم عرفة، وهو يومٌ يباهي به الله أهل السماء بعباده من أهل الأرض، والله لا يرد داعياً في هذا اليوم المبارك، فقد ورد في صحيح مسلم عن ابنِ المُسيَّبِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِ الْمَلَائِكَةَ، فيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟ " (١)، فليحذر المؤمن أن يُفَوِّتَ على نفسه خير هذا اليوم، وليحرص على صيامه أشدَّ الحرص، فإن صيامه يُكَفِّرُ ستين، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ" (٢)، فهذا الخير العميم بصيام يومٍ واحدٍ بفضل الله جل جلاله، وينبغي على المؤمن كذلك أن يغتنم الدعاء فيه، وأبركُ الدعاء وأفضله، من بعد العصر إلى المغرب، فيغتنم المؤمن يومه كله في ذكر الله وفي القرآن، ومن الممكن أن يعتكف هذا اليوم كله في

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٣٤٨)، والنسائي في " المجتبى " (٣٠٢٦)، وابن ماجه في " سننه "

(٣٠٢٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١١٦٢) وأبو داود في " سننه " (٢٤٢٥) والترمذي في " سننه "

(٧٤٩) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

المسجد.

حكم التعريف:

وبعض أهل العلم نصّوا على جواز التعريف، وكلمة التعريف يعني اجتماع الناس في يوم عرفة في المساجد للذكر والدعاء، وسئل الإمام أحمد عنه، قال: لا بأس به فعلة ابن عباس وعمر بن حريث رضي الله عنهما، وغيرهم من السلف كانوا يفعلون ذلك^(١).

(١) قال ابن قدامة رحمه الله في "المغني" (٣/ ٢٩٥) قال القاضي: ولا بأس بالتعريف عشية عرفة بالأمصار. وقال الأثرم: سألت أبا عبد الله عن التعريف في الأمصار، يجتمعون في المساجد يوم عرفة، قال: أرجو ألا يكون به بأس، قد فعله غير واحد. **وروي** الأثرم، عن الحسن، قال: أول من عرف بالبصرة ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أحمد: أول من فعله ابن عباس وعمر بن حريث رضي الله عنهما، **وقال** الحسن، وبكر، وثابت ومحمد بن واسع: كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة. قال أحمد رحمه الله: لا بأس به، إنما هو دعاء وذكر لله. فقيل له: تفعله أنت؟ قال: أما أنا فلا. وروي عن يحيى بن معين أنه حضر مع الناس عشية عرفة. **وقال شيخ الإسلام** ابن تيمية رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم" (٢/ ١٥١) فأما قصد الرجل مسجد بلده يوم عرفة للدعاء والذكر فهذا هو التعريف في الأمصار الذي اختلف العلماء فيه، ففعله ابن عباس، وعمر بن حريث من الصحابة وطائفة من البصريين والمدنيين ورخص فيه أحمد، وإن كان مع ذلك لا يستحبه هذا هو المشهور عنه وكرهه طائفة من الكوفيين والمدنيين: كإبراهيم النخعي وأبي حنيفة ومالك، وغيرهم. **ومن كرهه** قال: هو من البدع، فيندرج في العموم لفظاً ومعنى. **ومن رخص فيه** قال: فعله ابن عباس بالبصرة حين كان خليفة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولم ينكر عليه، وما يفعل في عهد الخلفاء الراشدين من غير إنكار لا يكون بدعة.

لكن ما يزداد على ذلك من رفع الأصوات الرفع الشديد في المساجد بالدعاء، وأنواع من الخطب والأشعار الباطلة مكروه في هذا اليوم وغيره. قال المروزي رحمه الله: سمعت أبا عبد الله يقول: "ينبغي أن يسر دعاءه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾". قال: هذا في الدعاء. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: وكان يكره أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء.

فالمقصود أن نجتهد لكشف ما عندنا من كربات فليس لها كاشفٌ من دون الله، ففي هذا اليوم فرصة؛ فرسولنا أخبرنا أن الله يجيب فيه الدعاء لعل واحداً منا يلتجئ إلى الله ويرفع يديه إليه، ويكي ويقول يا رب، ربما يبدل الله حال هذه الأمة ويصلح حالنا ويُفَرِّج كربنا، فالأمر أولاً وآخرًا بيد الله الذي قال عن نفسه: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فيوم عرفات يومٌ جليلٌ، مَنْ مَلَكَ فيه سمعه ولسانه وبصره غُفِرَ له، كما قال رسول الله ﷺ: ^(١)

﴿وَالشَّفَعُ وَالْوَتَرُ﴾، تعددت أوجه أهل التفسير في الشفع والوتر:

الوجه الأول: الشفع هو الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، والوتر هو الله سبحانه جل جلاله،^(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وأبي صالح، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ اسْمًا، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللَّهَ وَتَرٌ، يُحِبُّ الْوَتَرَ»^(٣) ويجوز أن تقول وتر ووتر بالفتح أو بالكسر، كلاهما صحيح.^(٤)

(١) (ضعيف) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٠٤١) وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٨٣٢) والطبراني في "المعجم

الكبير" (١٢٩٧٤)، وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٥٩٦٠)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٣٥٢ / ٢٤)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤١٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٧٧)، من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه، به.

(٤) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٣٥٦ / ٢٤) (وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: {وَالْوَتَرُ} فَقَرَأَتْهُ عَامَّةٌ قُرَاءَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضُ قُرَاءِ الْكُوفَةِ بِكسر الواو، وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: أَنَّهَا قِرَاءَتَانِ مُسْتَفِضَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ فِي قِرَاءَةِ الْأَمْصَارِ، وَلُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ فِي الْعَرَبِ، فَبَايَتُهُمَا قِرَاءَ الْقَارِئِ فَمُصِيبٌ، وَاَنْظُرِ الْقُرْطُبِي فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٦١ / ٢٢)

الوجه الثاني: الشفع هو الصلاة، فمنها شفعٌ يعني مثني كالصبح أو أربعة كالظهر والعصر شفعٌ، والمغرب وترٌ، روي هذا الوجه عن عمران بن حصين رضي الله عنه والرَّبيع بن أنسٍ وقتادة وأبي العالية ^(١).

الوجه الثالث: كل خلق الله شفعٌ، النور والظلمة والليل والنهار، والحر والبرد، كل هذا شفعٌ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] والله هو الوتر، روي هذا الوجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ومحمد بن سيرين ومَسْرُوق وأبي صالح وقتادة ^(٢).

الوجه الرابع: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والضحاك ^(٣).

الوجه الخامس: الشفع هما اليومان بعد يوم النحر، والوتر هو آخر أيام التشريق، لما فيها من أعمالٍ جليلةٍ أقسم الله جل جلاله بها، يَقُولُ اللهُ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]، روي عن ابن زيد ^(٤).

الوجه السادس: الشفع درجات الجنان لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبعٌ، فكأن الله أقسم بالجنة والنار، روي عن الحسين بن الفضل ^(٥).

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٢٥٥)، و"النكت والعيون" للهاوردي (٦ / ٢٦٦)، و"الجامع لأحكام

القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٥٩)

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٢٥١)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٥٨)

(٣) أخرجه الطبري "جامع البيان" (٢٤ / ٢٥٠)

(٤) أخرجه الطبري "جامع البيان" (٢٤ / ٢٥٠)

(٥) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٦٠) وابن الجوزي في "زاد المسير" (٩ / ١٠٧)

الوجه السابع: الله تعالى أقسم بكلّ شفعٍ وبكلٍ وترٍ سبحانه وبحمده، قال به الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ وغيره من أئمة التفسير.^(١)

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي والليل إذا يسري، أي يمضي ويُسرى فيه.^(٢)

ومن لطائف ما ذكر أهل العلم في هذه الآية، قال المؤرق رَحِمَهُ اللهُ: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري وإنما يُسرى فيه، فهو مصروفٌ، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُكٌ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل بغية، لأنه صرفها عن باغية.^(٣)

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي: أقبل، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا أَنْسَبُ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ فَإِنَّ الْفَجْرَ هُوَ إِقْبَالُ النَّهَارِ وَإِدْبَارُ اللَّيْلِ، فَإِذَا حُمِلَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ عَلَى إِقْبَالِهِ كَانَ قَسَمًا بِإِقْبَالِ اللَّيْلِ وَإِدْبَارِ النَّهَارِ، وَبِالْعَكْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿[التَّكْوِير: ١٧، ١٨]﴾.^(٤)

بعد أن أقسم الله بهذه الأقسام الخمسة قال:

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ﴾ أي: هل في هذه الأيمان التي أقسم الله بها جل جلاله

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٥٥)

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ "في جامع البيان" (٢٤ / ٣٥٧) (وَاللَّيْلِ إِذَا سَارَ فَذَهَبَ، يُقَالُ مِنْهُ: سَرَى فَلَانٌ لَيْلًا يَسْرِي: إِذَا سَارَ) ورواه عن ابن الزبير وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومجاهد وأبي العالية وقتادة وابن زيد. وذكر القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٦١) أن أكثر المفسرين قالوا به.

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٦٢) والصفدي في "الوافي بالوفيات" (١٥ / ١٦٢)

(٤) ينظر ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٩٤)

كفاية وقناعة لذي حجر، والحجر هو العقل وهو اللب، فهل هناك إنسان عاقل يسمع رب العزة يُقسم بهذه المخلوقات العظيمة ولا يعي ويقبل عن الله كلامه فيمثل أمره ويجتنب نهيها؟
وقيل للعقل حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي القبيح، فكيف يكون الإنسان عاقلاً فيسب الناس، وكيف يكون عاقلاً ويأكل الحرام، وكيف يكون عاقلاً ويقع فيما حرم الله عليه، ويشرب الخمر ويزني ويؤذي جاره وغير ذلك، الأصل أن عقله يحجره ويمنعه من تعاطي الأفعال القبيحة والأقوال القبيحة، ومنه حَجَرَ القاضي على فلان أي منعه التصرف في ماله.^(١)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِمُرْصَادٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ والمخاطب رسول الله محمد ﷺ، والمعنى: أَلَمْ تَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ بِعَيْنِ قَلْبِكَ، فَتَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ؟^(٢)
والمراد عموم كل مكلف يقرأ هذه الآيات، والمعنى: أَلَمْ تَرَ بِقَلْبِكَ وكأنك تشاهد ما أحل الله بقوم عاد؟

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾

(١) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٣٩٤) وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ بِأَوَقَاتِ الْعِبَادَةِ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ عِبَادُهُ الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ، الْخَائِفُونَ مِنْهُ، الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ، الْخَائِعُونَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٦١)

فعله بالجبرة والطغاة الظالمين، الذين تناولوا على الخلق وظلموهم وآذوهم وحاربوا رب العالمين وحاربوا أولياءه.

فعاد هاهنا هي: عاد إرم ذات العماد، وقيل أنها عاد الأولى لأن عاد عادان، عاد الأولى هي التي تكبرت وطغت^(١) كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فربنا تعالى يذكرنا كيف أحلَّ عذابه وبأسه و سوطَ عذابه على عادٍ و ثمود.

وقال الله تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وقد ورد أكثر من وجهٍ في معنى ذات العماد:

الوجه الأول: أي ذات الطول الشديد، بعضهم ذكر أن طول الرجل منهم ثلاثمائة ذراع، ولكن هذا باطل لا يصح^(٢)، لما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، تَحِيَّتُكَ وَنَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ،

(١) قال ابن كثير رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٣٩٤) وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن

عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا، عليه السلام، فكذبه

وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ

سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ

بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ [الحاقة: ٧، ٨] وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٢٦٦)

(٢) قال ابن العربي رحمه الله في " أحكام القرآن " (٤ / ٣٩١) (وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ طُولَ الرَّجُلِ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي

الْهَوَاءِ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ إِلَى الْآنَ). وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٢٦٧)

فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ" (١) فأعلى طولٍ للخلق من أولهم إلى آخرهم كان خلق آدم ستون ذراعاً، ثم بدأ الخلق يتناقص إلى يومنا هذا، ولذلك مما يُذكر عن طول يأجوج ومأجوج وهذا أيضاً منافي لما ثبت بالأسانيد الصحيحة.

الوجه الثاني: ذات العماد إشارة إلى طول أعمدة خيامهم؛ لأنهم كانوا يرتحلون ويبنون خياماً عظيمة جداً، بأعمدة هائلة وذلك لقوتهم وعظيم خلقتهم.

الوجه الثالث: بعض أهل العلم قالوا ذات العماد أي: ذات أبنية فاخرة عالية جداً، ذات الأعمدة الطويلة جداً، ولكن هذا القول اعترضه إمام أهل التفسير ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ، قال: لو كان هذا لبقِيَ شيءٌ من آثارهم، ولكن الظاهر أن أجسادهم ذات طولٍ عظيمٍ ولكن في حدود ما جاء من الشرع، وخيامهم ذات أعمدة عظيمة عالية جداً، وهذا يدل على قوتهم (٢).

قال الله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ (٣) الله عز وجل لم يخلق مثل عاد في قوتهم وبطشهم وجبروتهم.

وقفه: إذا ما قارن العبد بين عادٍ في قوتهم وبين قوة أي متجبرٍ ظالمٍ في زمانه فلا شك أن عاداً أقوى، فربنا يقول: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ ورغم ذلك دَمَّرَهُمُ اللهُ جل جلاله بريحٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) نَزَغَ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، تنزع الناس وتطيرهم في الهواء ثم تنزل الواحد منهم على رأسه فتفصل رأسه عن بدنه، ويصير ممدداً في الأرض، كأنه جِزْعُ نخلةٍ خاوي -نسأل الله العافية والسلامة -.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٢٦) ومسلم في " صحيحه " (٢٨٤١)، من حديث أبي هريرة، به.

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٣٦٦)

﴿وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(١) لماذا ذكر الله عاداً وثموداً، ثم في ختام الآيات فرعون؟ قال أهل العلم : لأن عاداً وثمود كانوا ببلاد العرب، فثمود كانوا بالحجر، وعاد كانوا بالأحقاف، فقصة عاد وثمود معروفة لدى العرب، وفرعون كانت تأتيهم أخباره، فربنا ذكّرهم بالقصص التي يعرفونها^(٢).

﴿وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ جابوا أي نحتوا^(٣)، والعامّة يقولون جاب الشيء بمعنى: أحضره وهذا خطأ -، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾^(٤) [الشعراء: ١٤٩] لم يكن عندهم آلات حفر متطورة، ورغم ذلك كانوا ينحتون بيوتاً ليست صغيرة، قال الله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾^(٥) [الشعراء: ١٤٩]، عندما ننظر إلى قوة هذا الإنسان الذي بطش بالجبال الصم الرواسي، حتى صنع منها بيوتاً فارهة، إذن هذه أمة جبارة قوية، ورغم ذلك لما عتت أخذها الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ وهناك أكثر من وجه في معنى ذي الأوتاد:

الوجه الأول: يعني: ذي الملك والجنود العظام، أي: له ملك كبير متسع وجنود كثير، آلاف بل ملايين يوتدوا ملكه يعني: يشبوه، وكل جبار إنما يوتد ملكه جنود عمي صم بكم، لا يسمعون ولا يفعلون إلا ما يقوله لهم هذا الظالم الجبار.

الوجه الثاني: ذي الأوتاد العظيمة التي يعذب بها المؤمنين، كما ذكر ذلك الله في كتابه فحكي عنه: ﴿وَلَا صَلْبَتْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، هذه الأوتاد تضرب في الأرض ويربط فيها أهل الإيمان ليعذبهم، وكذلك فعل مع زوجته المؤمنة التي جعلها الله مثلاً في كتابه، عذبا فرعون

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٦٥)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٦٨)

عذاباً أليماً وربطها في الأوتاد، فالله يذكر أن هؤلاء كانوا يعذبون أهل الإيمان بالأوتاد، فيربطونهم فيها، ويضربونهم بالسياط وغير ذلك، ويعذبونهم العذاب الأليم.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ طغوا أي: تجاوزوا حدهم، فكل هذه الأمم عادٌ وثمودٌ وفرعونٌ، تجاوزوا حد العبودية، فظلموا وبغوا وطمعوا^(١).

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ والفساد هو: إظهار المعاصي في بلاد الله ونشرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فصلاح الأرض العمل بطاعة الله، وفساد الأرض العمل بمعصية الله.

وقفة: عنوان كل من يحيد عن كتاب الله وسنة رسوله، مهما تكلم بلسان الديموقراطية أو الشيوعية أو العلمانية، فعنوانه أن يُظهر الفساد في العباد، وأن ينشره ما استطاع، ولا ترى أمة تُظهر الفساد إلا أحلَّ الله عليهم بلاءه سريعاً، والله يميل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمِيلُ لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبِّكَ، إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(٢).

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ قوله: (صَبَّ) يدلُّ على كثرة البلاء والعذاب الذي حلَّ عليهم، حتى عمَّهم جميعاً صَبَّ عليهم من فوق^(٣)، فصَبَّ على عادٍ ريحاً فأهلكتهم ودمرتهم أجمعين، وصَبَّ على ثمود صيحةً واحدةً؛ صاح بهم ملكٌ فخلعت الصيحة قلوبهم وهلكوا جميعاً فأصبحوا صرعى، وصَبَّ على قوم فرعون فأغرقهم جميعاً في اليمِّ أمام موسى عليه السلام

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٧٣)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٦٨٦) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٧٣)

وقومه، وهذا جزاء فسادهم، فكل مفسد يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، والله لا يهمل الظلمة.
ومناسبة ذكر السوط مقروناً بالعذاب: أن المجرمين كانوا يعذبون المسلمين بالسيّاط،
فلذلك صبَّ الله عليهم، وقال لأوليائه صببت على أعدائي سوط عذاب، حتى يشعر الله تعالى
عباده بالإنصاف، وأنه تعالى ينتقم لأوليائه.^(١)

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ لماذا؟ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ﴾^(١٤) يعني أن الله جل جلاله بالمرصاد لعباده كلّهم، يُحْصِي أَعْمَالَهُمْ
وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم^(٢)، لكي لا يظن العبد أنه بعيد عن رب العالمين، فلا يمكن للعبد
أبداً أن يخرج عن قبضة ربه، وعن ملكه جل جلاله، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ﴾ كما
قال الله جل جلاله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٣)
[الزخرف: ٨٠] والمعنى: أن ملائكتنا الحفظة موجودون مع كل إنسان يكتبون أقواله وأعماله
وسنجازيه بذلك أتم الجزاء، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،
فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوْفِّيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ
وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.^(٤)

وقفة: قال أهل العلم في هذه الآية العظيمة فائدة جليّة، ينبغي للعبد أن يتنبه لها، ألا وهي:
أن المعاصي سبب لزوال النعم^(٥)، وقد أحسن القائل:

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٧٤)

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٧٤) أَي يَرُصِدُ عَمَل كُلِّ إِنْسَانٍ حَتَّى يُجَازِيَهُ بِهِ،
قَالَهُ الْحَسَنُ وَعِكْرَمَةُ.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٧٧) من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٤) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (ص ٣٢٩).

إذا كنت في نعمة فارعها... فإن الذنوب تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد... فرب العباد سريع النقم^(١)

وهذا حق، فما قيدت النعم بمثل طاعة الله وشكرها، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] وتدبر: فليست بركة واحدة، وإنما بركات.

شواهد على قاعدة المعاصي سبب زوال النعم:

الشاهد الأول:

الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾

وَلَا يَسْتَتِنُونَ﴾ [القلم: ١٧، ١٨] فهؤلاء كانت عندهمجنة عظيمة، من دخل فيها ثجنه

وتسثره من عظم أشجارها وعظم ثمارها، وكثرتها وكبرها، ولكنهم تعاهدوا على أن لا يطعموا

المسكين ولا يطعموا الفقير المحتاج، فقال الله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا

لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: أقسموا بالله ليقطعوا ثمارها، في الصباح قبل أن يظهر الناس،

ويبكرن إلى أعمالهم، فنكون قد جنينا ثمارها، حتى لا يأتي عليهم مسكين، فقال الله سبحانه:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فتنادوا مصبحين

أَنِ اعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فأنطلقوا وهم يتخفئون﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ

عَلَيْكُمْ مَّسْكِينٌ﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ﴾ [القلم: ١٩ - ٢٥] حرد يعني: غيظ، كيف

للفقراء أن يأخذوا هذا المال الكثير من أبينا كصدقات، فإذا بالله يجعلها كلها هباءً منثوراً، فطاف

عليها طائف من ربك فأصبحت محترقة، لم يعد فيها ثمرة واحدة، جزاء لمنعهم الخير والبر،

(١) يُنسب البيت لعل بن أبي طالب ؓ وقد أورده ابن القيم في "الجواب الكافي" (ص/ ٧٤-٧٥)

ولمعصيتهم أذهب الله تعالى الخير من عندهم - نسأل الله العافية والسلامة - فما زالت النعم إلا بالمعاصي، وما دامت إلا بالطاعة والشكر لله سبحانه.

الشاهد الثاني:

قَصَّ عَلَيْنَا رَبُّنَا أَيْضاً فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدُ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥] ولكن ماذا فعلوا؟ قال الله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]

فينبغي علينا أن نشكر الله تعالى على نعمه ليزيدنا، وأن نسأله من فضله ليعطينا، وأن نحذر معصيته تعالى؛ وإن من أعظم المعاصي التخلف عن الواجب، فينبغي على العبد أن يكون مبادراً إلى الواجبات، مسارعاً إلى الصلوات الخمس، وبر الوالدين وأداء الأمانة، وحفظ السر وغير ذلك مما أوجبه الله على العبد، فإذا سارع العبد في أداء الواجب كان ذلك سبباً في دوام النعم، وثبوتها وزيادتها بفضل الله سبحانه وبحمده.

الشاهد الثالث:

في قصة قارون، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي مال هذا المال، حتى يضرب به الأمثال؟! الذي عنده أموال كثيرة يقول عنه الناس عنده مالٌ مثل مال قارون، هذه المفاتيح الكثيرة تُعَيِّي وتُثْقِل الجماعة الكثيرة أصحاب القوة أن يحملوها، فكيف بالخزائن؟، كيف بها فيها؟، لكنه لما تكبرَ وتَجَبَّرَ ونَسَبَ النعمة إلى ذكائه، وإلى فهمه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]

٧٨] يعني: كان على مر الزمان مَنْ هو أكثر جمعاً للمال من قارون، وأكثر منه قوةً، ولما عصا وطغا وتكبر وتجبر وخالف الرسل، أهلكه رب العالمين جل جلاله، وهذه سنة الله في خلقه.

الشاهد الرابع:

حكى لنا ربنا قصة فرعون أيضاً فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩] أخرجهم الله فأغرقهم، كما قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝﴾ [نوح: ٢٥] فقال الله عن مصير فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ جنات حدائق وبساتين، وعيون سارحات، ومقام كريم، ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ كنوز إلى يومك هذا إلى ما شاء الله يستخرجون كنوز آل فرعون، حتى يعتبر العباد، ويحذروا معصية الله.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝﴾

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ ماذا يفعل؟ لا يشكر الله ويزداد طاعةً لربه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وكأنه يقول لولا أني كريمٌ على الله ما أعطاني المال، وليس الأمر كذلك.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ قَدَرَ أي: ضَيَّقَ عليه رزقه^(١)، يعني في أول أمره جعله الله يرفل في النعيم، وبسط له الرزق بسطاً، فعندها يقول لولا أني كريمٌ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٧٦)

على الله ولولا أن الله يحبني ما أعطاني هذا المال، وفي المقابل إذا قَدَّرَ عليه رزقه، أي: ضَيَّقَهُ عليه فيقول ربي أهانني، فيعتبر أن الله أهانه إذ جعله فقيراً، والأمر في الحالتين ليس كذلك، ربنا جل جلاله قد ييسط في الأرزاق لأعدائه، ولأبغض الناس عنده، ويضيق في الأرزاق على ولي من سادات أوليائه، وقد ييسط الأرزاق لولي وقد يضيق على كافر، فبسط الأرزاق وضيق الأرزاق ليس عنوان محبة الله أو بغض الله، ولكن كما قال علماؤنا في تفسير هذه الآية الباهرة: "إنما عنوان محبة الله طاعة العبد لربه، وعنوان بغض الله للعبد، وإدانته له، وإذلاله له، عصيان العبد لله جل جلاله، فالعبد إذا أنعم الله عليه فالمطلوب منه أن يشكر، وإذا قدر الله عليه وضيق عليه فالمطلوب منه أن يصبر، وهذا هو حال المؤمن^(١)، كما روى مسلم في صحيحه عن صُهَيْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

وكل العباد، ينعم الله عليهم بنعم، ونعم الله على عباده لا تنقطع أبداً، ولكن أحياناً ييسط الله لبعضهم في الأرزاق ويوسع عليهم، وأحياناً يضيقها سبحانه، فليحذر العبد التقى أن يكون مثل هذا الإنسان، الذي يظن أن نعم الله عليه لقربه من الله، ولأنه كريمٌ على الله، وإذا قدر الله عليه ضيقاً أو فقراً أو همّاً، يظن أنه إهانةٌ من الله، وكأنه يعترض على أمر ربه عز وجل، بل ينبغي على العبد أن يكون شاكراً لربه مثنياً عليه بما هو أهله، يعلم أن الأمور بيده، فعلاً لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون سبحانه جل جلاله، يُقدَّرُ مقادير العباد بعلمه وحكمته سبحانه جل

(١) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم ص ٣٣٤

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٩٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٨٩٦)، وأحمد في "مسنده

"(١٨٩٣٤)، من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه، به.

جلاله، يعطي من يشاء ما يشاء، ويمنع ما يشاء عن يشاء،

وما أجمل ما قال شيخ الأزهر أحمد مصطفى المراغي رَحِمَهُ اللهُ في مثل هذه الآيات، قال: (بعد أن ذكر سبحانه أنه لا يفوته من شأن عباده شيء. وأنه يأخذ كل مذنّب بذنبه - أردف ذلك ذكر شأن من شئون الإنسان، وبين أنه لا يهتم إلا بأمور الدنيا وشهواتها، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق ظن أنه قد اصطفاه ورفع على من سواه وجنبه منازل العقوبة، فيذهب مع هواه ويفعل ما يشتهي، ولا يبالي أكان ما يصنع خيرا أم شرا، فيطغى ويفسد في الأرض، وإذا ضيق عليه الرزق - وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص أو لتظهر قوة صبره، فإن الفقر لا يزيد ذوى العزائم إلا شكرا - يقول ربى قد أهانني، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه لم يكن له عناية بعمله، فكيف يؤاخذ به يا يصدر منه من شرٍّ، أو يكافئه على ما يصنع من خيرٍ، فلا شكره يكافأ بإحسان، ولا كفره يجازى بعقوبة، فينطلق يكسب عيشه بأي وسيلة عنت له، ولا تحجزه شريعة، ولا يقف أمام قانون، ويسلك سبيل الجبارين، ويبخس الحقوق، ويفسد نظم المجتمع، ولا تزال أحوال الناس هكذا كما وصف الله فأرباب السلطان يظنون أنهم في أمن من عقاب ربهم ولا يذكرونه إلا بالسستهم، ولا يعرف له سلطان على قلوبهم، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم، لا يبالون ماذا يفعلون؟). اهـ^(١)

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحَافِظُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۖ﴾

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٤٦).

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ كلاً أي: ليس الأمر كذلك، (كلاً) إبطال لهذه العقيدة^(١)،

يعني: هذه عقيدة فاسدة أبداً.

أي لو أن أعمالكم على السداد وعلى ما يجب الرب، لكتتم تكرمون الأيتام، ولكنكم لم تفعلوا لأن أعمالكم ليست كذلك، واليتيم هو من توفي أبوه وهو دون البلوغ^(٢)، لا يُتم بعد البلوغ كما روى أبو داود في سننه عن علي ابن أبي طالب عليه السلام: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يُتَمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتٍ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»^(٣)، فاليتيم من مات والده وليست أمه، لأن اليتيم مأخوذ من اليُتم يعني الانفراد، أي: صار منفرداً عن الكاسب، لأن الوالد هو الذي يسعى ويكسب لأولاده، فإذا توفي الوالد صار أولاده الصغار دون سن البلوغ منفردين عن الكاسب، فلذلك يقال لهم أيتام، انفردوا عن الذي يكسب لهم أرزاقهم، فالله تعالى يصف حال أكثر الخلق بأنهم لا يكرمون اليتيم، وإكرام اليتيم عنوان لركة القلب، وعنوان لسعادة العبد،

وقفه: يا لها من نعمة لو أن الله تفضل على عبد وكفل يتيماً، وصدق الحبيب ﷺ حيث قال "خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيمٌ يُكرم، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيمٌ يُهان"^(٤) وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٧٧)

(٢) قال ابن منظور رحمه الله في "لسان العرب" (١٥ / ٣٠٨) (اليتيم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ)

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٨٧٣)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٩٠)، والبيهقي في

"الكبرى" (١١٤٢١)، من حديث علي رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٢٤٤)

(٤) (ضعيف) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١٣٧) ابن ماجه في "سننه" (٣٦٧٩) والطبراني في

الأوسط (٤٧٨٥)، وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١٦٣٧)

فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى^(١)

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ^(٩)﴾ [الضحى: ٩] يعني: فكما كنت يا محمد يتيماً أكرمك الله فأكرم الأيتام، والعبد عندما يكرم يتيماً فقد أكرم رسول الله محمداً ﷺ، فينبغي على العبد أن يكرم اليتيم من أجل إكرام رسول الله ومن أجل إجلاله.

﴿وَلَا تَحْضُوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ^(١٨)﴾ والحضُّ هو: الحث، والمسكين هو الذي أسكنه الفقر فاستكان^(٢)، ليس عنده شيء، ملصق بالأرض، أسكنته الحاجة، فقير لا يسعى مثل الناس، بل مهمومٌ حمله فقره بالهم، والمعنى: لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام الفقراء، فعدم الإطعام من صفات الشر للعبد، إذ لا يقوم بفعل الخير، ولا يُذكر غيره بفعل الخير.

وقفة: بعض الناس إذا رأى إنساناً يقوم بأعمال البر يُبْطِطه، وهذا أعظم الشح، حيث لا يبخل بماله بل يبخل بهال غيره، ويثبطه، فقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْضُوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ يشير إلى أن هؤلاء من شر الناس، وهم الذين لا يحض بعضهم بعضاً على إطعام الفقراء، فعنوان سعادة العباد أو الأمة أو الدولة ؛ وجودُ أغنياءٍ يذكر بعضهم بعضاً بإطعام الفقراء وسد حاجتهم، ونرى كثيراً من الناس من أهل الديار الطيبة المباركة وكذلك الوافدين عليهم، يتسابقون في سد حاجة المحتاجين، وإلى التفاني في فعل الخير، والله يخلف خيراً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ^(٣) وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^(٤)﴾ [سبأ: ٣٩]، سبحانه وبحمده القائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٣٠٤) ومسلم في " صحيحه " (٢٩٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) قال الزبيدي رحمه الله - في تعريفه للمسكين - في " تاج العروس " (٣٥ / ٢٠٠) (من لا شيء له يُكْفِي عياله؛ أو له ما لا يكفيه، أو الذي أسكنه الفقر، أي قلل حركته).

حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١] فينبغي على العبد أن يفكر في هذا جيداً وأن يستعين بالله ويبدأ وسيجد أبواب الخير فُتِحَتْ له مِنْ عند مالك الملك سبحانه جل جلاله.

وقفه: يا لها من نعمةٍ ويا له من أجرٍ لمن فَرَّجَ عن المهموم، ففضي دينه، أو يَسَّرَ عليه في زواج ابنة، أو يَسَّرَ عليه في تكاليف جراحةٍ سيقوم بها هذا المسكين، فكم مِنْ مسكينٍ لا يعلم همَّه إلا الله سبحانه وتعالى، وروى أبو داود في سننه بسند فيه ضعف عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيُّا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضِرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمُخْتُمِ»^(١)، وروى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ ثلاث صفاتٍ كلها سيئةٌ، التراث هنا يعني الميراث^(٣)، وكلمة **(لَمًّا)** يعني جميعاً، فيجمع ميراثه مع ميراث أخته مع ميراث اليتيم مع ميراث الضعيف، ويأخذ هذا الميراث كله له، ظلماً وعدواناً كحال أهل الجاهلية كانوا لا يورثون البنات، وكذلك لا يورثون الصغار، يقولون: كيف يرث من لا يركب الفرس وهم صغار، وهكذا كانوا يأكلون

(١) **(ضعيف)** أخرجه أبو داود في "سننه" (١٦٨٢) والترمذي في "سننه" (٢٤٤٩)، وأحمد في "مسنده"

(١١١٠١)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وضعفه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٩١٣)

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤٤٢) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٨٠)، من حديث ابن

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٣٧٩ / ٢٤)

أموال الناس بالباطل^(١).

وقفه: العدل والإنصاف أن يعطي المرء حق الله تعالى لعباده، ليس كما يفعل هؤلاء المجرمون الذين يبدلون شريعة الله، ويقولون أَنَا شَرَعْنَا قانوناً بأن ميراث المرأة مثل ميراث الرجل، لماذا؟ أنت أعلم أم الله؟ أنت أحكم أم الله؟ ما هذه الديمقراطية وهذا التخلف الرجعي؟ يقولون هذه ديموقراطية وليس له ارتباط بالدين، وهذا في الحقيقة كفر بالله رب العالمين، واسمها ردة عن دين الله قولاً واحداً، ليس فيها استثناء، فهذا يُبدّل شريعة الله تعالى، وهذا كفر بالله - نسأل الله العافية والسلامة -.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كلمة جمًّا يعني كثيراً، يعني يجمعون الميراث من أي جهة، ويحبون المال ويحرصون على اقتنائه من حلالٍ أو حرام^(٢).

وقفه: من أعظم البلايا أن يقذف الله في قلب العبد حبَّ جمع المال، من حلالٍ أو من حرام، فتفسد عليه دينه وتعميه، ولا يشعر إلا وهو في وسط المهالك - نسأل الله العافية - أما العبد المؤمن فإنه يسعى في هذه الدنيا تبعاً لشرع الله سبحانه، إن أنعم الله عليه وبسط له في الأرزاق حمده وشكره، وأنفق وتصدق، فأنفق المال في صنوف البر والخير، وإذا قدر الله عليه غير ذلك صبر وعلم أن هذا ابتلاء من الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۖ يَقُولُ يَلَيِّنَتْنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ۖ فَيَوْمَئِذٍ لَا

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٦/ ٤٩٢)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/ ٣٨٢)

يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ۝

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ليس الأمر كما تفعلون، إذا دكت الأرض دكاً دكاً، يعني سويت تماماً^(١)، وهذا في آخر أيامها إذا جاء يوم القيامة، تُدَكُّ الأرض دكاً؛ جبالها وما عليها من قصورٍ وكل شيءٍ، يدك دكةً واحدةً، دكةٌ عظيمةٌ، فتصير كالصخرة الصماء العظيمة المدكوكة.

(دَكًّا دَكًّا) قال أهل العلم يعني دكاً بعد دكٍ^(٢).

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وهذه الآية من أدلة صفة مجيء الرب تبارك وتعالى، فالؤمن يؤمن بمجيء الله العظيم، لا يُؤَوَّلُ هذه الصفة كما أولها بعض أهل العلم^(٣)، فيعتقد أن هذه صفةٌ جليلةٌ لربنا تعالى، فيؤمن بالله وبأسمائه وصفاته، كما جاء في القرآن وعلى مراد الرحمن، ونؤمن بالله جل جلاله كما أخبرنا رسولنا ﷺ، بدون تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ. فما الذي يمنع العبد أن يعتقد ظاهر هذه الآيات، بأن ربنا يجيء لفصل القضاء بين عباده، ولكن مجيء الله ليس كمجيء الخلق، ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى، وكل ما دار ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].^(٤)

(وَجَاءَ رَبُّكَ) لفصل القضاء والحكم بين العباد، (وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) فمن شدة هول هذا اليوم العظيم، تنزل الملائكة من السماء ويحيطون بالخلق، من إنسٍ وجنٍ، أهل السماء الأولى

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٣٩٩)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٨٣)

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٨١) أي أمره وقضاؤه

(٤) ينظر "تمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٨ / ٥٢٧)

والثانية والثالثة والرابعة وغيرهم، يقفون في خشوع ومهابة، صفوفاً بين يدي رب العالمين جل جلاله.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ منظرٌ فظيعٌ، روى مسلم في صحيحه، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا»^(١) اللهم سلم سلم، نعوذ بالله من النار.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(٢٣) وأنى تنفعه هذه الذكرى، وقد انتهت فُرْصُهُ بخروجه من الدنيا، فُرْصَةُ اتباع الرسول، وفرصة مصاحبة الصالحين، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٢٧) يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا^(٢٨) [الفرقان: ٢٧، ٢٨]

هنا يقول الإنسان: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٢٩) يا ليتني عملت لحياتي الباقية.

وقفة: نحن في تيه - عافانا الله - والدنيا تشغلنا كثيراً، وإن كنا على خيرٍ فالحمد لله، لكننا صراحة على تقصيرٍ شديدٍ، فأين نحن من قيام الليل، وكم نصلي بالليل؟ وأين نحن من القرآن الكريم، كلام الله، فوالله فعلاً وحقاً وصدقاً وقيناً ما رواه الإمام أحمد في الزهد عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل"^(٣٠)

فمن الذي يقعد على المصحف ليقراً عشر أجزاء متواصلين؟ وكثيرٌ من العباد لو قرأ جزءاً من القرآن يقرأه بمزاجية، وتحصل له مشقة عظيمة، وأين نحن من النفقة على الفقراء؟ أين نحن

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، والحاكم في "المستدرک"

(٨٧٥٨)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" (٦٨٠) وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٣٠٠) والبيهقي في "شعب

الإيمان" (٢٠٣٠)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

من هذه الأمور العظيمة المذكورة في السورة، كفالة الأيتام، وإطعام الفقراء والمساكين، والإحسان إلى النساء والضعفاء، أين نحن من ذكر الله جل جلاله؟ كل ذلك سنحزن عليه ونحزن بسبب فواته جداً، فيوم القيامة يتذكر الإنسان، وكما قال الرسول ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِلَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّه يَزِدُّ دَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّه يَسْتَعْتَبُ»^(١) يعني تاب ورجع إلى الله، فليشغل العبد ليلاً ونهاراً بربه، حتى وهو في عمله ذكراً لله عز وجل، وينبغي أن يكون له ورد يومي من الأعمال الجليلة لا يحيد عنها أبداً، تكون أساساً له في حياته، ومنهاجاً يسير عليه إلى أن يلتقى بربه.

قال ربنا تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ وفي قراءة ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ

أَحَدًا﴾^(٢)، يعني في هذا اليوم العصيب لا يُعَذِّبُ مثل عذاب الكافر أحدٌ، ولا يُعَذِّبُ أحدٌ بدلاً عنه، وأيضاً لا يُعَذِّبُ مثل عذاب الله أحدٌ، فالجسارة المتكبرون، الذين يعذبون المسلمين يعذبونهم عذاباً لا تطيقه الجبال - نسأل الله العافية -، فهؤلاء الجسارة يعذبهم الله يوم القيامة عذاباً لا يعذبه أحد، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن هشام، عن أبيه، قال: مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَلَى أَنَسٍ مِنَ الْأَنْبَاطِ بِالشَّامِ، قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالُوا: حُبِسُوا فِي الْجُزْيَةِ، فَقَالَ هِشَامٌ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»^(٣)، لأن الجزاء من جنس العمل، فالرحمة بالرحمة، كما روى الإمام أحمد في

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٢٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٨٢)، من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن (٢٢/ ٢٨٣) (وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ (لَا يُعَذِّبُ) (وَلَا يُوثِقُ) بِمُتَّحِ الدَّالِ وَالْثَاءِ، أَيْ لَا يُعَذِّبُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا كَعَذَابِ اللَّهِ الْكَافِرَ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يُوثِقُ كَمَا يُوثِقُ الْكَافِرُ) (٢٢/ ٢٨٣)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦١٣)، وأبو داود في " سننه " (٣٠٤٥)، والنسائي في " الكبرى "

مسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُلْ لِقَامِ الْقَوْلِ، وَيُلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصْرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(١)، وكذلك الظالم المتكبر، يعذبه الله كما كان يعذب الناس في الدنيا.

يقول رب العالمين: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الله تعالى يقول عن الكافر: (خُذُوهُ فَعَلُّوهُ) يعني: اربطوه بالسلاسل، فالظالمون من أهل الدنيا كانوا يفعلون هذا بأولياء الله عز وجل، فيقيدونهم من أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، فهو لاء هنيئاً لهم قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَعَلُّوهُ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢] هذا المجرم العاني على الله يوثق وثاقاً لا يوثقه أحد من الخلق.

وكما أن في الدنيا ظالمين معذبين فهناك أناس طيبون يقول الله عنهم:

﴿يَأْتِيَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾
وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿﴾

﴿يَأْتِيَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ المطمئنة بذكر ربها، المطمئنة بقضائه، المطمئنة بأفعال الله عز وجل، المطمئنة لموعدده، المطمئنة للقائه^(٢)، وهذا يقال للعبد عند خروج روحه، ويقال له في

(١٧١٨)، من حديث هشام ابن حكيم ابن حزام رضي الله عنه ، به.

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده " (٧٠٤١)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٣٨٠)، من حديث عبد الله

ابن عمرو رضي الله عنه ، به. وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٨٢)

(٢) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٢٨٤) قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَأْتِيَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) لَمَّا ذَكَرَ حَالَ مَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ الدُّنْيَا فَاتَّهَمَ اللَّهَ فِي إِغْنَائِهِ، وَإِفْقَارِهِ، ذَكَرَ حَالَ مَنْ اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. فَسَلَّمَ

أرض المحشر ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ وروى الحافظ ابن كثير بإسناد حسن مرسل، قال هذا مرسل جيد عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَرَأْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٧٦﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذَا حَسَنٌ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمَّا إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُ لَكَ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ" ^(١)، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وقفه: كل عبد عاش لله وكان همه إرضاء ربه، وكانت غايته أن ينجو في الدنيا ويسلم في الآخرة، حريص غاية الحرص على طاعة ربه ومولاه، فهذا العبد بإذن الله تعالى تقول له الملائكة، يا أيتها النفس الطيبة التي كنت في الجسد الطيب عند الخروج، اخرجي إلى روح وريحان، ورب راضٍ غير غضبان - اللهم اجعلنا منهم يا رب -.

﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿٧٨﴾ ارجعي إلى الله عز وجل، راضية عن العطاء العظيم الذي أعطاك الله إياه، مرضية: رضي الله عنك، وهذا أعظم نعيم لأهل الجنة، أن يرضى الله عنهم، ويحل عليهم رضوانه، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٧٩﴾ [التوبة: ٧٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ يَشْتَرِي بَثْرَ رُومَةٍ نَسْتَعِذُّ بِهَا غُفْرَانَ اللَّهِ لَهُ فَاشْتَرَاهَا عَثْمَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ لَكَ أَنْ تَجْعَلَهَا سَقَايَةً لِلنَّاسِ قَالَ:

لَأُمِرُّهُ، وَاتَّكَلْتُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: السَّائِكَةُ الْمُوقِنَةُ، أَيْقَنَتْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهَا، فَأَخْبَتَتْ لِدَلِيلِكَ، قَالَهُ جُهَاذٌ وَغَيْرُهُ.

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٤٠١) وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ ابْنِ يَمَانَ، بِهِ. وَهَذَا مُرْسَلٌ حَسَنٌ، وَيَنْظُرُ "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٣٩٦)

نعم، فأنزل الله في عثمان ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية.^(١)

فعثمان الذي نزلت فيه هذه الآية كان يسارع في الخيرات والبر والإحسان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي﴾^(٢) وقرأت فادخلي في عبدي، يعني هذه الروح التي تخرج من الجسد وتصعد وترتقي إلى الله تشق السماء الأولى والثانية إلى السابعة، فالله تعالى عندما تصل إليه هذه الروح الطيبة، يقول الله تعالى "أعيدوا روح عبدي في جسده إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قصة بقيع الغرق وفيه (حَتَّى يُتَهَيَّ بِهٖ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيْنِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى)"^(٣) فيكرم بكرامات الله في قبره وعند قيامه من القبر، ويفسح له في القبر ويُنور له فيه، ويُفتح له بابٌ إلى الجنان، فيأتيه من طيبيها وكرامة الله تعالى له،

﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي﴾^(٤) وادخلي جنتي^(٥) نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء العباد الطيبين الطاهرين، الذين يقال لهم عند موتهم ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٦) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً^(٧).

وختاماً ذكر الذهبي في السير عن سَعِيدٍ؛ قَالَ: مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ، فَجَاءَ طَائِرٌ لَمْ يُرَ عَلَى خَلْقَتِهِ، فَدَخَلَ نَعْشَهُ، ثُمَّ لَمْ يُرَ خَارِجاً مِنْهُ، فَلَمَّا دُفِنَ، تَلَيْتَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، لَا

(١) ينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٥ / ٤٢٧) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٨٦)

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٥٣٤) والحاكم في "المستدرک" (١٨٥٣٤)، من حديث البراء، به.

وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٦٣٠)

يُدرى مَنْ تلاها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾﴾، الآية^(١)، أهل العلم أولّوا هذا الطائر الذي دخل ولم يخرج بأنه علم ابن عباس رضي الله عنه، فقد توفي وذهب علم كثير، ولذلك لما توفي قال عدد من الصحابة، توفي رباني هذه الأمة رضي الله عنه^(٢).

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْهَرَوِيُّ رحمته الله -المعروفُ بشكر- في كِتَابِ "الْعَجَائِبِ" بِسَنَدِهِ عَنْ قُبَاثِ بْنِ رَزِينِ أَبِي هَاشِمٍ قَالَ: أَسْرْتُ فِي بِلَادِ الرُّومِ، فَجَمَعْنَا الْمُلُكَ وَعَرَضَ عَلَيْنَا دِينَهُ، عَلَى أَنْ مَنِ امْتَنَعَ ضَرَبَتْ عُنُقُهُ. فَارْتَدَّ ثَلَاثَةً، وَجَاءَ الرَّابِعُ فَاِمْتَنَعَ، فَضَرَبَتْ عُنُقُهُ، وَالْقِيَّ رَأْسُهُ فِي نَهْرٍ هُنَاكَ، فَرَسَبَ فِي الْمَاءِ ثُمَّ طَفَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَنَظَرَ إِلَى أَوْلَيْكَ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، وَيَا فُلَانُ، وَيَا فُلَانُ -يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾﴾ فَادْخُلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ ثُمَّ غَاصَ فِي الْمَاءِ، قَالَ فَكَادَتْ النَّصَارَى أَنْ يُسْلِمُوا، وَوَقَعَ سَرِيرُ الْمُلِكِ، وَرَجَعَ أَوْلَيْكَ الثَّلَاثَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ: وَجَاءَ الْفِدَاءُ مِنْ عِنْدِ الْخُلَيْفَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمُنْصُورِ فَخَلَّصَنَا.^(٣)

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الفجر بحمد الله ومنتته

(١) أخرج القصة الإمام أحمد في " فضائل الصحابة " (١٨٧٩)، والطبراني في " المعجم الكبير " (١٠٥٨١)، والحاكم في " المستدرک " (٦٣١٢)، وقال الذهبي في " سير أعلام النبلاء " (٣ / ٣٥٨): فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ مُتَوَاتِرَةٌ.

وينظر " الدر المنثور " للسيوطي (١٥ / ٤٣٠)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٢٨٦)

(٢) أخرج الإمام أحمد في " فضائل الصحابة " (١٨٩٧)، وابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٢ / ٣١٧)، والحاكم في " المستدرک " (٦٤٣٠)، عَنْ مُنْذِرٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «الْيَوْمَ مَاتَ رَبَّانِي هَذِهِ الْأُمَّةُ».

(٣) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٠١)

﴿سُورَةُ الْبَلَدِ﴾

هذه السورة العظيمة مكيةٌ باتفاق أهل العلم^(١)، وآياتها عشرون، نزلت بعد سورة ق.

ومناسبتها لما قبلها:

(١) أنه ذم في الأولى من أحب المال وأكل التراث ولم يحضّ على طعام المسكين، وذكر هنا الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة، والإطعام في يوم المسبغة.

(٢) ذكر هناك حال النفس المطمئنة، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان^(٢).

يقول الله تعالى في هذه السورة العظيمة:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وفي

معنى (لا) وجهان عند أهل العلم هما:

الوجه الأول: بعض أهل العلم قالوا يجوز أن تكون (لا) هنا زائدة، والمعنى: أقسم بهذا

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ فِي "الدر المنثور" (١٥ / ٤٣٢) أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيرِ وَالنَّحَّاسُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ بِمَكَّةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِثْلَهُ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٨٨) مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ

(٢) يَنْظُرُ "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٥٥)

البلد، كما أقسم الله تعالى به في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] وقد نُسب هذا القول للأخفش.^(١)

الوجه الثاني: وبعضهم قال بأنَّ (لا) ردُّ لا اعتقادٍ تقدَّم من المشركين ألا وهو إنكار البعث، ثم قال تعالى أقسم بهذا البلد، فابتدأ القسم؛ فقال: أقسم؛ ليكون فرقاً بين اليمين المبتدأة وبين اليمين التي تكون رداً؛ قاله الفراء^(٢)

وعلى أيِّ حالٍ فالله جل جلاله يقسم بهذا البلد الأمين، وهو مكة^(٣) شرفها الله سبحانه جل جلاله، فائدةٌ في قدر مكة المكرمة:

مكة أشرف بقاع الدنيا على الإطلاق، هذه البلدة التي كَنَّاها الله بأُمِّ الْقُرَى، فقال الله تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] فسماها أم القرى يعني أمَّ البلاد تشريفاً لقدرها عنده تعالى، وأثبت ذلك النبي ﷺ فعندما خرج منها في الهجرة نظر إليها وكادت الدمعة أن تخرج من عينيه ﷺ، وقال: «وَاللَّهِ إِنَّكَ، لَحَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهُ لَوَلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ، مَا خَرَجْتُ»^(٤)، فمكة بلدة طيبة شرفها الله تعالى، فأقسم الله بها في القرآن، كما في هذه الآية العظيمة ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وكما في قوله تعالى -أيضاً- ﴿وَهَذَا

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٢٨٨)

(٢) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٣٩٥)

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٠٢) عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما ومجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٩٢٥)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٤٤٤٧)، وابن ماجه في

"سننه" (٣١٠٨)، والطبري في "جامع البيان" (٢١ / ١٩٨)، وأبو يعلى في "مسنده" (٢٦٦٢)، من حديث

عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٢٧٢٥).

الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ [التين: ٣] الأمين أي البلد الآمن.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وجهان عند أهل العلم في تفسير قوله

تعالى: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾:

الوجه الأول: أي وأنت يا رسول الله حلالٌ ما تصنعه فيها وذلك في فتح مكة، يعني وأنت

في حِلٍّ مما تصنعه من قتل مَنْ قُتِلَ في فتح مكة، لأنَّ القتال و قتل النفس محرَّمٌ فيها.^(١)

الوجه الثاني: وأيضاً- وهذا المعنى الذي عليه أكثر أهل العلم - وأنت في حِلٍّ مما تفعله في

فتح مكة، من قتل أعدائك فيها، روي عن مجاهد ومنصور وقتادة وابن زيد عطاء والضحاك.^(٢)

الوجه الثالث: وأنت حالٌ فيها، يعني أنَّ الله يقسم بمكة لشرفها، ويقسم أيضاً برسول الله

محمد ﷺ وهو مقيم فيها، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ

حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ بأن الله يقسم بها في حال وجود الرسول ﷺ فيها، فإذا خرج وأخرجَهُ قومه

لَا يُقْسِمُ بها، هذا ذكره بعض أهل العلم كالقرطبي وغيره.^(٣)

الوجه الرابع: قيل: هو ثناءٌ على النبي ﷺ، أي إنك غير مرتكبٍ في هذا البلد ما يحرم عليك

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٠٢) وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، يَعْنِي بِمَكَّةَ، يَقُولُ: أَنْتَ بِهِ

حَلَالٌ تَصْنَعُ فِيهِ مَنْ قَتَلَ مَنْ أَرَدْتَ قَتْلَهُ، وَأَسْرَ مَنْ أَرَدْتَ أَسْرَهُ، مُطْلَقٌ ذَلِكَ لَكَ

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٠٤)

(٣) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٢٩٠) وَقِيلَ: هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَيْ إِنَّكَ غَيْرُ

مُرْتَكِبٍ فِي هَذَا الْبَلَدِ مَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ ارْتِكَابُهُ، مَعْرِفَةٌ مِنْكَ بِحَقِّ هَذَا الْبَيْتِ، لَا كَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْكُفْرَ

بِاللهِ فِيهِ. أَيْ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَيْتِ الْمُعَظَّمِ الَّذِي قَدْ عَرَفْتَ حُرْمَتَهُ، فَأَنْتَ مُقِيمٌ فِيهِ مُعَظَّمٌ لَهُ، غَيْرُ مُرْتَكِبٍ فِيهِ مَا

يَحْرُمُ عَلَيْكَ

ارتكابه، معرفةً منك بحق هذا البيت، لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه؛ أي أقسم بهذا البيت المعظم الذي قد عرفت حرمة، فأنت مقيمٌ فيه معظمٌ له، غير مرتكبٍ فيه ما يحرم عليك. ^(١)

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ﴾ فمكة شرفها الله لا يحل فيها القتال، ولا يُحمل فيها سلاحٌ؛ كما روى الشيخان عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، لَا يُحْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْصَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنْتَرَفُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه: إِلَّا الْإِذْخَرَ لَصَاغِنَا وَقُبُورَنَا؟ فَقَالَ: إِلَّا الْإِذْخَرَ ^(٢)

فائدة: لو وجد العبد فيها لُقطةً، لا يحل له أن يأخذها أبداً، بل يُعرِّفها، أما سائر بقاع العالم لو وجد العبد فيها لُقطةً ثمينةً جداً، فلو وجد مثلاً مليون ريالٍ، فإنه يُعرِّفها لمدة سنةٍ فإذا جاء صاحبها أعطاها إياه، وإن لم يأت صاحبها له أن يستفيد منها، وله أن يتنفع بها بعد السنة، أما لُقطةٌ مكة حرامٌ على الأبد، لا يجوز لأحدٍ أن يتنفع بها، يُعرِّفها ما حييَ، أو يعطيها للمسؤولين يُعرِّفونها، أو القائمين على هذا الأمر.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ﴾ ولأهل العلم أوجهاً في المقصود بالوالد والولد منها:

الوجه الأول: قال بعض أهل التفسير الوالد هو آدم عليه السلام، والولد ذريته، ورؤي عن مجاهدٍ وقتادة وأبي صالح والضحاك وسفيان ^(٣).

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٢٩٠)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٤٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/ ٤٠٦)

الوجه الثاني: قال بعضهم الوالد إبراهيم عليه السلام لأنه كان بمكة، وما ولد ذريته، ورؤي عن أبي عمران الجوني^(١).

الوجه الثالث: وهو أولى الأقوال كلها وهو ما ذهب إليه إمام أهل التفسير ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ بَأَن الله أقسم بكل والد وكل ولد، لأن ذلك فيه دلالة على عظيم قدرة الله عز وجل، كل والد من الإنس والبهائم والجن وغير ذلك وما ولد، فيقسم الله تعالى بكل والد من مخلوقاته وكل ولد^(٢).

فائدة في قسم الله تعالى بمخلوقاته:

ربنا الجليل في هذه السورة أقسم بالبلد الأمين مكة، وأقسم كذلك بكل والد وما ولد، وله سبحانه أن يقسم بما شاء، أما نحن البشر فلا يحل لنا أن نقسم إلا برب البشر، لما رواه الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣) -و- أيضاً - ما رواه أبو داود في سننه عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلِفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٤)

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٠٨)

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي "جامع البيان" (٢٤ / ٤٠٨) وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: مَا قَالَهُ الَّذِي قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِكُلِّ وَالِدٍ وَوَلَدِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَمَّ كُلَّ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَخْصَّ ذَلِكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهَا مِنْ خَيْرٍ، أَوْ عَقْلٍ، وَلَا خَبَرَ بِخُصُوصِ ذَلِكَ، وَلَا بُرْهَانَ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ بِخُصُوصِهِ، فَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ كَمَا عَمَّهُ

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٧٩) ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، به.

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٢٥١)، والترمذي في "سننه" (١٥٣٥)، من حديث ابن

وكذلك ما رواه الشيخان عن عبد الله رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ركب، وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، وأيضاً - روى النسائي في سننه عن قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها، امرأة من جهينة قالت: إن حبراً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا ما شاء الله ثم شئت وقولوا ورب الكعبة»^(٢) صلوات ربي وسلامه عليه.

أقسم الله بهذه المقسمات العظيمة، على أمر جليل وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٣)، أي كل إنسان خلقه الله في كبدٍ،

ولأهل العلم أوجه في معنى قوله تعالى (كَبَدٍ) منها:

الوجه الأول: قال بعض أهل التفسير يعني خلق الله الإنسان معتدلاً مستويّاً منصوباً قائمته، وهذه الآية كقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٤) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ^(٥) [الانفطار: ٦، ٧] يعني أن الله تعالى فضل الإنسان وكرمه وشرفه وجعله منتصباً القائمة، ورأسه في أعلى شيء، على غير البهائم فإن الله خلقها منكسّة رؤوسها ورؤي عن ابن عباس وعكرمة وإبراهيم وعبد الله بن شداد وأبي صالح والضحاك ومجاهد^(٦).

عمر رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٠٤٢)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠٨) ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه النسائي في "المجتبى" (٣٨٠٦) والحاكم في "المستدرک" (٨٠٢٥)، من حديث قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٣٦).

(٣) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٤١٠/٢٤) وقال آخرون: معنى ذلك أنه خلق مُتَّصِباً مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ

الوجه الثاني: قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يعني في شدة، كما تقول تكبد اللبن يعني اشتد، والكبد دمٌ مجتمعٌ، ورُوي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما والحسن وقتادة و سَعِيدُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ وعكرمة ومجاهد^(١).

الوجه الثالث: وأكثر أهل التفسير على أن معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي في شدائد متتابعة، شدة بعد شدة بعد شدة وهكذا، خلقه الله سبحانه أول ما خرج طفلاً من بطن أمه، يعاني قطع سُرَّتِهِ، ثم بعد ذلك يعاني الفِطَام، يعاني معاناة شديدة، ثم بعد ذلك يعاني المشي والحبو، ثم إذا كَبِرَ شيئاً فشيئاً يبدأ يعاني الذهاب مبكراً إلى الدراسة والتعليم يوقظه أهله ويضربوه وغير ذلك، ثم إذا كَبِرَ وصار رجلاً وأنهى دراسته وبدأ في بناء أسرة جديدة، يبدأ في السعي على عملٍ ويكابد الأعمال، ويصبر على المشاق من أجل أن يتزوج، ثم إذا تزوج يفكر في أنبائه، ثم بعد ذلك تضعف قواه، فسنة الله في خلقه هكذا، خلقكم الله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة مخلقة، ثم يخرجكم طفلاً، ثم تصيرون شباباً، ثم كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] وغير ذلك من المشاق، ثم إذا مات يعاني القبر وضيمته، نسأل الله العافية، فإن كان مسيئاً يعاني أشد المعاناة من عذاب القبر، ثم بعد ذلك يعاني من عرصات يوم القيامة وأهوالها وشدائدها، وصدق الله إذ قال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هذه الدنيا لا شك أنها تعبٌ وكبدٌ ونصبٌ، لأنها تحجبُ عن رب العالمين، وعن النعيم المقيم، وإن كان منعماً ومن أهل النعيم في الدنيا فهي كبدٌ بالنسبة له لما أعدّه

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٤١٢ / ٢٤) "وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: لَقَدْ خَلَقْنَا ابْنَ آدَمَ فِي شِدَّةٍ وَعَنَاءٍ وَنَصَبٍ"، ثم قال الطبري رحمه الله: "وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ خُلِقَ يُكَابِدُ الْأُمُورَ وَيُعَاجِلُهَا، فَقَوْلُهُ: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ مَعْنَاهُ: فِي شِدَّةٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: ذَلِكَ أَوَّلَى بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ مَعَانِي الْكَبَدِ".

الله تعالى من النعيم في الجنان.

وقد وضع القرطبي رحمه الله ذلك بقوله: (قَالَ عَلَمًاؤُنَا: أَوَّلُ مَا يُكَابِدُ قَطَعَ سُرَّتِهِ، ثُمَّ إِذَا فُيْطَ قِمَاطًا، وَشُدَّ رِبَاطًا، يُكَابِدُ الضِّيقَ وَالتَّعَبَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْإِرْتِضَاعَ، وَلَوْ فَاتَهُ لَضَاعَ، ثُمَّ يُكَابِدُ نَبْتَ أَسْنَانِهِ، وَتَحْرُكَ لِسَانِهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْفِطَامَ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنَ اللَّطَامِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْحِثَانِ، وَالْأَوْجَاعَ وَالْأَحْزَانَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْمُعْلَمَ وَصَوْلَتَهُ، وَالْمُؤَدَّبَ وَسِيَاسَتَهُ، وَالْأُسْتَاذَ وَهَيْبَتَهُ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ التَّزْوِيجِ وَالتَّعْجِيلِ فِيهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الْأَوْلَادِ، وَالْخُدَمِ وَالْأَجْنَادِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الدُّورِ، وَبِنَاءِ الْقُصُورِ، ثُمَّ الْكِبَرَ وَالْهَرَمَ، وَضَعْفَ الرُّكْبَةِ وَالْقَدَمِ، فِي مَصَائِبَ يَكْثُرُ تَعَادُلُهَا، وَنَوَائِبَ يَطُولُ إِيرَادُهَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ، وَوَجَعِ الْأَضْرَاسِ، وَرَمَدِ الْعَيْنِ، وَغَمِّ الدِّينِ، وَوَجَعِ السِّنِّ، وَآلَمِ الْأُذُنِ. وَيُكَابِدُ مَحَنًا فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ، مِثْلَ الضَّرْبِ وَالْحَبْسِ، وَلَا يَمُضِي عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلَّا يُقَاسِي فِيهِ شِدَّةً، وَلَا يُكَابِدُ إِلَّا مَشَقَّةً، ثُمَّ الْمَوْتَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ، ثُمَّ مَسْأَلَةَ الْمُلْكِ، وَضَغْطَةَ الْقَبْرِ وَظُلْمَتَهُ، ثُمَّ الْبُعْثَ وَالْعُرْضَ عَلَى اللَّهِ، إِلَى أَنْ يَسْتَقَرَّ بِهِ الْقَرَارُ، إِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَإِمَّا فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَمَا اخْتَارَ هَذِهِ الشَّدَائِدَ. وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ لَهُ خَالِقًا دَبَّرَهُ، وَقَضَى عَلَيْهِ بِهِذِهِ الْأَحْوَالِ، فَلْيَمْتَثِلْ أَمْرَهُ.)^(١)

وقفة: فلذلك لا ينبغي أن يظن العبد أن هذه الدنيا دار راحة، بعض إخواننا يريد أن يستريح في الدنيا، لا يتعب لا في أمر دنياه، ولا في أمر أخراه، يريد أن تأتي كل الأمور يسيرةً جداً، لا يمكن، فهذه الدنيا دار تعبٍ ونصبٍ، وكل الأنبياء الكرام تعبوا، وأعظم ما يناله العبد في هذه الحياة الدنيا هو أن يخرج بالتوحيد ويحافظ عليه، ويواظب على طاعة الله عز وجل حتى يخرج من هذا التعب براحةً أبديةً، نسأل الله سبحانه طول العمر وحسن العمل، وحسن الختام.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٢٩٣)

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ هذا الإنسان الذي خلقه الله في كبدٍ، منهم من يجري في الدنيا يميناً وشمالاً - والعياذ بالله - يجمع ويمنع، كما روى الإمام أحمد في مسنده، عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أَصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: ابْنُ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الرَّاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنْتَى أَوَأُ الصَّدَقَةَ؟" ولما سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ " قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: " أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهَلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ " ﴿٧﴾

وقفه: فكلما كان الواحد منا صحيحاً وأموره مستقيمة، وهو صحيحٌ ويأملُ الغنى، وليس عنده مرضٌ، يَظَلُّ يجمع المالَ وقلماً يتصدق، وقلماً ينفق، لكن أفضل الصدقة إذا كان الإنسان قوياً وصحيحاً ومعافى، ولا يخشى المرض، ولا يخشى الفقر، كما في مثل هذه الحال التي في الحديث " أعظم صدقة أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تأملُ الغنى، وتخشى الفقر ".

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٧٨٤٢) وابن ماجه في "سننه" (٢٧٠٧) والحاكم في "المستدرک

"(٣٨٥٥)، من حديث بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٠٩٩)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣٢)، من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أيظن هذا الإنسان أن لن يقدر عليه الله الذي خلقه سبحانه فسوؤه، بلى والله.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ ﴿٦﴾ لُبَدًا: هُوَ فُعْلٌ مِنَ التَّلَبُّدِ، وَهُوَ الْكَثِيرُ، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يُقَالُ مِنْهُ: لَبَدَ بِالْأَرْضِ يَلْبُدُ: إِذَا لَصَقَ بِهَا مَالًا كَثِيرًا مَجْتَمِعًا، فَيَقُولُ هَذَا الْجَلِيدُ الشَّدِيدُ: أَهْلَكْتُ مَالًا كَثِيرًا، فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَنْفَقْتُ ذَلِكَ فِيهِ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ^(١)، وهذا في العبد الكافر ظاهرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦] نسأل الله سبحانه جل جلاله أن يحقق لنا هذا ونراه أمام أعيننا في الكافرين الذين يجاربون هذه الأمة المباركة.

وقفة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ يعني أنفقت في عداوة هذا الدين، وفي حرب الإسلام والمسلمين وتدمير بلادهم أموالاً ومليارات، واعلم أنه ما من إنسان ينفق فلساً، أو أقل في حرب الله، أو في حرب رسوله ﷺ، أو في الصد عن دين الله، أو في أذية عباد الله إلا وهو مخدول مكبوب على وجهه، ويخسر أعظم الخسارة في الدنيا والآخرة، إن لم يتب إلى الله عز وجل.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٧﴾ أيظن الإنسان من أن يفعل ما يشاء ويروح ويغدو عاصياً لله، وينفق أمواله في الحرام، ولا يراه أحد.

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٤١٢ / ٢٤) يَقُولُ هَذَا الْجَلِيدُ الشَّدِيدُ: أَهْلَكْتُ مَالًا كَثِيرًا، فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَنْفَقْتُ ذَلِكَ فِيهِ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ؛ وَهُوَ فُعْلٌ مِنَ التَّلَبُّدِ، وَهُوَ الْكَثِيرُ، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يُقَالُ مِنْهُ: لَبَدَ بِالْأَرْضِ يَلْبُدُ: إِذَا لَصَقَ بِهَا

وقفة: مع الشهود على الإنسان: هناك شهودٌ كثيرٌ تشهد على أعمال الإنسان، السماء تشهدُ عليه، الأرض تشهد عليه ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] أتدرون ما أخبارها؟ فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل عليها، فالأرض تشهدُ عليه^(١)، ورسول الله محمد ﷺ يشهد عليه، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وكذلك جوارح العبد تشهد عليه، ففي صحيح الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَحَّحَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَصْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَاضِلُ^(٢) يقول أنا لا أريد أن يشهد أحدٌ عليَّ لا ملكٌ ولا إنسٌ ولا جنٌّ، أريد أن أشهد أنا على نفسي، فيقول الله تعالى له نعم ها هنا إذا، تعالى قف، يأتي ليتكلم فلا يستطيع يأمر الله لسانه أن

(١) إشارة إلى حديث (ضعيف) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤٢٩) والنسائي في "الكبرى" (١١٦٩٣) وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٦٠) وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٨٣٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أُمَّةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا "، قَالَ: «فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٦٩) والنسائي في "الكبرى" (١١٧٦٥) وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٥٨)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

الوجه الأول: قال بعض أهل العلم هما ثديا المرأة، هدى الله الطفل في الصغر ليرضع منها
 فهما سيلي اللبن الذي يتغذى به، وينبت عليه لحمه وجسمه، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما

والضحاك^(١).

الوجه الثاني: وأكثر أهل التفسير أن معنى قوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي بَصَرَنَاهُ بطريق الحق وطريق الشر، رُوي عن ابن مسعود والربيع بن خثيم وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعكرمة ومجاهد والضحاك^(٢)، وقفة: أخبرنا الله تعالى أن الربا حرام، والزنا حرام، وقتل النفس حرام، والصلاة واجبة، وبر الوالدين واجب، والإحسان إلى الفقراء والمساكين أمر طيب، ولذلك في بعض الأحاديث وهي ضعيفة، (يا ابن آدم هداك الله النجدين، نجد الخير ونجد الشر)^(٣).

ما الذي حَبَّبَ إليك نَجْدَ الشَّرِّ؟ لماذا أُحِبِّتَ بابَ الشَّرِّ؟ فالله عز وجل بيَّن لك الطريقين، فطريق الخير واضح، وطريق الشر واضح، وفي زماننا هذا انتشر العلم، فكلُّ الوسائل إلى العلم متاحة، لا عذرَ لأحدٍ إلا أندَرَ ما يكون، الله بَصَّرَ العبادَ وأزاح عنهم العُدْرَ، وكشف عنهم الغطاء، وبيَّنَ لهم وأحلَّ وحرَّم، والناس صاروا عالمين بهذا، ولكنها الشهوات، والشبهات،

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤١٩)

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤ / ٤١٩) وَأَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: قَوْلُ مَنْ قَالَ:

عُنِيَ بِذَلِكَ طَرِيقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا قَوْلَ فِي ذَلِكَ نَعْلَمُهُ غَيْرَ الْقَوْلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا، وَالتَّوْبَانِ، وَإِنْ كَانَا سَبِيلِي اللَّبَنِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ إِذْ عَدَّدَ عَلَى الْعَبْدِ نِعَمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، إِنَّمَا عَدَّدَ عَلَيْهِ هِدَايَتَهُ إِيَّاهُ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ مِنْ نِعَمِهِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤١٨) عن الحسن وقتادة أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هُمَا النَّجْدَانِ: نَجْدُ الْخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرِّ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ. والضعف من أجل الإرسال.

والغفلة، والتغافل، فأكثر الناس لا يبحثون عن دينهم، ومسائله إلا النذر اليسير، فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ بصّرناه بطريق الحق، وطريق الشر، وطريق الباطل، بين الله تعالى له هذه الطريق طريق الرُّسل، وطريق أعدائهم، طريق أهل الجنة، وطريق أهل النار، وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها^(١)

﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ۝ فَكُ رَقَبَةً ۝ أَوْ إِطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۝﴾

قال الله سبحانه جل جلاله: ﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العقبة فيأمن! ^(٢) فهذا الإنسان الذي يقول أنفقت مالا عظيما، في الصّد عن سبيل الله، وفي حرب هذا الدّين، فلا اقتحم العقبة، هل جازها؟

وقفه: هناك عقبة في الدنيا، وعقبات في الآخرة

عقبة الدنيا: تكون في الاستقامة على طاعة الله، ولذلك ينبغي على العبد دائما وأبدا أن يسأل ربّه أن يُثبّت قلبه على دينه، وأن يحبّ إليه الإيمان، وهناك عقبات في طريق الاستقامة على طريق

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٣)، والترمذي في " سننه " (٣٥١٧)، وابن ماجه في " سننه "

(٢٨٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٨٤٤)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٢٩٧)

الله عز وجل، وفي الاستمسك بدين الله عز وجل - سبحانه وبحمده - هلاً اقتحم العبد هذه العقبات؟ أمامه عقبات في صلاة الجماعة، يأتي الواحد من النوم في وقت الفجر، والشيطان يُزِينُهُ له أجل زينة، ويقول له لا تقم نم أنت بعد ساعة ستقوم إلى العمل، نم أرخ بدنك، اجعل جسمك يأخذ راحته، ثم يغريه الشيطان بأحاديث في غير محلها مثل قول النبي ﷺ: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)^(١)، فيزين له الشيطان التَّخَلُّفَ عن فريضة عظيمة، وقد قال ﷺ: (إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا)^(٢) وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جُنْدَبَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبُكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيَذَرُكَ فَيَكْبَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٣)، أين الرجال؟ أين الشباب في صلاة الفجر؟ إلا من رحم الله، فنسأل الله الإعانة يا رب لنا وللمسلمين أجمعين.

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٩٦٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٢٠)، عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَتْ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلِ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمْ الْآنَ، فَصَلِّ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٧)، ومسلم في "صحيحه" (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٥٧)، والترمذي في "سننه" (٢٢٢)، وابن ماجه في "سننه" (٣٩٤٥)، من حديث جندب ابن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

أما عقبات الآخرة: فهناك صراطٌ وميزانٌ وتطايرٌ صحفٍ، هناك وقوفٌ للعباد ليقصّر ربُّ العالمين من الظالم للمظلوم بعد أن يجوزوا الصراط، يُحبَسُ أهلُ الجنة، يُوقَفُوا، ينادي منادٍ لا يحِلُّ لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده مظلمةٌ، سبحانه الله العظيم لا بد لكل إنسانٍ أن يأخذ حقه، ولا بد أن تُردَّ الحقوق إلى أهلها، وقد روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(١).

لذلك فالإنسان لا يكون آمناً مطمئناً غافلاً ساهياً لاهياً يمشي في حياته كما يريد، بل ينتبه لأن أمامه عقباتِ الله بها عليهم، القبر وظلمته، القبر وضمته، وفي القبر إماروضةٌ من رياض الجنة وإما حفرةٌ من حفر النيران، والبعث والنشور كذلك، إلى غير ذلك مما هو كائنٌ في يوم القيامة، فالسعيد من يكرمه الله سبحانه.

﴿قَالَ أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ربنا تعالى يعظمُ هذه العقبة، فيقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾

ثم أخبر الله عن أعمالٍ جليّةٍ بها تُعبّرُ هذه العقبة،

فقال سبحانه: ﴿فَلَكْ رَقَبَةٌ﴾ يعني إعتاق النفس المؤمنة، وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى يُعْتَقَ فَرْجُهُ بِفَرْجِهِ»^(٢) وفي روايةٍ ثابتةٍ صحيحةٍ رواها أبو

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨٢)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢٠)، وأحمد في " مسنده "

(٧٢٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٥١٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٥٠٩)، من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

داود في سننه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ، أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا، كَانَ فَكَاهُهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزِي كُلُّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ، أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ، كَانَتْ فَكَاهُهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزِي كُلُّ عَضْوٍ مِنْهُمَا عَضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً، كَانَتْ فَكَاهُهَا مِنَ النَّارِ، يُجْزِي كُلُّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهَا»^(١)

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ: أَنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ أَعْتَقَ نَسَمَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُ بَعْضُ مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرْجِهِ، فَأَعْتَقَ عَلِيُّ غُلَامًا لَهُ، أَعْطَاهُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ)^(٢).

وقفه: هذا العبد أراد الناس أن يشتروه من زين العابدين ودفعوا فيه أموالاً طائلة فأبى، لأنه يحبّه جداً، أعطوه عشرة آلاف درهم، مألٌ كثيرٌ جداً فأبى، فلما سمع الحديث دعه وقال أنت حرٌ لوجه الله تعالى.

وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثير المال جداً، بسط الله له في الأرزاق بعد ذلك، وإذا به يملك عبيداً كثيراً، فكان إذا أعجبه عبدٌ من ماله يراه متفانياً في خدمته ومواظباً على صلاته، وغير ذلك من طاعة ربه، يعتقه لله تعالى، فكان العبيد المملوكون عند عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَرَفُوا ذلك منه، فكانوا يذهبون إلى المسجد، ويجتهدون في العبادة، فيعتقهم، فعَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا اشْتَدَّ عَجَبُهُ مِنْ مَالِهِ قَرَبَهُ لِرَبِّهِ، قَالَ نَافِعٌ: وَكَانَ رَقِيقُهُ قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَرَبًا شَمَرَ أَحَدُهُمْ

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (١٥٤٧)، وأبو داود في سننه (٣٩٦٧)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٦١١)

(٢) هو عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ابْنُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ.

(٣) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣٨٦ / ٤)

فَلْيَلْزِمِ الْمُسْجِدَ، فَإِذَا رَأَهُ ابْنُ عُمَرَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الْحَسَنَةِ أَعْتَقَهُ، فَيَقُولُ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَاللَّهِ مَا هُمْ إِلَّا أَنْ يَخْدَعُوكَ، فَيَقُولُ ابْنُ عُمَرَ: فَمَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ، قَالَ نَافِعٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ذَاتَ عَشِيَّةٍ وَرَاحَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى نَجِيبٍ لَهُ قَدْ أَخَذَهُ بِمَالٍ فَلَمَّا أَعْجَبَهُ سَيْرُهُ أَنَاخَهُ بِمَكَانِهِ ثُمَّ نَزَلَ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا نَافِعُ، انْزِعُوا زِمَامَهُ وَرَحْلَهُ، وَجَلِّلُوهُ وَأَشْعِرُوهُ وَأَدْخُلُوهُ فِي الْبُذْنِ.^(١)

وذكروا عن ابن عمر رضي الله عنهما - أيضاً - أن عبداً من العبيد من المماليك عنده كان قد كتبه على مالٍ، فدفع إليه جزءاً يسيراً ثم جاء إليه الناس قالوا أنت مجنونٌ، قال لماذا؟ قالوا تدفع مالاً لابن عمر حتى يعتقك، اذهب إليه فقل عجزت عن الكتابة وسيعتقك، قال فذهب إليه قال يا أبا عبد الرحمن عجزت عن دفع المكاتب التي عليَّ فأحسن إليَّ أحسن الله إليك، واعفُ عني، فقال أين كتابك؟ قال ها هو قال عفوت عنك عسى الله أن يعفو عني، ومحا الكتاب، قال اعفُ عن زوجتي وابني، يعني فهُم مَمَالِيكٌ عندك، فعفا عنهم رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

مسألة: فَكَّ الرِّقَّةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَكِنْ هَذَا فِي زَمَانِ الْعَبِيدِ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ الْآنَ أَنْ يَقُومَ

بهذا؟

هناك أبوابٌ عظيمةٌ في هذا الشرع المبارك تدخل في فَكِّ الرِّقَّةِ، منها السعي في إخراج مسجونٍ من المساجين، فيستطيع المؤمن أن يُخرج مسجوناً مسلماً من سجون الكافرين المجرمين اليهود، أو مسجوناً مسلماً سُجِنَ ظُلماً، قال له بعض الناس هذا مسجونٌ مظلومٌ، طَلِبَ منه خمسة آلاف دولار حتى يخرج من السجن، وهو يستطيع دفع هذا المال، فلا يتردد ولا طرفة عينٍ، فلينفقها لله عسى الله أن يَفْكَ رِقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ،

(١) أخرجه أبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٧٠٧) وذكرها ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣١/ ١٣٣)،

فإن لم يجد مالاً فلقد روى الإمام مسلمٌ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ " ^(١) فيستطيع أن يقول هذه الكلمات كل يوم مراتٍ ومراتٍ، وكذلك ما رواه الشيخان في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ وَحُيِّتَ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ بِمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ " ^(٢) ففي ربيع الساعة دعاءً واستغفاراً، وذكرٌ لله سبحانه، فلو قال العبد هذا الذكر يكون قد أعتق عبداً من عباد الله من الرِّقِّ بفضل الله سبحانه.

الله سبحانه يقول: ﴿أَوْ اطْعَمُوا فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ^(٣) يعني ذي مجاعة، يُصابُ الناس بالفقر والمجاعة، ما أعظم أن تُطعمَ الطعامَ في أَيَّامِنَا هذه التي نَحْيَاهَا، فلقد أُصيبَ الناس في شتى بقاع الأرض بالفقر، مجاعاتٌ تُصابُ بها أمة محمد ﷺ، مع انتشار الحاجة الشديدة، فهنيئاً لك إذا أطعمت الفقراء في هذه الأيام المباركة، ورُوي هذا المعنى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعكرمة ومجاهدٍ وقتادة والضحاك ^(٤)

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٩٣)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٥٨٣)، من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٩٣)، ومسلم في "صحيحه" (٦٩٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٤٢٦ / ٢٤)

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي تطعم يتيمًا، وخاصةً إذا كان قريبك^(١)، (الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ)، والصدقة على القريب ثنتان^(٢)

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ألصقته الحاجة بالتراب وليس له ما يؤويه إلا التراب، ليس له حاجة تُكِنُّه لا بيت ولا غيره، جالسٌ والتراب يسفي عليه هكذا، ورؤي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة^(٣)، أو مسكينًا بمعنى فقيرًا.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني ومع هذه الأعمال الجليلة هو من المؤمنين الذين تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، قال علماؤنا "ما أقل الذين يتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ في زماننا، وواجبٌ علينا أن يوصي بعضنا بعضًا بالصَّبْرِ، خاصةً ونحن في زمان اشتد البلاء فيه على أهل الإيمان جدًّا، ولكن الابتلاء واقعٌ لا محالة، فقد روى الترمذي في سننه عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا مِثْلَ يُتَلَّى الرَّجُلُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةً ابْتُلِيَ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"^(٤)،

وقفة: ليس هناك أحدٌ يسلم من البلاء، ولذلك وجب علينا أن يوصي بعضنا بعضًا بالصَّبْرِ،

(١) ينظر "جامع البيان" (٢٤ / ٤٢٦)

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٦٥٨)، والنسائي في "المجتبى" (٢٥٨٢)، و"السنن الكبرى"

(٢٣٧٤)، وابن ماجه في "سننه" (١٨٤٤)، من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في

مشكاة المصابيح" (١٩٣٩)

(٣) ينظر "جامع البيان" (٢٤ / ٤٢٨)

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٩٨)، والنسائي في "الكبرى" (٧٦٣٨)، وابن ماجه في "سننه"

"(٤٠٢٣)، من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٤٣).

ينال العبد أذى من الظالمين، أو يسمع أذىً، فيبتلى في ماله، أو في غير ذلك - نسأل الله العافية يا رب العالمين - فالصبر وصية الله لنا، وأمر الله لنا أن يوصي بعضنا بعضاً بالصبر.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي كونوا رحماء، ارحموا ترحموا، كما روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، يبلغ به النبي ﷺ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَّن فِي السَّمَاءِ»^(١)، فكما ترحم عباد الله الله يرحمك

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾ أي أولئك أصحاب الجنة - اللهم اجعلنا منهم - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ الكفار هم أصحاب الشمال، وهم أهل النار. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ يعني مُطَبَّقَةٌ^(٢)، ليس فيها منفذ، ولا نور ولا ضوء، ولا باب يُمكن أن يخرجوا منه، كما قال تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]، فكلمة مُؤَصَّدَةٌ يعني مُغلقة محكمة غاية الأحكام. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة البلد بحمد الله ومنته

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٤١) والترمذي في "سننه" (١٩٢٤) وأحمد في "مسنده"

(٦٤٩٤)، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٠٠٦).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٣٢).

سُورَةُ الشَّمْسِ

سورة الشمس سورة مكية باتفاق أهل العلم^(١)، وآياتها خمس عشرة، نزلت بعد سورة القدر.

ومناسبتها لما قبلها:

- (١) أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، وأعاد ذكر الفريقين في هذه السورة بقوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» .
- (٢) ختم السورة السالفة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، وختم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا.^(٢)

وقد جاء في الصحيحين أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقْرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَرَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْنُ أَنْتَ - ثَلَاثًا - اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَسَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (١٥ / ٤٥٤) أخرجه ابن الضريس والنحاس ، وابن مردويه والبيهقي

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير

مثله ، ونقل : الماوردي في " النكت والعيون " (٦ / ٢٨١) ، وابن الجوزي في " زاد المسير " (٩ / ١٣٧) ،

وغيرهم ، الإجماع على كونها مكية .

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٦٥)

وَنَحْوَهَا" ^(١) يعني أمره أن يقرأ بأمثال هذه السور في صلاة العشاء.

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّلَهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ⑩﴾

يُقسمُ الله تعالى في هذه السورة العظيمة بعدة أقسام:

يقول تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ①﴾ يُقسمُ الله تعالى بالشمس لأنها آية باهرة عظيمة،

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، هو الذي جعل

الشمس ضياءً لأن حرارتها من نفسها، فالله تعالى جعل الشمس تضيء الكون كله، فهي آية باهرة تدلُّ على الله العظيم ربَّ العرش العظيم جلَّ جلاله.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ①﴾ لأهل العلم أوجه في المقصود بقوله تعالى (وَضُحَاهَا) منها:

الوجه الأول: يعني وضوئها، فالله تعالى يُقسم بضوء الشمس ^(٢).

الوجه الثاني: قيل: بحرارة الشمس ^(٣).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٥)، و(٦١٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (٤٦٥) والنسائي

في "الكبرى" (٩٩٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٣٤) عن مجاهد، ونسبه ابن الجوزي في "زاد المسير" (٩ /

١٣٧) لمجاهد والزجاج.

(٣) قال الماوردي رحمه الله في "النكت والعيون" (٦ / ٢٨١) وفي ضحاها أربعة أوجه الثالث: حرها قاله

الوجه الثالث: وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنَّ الضُّحَا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَبُعِيدَ ذَلِكَ قَلِيلًا^(١)

الوجه الرابع: قيل: يعني بضحائها النهار كله، لِأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ الظَّاهِرَةَ هُوَ النَّهَارُ^(٢)

وهذه الأقوال كلها صحيحة، يعني أن الله - عز و جل - يقسم بالشمس و نورها، ويقسم بالشمس و حرارتها، ويقسم بالشمس والنهار كله.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا﴾ يقسم ربُّ العِزَّةِ أيضاً بالقمرِ إذا تلا الشمس، وَذَلِكَ فِي النُّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ، إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، تَلَّهَا الْقَمَرُ طَالِعًا، وَالشَّمْسُ تَتْلُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَعْنِي بَعْدَ النُّصْفِ الْأَوَّلِ^(٣).

وكلُّ هذه آياتٌ لا يستطيعُ أن يأتيَ بها إلا اللهُ العَظِيمُ ربُّ العرشِ العَظِيمِ، قال تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ^(٤) [يس: ٣٨، ٣٩]، فهذه آياتٌ في الكونِ تدلُّ على وحدانيةِ الله - عز و جل -، وصدق من قال:

فواعجباً! كيف يُعصى الإلهُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ
أم كيف يَجِدُّه الجاحدُ؟
تدلُّ على أنه واحدٌ.^(٥)

السدي، وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي " زاد المسير " (١٣٧ / ٩) (والثالث حرها قاله السدي ومقاتل).

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٣٠٨)

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " عن قتادة (٢٤ / ٤٣٤)، وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي " زاد المسير " (٩ /

١٣٧) (والثاني النهار كله قاله قتادة وابن قتيبة)

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي " جامع البيان " (٢٤ / ٤٣٥) وَالْقَمَرَ إِذَا تَبَعَ الشَّمْسُ، وَذَلِكَ فِي النُّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ

الشَّهْرِ، إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، تَلَّهَا الْقَمَرُ طَالِعًا. وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومجاهد و قتادة وابن زيد

(٤) ينظر " ديوان أبي العتاهية " (ص ٤٦).

﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ فيه وجهان للمفسرين:

الأول: يعني أن النهار جلى الشمس وأظهرها، لأن ظهور الشمس بالنهار.

الثاني: يعني جلى الأرض كلها وأظهرها وأوضحها.^(١)

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشاها يعني يغطيها كما تغطي الشيء بالثوب فيُغْطِيهَا وَيُعْمُهَا

بظلامه، وهذان متقابلان متضادان، ولا يستطيع أن يأتي بالنهار والليل إلا الله الواحد الأحد، لو احتاج الخلق أن يضيئوا نهارهم بأنفسهم ما استطاعوا، فكم تُنْفِقُ الدُّوْلُ في إضاءة هذه المدة من الليل فقط، فما بالنا بإضاءة النهار كله؟

والله تعالى جعل الليل لباساً والنهار معاشاً، ففي النهار يُنْطَلِقُ النَّاسُ ويسعون في قضاء حوائجهم، وفي الليل ينامون ويهدئون.

وقد اختلف في مرجع الضمير في يغشاها، ف قيل راجع إلى الشمس، وقيل: راجع إلى الأرض.^(٢)

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ولأهل العلم قولان في معنى (وَمَا بَنَاهَا) وهما:

القول الأول: قال أكثر أهل العلم في قوله (وَمَا بَنَاهَا): (ما) مصدرية، فالمعنى: والسماء وبنائها^(٣)، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] بما غفر لي ربي يعني بغفران ربي لي.

و القول الثاني: "وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا" قالوا: ما موصولة بمعنى الذي، فالمعنى: والسماء

(١) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٢٨٢ / ٩)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٤١٠ / ٨).

(٢) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٢٨٢ / ٦)، و "تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٥٣٨ / ٨).

(٣) هو قول قتادة كما أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤٣٨ / ٢٤) والماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٢٨٢)، وذكره ابن الجوزي في "زاد المسير" (١٣٩ / ٩)، عن الزجاج أيضاً

والذي بناها، وهو الله سبحانه.^(١)

ولكن أهل العلم يقولون: أن القول الأول أرجح، لأن الله لو أراد أن يُقسم بنفسه العلية لأقسم بها ظاهراً - سبحانه وبحمده -.^(٢)

والسما آيةٌ باهرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ عَائِيَّتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] تبارك الله العظيم.

ولذلك عندما سُئل أعرابيٌّ عن الدليل على وحدانية الله؟ فقال: البعرة تدلُّ على البعير، والروثُ على الحمير، وآثارُ الأقدامِ على المسير، فسماءُ ذاتُ أبراجٍ، وأرضُ ذاتُ فجاجٍ، وبحارُ ذاتُ أمواجٍ، أما تدلُّ على الصانعِ الحليمِ العليمِ القديرِ؟!

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٤٣٧/٢٤)، و"النكت والعيون" للماوردي (٢٨٢/٦)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (١٣٨/٩). وقال المراغي رَحِمَهُ اللهُ فِي "تفسيره" (١٦٧/٣٠) "وفي ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة، وأن لها صانعا حكيما قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتماسك. ولما كان الخطاب موجها إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينظروا في هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثرا، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى - عبر عن نفسه بلفظ (ما) التي هي الغاية في الإبهام."

(٢) ينظر "روح المعاني" للألوسي (٦٧/٢٩).

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا﴾ طحاها يعني بَسَطَهَا و مدَّها وجعلها مستوية^(١)، يستطيع الناس أن يقضوا عليها معاشهم.

و(ما) هنا فيها القولان السابقان في الآية التي قبلها، إما أن تكون مصدرية فيكون المعنى: والأرض وطحَّوها، أو تكون (ما) موصولة بمعنى الذي، فيكون المعنى: والأرض الذي طحاها.^(٢)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ سَوَّاهَا: يعني خلقها سوية على الفطرة السليمة^(٣)، قال الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجَّسَّانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [الروم: ٣٠] الآية^(٤).

﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فيه وجهان للمفسرين:

الأول: أي الزَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، يَعْنِي بِتَوَفِّيقِهِ إِيَّاهَا لِلتَّقْوَى، وَخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا لِلْفُجُورِ.^(٥)

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٣٩) بسنده عن مجاهد و ابن زيد

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢ / ٣١١)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤١١)

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤١١)

(٤) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٥٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٥) وهو قول سعيد بن جبير، وجابر بن زيد، واختاره الزجاج. ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٤٢)، و

زاد المسير "لابن الجوزي (٩ / ١٤٠)، و "معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٤٣٨).

فهذه النفس بيد الله، هو الذي يُلهم العبدَ التقوى، وهو الذي يُلهمه الفجور - نعوذ بالله -
لذلك قد نرى إنساناً كان صالحاً ثم يصيرُ بعد ذلك من أفجرِ الفاجرين، وقد نرى إنساناً كان
مجرماً ثم يصير بعد ذلك من أصلحِ الصالحين، فاللهُ هو الذي ألهم هذه النفس الواحدة فجورها
وتقواها، فَقَذَفَ في هذه النفس حُبَّ الشرِّ أو حُبَّ الخير، ولذلك ينبغي على العبد أن يبرأ من
حولِه وقوَّتِه، ويعلم أنه ضعيفٌ وأنه بيد سيِّدٍ قويٍّ، وقد قال الرسول - ﷺ - "وقلب ابن آدم
بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أزاغهُ، وإن شاء أقامهُ"^(١)، ولذلك قالت أمُّ المؤمنين
عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ: "يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى
دِينِكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْوَةُ أَرَاكَ وَأَسْمَعُكَ تُكْثِرُ أَنْ تَدْعُوَ بِهَا، يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي
عَلَى دِينِكَ، قَالَ: لَيْسَ مِنْ أَدَمِي إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ
أَزَاغَهُ."^(٢)

من الناس مَنْ قُدِفَ في قلبه حُبُّ الخير، وحُبُّ قضاء حاجات المسلمين، وحُبُّ صوم
النافلة، وحُبُّ الصدقة، فيتصدق حتى وإن كان فقيراً، ومن الناس مَنْ يُخَذِل فلا يرغب في هذا
الخير - والعياذ بالله -.

إشكالٌ والجوابُ عليه:

جاء عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ

(١) (صحيح) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٦٥٥٧)، والطبري في "جامع البيان" (٥ / ٢٣١)، من

حديث سبرة بن فاتك الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٧٤٧).

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢١٤٠) من حديث أنس و(٣٥٢٢)، من حديث أم

سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والنسائي في "الكبرى" (٧٨٨٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في

السلسلة الصحيحة" (٢٠٩١).

الْيَوْمَ وَيَكْذِبُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيِّهُمْ، وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ وَمَلَكَ يَدَهُ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَخْزَرِ عَقْلِكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُرَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْذِبُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: "لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) "١١

هذا حديثٌ عظيمٌ يحلُّ لك إشكالاً كبيراً جداً، فبعض الناس يحتجُّ بالقدرِ على انحرافه ومعاصيه، فيقول: لو أراد الله أن يهديني لهداني!

والجواب على ذلك: أن نقول نعم، كلُّ شيءٍ بقدر، والله يقول ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، لكنه سبحانه لا يظلم الناس شيئاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فلو يعلم الله في العبدِ خيراً لهيأه للخير، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل ٥ - ١٠]، ففي هذا الحديث العظيم أن كلَّ ما يعملُه العبادُ الآن من طاعةٍ وعصيانٍ، ومن برٍّ وإحسانٍ، وغير ذلك، كلُّه قضاءٌ يقضيه عليهم ربُّهم - سبحانه و بحمده -، وسبق في علم الله وكتبه، فكتب ما هو كائنٌ قبل أن يخلق الخلقَ بخمسين

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٥٠)، وأحمد في "مسنده" (١٩٩٣٦)، من حديث أبي الأسود

الدبلي عن عمران ابن حصين رضي الله عنه، به.

أَلْفَ سَنَةٍ^(١)، وَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَى هَذَا بَلْ إِنَّهُ يُلَاقِيهِ عَلَى سَعْيِهِ، وَيُمَدِّحُ أَيْضاً بِسَبَبِ سَعْيِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّاحِحِينَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنْزِلَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ} [الليل: ٦]، إِلَى قَوْلِهِ {فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ} [الليل: ١٠]^(٢)

الوجه الثاني: أَي بَيَّنَّ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَعَلَّمَهَا الطَّاعَةَ وَالْمُعَصِيَةَ، وَعَرَفَهَا مَا تَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ وَمَا تَنْتَقِي مِنَ الشَّرِّ.^(٣)

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (قد) هنا للتحقيق^(٤)، يَعْنِي أَفْلَحَ يَقِينًا، وَالْفَلَاحُ هُوَ الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٥٣)، والترمذي في " سننه " (٢٢٩٦) وأحمد في " مسنده "

(٦٥٧٩) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: " كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٤٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٤٧)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٤٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومجاهد وقتادة والضحاك وسفيان وينظر " معالم التنزيل " للبغوي (٨ / ٤٣٨).

(٤) ينظر " مغني اللبيب عن كتب الأعراب " لابن هشام الأنصاري (١ / ١٩٣).

وقوله { **مَنْ زَكَّاهَا** } أَي مَنْ زَكَّى اللهُ نَفْسَهُ بِالطَّاعَةِ، **﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾** (١٦) أَي خَسِرَتْ نَفْسٌ دَسَّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَعْصِيَةِ^(١)، قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: ٤٩].

وقيل: أفلح مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِطَاعَةِ اللهِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَخَابَ مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي^(٢).
ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: " اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها "، قال: فقال زيد بن أرقم رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن^(٣).

مِنْ سُبُلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ:

أَعْظَمُ سَبِيلٍ يُزَكِّي النَّفْسَ: كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** [الإسراء: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** (٥٧) **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾** (٥٨) [يونس: ٥٧، ٥٨]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [الأنعام: ١٥٥]، فعلى العاقل اللبيب أن يقبل على كتاب ربه، ولا ينشغل عنه بشيء، فمهما كانت إنشغالات الإنسان لا ينبغي أن يهجر القرآن، وبعض

(١) قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣١٤)

(٢) قاله قتادة وغيره. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣١٤)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٢٢)، وأحمد في "مسنده" (١٩٣٠٨)، من حديث زيد بن أرقم

الناس يقول أنا أعمل عشر ساعات في اليوم، نقول له: اجعلها إحدى عشرة، ولتكن هذه الساعة الزائدة شُغْلَكَ مع القرآن، حفظاً ومراجعةً وقراءةً وتدبراً، وسيجد البركة كل البركة مع القرآن الكريم، وتزكو نفسه وتطيب.

ومما يُزَكِّي النفس كذلك: سنة رسول الله - ﷺ - وسيرته.

ومما يُزَكِّي النفس كذلك: سير الصالحين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهذا شيء عظيم يؤثر في أخلاق العبد، فإذا كان الإنسان بخيلاً، ونظر في جود الصحابة وكرمهم وبذلهم للمال، لوجد من نفسه نشاطاً في النفقة، وهكذا في كل باب من الأبواب.

ومما يُزَكِّي النفس كذلك: الصلحة الصالحة، فهي تؤثر في النفس تأثيراً كبيراً، فلا يصاحب الإنسان إلا مؤمناً، يصاحب من يَدُلُّه على الله، فالمرء على دين خليله^(١)، والصاحب صاحب. ومما يُزَكِّي النفس كذلك: ملازمة أعمال الخير، ومجاهدة النفس، ومراقبة الله في السر والعلن، وكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر، وأن يُكثِر من (لا حول ولا قوة إلا بالله).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَلَهَا﴾ (دَسَلَهَا) يعني أخفاها كما قال الله - سبحانه: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩] يعني يخفيه في التراب، والمعنى أن العاصي أخفى نفسه ولم يُظهر ما فيها من جميل الخصال، أما المؤمن المطيع فيُظهر نفسه بأعمال البر والخير.

ثم ضرب الله - سبحانه جل جلاله - مثلاً حقيقياً لمن دَسَّى نفسه، فقال:

(١) (حسن) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٨٣٣)، والترمذي في "سننه" (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

، به.

وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩٢٧)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ^(١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ^(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ^(١٣)
﴿كَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ^(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ^(١٥)﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بسبب طغيانها وعنادها وعصيانها ^(١١)
في الحجر، وهؤلاء كذبوا وعاندوا.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بسبب طغيانها وعنادها وعصيانها ^(١١)
ومن المفسرين من قال: يعني بعذابها الذي وعدهموه صالح عليه السلام، فكان ذلك
العذاب طاعياً طغى عليهم ^(١٢)، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ^(١٣) [الحاقة: ٥]،
كذبوا بالطغوى يعني العذاب والهلاك الذي أخبرهم به نبيهم صالح عليه السلام، حين قال:
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ^(١٤) [هود: ٦٥].

وكانوا قد سألوا نبيهم صالحاً آيةً باهرة، فقالوا: أتريد أن نؤمن لك؟ قال: نعم، قالوا: ترى
هذه الصخرة الصماء في الجبل؟ ادع ربك أن يخرج منها ناقةً عشاء، فأخذ عليهم العهد والمواثيق
لو دعا ربّه يطيعوه؟ قالوا: نعم، فقام يصلي لله و دعا ربّه - سبحانه جل جلاله - فإذا بالصخرة
تَنَشَّقُ عَنْ نَاقَةٍ عَظِيمَةٍ فَارِهِةٍ، وهذه الناقة عشاء ولكنهم كذبوا بآيات الله، وقال الله عنها: ﴿قَالَ
هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ^(١٥) [الشعراء: ١٥٥] هي تشرب من الماء يوماً،
وفي اليوم الثاني أنتم تشربون، وفي اليوم الثاني الذي لا تشرب هي فيه، تُسَقِّمُ لَنَا يَكْفِي الْقَبِيلَةَ
كلّها بأسرها، وكانت الناقة تسرح في بعض تلك الأودية تَرِدُ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسَعَهَا؛

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٤٨)، عن محمد بن كعب القرظي

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٤٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد وابن زيد.

لأنها كانت تتصلع عن الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ومنظراً رائِعاً، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فعزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم.^(١)

﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث أي قام بقوة وعزيمة، والانبعاث هو الانطلاق بقوة، وهذا يدلُّ على أنه كان مُصمِّماً على قتل الناقة، وعلى محاربة الله ورسوله.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا لا تمسوها بسوء، واتقوا الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ الذي عقرها واحد فقط،

ومع ذلك قال الله (فَعَقَرُوهَا) بصيغة الجمع، ولم يقل (فعقرها)، وذلك لأنه لم يفعل ذلك حتى وافقته القبيلة كلها بأسرها، قال العلماء: جعل يُمَرُّ عليهم واحداً واحداً يأخذ منهم الموافقة على قتل الناقة فوافقوه، ولذلك قال الله تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) وهذا يدلُّ أن الراعي بالمعصية شريك فيها - والعياذ بالله -، فمن دبر أمراً فيه شرٌّ على المسلمين ووافقه غيره، فلا شك أن الجميع آثم.

وقد وصف النبي ﷺ عاقر الناقة، والحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يحطِّب، وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله ﷺ: " {إِذْ

أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس: ١٢] انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ، منيعٌ في رهطه، مثل أبي زمعة".^(٢)

إذاً فهو رجلٌ شريف ذو منزلة قوية عالية، عزيزٌ منيعٌ في رهطه، مثل أبي زمعة والد عبد الله بن زمعة، فقد كان شريفاً جداً.

(١) ذكرها ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٣/ ٤٤٠) بسياق أطول من ذلك.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٤٢)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٥٥)، من حديث عبد

الله ابن زمعة رضي الله عنه، به.

دَمَدَمَ أَي دَمَّرَ وَأَحْلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ وَأَهْلَكَ وَ سَوَّى كُلَّ شَيْءٍ، صَاحَ بِهِمْ صِيحَةً وَاحِدَةً فَصَارُوا هَلَكَى كُلَّهُمْ - وَ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

دَمَّرَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ (بِذَنْبِهِمْ) أَي بِسَبَبِ ذَنْبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ صَاحِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَوَّاهَا أَي سَوَّى دَنِيَاهُمْ تَمَامًا بِتَهَامٍ فَأَهْلَكَهُمْ وَصَارَتْ بَيُوتُهُمْ تُرَابًا فَسَوَّاهَا^(١)

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(١٥) أَي أَنَّ رَبَّنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ فِعْلِهِ، أَمَّا بَعْضُ الْمُلُوكِ فِي الدُّنْيَا لَوْ عَاقَبَ بَعْضُ الرِّعْيَةِ قَدْ يَخَافُ رَدُودَ أَفْعَالِهِمْ، لَكِنْ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ^(٢).

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَصِفَاتِكَ الْعُلْيَا أَنْ تَدِيمَ نِعْمَكَ عَلَيْنَا وَأَنْ تَدِيمَ الْإِيمَانَ عَلَيْنَا وَ أَنْ تَنْجِنَا مِنَ الْعَصْيَانِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَتْ نَفُوسُنَا تَقْوَاهَا وَ زَكَاةَهَا يَا رَبَّ أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاةَ أَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَ مِنْ دَعَاءٍ لَا يَسْتَجَابُ لَهُ اللَّهُمَّ هِيَءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا وَ اجْعَلْنَا مِنْ عِبِيدِكَ السَّعِيدِ اللَّهُمَّ اسْتَخْدِمْنَا دَائِمًا أَبَدًا فِي طَاعَتِكَ وَ رِضَاكَ، وَأَطْلِ أَعْمَارَنَا وَأَحْسِنْ أَعْمَالَنَا وَأَحْسِنْ يَا رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ خَاتَمَتَنَا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

تم الانتهاء من تفسير سورة الشمس بحمد الله ومنتته

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٥٠).

(٢) قال الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٥٠) (لَا يَخَافُ تَبَعَهُ دَمَدَمَتِهِ عَلَيْهِمْ) وَأَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

﴿سُورَةُ اللَّيْلِ﴾

وهي سورة مكية^(١)، وآياتها إحدى وعشرون، نزلت بعد سورة الأعلى.

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم وخيبة المدسّين لها وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح وما تحصل فيه الخيبة، فهي كالتفصيل لسابقتها.^(٢)
هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۝﴾ يُقسم ربُّ العِزَّة سبحانه بالليل عندما يغشى الدنيا بظلامه، فيُغْطِّيها كما يُغْطِّي أحدكم الشيء بثوبه.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾ يُقسم سبحانه بالنهار إذا انكشف ووضّح وظهر، وبأن بضوئه عن ظلمة الليل. وهذه آيات متقابلة متضادة مختلفة، وهي تدلُّ على الخالق العظيم جلّ جلاله وتباركت أسماؤه، وفيها حكيم عظيم، فجعل الله تعالى النهار مُنيراً مُشرقاً ليسعى العباد في

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٤٦٤) أخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه والبيهقي

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۝﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير

رضي الله عنه، وقال ابن عطية رحمه الله في "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٩٠) وهي مكية في قول الجمهور، وقال

المهدي وقيل هي مدنية وقيل فيها مدني وعددها عشرون آية بإجماع.

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٧٣)

مصالحهم ومعاشهم، ولو أنك في الليل وأطفأت الأنوارَ لوجدتَ ظلمةً عظيمةً، فجعل الله سبحانه الليلَ سكناً للعباد ، حتى تنقطع حركتهم ويستريحوا من عناءِ التعب الذي باشروه بالنهار، حتى يستطيعوا المواصلةَ لقضاء أمورهم ومعاشهم .

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (ما) هنا يُحتملُ أن تكون مصدرية^(١)، فيكون المرادُ أن الله جل جلاله أقسم بخلقِ الذكرِ والأنثى، وما ذلك إلا لما في خلقِ الذكر والأنثى من الدلالةِ العظيمةِ على قدرةِ الله سبحانه وتعالى، إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى، في الحيوان، يحصل بمحض الاتفاق، فإن مادة الخلق واحدة، والأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى، فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكراً وتارة أنثى، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، محكم فيما يضع ويصنع^(٢).

القول الثاني: أن تكون (ما) موصولةً بمعنى (من) يعني: ومن خلق الذكر والأنثى^(٣)، فيكون إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه خالقُ الذكور والإناث.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٢٠)

(٢) ينظر "محاسن التأويل" للقاسمي (٩ / ٤٨٤)، وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي "تيسير الكريم الرحمن" (ص: ٩٢٦): "وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. اهـ

(٣) وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِ. ينظر "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ص ٣٠١)، والجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٣٢٠)

قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة فمن فاعل خيراً أو من فاعل شراً". اهـ^(١)

فكما أن الليل مُخْتَلِفٌ عن النهار، وكذلك الذكر مُخْتَلِفٌ عن الأنثى، فكذا علموا أن سعيكم شَتَّى، يعني مُخْتَلِفٌ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَسْعَى فِي فِكَائِ نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى فِي إِهْلَاكِهَا. والعياذ بالله..، كما قال الحبيب ﷺ: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا".^(٢)

فَمَنْ يُصْبِحُ الصَّبَاحَ وَهُمَّ إِرْضَاءُ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، يَكُونُ مَشْغُولاً فِي هَذَا النَّهَارِ بِأَرْجَى الْأَعْمَالِ قَدراً وَثَوَاباً عِنْدَ اللَّهِ لِيَتَقَرَّبَ بِهَا إِلَيْهِ، وَيَكُونُ مَشْغُولاً بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا عَنِ الْمَعَاصِي مَا اسْتَطَاعَ، وَمَشْغُولاً بِأَنْ يَعْلِيَ دِينَ اللَّهِ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُصْبِحُ وَلَيْسَ لَهُ هُمْ إِلَّا الْبَحْثُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ وَأَذِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾: مِنْكُمْ مَنْ يَسْعَى فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَسْعَى - والعياذ بالله - فِي الْإِفْسَادِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾: مِنْكُمْ مَنْ يَسْعَى لِلْآخِرَةِ وَيُرِيدُهَا وَهِيَ نُصَبَّ عَيْنِيهِ، وَمِنْكُمْ مَنْ جَعَلَ الْآخِرَةَ خَلْفَ ظَهْرِهِ، لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا يُفَكِّرُ فِيهَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَسْبَابَ زَكَاةِ النَّفْسِ، فَقَالَ:

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤١٧)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٣) والترمذي في " سننه " (٣٥١٧) وابن ماجه في " سننه "

(٢٨٠) من حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾

وما أجمل ما قال بعض أهل العلم من أهل التفسير قال: أقسم الله تعالى في سورة الشمس على فلاح من زكى نفسه وعلى خيبة من دساها، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، ثم يبين أسباب هذه الزكاة وهذه الطهارة في سورة الليل فقال ربنا جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ - ٧].^(١)

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾﴾ أعطى ما أمر به، واتقى ربه واجتنب مساخطه، فأعطى المال بأن أخرج الزكاة الواجبة، وأنفق في أبواب الخير والبر في الطاعات والنوافل والقربات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.^(٢)

(١) قال البقاعي رحمه الله في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" (٢٢ / ٨٥) لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها، وأوضح في آخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في تحصيل نجد الخير ونجد الشر، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللبس، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى، فتباينوا في مقاصدهم، وفي مصادرهم ومواردهم، بعد أن أثبت أنه هو الذي تصرف في النفوس بالفجور والتقوى، أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ضره ونفعه على ذلك، تنبيهاً على تمام قدرته في أنه الفاعل بالاختيار، يحول بين المرء وقلبه حتى يحمله على التوصل إلى مراده، بضد ما يوصل إليه بل بما يوصل إلى مضاده، وعلى أنه لا يكاد يصدق الاتحاد في القصد والاختلاف في السعي والتوصل، وشرح جزاء كل تحذيراً من نجد الشر وترغيباً في نجد الخير، وبين ما به التزكية وما به التدسية.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٦٠)

أعطى ما أُمِر به، فكلُّ إنسانٍ أُمِرَ بَعْطاء، العالمُ أُمِرَ أن يُعطيَ العلمَ للناس فيعلمهم، والغنيُّ أُمِرَ أن يُعطيَ المالَ لعبادِ الله يواسيهم، وصاحبُ الجاهِ أُمِرَ أن يشفعَ لعبادِ الله وينفعهم بجاهه، وإن لم تجد شيئاً فيمكن لك أن تعطيَ عبادَ الله ابتسامةً طيبةً، كما قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(١)

﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾: اتقى الشُّحَّ، واتقى البُخلَ، واتقى الفخر والعلو على عباد الله.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: الحسنَى لها عدة معان:

منها: صدَّقَ بالْحَلْفِ من الله^(٢)، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٣)

[سبأ: ٣٩]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ، أَعْطِ مُتْسِكًا تَلْفًا"^(٤)

وروى ابن جرير من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبِجَنِّيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٢٦) وأحمد في " مسنده " (٢١٥١٩)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٤٦٤/٢٤) وأولاهما بالصواب عندي: قَوْلُ مَنْ قَالَ: غَنِي بِهِ التَّصَدِيقُ بِالْحَلْفِ مِنَ اللَّهِ عَلَى نَفَقَتِهِ وأخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٤٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه به.

مُنْفِقًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا " فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنَ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٦] إِلَى قَوْلِهِ {لِلْعُسْرَى} ^(١).

ومنها: صدق بالحسنى، أي بالجنة ^(٢)، لقول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي رضوان الله العظيم.

ومنها: صدق بالحسنى، أي بالتوحيد ^(٣)، صدق بأن لا إله لهذا الكون إلا ربُّ العالمين، صدق بأنه فعال لما يريد، وأنه المستحقُّ للعبادة سبحانه وبحمده وتباركت أسماؤه وتعالى صفاته.

﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ ^(٤) يعني سنيسه للفعلة اليسرى وللطريقة اليسرى وسنيسه للحياة اليسرى في الآخرة التي بها كمالُ سعادته.

وقال بعض أهل العلم: أي ييسر الله تعالى أمر ذلك العبد الذي يطيعه ويتقيه، ويجعل اليسر ملازمًا له في أموره كلها، وعلى العكس تمامًا تجدد أمور العاصي متعسرة ^(٥).

وقال بعض أهل العلم أيضاً: فسنيسه للجنة وينال ذلك بالأعمال الصالحة التي وفقه الله تعالى لها ^(٦)، وفي الحديث الذي في الصحيحين عن عليٍّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْعَرْقَدِ،

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٦٥)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٦٥).

(٣) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٦٣) وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَصَدَّقَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالضَّحَّاكِ وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم.

(٤) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦ / ٢٨٨) وقال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ /

٣٢٥) ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ أي تُرْشِدُهُ لِأَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، حَتَّى يَسْهَلَ عَلَيْهِ فِعْلُهَا.

(٥) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٤٧٢) (وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن

فَاتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مُحْضَرَةٌ فَكَسَّ فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِمُخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ:
 «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْثُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ
 كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَمُكُّثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ:
 «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ
 إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» فَقَالَ: «اعْمَلُوا فِكُلِّ مَيْسَرٍ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ
 السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾
 وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾
 فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠] ^{١١}

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ أي بخل بالمال على عباد الله، ولم يبدله في وجوه البر والخير
 ومشى في هذا المال مكباً على وجهه.

قال القرطبي رحمه الله: " قال العلماء: ثبت بهذه الآية - وبقوله تعالى: {وَمَا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣]، وقوله: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [البقرة:
 ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات - أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أردلها، وليس الجواد
 الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي

المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ قال: بالجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ قال: الجنة.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٦٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٤٧)، من حديث علي

رضي الله عنه، به.

يُعْطَى فِي مَوْضِعِ الْعَطَاءِ، وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَمْنَعُ فِي مَوْضِعِ الْعَطَاءِ، فَكُلُّ مَنْ اسْتَفَادَ بِمَا يُعْطَى أَجْرًا وَحَمْدًا فَهُوَ الْجَوَادُّ، وَكُلُّ مَنْ اسْتَحَقَّ بِالْمَنْعِ ذِمًّا أَوْ عِقَابًا فَهُوَ الْبَخِيلُ" اهـ^(١)

﴿وَأَسْتَغْنَى﴾: استغنى بماله عن ربه، وظن أنه ليس في حاجة إلى الله تبارك وتعالى، وليس في حاجة إلى الإحسان إلى الفقراء لعل الله أن يحسن إليه^(٢).

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾: يقال فيها ما قيل في الحسنى الأولى، يعني كذب بالجنة، وكذب بلا اله إلا الله، وكذب بالطريقة الحسنى .

﴿فَسَيُنْزِلُ اللَّهُ الْعَسْرَى﴾: يعني نُعَسِّرُ له أموره، و يُدْفَعُ دفعاً لأبواب الضيق والشدة، وقال أهل العلم: كلمة اليسرى تُطْلَقُ في الفرح والبشر والخير، ولا تُطْلَقُ في التعسير إلا إذا قُرِنَتْ بما يدل على ذلك، بمنزلة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، والبشارة في الأصل على المُفْرِحِ والسارِّ، فإذا جُمِعَتْ في كلامين: هذا خير، وهذا شر، جاز التيسير فيهما جميعاً^(٣).

وَصَدَقَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ لما قالوا: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحُسْنَةِ الْحُسْنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا^(٤).

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٢٦)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٦٦)

(٣) قاله الفراء في "معاني القرآن" (٣ / ٢٧١)

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في "أمراض القلوب وشفائها" (ص ٣٩) وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ كَسْعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ إِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحُسْنَةِ الْحُسْنَةُ بَعْدَهَا وَإِنْ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا.

وصدقوا - والله - فالإنسان يجِدُ هذا في معاملته مع الناس وفي عمله وفي أهله وفي أولاده وفي والديه، فإذا أطاع الله يجِدُ هذا أمامه، وإذا عصى الله يجِدُ العقوبة أيضاً أمامه، والله يغفر ويرحم سبحانه جلّ جلاله .

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾^(١١) وما يُغْنِي عن هذا الغنيّ ماله الذي ضنَّ به وشحَّ به، {إِذَا تَرَدَّى} يعني إذا هلك وسقط في نار جهنم، يقول حينها: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾^(١٢) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ^(١٣) [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، فماذا أغنى عنه المال لما بخل وشحَّ وضنَّ به، واستمتع به في صنوف المتع المحرمة؟

وقفه: إن المال لا ينفع العبد إلا إذا أنفقه في وجوه الخير والبر، وهينئاً لعبدٍ من عباد الله جعل ماله يسبقه إلى الجنة.

"يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟"^(١٤)

وربُّنا يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾^(١٥) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(١٦) [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ويقول جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَضِيعِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾^(١٧) [سبأ: ٣٧]، وقوله: {إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} يعني لكن من آمن وعمل صالحاً^(١٨).

وقال ربُّنا جلّ ذكره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(١٩) [آل عمران: ١٠]، وقال الحبيب - ﷺ - "يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٥٨) والترمذي في " سننه " (٢٣٤٢)، من حديث مطرف، عن أبيه ، به .

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " (٣٢٣ / ١٧)

فَإِزْجِعْ أَثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ"^(١)، وقال - ﷺ - "يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْدُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمَسِّكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُتْلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"^(٢)، فنسأل الله أن يجعلنا من عباده الْمُؤَفَّقِينَ.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۚ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۚ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۖ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتِنَعًا وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ وَلَسَوْفَ يَرْصَىٰ ۚ﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ﴾ وهذه ضمنها الله وتكفل بها، فالهدى من عند الله فقط، فوالله لو بدّل الإنسان الدنيا كلّها من أجل أن يهدي أحبّ الناس إليه ولم يكتب الله له الهدى فلن يهتدي أبداً، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحِدَ لَهُ ۚ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۚ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۖ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ۚ لِلْإِسْلَامِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥] يجعله يقبل على الصلاة منشرح الصدر، ويجعله ينفق عن طيب نفس، ويجعله يقرأ القرآن محباً لكلام ربه جل جلاله، ويبرّ والديه، ويتقن في برّهما ويتمنى

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥١٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٦٠)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٣٦)، والترمذي في "سننه" (٢٣٤٣)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، به.

رضاهما، وقال جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

الهداية نوعان:

١ - هداية توفيق، وهذه في الآية التي معنا (**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ**) يعني الهدى من عند الله، فهداية التوفيق والصلاح وسلوك الأعمال الصالحة والسير فيها، إنما هي من عند الله، ولا يملكها إلا رب العالمين جل جلاله.

٢ - هداية دلالة وإرشاد، وهذه يملكها العباد من النبيين والعلماء والدعاة والوعاظ وغير ذلك يرشدون العباد إلى الله وإلى الخير وإلى البر. ^(١)

فائدة: هذه الآية وأشباهاها - مما ذكرت - فيها ردٌّ على مذهب القدرية الغلاة الذين خالفوا أهل السنة

وقالوا: بأن العبد مستقلٌ بعمله ليس لله فعلٌ في ذلك.

وهذا ضلالٌ - والعياذ بالله - ، والله سبحانه جل جلاله يهدي ويضلُّ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣].

وكان الحبيب - ﷺ - يقول: «اللهم اهدني في من هديت» ^(٢)، وكان يقول «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها» ^(٣)

(١) ينظر "شفاء العليل" لابن القيم (٣/ ٥١٧).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٤٢٥)، والترمذي في "سننه" (٤٦٤)، والنسائي في "السنن

الكبرى" (١٧٦٢)، وابن ماجه في "سننه" (١١٧٨)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه، به. وصححه

وكان ابن رواحة رضي الله عنه يقول -بين يدي رسول الله ﷺ:-

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

إِنْ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا ^(١)

واعلم أنه مهما بلغت طاعات العباد فلا تنفع الله تعالى، ومهما عصوا فلا تضره في شيء، فعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُحْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّهَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ

الألباني في "إرواء الغليل" (٤٢٩)

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٢٢)، والنسائي في "المجتبى" (٥٤٥٨)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٠٣٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٠٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١) ... إذاً عليك دائماً أبداً أن تسأل الله أن يهديك وأن يشرح صدرك وألا يكلِّك إلى نفسك أبداً .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكاً وتصرفاً وإيجاداً وخلقاً، فالأولى والآخرة ملك لله سبحانه بما فيهما.^(٢)

﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ قال العلماء : الأولى هي الدنيا وهي قبل الآخرة.

ولماذا قدّم الله سبحانه الآخرة على الأولى في الآية ؟

أخرها في هذه الآية لفائدتين:

الفائدة الأولى: معنوية.

الفائدة الثانية: لفظية.

أما المعنوية: فلأن الآخرة أهم من الدنيا، ولأن الآخرة يظهر فيها ملك الله تعالى تماماً. في الدنيا هناك رؤساء، وهناك ملوك، وهناك أمراء يملكون ما أعطاهم الله عز وجل من الملك، لكن في الآخرة لا ملك لأحد ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] . فلهذا قدم ذكر الآخرة من أجل هذه الفائدة المعنوية.

أما الفائدة اللفظية: فهي مراعاة الفواصل يعني: أواخر الآيات كلها آخرها ألف.^(٣)

﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ الآخرة والأولى ملك لله، يؤتیه مَنْ يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع ما يشاء عن من يشاء عز وجل، الملك ملكه سبحانه، لا اعتراض على قسمته أبداً.^(٤)

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٢٥٧٧). من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٤٧٦ / ٢٤)

(٣) ينظر " تفسير جزء عم " للشيخ محمد بن صالح العثيمين. (ص ٢٣١)

قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) هذا ربُّ العِزَّة بجلاله وعظمته ينذر عباده ناراً تلتهب، ينذرهم ناراً عظيمة الاشتعال، وصفها رسولنا محمد ﷺ بقوله «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا»^(١)، نسأل الله النجاة .

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) المراد بالأشقى هنا الكافر، ومعنى (لَا يَصْلَاهَا) يعني لا يُشَوِّى بها وتغمُرهُ مِن جميع جوانبها خالداً فيها ابداً إلا الأشقى^(٢).

وهل النار لا يدخلها إلا الكافر؟

الجواب: لا، هناك بعض المسلمين لهم ذنوبٌ، فيدخلون النار حتى يطهروا من هذه الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فهناك بعض العصاة من المذنبين يدخلون النار حتى إذا نُقُوا وطُهِرُوا من هذه الذنوب يخرجون من النار بعد ذلك^(٣) - نسأل الله العافية ونعوذ بالله من النار - ، وفي حديث المفلس أن رسول الله ﷺ قال:

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٢٨)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٧٦)

(٤) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٥) وأحمد في "مسنده" (١١٠٩٥) وابن حبان في "صحيحه" (٧٤٣٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَطْلَمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحْدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»

«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١)، نعوذ بالله من النار .

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ كَذَّبَ بقلبه وتولى بجوارحه، فلم يُصَدِّق ولم يعمل، بل كَذَّبَ وأعرض عن العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أى العبد التقي الذي اتقى ربه، وقال أهل التفسير: هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر رضي الله عنه^(٢).

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ يعني يؤتي ماله بخروجه لله رب العالمين، ليس مجازاةً لأحد من العباد أحسن إليه قبل ذلك، إنما يؤتي ماله ليزكِّي نفسه، وكان أبو بكر رضي الله عنه سيداً عظيماً من سادات أغنياء المسلمين، ورغم ذلك كان يتاجر تجارةً لن تبور، كان ينظر إلى الضعفاء من إخوانه الذين يُعَذِّبُونَ عند المشركين، فيذهب ليشتريهم بخالص ماله، ثم يُعْتِقُهُمْ لوجه الله سبحانه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: عَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ بِلَالًا، وَبِلَالٌ يَقُولُ أَحَدًا أَحَدًا، فَمَرَّ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: أَحَدٌ - يَعْنِي اللَّهُ تَعَالَى - يُنَجِّيكَ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ بِلَالًا يُعَذِّبُ فِي اللَّهِ، فَعَرَفَ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨١) والترمذي في " سننه " (٢٤١٨) وأحمد في " مسنده "

(٨٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به

(٢) قال ابن عطية رحمه الله في " المحرر الوجيز " (٥ / ٤٩٢) لم يختلف أهل التأويل أن المراد بالأتقى أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقال ابن كثير رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٤٢٢) وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، رضي الله عنه، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَى الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ.

أَبُو بَكْرٍ الَّذِي يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَانْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَخَذَ رِطْلًا مِنْ ذَهَبٍ، وَمَضَى بِهِ إِلَى أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، فَقَالَ لَهُ: أَتَبِيعُنِي بِلَالًا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاشْتَرَاهُ فَأَعْتَقَهُ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا أَعْتَقَهُ أَبُو بَكْرٍ إِلَّا لِيَدٍ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ، فَتَزَلَّتْ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ أَيْ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ نِعْمَةٍ، أَيْ مِنْ يَدٍ وَمَنَةٍ، تُجْزَى بِلِ ابْتِغَاءَ بَمَا فَعَلَ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَقِيلَ: اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ مِنْ أُمِّيَّةَ وَأَبِيَّ بْنَ خَلْفٍ بِلَالًا، بِبُرْدَةٍ وَعَشْرِ أَوَاقٍ، فَأَعْتَقَهُ اللَّهُ، فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾^(١).

وفي بعض الروايات وإن كانت ضعيفة، أَنَّ أُمِّيَّةَ بْنَ خَلْفٍ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ فِي بِلَالٍ حِينَ قَالَ: أَتَبِيعُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ أَبِيعُهُ بِنِسْطَاسٍ عَبْدٍ لِأَبِي بَكْرٍ، صَاحِبِ عَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ، وَغِلْمَانٍ وَجَوَارٍ وَمَوَاشٍ، وَكَانَ مُشْرِكًا حَمَلَهُ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْإِسْلَامِ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَالُهُ لَهُ، فَأَبَى فَأَبْغَضَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ أُمِّيَّةُ أَبِيعُهُ بَعْلًا مَكَ نِسْطَاسٍ اعْتَنَمَهُ وَبَاعَهُ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ بِبِلَالٍ إِلَّا لِيَدٍ كَانَتْ لِبِلَالٍ عِنْدَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾^(٢) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى^(٣) وَلَسَوْفَ يَرْضَى^(٤)﴾^(٥).

وصح أن أبا بكرٍ ﷺ لما أعتق بلالًا قَالَ لَهُ بِلَالُ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَعْتَقْتَنِي لِتَسْخِذَنِي خَازِنًا فَلِتُخِذَنِي خَازِنًا وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَعْتَقْتَنِي لِلَّهِ فَدَعْنِي فَأَعْمَلُ لِلَّهِ، قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ أَعْتَقْتُكَ لِلَّهِ^(٦).

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأَتَقَى﴾^(٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(٨): هُنِيئًا لِلْمُنْفِقِينَ، وَهِنِيئًا لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَى إِخْوَانِهِ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، وَيَجُودُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ جَلِيلَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ

(١) ينظر "أسباب النزول" للواحدي (ص ٤٧٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٣٢)

(٢) أخرجه البغوي في "معالم التنزيل" (٤ / ٦٣٠)، والضعف من أجل قول سعيد بن المسيب بلغني.

(٣) (صحيح) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٣٠٠٢)، وصححه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٩٩ / ٧)

وجل، فمثل هذا يدخل في هذه الآية العظيمة (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) أي سَيُجَنَّبُ النَّارَ بفعلته (الْأَتْقَى) التي صفاته (يُؤْنِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) لِيَزَكِّيَ نفسه وَيُطَهِّرَهَا .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ يجازيه بها، إنما يعطي المال ابتغاء وجه الله الواحد الأحد ﴿وَمَا عَائِيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُّوْا فِيْ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عَائِيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

قال الله سبحانه ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ يعني ما يعطي ولا ينفق إلا أنه يبتغي وجه ربه الأعلى، فيبتغي الجنة التي يرى فيها وجه ربه الأعلى.
و(الأعلى) صفةٌ من صفات ربنا جلَّ جلاله، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]،

فالأعلى اسمٌ وصفةٌ لله الجليل، وهي تدل على علو الله سبحانه، علوٌ كاملٌ مطلقٌ، علوٌ ليس كعلو المخلوقين، ليس كمثل الله شيءٌ سبحانه وبحمده.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ولسوفه يرضيه الله ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿[القمر: ٥٤، ٥٥].^(١)

وقفة: يُستفاد من الآيات أنك مهما عَرَضَ أمامك بابٌ من أبواب الخير وإن كان يسيراً سارع فيه، وإن خفياً سارع فيه، وإن لم يكن إلا هذا البابُ ظاهراً سارع فيه، توكل على الله وسارع في الخير ما استطعت، واحذر من الشرِّ ما استطعت، فَإِنَّ الشَّرَّ يُوَصِّلُ الْعَبْدَ إِلَى النَّارِ، وعليك بالتصديق بموعد الله، والتصديق بالجنان، والتصديق بخلف الله عليك، وأنه يُخْلِفُ النِّفْقَةَ،

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٣٣٣) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أَي سَوْفَ يُعْطِيهِ فِي الْجَنَّةِ مَا يُرْضِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُعْطِيهِ أَصْعَافَ مَا أَنْفَقَ.

وَيُخْلِفُ الْمَجْهُودَ الَّذِي تَبَذَّلَهُ اللَّهُ، وَيُخْلِفُ كُلَّ مَا تُنْفِقُهُ سِوَاءَ مَنْ مَالٍ أَوْ مِنْ عِلْمٍ أَوْ مِنْ جَاهٍ أَوْ شِفَاعَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، اللَّهُ يُعَوِّضُكَ خَيْرًا عَظِيمًا، فَلَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ

فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨]

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مِنْ خَيْرِ عِبَادِهِ وَمِنْ سَادَاتِ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْ يَطِيلَ أَعْمَارُنَا وَأَنْ يَحْسِنَ أَعْمَالُنَا وَأَنْ يَحْسِنَ خَاتَمَتُنَا يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

انتهى تفسير سورة الليل بحمد الله ومنتته

سُورَةُ الضُّحَى

هذه السورة العظيمة مكيةٌ باتفاقِ أهلِ العلم^(١)، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة الفجر.

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر في السابقة «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى» ولما كان سيد الأتقين رسول الله ﷺ عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه^(٢).

هل يُشرع التكبير عند قراءة هذه السورة؟

عادةُ السادةِ المقرئين لكتابِ الله عز وجل أنهم إذا وصلوا في القراءةِ إلى سورةِ الضحى يكبرون عند آخر كلِّ سورةٍ، حتى سورةِ الناس .

قال الإمامُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "رَوَيْنَا مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْحَسَنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَزَّةٍ الْمُقَرَّرِ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى عِكْرَمَةَ بْنِ سَلِيمَانَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ قُسْطَنْطِينَ وَشَبْلَ بْنِ عَبَادٍ، فَلَمَّا بَلَغَتْ "وَالضُّحَى" قَالَا لِي: كَبِّرْ حَتَّى تَخْتَمَ مَعَ خَاتَمَةِ كُلِّ سُورَةٍ، فَإِنَّا قَرَأْنَا عَلَى ابْنِ كَثِيرٍ فَأَمَرْنَا بِذَلِكَ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى مُجَاهِدٍ فَأَمَرَهُ بِذَلِكَ"^(٣).

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في " الدر المنثور " (٤٧٩ / ١٥) أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيرِ والنحاس ، وابن مردويه والبيهقي

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَزَلَتْ سُورَةُ الضُّحَى بِمَكَّةَ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي " الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ " (٢٢ /

٣٣٥) مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٨٢)

(٣) (ضعيف) أخرجه الحاكم في " المستدرک " (٥٤١٦) ، والبغوي في " معالم التنزيل " (٨ / ٤٦٠) ، وابن كثير في "

تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٤٢٣) ، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٦١٣٣)

وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضي الله عنهما فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب رضي الله عنه فأمره بذلك، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك.

فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه^(١)، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث^(٢).

لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يُكَبِّرُ هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث^(٣). اهـ

يعنى أن هذه السنة التي اشتهرت بين القراء إنما جاءت من طريق هذا الإمام العَلَمِ في علم القراءات أبي الحسن بن محمد بن عبد الله البزّي، وهو إمام في القراءات، لكنه ضعيف في علم الحديث، ومنكر الحديث .

وعليه، فالحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وضعّفه جُلُّ أهل العلم^(٤)، وقد قام فضيلة الشيخ المقرئ إبراهيم الأخضر شيخ قراء أهل المدينة ببحث جيد بعنوان (تكبير الختم بين القراء

(١) ينظر "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (٢ / ٧١) ترجمة: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن أبي بزة مؤذن مسجد الحرام.

(٢) ينظر "الضعفاء الكبير" للعقيلي (١ / ٣٦٩) .

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٤٢٣)

(٤) قال الذهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء" (١٢ / ٥١) (حديث منكر)، وقال في "ميزان الاعتدال" (١ / ١٦١) (هذا حديث غريب، وهو مما أنكر على البزي ونقل عن أبي حاتم قوله هذا حديث منكر)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "مجموع الفتاوى" (١٧ / ١٣٠) : (والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسنداً عن النبي ﷺ ولم يسنده أحد إلى النبي ﷺ إلا البزي وخالف بذلك سائر من نقله فإنهم إنما نقلوه

اختياراً ممن هو دون النبي ﷺ وانفرد هو برفعه وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: بعض قراء القرآن يَفْصِلُون بين السورة والأخرى بقول " الله أكبر " دون بسملة، هل يجوز ذلك، وهل له دليل؟

فأجاب: هذا خلاف ما فعل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ فصلهم بين كل سورةٍ وأخرى بـ " بسم الله الرحمن الرحيم " وخلاف ما كان عليه أهل العلم من أنه لا يفصل بالتكبير في جميع سور القرآن . غاية ما هناك أن بعض القراء استحب أن يكبر الإنسان عند ختم كل سورة من الضحى إلى آخر القرآن مع البسملة بين كل سورتين، والصواب: أنه ليس بسنة؛ لعدم ورود ذلك عن النبي ﷺ، وعلى هذا فالمشروع أن تفصل بين كل سورةٍ وأخرى بالبسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " إلا في سورة " براءة " فإنه ليس بينها وبين الأنفال بسملة انتهى . ينظر " فتاوى إسلامية " (٤ / ٤٨) .

وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ في كتابه " بدع القراء " (ص ٢٧) سبعة أمور تتعلق بختم القرآن نذكر منها :

التكبير في آخر سورة الضحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة أو خارجها .
ثم قال: " فهذه الأمور السبعة : لا يصح فيها شيءٌ عن النبي ﷺ ، ولا عن صحابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وعامة ما يُروى في بعضها مما لا تقوم به الحجة ، فالصحيح عدم شرعية شيء منها " انتهى .
وألّف شيخ المقرئين في المدينة النبوية الشيخ إبراهيم الأخضر رسالة بعنوان " تكبير الختم بين القراء والمحدثين " ، وقد ذكر في خاتمة هذه الرسالة ما نصه : " ومن خلال ما تقدم من بحث أحوال الروايات ، وتحقيق سندها ، وتراجم رجالها : لم نجد غير رواية البزي - كما ذكر العلماء - ، وهي رواية تسلسلت بالضعفاء والمجروحين ، ولم تعضدها رواية أخرى من غير طريق البزي ، وذلك كما صرح كثير من علماء الروايات ، على أن بعضاً من مشاهير القراء كابن مجاهد في كتابه " السبعة " لم يورد التكبير ، وكذلك أبو القاسم الهذلي في كتابه " الكامل " لم يورد التكبير أيضاً ، وهذا مما يدل على عدم ثبوت الرواية عندهما ، والله أعلم ...

وبهذا فلا تثبت سنةٌ بخبر كهذا، بل الأفضل والأولى تركه سواء في رواية البزي أو رواية غيره من القراء، وذلك صوناً لكتاب الله، وتجريداً له عن كل ما ليس منه ممن يظن أنه سنة وهو ليس بسنة، والحمد لله رب العالمين "

والمحدثين)، انتهى فيه إلى عدم مشروعية التكبير، وختم بحثه بقوله: (وبهذا فلا تُثبت سنة بخبر كهذا، بل الأفضل والأولى تركه سواء في رواية البرقي أو رواية غيره من القراء، وذلك صوناً لكتاب الله، وتجريداً له عن كل ما ليس منه ممن يظن أنه سنة وهو ليس بسنة. والحمد لله رب العالمين).

يقول الله تعالى في هذه السورة العظيمة:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ في المراد بالضحي أقوال^(١):

منها: النهار كله^(٢)، يقسم الله عز وجل بالنهار كله.

- وقد ذكر في سبب التكبير أسباب عديدة، أشهرها أنه ﷺ كان قد انقطع عنه الوحي مدة، فلما عاد بعد انقطاع نزل عليه بسورة الضحى، وفيها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فكبر فرحاً بهذا، وهذا لو صح فإنه لا يدل على استحباب التكبير الذي قال به بعض القراء، وذلك من وجوه:

١. أنه ليس فيه تكبير من بعد كل قراءة للسورة.
 ٢. وليس فيه أنه كبر إلى سورة الناس.
 ٣. وأنه كان التكبير مرة واحدة ولسبب مجيء الوحي بعد انقطاعه.
 ٤. وأنه ليس في كل السور الأخرى ما في سورة الضحى من معاني.
- (١) قال ابن الجوزي رحمه الله في " زاد المسير في علم التفسير " (٤ / ٤٥٧): " وفي المراد «بالضحى» أربعة أقوال: أحدها: ضوء النهار، قاله مجاهد. والثاني: صدر النهار، قاله قتادة. والثالث: أول ساعة من النهار إذا ترحلت الشمس، قاله السدي، ومقاتل. والرابع: النهار كله، قاله الفراء ".

وقيل: المراد بالضحى أي وقت الضحى^(١)، وهو وقت اشتداد الحر، وهذا الوقت الشريف فيه عبادة جليلة، وهي صلاة سنة الضحى .

فضل سنة الضحى :

وسنة الضحى ورد فيها جملة من النصوص عن رسول الله ﷺ، من ذلك:

١ - عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(٢)

كُلُّ سُلَامَى يَعْنِي كُلُّ عَظْمٍ وَمِفْصَلٍ، يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَتَصَدَّقَ عَنْهُ بِصَدَقَةٍ، لِتَعْلَمَ كَمْ نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ خَلَقَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِينَ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمَدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِينَ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ»^(٣)

(١) ينظر "معاني القرآن" للفرأ (٣ / ٢٧٣) والطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٨١)

(٢) قال الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٨١) وقيل: عني به وقت الضحى وساقه بسنده عن قتادة .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٢٠)، وأبو داود في "سننه" (١٢٨٥)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٨٩٧٩)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٠٧)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٦٠٥)، وابن حبان

في "صحيحه" (٣٣٨٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به .

يعني ثلاثمائة وستون مفصلاً في ابن آدم، وينبغي أن يتصدق عليها بصدقة، فقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله قال «فكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»

٢- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَهْلِ قُبَاءَ وَهُمْ يُصَلُّونَ، فَقَالَ: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ إِذَا رَمَضَتِ الْفَصَالُ»^(١)

يعنى رفعت الفصال حافرها، بسبب اشتداد الحر، والفصال جمع فصيل، والفصيل هو ولد الناقة الصغير لا يتحمل حرارة الشمس^(٢).

٣- وكان النبي ﷺ يوصي بها أصحابه .

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: «بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيْ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَرْقُدَ»^(٣).

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٤٨)، وأحمد في " مسنده " (١٩٢٦٤)، والدارمي في " سننه " (١٤٩٨)، وابن خزيمة في " صحيحه " (١٢٢٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٢٥٣٩)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) قال النووي رحمه الله في " شرح مسلم " (٣٠ / ٦) " صلاة الأوابين حين ترمض الفصال هو بفتح التاء والميم يُقَالُ رَمَضَ يَرْمِضُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ وَالرَّمْضَاءُ الرَّمْلُ الَّذِي اشْتَدَّتْ حَرَارَتُهُ بِالشَّمْسِ أَيِ حِينَ يَحْتَرِقُ أَخْفَافُ الْفَصَالُ وَهِيَ الصَّغَارُ مِنْ أَوْلَادِ الْإِبِلِ جَمْعُ فَصِيلٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْلِ وَالْأَوَابُ الْمُطِيعُ وَقِيلَ الرَّاجِعُ إِلَى الطَّاعَةِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ هَذَا الْوَقْتُ قَالَ أَصْحَابُنَا هُوَ أَفْضَلُ وَقْتُ صَلَاةِ الضُّحَى وَإِنْ كَانَتْ تَحْجُوزُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى الزَّوَالِ "

(٣) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٧٨) - (١٩٨١)، ومسلم في " صحيحه " (٧٢١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وفي رواية «أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعُهنَّ حتَّى أموتَ: «صومُ ثلاثةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةُ الضُّحَى، وَتَوَمُّ عَلَى وَتَرٍ»^(١)

و عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوْصَانِي حَبِيبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَلَاثٍ، لَنْ أَدْعَهُنَّ مَا عِشْتُ: «بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أُنَامَ حَتَّى أُوتِرَ»^(٢).

٤- ولما فَتَحَ اللهُ تَعَالَى عَلَى حَبِيبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَكَّةَ صَلَّى أَيْضاً صَلَاةَ الضُّحَى .

فعن أمّ هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَامُ الْفَتْحِ، أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى غُسْلِهِ، فَسَتَرَتْ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ ثُمَّ أَخَذَتْ ثَوْبَهُ فَالْتَحَفَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ سُبْحَةَ الضُّحَى»^(٣).

٥- وهناك حديثٌ عظيمٌ، جاء من طريق نعيم بن همار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: " يقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لا تعجزني من أربع ركعات في أول نهارك، أكفك آخره "

(٤)

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٧٨)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٢٢)، وأبو داود في " سننه " (١٤٣٣)، وأحمد في " مسنده " (٢٧٤٨١)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٢٩٢)، ومسلم في " صحيحه " (٣٣٦)، من حديث أمّ هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه " (١٢٨٩)، والترمذي في " سننه " (٤٧٥)، والنسائي في " الكبرى " (٥٥١)، من حديث نعيم بن همار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٦٥).

إِذَا هَذِهِ الْأَرْبَعُ رَكَعَاتٍ يَنْبَغِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَصَلِّيَهَا وَيَحْرَصَ عَلَيْهَا مَا اسْتَطَاعَ، لِيَحْفَظَهُ اللَّهُ طَوْلَ النَّهَارِ مِنْ شَرِّ الْمُفْسِدِينَ، وَشَرِّ الْغَشَاشِينَ، وَشَرِّ الْكَذَّابِينَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

٦ - وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه: أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ بَصْرِي، وَأَنَا أَصْلِي لِقَوْمِي، وَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ لَهُمْ، وَدِدْتُ أَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْتِي فَتُصَلِّيَ فِي مُصَلًّى، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ عَتْبَانُ: فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَذْنَتْ لَهُ، فَلَمْ يَحْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» قَالَ: فَأَشْرَفْتُ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ ^(١).

٧ - وفي حديث عمرو بن عبسَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّمَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرَّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّمَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ» ^(٢).

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٢٥) - (٥٤٠١)، ومسلم في " صحيحه " (٣٣)، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨٣٢) وأبو داود في " سننه " (١٢٧٧) والنسائي في " المجتبى "

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ سجى يعني سَكَنَ، وهذا قول أكثر أهل اللغة^(١).

وقيل: سجى، يعني غطى الدنيا كما تسجي الإنسان أو الشيء بالثوب، فالمعنى غطى الدنيا بظلامه .

والله تعالى يُقسِمُ بهذه المخلوقات العظيمة، بالنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، وبالضحى، وبالليل إذا سَجَى، لأن هذه المخلوقات الجليلة لا يُقدَّرُ علي إيجادها إلا الله، فهي دالة على وحدانية الرب العظيم سبحانه جلَّ جلاله، وعلى قدرته العظيمة تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ مَا وَدَّعَكَ : أي ما تَرَكَكَ، وَمَا قَلَى : أي وما جفاكَ وما أبغضكَ^(٢)، والسبب في ذلك كما تواتر عند أهل السير أَنَّ الوحيَ حدثَ له فترةٌ يعنى تَوَقَّفَ نزولُ الوحيِ على سيِّدِ الأولين والآخرين ﷺ مُدَّةً مِنَ الزمانِ فجاءت أمُ قَيْحٍ، وهي أمُ جُمَيْلٍ زوجةُ أبي لهبٍ، فقالت: يَا مُحَمَّدُ مَا أَرَى صَاحِبَكَ إِلَّا قَدْ وَدَّعَكَ وَقَلَاكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]^(٣)

وفي صحيح البخارى عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: «اِحْتَبَسَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ، فَتَرَكْتُ: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١ - ٣]^(٤)

(١) قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، وقد ساق أقوالهم الطبريُّ في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٨٣).

(٢) قال الطبري رحمه الله "جامع البيان" (٢٤ / ٤٨٥) وَهَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَمَعْنَاهُ: مَا تَرَكَكَ يَا مُحَمَّدُ رَبُّكَ وَمَا أَبْغَضَكَ. وساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد.

(٣) أخرجه الحاكم في "المستدرک" حديث (٣٩٤٥) وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ كَمَا حَدَّثَنَا هَذَا الشَّيْخُ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ لَهُ عِلَّةً»

(٤) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٢٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٧٩٧)، من حديث

فالله سبحانه جلّ جلاله أبطل هذا الكلام وأخبر أنّ رسول الله ﷺ في تمام وفي زيادة وفي علو وفي رقي، وآخر أمره أفضل من أوله دائماً أبداً، وكل يوم يرتقي في سلّم العبودية لله تعالى .
ثم قال تعالى : ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ جَرَى كثيرٌ من أهل العلم على ظاهر الآية، فحمل الآخرة على ظاهر معناها وهي يوم القيامة، والأولى بمعنى الدنيا، فالمعنى: وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خيرٌ لك من الدار الدنيا وما فيها، يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خيرٌ لك منها.^(١)

فعطأ الله لك في الآخرة أعظم من عطائه في الدنيا وما فيها، وهو معنى صحيح ولا شك .
وذهب عددٌ من أهل العلم إلى معنى آخر للآية، وهو: وللأحوال الآتية خيرٌ لك من الماضية كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز، ومنصباً إلى منصب، فيقول: لا تظن أني قليتك بل تكون كل يوم يأتي فإني أزيدك منصباً وجلالاً^(٢)، فاليوم يا محمد أنت أفضل عند الله وأعلى من أمسٍ وغداً أفضل من اليوم وبعد غدٍ أفضل، وهكذا صلوات ربي وسلامه عليه، كل يوم يُحبُّه ربه أعظم ويُقرِّبه إليه أكثر، ويرفع ذكره في الأولين والآخرين، وهذا المعنى أجود وأحسن، والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

قال السعدي رحمه الله: "وهذا أمرٌ لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة".^(٣)

جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٨٧)

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣١ / ١٩١)

(٣) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٩٢٨)

والصحيح أنه وعدٌ يعمُّ كلَّ ما أعطاه الله في الآخرة، وكلَّ ما أعطاه في الدنيا من النصرِ والفتوح وكثرة المسلمين وغير ذلك^(١)، ومن أهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبولُ شفاعته لأُمَّته^(٢).

عطاءاتُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ :

١ - مِنْ هذا العطاءِ : أنَّ نبيَّنا محمد ﷺ عرض عليه الفتوح التي تفتح علي أُمَّته من بعده فأرضاه الله بذلك^(٣)

٢ - وَمِنْ هذا العطاءِ العظيمِ ما ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ، عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةِ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمِّتِي أُمِّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلِّهِ مَا يُنْكِيكَ؟» فَاتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: "يَا جَبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ"^(٤).

"سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ": يعني لن يخلدُ أحدٌ من المسلمين في النَّارِ أبداً وسيُكرِّمُ اللهُ هذه الأُمَّةَ بأن تكونَ أكثرَ أهلِ الجَنَّةِ كرامةً لنبيِّها ﷺ.

(١) ينظر "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزء (٢/ ٤٩٠)

(٢) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٥٥٨)

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ٤٨٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَرَضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، كَفَرًا كَفَرًا، فَسَرَّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٠٢)، والنسائي في "الكبرى" (١١٢٠٥)،

٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ مُضِيفٌ ظَهْرُهُ إِلَى قَبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ يَمَانٍ، إِذْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «أَفَلَمْ تَرْضَوْا أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

ثمَّ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِئَةٌ صَفٌّ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا"^(٢)، يَعْنِي ثُلْثِي أَهْلِ الْجَنَّةِ، هَذَا وَالْمُسْلِمُونَ أَقْلٌ عِدَدًا مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ بِلَا شَكٍّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُكْرِمُ هَذِهِ الْأُمَّةَ لِكِرَامَةِ نَبِيِّهَا ﷺ.

٤- وَمِنْ هَذَا الَّذِي أَرْضَى اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهَ ﷺ: مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ حُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُعْثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلِّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»^(٣).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٢٨)، (٦٦٤٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٣٢٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، و(٢٢٩٤٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٥١٥٩)، من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "صحيح موارد الظمان" (٢٢٣١).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٥) - (٤٣٨) ومسلم في "صحيحه" (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

٥ - و عن أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: " أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ، حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّؤْلُؤِ مَجُوفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ^(١) .

٦ - وَمِنْ هَذِهِ الْعَطَايَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَعْطَى اللَّهُ نَبِيَّنَا ﷺ إِيَّاهَا أَنْ جَعَلَهُ هُوَ وَأُمَّتُهُ شُهَدَاءَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٧ - وَأَيْضًا شَرَّفَهُ اللَّهُ وَجَعَلَهُ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، فَهُوَ أَعْلَاهُمْ، وَهُوَ خَيْرُهُمْ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ، وَمِنْكُمْ خِتَامُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُنَا آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا نَحْتُ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»^(٢)، يَعْنِي: أَنَا لَا أَقُولُ هَذَا فَخْرًا، ﷺ.

٨ - وَأَيْضًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْعَلِيَّةِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَالْحَوْضِ الْمُرُودِ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَوْرِدَنَا حَوْضَ نَبِيْنَا مُحَمَّدٍ وَلَا تَرْدِنَا عَنْهُ يَا كَرِيمَ وَنَشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً لَا نَظْمًا بَعْدَهَا أَبَدًا ، الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ يَغْبِطُهُ فِيهِ النَّبِيُّونَ وَالْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ يَغْبِطُونَهُ عَلَيْهِ ﷺ.^(٣)

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٦٤)، والترمذي في " سننه " (٣٣٦٠)، وأحمد في " مسنده " (١٢٦٧٥)، من حديث أنس رضي الله عنه، به .

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣١٤٨)، وأحمد في " مسنده " (١٠٩٨٧)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، به . وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (١٤٦٨)

(٣) ينظر " تنمة أضواء البيان " للشيخ عطية سالم (٥٥٨ / ٨)

٩ - وَمِنْ عَطَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، مَا صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "عَرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَنْزًا كَنْزًا، فَسَرَّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} فَأَعْطَاهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ أَلْفِ قَصْرٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخُدَمِ".^(١)

قال الحافظ بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَمِثْلُ هَذَا مَا يُقَالُ إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ".^(٢)

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبالجملة، فهذه الآية جامعةٌ لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإكرام".^(٣)

ثم قال تعالى يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾^(٤)

يعني أن الذي تعاهدَكَ ورعَاكَ وهَدَاكَ وأَغْنَاكَ في قديمِ زمانِكَ، سَيَتَوَلَّاكَ وَيَرْعَاكَ أَعْظَمَ وأَعْظَمَ في أَيَّامِكَ هذه، وَخَاصَّةً وَقَدْ صِرْتَ نَبِيًّا.

قال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: "تَعْدِيدٌ لِمَا أَفَاضَ عَلَيْهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ فَنُونِ النَّعْمَاءِ الْعِظَامِ لِيَسْتَشْهَدَ بِالْحَاضِرِ الْمَوْجُودِ عَلَى الْمَتَرَقِّ الْمَوْعُودِ فَيَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ وَيُنْشَرَحَ صَدْرُهُ". اهـ.^(٥)

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ٤٨٧) عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِيهِ

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٤٢٦/).

(٣) ينظر "محاسن التأويل" للقاسمي (٩/ ٤٩٢)

(٤) ينظر "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبي السعود (٩/ ١٧٠)

يُذَكِّرُهُ اللهُ تَعَالَى بِحَالَتِهِ الْأُولَى، حَتَّى يَكُونَ رَقِيقَ الْقَلْبِ، يَخْتُو عَلَى الضَّعِيفِ، وَالْمَسْكِينِ،
وَالْيَتِيمِ، وَيُعْطِي الْفَقِيرَ، وَلَا يَحْرُمُ أَحَدًا.

إِيوَاءُ اللهِ وَرِعَايَتُهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

وَانْظُرْ إِلَى رِعَايَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﷺ:

١ - تُوِّفِيَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بطنِ أُمِّهِ، فَفَرَّقَ اللهُ تَعَالَى قَلْبَ جَدِّهِ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُ حُبًّا عَظِيمًا فَكَفَلَهُ
جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ.

٢ - تُوِّفِيَتْ أُمُّهُ وَعُمُرُهُ سِتُّ سَنَوَاتٍ وَ تُوِّفِيَ جَدُّهُ بَعْدَهَا بِعَامَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِ
(١)، ثُمَّ عَهَدَ بِهِ جَدُّهُ إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو طَالِبٍ أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حُبًّا شَدِيدًا، وَكُلُّ هَذَا مِنْ
رِعَايَةِ اللهِ وَعَنَائَتِهِ بِهِ ﷺ.

فَأَبُو طَالِبٍ أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حُبًّا أَعْظَمَ مِنْ حُبِّهِ لِأَوْلَادِهِ كُلِّهِمْ وَجَعَلَ يَحُوطُهُ وَيُدْفَعُ
عَنْهُ وَيُوَازِرُهُ، وَيُوَاسِيهِ، وَهُوَ مَا زَالَ مُشْرِكًا، وَمَاتَ كَافِرًا (٢)، وَرَغِمَ ذَلِكَ دَافِعَ عَنْ ابْنِ أَخِيهِ وَمَا
أَسْلَمَهُ لِقُرَيْشٍ أَبَدًا، قَالَ:

(١) ينظر "الطبقات الكبرى" لابن سعد (١/ ٩٧)، و"السيرة" لابن هشام (١/ ١٦٩)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٦٠) - (٣٨٨٤) - (٤٦٧٥) - (٤٧٧٢) ومسلم في "صحيحه" (٢٤)

صحيحه" (٢٤) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،
فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً
أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرَعَبَ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ
يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكَّ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ
اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا

وَاللّٰهُ لَن يَّصْلُوَ اِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
وَاللّٰهُ حَكَمٌ وَّاسْرَارٌ! اَيُّ وَاللّٰهِ .

الْحِكْمَةُ مِنْ يَتَمِ النَّبِيُّ ﷺ :

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ - وَمَا أَجْمَلَ مَا ذَكَرَ - قَالَ : " وَلَوْ تَدَبَّرَ الْمُنْصَفُ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ لَهُ ، وَحَيَاطَتِهِ بِحِفْظِهِ وَحُسْنِ تَنْشِئَتِهِ ، لَوَجَدَ مِنْ ذَلِكَ الْعَجَبَ ، فَلَقَدْ كَانَ الْيَتَمُ وَحْدَهُ مَدْعَاةً إِلَى الْمُضِيعَةِ وَفَسَادِ الْخُلُقِ ، لِقَلَّةِ مَنْ يَحْفَلُ بِالْيَتِيمِ وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ فِي خُلُقِ أَهْلِ مَكَّةَ وَعَادَاتِهِمْ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ فِي إِضْلَالِهِ لَوْ أَنَّهُ سَارَ سِيرَتَهُمْ ، لَكِنَّ عَنَايَةَ اللَّهِ كَانَتْ تَرْعَاهُ ، وَتَمْنَعُهُ السَّيْرَ عَلَى نَهْجِهِمْ ، فَكَانَ الْوَفِيُّ الَّذِي لَا يَمِينُ ، وَالْأَمِينُ الَّذِي لَا يَخُونُ ، وَالصَّادِقُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ ، وَالطَّاهِرُ الَّذِي لَا يُدْنَسُ بِرَجْسِ الْجَاهِلِيَّةِ " .^(١)

وَقَالَ فِي تَمَتَّةِ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ : " وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ يَتَمَهُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ : مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ ، أَيُّ : لِيَتَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ مِنْ صَغَرِهِ ، وَتَقَدَّمَ مَعْنَى إِيْوَاءِ اللَّهِ لَهُ ، فَكَانَ يَتَمَهُ لِإِبْرَازِ فَضْلِهِ ؛ لِأَنَّ يَتِيمَ الْأَمْسِ أَصْبَحَ سَيِّدَ الْغَدِ ، وَكَافَلَ الْيَتَامَى " .^(٢)

٣ - لَمْ تَتَوَقَّفْ عَنَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمَّا قَامَتْ قَرِيشٌ عَلَيْهِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ ، وَنَالُوا مِنْهُ أَعْظَمَ مَا نَالُوا ، أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْهَجْرَةِ وَهَيَّأَ لَهُ رِجَالًا أَحَبُّوهُ أَعْظَمَ مِنْ حُبِّهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، وَأَزْوَاجِهِمْ ، وَكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ ، وَدَافَعُوا عَنْهُ أَعْظَمَ دِفَاعٍ ، وَهُمْ الْأَنْصَارُ

تَهْدِي مَنْ أَحَبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص: ٥٦]

(١) ينظر " ديون أبي طالب " (ص ١٠٢) .

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٨٥) .

(٣) ينظر " تَمَتَّةُ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ " لِلشَّيْخِ عَطِيَّةِ سَالِم (٨ / ٥٥٩) .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهِمْ، فَقَوَاهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَأَزْرَوْهُ، حَتَّى أَقَامُوا دَوْلَةً عَظِيمَةً، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّ مُسْلِمٍ فِي الْعَالَمِ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ .

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (١) معنى ﴿ضَالًّا﴾: أقوال أهل العلم في معنى الآية كثيرة، ولكن من أجل ما قرأت في تفسيرها، ما أورده القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث ذَكَرَ أقوالاً كثيرة، ثم قال: " وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرةً منفردةً في فلاةٍ من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالَّةً، فيهتدى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ووجدك ضالًّا أي لا أحد على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فهديت بك الخلق إلي .

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قلت: هذه الأقوال كلها حسان، ثم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، والقول الأخير أعجب إلي، لأنه يجمع الأقوال المعنوية" (١).

والقول الذي عليه أكثر أهل التفسير: أن الضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله جلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَبُ وَلَا إِلَإِئِنَّ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، وأيضاً قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣) لكن رسول الله ﷺ ما كان على الشرك، وما دُنِسَ بصفات الجاهلية قط، وإذا استقصيت أحواله قبل الإسلام لوجدت شيئاً كثيراً يُبْهِرُ العقول،

من ذلك: قال زيد بن ثابت: دخلت مع رسول الله ﷺ يوماً إلى المسجد الحرام وكانت بها أصنام يتمسح بها فلما جاءنا ندخل قال لي رسول الله لا تمسه - لا تتمسح بهذا الصنم - قال

(١) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٣٤٣/٢٢)

فقلت في نفسي والله لأمسنه وأتمسح به لأنظر ماذا يكون ، قال فلما دخلنا مسسته فقال لي ألم تنه

ﷺ (١)

وبعض أهل السير يذكرون معنى (ضالاً) أي أن النبي ﷺ ضل وهو صغير في شعاب مكة فمن الله تعالى عليه ورده إلى أهله وهو إذ ذاك كان صغيراً يمكن أن تأكله السباع أو غير ذلك (٢)

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ كان ﷺ عائلاً يعني فقيراً، والمعنى: أغناك الله بما منَّ عليك وهياً لك أسباب الغنى، وهذا امتنانٌ من الله وتذكيرٌ بحاله في حال الفقر، وفي حال الغنى عليه الصلاة وأتم السلام.

مظاهر إغناء الله لنبيه ﷺ:

١ - أغناه الله بآمال خديجة رضي الله عنها ، حيث جعلت مالها تحت يده، فكانت زوجةً وفيه مباركةً كريمةً.

(١) (صحيح) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٨١٣٢)، والحاكم في "المستدرک" (٤٩٥٦)، البيهقي في "

دلائل النبوة" (٣٤/٢)، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" (٤٤٨/٣) وصححه الألباني في "صحيح السيرة النبوية" (ص ٣٢) عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ «كَانَ صَنَمٌ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ أَوْ نَائِلَةٌ يَتَمَسَّحُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا فَطَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَطَفْتُ مَعَهُ فَلَمَّا مَرَرْتُ مَسَحْتُ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَمْسُهُ قَالَ زَيْدٌ: فَطَفْنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا مَسْنَهُ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَكُونُ فَمَسَحْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَمْ تُنْهَ؟»

(٢) قال البغوي في "معالم التنزيل" (٤٥٦/٨) وَقِيلَ: ضَالًّا فِي شِعَابِ مَكَّةَ فَهَذَا كِإِلَى جَدِّكَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَرَوَى أَبُو الضُّحَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ضَلَّ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ صَبِيٌّ صَغِيرٌ، فَرَأَاهُ أَبُو جَهْلٍ مُنْصَرِّفًا عَنْ أَغْنَامِهِ فَرَدَّهُ إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٣٤٤/٢٢)

٢ - وكذلك بما هيأ له من صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَحَبَّهُ حُبًّا عَظِيمًا، حَتَّى سَخَّرَ مَالَهُ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَلِدِينِهِ، وَلِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَلِتَخْلِيصِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمُعَذِّبِينَ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَةِ الْكَافِرِينَ عَلَيْهِمْ .

٣ - ثُمَّ كَانَتِ الْهَجْرَةُ وَكَانَتْ مُوَاسَاةُ الْأَنْصَارِ، لَقَدْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ تَارِكًا مَالَهُ وَمَالَ خَدِيجَةَ، وَهَيَّأَ اللَّهُ لَهُ، أَصْحَابَهُ الْأَنْصَارَ، فَبَدَّلُوا أَمْوَالَهُمْ كُلَّهَا، نُصْرَةً لِدِينِهِمْ، وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَ قَائِلُهُمْ - وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي غُرُورِهِ بِدَرٍ: "لَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخْشَى أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ يُرِيدُونَ مُوَاسَاتَكَ، وَلَا يَرَوْنَهَا حَقًّا عَلَيْهِمْ، إِلَّا بَأَنَّ يَرَوْا عَدُوًّا فِي بُيُوتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ. وَإِنِّي أَقُولُ عَنِ الْأَنْصَارِ وَأُجِيبُ عَنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأُطْعِنُ حَيْثُ شِئْتَ، وَصِلُ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وَاقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَأَعْطِنَا مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَهُ مِنَّا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ عَلَيْنَا، وَمَا اتَّخَذْتَهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَمَرْنَا لِأَمْرِكَ فِيهِ تَبِعْ، فَوَاللَّهِ لَوْ سِرْتَ حَتَّى تَبْلُغَ الْبَرْكَ مِنْ غِمْدِ ذِي يَمَنِ لَسِرْنَا مَعَكَ" ^(١)

وها هو سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ سَعْدٌ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: قَدْ عَلِمْتَ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَاَنْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ، فَأُطْلِقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتُهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ ^(٢).

وَصَدَقَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

(١) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣ / ٣١)، من حديث سعد ابن معاذ به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٧٨١)، والترمذي في "سننه" (١٩٣٣)، والنسائي في "السنن

الكبرى" (٨٢٦٤)، من حديث سعد ابن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

٤- ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْفُتُوحَاتِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمِيَّتِ عَلَيْهِ الدِّينُ، فَيَسْأَلُ: «هَلْ تَرَكَ لِدِينِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟» فَإِنْ حَدَّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً، صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلَّا، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ، قَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوْفِّي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَعَلِي قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لَوَرَثَتِهِ»^(١).

وقفه: يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَذْكُرَ حَالَهُ الْأَوَّلَ، حِينَ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ، وَكَانَ جَاهِلًا فَعَلَّمَهُ اللَّهُ، وَهَكَذَا، حَتَّى يَكُونَ مُتَوَاضِعًا شَاكِرًا لِرَبِّهِ، مُثْنِيًا عَلَيْهِ بِآلَاءِهِ، كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحَجِّ فَمَرَّ عَلَى شِعَابِ ضَجْنَانَ - وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ مَكَّةَ - فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ، الْمُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ شَاءٍ! كُنْتُ أَرْعَى إِبِلَ الْخُطَّابِ بِهَذَا الْوَادِي فِي مَدْرَعَةٍ صُوفٍ، وَكَانَ فَظًّا يُتَعَبِّنِي إِذَا عَمِلْتُ، وَيَضْرِبُنِي إِذَا قَصَرْتُ، وَقَدْ أَمْسَيْتُ وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ - لِأَنَّهُ صَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -، ثُمَّ تَمَثَّلَ:

لَا شَيْءَ فِيمَا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الْإِلَهَ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ

لَمْ تُغْنِ عَن هُرْمِزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ... وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلَتْ عَادُ فَمَا خَلَدُوا^(٢)

وُخْلَاصَةٌ مَا تَقَدَّمَ - أَنْ مِنْ آوَاكَ فِي يَتِيمِكَ، وَهَذَاكَ مِنْ ضَلَالِكَ، وَأَغْنَاكَ مِنْ فَقْرِكَ، لَا يَتْرُكَكَ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِكَ^(٣).

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ نِعَمَهُ السَّابِقَةَ، طَالَبَهُ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ، وَأَدَاءِ حَقِّهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٢٩٨)، (٥٣٧١)، ومسلم في " صحيحه " (١٦١٩)، من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) ينظر " تاريخ الطبري " (٤ / ٢١٩).

(٣) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٨٦).

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ أي لا تغلبه على ماله وحقه لأجل ضعفه، أو لا تقهره بالمنع من

مصالحه، ووجوه القهر كثيرة والنهي يعم جميعها.^(١)

والمعنى: كنت يتيماً فأويناك، فكذلك أنت آوي اليتم وأحسن إليه، لا تقهره، ولا تستدله،

لأن أقل شيء يؤذيه، ومن عظيم القربات التي يتعدى نفعها للآخرين كفالة الأيتام، قال عنها الحبيب ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» وقال بإصبعه السبابة والوسطى.^(٢)

فهنيئاً لمن كفّل يتيماً أو أكثر، على حسب ما يسر الله سبحانه له، فادخل في هذا المشروع الرابع، فربحه عظيم لك في مالك، ورعايته لك في أولادك، وسلامة لك وسعادة في الدنيا والآخرة، وخير بيوت المسلمين بيت فيه يتيماً يكرم، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيماً يهان.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾، فيه قولان:

أحدهما: سائل البر، قاله الجمهور، والمعنى: إذا جاءك السائل، فإما أن تعطيه، وإما أن تردّه

ردّاً لينا، ومعنى فلا تنهر لا تنهره، يقال: نهّره: وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره.^(٣)

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: نعم القوم السؤل يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم:

السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل توجّهون إلى أهليكم بشيء؟^(٤)

(١) ينظر "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزي (٢/ ٤٩١).

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٣٠٤)، وأبو داود في "سننه" (٥٣٠٤)، والترمذي في "سننه"

(١٩١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤/ ٤٥٩)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٤٥٨)

(٤) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٤٥٨)

والثاني: أنه طالب العلم، قاله الحسن، ويحيى بن آدم، وآخرون.^(١)

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أَي: وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَذَاكَ اللهُ، فَلَا تَنْهَرْ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدَ".^(٢)

و قال ابن جزى رَحِمَهُ اللهُ: "النهرُ هو الانتهازُ والزجرُ، والنهي عنه أمرٌ بالقولِ الحسنِ والدعاءِ للسائلِ، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، ويحتمل السائل أن يريدَ به سائلِ الطعامِ والمالِ، وهذا هو الأظهر، والسائل عن العلمِ والدينِ".^(٣)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: "أي: لَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَى السَّائِلِ كَلَامٌ يَقْتَضِي رَدَّهُ عَنْ مَطْلُوبِهِ، بِنَهْرٍ وشراسةٍ خُلِقَ، بَلْ أَعْطَاهُ مَا تيسَّرَ عِنْدَكَ أَوْ رُدَّهُ بِمَعْرُوفٍ، وَإِحْسَانٍ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ السَّائِلُ لِلْمَالِ، وَالسَّائِلُ لِلْعِلْمِ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُعَلِّمُ مَأْمُورًا بِحَسَنِ الْخُلُقِ مَعَ الْمُتَعَلِّمِ، وَمُبَاشَرَتِهِ بِالْإِكْرَامِ وَالتَّحَنُّنِ عَلَيْهِ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ مَعُونَةٌ لَهُ عَلَى مَقْصِدِهِ، وَإِكْرَامًا لِمَنْ كَانَ يَسْعَى فِي نَفْعِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ".^(٤)

وما أَجْمَلَ ما روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بَيْنَا أَنَا أَصْلَى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لِكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي، مَا

(١) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤ / ٤٥٩)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٤٥٨)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٢٧)

(٣) ينظر "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزى (٢ / ٤٩١)

(٤) ينظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (ص: ٩٢٨)

رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(١)

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٢) أَي: وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللَّهُ، فَحَدَّثَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ. اهـ^(٣)

وفي المراد بالنعمة هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: النبوة. **والثاني:** القرآن، روي عن مجاهد. **والثالث:** أنها عامة في جميع الخيرات، وهذا قول مقاتل.^(٤)

والصحيح أنه عموم جميع النعم^(٥)، فيشمل النعم الدينية والدنيوية.^(٦)

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قَالَ: مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ فَحَدِّثْ إِخْوَانَكَ.^(٧)

وقد ثبت في سنن أبي داود وغيره عن مالك بن عوف بن نضلة الجشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: "أتيت النبي ﷺ - في ثوبٍ دُونٍ، فقال: أَلَك مَالٌ؟ قلت: نعم، قال: من أَيِّ المال؟ قلت: قد

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٣٧) وأبو داود في " سننه " (٩٣٠)، والنسائي في " المجتبى " (

١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٢٧)

(٣) ينظر " زاد المسير في علم التفسير " لابن الجوزي (٤ / ٤٥٩)

(٤) ينظر " التسهيل لعلوم التنزيل " لابن جزي (٢ / ٤٩١)

(٥) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (ص: ٩٢٩)

(٦) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٢٨)

آتاني الله من الإبل والغنم، والخيل والرقيق، قال: فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيَرْ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ^(١).

فالتحدثُ بالنعمة شكرٌ، ولذلك كان بعضُ السلفِ يقولُ: لقد أعطاني الله كذا، ولقد صليتُ البارحة كذا، وهذا إنما يجوزُ إذا كان على وجهِ الشُّكرِ، أو لِيُقْتَدَى به، فأما على وجهِ الفخرِ والرياءِ، فلا يجوزُ^(٢).

فقوله: ﴿فَحَدَّثْتُ﴾ أي: أَثْنَيْتُ على الله بها، وَخَصَّصْتُهَا بِالذِّكْرِ، إن كان هناك مصلحةٌ، وإلا فحدَّثْتُ نِعَمَ اللَّهِ على الإطلاقِ، فَإِنَّ التَّحَدُّثَ بنعمةِ اللَّهِ، دَاعٍ لَشُكْرِهَا، وموجبٌ لِتَحْيِيْبِ الْقُلُوبِ إِلَى مَنْ أَنْعَمَ بها، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مجبولةٌ على مَحَبَّةِ الْمُحْسِنِ^(٣).

وكيف نجمع بين هذه الآية وبين قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؟

قال أهل العلم: المرءُ يُحَدِّثُ نِعَمَ اللَّهِ لِكُلِّ مَنْ يُحِبُّ له الْخَيْرُ، أما لو عَلِمْتَ عن هذا الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لو عَرَفَ أَنَّ عندَكَ خيراً، أو تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ يَحْسُدُكَ عَلَيْهِ، هذا تَكْتُمُ عنه ولا تُخْبِرُهُ، لذلك لما سَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ رُؤْيَا ابْنِهِ يَوْسُفَ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ففهم أَنَّ أباه وأُمَّه وإِخْوَتَهُ جَمِيعاً سَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَسَيَرْفَعُهُ اللَّهُ، فهذه منزلةٌ قد يَحْسُدُهُ إِخْوَتُهُ عَلَيْهَا، فقال ﴿يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٠٦٣)، وأحمد في "مسنده" (١٧٢٣١)، من حديث مالك بن عوف

رضي الله عنه، به وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٥٤).

(٢) ينظر "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزي (٢/ ٤٩١)

(٣) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٩٢٩)

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ فَيَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ خَيْرًا أَن يَكْتُمَ ذَلِكَ عَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْرَهُ
وَيَحْقُذُ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ، فَلْيَحْدِثْ بِنَعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تم الانتهاء من تفسير سورة الضحى بحول الله ومنته.

﴿سُورَةُ الشَّرْحِ﴾

سورة الشرح، مكية بالإجماع، وآياتها ثمانية آيات، نزلت بعد سورة الضحى^(١).

صلتها بما قبلها: هذه السورة شديدة الاتصال جداً بسورة الضحى، حتى روى عن

طاووس، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنهما كانا يقولان، هما سورة واحدة، وكانا يقرأنها في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة، والذي دعاهما إلى ذلك، هو أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ كالعطف على قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وليس كذلك، لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول - ﷺ، من إيذاء الكفار، فكانت حال محنة، وضيق صدر، والثاني يقتضي أن يكون حال النزول، منشراح الصدر، طيب القلب، فأنتى يجتمعان، ولذلك فإن المتواتر أنها منفصلتان، وإن كانتا متصلتين في المعنى، إذ في كل منهما تعداد النعم، وطلب الشكر عليها.^(٢)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۖ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ ۚ

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٤٩٥) (أخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مروديه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمكة، زاد بعضهم: بعد (الضحى). وأخرج ابن مروديه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: أنزلت ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمكة، وأخرج ابن مروديه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمكة وقال ابن عطية رحمه الله في "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٩٦) وهي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك.

(٢) تفسير المراغي (٣٠ / ١٨٨)

قال الله عزو جل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١) الهمزة هنا همزة استفهام، ولم هذه نافية، ونفي النفي إثبات، فعلى هذا ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، معناه قد شرحنا لك صدرك، وكقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢) [الزمر: ٣٦]، ﴿قَالَ أَلَمْ نُزَيِّدْكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]، أي، قد ربيناك فينا وليدًا^(٣)، فالله - جل ذكره - يمتن علي نبيه - ﷺ - أن شرح له صدره، ووسعه لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، وسع الله صدر رسوله - ﷺ -، فجعله واسعاً، فسيحاً، رحيباً لشرائع الدين، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن صدره - ﷺ -، ضيقاً حرجاً، حتي لا ينقاد للخير، أو ليس منبسطاً، حتي يضيق بالناس، بل كان صدره - صلوات الله عليه - منشرحاً، كما قال الله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ - قَوْلٌ لِّلنَّفْسِئَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾^(٤) [الزمر: ٢٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) [الأنعام: ١٢٥]، فكما أن الله تعالى شرح صدر النبي - ﷺ -، فكذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً لا حرج فيه ولا إصر^(٦)، ولا ضيق، بل رفع ربنا - جل جلاله - الأصار والأغلال عن هذه الأمة المباركة، وقد شرح الله صدر النبي - ﷺ - مرتين، شرحه معنوياً وحسياً:

فالشرح المعنوي: كما ذكرنا، أن الله جعل صدره فسيحاً رحيباً متسعاً يسع جهل الجاهلين، ويحلّم علي الغلاظ الفاطنين، ويعفو عمن آذاه - ﷺ -، ولا يعامل الناس بمثل ما عاملوه به، لأن

(١) ينظر "تتمة أضواء البيان" الشيخ عطية سالم (٨ / ٥٧٢)

(٢) الإصر: الثقل والشدة، ينظر "غريب الحديث" لابن قتيبة (٢ / ٣١٧)

الله شرح صدره، وهذا هو الشرح المعنوي^(١)، ومن صورته: ما ثبت في صحيح الإمام مسلم، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لِكُنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَآبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّهَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٢).

لم ترى البشرية كلها معلماً مثله - ﷺ - لأن الله شرح له صدره، وهو الذي اصطفاه ورباه -
جل جلاله - .

وكذلك في صحيح مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِي فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعْوُهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّهَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ^(٣).
فهذا هو الشرح الأول، ألا وهو الشرح المعنوي.

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٢٩)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٣٧)، وأبو داود في " سننه " (٩٣٠)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٥٦١) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢١٩) ومسلم في " صحيحه " (٢٨٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الشرح الحسي: ثم شرح الله صدره شرحاً حسياً حقيقياً مرتين في حياته:

المرّة الأولى: وهو صغيرٌ يلعب مع الغلمان^(١)، كما في صحيح مسلم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظَنَرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُتَتِّعُ اللَّوْنِ"، قَالَ أَنَسُ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمُخِيطِ فِي صَدْرِهِ»، وهذه هي المرة الأولى^(٢).

والثانية: ليلة المعراج، ففي الصحيحين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَتَزَلَ جَبْرِيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُتَمَلِّئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ...."^(٣)، اللهم صلي عليه وسلم تسليماً كثيراً.

قال الله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ أي: حططنا عنك ذنوبك، فالله تعالى غفر له الذنوب^(٤)، كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٢٩)، و"التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي -

تفسير جزء عم (١ / ٤٠١)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٦٢) وأحمد في "مسنده" (١٢٢٢١) وابن حبان في "صحيحه" -

(٦٣٣٤) والحاكم في "المستدرک" (٣٩٤٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٤٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٣)، من حديث أنس بن

مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٤) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٥٧)

وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ [الفتح: ٢]، قال قتادة - رحمه الله - : كانت للنبي ﷺ ذنوبٌ قد أثقلتته فغفرها الله له.^(١)

وروى الطبري بإسناد صحيح عن جابر بن زيد ، أنه قال: شرح له صدره وغفر له ذنبه الذي كان قبل أن يُنبأ فوضعه الله تعالى.^(٢)

فهذه الآية تدل على أن الله تعالى طَهَّرَ نبيه طهارةً بعد طهارة^(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ والإِنْقِضَاضُ هو الصوت، فلو أنك وضعت حملاً ثقيلاً على البعير تسمع لها صوتاً من شدة الحمل^(٤)، وهذا الإِنْقِضَاضُ هو الصوت، كما قال غير واحدٍ من السلف^(٥)، والله تعالى حطَّ هذه الذنوب وغفرها ووصفها بالإِنْقِضَاضِ، وذلك لأن النبي - ﷺ -، وإخوانه من الأنبياء ذنوبهم مغفورة، وإن كان النبي ﷺ وقعت منه هذه الأمور اليسيرة، ولكن كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] ، ورغم ذلك ، لشدة اهتمامهم - صلى الله عليهم وسلم - بتعظيمهم وإجلالهم لربهم وندمهم، والله - جل جلاله - قَبِلَ منهم وغفر لهم، ولكنهم يُعْظَمُونَ رَبَّهُمْ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهِمْ من الخلق، فكانوا ينظرون إلى الصغائر اليسيرة جداً ، وكأنها ذنوبٌ ثقيلةٌ عظيمةٌ - عليهم الصلاة وأتم التسليم -.

وقفه: في قول الله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، مسألة مهمة ، وهي هل الأنبياء عليهم

(١) (صحيح) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٩٣).

(٢) (صحيح) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٩٣).

(٣) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (١ / ٤٠٣).

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٩٢)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٥٦).

(٥) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٣٠)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٢ / ٥).

السلام تقع منهم ذنوبٌ أصلاً، أم أنهم معصومون؟

أولاً: هم معصومون من الشرك بالله عز وجل قولاً واحداً.

ثانياً: أنهم معصومون من كبائر الذنوب.

ثالثاً: معصومون من الذنوب التي تنافي النبوة، كالكذب والخيانة ونحوه من دنيا الأخلاق

وأرادها.

رابعاً: قد تصدر منهم صغائر الذنوب، كما حَدَّثَ مِن نَبِينَا - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ

وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْصَاتَ أَرْوَاجِكَ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]، ولكنها تقع بادئاً ذي بدئٍ مغفورةً، ثم يجعل الله فيها

للأمة فرجاً، مثل قوله تعالى في سورة عبس، بعدما لام النبي ﷺ - ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:

١١] أي هذه العبرة جعلها الله تذكراً وعبرةً وموقفاً، يستفيد المرء منه أنه لا يقبل من المرء لأجل

غناه، ولا يعرض عن الفقير من أجل فقره، بل يسوى بين العباد في الدعوة إلى الله^(١)، وكقوله

تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

[التحریم: ٢] أي أن الله تعالى شرع كفارة الأيمان، بسبب تحريم النبي - ﷺ - على نفسه، وفي

رواية: أنه حرَّم العسل على نفسه ﷺ^(٢).

فالمقصود أن الله حطَّ الذنوب عن نبيه - ﷺ - وغفرها له جميعها، وشرح له صدره.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي أن الله تعالى رفع ذكر نبيه محمد - ﷺ - رفعةً

(١) ينظر تفصيل المسألة في "تمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٨/ ٥٧٦ : ٥٧٨)، و"التفسير الكبير"

للرازي (٥/ ٣٢)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩١٢)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٧٤).

عظيمة في الدنيا والآخرة، وقد ذكر أهل العلم صوراً لتلك الرفعة العظيمة في الدنيا والآخرة،
أولاً: أنزل الله تعالى عليه قرآنًا كريماً، هو أشرف سائر الكتب المنزلة من عند الله تعالى، قال
 الله عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ثانياً: أخذ الله العهد والميثاق علي النبيين، أن يؤمنوا إذا بعث فيهم رسول الله - ﷺ - وهم
 أحياء، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
 قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]^١

ثالثاً: لا ينعقد لأحد إسلامٌ إلا بالتسليم برسالته - ﷺ - والإقرار بها، بقوله أشهد أن لا إله
 إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، كما قال حسان ابن ثابت رضي الله عنه، في وصف رسول الله - ﷺ -
 أَعْرُ، عَلَيْهِ لِنَبْوَةٍ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
 وَضُمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنِ أَشْهَدُ
 وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلُهُ فذو العرش محمودٌ، وهذا محمدٌ
 اللهم صلِّ وسلم عليه، أي أن اسم الرسول - ﷺ - يقال في الأذان خمس مرات في مآذن
 المسلمين، يعلو فيه اسم النبي - ﷺ -^٢.

(١) قال الثعلبي رحمه الله في "الكشف والبيان" (٢٣٣ / ١٠) (وقيل: بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم بالإيمان به
 والإقرار بفضلته)، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ١٦٤)

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٩٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ يَقُولُ: وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، فَلَا
 أُذَكِّرُ إِلَّا ذُكِّرْتَ مَعِي، وَذَلِكَ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وأخرجه عن مجاهد وقتادة (وقال ابن
 الجوزي رحمه الله في "زاد المسير" (٩ / ١٦٣) (وهذا قول الجمهور)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن"
 للقرطبي (٢٢ / ٣٥٧)

رابعاً: أن الله تعالى وملائكته يصلون عليه، وأمر الله المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

خامساً: وكذلك كرّر ربنا اسمه الشريف المبارك في القرآن الكريم في عدة مواطن، وسُميت سورة من القرآن الكريم باسمه - ﷺ -، وهي سورة محمد - ﷺ -، ولقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] سادساً: وأُعطي الشفاعة العظمى، وهذه رفعة عظيمة له، وشرفٌ لأُمته، فالناس يفزعون إلى الأنبياء جميعاً، من أول آدم إلى عيسى عليهم السلام، كلهم يقول نفسي نفسي، إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإذا بهم يعتذرون عن الشفاعة فيشفع النبي - ﷺ -^(١)، أسأله تعالى أن يشفعه فينا يارب العالمين، وأن يتفضل ربنا علينا بالجنة بلا حساب ولا عذاب.

سابعاً: وكذلك يأتي شهيداً على أُمته، كما قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، فيأتي شهيداً على أُمته، وأُمته تشهد على سائر الأمم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأيضاً شرفه الله بأن أكرمه بالحوض والكوثر، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، كيزانه كعدد نجوم السماء، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً^(٢)، نسأل الله أن يُوردنا حوضه.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٤٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٩٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٧٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٩٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْرَانُهُ

ثامناً: ومن رفعة منزلته العلية، أن الله أمر بتوقيره وتعظيمه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقولوا قبل أن يقول، ولا تتكلموا قبل أن يتكلم، بل حرّم الله - جل جلاله - ، أن يرفع العبد صوته فوق صوته وهو حي، وكذلك يحرم على العبد أن يرفع صوته في مجلسٍ تُتلى فيه سنته - ﷺ ..

تاسعاً: وكذلك من رفعة شأنه العظيم، أن الكتب المنزلة علي سائر الأنبياء قبله بشرّت به، وفي كل خطبة ، - سواءً في خطبة النكاح والشهد والصلاة - جميع الخطب ، يذكر فيها اسمه المبارك^(١). فبالجملة ملأ الله ذكر رسوله - ﷺ - ، في السماوات والأرض ، وجعل الله له لسان صدقٍ في الأولين والآخرين، وجعلت أمته خير الأمم، وهي أكثر الأمم دخولاً الجنة، كما قال - ﷺ - لأصحابه: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَا رَجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشُّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»^(٢)، وقال - ﷺ - «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، تَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ

كُنْجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا»

(١) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (١ / ٤٠٦: ٤٠٣) و"التفسير

الكبير" للرازي (٦ / ٣٢)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٢٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢١) من حديث ابن مسعود

سَائِرِ الْأُمَمِ»^(١)، اللهم لك الحمد ، هذا فضل الله تبارك وتعالى على تلك الأمة، ببركة النبي - ﷺ - .
ولذلك ربنا - جل جلاله - يقول ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أعلى الله ذكر نبينا محمد - ﷺ - . ورفعَهُ
رفعةً لم يصل إليها أحدٌ من الخلق، وله في قلوب أمته - ﷺ - من المحبة والإجلال والتعظيم ما
ليس لأحدٍ غيره من الخلق، فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ
فَارْزَعْبْ ﴿٨﴾

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ يخبر ربنا - جل جلاله - أنه مهما ضاق
الأمر، واشتد الحال، فإن الله يجعل بعد الضيق فرجاً، وأن الشدة معها الرخاء والفرج والسعة
﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾، فلا بد للعبد أن يتلى ، ثم يأتي الفرج ، وتلك سنة
الله في العباد ، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾
[يوسف: ١١٠]^(٢)

ﷺ ، به .

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥٤٦) وابن ماجه في " سننه " (٤٢٨٩) وأحمد في " مسنده "

(٢٢٩٤٠)، من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) ، به . وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٦٤٤) .

(٢) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (١ / ٤٠٧)

وقفة: فيا أيها المبتلى، يا أيها المريض، يا من طال سَجُنْكَ في سجون الظالمين، اعلم أن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فإذا علم العبد ذلك صبر لله سبحانه، وسأل الله أن يرزقه الصبر الجميل، وقد ورد عن الحسن البصري مرسلاً، أن النبي - ﷺ -، قال لما نزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: «أَبَشِّرُوا أَتَاكُمْ الْيُسْرُ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(١).

وتعريف "العسر" في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه بالألف واللام الدالة على الاستغراق والعموم ما يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له^(٢)، فالله تبارك وتعالى يجعل من بعد الضيق فرجاً، ومن بعد المرض عافيةً، ومن بعد الفقر غنيً، ومن بعد الذلة والضعف والإهانة نصراً وتمكيناً، وربك سبحانه بيده الأمور^(٣).

وكان الامام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ينشد قائلاً:

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرَجَا * * * مِنْ رَاقَبَ اللهُ فِي الْأُمُورِ نَجَا

مَنْ صَدَقَ اللهُ لَمْ يَنْلُهُ أذى * * * وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا^(٤)

وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: أَنَشَدَنِي أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

(١) (ضعيف مرفوعاً) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٤٩٥)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢ / ٣٨٠)

، عن الحسن مرسلاً، وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٣٤٢)

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" السعدي (ص ٩٢٩)

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٤٣٢) (وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْعُسْرَ مُعَرَّفٌ فِي الْحَالَيْنِ، فَهُوَ مُفْرَدٌ، وَالْيُسْرُ مُنْكَرٌ فَتَعَدَّدَ؛ وَهَذَا قَالَ: "لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ") ثم قال (فَالْعُسْرُ الْأَوَّلُ عَيْنُ الثَّانِي وَالْيُسْرُ تَعَدَّدَ..)

(٤) ينظر "ديوان الإمام الشافعي" (ص ٦٤)

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ ... وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ ...
وَأَوْطَأَتِ الْمَكَارِهِ وَأَطْمَأَنَّتْ ... وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخَطُوبُ ...
وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا ... وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ عَوْتُ ... يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ ...
وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ ... فَمَوْصُولٌ بِهَا الْفَرْجُ الْقَرِيبُ ...^(١)

تبارك الله ربنا كل يوم هو في شأن، يغني فقيراً، ويعافي مبتلى، ويمكن لضعيف، ويجعل عافيةً من بعد بلاء، سبحانه وبحمده كل يوم هو في شأن، ورحم الله الشافعي حيث قال :
وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَصِيقُ بِهَا الْفَتَى ... ذَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمُخْرَجُ
كَمَلْتُ فَلَمَّا اسْتَحْكَمْتُ حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ^(٢)
قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٣) فيها قولان للعلماء:

الأول: إذا فرغت من أمور الدنيا و أشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة^(٤)، وقم إليها فارغ البال نسيطاً، كما ثبت في الصحيح، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا حَضَرَ الْعِشَاءُ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَبْدِءُوا بِالْعِشَاءِ»^(٥)
وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُصَلِّي بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَنَانِ»^(٦)

(١) ينظر "ديوان المعاني" (٢/ ٢٤٣)

(٢) ينظر "ديوان الإمام الشافعي" (ص: ٦٣)

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/ ٤٩٩).

(٤) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٤٦٣)، ومسلم في "صحيحه" (٥٥٧)، من حديث أنس، به.

(٥) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٤٣٣)

القول الثاني: إذا فرغت من الصلاة فانصب أي فاجتهد في الدعاء^(١).

والقول الثالث: إذا فرغت من تبليغ الرسالة، وجهاد العدو، فاجتهد في الحمد والاستغفار،

كما قال - جل جلاله - ، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ

أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣]^(٢)

فائدة: حكم الدعاء بعد الصلوات المكتوبة:

قال بعض أهل العلم: لا يشرع الدعاء بعد الصلاة، أي إذا قضى الإنسان صلاته، فلا يشرع له الدعاء، وإنما يشرع له أذكار ما بعد الصلاة فقط، واستدلوا على ذلك بحديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٣)

وقالوا إن الأحاديث التي وردت فيها أدعية دبر الصلاة، إنما تفعل داخل الصلاة، لأن دبر الشيء منه، فدبر الرجل من الرجل، ودبر الصلاة من الصلاة، أي قبل التسليم. ولكن الأصح والأشهر من أقوال أهل العلم، أن الدعاء بعد الصلاة مشروع، بل هو مستحب، وقد كان كبار العلماء في زماننا يقولون هو موطنٌ من مواطن استجابة الدعاء، كالعلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان يقول بعد الصلاة:

هذا موطن من مواطن استجابة الدعاء على العبد أن يغتنمه، لأن الله تعالى قال "فإذا فرغت فانصب"، وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ يَقُولُ: فَإِذَا فَرَغْتَ مِمَّا فَرَضَ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٩٧).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٤٩٨).

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٩٢) وأبو داود في " سننه " (١٥١٢) والترمذي في " سننه "

(٢٩٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، به .

عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَاةِ فَسَلِ اللَّهَ، وَارْعَبْ إِلَيْهِ، وَانصَبْ لَهُ^(١)

وروي عن قتادة بإسنادٍ صحيحٍ عند الطبري رحمه الله "أمره الله إذا فرغ من صلاته أن يبالغ في دعائه"^(٢)

ومما يؤيد هذا حديث ، مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : «يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ» ، فَقَالَ : " أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي ذُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ ، وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ " ^(٣)

وروي مسلم أن النبي ﷺ كان إذا سلم يقول " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمَقْدُمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " ^(٤)

(١) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٤٩٧) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، به . وضعفه الشيخ مصطفى

العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " تفسير جزء عم (١ / ٤٠٧) .

(٢) (صحيح) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٤٩٧) .

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه " (١٥٢٢) ، والنسائي في " المجتبى " (١٣١٩) ، وأحمد في " مسنده "

(٢٢١١٩) ، من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه ، به . وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٩٤٩) .

(٤) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٩٨) ، ومسلم في " صحيحه " (٧٧١) ، وأبو داود في "

سننه " (٧٦٠) ، والترمذي في " سننه " (٣٤٢١) ، من حديث أبي موسى ، ابن عباس ، وعلى رضي الله عنهم به ،

قال الحافظ بن حجر رحمه الله ، في " فتح الباري لابن حجر " (١١ / ١٩٨) ، ووقع أيضا في حديث علي عند

مسلم أنه كان يقوله في آخر الصلاة ، واختلفت الرواية ، هل كان يقوله قبل السلام ، أو بعده ، ففي رواية

لمسلم " ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والسلام اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما

أسرفت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت " ، وفي رواية له " وإذا سلم

قال اللهم اغفر لي ما قدمت ... إلخ " ، ويجمع بينهما بحمل الرواية الثانية على إرادة السلام ، لأن مخرج

الطريقين واحد ، وأورده بن حبان في صحيحه بلفظ " كان إذا فرغ من الصلاة وسلم " ، وهذا ظاهر في أنه

وفي صحيح مسلم عن البراء رضي الله عنه ، قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ ، يُقْبَلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ - أَوْ تَجْمَعُ - عِبَادَكَ»^(١) ، وأيضاً روي الإمام البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ سَعْدٌ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمُعَلِّمُ الْغُلَمَانَ الْكِتَابَةَ وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُمْ ذُبْرَ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرْدَأَ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢) ، فهذه الأدلة تدل على جواز بل استحباب الدعاء بعد الصلوات المكتوبات .

واستدلوا كذلك ، بالعمومات: أن الدعاء يُشرع بعد الأعمال الصالحة ومنها الصلاة، وكذلك مثل دعاء الاستخارة^(٣) وغيره، فكذلك هذا العبد صلى ثم حمد الله ثم كبر الله ثم يقرأ آية

بعد السلام ، ويحتمل أنه كان يقول ذلك قبل السلام ، وبعده ، وقد وقع في حديث بن عباس نحو ذلك .

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٠٩) ، والترمذي في " سننه " (٣٣٩٩) ، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٥٢٠) ، من حديث البراء رضي الله عنه ، به .

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٢٢) والترمذي في " سننه " (٣٥٦٧) والنسائي في " المجتبى " (٥٤٤٥) عن عمرو بن ميمون الأودي رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ سَعْدٌ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ... فذكره .

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٨٢) والترمذي في " سننه " (٤٨٠) وأبو داود في " سننه " (١٥٣٨) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَقُولُ: " إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَأَقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَأَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ

الكرسي، فيدعو الله بعد ذلك، فذلك مظنة استجابة الدعاء بإذن الله تعالى، ولذلك قال الشافعي رحمته الله في " الأم " وأستحب للمصلي منفرداً وللمأموم أن يطيل الذكر بعد الصلاة ويكثر الدعاء رجاء الإجابة بعد المكتوبة.^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَالِى رَبِّكَ فَأَرْغَبْ﴾ فاجعل رغبتك في الله أعظم الرغبة في إجابة دعواتك، كما قال - رحمته الله - " لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعُ مَا شَاءَ، لَا مَكْرَهَ لَهُ "، تبارك الله رب العالمين، فيكون عندك أمل في الله - سبحانه وتعالى - أنه سيستجيب دعائك، ولا تكن ممن إذا فرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين، فأنزل رغباتك كلها بالله - سبحانه وتعالى - الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا يُعْزِزْهُ شَيْءٌ، ولا يتعاضم على العبد شيءٌ يسأله ربّه، فالله - جل جلاله - يحب العبد الذي يسأله، ويعطي ربنا تعالى ما يشاء لمن شاء، فنسأل الله - جل جلاله - أن يرزقنا وإياكم الجنة، وأن يغفر لنا ويرحمنا، وأن يختم لنا بكل خير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة الشرح ، بحمد الله ومتمته.

أَرْضِينِي " قَالَ: «وَيَسْمِي حَاجَتَهُ»

(١) ينظر كتاب " الأم " للإمام الشافعي (٢ / ٢٨٩).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٣٩) ومسلم في " صحيحه " (٢٦٧٩)، من حديث أبي

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، به.

﴿سُورَةُ التِّينِ﴾

هذه السورة مكيةٌ في قول أكثر أهل العلم^(١)، وبعضُ السادة العلماء قالوا أنها مدنية^(٢)، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة البروج.

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله ﷺ، وذكر هنا حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره، وما أعد سبحانه لمن آمن برسوله^(٣).

فضلها: ونذكر حديثين في فضل هذه السورة؛ لكنها ضعيفان من باب التنبيه عليهما.

الحديث الأول: عن أبي ذر قال: أهدى للنبي ﷺ طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا، ثم قال: لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت: هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها»

(١) ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٠١)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٤٣٤) وقال

الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٠٠) إنه قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ونسبه ابن الجوزي في

زاد المسير "للجمهور" (٩ / ١٦٨) وذكره البغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٤٦٨) وقال السيوطي في "الدر

المنثور" (١٥ / ٥٠٦). (أخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أنزلت سورة التين ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: أنزلت سورة

﴿وَالَّتَيْنِ﴾ بمكة.

(٢) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٠٠) عن ابن عباس وقتادة. وينظر "الجامع لأحكام القرآن"

للقرطبي (٢٢ / ٣٦٣)

(٣) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ١٩٣)

فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس»^(١).

وهذا حديثٌ ضعيفٌ لا يصح عن النبي ﷺ، ففي إسناده رجالٌ لا يُعرفون.

والحديث الثاني: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «نِعَمَ السَّوَاكُ الزَّيْتُونُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، يُطَيِّبُ الْقَمَمَ، وَيُذْهِبُ بِالْحَفَرِ هُوَ سِوَاكِي، وَسِوَاكُ الْأَنْبِيَاءِ قَيْلِي» وهذا أيضاً حديثٌ لا يصح^(٢).

هذه السورة قال الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ^(١) وَطُورِ سَيْنِينَ^(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ^(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ^(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ^(٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^(٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ^(٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ^(٨)﴾

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ^(١)﴾ في المراد بالتين والزيتون وجهان عند أهل

التفسير:

(١) (موضوع) أخرجه أبو نعيم في " الطب النبوي " (٤٦٧)، والثعلبي في " الكشف والبيان " (١٠ / ٢٣٨)، وذكره الديلمي في " الفردوس " (٤٧١٦)، وقال العجلوني في " كشف الخفاء " (١ / ٤٢٣) جميع ما ورد في الفاكهة من الأحاديث موضوع. وقال الألباني في " السلسلة الضعيفة " (١٦٥) فقد قال ويغلب على الظن أن هذا الحديث موضوع فإنه ليس عليه نور النبوة.

(٢) (موضوع) أخرجه الطبراني في " المعجم الأوسط " (٦٧٨)، والثعلبي في " الكشف والبيان " (١٠ / ٢٣٩)، وذكره الزخشي في " الكشاف " (٤ / ٧٧٣)، من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. فيه محمد بن محسن العكاشي، وهو كذاب وينظر " السلسلة الضعيفة " للألباني (٥٣٦٠)

الوجه الأول: أن المراد بالتين التين الذي يأكله الناس، يُقَسِّمُ الله به جل جلاله، والزيتون هو الزيتون الذي يُعَصَّر - الزيتون المعروف - وعلى هذا أكثر أئمة التفسير كالحسن ومجاهد وإبراهيم^(١).

الوجه الثاني: أن المقصود بالتين والزيتون هي الأماكن التي ينبت فيها التين والزيتون، يقسم الله تعالى بالأماكن المعظمة المشرفة؛ وهي الشام ويدخل فيها فلسطين، فالشام ينبت فيه التين بكثرة، وكذلك فلسطين ينبت فيها الزيتون بكثرة^(٢).

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ وأولى الأقوال بالصواب، أنه طور سيناء الذي هو بمصر الذي كلم الله نبيه موسى عليه السلام عنده، وأن الله جلَّ جلاله أقسم بهذه الثلاث أماكن المشرفة المعظمة التي بعث منها خير رُسُلِهِ عيسى بن مريم، ثم أشرف وأعظم منه موسى عليه السلام، ثم أعظم منهم وهو محمد ﷺ^(٣).

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٠١) عن الحسن وعكرمة ومجاهد وإبراهيم والكلبي التين الذي يُؤْكَلُ، وَالزَّيْتُونُ: الزَّيْتُونُ الَّذِي يُعَصَّرُ ، قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "معالم التنزيل" (٨ / ٤٦٨) قِيلَ: خَصَّ التَّيْنَ بِالْقَسَمِ لِأَنَّهَا فَاكِهَةٌ مُخْلِصَةٌ لَا عَجَمَ لَهَا، شَبِيهَةٌ بِفَوَاكِهِ الْجَنَّةِ. وَخَصَّ الزَّيْتُونُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، وَلِأَنَّهُ شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ جَاءَ بِهَا الْحَدِيثُ، وَهُوَ ثَمَرٌ وَدُهْنٌ يَصْلُحُ لِلْإِصْطِبَاحِ وَالْإِصْطِبَاحِ.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٠٤)

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٠٧) عن الحسن وكعب وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وابن زيد ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: طُورُ سَيْنِينَ: جَبَلٌ مَعْرُوفٌ، لِأَنَّ الطُّورَ هُوَ الْجَبَلُ ذُو النَّبَاتِ، فَإِضَافَتُهُ إِلَى سَيْنِينَ تَعْرِيفٌ لَهُ. وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "المحرر الوجيز" (٥ / ٤٩٩) وأما طُورِ سَيْنِينَ، فلم يختلف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى، ومنه نودي، وفيه مسجد موسى فهو الطور.

وفي قوله (سِينِينَ) ذكر أهل العلم بالتفسير أوجهاً في معانيها، منها:

الوجه الأول: بمعنى حسن،^(١) وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كسا أم خالد وكانت صغيرة، عَنْ أُمِّ خَالِدِ بِنْتِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا حَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ» فَسَكَتَ الْقَوْمُ، قَالَ: «اأْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ» فَأَتِيَهَا تَحْمِلُ، فَأَخَذَ الْحَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا، وَقَالَ: «أَيْلِي وَأَخْلِقِي» وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَاءُ» وَسَنَاءُهُ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ.^(٢) فقولُه عليه الصلاة والسلام (سنا) يعني هذا جميل، وهو قول عكرمة.

الوجه الثاني: بمعنى مبارك، وقد روي عن مجاهد وقتادة.^(٣)

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [البعد: ١]، وكما قال جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وِيَتَّخِطُّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَالْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٥٠٦ / ٢٤)

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٨٢٣) وأبو داود في "سننه" (٤٠٢٤)، من حديث أم خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٥٠٦ / ٢٤)

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٥١٠ / ٢٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] يَقُولُ: وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يُحَارِبُوا أَهْلَهُ، أَوْ يَغْزَوْهُمْ. وَقِيلَ: الْأَمِينُ، وَمَعْنَاهُ: الْأَمْنُ، ... وَإِنَّمَا عُنِيَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] مَكَّةَ ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبٍ وَالْحَسَنِ وَمَجَاهِدٍ وَعُكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَابْنَ زَيْدٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلًا سِوَاهُ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٤٣٤ / ٨) وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ.

يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ [العنكبوت: ٦٧] يعني: شَرَفَهُ اللهُ تعالى وجعله مُعَظَّمًا في نفوس الناس، لما للبيت من حرمة وجلالة وعظمة في قلوب المسلمين أجمعين، حتى كان الواحد من العرب قبل الإسلام، يرى قاتل أبيه أو قاتل أخيه في البيت الحرام ولا يَمَسُّه بسوء حتى يخرج خارج الحرم فإذا به يعترض له^(١)، وقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ وَجَدْتُ فِيهِ قَاتِلَ الْخُطَّابِ مَا مَسَسْتُهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ»^(٢).

فائدة في أن الله جل جلاله له أن يقسم بما شاء:

الآن أقسم الله بالتين والزيتون، وأقسم بطور سينين، وأقسم بمكة شرفها الله، فهل للعبد

أن يقسم بمكة أو بالتين أو بالزيتون؟

لا يجوز ذلك بل يحرم على الآدميين أن يقسموا بغير رب العالمين جل جلاله، فقد روى الشيخان عن نافع، عن عبد الله، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخُطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رَكْبٍ، وَعُمَرُ يَخْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَخْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَخْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣).

وعند أبي داود في سننه عن سعد بن عبيدة، أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُخْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَفَ بِغَيْرِ

(١) ذكره الأزرقي في "أخبار مكة" (٢/ ١٣٨) فصل ما جاء في القتال يدخل الحرم ثم روى آثاراً عن الصحابة والتابعين ما يؤكد ذلك. دار الأندلس.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٩٢٢٨)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٤٦)، من حديث ابن

اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(١)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب، وهو يسير في ركب، يلحفُ بأبيه، فقال: (ألا إنَّ اللهَ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت).^(٢)

فنهى عن الحلف بالآباء، وبالكعبة، وبأي شيء سوى الله؛ لما فيه من التسوية بالله في هذا الجانب، بل نهى عن تسويته هو ﷺ، ولو في المشيئة؛ لما روى الطبراني في المعجم الكبير عن رباعي بن حراش، عن الطفيل بن سخريرة رضي الله عنه، أخيه عائشة لأُمِّها، قال: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي مَرَرْتُ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَا أَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ؟ قَالُوا: وَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَا أَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، فَقَالُوا: وَأَنْتُمْ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا نَاسًا، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِهَا، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ قَامَ خَطِيئًا، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ أَنْ أَتُكَلِّمَ عَنْهُ، فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ»^(٣)، فربنا جل

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٢٥١) والترمذي في "سننه" (١٥٣٥) وابن حبان في "صحيحه"

(٢) (٤٣٥٨) والحاكم في "المستدرک" (٤٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في "إرواء

الغلیل" (٢٥٦١)

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٠٦٩٤)، الطبراني في "المعجم الكبير" (٨٢١٤)، والحاكم في "المستدرک" (٥٩٤٥)، من الطفيل بن سخريرة رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٣٧)

جلاله يفعل ما يشاء، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.

﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾ يقسم الله تعالى بهذه

المقسمات العظيمة، ثم جاء المقسم عليه ألا وهو:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾ والمعنى: يا أيها العبد إن ربك العظيم خلقك

وشرفك وجعلك في أبهى صورة، فأفضل خلق الله كلهم هو هذا الإنسان فهو أشرف مخلوق، شرفه الله وفضله وجعل له ما يحتاجه ظاهراً وباطناً، وجعله مستوي الخلقة، أشرف ما فيه أعلاه، مرفوع الرأس ليس كغيره من المخلوقات مُنكَّس الرأس؛ بل مرفوع الهامة مُكْرَماً، جعل الله له عينين وأذنين، وكذلك لساناً ينطق به ويبين به، كما ذكر القرطبي رحمته الله "فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وهو أحسن خلق الله ظاهراً، من جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشته، والرجلان وما احتملتاه؛ ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات أجمع فيه، هذا على الجملة، وأما على التفصيل، فبتناسب المحاسن، فهو أحسن من الشمس والقمر بالعينين جميعاً، وقد بينا القول في ذلك في كتاب المشكلين، وبهذه الصفات الجليلة التي رُكِّبَ عليها الإنسان استولى على جماعة الكفران، وغلب على طائفة الطغيان، حتى قال: أنا ربكم الأعلى، وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين، وهي الآية الرابعة بأن جعله مملوءاً قَدَرًا، مشحوناً نجاسةً، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً على وجه الاختيار تارةً، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره."^(١)

ويليق بذكر الاستدلال بالآية على كون الإنسان أفضل المخلوقات ذكر قصة ذكرها كثير من

(١) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٤١٦) وذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٣٦٩)

أهل العلم، وأوردها ابن العربي في أحكام القرآن قال: "كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجه حباً شديداً، قال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقني، وبات بليلة عظيمة، ولما أصبح غداً إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وقال: يا أمير المؤمنين، إن تم عليّ طلاقها تصلفت نفسي غماً، وكان الموت أحب إلي من الحياة؛ وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء، واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقَتْ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿التين: ١ - ٤﴾ يا أمير المؤمنين، الإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال؛ فأقبل على زوجك، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجه أن أطيعي زوجك، ولا تعصيه، فما طلقك." ^(١)

وقفه: والمقصود أن الإنسان فعلاً أجمل المخلوقات، وأحسن المخلوقات كلها، وربُّ العزة شرفه وجمله، وجعل له كل ما يحتاجه سواءً ظاهراً أو باطناً، وربُّ العالمين لفت نظرنا ونظر المخلوقين جميعاً، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلاً تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فلو فكر الإنسان في أقل نعمة عنده، لاحترار عقله، فأخذ يفكر كيف تبصر العين وما فيها من آلات هيأها الله للأبصار، وكيف تسمع الأذن، وكيف لهذا الإنسان أن يأكل ويشرب، وكيف للأمعاء أن تعمل، وللقلب أن يضخَّ الدم والكلَى والكبد... وهذه الآلات العظيمة التي هيأها الله تعالى للإنسان، وهو لا يشعر أبداً بها، فيأكل ويشرب وينام ويقوم، إذا تدبر العبد في نفسه وجد نِعماً لا تُعدُّ ولا

(١) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٤١٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٦٩)

تُحْصَى، فَشَرَّفَهُ اللهُ، وَمِنْ أَعْظَمَ مَا شَرَفَهُ اللهُ بِهِ الْعَقْلَ، زَيْنَتُهُ اللهُ بِالْعَقْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال الإمام أبو بكر بن طاهر رَحِمَهُ اللهُ عَنْ الْإِنْسَانِ: (مُزَيَّنًا بِالْعَقْلِ، مُؤَدِّيًا لِلْأَمْرِ، مَهْدِيًا بِالتَّمْيِيزِ، مَدِيدَ الْقَامَةِ، يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ).^(١) فهذه نعمٌ عظيمةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

وقال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ: (ليس لله تعالى خلقٌ هو أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً، مريداً، متكلاً، سميعاً، بصيراً، مدبراً، حكيماً، وهذه صفات الرب، وعنهما عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢)).

وقفة: سبحانه ربي ما أعظمك، أيُّ تشریفٍ للعبد أعظم من هذا؟!، فإذا كان الله العظيم ربُّ العرش العظيم شَرَّفَهُ هذا الشرفَ، وَفَضَّلَهُ هذا التفضيل العظيم، أما يطيعه العبد، أما يؤدي أمره، أما يجتنب نهيه، لماذا يتجرأ الإنسان على الوقوع في الحرام؟ وقد شرفه الله سبحانه وخلقته في أبهى صورة، كما قال جل جلاله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨] كما مر معنا: فلو شاء الله لخلق الإنسان في صورة حمار، أو في صورة خنزيرٍ إلى غير ذلك، لكن شَرَّفَهُ اللهُ وجعله في هذه الصورة البهية،^(٣) التي هي آيةٌ للعالمين، لماذا لا يطيع العبد ربَّه، طوعاً واختياراً؟ ويُقبل عليه

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٣٦٨) والثعلبي في "الكشف والبيان" (١٠/ ٢٤٠)

والسلمي في "حقائق التفسير" (٢/ ٤٠٦)

(٢) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤/ ٤١٥)

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٧٩) عن عكرمة وغيره قال إن شاء في صورة فردٍ، وإن شاء في صورة خنزيرٍ.

وَيُعَظِّمُهُ وَيُعَظِّمُ شَرَّهَ؟.

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(١) فيها وجهان لأهل العلم:

الوجه الأول: المراد بالإنسان هنا هو الإنسان الكافر، وأن الله رده بعد أن خلقه في أبهى صورة، وأجمل منظر، ولم يقيم بطاعة الله، ولم يُعَظِّمُ شرَّه، رده الله أسفل سافلين يعني في النار، هذا القول منسوبٌ لمجاهدٍ، وأبي العالية، والحسن، وابن زيد، وهو ما اختاره الحافظ بن كثير في تفسيره.^(٢)

الوجه الثاني: من قال إن المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٣) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ^(٤) يعني: خلقنا الإنسان في شباب وفي قوة وفي كمال لصحته وعافيته ثم بعد هذه القوة وهذا الشباب وهذا النشاط، يرد إلى أرذل العمر ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥) [يس: ٦٨] وهذا القول منسوبٌ لابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وإبراهيم، وقتاده واختاره ورجحه شيخ المفسرين الطبري رحمته الله.^(٦)

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٣٥)

(٢) قال الطبري رحمته الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٥١٦) وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة، وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: معناه: ثم رددناه إلى أرذل العمر، إلى عمر الخرفي، الذين ذهب عقولهم من الهرم والكبر، فهو في أسفل من سفلى في إدبار العمر وذهاب العقل.. وإنا قلنا: هذا القول أولى بالصواب في ذلك؛ لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن خلقه ابن آدم، وتصريفه في الأحوال، احتجاجاً بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت، ألا ترى أنه يقول: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بَالَتَيْنِ﴾^(٧) يعني: بعد هذه الحجج.. ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعاني بما كانوا له منكرين. وإنا الحجة على كل قوم بما لا يقدر على دفعه، مما يعاينونه ويحسونه، أو يقرؤن به، وإن لم يكونوا له محسين.. وإذ كان ذلك كذلك، وكان القوم للنار - التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة - منكرين، وكانوا لأهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين، علم أنه

وقفة: روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي رضي الله عنه، قال: كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أزدل إلى أزدل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»، فحدثت به مضجعاً فصده ^(١) وهذا آية عظيمة حتى لا يتكبر الإنسان، ولا يتعالى ودائماً يرى الناس أمامه، أحياناً يرى أطفال، أحياناً يرى شباب أقوياء، أحياناً يرى آباء كبار، هؤلاء كانوا شباباً أقوياء فعلوا وذهبوا وأكلوا وشربوا وتاجروا وباعوا واشتروا وتزوجوا وزوجوا، وغير ذلك، وإذا بهم الآن كباراً وضعفت قواهم، هذه سنة الله في خلقه، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧] فلا بد للعبد أن يطيع ربه ويعظمه سبحانه.

وهذه الآية ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يعني بعد ما كان قوياً نشيطاً يسعى ويحيى؛ أصبح لا يستطيع أن يتحرك، قلت همته، وضعفت قواه، فبعد أن كان يحفظ وذاكرته قوية صار ينسى كثيراً مما كان يحفظه حتى صار لا يعرف بعض أقربائه بل بعض أولاده، فنعوذ بالله أن نرد إلى أزدل العمر.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي رددناه إلى أزدل العمر، يعني رددناه مُنْكَسّاً فصار ضعيفاً وهكذا.

إنما احتج عليهم بما كانوا له معانين، من تصرفه خلقه، ونقله إياهم من حال التقويم الحسن والشباب والجلد، إلى الهرم والضعف وفناء العمر، وحدوث الخرف).

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٢٢) والترمذي في سننه (٣٥٦٧)، من حديث عمرو بن ميمون رضي الله عنه، به.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

على القول الأول: أن الله خلق الإنسان في أبهى صورة ثم رد الإنسان الكافر الذي لم يُطع ربه أسفل سافلين يعني النار، قالوا: إلا الذين آمنوا ليسوا كحال الكفار^(١)، بل هؤلاء شاكرون لله، مطيعون لأمره، متتهون عن نهيه، فهؤلاء لهم أجر عظيم عند الله وهي الجنات العظيمة، التي فيها ما لذ وطاب من نعم متكاثرة، وسعادة متوافرة متواترة، ليس فيها تنغيص من أي وجه من الوجوه.

وأما على القول الثاني: أن الإنسان يُردُّ إلى أرذل العمر، معناه: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني أن هؤلاء وإن ضعفت قواهم، وانقطعت أعمالهم، لأن الإنسان إذا كبر صار لا يستطيع أن يعمل مثلما كان يعمل فانقطعت أعمال كثيرة من أعمال الصالحات التي كان يقوم بها من برٍّ وصلاة جماعة وعمره وقراءة قرآن، فالله سبحانه إذا قَدَّرَ على عبدٍ فأطال عمره وكان صالحاً في حال شبابه وضعفت قوته في آخر عمره، فلم يستطع أن يقوم بما كان يقوم به من أعمالٍ صالحةٍ، تأتية البشرى العظيمة من نبيه ﷺ باستمرار أجر عمله الذي واظب عليه وإن انقطع عنه، فقد روى البخاري في صحيحه عن إبراهيم أبي إسحاق السَّكْسَكِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بُرْدَةَ، وَاصْطَحَبَ هُوَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَزِيدُ يَصُومُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى مَرَّارًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٢) ما شاء الله لا قوة إلا بالله يعني إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هؤلاء لا

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٥٢١ / ٢٤)

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩٩٦) وأحمد في "مسنده" (١٩٧٥٣)، من حديث أبي

بردة رضي الله عنه، به.

ينقطع أجرهم، ولا ينقطع ثواب أعمالهم، بل عملهم مستمر وأجرهم دائم، ببركة الله تعالى عليهم وبفضل الله جل جلاله لهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ روى الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَرُدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] قَالَ: إِلَّا الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ" - أسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن العاملين العاملين به الداعين إليه يارب العالمين -

وذكر أهل العلم أمثلة لذلك:

من ذلك: شيخُ القراء في المدينة المنورة الشيخُ حسن الشاعر كان قد جاوز المائة عامٍ بكثيرٍ، وما شاء الله لا زال يتمتع بصحته وعافيته وذاكرته، والناس يقرأون عليه القراءات العشر، وأحياناً يقرأ عليه اثنان وثلاثة في المجلس الواحد، يصحح لهذا ويصحح لهذا، وهناك قصةٌ ذكرها آخر عنه فقال: كان الشيخ حسن رحمه الله من نوادر علماء المدينة، متواضعاً، ذا حلم، مرح النفس، طيب القلب، ترى في وجهه رحمه الله الصلاح والتقوى، وبعد أن قام برحلته إلى سمرقند حكى هذه القصة. قال: "كنت أقرأ القرآن في أحد مساجد سمرقند، وإذا بشخصٍ يقول: أين الشيخ حسن؟، وحيث أني لا أعرف أحداً هناك فوجئت بذلك فعرفته بنفسِي، فطلب مني الذهاب معه إلى منزل سيده، غادرت المسجد وقبل الوصول إلى المنزل رأيت الأرض قد فُرِشت

(١) (صحيح) أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٤٠٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في

"صحيح الترغيب والترهيب" (١٤٣٥)، وأخرج ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٠٥٧٨) وسعيد ابن

منصور في "السنن" (١٤٦٨) والطبري في "جامع البيان" (٥١٧ / ٢٤) عن عكرمة قال كَانَ يَقَالُ: مَنْ

قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَرُدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

سَفِيلِينَ ﴿التين: ٤، ٥﴾ قَالَ: لَا يَكُونُ حَتَّى لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

بفرش جميل، وأناس يستقبلونني، وبعد أن أخذت مكاني في المجلس سألت أحد المكرمين لي عن الأمر. فقال: "صاحب هذه الدار رجل مسلم وتاجر لبيع الخيول، توفي قبل قدمك بستة أشهر وقبل يومين رأت زوجته رؤيا لزوجها يوصيها برجل قادم من المدينة المنورة واسمه الشيخ حسن ليقرأ القرآن في منزله، وسيدتي " أينكة " - وهذا اسمها - أوصت بالبحث عنك حتى وجدناك". فحمدت الله بأن سخر لي أناساً دعوني طوال إقامتي في سمرقند، وخلال إقامتي درّست القرآن وعلمته لكثير من المسلمين هناك.. اه! ^(١)

هذا من بركات القرآن وصدق الله جل جلاله إذ يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] في كل شيء، يحفظك الله في حال شبابك، ويحفظك في حال كبرك، فأقبل على القرآن قراءة وحفظاً وتعلماً وتعليماً، فإن فيه البركات، ووالله ما وجدنا أبرك من كتاب الله، فيذهب الناس ويقرأون ويسبرون فيقرأون للفلاسفة والمثقفين، لكن أبداً لا يجد العبد أبرك من آية يقرأها، ولا يجد أبرك من آية يتعلم معناها، لا يجد أبرك من فائدة يستفيد منها من سورة من كتاب الله سبحانه جل جلاله.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ فالمستثنون هم الذين آمنوا بقلوبهم وألستهم، وعملوا الصالحات

(١) ذكر الشيخ د. عبد الله بن أحمد آل علاف الغامدي ترجمته: فمن ضمنها: هو الشيخ الإمام العلامة المقرئ الناصح المصلح: حسن بن إبراهيم الشاعر. ولد الشيخ حسن في مصر عام ١٢٩١ هـ، وكانت وفاته في العشرين من شهر ذي القعدة لعام ١٤٠٠ هـ وقد عمّر فوق المائة بتسع سنوات، وذكرها الشيخ عطية سالم في "تمتة أضواء البيان" (٨/ ٩) وقال: وَقَدْ شَاهَدْنَا شَيْخَ الْقُرَّاءِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الشَّيْخَ حَسَنَ الشَّاعِرِ، لَا زَالَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ عِنْدَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْأُسْطُرِ تَجَاوَزَ الْمِائَةَ بِكَثِيرٍ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يُقْرَأُ تَلَامِيذُهُ الْقُرْآنَ، وَيَعْلَمُهُمُ الْقُرَّاءَاتِ الْعُشْرَ، وَقَدْ يَسْمَعُ لَأَكْثَرُ مِنْ شَخْصٍ يَقْرَأُونَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ وَهُوَ يَضْبُطُ عَلَى الْجَمِيعِ.

بجوارحهم، فالإيمان ليس كلاً ما فقط، الإيمان لا بد فيه من عملٍ، قال تعالى: **(ءَامِنُوا وَعَمِلُوا)**، آمنوا فأقروا وصدقوا بقلوبهم، فجمعوا بين خير الصفات كلها، قلوب مصدقة، وألسنة شاكرة ذاكرة، وجوارح عاملة بطاعة الله، تصلي، وتصوم، وتبر الوالدين، وتصل الرحم، وتقرأ القرآن، وتقوم الليل إلى غير ذلك من أنواع الخيرات، والبركات.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فقله تعالى: **{غَيْرُ مَمْنُونٍ}** فيها أوجه:

الوجه الأول: غير ممنونٍ يعني غير مقطوع^(١)، يعني لا يقطع عنهم هذا الثواب، فلا ينقطع من الثواب والنعيم ما هو متعلق في الدنيا بالمواسم، فلا يقال نحن في الشتاء فتمتنع علينا فاكهة الصيف، أو نحن في الصيف فتمتنع علينا فاكهة الشتاء، بل كما قال رب العزة: **﴿عَطَاءٌ غَيْرُ فَجْدُودٍ﴾** [هود: ١٠٨] يعني غير مقطوع، وهذا القول عن الضحاك وقتادة وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وابن جريج وأبي العالية وقد نسب هذا القول لابن عيسى^(٢).

فنعيم العبد في الجنة دائم متكاثر متواتر، فالنعم متوافرة، ليس هناك شيء ليس موجوداً، فهناك كل ما لذ وطاب وزيادة، فهي دار الكرامة، التي يجب على العبد أن يشمر لها شكراً لربه، وأداءً بحق العبودية، ولا يتوانى أبداً طرفة عين، عن طاعة الجليل سبحانه وبحمده، فيؤدي الأوامر ويحتمل الحرام، ويأكل الحلال ولا يأكل الحرام، ويفعل ما أمره الله به، ويترك ما حرم الله عليه من رباً وزناً وشرب خمر، وعقوق الوالدين، وترك الصلاة، وقطيعة الرحم، ويؤدي ما أمره

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٥٢٢ / ٢٤) وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، ونسبه الماوردي في "النكت والعيون" (٣٠٢ / ٦) لابن عيسى

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٥٩٠ / ١٢) عن الضحاك وقتادة وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وابن جريج وأبي العالية.

الله رجاء موعود الله عز وجل .

الوجه الثاني: (غير ممنون) يعني: غير منقوص واختار هذا القول الطبري.^(١)

الوجه الثالث: (غير ممنون) أي ليس فيه منة عليك^(٢)، وهذا لا شك أنه خطأ عظيم، فكيف ليس فيه منة عليه والله المنّة أولاً وآخرأ على عباده؟ وإن دخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب، فله المنّ على السادة الأنبياء أكمل خلق الله إيماناً عليهم الصلاة وأتم السلام، وقد نسب هذا القول لعكرمة ومقاتل والحسن.

وأما **(عَبْرٌ مِّنْهُمْ)** فتفسيرها الصحيح يعني غير مقطوع.

ثم يعتب الله ويؤكّد هذا العبد الكافر فيقول: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾^(٣) ما الذي يدفعك للتكذيب أيها الكافر، بيوم الدين، يعني بيوم القيامة وهو يوم الجزاء الذي يُدان فيه الناس بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٤) [الطور: ٢١] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٥) [المدثر: ٣٨].

والمعنى: ما يكذبك بعد ما جاءك من ربك هذا البيان العظيم، وجاءتك الآيات، وجاءك القرآن، فأنزل الله الكتاب على رسوله محمد ﷺ، وجعل لك عقلاً تميز به الأشياء، وهداك الله النجدين، فبصرك بطريق الحق وبصرك بطريق الباطل، وبصرك بالخير وبصرك بالشر، وبصرك بالهدى وبصرك بالضلال، فماذا بعد ذلك؟ أليس بعد الهدى إلا الضلال؟

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ ما الذي يدفعك يا ابن آدم أن تكذب بقاء الله، وأن تكذب

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٢٢)

(٢) ذكره الرازي في "التفسير الكبير" (٣٢ / ١٢)، والواحد في "البيضا" (٢٤ / ١٥٧) ونسبه لعكرمة

ومقاتل. والماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٠٢) ونسبه للحسن.

بأن هناك جنّة وناراً، وأن هناك لقاء مع الله تُسأل فيه عن كل شيء، عن عمرك فيما أفنيته، وعن شبابك فيما أبليت، وعن مالك من أين اكتسبته وفيما أنفقته، وعن علمك ماذا عملت فيه^(١)، تُسأل عن القديم والحديث، عن السرّ والعلانية، تُسأل عن خيانة العين، وعن زلات اللسان - نسأل الله أن يسترنا وإياكم ولا يؤاخذنا بذنوبنا يا رب العالمين -.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾^(٨) يعني بلى سبحانه جل جلاله هو أحكم الحاكمين.

وقفة: هل أحكم الحاكمين من حكمته أن يخلق العباد عبثاً، ويتركهم هملاً فلا يبعثون ولا يحاسبون، ولا يجازون بأعمالهم؟

هذه ليست حكمة الله بل حكمة الله تقتضي أنه خلقهم، ولما خلقهم جعلهم يتنقلون من طورٍ إلى طورٍ، من نطفةٍ إلى علقةٍ ثم بعد ذلك إلى مضغةٍ، ثم بعد ذلك إلى عظامٍ، ثم يكسو العظام اللحمًا، ثم يخرج خلقاً آخر طفلاً صغيراً، ثم بعد ذلك يكون شاباً قوياً، ثم يُرد إلى أرذل العمر، فالذي جعل العبد يتنقل في هذه الأطوار، سيُميّته وبعد ذلك يبعثه، ويحشره للحساب بين يديه جل جلاله، وللوقوف بين يديه، للسؤال عن كل ما قام به في حياته، وهذا مما تقتضيه حكمة الله جل جلاله، أنه لا يترك الخلق هملاً، ولا يخلقهم عبثاً، حاشا لله سبحانه وبحمده.

(١) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤١٦)، وأبو يعلى في "مسنده" (٥٢٧١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٩٧٧٢)، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٢٩٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "لَا يَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْتَاهُ، وَشَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيْمَا عَلِمَ"

قال الله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ وقد ذُكِرَ عن بعض السلف أنهم كانوا إذا قرأوا هذه الآية قالوا: بلى ربنا أحكم الحاكمين، ولكن هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ، لكن

(١) ومن ذلك ما رواه أبو داود في "سننه" (٨٨٧)، والترمذي في "سننه" (٣٣٤٧)، وأحمد في "مسنده" (٧٣٩١)، والحاكم في "مستدركه" (٣٨٨٢)، وصححه ووافقه الذهبي، عن إسماعيل بن أمية قال: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَالْتِّينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ فَأَنْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فَأَنْتَهَى إِلَيَّ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَى﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فَلْيَقُلْ: ﴿فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: ذَهَبْتُ أُعِيدُ عَلَى الرَّجُلِ الْأَعْرَابِيِّ وَأَنْظُرُ لَعَلَّهُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَتَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَحْفَظْهُ لَقَدْ حَجَجْتُ سِتِّينَ حَجَّةً مَا مِنْهَا حَجَّةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُ الْبَعِيرَ الَّذِي حَجَجْتُ عَلَيْهِ. والحديث (لا يصح مرفوعاً) وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٥٧٨٤).

وأخرج أبو داود في "سننه" (٨٨٤) عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَى﴾، قَالَ: سُبْحَانَكَ، فَبَلَى، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ أَحْمَدُ: يُعْجِبُنِي فِي الْفَرِيضَةِ أَنْ يَدْعُو بِمَا فِي الْقُرْآنِ. وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٨٢٧)، وذكر ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" أيضاً هذه الآثار (٨/ ٢٨٤)

قال الشيخ العثيمين في "الشرح الممتع على زاد المستقنع" (٣/ ٢٩٠) مسألة: لو قرأ القارئ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة] فهذه ليست آية وعيد ولا آية رحمة فله أن يقول: بلى، أو «سبحانك فبلى»، لأنه وَرَدَ فِي حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَصَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَيْهِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة] فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ، قَالَ: سُبْحَانَكَ فَبَلَى، فِي فَرَضٍ وَنَفْلٍ. وَإِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين] فيقول: «سبحانك فبلى»

وقال الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل الترتيل" تفسير جزء تبارك - سورة القيامة، فهذه الأحاديث والآثار مع الاتفاق الذي نقله بعض العلماء على مشروعية ذلك، يظهر لنا من هذا صحة من قال سبحانك وبلى إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يجيب الموتى.

لا مانع إذا قاله الإنسان، يعني تعاملًا مع القرآن الكريم وتأثرًا به - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من خير عباده. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله ومنتها الانتهاء من تفسير سورة التين.

﴿سُورَةُ الْعَلَقِ﴾

سورة العلق سورة مكية، وآياتها تسع عشرة،

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر هناك خلق الإنسان في أحسن تقويم، وذكر هنا خلق الإنسان من علق، إلا أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما سلف.^(١) وهي من أول ما نزل من القرآن، فأول ما نزل من القرآن الكريم، هي الخمس آيات الأول منها، وليست السورة بتمامها.^(٢)

(١) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ١٩٧)

(٢) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ فِي " الدر المنثور " (١٥ / ٥١٩) أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرَقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ :
أول ما نزل من القرآن بمكة ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ الضَّرِيرِ ، وَابْنُ الْأَثَّارِ فِي الْمَصَاحِفِ وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَةِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَتْ ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ أول سورة أنزلت على محمد ﷺ . وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ بْنِ جَعْفَرٍ الْمَخْزُومِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ عُلَمَائِهِمْ يَقُولُ : كَانَ أَوَّلُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ إِلَى ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَقَالُوا : هَذَا صَدَرَهَا الَّذِي أَنْزَلَ يَوْمَ حِرَاءٍ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ آخِرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ .

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ فِي " المحرر الوجيز " (٥ / ٥٠١) وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ . وَهِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، نَزَلَ صَدَرُهَا فِي غَارِ حِرَاءٍ .

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ فِي " معالم التنزيل " (٨ / ٤٧٤) ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ : عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وَيَنْظُرُ "

وذلك لما روى الإمامان البخاري، ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ. فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبَّ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ، (وَهُوَ التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِي أُولَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فِجْئُهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ" قَالَ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، -ضَبَطَتْ بَفَتْحِ الدَّالِ وَضَمِ الدَّالِ، الْجُهْدَ يَعْنِي غَطَّنِي وَاتْعَبَنِي حَتَّى أَجْهَدَنِي، وَبِضْمِ الدَّالِ يَعْنِي بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ مَبْلَغًا عَظِيمًا- ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ. ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ [العلق: ١ - ٥] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرَجُّفُ بَوَادِرِهِ....." الحديث. ١)

وفي هذه السورة العظيمة أن حبينا ﷺ كان خَيْرًا مَبَارَكًا قَبْلَ الْبَعْثَةِ، فَقَبَّلَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا كَانَ بَرًّا، صَدُوقًا، رُؤُوفًا رَحِيمًا، وَكَانَ ذَا خَلْقٍ كَرِيمٍ، كَانَ يَتَعْبَدُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَانَ يَخْلُو بَرَبَهُ سُبْحَانَهُ جَلْ جَلَالَهُ، فَكَانَ يَتَحَنَّثُ، وَيَتَحَنَّفُ، عَلَى ضَبْطَيْنِ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ،

فَالضَّبْطُ الْأَوَّلُ: (يَتَحَنَّثُ) يَعْنِي: يَلْقِي الْإِثْمَ، فَالْأَصْلُ فِي الْحَنْثِ هُوَ الْإِثْمُ، فَيَتَحَنَّثُ الْمَقْصُودُ بِهَا يُلْقِي الْإِثْمَ بِالْعِبَادَةِ، فَيَعْبُدُ رَبَّهُ جَلْ جَلَالَهُ.

تتمة أضواء البيان "لعطية سالم (٩/ ١٣)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

والضبط الثاني: (يَتَحَنَّف) يعني يتعبد لله على الحنيفة ملة إبراهيم الحنيف عليه الصلاة

وَأَتَمَّ السَّلام^(١)

وفي أول الحديث قالت أمنا عائشة رضي الله عنها "كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ" الرؤيا الصالحة تكون كالتوطئة للأنبياء، حتى تهدأ قلوبهم كما ثبت عن بعض التابعين بالإسناد الصحيح فيها رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ عُلَقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ صَاحِبِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْتَى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْمَنَامِ حَتَّى تَهْدَأَ قُلُوبُهُمْ ثُمَّ يَنْزِلُ الْوَحْيُ بَعْدُ فِي الْيَقَظَةِ^(٢)، فجميع الرسل بدأ الوحي بالنسبة لهم رؤيا، فكان الحبيب ﷺ إذا رأى رؤيا جاءت وتحققت مثل انفلاق الصبح، مثل النهار عندما يخرج ويتضح بعد الليل.

قالت "ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ" يعني يخلو ﷺ بربه جل وعلا، في غار حراء، وقد أخبر بعض أهل العلم: أن الصعود إلى هذا الغار يُجهد الإنسان مشياً على الجبل ثلث الساعة أو ربعها حتى يصل إلى الغار الذي كان الحبيب يخلو فيه وحده مع الله رب العالمين، قالوا: وهذا يدل على رباطة جأشه وعلى قوته عليه الصلاة والسلام، وعلى إيمانه العظيم، حيث كان يذهب ليتفكر في آلاء الله، وَيُطْعَمُ كُلَّ مَنْ مَرَّ بِهِ وَيَعْبُدُ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾

(١) قاله الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١/ ٢٣)

(٢) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (١/ ٩)

قال الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) يعني اقرأ مبتدئاً القراءة باسم الله الرحمن الرحيم، (باسم ربك)، ومن هنا قال الشافعي رحمه الله: هي آية في الفاتحة، وتردد قوله في سائر السور، فمرة قال: هي آية من كل سورة، ومرة قال: ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها، ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل.

واحتج الشافعي بما رواه الدارقطني من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها"^(٢).

والمالكية وبعض أهل العلم قالوا: البسملة ليست آية من القرآن الكريم، فقال القرطبي رحمه الله من المالكية: الصحيح من هذه الأقوال قول مالك، لأن القرآن لا يثبت بأخبار الأحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه.

قال ابن العربي رحمه الله: "يكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه". والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله عز وجل فسمت"

(١) (صحيح) أخرجه البيهقي في "الكبرى" (٢٤٢٥)، والدارقطني في "سننه" (٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٣١)، وقال الحافظ في "الدراية في تخريج أحاديث الهداية" (١/

١٣٣) أخرجه الدارقطني ورجح في العلل أنه موقوف.

(٢) ينظر "الحاوي الكبير" للماوردي (٢/ ٢٣٨) و"المجموع" للإمام النووي (٣/ ٣٥٨)، والقرطبي في "

الجامع لأحكام القرآن" (١/ ١٤٤)

الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الحديث^(١).

والمقصود بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ اقرأ مفتتحاً القراءة باسم ربك أي بسم الله الرحمن الرحيم، أو اقرأ باسم ربك مستعيناً به جل جلاله ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الذي خلق الخلق كلهم، سبحانه وبحمده، ثم خص خلق الإنسان لشرفه وكماله ولمكانته العلية عند الله عز وجل.

وقفه مع نزول الآية على النبي ﷺ:

للعبد أن يتخيل هذا المنظر المهيّب والدنيا ظلامٌ دامسٌ، وفي خلوةٍ بعيدةٍ عن الخلق، وإذا بملك يأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام في صورة رجلٍ وحده، فيقول له "اقرأ" فيقول "ما أنا بقارئ" يعني أنا لا أقرأ ولا أحسن أن أقرأ، فيضمه الملك ضمّاً شديداً حتى كادت أنفاسه أن تخرج - عليه الصلاة والسلام - ثم يرسله فقال "اقرأ" فيقول "ما أنا بقارئ" أنا لست من أهل القراءة^(٢) ولا أحسن القراءة، فيضمه مرة أخرى ضمّاً شديداً حتى كادت تخرج أنفاسه، يعني حتى كاد أن يموت عليه الصلاة والسلام، فعل ذلك معه ثلاث مرات، ثم قال له ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ستقرأ مع أنك لست من أهل القراءة، ولست ممن يتعلمون القراءة، بل إن الله جل جلاله صرف همّة رسول الله ﷺ عن القراءة حتى تكون آيةً باهرةً، ومعجزةً ظاهرةً، وبعث في وسط قوم بلغاء فصحاء وكانت فيهم القراءة قليلةً، وكان القراء والعالمون بالقراءة والكتابة في ذلك الزمان قلةً؛ ورغم ذلك صرف الله نبيه ﷺ عن تعلّم القراءة والكتابة ليكون ذلك أبلغ في الحجة

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١/ ١٤٥)، والحديث أخرجه مسلم في "صحيحه" (٣٩٥)، وأبو

داود في "سننه" (٨٢١)، والترمذي في "سننه" (٢٩٥٣)، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، به.

(٢) ينظر "فتح الباري" (١/ ٢٤)

وأعظم له في صدور الخلق^(١)، وأشد في التأكيد على أنه نبي مرسل من عند الله، حيث جاءهم بهذا القرآن المجيد؛ الذي لا يستطيع الإنس والجن سويًا لو اجتمعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، سواء كانت سورة طويلة أو سورة قصيرة.

ولذلك لو قلت لماذا لم يعلم الله نبيه محمدًا ﷺ القراءة والكتابة؟

أجاب أهل العلم عن ذلك بهذا الجواب الذي ذكر، وهو حتى يدل دلالة عظيمة أكيدة أنه رسول مبعث وأنه نبي من عند الله تبارك وتعالى، صلوات ربي وسلامه عليه، فلو أنه كان يكتب ويقرأ ﷺ لقالوا إنه هو الذي كتب هذا الكلام من نفسه، فقد قالوا هذا وهو لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] فماذا لو كان يقرأ ويكتب؟^(٢) فرغم أنه - صلوات ربي وسلامه عليه - ما كان يقرأ ولا يكتب وكلهم يعرفون أنه أمي عليه الصلاة والسلام وقال عن نفسه وأمه فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، يحدث عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّا أُمَةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» وَعَقَدَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّلَاثَةِ «وَالشَّهْرُ هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا» يَعْنِي تَمَامَ ثَلَاثِينَ^(٣)، ورغم ذلك رموه بهذه الفرية لعداوتهم له، فقالوا أساطير الأوليين اكتتبها، وقالوا عنه: ساحر، وقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون، إلى غير ذلك عليه ﷺ.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٤) والإنسان المراد به هنا ذرية آدم^(٥)، وليس آدم، أما آدم خلَقَ

(١) يراجع كتاب "القول بالصفحة في إعجاز القرآن" عرض ونقد تأليف د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري.

(٢) ينظر "تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (١٣/٩)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٩١٣)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٨٠)، من حديث ابن

عمر رضي الله عنهما، به.

(٤) قال البغوي في "معالم التنزيل" (٤٧٩ / ٨) قال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي خَلَقَ ابْنَ آدَمَ، وقال القرطبي في "

مما وُصِفَ لنا، خلقه الله تعالى من ترابٍ، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(١)، أما ذرية آدم إلى يوم الدين فخلقهم الله تعالى من علقٍ، ويستثنى عيسى ابن مريم عليه السلام.

والعلق هي قطعة الدم المتناسك، سُمِّيَتْ علقاً لأنها تعلق بأي شيء تمر عليه. قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "**(من علق)** أي من دم، جمع علقة، والعلقة الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح، وقال: من علق فذكره بلفظ الجمع، لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة، والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة"^(٢).

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ صيغة أفعِل، يعني ربك جل جلاله هو أكرم الأكرمين، تبارك وتعالى، وكرمُ الله ليس له منتهى، وكرم الله على عباده جميعاً على الإنس والجن وعلى الخلق كافة لا يُحصى ولا يُعَدُّ، وصدق الله حيث قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقفة: إكرام الله لعباده:

فَمِنْ كَرَمِ اللَّهِ أنه خلق العبد وأوجده وعافاه وصَحَّحَ بَدَنَهُ وَهَيَّأَ لَطَاعَتَهُ.

وَمِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ أن اختاره ليصلي له سبحانه وبحمده.

وَمِنْ كَرَمِ اللَّهِ أن شرح صدره للدين.

الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٣٧٦) يعني ابن آدم.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٩٦) وأحمد في " مسنده " (٢٥١٩٤) وابن حبان في " صحيحه "

(٦١٥٥)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، به.

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٣٧٦)

ومن كرم الله جل جلاله أنه غفارٌ؛ فالعبد يخطئ بالليل والنهار، وربّه يغفر الذنوب جميعاً.
ومن كرمه جل جلاله أنه لا يُعجلُ العقوبة للعاصي، بل يرفق بهم، ويحلّم عليهم جل جلاله، لعلهم يتوبون.

ومن كرمه عز وجل أنه يحب المدح، لا أحد أحب إليه المدح من الله، يجب أن يثني عليه عبده بما هو أهله، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي وإيل، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ»^(١).

ومن كرمه جل جلاله وتباركت أسماؤه أنه يعطي دون أن يُسأل.
ومن كرمه أنه تعالى ينق على الخلق كافةً، غنيهم وفقيرهم، كلّ الخلق، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنْفَقْ أَنْفَقَ عَلَيْكَ" وقال رسول الله ﷺ: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ»^(٢).

ومن كرم الله أن هياً لعباده معاشهم ومصالحهم.
ومن أعظم الكرم أن يختار الله عبداً من عباده للعمل لدينه، فهذا أعظم الكرم، وأعظم التشريف، فأعظم التشريف أن يجد العبد نفسه منشرح الصدر للعمل لهذا الدين، يصلي ويذكرُ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٦٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٩٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٦٨٤)، ومسلم في "صحيحه" (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

الناس بالخير وَيُخْضِثُهُمْ عَلَىٰ فِعْلِ الْمَعْرُوفِ، ويقومُ بشيءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وبشيءٍ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هذا كَرَمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ خَلَقَ اللَّهَ غَيْرَهُ كَثِيرًا، وَفِي خَلْقِ اللَّهِ غِنًى لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ لِيَتَكَثَّرَ بِهِمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَسْتَغْنِيَ بِهِمْ مِنْ فَقْرٍ - حَاشَا لِلَّهِ - اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَكْرَمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ عِبَادًا لِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، تَجِدُ هَذَا الْعَبْدَ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِحُبِّ الصَّدَقَةِ، وَهَذَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالشَّفَاعَةِ لِلْخَلْقِ، وَهَذَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالسَّعْيِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ لِلْعِبَادِ، وَهَكَذَا كَرَّمَ اللَّهُ وَسَّعَ الْعَالَمِينَ وَزِيَادَةً، لَيْسَ لَهُ مَتْنَهَى سُبْحَانَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، صِفَةُ جَلِيلَةٍ تَلِيْقُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ تدبر قول الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الخلق كلهم ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ شَرَّفَهُ وَفَضَّلَهُ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يعني: كما خلقتك يا محمد من علقٍ، وكما تولاك في هذه الأطوار، مِنْ عَلَقَةٍ إِلَى نُطْفَةٍ إِلَى مُضْغَةٍ إِلَى عِظَامٍ ثُمَّ كَسَاكَ لَحْمًا ثُمَّ خَرَجْتَ طِفْلًا صَغِيرًا، ثُمَّ صَرْتَ شَابًا وَهَكَذَا فَالَّذِي خَلَقَكَ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ سَتَقْرَأُ بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَبِكْرَمِهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وهذه مِنْهُ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ، حَيْثُ نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ، أَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ بِالْقَلَمِ، أَنَّهُ عَلَّمَهُمُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ بِالْقَلَمِ، وَاسْمِي الْقَلَمِ قَلَمًا لِأَنَّهُ يَقْلُمُ^(١)، أَيْ يُبْرِئُ وَيُزَاحُ عَنْهُ حَتَّى يُكْتَبَ بِهِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"^(٢) وهذا من تمام كرمه جل

(١) قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "مَقَائِيسِ اللُّغَةِ" (٥ / ١٦) (وَمِنْ هَذَا الْبَابِ سُمِّيَ الْقَلَمُ قَلَمًا قَالُوا: سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يَقْلُمُ مِنْهُ كَمَا يَقْلُمُ مِنَ الظُّفْرِ) دَارُ الْفِكْرِ.

(٢) (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ" (٤٠٤ / ٧)، وَمُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" (٢٧٥١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي

جلاله .

وروى أبو داود في سننه عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"^(١)، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ، السعادة والشقاوة، والغنى والفقر وانتصار المسلمين على الكافرين، وتسليط الكفار على المؤمنين، كلُّ شيءٍ مكتوبٌ.

وروى مسلم في صحيحه عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: (إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَحَمَهَا وَعَظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟ (حتى نعرف أن الملائكة لا تعلم الغيب) فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ).^(٢)

مسألة كراهية كتابة العلم:

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْجَمَحْهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ ...).^(٣)

هريرة رضي الله عنه، به .

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٧٠٠)، والترمذي في "سننه" (٣٣١٩)، من حديث عبادة رضي الله عنه، به .

، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٧٠٠)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٤٥) وابن حبان في "صحيحه" (٦١٧٧)، من حديث حذيفة بن

أسيد الغفاري رضي الله عنه، به .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٣٠٠٤)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٨١٥١)، وأحمد في "

هذا الحديث، استدل به بعض أهل العلم على كراهية الكتابة في العلم، وقالوا لأن كثيراً من أهل العلم كانوا ينهاون عن الكتابة في العلم لأنهم كانوا يحثون الناس على حفظ العلم، ويأمرون الناس أن يأخذوا العلم حفظاً، كما أخذوه هم حفظاً عمن قبلهم، ولكن جواز الكتابة، لا شك أنه هو الذي استقرت عليه الامة.

قال النووي رحمته الله في شرح الامام مسلم: "قال القاضي: كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلافٌ كثيرٌ في كتابة العلم، فكرهاها كثيرون منهم وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها وزال ذلك الخلاف، واختلفوا في المراد بهذا الحديث الوارد في النهي:

ف قيل: هو في حقِّ مَنْ يوثَّق بحفظه، ويُخاف اتكأه على الكتابة إذا كتب، ويحمل الأحاديث الواردة بالإباحة على مَنْ لا يوثَّق بحفظه، كحديث اكتبوا لأبي شاه، وحديث صحيفة علي رضي الله عنه، وحديث كتاب عمرو بن حزم الذي فيه الفرائض والسنن والديات، وحديث كتاب الصدقة ونصب الزكاة الذي بعث به أبو بكر رضي الله عنه أنساً رضي الله عنه حين وجهه إلى البحرين، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يكتب ولا أكتب، وغير ذلك من الأحاديث.

وقيل: إن حديث النهي منسوخٌ بهذه الأحاديث، وكان النهي حين خيف اختلاطه بالقرآن، فلما أمن ذلك أذن في الكتابة.

وقيل: إنما نهى عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة، لئلا يختلط فيشبهه على القارئ في صحيفة واحدة، والله أعلم^(١).

ومن الأدلة على جواز الكتابة: ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله عزَّ

مسنده " (١١٠٨٥)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(١) ينظر "شرح صحيح مسلم" للنووي (١٨ / ١٣٠)

وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا لَنْ نَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَيْلٍ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّمَا لَنْ نَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، فَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُحْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا يُحِلُّ سَاقِطُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُقْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ"، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِلَّا الْإِذْخَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي قُبُورِنَا وَبُيُوتِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخَرَ» فَقَامَ أَبُو سَاهٍ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ - فَقَالَ: اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اَكْتُبُوا لِأَبِي سَاهٍ»، قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: مَا قَوْلُهُ: اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ الْحُطْبَةُ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(١)

ومن ذلك أيضاً: ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ»^(٢).

فأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أحفظ الصحابة لحديث الرسول ﷺ، وأكثرهم رواية، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكتب كل ما يسمعه من الرسول ﷺ، فعند أبي داود عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤٣٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٣٥٥)، من حديث أبي هريرة، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٣)، والترمذي في "سننه" (٢٦٦٨)، والنسائي في "الكبرى" (٥٨٢٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ.^(١)

وكذلك من الأدلة: حَدِيثُ صَحِيفَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأيضاً في الكتابة يوم الحديبية فيما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «اَكْتُبْ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللَّهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ»، فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ تُرَدِّهِ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّْا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْكُتُبْ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا».^(٢)

وحديث حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الرقية الذي رواه أبو داود في سننه عَنْ الشَّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «أَلَا تَعْلَمِينَ هَذِهِ رُقِيَّةُ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ».^(٣)

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي الحديث دليل على أن تعليم الكتابة للنساء غير مكروه.^(٤)

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٦٤٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٤٢٦٤)، من حديث عبد

الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٥٣٢)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٧٨٤)، وأحمد في "مسنده" (١٣٨٢٧)، وابن حبان في "صحيحه"

(٤٨٧٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٨٨٧)، وأحمد في "مسنده" (٢٧٠٩٥)، من حديث الشفاء بنت

عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٧٨).

(٤) ينظر "معالم السنن" للخطابي (٤ / ٢٢٧)

وغير ذلك من عدة أحاديث جاءت في فضل الكتابة وأن الكتابة محمودة، ولذلك ابن القيم له كلامٌ نفيسٌ من أنفُسٍ ما يكون، يقول: "فنعمةُ الله عزَّ وجلَّ بتعليم القلم من أجل النعم، والتعليم به وإن كان مما يتخلَّصُ إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنَّ الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطيةٌ وهبها الله منه، وفضلٌ أعطاه الله إياه، وزيادةٌ في خلقه وفضيلة؛ فهو الذي علَّمه الكتابة، وإن كان هو المتعلِّم فعَلُّه فعلٌ مطاوعٌ لتعليم الذي علَّم بالقلم؛ فإنه علَّمه فتعلَّم، كما أنه علَّمه الكلام فتكلَّم.

هذا، ومن أعطاه الذَّهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجِّم به، والبنان الذي يخطُّ به؟ !
ومن هيَّا ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟ !
ومن الذي أنطق لسانه، وحرك بنانه؟ ! ومن الذي دَعَمَ البنانَ بالكفِّ، ودَعَمَ الكفَّ بالسَّاعد؟ !

فكم لله من آيةٍ نحنُ غافلون عنها في التعليم بالقلم!^(١)

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهذا لا شك في أنه يدخل فيه جميع الناس بجميع الأعمار،
وقيل: المراد بالإنسان هنا آدم أبو البشر علَّمه الله ما لم يعلم، علَّمه كلَّ شيءٍ وأسجد له الملائكة، وهذه الخصلة الشريفة التي شَرَّفَ الله بها آدم على الملائكة، فكلُّما تعلم الإنسان كلِّما شَرَّفَ، وكلُّما تعلَّم المرء كلِّما نَبَّلَ وزكى، وكلُّما ارتفع عند الله بسبب العلم النافع، مع الإخلاص لله عز وجل أما العلم بدون إخلاصٍ فيكون وبالاً على صاحبه - نعوذ بالله من الخذلان -^(٢)

(١) ينظر "مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/ ٢٧٩)

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/ ٣٨١) قِيلَ: الْإِنْسَانُ هُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. عَلَّمَهُ أَسْمَاءُ كُلِّ شَيْءٍ، حَسَبَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا. فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا وَعَلَّمَ سُبْحَانَهُ آدَمَ اسْمَهُ بِكُلِّ لُغَةٍ، وَذَكَرَهُ آدَمُ لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا عَلَّمَهُ. وَبِذَلِكَ ظَهَرَ فَضْلُهُ، وَتَبَيَّنَ قَدْرُهُ، وَتَبَيَّنَتْ ثُبُوتُهُ، وَقَامَتْ

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ ١ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَعْنَىٰ ۖ﴾ ٢ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ﴾ ٣ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۚ﴾ ٤ ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۚ﴾ ٥ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۚ﴾ ٦ ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۚ﴾ ٧ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۚ﴾ ٨ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۚ﴾ ٩ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۚ﴾ ١٠ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۚ﴾ ١١ ﴿سَدِّدْ الرِّبَايَةَ ۚ﴾ ١٢ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۗ﴾ ١٣ ﴿

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ وهذا ضابطٌ لعموم طغيان الناس، فمتى يطغى الانسان؟ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَعْنَى﴾ ومن أصدق من الله قيلاً؟ كلما كان المرء ضعيفاً وفقيراً كلما كان مستكيناً يحب الله ويواظب على الصلاة، ويحب الناس، وليس له صراعٌ مع أحدٍ، ثم إذا أغناه الله من فضله، فصار له مائة ألفٍ أو مائتان أو خمسمائة، تكبر وطغى إلا من رحم الله.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ والطغيان: هو مجاوزة الحد^(١)، ويكون ذلك بأن الإنسان الطاغية قد يؤذي العباد، ويتكبر عليهم، ويحتقرهم، لأنه يرى أنه أفضل منهم، لماذا؟ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَعْنَى﴾ إذا رأى نفسه استغنى بماله وبحسبه وبجاهه وبما عنده من منصبٍ أو عائلةٍ، أو غير ذلك، وإن كانت هذه الصفة لعامة الناس، لكن لله عبادٌ كرامٌ، من الله عليهم وبسط لهم في الأرزاق، فيرون أن هذه النعم منه الله وفضلٌ منه، وليس لأمرٍ خاصٍ بهم أو حيلةٍ من عند أنفسهم لجلبه، فازدادوا شكراً، مثل سليمان عليه السلام لما قال: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فهذا هو الإنسان العاقل، إذا أنعم الله عليه عرف أن هذا ابتلاءٌ وامتحانٌ من الله اختبره به، ليبلوه أشكر أم يكفر، وقال سليمان أيضاً: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَحُجَّتَهُ، وَامْتَثَلَتِ الْمَلَائِكَةُ الْأَمْرَ لِمَا رَأَتْ مِنْ شَرَفِ الْحَالِ، وَرَأَتْ مِنْ جَلَالِ الْقُدْرَةِ، وَسَمِعَتْ مِنْ عَظِيمِ الْأَمْرِ. ثُمَّ تَوَارَتْ ذَلِكَ ذُرِّيَّتُهُ خَلْفًا بَعْدَ سَلْفٍ، وَتَنَاقَلُوهُ قَوْمًا عَنْ قَوْمٍ.

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: ١٩] ولذا ذكر الله في صفة المؤمنين ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي ۖ إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

وأيضاً في قصة الثلاثة نفر الأعمى والأبرص والأقرع، فالأعمى كان رجلاً شاكراً، وقال خذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك على شيء أخذته الله رب العالمين.^(١)

فهناك عبادٌ كرامٌ لم يطعمهم غناهم، ومن هؤلاء: عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٢)، فعند الترمذي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَشَرَّهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ»، وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه^(٣)، فعن الزهري، قال: «تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله على عهد رسول الله ﷺ أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفاً، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة»^(٤)، وسعد ابن الربيع رضي الله عنه^(٥)، فعند البخاري في صحيحه

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٤٦٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٧٠١)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٦٣٠)، من حديث عثمان ابن عفان رضي الله عنه، به. وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٦٠٧٣)

(٣) هو عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بنِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ أَحَدُ الْعَشْرَةِ، وَأَحَدُ السَّنَةِ أَهْلُ الشُّوْرَى، وَأَحَدُ السَّابِقِينَ الْبَدْرِيِّينَ، وَهُوَ أَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِينَ بَادَرُوا إِلَى الْإِسْلَامِ يَنْظُرُ "سير أعلام النبلاء" (١/ ٦٨) للذهبي.

(٤) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٦٦)، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" (١٠/ ٢٥٣)

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ فَأَخَى النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلَّنِي عَلَى الشُّوقِ".^(١)، والحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد ذكر الذهبي في السير قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَمِعَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَجُلًا إِلَى جَنْبِهِ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، فَاَنْصَرَفَ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ. قَالَ الْمَدَائِنِيُّ: أَحْصَنَ الْحَسَنُ تِسْعِينَ امْرَأَةً.

وَعَنْ حَارِثَةَ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ خَطَبَ، وَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ قَدْ جَمَعَ مَالًا، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَقْسِمَهُ بَيْنَكُمْ، فَحَضَرَ النَّاسُ، فَقَامَ الْحَسَنُ، فَقَالَ: إِنَّمَا جَمَعْتُهُ لِلْفُقَرَاءِ، فَقَامَ نِصْفُ النَّاسِ"^(٢)، وعروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"^(٣)، فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ عُرْوَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً، فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ، فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ، وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ، فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ، وَكَانَ لَوْ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ»^(٤)، وغيرهم من الصحابة كانوا سادات الأغنياء، ورغم ذلك كانوا من سادات الزهاد في الدنيا بتمامها.

(١) هو سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الْأَنْصَارِيُّ، من شهداء غزوة أحد ، ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١/ ٣١٩).

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٩٣٧) والترمذي في "سننه" (١٩٣٣)

(٣) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣/ ٢٦٠)

(٤) هو عُرْوَةُ بْنُ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارْقِيِّ اسْتَعْمَلَهُ عُمَرُ عَلَى قَضَاءِ الْكُوفَةِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقْضِيَ شَرِيحًا قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ مَنْ قَالَ فِيهِ عُرْوَةُ بْنُ الْجَعْدِ فَقَدْ أَخْطَأَ إِنَّمَا هُوَ عُرْوَةُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ وَتُوِّفِي هُنِي حُدُودِ السَّبْعِينَ وَرَوَى لَهُ الْجُمَاعَةُ - ينظر "الوافي بالوفيات" للصفدي (١٩/ ٣٦٠)

(٥) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٦٤٢) وأبو داود في "سننه" (٣٣٨٤) وابن ماجه في "سننه" (٢٤٠٢)، من حديث عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وأما وصف الله تعالى الانسان فهذا وصف ملازم لأغلب الناس إلا من انتفع بعلمه، وعلم أن الدنيا دار زوال وأنها ليست بدار استقرار، فإذا به لا يطغى، ولذا ذم الله الإنسان الذي يطغى بهاله أو بحسبه أو بما آتاه الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّاجِنِيهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّاجِنِيهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣] ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [الشورى: ٢٧] ويقول أيضاً جل وعلا: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ١٠] وقال أيضاً جل شأنه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨﴾ [الزمر: ٨].

وقد أشرنا إلى قصة قارون صاحب الكنوز، الذي مفتاح كنوزه تُعبي أولي القوة، يعني: الجماعة، ورغم ذلك لما قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] فحسف الله به وبداره الأرض.

فكلما أنعم الله على العبد الصالح، كلما ازداد شكراً لربه، وتواضعاً له سبحانه، وتكثر من حمده فيُديم الله له النعم، ويكثر عليه الخير.

قال رب العالمين جل جلاله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَاءً ۚ أَن رَّأَاهُ أُسْتَعْفَىٰ ۝٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾

فما طغى العبد بهاله أو بحسبه أو بأي عَرَضٍ من أعراض الدنيا، إلا لأنه نسي رجوعه إلى الله وأن الله سيسأله عن كل صغير وكبير، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن عُمره وماذا عمل فيه، وعن شبابه وفيما أبلاه، والسعيد الذي ينجو يوم الحساب - نسأل الله العافية

والسلامة -.

قال تعالى: ﴿أَرَعَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ هذا على سبيل الإنكار والتعجب.

﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ يعني: ينهاه عن الصلاة.

﴿أَرَعَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ يعني يا أيها الناهي عبداً إذا صلى،

أنتهاه وهو على التقوى، وهو على الهدى.

﴿أَرَعَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ فهذا الناهي الذي كَذَبَ وَتَوَلَّى، جمع بين شرِّ الأوصاف -

تكذيبٍ بالقلب، وباللسان، وتوليةٍ بالجوارح - فيا ليتته أقبل بجوارحه أو صدَّق بلسانه، لكنه جمع بين شرِّ الأوصاف فكذَّب وتَوَلَّى.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ هذا الناهي بأن الله يراه، وقد نزلت هذه الآيات

باتفاق أهل العلم في أبي جهل^(١) - لعنة الله عليه - جاء في صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَذِّبُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَّانٌ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفَّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَّا عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَّحْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخُنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهُوَ لَا وَاجِحَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٥٣٦ / ٢٤) (فَلْيَدْعُ أَبُو جَهْلٍ أَهْلَ مَجْلِسِهِ وَأَنْصَارَهُ، مِنْ عَشِيرَتِهِ

وَقَوْمِهِ، وَالنَّادِي: هُوَ الْمَجْلِسُ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ فِيهَا بَلَعْنَا، لِأَنَّ أَبَا جَهْلٍ لَمَّا نَهَى النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْمَقَامِ، انْتَهَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَغْلَطَ لَهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: عَلَامَ يَتَوَعَّدُنِي مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْوَادِي نَادِيًا؟ فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ فَلْيَدْعُ حِينئذٍ نَادِيَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ دَعَا نَادِيَهُ، دَعَوْنَا الرَّبَّانِيَّةَ

وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥ / ٥٠٢)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٣٨) و"معالم

التنزيل" للبغوي (٨ / ٤٧٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٨١)

مِنِّي لَا خُطْفَتُهُ الْمَلَأْتُكَ عُضْوًا عُضْوًا قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - لَا نَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَوْ شَيْءٌ بَلَّغَهُ -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافِلٌ ۖ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۗ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۖ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۖ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ۖ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾ [العلق: ٦ - ١٣] - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۖ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۖ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۖ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ زَبَانِيَةَ ۚ﴾ [العلق: ١٤ - ١٩]، زَادَ عَبْدُ اللَّهِ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]، يَعْنِي قَوْمَهُ ^(١)

وفي سنن الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَهْكَ عَنْ هَذَا؟ أَلَمْ أَهْكَ عَنْ هَذَا؟ أَلَمْ أَهْكَ عَنْ هَذَا؟ «فَانصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَزَبْرَهُ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا بِهَا نَادٍ أَكْثَرُ مِنِّي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ زَبَانِيَةَ ۚ﴾ [العلق: ١٨] فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللَّهِ» ^(٢).

وصف الله أبا جهل في ذلك وصفاً قبيحاً ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي نضربه في وجهه ضرباً عنيفاً، ونأخذه من ناصيته أخذاً شديداً، والناصية: هي مقدم الشعر، وقيل في (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) أي لَنُسُودَنَّ وجهه.

﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وصفت الناصية بأنها كاذبة خاطئة، والمراد أن صاحبها

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٩٧)، والنسائي في " الكبرى " (١١٦١٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٥٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٣٤٩)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٢١)، والحاكم في " المستدرک " (٣٨٥٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به. وصححه الألباني في " صحيح السيرة " (ص ١٤٤).

كاذبٌ خاطئٌ.^(١)

﴿قَلِيدٌ نَادِيَهُ﴾ يعني: فليدع أصحاب مجلسه، ظن أنه أكثر الناس أصحاباً وعشيرةً، وأنهم مانعوه وناصروه، وقال إن لنا عائلةً كبيرةً تغلب كلَّ أحدٍ، فقال الله جل جلاله فليدع هذا الظالم الناهي الكافر ناديه.

﴿سَدُّغُ الزَّبَانِيَةِ﴾ ملائكة جهنم، فإذا جاء أبو جهل ومن معه من أهل الدنيا كلها، وجاءت أمامهم زبانيةُ جهنم، فلا شك أن الزبانية ستغلب وتتصر.^(٢)

قال الله لنبية محمد ﷺ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩) كلاً يا محمد لا تطعه، واسجد واقترب، فإنك كلما تسجد كلما تقترب من الله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(٣)

وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتَيْتُهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مِرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٤).

وعند مسلم أيضاً عن معدان بن أبي طلحة اليعمرى، قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ،

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٣٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٣٨).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٣٩).

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٨٢)، وأبو داود في "سننه" (٨٧٥)، والنسائي في "الكبرى" (٧٢٧)، وابن حبان في "صحيحه" (١٩٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٨٩)، وأبو داود في "سننه" (١٣٢٠)، والترمذي في "سننه" (٣٤١٦)، من حديث ثوبان رضي الله عنه، به.

فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلَتْهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلَتْهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(١).
 نسأل الله رب العالمين، أن يثبتنا على دينه، وأن يوفقنا لكل خير،
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الانتهاء من تفسير سورة العلق والله الحمد والمنة.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٤٨٨) والترمذي في " سننه " (٣٨٨) والنسائي في " الكبرى "

(٧٢٩) وابن ماجه في " سننه " (١٤٢٣)، من حديث ربيعة ابن كعب رضي الله عنه، به.

﴿سُورَةُ الْقَدْرِ﴾

هذه السورة مكية^(١) كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وآياتها خمس، نزلت بعد سورة عبس.

ومناسبتها لما قبلها:

أن في تلك أمر الرسول ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق، واسم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وفي هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة الكريمة^(٢).

هذه السورة العظيمة يقول الله فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١) أنزل الله جل جلاله القرآن العظيم في ليلة القدر، يعني ابتداء إنزاله فيها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قَالَ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ

(١) ذكره السيوطي في " الدر المنثور " (٨ / ٥٦٧) ونسبه لابن مردويه وقال وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن

الزبير وعن عائشة رضي الله عنهما مثله

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٠٦)

جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَكَانَ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ، فَكَانَ اللَّهُ يُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِهِ، بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]^(١) وأمله جبريل على السفارة، قال ابن كثير رحمه الله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ).^(٢)

ولذلك قال الكفار، كما حكى الله تعالى قولهم في سورة الفرقان، قال جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: كذلك أردنا وهذه مشيئتنا، وقوله جل ذكره: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] نزولاً بعد نزولٍ تبارك الله ذو الجلال والإكرام.

من أجل ذلك نقطع بأن القرآن الكريم نزل في ليلة القدر وبدأ إنزاله في ليلة القدر، أنزل من عند الله تعالى إلى السماء الدنيا في بيت العزة جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك مُفَرَّقًا، نزل به جبريل الأمين على قلب الحبيب ﷺ.

وقفة: هذه الليلة العظيمة ليلة القدر تهفو إليها قلوب الموحدين، قلب كل مؤمن يعظم هذه

(١) (صحيح) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (١١٨٠١)، والحاكم في "المستدرک" (٤٠٠٧)، والطبري في

"جامع البيان" (٢٤/ ٥٤٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به. وصحح الشيخ مصطفى العدوي إسناده

كما في "التسهيل لتأويل التنزيل" - تفسير جزء عم (٢/ ٤٤٠)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير في (٨/ ٤٤١)

الليلة العظيمة، وهي حقاً عظيمةٌ لذلك سماها الله ليلة القدر، يعني ليلة ذات شرفٍ، العبادة فيها تختلف عن العبادة في سائر الأيام والدهور^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

العبادة فيها كما قال الله جل جلاله: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي خيرٌ من بضْعِ وثمانين عاماً، يعني مدةً طويلةً من الزمان، العبد قائمٌ يصلي، ويَقْنُتُ، ويقرأ القرآن، ويذكر الله، ويطيعه، فهذا عند الله أكثر من أجر ثمانين عاماً من العبادة، فمن وُقِّقَ لليلة القدر وقامها، فهذا أفضل عند الله تعالى من ألفِ شهرٍ ليس فيهم ليلة القدر، كما رجحه الطبري وابن كثير وغيرهما، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَشْبَهُ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بظَاهِرِ التَّنْزِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَمِلَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ، لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَأَمَّا الْأَقْوَالُ الْأُخْرَى، فَدَعَاوَى مَعَانٍ بَاطِلَةٍ، لَا دَلَالَهَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَلَا عَقْلٍ، وَلَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي التَّنْزِيلِ)^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٤) وقد وردت عدة أقوالٍ في سبب تسمية هذه

(١) ذكر ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/٥٠٥) والبعوي في "معالم التنزيل" (٨/٤٨٢) عن الْأَزْهَرِيِّ قال: "لَيْلَةُ الْقَدْرِ": أَي لَيْلَةُ الْعَظَمَةِ وَالشَّرَفِ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ: لِفُلَانٍ عِنْدَ الْأَمِيرِ قَدْرٌ، أَي جَاهٌ وَمَنْزِلَةٌ، وَيُقَالُ: قَدَرْتُ، فُلَانًا أَي عَظَّمْتُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام - ٩١) (الزُّمَرِ - ٦٧) أَي مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعَظُّيمِهِ.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥)، ومسلم في "صحيحه" (٧٦٠)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/٥٤٦) وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨/٤٤٣) (وَهُوَ الصَّوَابُ لَا مَا عَدَاهُ)، وقال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٨/٤٩١) قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: "لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ" مَعْنَاهُ: عَمَلٌ صَالِحٌ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

الليلة بليلة القدر منها:

القول الأول: سُمِّيَتْ ليلةُ القدر بذلك لأنها ليلةُ ذاتِ شرفٍ كما نقول فلانٌ ذو قدرٍ، يعني ذو شرفٍ وله منزلةٌ عاليةٌ، وربنا يُعْظَمُ هذه الليلة بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾^(١) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ^(٢) ﴿

القول الثاني: سُمِّيَتْ ليلةُ القدر بذلك لأن الله الجليل سبحانه يُقَدِّرُ فيها المقادير وما هو كائنٌ في الكون كله من السنة إلى السنة، كما قال جل ذكره: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٣) [الدخان: ٤] يعني أمرٌ محكمٌ قضاه الله سبحانه جل جلاله من رزق فلانٍ، وإحياءِ فلانٍ، وشفاءِ فلانٍ، وعافيةِ فلانٍ، وفلانٌ يموتُ، وفلانٌ يُحْيَى، وهكذا كلُّ ما يكون في العام كله من أرزاقِ العبادِ وآجالهم وأقواتهم، وغير ذلك مما يكون في الكون يكتبه ربُّ العالمين في كل ليلةٍ قدرٍ، والملائكة تستنسخه من اللوح المحفوظ، من ليلة القدر إلى ليلة القدر القادمة، ولذلك رب العالمين قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(٤) [الدخان: ٣، ٤]، وهو قول الحسين بن الفضل ومجاهد.^(٥)

القول الثالث: في سبب تسمية ليلة القدر بذلك أن القدر هنا معناه الضيق، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيقٌ عليه رزقه، وقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾^(٦) [الفجر: ١٦] أي ضيقٌ عليه رزقه، والمعنى أن الملائكة تكثر جداً في نزولها ليلة القدر إلى الأرض في المساجد تُسَلِّمُ على

(١) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٤٨٢)، وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ٣١٢) وقال هذا

معنى قول مجاهد.

المصلين، وغير ذلك فتضيق الأرض بهم من كثرتهم، وهو قول الخليل بن أحمد.^(١)
والقول الأول والثاني أصح فهي ليلة ذات قدر، وفيها يقدر الله المقادير.

تعيين ليلة القدر:

روى مسلم في صحيحه "عن زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: مَنْ يَقُمِ الْحَوْلَ يُصَبِّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَرَادَ أَنْ لَا يَتَّكِلَ النَّاسُ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ، وَأَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَأَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ، ثُمَّ حَلَفَ لَا يَسْتَنْبِي، أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَقُولُ ذَلِكَ؟ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، قَالَ: بِالْعَلَامَةِ، أَوْ بِالْآيَةِ الَّتِي «أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا تَطْلُعُ يَوْمَئِذٍ، لَا شُعَاعَ لَهَا».^(٢)

فليلة القدر لا شك أنها في رمضان، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

إذا ليلة القدر لا شك أنها في رمضان، وجمهور الأئمة أنها في العشر الأواخر، كما تدل عليه جمهرة النصوص، كما روى الشيخان في صحيحيهما عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي رَمَضَانَ الْعَشَرَ الَّتِي فِي وَسْطِ الشَّهْرِ، فَإِذَا كَانَ حِينَ يُمَسِّي مِنْ عَشْرِينَ لَيْلَةً تَمُضِي، وَيَسْتَقْبِلُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ رَجَعَ إِلَى مَسْكَنِهِ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ يُجَاوِرُ مَعَهُ، وَأَنَّهُ أَقَامَ فِي شَهْرِ جَاوَرَ فِيهِ اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَ يَرْجِعُ فِيهَا، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَأَمَرَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «كُنْتُ أُجَاوِرُ هَذِهِ الْعَشْرَ، ثُمَّ قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ أُجَاوِرَ هَذِهِ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَثْبِتْ فِي مُعْتَكِفِهِ،

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٣٩٢)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ١٨٢).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٦٢)، وأبو داود في "سننه" (١٣٧٨)، والترمذي في "سننه"

(٧٩٣)، من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه، به.

وَقَدْ أَرَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أَنْسَيْتُهَا، فَاذْكُرُونَهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، وَابْتَغُوهَا فِي كُلِّ وَتْرٍ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي
أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ»، فَاسْتَهَلَّتِ السَّمَاءُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَأَمْطَرَتْ، فَوَكَّفَ الْمَسْجِدُ فِي مُصَلَّى النَّبِيِّ
ﷺ لَيْلَةً إِحْدَى وَعَشْرِينَ، فَبَصُرْتُ عَيْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ انْصَرَفَ مِنَ الصُّبْحِ
وَوَجْهُهُ مُتَمَلِّئٌ طِينًا وَمَاءً^(١).

وجمهور العلماء أيضاً أنها في الوتر من العشر الأواخر، وأكثر أهل العلم قالوا بأنها ليلة
السابع والعشرين، ولا شك في أنه ليس هناك إجماع على أنها في ليلة السابع والعشرين^(٢)، وليس
هناك نص صريح من النبي ﷺ أنها أيضاً في هذه الليلة، وإنما هو التماس من الصحابة في قولهم:
والله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي قال عنها رسول الله ﷺ " أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ فِي
صَبِيحَتِهَا لَا شُعَاعَ لَهَا" وهذا الحديث ثابت في الصحيح^(٣).

ولكن رغم ذلك أخفاها ربنا تبارك وتعالى حتى يجتهد العباد في طاعة الله تعالى سبحانه
وبحمده، وفي العبادة، ويجدوا ويجهدوا، كما أخفى ساعة الإجابة من يوم الجمعة، فاختلف
العلماء في: هل هي عند صعود الخطيب للمنبر؟ أو هي آخر ساعة من العصر؟ أو غير ذلك من
الساعات؟ حتى لا يتكل الناس، ويجتهدوا ويطيعوا ربهم، ويكونوا دائماً في طاعة جلية وخفية،
قال ابن قدامة رحمه الله: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَبْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى الْأُمَّةِ لِيَجْتَهِدُوا فِي
طَلَبِهَا، وَيَجِدُوا فِي الْعِبَادَةِ فِي الشَّهْرِ كُلِّهِ طَمَعًا فِي إِدْرَاكِهَا، كَمَا أَخْفَى سَاعَةَ الْإِجَابَةِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٠١٨)، ومسلم في "صحيحه" (١١٦٧)، من حديث أبي سعيد
رضي الله عنه، به.

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٣٩٦): وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ. وَالَّذِي عَلَيْهِ
الْمُعْظَمُ أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ. وينظر الأقوال أيضاً في تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٥٠).

(٣) تقدم تخرجه.

، لِيُكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ فِي الْيَوْمِ كُلِّهِ ، وَأَخْفَى اسْمُهُ الْأَعْظَمَ فِي الْأَسْمَاءِ وَرِضَاهُ فِي الطَّاعَاتِ ، لِيَجْتَهِدُوا فِي جَمْعِهَا ، وَأَخْفَى الْأَجَلَ وَقِيَامَ السَّاعَةِ ، لِيَجِدَ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ ، حَذَرًا مِنْهَا^(١) ، فَاللهُ تَعَالَى أَخْفَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَذَلِكَ^(٢) ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « التَّمَسُّوْهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى »^(٣) وَهَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ صَحِيحٌ ، لِذَلِكَ بَعْضُ السَّادَةِ الْعُلَمَاءِ قَالُوا هِيَ لَيْلَةُ الثَّلَاثِ وَالْعَشْرِينَ^(٤) .

(١) ينظر " المغني " لابن قدامة (٤ / ٤٥٣) .

(٢) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي " فَتْحِ الْبَارِي " (٤ / ٢٦٣) (وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَتَحَصَّلَ لَنَا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ قَوْلًا كَمَا وَقَعَ لَنَا نَظِيرُ ذَلِكَ فِي سَاعَةِ الْجُمُعَةِ وَقَدْ اشْتَرَكْنَا فِي إِخْفَاءِ كُلِّ مِنْهُمَا لِقَعِ الْجَدِّ فِي طَلَبِهَا)

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠٢١) وأبو داود في " سننه " (١٣٨١) ، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، بِهِ .

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي " الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ " (٢٢ / ٣٩٩) وَقِيلَ لَيْلَةُ الثَّلَاثِ وَالْعَشْرِينَ ، لِمَا رَوَاهُ ابْنُ عُمرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ عَلَى ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الشَّهْرِ شَيْئًا فَلْيَقُمْ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ .) قَالَ مَعْمَرٌ : فَكَانَ أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ وَيَمْسُ طَبِيًّا .

و قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي " الْمَجْمُوعِ شَرْحِ الْمَهْذَبِ " (٦ / ٤٥٠) : مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَجُمْهُورِ أَصْحَابِنَا أَنَّهَا مُنْحَصَرَةٌ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ مُبْهَمَةٌ عَلَيْنَا ، وَلَكِنَّهَا فِي لَيْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا تَنْتَقِلُ عَنْهَا وَلَا تَرَالُ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكُلُّ لَيْلٍ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مُحْتَمِلَةٌ لَهَا ، لَكِنْ لَيْلِي الْوُتْرِ أَرْجَاهَا ، وَأَرْجَى الْوُتْرِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ لَيْلَةُ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي مَوْضِعٍ إِلَى ثَلَاثَةٍ وَعَشْرِينَ ، وَقَالَ الْبُنْدَنِي : مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ أَنَّ أَرْجَاهَا لَيْلَةُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ ، وَقَالَ فِي الْقَدِيمِ : لَيْلَةُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ فَهِيَ

وثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي رَمَضَانَ الْعَشْرَ الَّتِي فِي وَسْطِ الشَّهْرِ، فَإِذَا كَانَ حِينَ يُمَسِّي مِنْ عَشْرِينَ لَيْلَةً تَمْضِي، وَيَسْتَقْبِلُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ رَجَعَ إِلَى مَسْكِنِهِ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ يُجَاوِرُ مَعَهُ، وَأَنَّهُ أَقَامَ فِي شَهْرِ جَاوَرَ فِيهِ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَانَ يَرْجِعُ فِيهَا، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَأَمَرَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «كُنْتُ أَجَاوِرُ هَذِهِ الْعَشْرَ، ثُمَّ قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ أَجَاوِرَ هَذِهِ الْعَشْرَ الْآخِرَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَثُبْتُ فِي مُعْتَكِفِهِ، وَقَدْ أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أَنْسَبْتُهَا، فَابْتَغُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، وَابْتَغُوهَا فِي كُلِّ وَتْرٍ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ»، فَاسْتَهَلَّتِ السَّمَاءُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَأَمْطَرَتْ، فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ فِي مُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً إِحْدَى وَعَشْرِينَ، فَبَصُرْتُ عَيْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ أَنْصَرَفَ مِنَ الصُّبْحِ وَوَجْهُهُ مُمْتَلِئٌ طِينًا وَمَاءً، فَحَدَّثْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي زَمَانِ الرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةِ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ. ^(١)

ذكر القرطبي أن بعض العلماء استدل على أنها ليلة السابع والعشرين، بكلمات هذه السورة، فقال ليلة القدر تكرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين، وهذه من ضمن المعاني، والله أعلم، وهذا طبعاً لا يُستدل به على شيء لكن يستأنس به، قال القرطبي رحمته الله: (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ لَيْلِي هَذَا الشَّهْرِ - شَهْرَ رَمَضَانَ - عَلَى كَلِمَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ السَّابِعَةَ وَالْعَشْرِينَ أَشَارَ إِلَيْهَا فَقَالَ: هِيَ وَأَيْضًا فَإِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ كُرِّرَ ذِكْرُهَا

أَرْجَى لَيْلِيهَا عِنْدَهُ، وَبَعْدَهُمَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ. هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي الْمَذْهَبِ أَنَّهَا مُنْهَصَرَّةٌ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.

(١) تقدم تخريجه.

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَهِيَ تِسْعَةُ أَحْرُفٍ، فَتَجِيءُ سَبْعًا وَعِشْرِينَ^(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يستدل على أنها ليلة السابع والعشرين بقول الله تعالى: (سلام هي)، فيستدل بأن لفظ (هي) إذا عدت هذه الكلمات تكن هذه اللفظة هي السابعة والعشرين، قال الماوردي رحمه الله في الحاوي الكبير (وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ فَإِنَّهُ اسْتَدَلَّ بِأَنِ اعْتَبَرَ كَلِمَاتِ السُّورَةِ فَوَجَدَهَا ثَلَاثِينَ كَلِمَةً بَعْدَ لَيْلِي الشَّهْرِ، ثُمَّ وَجَدَ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ سَلَامٌ هِيَ [الْقَدْرِ]، عَلَى رَأْسِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ كَلِمَةً فَعَلِمَ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي مِثْلِهَا مِنَ الشَّهْرِ)^(٢)، وكما ذكرت أن جمهور العلماء يقولون بأنها ليلة السابع والعشرين ولكن لا شك أن أرجى ليلها الليالي الوترية، وكما قلنا ينبغي على الناس أن يجتهدوا الليالي العشر كلها وخاصة الليالي الوترية؛ حتى يدرك فضل هذه الليلة العظيمة، فإن العبادة فيها خيرٌ من ألف شهرٍ.

وأما قول الله جل جلاله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٣)

ذكر بعض العلماء، أن الأمم السابقة كانت أعمارها طويلة، وهذا لا شك فيه، فالنبي ﷺ نظر إلى قصر أعمار أمته فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَن يَجُوزُ ذَلِكَ)^(٤) فأعطاه الله عوضاً عن قصر أعمار هذه الأمة ما تدرك به وتسبق جميع الأمم السابقة، فقد قال الامام مالك رحمته الله في الموطأ: (أَنَّهُ سَمِعَ مَنْ يَثْقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَى أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ. أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. فَكَأَنَّهُ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٤٠١)

(٢) ينظر "الحاوي الكبير" (٣/ ١٠٤٨)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٣١٢)

(٣) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥٥٠)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٣٦)، وابن حبان في "صحيحه"

(٢٩٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به. وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧٥٧)

تَقَاصِرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ أَنْ لَا يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ، مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمُرِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ^(١)، وأيضاً قالوا: بأن العابد من الأمم السابقة ما كان يسمى عبداً حتى يتفرغ للعبادة ألف شهر ليلاً نهاراً -يعني ينقطع للعبادة-، فوهب الله نبيه ﷺ هذه الليلة المباركة، هي ليلة خيرٍ من ألف شهرٍ.

فائدة: استدل أهل العلم بقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) على علو الله جل جلاله لأن الأشياء تنزل من علٍ، وهي تنزل من عنده، ومثله قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وكذلك استدلوا على علوه بصعود بعض الأشياء إليه، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ومثل ذلك - أيضاً - من آيات العلو قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] إلى غير ذلك مما ذكرناه بفضل الله وكرمه.

قال الله سبحانه جل جلاله: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ والروح هو جبريل الأمين عليه السلام، وخصَّه الله بالذكر لشرفه، وهذا كما يقول السادة العلماء من باب عطف الخاص على العام، جبريلٌ من الملائكة، ولكنَّ الله خصَّه لشرفه^(٢)، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فالملائكة تنزل، والروح ينزل من عند الله سبحانه في هذه الليلة من كلِّ أمرٍ، سلامةً، وعافيةً، وانشراح صدرٍ، وولادة مولودٍ، وهلاك ظالمٍ، وكبت حاسدٍ، وغير ذلك من المقادير التي يقضيها الله سبحانه جل جلاله في هذه الليلة، ولذلك يجب على العبد منا أن يغتنم هذه الفرصة، فالليلة هي ليلة سعادته، لو أن العبد غنم مثل هذه الأيام المباركة، وقد روى الطبراني في الكبير عن مُحَمَّدِ بْنِ

(١) (ضعيف) أخرجه مالك في "الموطأ" (٣/ ٤٦٢)، وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (٦٠٤)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٤٤٤)

مَسْلَمَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا»^(١) وإن كان الحديث ضعيفاً إلا أنه مستقيم المعنى

وقفه: فينبغي على العبد أن يجتهد، ويشمر لعل الله أن يرزقه بدعوة مقبولة، يرفع الله سبحانه بها ذكره ويكشف عنه البلايا، ويجلب له الخيرات والبركات، فقد روى الترمذي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: "قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ مُجِيبُ الْعَفْوِ فَاعْفُ عَنِّي"^(٢).

والعفو شيء عظيم، فالعبد أحوج ما يكون إلى أن يعفو الله عن زلاته ويغفرها ويسترها سبحانه وبحمده، ولا يؤاخذها ولا يكتبها في صحائفه.

قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي سألته من كل الآفات، سألته من كل الأمراض، يعني تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمرٍ سلامٌ هذه الليلة، فالملائكة تنزل تسلم على أهل الأرض وخاصة أهل المساجد، على العباد الذين يطيعون ربهم، وهي ليلة سألته من جميع الآفات والشرور، من أول أذان المغرب إلى طلوع الفجر، بفضل الله تبارك وتعالى.^(٣)

(١) (ضعيف) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥١٩) وفي "المعجم الأوسط" (٢٨٥٦) وقال لا يروى هذا الحديث عن محمد بن مسلمة إلا بهذا الإسناد، تفرد به أحمد بن عبد الله وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٢٧٩٨)

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥١٣) والنسائي في "الكبرى" (٧٨٦٣) وابن ماجه في "سننه" (٣٨٥٠) وأحمد في "مسنده" (٢٥٣٨٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣٣٣٧)

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٤٨) سَلَامٌ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ

فائدة: في ذكر علامات ليلة القدر:

يرد هنا قولُ الحافظ بن حجر رَحِمَهُ اللهُ في علامات ليلة القدر، قال في شرحه لصحيح الإمام البخاري: (قوله: "باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر" في هذه الترجمة إشارةٌ إلى رجحان كون ليلة القدر منحصرةً في رمضان ثم في العشر الأخير منه ثم في أوتاره لا في ليلةٍ منه بعينها، وهذا هو الذي يدل عليه مجموع الأخبار الواردة فيها. وقد ورد لليلة القدر علاماتٌ أكثرها لا تظهر إلا بعد أن تمضي، منها:

في صحيح مسلم عن أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها"، وفي رواية لأحمد من حديثه "مثل الطست"، ونحوه لأحمد من طريق أبي عون عن ابن مسعود وزاد: "صافية"، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما نحوه، ولابن خزيمة من حديثه مرفوعاً: "ليلة القدر طلقةٌ لا حارةٌ ولا باردةٌ، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفةً"، ولأحمد من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: "إنها صافيةٌ بلجةٌ كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنةٌ صاحبةٌ لا حرَّ فيها ولا برد، ولا يحل لكوكب يرمى به فيها، ومن أماراتها أن الشمس في صبيحتها تخرج مستويةً ليس لها شعاعٌ مثل القمر ليلة البدر ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذٍ"، ولابن أبي شيبة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضاً: "أن الشمس تطلع كل يوم بين قرني شيطان، إلا صبيحة ليلة القدر"، وله من حديث جابر ابن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: "ليلة القدر ليلة مطر وريح"، ولابن خزيمة من

من كَلَّتْهَا. وقال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في "الدر المنثور" (١٥ / ٥٤٠) وأخرج محمد بن نصر، وابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما في قوله: {سَلَامٌ} قال: تلك الليلة تصفد مردة الجن والشياطين وعفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب فلذا قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. قال: وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر.

حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً في ليلة القدر "وهي ليلةٌ طلقةٌ بلجةٌ لا حارةٌ ولا باردةٌ، تتضح كواكبها ولا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها"، ومن طريق قتادة أبي ميمونة عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "إن الملائكة تلك الليلة أكثر في الأرض من عدد الحصى"، وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد "لا يرسل فيها شيطانٌ، ولا يحدث فيها داءٌ"، ومن طريق الضحاك "يقبل الله التوبة فيها من كل تائب، وتفتح فيها أبواب السماء، وهي من غروب الشمس إلى طلوعها"، وذكر الطبري عن قوم أن الأشجار في تلك الليلة تسقط إلى الأرض ثم تعود إلى منابتها، وأن كل شيء يسجد فيها، وروى البيهقي في "فضائل الأوقات" من طريق الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة أنه سمعه يقول إن المياه المالحة تعذب تلك الليلة، وروى ابن عبد البر من طريق زهرة بن معبد نحوه).^(١)

وقد ورد لليلة القدر علامات أكثرها لا تظهر إلا بعد أن تمضي، منها في صحيح مسلم عن زُرٍّ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: وَقِيلَ لَهُ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: «مَنْ قَامَ السَّنَةَ أَصَابَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ»، فَقَالَ أَبِي: «وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّمَا لَفِي رَمَضَانَ، يَحِلِفُ مَا يَسْتَنِي، وَوَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ، هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِيَامِهَا، هِيَ لَيْلَةُ صَبِيحَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ، وَأَمَارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِهَا بَيَاضًا لَا شُعَاعَ لَهَا» (٢) وفي رواية لأحمد من حديث زُرٍّ رضي الله عنه، قال: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِي بِنِ كَعْبٍ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا الْمُنْذِرِ، اخْفِضْ لِي جَنَاحَكَ، وَكَانَ أَمْرًا فِيهِ شَرَّاسَةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ لَيْلَةٍ

(١) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (٤/ ٢٦٠)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٦٢) وأبو داود في "سننه" (١٣٧٨) والترمذي في "سننه"

(٣٣٥١) والنسائي في "السنن الكبرى" (٣٣٩٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

الْقَدْرُ، فَقَالَ: لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ، قُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَى عَلِمْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: "بِالْآيَةِ الَّتِي أَخْبَرَنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"، فَعَدَدْنَا وَحَفِظْنَا "وَأَيُّهُ ذَلِكَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَيِّحَتِهَا مِثْلَ الطَّسْتِ لَا شُعَاعَ لَهَا، حَتَّى تَرْتَفَعَ: "مثل الطست" ^(١) (يعني مستديرة كبيرة لا شعاع لها)، ونحوه لأحمد من طريق أبي عون عن أَبِي عَقْرِبٍ، قَالَ: عَدَوْتُ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَاتَ عَدَاةٍ فِي رَمَضَانَ، فَوَجَدْتُهُ فَوْقَ بَيْتِهِ جَالِسًا، فَسَمِعْنَا صَوْتَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَغَ رَسُولُهُ، فَقُلْنَا: سَمِعْنَاكَ تَقُولُ: صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَغَ رَسُولُهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي النُّصْفِ مِنَ السَّبْعِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، تَطْلُعُ الشَّمْسُ غَدَاتِيذٍ صَافِيَةٍ، لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ"، فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا فَوَجَدْتُهَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" ^(٢)، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه ، ولا بن خزيمة من حديثه مرفوعاً: "ليلة القدر طلقة لا حارة ولا باردة ، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة" ^(٣) (يعني ليلة جميلة لا حر ولا برد والشمس في صيحتها بيضاء نقية)، ولأحمد عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "ليلة القدر في العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتهن فإن الله تبارك وتعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهي ليلة وتر تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة وقال رسول الله ﷺ: إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بُلْجَةٌ كَانَ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا سَاكِنَةً سَاجِيَةً لَا بَرْدَ فِيهَا وَلَا حَرَّ وَلَا يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ أَنْ يَرْمِيَ بِهِ فِيهَا حَتَّى تَصْبَحَ وَإِنْ إِمَارَتَهَا أَنْ

(١) (حسن صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٢٠٩)، وأبو داود في "سننه" (١٣٧٨)، من حديث أبي ابن

كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (١٢٤٧)

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٨٥٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه أحمد شاكر في "تحقيق المسند" (٣٨٥٧).

(٣) (ضعيف) أخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" (٢١٩٢)، وأبو داود الطيالسي في "مسنده" (٢٨٠٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به. وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٤٠٤).

الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ^(١)، وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد: "لا يُرسل فيها شيطانٌ، ولا يحدث فيها داءً^(٢)"، ومن طريق الضحاك: "يقبل الله التوبة فيها من كل تائب، وتفتح فيها أبواب السماء، وهي من غروب الشمس إلى طلوعها"^(٣).

مسألة: هل ليلة القدر تستتبع؟ بمعنى هل نهار ليلة القدر يكون تابعاً لها في الفضيلة؟

قال بذلك بعض أهل العلم منهم الشعبي رحمه الله^(٤)، ولكن الراجح والظاهر أن الشرف والفضل في ليلة القدر فقط.

لذلك ربنا تعالى قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۖ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(٥) يعني من أول آذان المغرب إلى طلوع الفجر^(٦)، -فنسأل الله أن يبارك لنا ولكم، وأن يعيننا على طاعته ورضاه-. وصلى الله على محمد وعلى آله واصحابه أجمعين.

تم بحمد الله ومنتها الانتهاء من تفسير سورة القدر.

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٧٦٥)، والطبراني في "مسند الشاميين" (١١١٩)، والضياء في "

الأحاديث المختارة" (٣٤٢)، وصحح إسناده الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٤٠٤).

(٢) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ١٩٤)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦ / ٣١٤).

(٣) لم أقف عليه إلا عند الحافظ في فتح الباري.

(٤) قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ فِي "التفسير الكبير" (٣٢ / ٢٩) اختلفوا في أن هذه الليلة هل تستتبع اليوم قال الشعبي

نعم يومها كليتها ولعل الوجه فيه أن ذكر الليالي يستتبع الأيام ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين الزمناه بيوميهما

قال تعالى وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً أَيُّ الْيَوْمِ يَخْلَفُ لَيْلَتَهُ وَبِالضَّدِّ

(٥) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" - تفسير جزء عم للشيخ مصطفى العدوي (٢ / ٤٤٧)

﴿سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ﴾

سورة البينة سورة مدنية عند الجمهور، وقيل مكية والله أعلم.^(١) وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة الطلاق.

ووجه مناسبتها لما قبلها:

أن قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... إلخ، كالعلة لأنزال القرآن، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة.^(٢) وهذه السورة العظيمة، فيها فضلٌ للصحابي الجليل أبي بن كعب، رضي الله عنه، وكان من أهل الكتاب قبل ذلك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي ﷺ لأبي: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾" [البينة: ١] قَالَ: وَسَمَانِي؟ قَالَ: "نَعَمْ" فَبَكَى.^(٣) ولا شك أن هذا فيه منزلة عليّة، ومكانة عظيمة، وشرف رفيع، لهذا الصحابي الجليل، أن الله ذكره باسمه، فوق السماوات العلى، وأمر رسوله ﷺ أن يقرأ عليه هذه السورة العظيمة. قال أهل العلم: وإنما قرأ عليه النبي ﷺ، هذه السورة، تثبيتاً له، ولتعلم منه القراءة، وزيادةً

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٥٧٠) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة {لم يكن} بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة {لم يكن} بمكة. وقال الشوكاني رحمه الله في "فتح القدير" (٥ / ٥٧٨) وهي مدنية في قول الجمهور، وقيل: مكية.

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٢١١)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٨٠٩)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩٩)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

للايمان في قلبه، وذلك كما حدث لعمر رضي الله عنه عنه في قصة الحديبية

فمن عن أبي وإيل، قال: قام سهل بن حنيف رضي الله عنه يوم صفين، فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار؟

قال: «بلى»، قال: ففيم نعطى الدنية في ديننا، ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم، فقال: «يا ابن الخطاب، إنني رسول الله ولكن يضيعني الله أبداً»، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار؟

قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولكن يضيعه الله أبداً، قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم»، فطابت نفسه ورجع.^(١)

وقد ثبت سبب ذلك في صحيح مسلم، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٣١) مطولاً، ومسلم في "صحيحه" (١٧٨٥)، من حديث

سهل بن حنيف رضي الله عنه، به.

فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ، فَحَسَنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَدْ عَشَيْتَنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفَضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: يَا أَبُي أُرْسِلْ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ أَقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ أَقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَلَمْ يَكُنْ رَدَّةً رَدَدْتُكُمَا مَسْأَلَةً تَسْأَلْنِيهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْعُبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ ﷺ

فقرأ رسولنا، ﷺ، سورة البينة على أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تثبيتاً لقلبه، وزيادة لإيمانه، ودفعاً للشبهات والشكوك عنه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا شك أن هذا شرفٌ عظيمٌ لأبي. ^(١)
وقال أهل العلم أيضاً: فيه من الفوائد قراءة العالم الجليل على المتعلم، فرسول الله ﷺ سيد العلماء - يقرأ على أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل. ^(٢)
يقول الله عز وجل في هذه السورة العظيمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۖ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨٢١) والنسائي في " المجتبى " (٩٤٠) وأحمد في " مسنده " (٢١١٧١)، من حديث أبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (١ / ٣٧)

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٤٠٥)

الصلوة ويؤثروا الزكوة ^٥ وذلك دين القيمة ^٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ^٦ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ^٧ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ^٨

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(١)
 أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون هم عبدة الأوثان، ويدخل فيهم عبدة النار، من المجوس، وغيرهم، فالله تعالى يخبر أن اليهود والنصارى والمشركون لم يكونوا مُنْفَكِينَ أي: منتهين عما هم فيه حتى تأتيتهم البينة^(٢)، والبينة: هي صفة رسول الله ﷺ^(٣).

وَتَمَّ قَوْلٌ آخَرٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِينَ أَي: زائلين، فالانفكاك الزوال، ومعنى ذلك أنه لم تكن مدتهم تزول، أو ملكهم يزول، حتى تأتيتهم البينة^(٤)، أي حتى يأتيهم رسول الله ﷺ.

وأيضاً تَمَّ قَوْلٌ ثَالِثٌ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾
 أي عن هذه العداوة وتشتت أمورهم وتفرق جمعهم، حتى تأتيتهم البينة^(٥)، وهذا ذمٌ عظيمٌ لهم

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٥١) عن قتادة أن البينة هي القرآن. وذكره في "تفسير القرآن

العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٥٦)

(٢) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" ولم ينسبه لأحد. (٦ / ٣١٦)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"

(٢٢ / ٤٠٦)

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٠٦)

(٤) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٥٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٠٧)

لأنهم تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]

وكذلك يدخل فيه قول الله تبارك وتعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] ، هؤلاء كانوا يقولون للمشركين، إنه قد تقارب زمانٌ

يُبعث فيه نبي آخر الزمان نؤمن به ونتبعه، ونقاتلكم معه، ونقتلكم قتل عادٍ وإِرم، فلما بُعث

الرسول ﷺ انفكوا وكفروا به - حسداً من عند أنفسهم -^(١)، لأن الله بعث رسوله ﷺ من نسل

إسماعيل ولم يكن من نسل إسحاق.

والبينة: البيان الواضح، الذي يبين لهم أحكام الله، وأمره، ونهيه، وحلاله، وحرامه.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أي صحفٌ مطهرةٌ عن اللغو، وعن الزيادة

والنقصان، هذه الصحف،

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي كتبٌ قويمَةٌ عادلةٌ، تهدي إلى الطريق المستقيم، لأنها من عند

الله.^(٢)

وقال بعض العلماء: كتبٌ أي أحكامٌ، فالمقصود أحكامٌ قيمةٌ^(٣)، وقال - ﷺ -: "والله

(١) ينظر "سيرة" ابن هشام (١/ ٢١١).

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٥٥٢/ ٢٤) (يَقُولُ: فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتِبَ مِنَ اللَّهِ قِيَمَةٌ عَادِلَةٌ

مُسْتَقِيمَةٌ، لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ، لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وحكاها الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ٣١٦) عن ابن

عيسى

وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٤١٠).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/ ٤١٠) للقرطبي، و"النكت والعيون" (٦/ ٣١٦) للماوردي

لأقضين بينكما بكتاب الله"، ثم قضى بالرجم، في قصة العسيف - أي الأجير -^(١)، فالمقصود أن النبي ﷺ جاءهم بصحفٍ مطهرة، أي أن هذا القرآن الكريم مُطَهَّرٌ. **وأيضاً:** فيه كتبٌ قيمة، أي أحكامٌ وأوامرٌ ونواهي قيمة، أي مستقيمة، تهدي إلى الطريق القويم، وتدل على رب العالمين.

وأيضاً: الكتب القيمة القرآن الكريم، فإنه لا أقوم قطُّ من كتاب الله جل جلاله، وخيرُ السبلِ وأجلُّ الهداية وأعظمها كتابُ الله تعالى، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].^(٢) **﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾** وهذا ذمٌ عظيمٌ لهم، ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة!

والواجب عليهم أن يجتمعوا بعد ما جاءتهم البينة، والبينة هي كتاب الله، وبعثة الرسول ﷺ، بعث الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن الكريم، فجاءهم بالوحي المنزل المطهر، فالواجب على العباد إذا جاءهم العلم أن يجتمعوا ويتألفوا، فيزيدهم العلم هدىً ونوراً، أما أن يتفرقوا بعد ما جاءهم العلم، فهذا ذمٌ عظيمٌ لهم، نسأل الله العفو والعافية والسلامة في الدنيا والآخرة.^(٣) **وقفة:** وهذا أيضاً ذمٌ لكل عبدٍ من عباد الله، ولكل طائفةٍ من الطوائف، يأتيها العلم والبينة، من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ، ولا تزال تُصِرُّ على رأي الشيخ الفلاني أو التعصب

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٩٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٤١٠) (وقيل: الكُتُبُ الْقِيَمَةُ: هِيَ الْقُرْآنُ، فَجَعَلَهُ كُتُبًا لِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبَيَانِ).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٥٣)

للمذهب العلاني، ولا تتبع الكتاب والسنة، والواجب على العباد أن يعظموا كتاب الله، ويعظموا سنة نبيهم ﷺ، لأنه أعظم الأسباب التي تجمع العباد وتؤلف بين قلوبهم، وتهديهم إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وما أمر أهل الكتاب، وأيضاً المشركون إلا بأن يعبدوا الله وحده، مُخْلِصِينَ له الدين، أي يعبدون الله جل جلاله بإخلاص، عبادة خالصة، أي أن الإخلاص شرط في صحة الأعمال، وقبولها، ولا شك أن الإخلاص ميزان في صحة العمل أو بطلانه، مقبول أو مردود، ولذلك رب العزة قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾، وقال جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ [الزمر: ١١، ١٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١) فيجب، أن نخلص لله في أقوالنا وأفعالنا، وأن نسارع في الصالحات ما استطعنا.

فقوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ هذا حثٌ للعباد أن يخلصوا لله عبادتهم، صلاةً وزكاةً وصياماً وحجاً ونذراً وبراً للوالدين، وغير ذلك من الأعمال الصالحة يجب على العبد أن يخلص فيها لله سبحانه وتعالى.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ فقوله تعالى (وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)، إنما نص عليه لأنها أجل الأعمال البدنية، وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، (وَيُؤْتُوا

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١) ومسلم في "صحيحه" (١٩٠٧) من حديث عمر بن

الزَّكَاةَ) أيضاً من أجل الأعمال، لأن نفعها مُتَعَدِّ لِلآخِرِينَ.

وقفه: الأعمال من الإيمان:

وقد سَمَّى الله تعالى الصلاة والزكاة والإخلاص ديناً، وهذا يدل على المذهب الصحيح، الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، بأن الأعمال الصالحة من الإيمان^(١)، خلافاً للخوارج وغيرها من الطوائف الضالة التي ضلت في هذا الباب، قال الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، كل هذه أعمال القلوب، ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، إذاً الإيمان ذكر في هذه الآيات، جمع أعمالاً للقلب وأعمالاً للبدن، ولذلك ختمها بقوله ، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، وأيضاً قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان»^(٢).

" فأفضلها قول: لا إله إلا الله " هذا قول " وأدناها إمطة الأذى عن الطريق " هذا عمل، والحياة " في القلب، فأقوال اللسان تدخل في مسمى الإيمان، وأعمال القلوب من الحب في الله والبغض في الله تدخل كذلك في الأعمال القلبية، قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: ((أي عرى الإيمان أوثق؟)) قال: الله ورسوله أعلم، قال: «الموالة في الله، والمعادة في الله، والحب في الله، والبغض

(١) ينظر " مجموع الفتاوى " لابن تيمية (١٩٨/٧)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٩) ومسلم في " صحيحه " (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

في الله^(١).

وجاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ؛ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٢).

فأقوال اللسان، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح - كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وبر الوالدين، وفعل المعروف، وقولك لا اله الا الله، وإمالة الأذى عن الطريق - كل هذا إيمان، حملك متاع الرجل تعينه وترفعه له على دابته، هذا من الإيمان.

خلافًا للخوارج الذين قالوا بأن كل الأعمال شرط في صحة الإيمان، وقالوا في قول النبي ﷺ "لَا يَزِيءُ الزَّانِي حِينَ يَزِيءُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، وَهُوَ حِينَ يَنْتَهَبُهَا مُؤْمِنٌ"^(٣).

فقالوا: الزاني كافر بالله، وكفروا مرتكب الكبيرة، وقالوا السارق كافر خارج من الملة بهذه الكبيرة ويخلد في نار جهنم، والمعتزلة كذلك، قالوا: بأنهم في منزلة بين المنزلتين واففقوا بأن مرتكب الكبيرة مخلد في نار جهنم.

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٥٢٤)، وأبو داود الطيالسي في "مسنده" (٧٨٣)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٠٥٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٧٢٨).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٦٨١)، والحاكم في "المستدرک" (٢٧٣١)، من حديث أبي أمامه رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣٨٠).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤٧٥) ومسلم في "صحيحه" (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

أما أهل السنة والجماعة، فقالوا: الأعمال أحياناً تكون شرطاً، في صحة الإيمان، وأحياناً تكون من مكمّلات الإيمان، وأحياناً تكون من مُستَحَبَّات الإيمان، ولكن من الأعمال ما إذا زالت، ارتفع هذا الإيمان، كالشهادتين والصلاة عند كثير من أهل العلم.

والمقصود: أن أهل السنة والجماعة استدلوا على أن الأعمال تدخل في الإيمان بهذه الآية العظيمة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك الدين القيم، وذلك دين الملة القيمة المستقيمة وأيضاً ذلك دين الأمة القيمة العادلة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم يارب العالمين^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾^(٧)
احذر أن تعتقد خلاف ما دل عليه، القرآن والسنة،- الإعلام اليوم يحاول أن يُلَبِّسَ عليك عقيدتك -، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَهْلُ الْكِتَابِ كَمَا ذَكَرْنَا هُمُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَالْمُشْرِكُونَ هُمُ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ وَعِبَادَةُ النَّارِ، فَأَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ، هَؤُلَاءِ كَانُوا يُجَارِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ يَقُولُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي، لا يخرجون منها أبداً، كما قال في سورة فاطر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾^(٣٦)
[فاطر: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(٤٨) [الحجر: ٤٨] إذن كلُّ يهودي وكلُّ نصرانيٍّ، لو ملأ الأرض كلها براً، وعاش ألف سنةٍ يفعل الخير، ولم يشهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) وينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية " (٧/ ٦٤٠).

محمدًا رسول الله، بعد بعثة رسول الله ﷺ، فهو إلى النار وبئس القرار، كلُّ يهوديٍّ وكلُّ نصرانيٍّ وكلُّ مشركٍ، وكلُّ إنسانٍ لا يدين بدين الإسلام - لا يوحد الله ولم يتبع رسوله ﷺ بعد بعثته - فلا شك أنه من أهل النار، كما قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، شر الخليفة كلها، هم هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله ورسله وحاربوا دينه، وحادوا عن طريق الحق.

وفي المقابل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ جمعوا بين خير الأوصاف، إيماناً واعتقاداً صحيحاً في القلب، وقولاً باللسان، وعملاً بالجوارح والأركان، فأولئك هم خير البرية، أي خير الخليقة كلها.

مسألة: التفضيل بين الملائكة وصالحى البشر:

وبهذه الآية استدلل بعض العلماء على تفضيل صالح البشر على الملائكة^(١)، وهذه مسألة مهمة، الملائكة عبادٌ مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وخلقهم الله وجلبهم على طاعته وعبادته، منهم الموكَّل بالوحي^(٢)، ومنهم الموكَّل بالأرزاق^(٣)، ومنهم الموكَّل بالجلال^(٤)، ومنهم المخلوق للعبادة والصلاة والتسبيح، ففي سنن الترمذي وحسنه، عن أبي ذرٍّ

(١) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٤١٤) (استدل بقراءة الهمز من فضل بنى آدم على الملائكة)

(٢) وهو جبريل عليه السلام قال الله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]

(٣) وهو ميكائيل، أخرج أحمد في "مسنده" (٢٤٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أَقْبَلْتُ يَهُودِيًّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ ... لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ فَانَزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَيَنْظُرُ "السلسلة الصحيحة" (١٨٧٢)

(٤) للحديث المتفق عليه، الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٣١)، ومسلم في "صحيحه" (١٧٩٥)،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ، تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ»^(١)، وفي حديث الاسراء قال ﷺ: (فَاتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ فَرَفَعَ لِي الْبَيْتُ الْمُعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمُعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ) والحديث في الصحيحين^(٢).

وروى الطبراني عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ سَمَاءً مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا عَلَيْهِ جَبْهَةٌ مَلَكٍ أَوْ قَدَمَاهُ قَائِمًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾^(٣) وَ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(٤) [الصفات: ١٦٥ - ١٦٦].^(٥)

وهذه العبادة العظيمة لا يطيقها البشر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ ... قَالَ: "فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِن شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشَبِينَ" الحديث

(١) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣١٢)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٩٠) وأحمد في "مسنده"

(٢١٥١٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٠٥٩)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٧)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٤)، من حديث مالك بن صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢٥٦٥)، والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (٢٥٤)، والطبراني في

المعجم الكبير " (٩٠٤٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ [فصلت: ٣٨].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن المطيعين من أمة محمد ﷺ، هل هم أفضل من

الملائكة؟

فقال: قد ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا، أُعْطِيََتْ بَنِي آدَمَ فَهُمْ يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ وَيَرْكَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ، وَلَا نَلْهَوُ، فَكَيْمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ، فَقَالَ: لَا أَجْعَلُ ذُرِّيَّةَ مَنْ خَلَقْتَهُ بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ كُنْ فَكَانَ»، ذكره عثمان ابن سعيد الدارمي^(١).

وعن عبد الله بن سلام أنه قال: ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمدٍ، ف قيل له: ولا جبريل ولا ميكائيل؟ فقال للسائل: أتدري ما جبريل وما ميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خلقٌ مُسَخَّرٌ كالشمس والقمر، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمدٍ ﷺ، وما علمت عن أحدٍ من الصحابة ما يخالف ذلك، وهذا هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو: أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة. اهـ^(٢)

وهكذا، أي آدم خلقه الله من طين، فلما سواه نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته - شريفاً وتعظيماً - وشرفه وفضله بالعلم على الملائكة، فهو وصالحٌ ذريته أفضلٌ من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طينٍ وهؤلاء مخلوقين من نورٍ.

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٦١٧٣) مرفوعاً، وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٥ / ١٥) موقوفاً على زيد بن أسلم، ورجح الدارقطني في "العلل" (٤١٣ / ١٢) الوجه الموقوف على ابن عمر عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، به.

(٢) ينظر "مجموع الفتاوى" (٤ / ٣٤٤) وقال رحمه الله، وَلَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ "مُصَنَّفٌ" مُفْرَدٌ ذَكَرْنَا فِيهِ الْأَدْلَةَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإن الله سبحانه وتعالى يؤدي لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مَقَرِّهِمْ - أي : في مَقَرِّ الصالحين، وهو الجنة - يدخلون عليهم من كل باب يهتئونهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل؛ لأنهم خُلِقُوا من نور، وجُلبوا على طاعة الله عز وجل والقوة عليها، كما قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ] [الأنبياء: ١٩، ٢٠].^(١)

فانظر رحمك الله، فضلك الله على ملائكته الكرام البررة بطاعتك الله عز وجل، فلا تحرم نفسك طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، حتى تكون دائماً أبداً من صالح بني آدم، الذين شرفهم الله وكرمهم حتى على ملائكته، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

قال الله تعالى عن هؤلاء الصالحين: ﴿جَزَاءُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [كلمة (عدن) أي إقامة، إذا دخلوها لا يخرجون منها أبداً، ولا يتحولون عنها، فإن الله تبارك وتعالى، كما في الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يُنَادِي مُنَادٌ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا" فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا

(١) ينظر "فتاوى نور على الدرب" للشيخ العثيمين رحمه الله (٨ / ٦).

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١)، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيدٍ أيضاً **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: **{وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}** [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا **{وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢)}** [مريم: ٣٩]"^(٣)، نسأل الله من فضله الكريم.

{جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} نسأل الله أن يدخلنا - وإياكم، وآباءنا وأمهاتنا وأزواجنا وذرياتنا وأحبابنا في الله أجمعين - الجنة، بلا حساب ولا عذاب، هناك تنسى كل متاع الدنيا، قيل للإمام أحمد متى الراحة؟
- كلُّنا متعبٌ في الدنيا، الغني، والفقير، والصحيح، والسقيم، متى نستريح؟ قال: عندما تضع أول قدمٍ لك في الجنة.^(٤)

قال رسول الله **ﷺ**: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْعَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٣٧)، والترمذي في "سننه" (٣٢٤٦)، من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٧٣٠)، ومسلم في "صحيحه" (٧٢٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، به.

(٣) أخرجه أبو يعلى في "طبقات الحنابلة" (١/ ٢٩٣)، عن مُحَمَّدِ بْنِ حُسَيْنِهِ صَاحِبِ الْأَدْمَةِ قَالَ: حضرت أبا عبد الله **أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ** وجاءه رجل من أهل خراسان.... فذكره.

بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ يَقَالُ: لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١)

كل الآلام والهموم - أيها الحبيب السعيد - تنساها مع أول غمسة في جنات النعيم، نسأل الله من فضله الكريم، أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الله أكبر، أنهارٌ سارحاتٌ من تحت الجنان، من تحت قصورك، لا تخاف على أساس قصورك من أن يسقط أو أن يقع أو أن يذوب بسبب الأنهار التي تجري من تحتها، إنها جناتٌ دائمٌ نعيمها ومتاعها، لا يفنى ولا يبيد، وأهلها دائمون باقون، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، فضل الله سبحانه لأوليائه، خالدين فيها أبدًا، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، اللهم ارزقنا من فضلك الكريم ولا تفتننا أبدًا ولا تُغيِّرْ علينا الإيمان يا كريم.

قال ربنا تعالى، بعد أن قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ رضى الله عنهم هذا أفضل نعيم لأهل الجنة، أن يرضى الله عن عبده.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٠٧)، وأحمد في "مسنده" (١٣١١٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

رَبِّ وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا" (١)، وقد روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ" (٢).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] فأكبر نعيم في الجنة أن يرضى الله عنك.

﴿وَرِضُوا عَنْهُ﴾ أهل الإيمان رضوا عن هذا الجزاء العظيم، الذي أعطاهم الله إياه مقابل عملهم الصالح، وأيضاً في الدنيا، رضوا عن الله رباً وإلهاً، لم يعبدوا سواه سبحانه. ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ هذا الثواب العظيم جعله الله لكلِّ مَنْ يَخْشَاهُ، فكن - رحمك الله - ممن يَخْشَى الله، حتى يكرمك الله بهذا الثواب العظيم، جناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، اللهم اجعلنا منهم يا رب العرش العظيم وأسكننا الجنان بلا حساب ولا عذاب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة البينة، بحمد الله ومنتته.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٤٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٢٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨١)، والترمذي في " سننه " (٣١٠٥)، وأحمد في " مسنده " (١٨٩٣٥)، من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

هي مدنية - على الأرجح^(١) -، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة النساء.

ووجه مناسبتها لما قبلها:

أنه لما ذكر فيها سلف جزاء المؤمنين والكافرين، بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته.^(٢)

ما ورد في فضلها: هذه السورة العظيمة جاء في فضلها أحاديث كلها ضعيفة،

منها: أن (من قرأ سورة الزلزلة تعدل له نصف القرآن)، وهو حديث لا يصح.^(٣)

وكذلك: (أنها تعدل ربع القرآن)، ولا يصح أيضاً عن النبي ﷺ.^(٤)

ولكنها سورة عظيمة^(٥)، ويقول الله تعالى فيها:

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٥٧٩) "أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت

سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن قتادة قال : نزلت بالمدينة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾.".

(٢) تفسير المراغي (٣٠ / ٢١٧)

(٣) أخرج الترمذي في "سننه" (٢٨٩٣)، وحكم عليه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١٣٤٢) أنه حديث منكر.

(٤) (ضعيف) أخرج الترمذي في "سننه" (٢٨٩٥)، وأحمد في "مسنده" (١٢٤٨٨)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فُلَانُ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا عِنْدِي مَا

أَتَزَوَّجُ بِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ مَعَكَ قُلٌ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «ثُلُثُ الْقُرْآنِ»، قَالَ: «أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا جَاءَ نَصْرُ

اللَّهِ وَالْفَتْحُ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «رُبُعُ الْقُرْآنِ» قَالَ: «أَلَيْسَ مَعَكَ قُلٌ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «رُبُعُ

الْقُرْآنِ» قَالَ: «أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «رُبُعُ الْقُرْآنِ» قَالَ: «تَزَوَّجْتَ تَزَوَّجُ» وضعفه

الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١٤٨٤)

(٥) تفسير القرطبي { ٢٢ / ٤١٥ } .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حُرِّكَتْ مِنْ أَصْلِهَا حركةً شديدةً، وذلك عند قيام

الساعة.

وفي وقت هذه الزلزلة قولان:

أحدهما: أنها تكون في الدنيا، وهي مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، قاله الأكثرون.

والثاني: أنها زلزلة يوم القيامة، قاله خارجة بن زيد في آخرين^(١).

وفي قول الله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ما يدلُّ أنه زلزالٌ عظيمٌ، كما قال ربُّ العِزَّة سُبْحَانَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢]، تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَتَسَاقَطُ وَيَزُولُ.

وقفه: كثرة الزلازل من علامات الساعة الصغرى:

والزلازلُ هو أن تتحرك الأرض وترتج من أسفلها، وهذه الزلازلُ والأعاصيرُ وغيرها هي آياتٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جل جلاله، يُرْسِلُهَا اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ لِيُذَكِّرَهُمْ بِأَنْ يَرْجِعُوا وَيَتُوبُوا إِلَيْهِ،

(١) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٤ / ٤٧٧)

قال جل جلاله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وأما الكفرة الملهدون فإنهم يُسندون ذلك إلى الطبيعة، وهذا لا شك أنه شركٌ بالله رب العالمين، فما من شيء يحدث في الكون إلا بقدر الله ومشيئته تعالى.

فالأرض تزلزل يوم القيامة زلزالاً عظيماً، أو هو زلزالٌ قبل الساعة في آخر الدنيا، فإما أن يكون مع النفخة الأولى مصاحباً لها، أو هو قبل ذلك بشيء يسير.

﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أثقالُ الأرض يعني الذي في باطنها من الأموات والكُنُوزِ، فالإنسان ثقُلٌ على الأرض وهو حيٌّ، وثقُلٌ في باطنها وهو ميتٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المسلات: ٢٥، ٢٦]، يعني أن الأرض تُكنِّمكم على ظهرها وأنتم أحياء، وتُكنِّمكم في باطنها، وأنتم أمواتٌ.^(١)

والعلماء الذين قالوا بأن الزلزلة في الآية الأولى في النفخة الأولى، قالوا أن إخراج الأرض أثقالها في الآية الثانية تكون في النفخة الثانية، عند خروج الناس من قبورهم، تلفظهم الأرض من باطنها، وتُخرجهم إلى ظاهرها أحياء، وهو مشهدٌ عظيمٌ مرعبٌ، روى الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلاذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ، فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، وَيَجِيءُ قَاطِعُ الرَّحِمِ، فَيَقُولُ: مِنْ أَجْلِ هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي ثُمَّ يَتْرُكُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ

(١) ينظر " مجاز القرآن " لأبي عبيد (٢ / ٣٠٦)، ونسبه القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٤١٦)،

كذلك للأخفش، وقاله الطبري في تفسيره (٢٤ / ٥٥٨)

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٢٩٩)

سَيِّئًا".^(١)

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ يستغرب العبد ويتعجب من شدة هولها، وشدة الدمار والخراب العظيم الذي يُصاحب هذا الزلزال، وكلُّ إنسان يسأل الآخر: مالها؟ مالها؟ أي ماذا حدث للأرض.^(٢)

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ جاء في سنن الترمذي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا قَالَ: فَهَذَا أَمْرُهَا".^(٣) قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

وهذا الحديث وإن ضعفه السادة العلماء، إلا أن ظاهر الآية يُفيد هذا المعنى.

وقفة: الشهداء على العبد يوم القيامة:

هذه الأرض التي نمشي عليها للصالحات تشهد لنا يوم القيامة، وقد روى البخاري في صحيحه عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمَ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ".^(٤) ومعنى مخالفة الطريق أنه يذهب لصلاة العيد من طريق ويعود من طريق آخر، وذكر السادة

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠١٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦٩٧)، وأبي يعلى في "مسنده" (٦١٧١).

(٢) ينظر "تفسير القرطبي" (٢٢ / ٤١٧)

(٣) (ضعيف) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٢٩)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٨٠٥)، وأحمد في مسنده (٨٨٦٧)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٨٣٤).

(٤) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩٨٦).

العلماء

أن الحكمة من ذلك: حتى يشهد له الطريقان^(١)، فالطريق الذي نمضي فيه للعبادة يشهد لنا يوم القيامة.

وفي قول الله تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] قالوا: أن مواضع السجود التي يسجد العبد عليها في الأرض تبكي عليه عند موته^(٢)، وكذلك في السماء، فالمكان الذي يعرج منه العمل الصالح الخاص بالعبد يبكي على فراقه، فهذه شهادة الأرض على العباد.

وكذلك رب العزة سبحانه وهو أعظم الشهداء، يشهد على عباده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولا تخفى عليه خافية - سبحانه - لا في السر ولا في العلن، ولا يخفى عليه صغير ولا كبير، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فلا تخفى على الله إشارة محرمة أو نظرة محرمة، ولا يخفى عليه ما يخفيه الناس في قلوبهم، ولا ينطقون به ولا يتحدثون به، بل ما لا يحدث العبد به نفسه يعلمه الله، ويشهد على العبد به يوم القيامة.

وكذلك رسولنا ﷺ يشهد علينا يوم القيامة، بأنه بلغ وأخبر وأمر ونهى، قال تعالى:

(١) فتح الباري {٤٧٣ / ٢}

(٢) قال القرطبي رحمه الله: وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ يَبْكِيَانِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا. قَالَ أَبُو يَحْيَى: فَعَجِبْتُ مِنْ قَوْلِهِ فَقَالَ: أَتَعْجَبُ! وَمَا لِلْأَرْضِ لَا تَبْكِي عَلَى عَبْدٍ يَعْمُرُهَا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ! وَمَا لِلسَّمَاءِ لَا تَبْكِي عَلَى عَبْدٍ كَانَ لَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ فِيهَا دَوِيٌّ كَدَوِي النُّحْلِ!. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ. {١٢٠ / ١٩}

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰئُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وكذلك يشهد العبد على نفسه يوم القيامة، فقد روي الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْفًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ " .

(١)

قال الله تعالى ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ [فصلت: ٢١ - ٢٣] أي هذا الظنُّ أهلككم وأرداكم في النار، فسقطتم في العذاب بسبب ظنِّ السوء في الله ربِّ العالمين. فإذا علم العبد أن الأرض تشهد عليه، وأن الله سبحانه يشهد عليه، وكذلك رسول الله ﷺ، وكذلك نفسه، فإن أراد أن يعصي الله سبحانه، فليبحث عن مكان لا يراه فيه ربُّه ولا الأرض ولا نفسه وجوارحه فيعصي الله فيه!

(١) (صحيح) مسلم (٢٩٦٩)، وأبو يعلى في "مسنده" (٣٩٧٧)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

فإن علم العبد أن هذا لا يمكن أبداً فليتيق الله، وليحذر هذا الموقف.

﴿يَأْتِ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يعني بأن الله أوحى إليها أن تحدث أخبارها.^(١)

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ يَصْدُرُ أي يرجع، والصُّدُورُ هو الرجوع

من أرضِ المَحْشَرِ، وقوله (أَشْتَاتًا) يعني متفرقين، أي يرجعون من أرضِ المَحْشَرِ متفرقين، هناك فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السَّعِيرِ، فريقٌ هم أهلُ اليمين، وفريقٌ هم أهلُ الشمال، فريقٌ تَبَيَّضُ وجوهُهُم، وفريقٌ تَسْوَدُ وجوهُهُم، فريقٌ يأخذُ كتابه بيمينه، وفريقٌ يأخذُ كتابه بشماله، فريقٌ يَسْعُدُ سعادةً أَبَدِيَّةً لا شقاءَ معها ولا بعدها أبداً، وفريقٌ يشقى شقاءً أَبَدِيًّا لا سعادةَ معها ولا بعدها أبداً، نسأل الله العافية.^(٢)

وقفة: قوله تعالى: {لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ} هذا موقفٌ جليلٌ، لو قيل لجمع من الناسِ قليلي العدد، أن شاشةً ستعرضُ أمامهم جميعاً، وستعرضُ أعمالُ كلِّ واحدٍ منهم حصيلةً يومٍ أو أسبوعٍ أمامَ الجميع، فلا شكَّ أنها ستكون فضيحةً عظيمةً، فهناك أمورٌ يستحي المرءُ أن يَعْلَمَ بها الناسُ، فكيف بعرضِ الأعمالِ يومَ القيامةِ؟

قال الحبيب ﷺ "يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَفَّهُ، فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ

(١) قال الطبري رحمه الله (وَتَحْدِيثُهَا أَخْبَارَهَا، عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنْ تَتَكَلَّمَ فَتَقُولَ: إِنَّ

اللَّهُ أَمَرَنِي بِهَذَا، وَأَوْحَى إِلَيَّ بِهِ) (٥٥٩ / ٢٤)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٦١).

الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ" (١) أي يضع عليه سِتْرُهُ حتى لا يراه الناس عند الحساب، فيعطيه كتابه مكتوب فيه عمله مُنْذُ أَنْ بَلَغَ إِلَى يَوْمِ وفاته، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجن: ٢٩]، فإذا قرأ حسنة تَهَلَّلَ وَجْهُهُ فَرَحًا وَسَعَادَةً، وإن قرأ سيئة اسْوَدَّ وَجْهُهُ، فإذا أَرَادَ اللهُ سَعَادَةَ هذا العبد يُقَرِّرُهُ: عبيد أُنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كِتَابِي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله الكريم: أنا سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَالْيَوْمَ أَغْفِرُهَا لَكَ، فيمحوها اللهُ سبحانه ولا يُبْقِي فِي الصَّحِيفَةِ إِلَّا الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، فعندها يُنَادِي عَلَى الْخَلَائِقِ جميعاً: {هَآؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ} تعالوا كُلُّكُمْ واقراءوا كتابي فكلُّهُ خَيْرٌ وَزَكَاةٌ وَصَلَاةٌ وَبِرٌّ وَإِحْسَانٌ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، خَاصَّةً فِي الْخُلُوتِ، فَمَنْ عَظَّمَ اللهُ فِي الْخُلُوتِ رِزْقَهُ اللهُ نُورًا فِي الْقَلْبِ وَفَهْمًا وَذِكَاءً، وَبَارَكَ لَهُ فِي قُوَّتِهِ وَصَحَّتِهِ وَعَافِيَتِهِ، وَمَتَّعَهُ بِالْإِيمَانِ، وَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ.

وَكَمْ مِنَ الذُّنُوبِ يَنْتَهِكُهَا الْعِبَادُ فِي الْخُلُوةِ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ الْأَمْرَ هَيْئًا، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ، وَمَا أَسْوَأَ وَأَشَرَّ ذُنُوبَ هَذَا الْجَوَالِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ الْعِبَادُ الْآنَ، يَهْدِمُ أَسْرًا وَيَهْدِمُ أُمَمًا.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) (الذرة) قيل:

هي واحدة النَّمْلِ الصَّغِيرِ الْأَحْمَرِ، يَكُونُ صَغِيرًا جِدًّا وَدَقِيقًا، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ هَذِهِ النَّمْلَةِ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤١)، ومسلم في صحيحه (٢٧٦٨)، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

.....الحديث.

الصغيرة من خير يره، وأيضاً من يعمل مثقال هذه النملة الصغيرة من شر يره.^(١)

وقيل: الذرة هي الهباء التي ترى في أشعة الشمس.^(٢)

وقيل: الذرة هي أنك إذا ضربت بيدك الأرض فما يعلّق فيها من غبار أو تراب، فهي

ذرات.^(٣)

وقد تقدّم العلم الآن وأخبرنا أن الذرة تنقسم إلى أجزاء صغيرة، والله سبحانه جل جلاله لما خاطب المسلمين بهذه الآيات كان يخاطبهم بأصغر ما كانوا يعلمونه في ذلك الوقت وهو الذرة، ومهما عمل العبد من خير وإن كان أدق من الذرة بملايين المرات فإن الله يراه، ومهما عمل من شر فالله يراه.^(٤)

ويستفاد من هذه الآية: أن العبد لا ينبغي أن يحقر من المعروف شيئاً، و(شيئاً) هذه نكرة فتعم، يعني لا يحقر أي شيء من البر، ولا يستهين بأي شر مهما كان، لأنه لا يدري لعل هذا الخير

(١) ينظر "فتح القدي" للشوكاني (٥ / ٦٨١)

(٢) ينظر "تتمة أضواء البيان" للشيخ عطيه سالم (٩ / ٩٥)

(٣) أخرجه هناد بن السري في "الزهد" (١ / ١٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ فَأَدْخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَدَهُ فِي التُّرَابِ ثُمَّ رَفَعَهَا ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ»، وقال الرازي رحمه الله في "التفسير الكبير" (٣٢ / ٥٨) وقال ابن عباس رضي الله عنهما إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزم به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيراً أو شراً قليلاً أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه.

(٤) وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ صَرِيحاً بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعُزُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ينظر "تتمة أضواء البيان" للشيخ عطيه سالم (٩ / ٩٥).

اليسير الذي يحقره هو الذي يكون سبباً في نجاته يوم القيامة، ومما وردَ عن عائشة رضي الله عنها أنها كان عندها نسوةٌ من أهل الكوفة، فدخلَ عليهنَّ سائلٌ، وعندها عنبٌ، فتناولت حباتٍ، فناولتهنَّ السائل، فضحك بعضهنَّ إلى بعضٍ، فقالت أكوفياتُ أنتنَّ؟ فقلنَّ: نعم، فقالت «إنَّ فيما ترينَ مثاقيلَ ذرٍّ كثيرٍ»^(١).

و روي عن سعد أنه أتاه سائلٌ، وبيّنَ يديه طبقٌ عليه تمرٌ، فأعطاه تمرَةً، فقبضَ يده فقال سعدٌ: إنَّ اللهَ يقبلُ منها مثقالَ الذرَّةِ والخردلةِ، وكم في هذه من مثاقيلِ الذرَّةِ.^(٢)
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كُلْ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ».^(٣)
كُلْ معروفٍ سواءٌ كان في مسلمٍ، أو في كافرٍ، سواءٌ كان في دابةٍ أو بهيمةٍ، أو في شجرةٍ، فمن فعل المعروفَ وجده يومَ القيامةِ، فلا يضيعُ المعروفُ على صاحبه مهما صغرُ.
وروى الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ.^(٤)

(١) (ضعيف) أخرجه مالك في "الموطأ" بلاغاً (٢ / ٩٩٧) وقد رواه متصلاً أبو عبيد في "كتاب الأموال" (٩١١)، وذكر القصة القرطبي في تفسيره {٢٢ / ٤٢٤} وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" {٢٦١ / ١}

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستذكار {٢٧ / ٤٠٨}، وأبو عبيد في الأموال مختصراً {٩١٠} وذكره القرطبي في تفسيره.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٢١)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٠٥)، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٩١٤)، والخرائطي في "مكارم الأخلاق" (٤٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

وفي المقابل، ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(١).

وَيُسْتَفَادُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَذَلِكَ: أنه ينبغي على العبد أن يسارع في الخير كل الخير، ولا شك أن أعظم الخير الواجبات، ثم يتقرب إلى الله بالنوافل ما استطاع، فإن هذه النوافل سبب في حب الله العظيم له، فعلى قدر مسارعة العبد في أعمال البر والخير والنافلة على قدر حب الله تعالى له. وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قلت: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قلت: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢). وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِيقٍ"^(٣).

فهذه آية فاذة جامعة، كما قال عنها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الثابت، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الْحَيْلُ لِثَلَاثَةٍ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٣٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٥١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٨٤)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٢٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٩٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ كَانَتْ أَرْوَاتُهَا وَأَثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخَرَّ وَرِثَاءً وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِيهِ وَزْرٌ عَلَى ذَلِكَ وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْحُمْرِ فَقَالَ مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَةُ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) ^(١)

والمعنى أن الإنسان لو أحسن إلى حمارٍ فله أجرٌ ذلك، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» ^(٢).

ذكر بعض التابعين أن المؤمن إنما يرى عقوبة سيئاته في الدنيا، وثواب حسناته في الدنيا والآخرة، وأن الكافر يرى ثواب حسناته في الدنيا، وعقوبة سيئاته في الآخرة ^(٣)، كما قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٣٧١)، ومسلم في صحيحه (٩٨٧)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٣٦٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٤٤)، من حديث أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) تفسير الطبري (٥٦٢ / ٢٤)

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

مهما عمل الكافر من خيرٍ جوزي به في الدنيا بالصحة والعافية، أو بالذكر الحسن، أو بكثرة الأموال والأولاد، أو بالرفعة والمكانة، أما في الآخرة فليس له فيها من خلاقٍ ولا نصيب، وذلك أن الجزاء العظيم في الدار الآخرة لا يكون إلا لنفسٍ مؤمنة^(١).

فهذه الآية جامعةٌ ينبغي أن تكون عنوان العبد في حياته، فمن فعل ذلك واتبه لها جيداً، ما غفل عن أي خيرٍ ولترك كل الشر ما استطاع، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ان يسترنا واياكم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الانتهاء من تفسير سورة الزلزلة بحول الله ومنته.



(١) (صحيح) أخرج مسلم في "صحيحه" (٢٨٠٨)، وأحمد في "مسنده" (١٢٢٣٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه حدث عن رسول الله ﷺ «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أَطْعَمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ»

﴿سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ﴾

هي مكية^(١)، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة العصر.

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها:

أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولا يستعدون لحياتهم الثانية، بتعويد أنفسهم فعل الخير^(٢).
هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيدَاتِ صَبَحًا ۝ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدَحًا ۝ فَأَلْمَغِيرَتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لَحَبِيبٌ خَفِيرٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَذِي حَبِيرٌ ۝﴾

قال تعالى: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ صَبْحًا﴾ ۝ لأهل العلم في معنى هذه الآية قولان :

أحدهما: قال أكثر أهل العلم، العاديات هي الخيل تعدو في الجهاد في سبيل الله، والعدو هو

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي " الدر المنثور " (١٥ / ٥٩٦) أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَزَلَتْ وَالْعَادِيَّاتُ بِمَكَّةَ . وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي " المحرر الوجيز " (٥ / ٥١٣) وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٢١)

إخراج الصوت من الخيل عند جريه بسرعة وبشدّة^(١)، والضبح: هو إخراج الصوت من الفرس عند عدوه بشدة وبقوة في الجهاد في سبيل الله تعالى^(٢)، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر السلف^(٣).

القول الثاني: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِالْعَادِيَّاتِ: هِيَ الْإِبِلُ فِي الْحَجِّ تَعْدُو مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ وَمِنْ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مَنَى ، قاله علي، وابن مسعود رضي الله عنهما، وعبيد بن عمير، والقرظي، والسدي^(٤).

وأصح القولين: هو القول الأول، وذلك أن الضبح هو صوت أجواف الخيل، إِذَا عَدَتْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَضْبَحُ غَيْرُ الْفَرَسِ وَالْكَلْبِ وَالْتَّعَلَبِ، وَإِنَّمَا تَضْبَحُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ إِذَا تَغَيَّرَ حَالُهَا مِنْ تَعَبٍ أَوْ فَرَعٍ وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: ضَبَحَتْهُ النَّارُ إِذَا عَيَّرَتْ لَوْنَهُ^(٥).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: عني بالعاديات: الخيل، وذلك أن الإبل لا تضبح، وإنما تضبح الخيل، وقد أخبر الله تعالى أنها تعدو ضبحا، والضبح: هو ما قد ذكرنا قبل^(٦).

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٤٢٦): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا﴾ أَيِ الْأَفْرَاسِ تَعْدُو. كَذَا قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلُ اللُّغَةِ، أَيِ تَعْدُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَضْبَحُ.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٧٠).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٧٠) عن مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وسالم والضحاك.

(٤) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤ / ٤٨٠).

(٥) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٥٠٥).

(٦) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٧٤).

وقد دار حوارٌ في هذه المسألة بين عليٍّ وابنِ عباسٍ رضي الله عنهما فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَجْرِ جَالِسٌ، أَتَانِي رَجُلٌ يَسْأَلُ عَنِ ﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا﴾ [العاديات: ١] فَقُلْتُ لَهُ: الْحَيْلُ حِينَ تُغَيَّرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى اللَّيْلِ، فَيَصْنَعُونَ طَعَامَهُمْ، وَيُورُونَ نَارَهُمْ. فَانْفَتَلَ عَنِّي، فَذَهَبَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَهُوَ تَحْتَ سِقَايَةِ زَمْزَمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ ﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا﴾ [العاديات: ١] فَقَالَ: سَأَلْتَ عَنْهَا أَحَدًا قَبْلِي؟ قَالَ: نَعَمْ، سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: الْحَيْلُ حِينَ تُغَيَّرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: أَذْهَبُ فَادْعُهُ لِي؛ فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ: تُغَيِّرُ النَّاسَ بِمَا لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّتِ أَوَّلَ غَزْوَةٍ فِي الْإِسْلَامِ لَبَدْرٌ، وَمَا كَانَ مَعَنَا إِلَّا فَرَسَانِ: فَرَسٌ لِلزَّبِيرِ، وَفَرَسٌ لِلْمُقَدَّادِ فَكَيْفَ تَكُونُ الْعَادِيَاتُ صَبْحًا. إِنَّمَا الْعَادِيَاتُ صَبْحًا مِنْ عَرَفَةَ إِلَى مُزْدَلِفَةَ إِلَى مِنًى؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَفَرَعْتُ عَنْ قَوْلِي، وَرَجَعْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه." ^(١)

وهذا يدلُّك على الأدب العظيم الذي كان بين الصحابة، لا يمكن أن تسمع عندهم عُشْرَ مِعْشَارٍ ما نسمعه في حياتنا الآن - نسأل الله العافية والسلامة - كان الواحدُ منهم يُجِلُّ إِخْوَانَهُ وَيَحْتَرِمُ الْكَبِيرَ وَيُوقِّرُهُ، فابنُ عباسٍ رضي الله عنهما رغم رجحان هذا المعنى عنده، قال: تركت قولي إلى قول عليٍّ رضي الله عنه، احتراماً وتوقيراً .

فالْمَقْصُودُ بقوله ﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا﴾ القسمُ بالخيَلِ، فالواوُ واوُ القسمِ، في أشرفِ مواطنها وهو الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، عندما يرفعُ المجاهدُ رايةَ اللهِ عَالِيَةً، **وعلى القول الثاني:** يقسمُ اللهُ تعالى بالإبل عند عدوها، ومشيتها بسرعةٍ عند انصرافِ الناسِ، من عرفات إلى مزدلفة.

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٧٤)، والحاكم في "المستدرک" (٢٥٠٧)، من حديث ابن عباس

قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه خمس أقوال:

أحدها: أنها الخيل تُوري النار بحوافرها إذا جرت، وهذا قول الجمهور. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل، فأصابت بحوافرها الحجارة، انقذت منها النيران.

والثاني: أنها نيران المجاهدين إذا أوقدت، روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والثالث: مَكْرُ الرجال في الحرب، قاله مجاهد، وزيد بن أسلم.

والرابع: نيران الحجيج بالمزدلفة، قاله القرطبي.

والخامس: أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأقيمت بها الدلائل على الحق وفضح بها

الباطل، قاله عكرمة. اهـ^(١)

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن حكى هذه الأقوال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ أقسم بالموريات التي توري النيران قدحاً؛ فالخيل توري بحوافرها، والناس يورونها بالزند، واللسان - مثلاً - يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر - مثلاً -، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها: إذا التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعضٌ دون بعضٍ فكل ما أورت النار قدحاً، فداخلةٌ فيما أقسم به، لعموم ذلك بالظاهر. اهـ^(٢)

قوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ هِيَ الْخَيْلُ تُغَيِّرُ بِفُرْسَانِهَا، عَلَى الْعَدُوِّ عِنْدَ الصَّبَاحِ، هَذَا

قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ^(٣)، وهذا في الغالب، وهذا من محاسن هذا الدين الكريم، أن الحبيب ﷺ ما

(١) ينظر " زاد المسير في علم التفسير " لابن الجوزي (٤ / ٤٨١) .

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٥٧٨)

(٣) ينظر " زاد المسير في علم التفسير " لابن الجوزي (٤ / ٤٨١) ، و " معالم التنزيل " للبغوي (٨ / ٥٠٨)

كان يغير على قومٍ حتى الصباح، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوما، لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم"^(١)

يعني يحكم للبلدة بأكملها بإسلامها بمجرد رفع الأذان الواحد، ولذلك بوب الإمام البخاري في صحيحه (باب ما يحقن من الدماء بالأذان)، ثم أورد الحديث السابق، هذا خلافاً للأفكار الباطلة التي تُكفّر المسلمين بشبهات ليس لها أساس في الدين، فيستحلون قتل المسلم وهو خارج من مسجده وصلاته.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفَرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ"^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ اتفق أهل العلم على أن قوله تعالى ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي أثارت الخيل الغبار بسبب جريها، وضرب رجلها في الأرض وسرعة حركتها، وكذلك عند من يرى أن العاديات هي الإبل في الحج، فالمعنى هنا أنها تثير الغبار عند مشيها^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي دخلن به وسط جمع العدو، وهم الكبيبة^(٤)، وهناك

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠)، ومسلم في "صحيحه" (٣٨٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٩١)، عن أنس، ومسلم في "صحيحه" (١٩٦١)، من حديث البراء رضي الله عنه، به.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٤٦٦) وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ هو: المكان الذي إذا حلت فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو.

(٤) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٥٠٨)

قراءة ذكرها القرطبي رحمه الله فقال: "قَرَأَ عَلِيٌّ رضي الله عنه (فَوَسْطُنَ) بِالتَّشْدِيدِ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ قَتَادَةَ وَأَبْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي رَجَاءٍ، لُعْتَانٍ بِمَعْنَى، يُقَالُ: وَسَطْتُ الْقَوْمَ (بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ) وَتَوَسَّطَهُمْ: بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَقِيلَ: مَعْنَى التَّشْدِيدِ: جَعَلُهَا الْجُمُعَ قِسْمَيْنِ. وَالتَّخْفِيفِ: صَرَنَ فِي وَسْطِ الْجُمُعِ، وَهُمَا يَرِجَعَانِ إِلَى مَعْنَى الْجُمُعِ". (١)

هَذَا مَوْضِعُ الْقِسْمِ، أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.. أَقْسَمَ بِالْعَادِيَاتِ صُبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا، فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسْطُنَ بِهِ جَمْعًا، ثُمَّ جَاءَ الْقِسْمُ عَلَيْهِ :

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ والمعنى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعْمِ رَبِّهِ، وَالْأَرْضُ الْكَنُودُ: الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا^(٢)

يعني أن أغلب بني آدم يمحذون نعم الله جلّ جلاله، فيُطهرون النِّقَمَ ويُخفون النِّعمَ، ولا يشكرون عند النِّعماء، ولا يصبرون عند البلاء، أما المؤمنُ، فإذا أُنْعِمَ عليه شَكَرَ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْكَنُودُ" الَّذِي أُنْسَتْهُ الْخِصْلَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْإِسَاءَةِ الْخِصَالِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَ"الشُّكُورُ": الَّذِي أُنْسَتْهُ الْخِصْلَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْإِحْسَانِ الْخِصَالِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ^(٣).

و(الإنسان) هنا إما أن يُحْمَلَ على الإنسانِ الكافرِ أو على جنسِ الإنسانِ، فإن حملت على

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٣٦)

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٥٨٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن والربيع وقتادة، ورجحه.

(٣) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٥٠٩)

الإنسان الكافر^(١) فالمعنى أنه كفورٌ لله عزَّ وجلَّ، يُنعمُ عليه وهو يكفرُ ويُشركُ معه غيره، وإن حملت على جنسِ الإنسان، فالمرادُ بني آدمَ ويدخلُ فيهم المسلمون، فيُقصدُ بكنودِ كفورٍ بنعمِ الله جلَّ جلاله^(٢).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَامَ فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالْصَّدَقَةِ. فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا ثُمَّ انْصَرَفَ فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَخْفِرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ^(٣).

فالمقصودُ بالكفرِ هنا كفرُ النعمة، وليس كفرًا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، فلذلك رب العزة قال عن الإنسان، بأنه كفورٌ، جحودٌ لآلاءِ ربه.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتَّعْرِيفُ فِي الْإِنْسَانِ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ وَهُوَ يُقِيدُ الْإِسْتِعْرَاقَ عَالِيًا، أَيْ أَنَّ فِي طَبَعِ الْإِنْسَانِ الْكُنُودَ لِرَبِّهِ، أَيْ كُفْرَانَ نِعْمَتِهِ، وَهَذَا عَارِضٌ يَعْرِضُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ

(١) ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير" (٤/ ٤٨١)، ورجحه الشوكاني في "فتح القدير" (٥/ ٥٨٩)

(٢) قال عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "تتمة أضواء البيان" (٩/ ٦٦) وَقَوْلُهُ: إِنَّ (الْإِنْسَانَ) عَامٌّ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَعْضَ الْإِنْسَانِ لَيْسَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْعَامِّ الْمُخْصُوصِ.

وَأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ إِلَّا مَا هَدَبَهُ الشَّرْعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ. وَقَوْلُهُ: وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٦٢)، ومسلم في "صحيحه" (٨٨٩)، من حديث أبي سعيد

عَلَى تَفَاوُتٍ فِيهِ وَلَا يَسْلَمُ مِنْهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَكَمَّلَ أَهْلُ الصَّلَاحِ لِأَنَّهُ عَارِضٌ يَنْشَأُ عَنْ إِثَارِ الْمُرءِ
نَفْسُهُ وَهُوَ أَمْرٌ فِي الْجَبِلَةِ لَا تَدْفَعُهُ إِلَّا الْمُرَاقِبَةُ النَّفْسِيَّةُ وَتَذَكُّرُ حَقِّ غَيْرِهِ. وَبِذَلِكَ قَدْ يَذْهَلُ أَوْ يَنْسَى
حَقَّ اللَّهِ". أَهْدُ^(١)

والعبدُ الشاكرُ لربه، يرى آلاءَ الله عليه في كلِّ شيءٍ، في كلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ أَوْ أَقْلٍ، وَصَدَقَ اللهُ
حيثُ قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]
وَصَدَقَ الْقَائِلُ:

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعِصِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجِدُهُ الْجَاهِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ^(٢)

وقفة: ربنا تبارك وتعالى آلاءه عظيمة، فكيف يحجده المرء؟

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ولذلك كان النبي ﷺ
يرسخ في الأمة جميعاً هذا المعنى الجليل وهو استشعار أن النعم التي عندنا كلها من الله، فنسند
النعمة إلى الله تعالى، فمن مَن الله عليه بالزوجة الصالحة أو البيت الفسيح أو المال أو الذرية، أو
بإخوة وأخوات فينبغي عليه أن يتذكر أن هذه النعم كلها من الله، ومن عظيم النعم أن الله تعالى
اختارنا لدينه، وللعمل له، وشرفنا الله تعالى بالإسلام، ولم يجعلنا يهوداً أو نصارى أو بوذيين -
لأنه من مات على ذلك فهو من أهل النار - بل شرفنا الله بالإسلام، وبالأمن الذي يتقلب الناس
فيه، والأرزاق الطيبة للعباد، فكيف يحجد المرء ربه وكيف يحجد آلاءه؟!

(١) ينظر "التحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور (٣٠ / ٥٠٢)

(٢) ينظر "الأرجوزة ذات الأمثال" لأبي العتاهية (٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ في معنى الآية قولان لأهل العلم:

القول الأول: الهاء تعود على رب العزة جل جلاله، يعني أن رب العزة شهيد على العبد الجحود، الكفور لرب العالمين جل جلاله، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ^(١)، وهو ما قال به ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢).

ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد^(٣).

وإذا أيقن العبد أن ربَّ العالمين يَشْهَدُ عليه واستحضر في نفسه قول الله (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) فَيُصْلِحُ سِرَّهُ وِعِلَانِيَتَهُ، وَيَتَّقِي رَبَّهُ، وَيَتْرُكُ الْحَرَامَ كُلَّهُ وَإِنْ قَلَّ، وَيَسَارِعُ فِي الْخَيْرِ مَا اسْتَطَاع وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا، لِأَنَّهُ يَرِاقِبُ اللَّهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بَوَجهٍ طَلِيقٍ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

القول الثاني: أن الضمير يعودُ على الإنسان، فهو يَشْهَدُ على نفسه، بأنه كان جاحداً لنعمة الله سبحانه، وَيَشْهَدُ بتقصير نفسه، وهو قول الحسن وقناة ومحمد ابن كعب^(٥). قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي أفعاله وأقواله وحاله المعلومه من هذه الأخلاق تَشْهَدُ عليه، فهو شاهدٌ على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد"^(٦).

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٣٩)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٨٩)

(٣) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٩٣٣)

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٢٦)، وأحمد في "مسنده" (٢١٥١٩)، من حديث أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٥) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠ / ١٦٢)

(٦) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥ / ٥١٥)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَي: بِلِسَانِ حَالِهِ، أَي: ظَاهِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ [التَّوْبَةِ: ١٧]"^(١).

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَي: إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا يُعْرِفُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْمَنْعِ وَالْكَنَدِ لَشَاهِدٌ بِذَلِكَ، لَا يَجْحَدُهُ وَلَا يُنْكِرُهُ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ"^(٢).

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه أن العبد يشهد على نفسه، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، تَحْيَلُ أَنْكَ تَشْهَدُ عَلَيْكَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ وَالْجُلُودُ، بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]

وروى الامام مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَحِكَ فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ بِمَا أَصْحَكُ؟" قَالُوا: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: "مِنْ مُحَاطَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَفَى بِنَفْسِكَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ: فَيَخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطَقِي قَالَ: تَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: يُحْجَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا وَسُخْفًا فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ"^(٣) فنسأل الله اللطف والسلامة.

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٦٧)

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (ص: ٩٣٣)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٦٩)، والنسائي في " الكبرى " (١١٧٦٥)، من حديث

فاحذر الحذر يا عباد الله أن يأتي المرء منا يوم القيامة، يؤمل الخير في نفسه ويرجو ثواب الله ويرجو عطية الله له، وإذا هو نفسه يشهد على نفسه فيوبقها، ويهلكها وتذهب إلى نار جهنم - عافانا الله وإياكم - ، وما ذلك بظلم من الله للعبد، ولكنه بسبب عمله، كما قال ربنا في الحديث القدسي (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) ^(١)،

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ لا يأتي لذهنك أن حبه الخير أي أفعال الخير، لا ليس هذا عاماً في أغلب الناس، بل في الآية مذهبان: **أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَعْنَى: وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ.**

روى الطبري بسند صحيح إلى ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] قَالَ: " الْخَيْرُ: الدُّنْيَا؛ وَقَرَأَ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا: الْمَالُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ إِلَّا الْمَالُ؟ قَالَ: وَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ خَيْرًا، فَسَمَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، لِأَنَّ النَّاسَ يُسَمُّونَهُ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَبِيثًا".

(٢)

فقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني حريص على المال حرصاً عظيماً، شديد الحرص، قد بلغ الغاية في ذلك، ولذلك ربنا عز وجل يصف لنا أكثر الخلق بقوله ﴿رُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

أنس رضي الله عنه، به.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٥٨٩ / ٢٤)

وَالْأَنْعَمَ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤]
 فكلُّ هذا متاعٌ، والمتاعُ هو العرضُ الزائلُ، تتمتعُ به ثم يذهبُ ولا يبقى، ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَالِي
 وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"
 (١).

لماذا يُعادي الناسُ بعضهم بعضاً؟ من أجل الدنيا، من أجل شيءٍ من الميراث، من أجل شيءٍ
 من الراتب، هذه مصائبٌ وبلايا يا إخواني، ربُّنا تعالى يقول ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني
 أنه عنده حبٌّ شديدٌ للخير.

المذهب الثاني: وَأَنَّهُ لَحَرِيصٌ بِخَيْلٍ؛ مِنْ مَحَبَّةِ الْمَالِ، أي إنه بسببِ المالِ شديدُ الحرصِ
 وشديدُ البخلِ (٢)، وَالْوَقْعُ أَنَّ الْأَوَّلَ يَتَضَمَّنُ الثَّانِي وَيَشْهَدُ لِلْوَجْهِ الثَّانِي، لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ الْمَالَ حُبًّا
 جَمًّا سَيَحْمِلُهُ حُبُّهُ عَلَى الْبُخْلِ (٣).

وَفِي هَذَا النَّصِّ مَدْمَةٌ حُبِّ الْمَالِ وَهُوَ جِبَلَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، إِلَّا مَنْ هَدَبَهُ الْإِسْلَامُ، إِلَّا أَنَّ الدَّمَ
 يَنْصَبُ عَلَى شِدَّةِ الْحُبِّ الَّتِي تَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَى ضِيَاعِ الْحُقُوقِ أَوْ تَعْدِيِ الْحُدُودِ (٤).
 ولذلك تجدد كثيراً مِنَ الْأَغْنِيَاءِ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ - لَيْسَ بِكَرِيمٍ، وَهَذَا دَاءٌ سَيِّئٌ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٧٧)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٠٩)، وأحمد في "مسنده"

(٣٧٠٩)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. و صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٣٨).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٤٦٧) وقال: وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

(٣) ينظر "تتمة أضواء البيان" (٩ / ٦٧).

(٤) ينظر "تتمة أضواء البيان" (٩ / ٦٧).

بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ ؟ ، قَالُوا : الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّا نُبْخِلُهُ ، فَقَالَ : وَأَيُّ دَاءٍ أَدَوُّ مِنْ الْبُخْلِ ، بَلْ سَيِّدُكُمْ الْجَعْدُ الْقَطَطُ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ " (١).

وكان عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُؤْلِمُ عن النبي ﷺ حين يتزَوَّجُ، فكان رجلاً كريماً.

وقفه: لذلك ينبغي على العبد منا إن حرص على المال يحرص عليه من الحلال وفقط، وليحذر الغش في البيع والشراء، أو أن يأخذ مالاً ليس له أو يقبل رشوة أو يتاجر بما حرم الله، أو يأكل مال رباً، أو مال الصغار لاسيما لو كانوا إخوانه وأخواته، كأن يكون المرء كبير إخوانه وتوفي الوالد وعنده مال أمانة وإذا بالكبير - عافانا الله وإياكم - يأخذ المال لنفسه، كل هذه بلايا ويسأل عنها العبد يوم القيامة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُزْهِدًا فِي الدُّنْيَا، وَمُرْغَبًا فِي الْآخِرَةِ، وَمُنْبِهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (١) والمعنى : أفلا يعلم هذا الإنسان المُنْكَبُّ على وجهه من أجل الدنيا ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاحَ كِبْدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٢٩٦)، والحاكم في "المستدرک" (٥٠٤٠)، وقال صحيحٌ

عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، من حديث كعب ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. و صححه الألباني في " صحيح الأدب

المفرد" (٢٢٧)

شَيْئًا".^(١)

يتركون المال، لأن الدنيا انتهت وكان المال يُنتفع به في الدنيا، وأما الآخرة فهي دارُ الجزاء .
(إِذَا بُعْثِرَ) أي أثيرَ وَقُلِبَ وَبُحِثَ، فَأُخْرِجَ مَا فِيهَا، أي أن الله تعالى يستخرج ما في القبور
 من موتى يوم القيامة.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ الأمر جدٌ خطير، سَيُعْثَرُ ما في القبور، عند ذلك
 يحدث دواهي فيسعدُ أناسٌ ويرتفعون إلى أعلى الدرجات، ويشقى أناسٌ في الدَرَكَاتِ السفلى من
 النيران يشقون شقاءً ليس بعده سعادة.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير
 والشر، فصار السر علانيةً، والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

وقفة: لذلك اجعل دائماً أبداً صدرك سليماً، فإن من أعظم الآفات التي تأكل حسنات
 العبد، آفات القلوب وأمراضها، من الحقد والحسد والضغينة والكبر - عافانا الله وإياكم - يرى
 العبد أنه أحسن من غيره، وأنهم ليسوا في مقامه، فهذا كبرٌ - والعياذ بالله - فعن عبد الله بن مسعود
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ)^(٢)

وكان من دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام **﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾** ^(٨٧) **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ**
وَلَا بَنُونَ﴾ ^(٨٨) **إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [الشعراء: ٨٧ - ٨٩] فشریف بك يا عبد الله أن

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠١٣)، والترمذي في " سننه " (٢٢٠٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٦٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩١)، والترمذي في " سننه " (١٩٩٨)، وابن ماجه في " سننه " (٥٩)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

تلقى الله تعالى بصدرٍ سليمٍ من الآفاتِ والأمراضِ، أن تجعلَ صدرَكَ سليماً تحبُّ الخيرَ لعبادِ الله، كما تحب لنفسك، وليس عندك رياءٌ ولا سُمعةٌ، بل ترجو وجهَ الله تعالى، والدارَ الآخرةَ، وتلاحظُ هذا القلبَ دائماً أبداً، فأحياناً يأتيك الشيطانُ يلقي عليك مرضاً عظيماً، ولعلك ترى أن هذا خيرٌ، وفي الحقيقة يكون هذا عينَ الشرِّ لك، فلاحظْ قلبَكَ دائماً أبداً وجدِّدْ الإخلاصَ في كلِّ نفسٍ، فسعادتكُ بالإخلاصِ لله، وبالعملِ الصالحِ ما استطعتَ .

قال ربنا تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ فعبّر عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقيقه ليعلم العبد أن الأمر واقعٌ محققٌ وهو كذلك أمرٌ جدُّ خطيرٌ جلُّلٌ .

وقفه: ليعلم العبد أنه سيبعث ما القبور، ويحصل ما في الصدور وحينئذ يسعد أناسٌ ويرتفعون إلى أعلى الدرجات - أسأل الله أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه، وأزواجنا وذرياتنا ووالدينا- ويشقى أناسٌ في الدرجات السفلى من النيران يشقون شقاءً ليس بعده سعادةٌ أبداً .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها .

وخصَّ خبره بذلك اليوم، مع أنه خبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال الناشئ عن علمِ الله وإطلاعه .

ومعنى الخبير يعني العليم ببواطن الأمور ودقائقها، وأسرارها كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦]. أسأل الله العظيم ربَّ العرشِ العظيم لي ولكم السلامة من كلِّ إثمٍ والغنيمة من كلِّ برٍّ والفوزَ بالجنةِ والنجاةَ من النارِ . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تم الانتهاء من تفسير سورة العاديات بحول الله ومنته .

﴿سُورَةُ الْقَارِعَةِ﴾

وهي سورة مكية^(١)، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة قريش.

ومناسبتها لما قبلها:

أن آخر السابقة كان في وصف يوم القيامة، وهذه السورة يأسرها في وصف ذلك اليوم، وما يكون فيه من الأهوال^(٢).

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١ ﴿

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ أَيِ الْقِيَامَةِ وَالسَّاعَةِ، كَذَا قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ^(٣).
وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْرَعُ الْخَلَائِقَ بِأَهْوَالِهَا وَأَفْزَاعِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: ١ - ٣] وكذلك هي الطامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ٣١ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٣٢﴾ [النازعات: ٣٤، ٣٥]، وهى الصاخة، كما في قوله

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي " الدر المنثور " (١٥ / ٦٠٨) أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْقَارِعَةِ بِمَكَّةَ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي " المحرر الوجيز " (٥ / ٥١٦) وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِلَا خِلَافٍ.

(٢) يَنْظُرُ " تَفْسِيرُ الْمَرَاغِيِّ " (٣٠ / ٢٢٤)

(٣) يَنْظُرُ " جَامِعُ الْبَيَانِ " لِلطَّبْرِيِّ (٢٤ / ٥٩٢)، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي " الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ " (٢٢ / ٤٤٢).

تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

فقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ هي الساعة عَظَمَهَا الله جل جلاله، وعَظَمَ أهوالها.

وقفة: فليعلم العبد أن هناك أهوالاً لا ينجيه منها لا حسب، ولا نسب، ولا منصب، ولا مال، ولا قوة، ولا شيء، لن ينجيه منها إلا فضل الله، ثم عمله الصالح.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ وما أدراك ما الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم، في هذا اليوم يصير الولدان شيباً، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل: ١٧]، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس تحسبهم سكارى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢٠﴾ [الحج: ٢]، -فنسأل الله أن يُلطف بنا ويرحمنا-.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ١﴾ وصف الله تعالى خروج عباده من قبورهم في موضع كأنهم جرادٌ منتشرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧﴾ [القمر: ٧]، وهنا يصفهم الله كالفراش المبعوث، والفراش هي تلك الحشرات الصغيرة جداً؛ التي إذا أوقدت ناراً في الظلام تنهافت على هذا الضياء، لضعفها ولعدم إهتدائها إلى ما ينجيهما وإلى صلاحها؛ فلو أوقد العبد ناراً، لجاء الفرّاش يتساقط في هذه النار^(١)، ولذلك وصف الحبيب ﷺ حاله مع أمته بمثل هذا، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجُنَادُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٥٩٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٤٤٣).

يَذُهِبَنَّ عَنْهَا، وَأَنَا أَخِذُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلَتُونَ مِنْ يَدَيَّ^(١) الحجز هي معقل الإزار من العبد، والمعنى يمسك بنا بشدة، فكثير من الناس يأبى إلا أن يقتحم النار فيرضى بلذة فانية ولا يرضى بنعيم دائم، -نسأل الله النجاة والعافية -.

ولذلك ربنا تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ والمبثوث هو المنتشر في كل اتجاه، فيملئون وجه الأرض، بعد خروجهم من قبورهم ويتفرقون، فإذا بأناسٍ يحرون إلى اليمين، وآخرين إلى اليسار، وآخرين إلى الأمام، وآخرين إلى الخلف، كأنهم فراشٌ مبعوثٌ، ليس له وجهةٌ يتجه إليها، من شدة الهول الذي عاينه، وأما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ فالجراد له وجهةٌ يقصدها، وهو في حال الناس عندما أفاقوا وانتبهوا فيجيئون الداعي خاشعةً أبصارهم -نسأل الله أن يسترنا، وأن يحولنا من أرض المحشر إلى جنات ونهر-.

قال الله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ لأن العالم كله في ذلك اليوم يتغير، وتزال الدنيا بما فيها، فالجبال لقوة تماسكها وثباتها، جعلها الله أوتاداً للأرض قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُلَهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [الأنبياء: ٦، ٧]، فهذه الجبال تتفكك قوتها، فتتحول إلى كتبانٍ رملية، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ثم تصير كأنها عهنٌ منفوشٌ،

والعهن المنفوش: هو الصوف الذي يُنفش باليد، أي تصير الجبال هباءً وتزول، كما قال جلَّ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٨٣)، ومسلم "صحيحه" (٢٢٨٤)، من حديث جابر

ثَنَاؤُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]

وقفة: لو جُمعت آلاتُ العالم كله ما استطاعوا أن يُزيلوا الجبال، إن الدول الكبرى عندما تريد عمل طريقٍ بالجبال تنفق أموالاً هائلةً، لكن الله جل جلاله الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ينسف الجبال جميعاً ويحوّلها إلى هباءٍ مُنْبَثٍّ، وإلى عهنٍ منفوش، فسبحانه ذو القدرة الكاملة لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ هنا أخبر الله تعالى عن الدواهي التي تحدث للعباد في يوم القيامة، وعن زوال الدنيا ثم أخبر عن الجزاء فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ راضية يعني مرضية، يرضاها صاحبها، ويهنأ بها، ويسعد بها سعادةً ليس بعدها شقاءً أبداً.

وقفة: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ هناك ميزان يُنْصَبُ لكل عبدٍ يوم القيامة الرئيس والمرؤوس، الغني والفقير، العالم والجاهل، فكل واحدٍ لا بد أن يوضع له ميزان، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۚ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۚ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والقسط معناه العدل، فالناس في الدنيا يزنون العبد بما معه من مالٍ أو جمالٍ أو حسبٍ، أما ميزان الآخرة فالعبد يوزن بما معه من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، وتقوى الله، إذا أدى فرائض الله وسارع في النوافل، فهو حبيبٌ لله كريمٌ عليه، يحبه ربه ويُدينه، أما من يأتي يوم القيامة مفلساً، كما روى الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه،

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١) فالعبد جاء بحسبٍ، ونسبٍ، وأموالٍ طائلةٍ، ولكنه مفلسٌ من الأعمال الصالحة.

قال ربنا تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] فالحساب عند رب العالمين بالذرة، ذرةٌ من خيرٍ لن تضيع وذرةٌ من شرٍّ لا بد أن يجدها العبد عند الله، فينبغي على العبد أن يقدم لنفسه صالحاً، وأن ينجو بنفسه، ويحاول أن يسعد نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وليعلم أن الموازين يوم القيامة يوزن فيها الأعمال وصحائف الأعمال، والعمال، فقد روى الشيخان في صحيحهما عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأُوا، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾. " ^(٢) لأن قلبه خاوٍ وجوارحه انتهكت محارم الله، فلم يُجِب داعي ربه، ولم يُعْظَم نبيه ﷺ، ولم يسارع في مرضاة الله عز وجل، كان سريعاً إلى الحرام بطيئاً إلى الخير، ولذلك عند الموت هذا البدن تكفّرهُ الروحُ، تقول جزاك الله عني شراً فقد كنت بطيئاً إلى طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله، وأما الطيبون نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الطيبين، تقول له الروح الطيبة

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨١) والترمذي في " سننه " (٢٤١٨) وأحمد في " مسنده " (٨٠٢٩) وابن حبان في " صحيحه " (٤٤١١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٧٢٩)، و مسلم في " صحيحه " (٢٧٨٥)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

جزاك الله عني خيراً، فقد كنت سريعاً إلى طاعة الله، بطيئاً إلى معصية الله.^(١)

وفي المقابل يأتي أناسٌ لعل أوزانهم خفيفة جداً بالدنيا ولكنهم أثقل من الجبال في موازينهم، ففي المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكَ مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُوهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَضَحُّكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، هُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٢)، ساقه فقط أثقل عند الله تعالى من جبل أحد، فما بالنابقله العظيم الذي حمل القرآن من في الحبيب إلى فيه، ولقد قال كما روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن شقيق، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه ، أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] ثُمَّ قَالَ: عَلَى قِرَاءَةٍ مَنْ تَأْمُرُونِي أَنْ أَقْرَأَ؟ فَلَقَدْ «قَرَأْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»^(٣).

وقفة: هذا هو الفخر، ليس الفخر ما مع العبد من ملايين وألوف وكم بنى، بل الفخر أن يتعلم آية من كتاب الله في هذا الزمن خاصة، وكم جلس في مجالس العلم يتعلم القرآن، فلو قبل

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في "مسنده" (٧٨٩) من قصة البراء بن عازب الطويل رضي الله عنه وفيه فيقول: أَبْشُرْ بِعَذَابٍ مِنَ اللَّهِ وَسَخَطِهِ فيقول: مَنْ أَنْتَ فَوْجُوكَ الْوَجْهَ الَّذِي جَاءَ بِالشَّرِّ؟ فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الْحَيْثُ وَاللَّهُ مَا عَمَلْتُكَ إِلَّا كُنْتُ بِطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ

(٢) (حسن صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" {٣٩٩١}، وابن حبان في "صحيحه" {٧٠٦٩} وأبو يعلى الموصلي في "مسنده" {٣٥٣}، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣١٩٢)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٠٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٤٦٣) واللفظ له، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، به.

الله منه فله أجرٌ عظيمٌ لا يعلم أحدٌ قدر هذا الأجر العظيم، قال رسول الله -ﷺ-: "العِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلِيَّ"^(١)، والهرج الفتن، والقتل، واختلاط الناس، فعندما يترك العبد الدنيا لله ويأتي وَيُصَبِّرُ نفسه لله رب العالمين -وقتهاً قليلاً أو كثيراً- فكأنه هاجر للحبيب ﷺ.

فالعامل نفسه يوضع في الميزان، فمن ثقلت موازينه هنيئاً له، من كان قلبه محباً لله، ولرسوله وللمؤمنين، باغضاً للكافرين، يكره أعداء الله، محباً للقرآن، محباً للسنّة، ذاكراً لربه مطيعاً لله، مؤدياً الفرائض هذا إذا وضع في الميزان يُثْقَلُ،

وأيضاً توضع صحائف الأعمال، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْخَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ (بطاقة التوحيد التي عاش عليها ومات عليها ولكنه مسرف على نفسه بالمعاصي)، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنَّاكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ (كفة الميزان)، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ^(٢) والمعنى أن أثقل شيءٍ يلقي العبدُ به ربه يوم القيامة هو توحيدِه إياه، فينبغي على العبد أن يكون موحداً وأن يعرف ربه

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٤٨)، والترمذي في "سننه" (٢٢٠١) وابن ماجه في "سننه"

(٣٩٨٥) واللفظ لمسلم، من حديث معقل بن يسار، به.

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٦٣٩) وابن حبان في "صحيحه" (٢٢٥)، من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٧٧٦)

فيتعرف على الله بأسمائه وصفاته، ويفرده وحده بالعبادة، لأنه إذا وُضع العبد في قبره، فسيُسأل من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟، هذه الثلاث مسائل لا بد له من جواب عنها.

وأيضاً أعمالنا تُوزن، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ".^(١)

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمَلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»^(٢)

وقفه: سبحانك ربي ما أعظمك! وما أشد تقصيرنا في حقك!، وما أيسر ما كلفنا الله به! فما أيسر أن يشغل المرء منا لسانه بذكر مولاه، لكن الشيطان يأتي يجلس على القلب، ويشغل اللسان، لا نقول بالحرام أو الأغاني أو ما شابه ذلك بل بالقليل والقال، ويُفَوِّتُ عليه فرصاً هائلة، وما أجمل ما قال القائل "أيها الساهي اللاهي أنت تسهو وغيرك يبني مجداً تليداً، وغيرك يقدم مهراً عظيماً، للجنان بذكر الرحمن"

فالعبد التقى يشغل لسانه، ولو كان جالساً في بيته، فيسبح، ويحمد الله، ويستغفر، ويصلي على رسول الله ﷺ، فهذه أمور تُثَقِّلُ الميزان، فمن الممكن أن يأتي اثنان يوم القيامة، أعمالهما

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٩٤)، واللفظ له، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٣)، والترمذي في "سننه" (٣٥١٧)، والنسائي في "المجتبى" (٢٤٣٧) وابن ماجه في "سننه" (٢٨٠) واللفظ لمسلم، من حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

الصالحة متساوية، لكن أحدهما في أعلى درجات الجنان، والآخر في درجة أقل منه بكثير؛ يفرق بينهما ذكر الله جل جلاله، وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))^(١).
 فينبغي علينا أن نثقل موازيننا بذكر الله دائماً، وأن نثقلها بالقرآن، فالله الله في القرآن، والله نحن نشكو إلى الله حال أهل زماننا، وكأن هذا القرآن لم ينزله الله دستوراً مباركاً للأمة، لصالح دينها ودينها، وكأن الله أنزل هذا القرآن لكي يكون آخر ما يفكر فيه الناس وليس أوله، فالناس يفكرون في قوانين الغرب، وقوانين الشرق، وينسون القرآن ويتركونه تركاً، أين القرآن في بيوت المسلمين؟ كلُّ منا ينظر إلى بيته وعلى أي شيء أسَّسه، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَكْسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَكْسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَاقٍ جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩] فأبرك البيوت هي البيوت التي تجعل حلقة لكتاب الله كل يوم، هي البيوت التي يثقل ميزانها بمجلس يجتمع فيه الأب مع الأم مع الأولاد يتدارسون ولو سُنَّةً من سنن الرسول ﷺ ولو حديثاً واحداً أو آية واحدة، وكم بارك الله في الذرية بسبب هذه الأعمال اليسيرة.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فائز ذلك وثمرته أن يسعد العبد سعادةً ليس بعدها شقاء، والعيشة الراضية هي نعيم أهل الجنان، عيشة ما أطيها! وما أجملها! وما ألذها! حياة أبدية، نعيمها دائم، شبابها باق، صحة تدوم، وحياة ليس بعدها فناء، ليس بعدها مرض،

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٧٥)، وابن ماجه في "سننه" (٣٧٩٣)، وأحمد في "مسنده

"(١٧٦٨٠)، من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٧٠٠)

فلو أن العبد رئيسٌ أو ملكٌ أو في أعلى سلطةٍ ممكن أن يكون، وعنده أموالُ الأرض كلها فيأتيه المرضُ، أو أعداءٌ ينعصوا عليه حياته، أو الموتُ يقطع أمنيته.

لكن الأمر في الجنة ليس كذلك، في هذه العيشة المرضية ينادي رب العالمين سبحانه، يا أهل الجنة خلودٌ بلا موت، يا أهل الجنة إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تحيا فلا تموتوا أبداً.

فلو أن أحداً يبيع الصحة الدائمة، والشباب الدائم، ونعيم أبد الآباد، وهو آمنٌ مطمئنٌ بمعصيةٍ من معاصي الله عز وجل، أو بتقصيرٍ في فرض الله، هل يكون عاقلاً؟ فعلى العبد أن يغتنم أيامه، ويسارع ما استطاع، فإن الأيام تدفعنا دفعاً إلى آجالنا، فكل يوم ينتهي يُقرَّبنا من ربنا تعالى يوماً، فماذا قدمنا لذلك؟ وقد كان من سلفنا الصالح، من يقول "والله ما ندمت أشد الندم بمثل يوم تغرب على شمسهِ، نقص أجلي ولم يزد عملي"، وقد أورد الدينوري في المجالسة ما هو قريب اللفظ من هذا فروى عن بشر بن الحارث: مررتُ برجلٍ من العبَّادِ بالبصرة، وهو يبكي. فقلتُ: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على ما فرطتُ من عمري، وعلى يومٍ مضى من أجلي لم يتبين فيه عملي.^(١)

فإذا كان العبد ممن أنعم الله عليه بهالٍ؛ فليكفل يتيمًا، أو يبحث عن بابٍ من أبواب الخير، ينجيه الله به من كربات وأحوال يوم القيامة، ويثقل ميزانه،

وإنه مما يثقل ميزان العبد حسنُ الخلق، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإنَّ الله يبغض الفاحش البذي".^(٢) وورد

(١) ينظر "المجالسة وجواهر العلم" للدينوري (٣٣/٢)

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٤٦٤) والحميدي في "مسنده" (٣٩٤)، من حديث أبي الدرداء

رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٨٧٦)

بلفظ آخر عند الترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»^(١)

فينبغي علينا أن نتعامل مع الناس بمكارم الأخلاق، فلا نكذب على أحدٍ، ولا نخون أحداً، ولا نستهزئ بعبدٍ من عباد الله، فتعامل مع العباد بمثل ما نحب أن يعاملونا به، هذا أثقل شيء في ميزاننا يوم القيامة، بعد التوحيد وأداء الفرائض.

قال ربنا تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ خفت موازينه يعني ليس فيها حسنات، فيها شرٌّ ومنكراتٌ، وزنا وشربٌ خمرٍ وسباعٍ أغاني، وسفورٌ وتبرجٌ واختلاطٌ وغير ذلك من الآفات.

في قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ قولان لأهل العلم^(٢):

الأول: رأسه هاوية، يعني يهوي في النار على رأسه في الهاوية، نسأل الله العافية.

والذي يسقط في النار يهوي سبعين سنة حتى يصل إلى قعرها فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تَدْرُونَ مَا هَذَا؟"، قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ

(١) (صحيح)، أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٠٠٣) وأبو داود في "سننه" (٤٧٩٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٨٧٦)

(٢) ينظر "تتمة أضواء البيان" للشيخ عطية (٧٤ / ٩) حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَعَ الْخِلَافُ فِي الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِهِ: فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، هَلِ الْمُرَادُ بِأُمِّهِ مَا وَاهُ وَهِيَ النَّارُ، وَأَنَّ هَاوِيَةً مِنْ أَسْمَائِهَا، أَمْ الْمُرَادُ بِأُمِّهِ رَأْسُهُ وَأَنَّ هَاوِيَةً مِنْ أَهْوِيٍّ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ مُنْكَسًا رَأْسُهُ يَهْوِي فِي النَّارِ، وَقَدْ بَحَثَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ ذَلِكَ فِي دَفْعِ إِيهَامِ الْإِضْطِرَابِ، وَلَا يَبْعُدُ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ. فَتَكُونُ «أُمُّهُ هَاوِيَةٌ»، وَهِيَ النَّارُ وَيُلْقَى فِيهَا مُنْكَسًا يَهْوِي رَأْسُهُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا " (١) ، منذ سبعين سنةً وهذا الحجر لم يصل إلى النار إلا الآن ، فهذا العاصي عافانا الله والمسلمين ، يهوي في النار على أم رأسه ، وأثقل شيء في البدن حينما يسقط العبد والعباد بالله من مكان على الرأس ، هذا القول الأول .

والقول الثاني: مَعْنَاهُ فَأَمَّهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا هَاوِيَةً وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ (٢) وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْهَاوِيَةِ أُمُّهُ لِأَنَّهُ لَا مَأْوَى لَهُ غَيْرَهَا (٣) ، وكما أن الولد يهوي إلى أمه ، وكذلك هذا العبد الأبق على ربه يهوي إلى النار .

ثم قال ربنا معظماً لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾ ما أدراك ماهذه الهاوية .

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وفي الحديث وإن كان فيه ضعفٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " خَوْفُنِي بِالنَّارِ وَانْعَتْ لِي جَهَنَّمَ " . قَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِجَهَنَّمَ فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اخْمَرَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ ، فَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ ، لَا يُضِيءُ شَرُّهَا وَلَا يُطْفَأُ هَبُّهَا . (٤)

وقد روى البخاري ومسلمٌ في صحيحيهما من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي - ﷺ -

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٤) ، وابن حبان في "صحيحه" (٧٤٦٩) ، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٤٦٨ / ٨)

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٥٩٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، { فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ } « وَهُوَ مِثْلُهَا ، وَإِنَّمَا جَعَلَ النَّارَ أُمُّهُ ، لِأَنَّهَا صَارَتْ مَأْوَاهُ ، كَمَا تَوَوَّى الْمَرْأَةُ ابْنَهَا ، فَجَعَلَهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَأْوَى غَيْرَهَا ، مِمَّنْزِلَةً أُمُّ لَهُ »

(٤) (موضوع) ، أخرجه الطبراني في " المعجم الأوسط " (٢٥٨٣) ، وينظر " السلسلة الضعيفة " (٩١٠) .

- قال: "اشتكى النارُ إلى ربِّها، فقالت: رَبِّ! أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّأْنِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ"^(١).

فبردُ جهنم أحدُ صور عذابها، وقد نجَّى الله أهل الجنة من كل بردٍ وحرٍّ يؤذي، قال ربنا تعالى عن أهل الجنة: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، لا يرون حرًّا، ولا برداً، حياةً ما أجملها وأطيبها.

موقفان واقعيان يظهران شدة حر الدنيا وكيف يعظنا بحر الآخرة:

الموقف الأول: وأنا أسير بسيارتي رأيت إنساناً يمشي على الرصيف المجاور لطريق السيارات بطريقة سريعة جداً كأنه يرفع رجله من على الجمر، وقد اتخذت عادةً من هدي النبي ﷺ مما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»^(٢) أي أقف بسيارتي لمن أراه يمشي لعل الله أن ينجيني من النار بمثل هذا العمل، فوقفتُ وقلتُ: السلام عليكم، تعال أوصلك فأظهر أن غايته بعيدة، فقلت: أوصلك مائتين أو ثلاثمائة متر في طريقي عسى الله أن يرحمني بها، والله الذي لا إله غيره أول ما ركب السيارة - السيارة فيها تكيف والحمد لله رب العالمين - أسأل الله أن يديم علينا نعمه - رفع رجله الاثنين هكذا من على الأرض، وهو يلهث كأنه كاد أن يموت، نظرت إلى رجله فإذا بالنعل

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (٦١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٧٢٨) وأبو داود في "سننه" (١٦٦٣) وأحمد في "مسنده" (١١٢٩٣) وابن حبان في "صحيحه" (٥٤١٩)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

الذي يلبسه رق من المشي، كاد يقترب من أن يذوب تماماً، فسأله عن مدة سيره في شدة الحر فأخبرني أنه يسير منذ أربع ساعات، فقلت في نفسي: يا الله أربع ساعات يمشي في شدة الحر، فسأله ما الذي يجبرك على المشي الطويل في الحر الشديد، فأخبرني بحاله وقلة ماله، فوالله تأثرت به جداً، جلست أفكر بأي شيء أستطيع أن أساعده؟ وللأسف الشديد لم يكن معي أي شيء أعطيه إياه، فلما نزل ووصلت البيت حزنت جداً وقلت في نفسي لو كنت خلعت نعلي فأعطيته إياه، ثم تذكرت أن رجله صغيرة جداً، لعل نعلي لم يكن ليناسبه.

نحن لا نقدر على تحمل بعض حر الدنيا فكيف بحر جهنم - عافانا الله - فلا أقل للعبد من أن يعمل الصالحات حتى يُنجي نفسه من النار.

الموقف الثاني: حدثني أحد الأخوة - هو ثقة - عن أمرٍ حدث له، يقول: قمتُ بالليل وأنا مجهدٌ حتى أدخل الخلاء، وفي نيته أن ينتهي ثم يرجع لينام فيستريح، قال واختلطت المياه في السخان وأنا لا أشعر، فأصبحت المياه حارةً جداً، فلما سلط الماء على المحل ليستنجي، إذا بالماء يغلي كأنه أشد درجات الغليان، يقول والله صرخت بأعلى صوتي حتى استيقظ جميع من في البيت، خرجت وأنا لا أدري ماذا أقول، وجعل يردد ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول: والله كأني جلست ساعةً كاملةً كأن إنساناً قد أصابه الشيء في التنور.

فهذا بعض الماء الذي سُخِّنَ بنار الدنيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بَنُو آدَمَ (نار المصانع ونار آبار البترول) جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا فَضِّلَتْ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»^(١).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة

إن نار الدنيا كلها تجتمع واحد من سبعين، فنَجَّ نفسك ولا تُقَصِّر واستعن بالله، ولا تعجز كما قال رسول الله ﷺ، كما في صحيح مسلم عن شقيق عن عبد الله ﷺ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحَرِّقُونَهَا»^(١)

فمن علم قدر النار، وعظم هولها ما ينام الليل، كان الفضيل بن عياض رحمته الله إماماً عظيم القدر في العلم والعمل، وكان له ابنٌ جليلٌ اسمه علي، وكان هبةً من الله لأبيه، كان شاباً صغيراً و من الله عليه برقة في القلب، وكان أبوه رجلاً بكاءً، عالماً جليلاً عاملاً بكتاب الله وإماماً من أئمة السنة، كان إذا قرأ القرآن لم يستطع ابنه أن يتمالك نفسه، حتى قرأ الوالد ليلة سورة الأنعام في الصلاة، فقرأ آية فمات ابنه علي بسبب تلاوة هذه الآية، قيل لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِبَآئِتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) [الأنعام: ٢٧] خَرَّ ولده ميتاً.^(٣)

وكثيرٌ من سلفنا الصالح كان هذا دأبهم، يخافون النار، فيعملون أعمالاً صالحةً تنجيهم من النار، فينبغي على العبد أن يسارع، ويقدم لنفسه، روى ابن ماجه عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رحمته الله قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ،

رحمته الله، به.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، من حديث ابن مسعود

رحمته الله، به.

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٨ / ٤٤٢) عن إبراهيم بن بشارٍ يَقُولُ: الْآيَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ الْفَضْلِ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتُنَا نُرَدُّ﴾، مَعَ هَذَا الْمَوْضِعِ مَاتَ، وَكُنْتُ فِي مَنَ صَلَّيَ عَلَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ

وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)

فمن أنفق على بنتين له أو أختين يربيهن، يجعل الله سبحانه له بهما حجاباً من النار، نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا وإياكم النجاة من النار.
وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الانتهاء من تفسير سورة القارعة بحمد الله ومنه.

(١) (صحيح) وأخرجه ابن ماجه في "سننه" (٣٦٦٩)، وأحمد في "مسنده" (١٧٤٠٣) وأبو يعلى في "مسنده"

(١٧٦٤)، من حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٩٣)،

﴿سُورَةُ التَّكْوِيْنِ﴾

وهي سورة مكية^(١)، والسور المكية لها طابع خاص، فهي تُذكرك بالموت، والجنة، والنار، والاستعداد لليوم الآخر، تُذكرك بالله جلّ جلاله، آياتها تهزّ القلوب، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة الكوثر.

ومناسبتها لما قبلها:

أن في الأولى وصف القيامة وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار، وأن في هذه ذكر الجحيم وهي الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال في الحياة الدنيا، وهذا بعض أحوال الآخرة^(٢).

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنَكُمُ التَّكْوِيْنُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ
عَنِ النَّعِيْمِ ﴿٨﴾

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (١٥ / ٦١٤) أَخْرَجَ ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت بمكة سورة ﴿الْهَنَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾. وقال ابن عطية رحمه الله في " المحرر الوجيز " (٥ / ٥١٨) وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٢٨)

يقول الله تعالى: ﴿الْهَلِكُمْ التَّكَاثُرُ﴾^(١) أهلكم أي شغلكم، والإلهاء هو التباهي، يتباهى الإنسان بكثرة ماله، بكثرة أولاده، فعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْقَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟^(٢)

﴿الْهَلِكُمْ التَّكَاثُرُ﴾: هذا إخبارٌ من ربِّ العالمين جلَّ جلاله عن عموم الخلق، إلا من رَحِمَ الله أنهم يَشْغَلُهُم التكاثر بالحياة الدنيا، بالأموال، وبكثرة البنين والبنات، وبكثرة بناء القصور، وبكثرة متاع الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والمعنى: اعلّموا يا عباد الله أن الله عنده ثواباً كثيراً أعظم بكثيرٍ من هذه الدنيا بتمائمها، واعلموا أن ما بكم إليه، فأحسنوا المآب إليه، جلَّ جلاله، وروى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيٍّ، قَالَ: "كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿الْهَلِكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]"^(٣).

أي أنها كانت آيةً في القرآن الكريم ولكنها نُسِخَتْ، والمعنى أنه عندما يموت ويُهَالُ عليه التراب، انقطعت الأمانى والآمال، وانتهت الآجال وهكذا لن يملأ فاه إلا التراب، يعني يشبع

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٥٨)، والترمذي في "سننه" (٣٣٥٤)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٦٤٠٧)، من حديث مُطَرِّف بن عبد الله رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٣٩، و ٦٤٤٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه، به.

حتى يُوَضَعَ في التراب، ويتوبُّ الله على من تاب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدَّرْهَمُ، وَالْقَطِيفَةُ، وَالْحَمِيصَةُ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»^(١)، صدق رسول الله ﷺ.

أيها الأحبة الكرام، نحن في تيه وفي بُعدٍ، تَشْغَلُنَا الدنيا عن طاعة مولانا، شُغِلْنَا بِمَا خُلِقَ لَنَا عَمَّا خُلِقْنَا لَهُ، خَلَقَنَا اللهُ لعبادته وتوحيده وتكفّلَ لَنَا وَضَمِنَ الْأَرْزَاقَ، الْإِنْسَانَ إِلَّا مِنْ رَحِمِ اللهِ يَجْرِي وَرَاءَ الْأَرْزَاقِ - لَيْلَ نَهَارٍ - وَيَا لَيْتَهُ كَانَ بِالْحَلَالِ، إِنَّمَا يَجْرِي خَلْفَهَا جَرَى الْوَحُوشِ بِالْحَلَالِ وَبِالْحَرَامِ، «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدَّرْهَمُ، وَالْقَطِيفَةُ، وَالْحَمِيصَةُ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» وَإِنْ دَخَلْتَ فِي صَدْرِهِ شَوْكَةٌ مِنْ شِدَّةِ لَهْتِهِ خَلَفَ الْمَالِ لَا يَجِدُ الْوَقْتَ لِزَيْلِ الشَّوْكَةِ مِنْ صَدْرِهِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلُكم المباهاة والعدو عن طاعة الله جلّ جلاله .

وأيضاً معنى ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي أنساكم، فلا يتذكرو أحدُهم صلاة الجماعة، ولا يتذكرو القرآن المجيد الذي يرقُّ قلبه بقراءته، ولكي ينجو من عذاب الله يوم القيامة، أنساه إقباله ومحاربته عن هذه الحياة الدنيا برّه بوالديه، وأنساه تربية أولاده على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكل ما يتذكره أن يجمع من الدنيا فهو إنسانٌ جموعٌ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

قال قتادة رحمه الله: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: "كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي فُلَانٍ، وَنَحْنُ أَعَدُّ مِنْ بَنِي فُلَانٍ، وَهُمْ كُلُّ يَوْمٍ يَتَسَاقَطُونَ إِلَى آخِرِهِمْ، وَاللَّهُ مَا زَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى صَارُوا مِنْ أَهْلِ

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٨٨٦)، والترمذي في "سننه" (٢٣٧٥)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٣٥)،

من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل والكلبي، نَزَلَتْ فِي حَيَّينِ مِنْ قُرَيْشٍ: بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَبَنِي سَهْمٍ، تَعَادُوا وَتَكَاثَرُوا بِالسَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ كُلُّ حَيٍّ مِنْهُمْ نَحْنُ أَكْثَرُ سَيِّدًا، وَأَعَزَّ عَزِيزًا، وَأَعْظَمُ نَفَرًا، وَأَكْثَرُ عَائِدًا، فَكَثَرَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ سَهْمًا. ثُمَّ تَكَاثَرُوا بِالْأَمْوَاتِ، فَكَثَرَتْهُمْ سَهْمٌ، فَنَزَلَتْ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ بِأَحْيَائِكُمْ فَلَمْ تَرْضُوا حَتَّى زُرْتُمُ الْمُقَابِرَ مُفْتَخِرِينَ بِالْأَمْوَاتِ^(٢). وكلها أقوالٌ صحيحةٌ.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمُقَابِرَ﴾: فيا عبدَ الله أنت الآن تمشي في طريقٍ له نهاية، هذه الدنيا التي تحياها لها غايةٌ تنتهي عندها، متى هذه الغاية؟ الله أعلم، بعد خمسين أو ستين سنة، آجالٌ مضروبةٌ صَرَبَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَطْوَلِ النَّاسِ أَعْمَارًا وَأَطْوَلِ النَّاسِ أَعْمَالًا.

النبى ﷺ يقول: (خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ)^(٣)

إذا انتهى الأجل انتقلت إلى دارٍ ثانية، وهي القبر، ولكنك أيها الحبيب زائرٌ فيها، ليست هذه دارُ القرارِ، لا تعلمُ كم ستمكثُ في قبرك، ستين أو عشرَ سنواتٍ أو عشرين سنةً أو مليوناً، وذلك حتى تقوم الساعة، وعملك ملازمٌ لك في قبرك.

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٨٩٨)، وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣٠)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٤٩). قول ابن عباس لم أقف عليه، وقول مقاتل والكلبي ذكرهما الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٤٦٤)، والبخاري في "معالم التنزيل" (٨ / ٥١٥) وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣١) عن قتادة والكلبي.

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٣٠)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٤١٥)، من حديث عبد الرحمن

بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٨٣٦)

ولذلك فالعاقل هو الذي يجب عليه، أن يسارع في كل طاعة ما استطاع، ويعلم أنه لا أحد ينفعه حينما يأتي يوم القيامة فرداً، قال الله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٣] لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] ستكون وحدك لن يكون معك مديرُك الذي يقربُك، ولا زوجُك التي تحبُك، ولا أولادُك الذين أفنيت حياتك معهم، ولا مالك الذي جمعتَه من الحرام والربا، سيكون معك عملُك، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه - وهو حديث طويل - وفيه "فإنه يسمع خفق نعال أصحابه، إذا ولّوا عنه، فيأتيه آت فيقول: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلّى الله عليه وآله، فيتهره فيقول: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلّى الله عليه وآله، فيقول له: صدقت، ثم يأتيه آت حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: أبشرك بكرامة من الله ونعيم مُقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، مَنْ أنت؟ فيقول أنا عملك الصالح، كنت والله سريعاً في طاعة الله، بطيئاً عن معصية الله، فجزاك الله خيراً، ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا كان منزلُك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل لي قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسكن. ^(١)

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلّى الله عليه وآله قال: لو لا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٧٥٣)، وأحمد في "مسنده" (١٨٥٣٤)، وصححه الألباني في "

صحيح الجامع" (١٦٧٦)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، به.

القَبْرِ.^(١)

أي لو عرفتم شيئاً من علم الله الذي علّمه لرسوله ﷺ عن عذاب القبر ما دفتهم أحداً مات من أموات المسلمين، لذلك وجب علينا أن نتقي الله وأن نجعله نصب أعيننا .

﴿لَهُنَّكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ وهذا دأب أكثر الخلق إلا من رحم الله، يعلم أحدهم أن فلاناً بنى بيتاً فيقول لا بد أن أبني بيتاً حتى لا يكون أفضل مني ثم يذهب ويستدين من الربا ويسرق أموال الناس ويأخذ الرشوة، ويفعل ما حرم الله لأجل أن ينيى ويتفاخر.

الفرق بين التكاثر المذموم والتكاثر المحمود :

اعلم أن التكاثر في أمور الدنيا كله مذموم، لذلك أجهل الله عز وجل التكاثر ولم يفصل صوره، قد يكون التكاثر بالأولاد أو بالمال أو بالمنصب، أو بالعشيرة، أو بالقوة والعافية، أو بأي شيء يمكن أن يتكاثر الإنسان به من أمور الدنيا، وكله مذموم.

وهناك تكاثر محمود، وهو التنافس والتكاثر في الطاعة، ولذلك قال العلامة ابن القيم رحمه الله: " والتكاثر بأسباب السعادة الآخروية تكاثر لا يزال يُذكر بالله وبنعمه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا، وأحسن منه عملاً، وأغزر منه علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن الحوقه فيها كآثره بخصلة أخرى، وهو قادر على المكاثر بها. وليس هذا التكاثر مذموماً، ولا قادحاً في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة، واستباق الخيرات .

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٨) ، والنسائي في " المجتبى " (٢٠٥٨) وأحمد في " مسنده

" (١٢٠٧) ، من حديث أنس رضي الله عنه ، به .

ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره.

وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنه. فلما تبين لعمر مدى سبق أبي بكر له قال: «والله لا أسابقك إلى شيء أبداً»^(١).

فالتكاثر المحمود هو دأب الصالحين وأهل العلم والفضل، يتنافسون في السبق إلى الله عز وجل، وزيادة الحسنات، ورفع الدرجات، وأمثلة ذلك كثيرة.

ومن أمثلة ذلك ما كان يجري بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم من مكاثرة في الخير، فقد استشار النبي ﷺ أصحابه يوم بدر، فتكلم السادة الكرام من المهاجرين وأحسنوا، وتكلم الأنصار كذلك وأحسنوا.^(٢)

وكذلك حال أبي بكر مع عمر رضي الله عنهما، فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه قال: "أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك ما لا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»^(٣).

وكل هذا لأن أحدهم لا يريد أن يسبقه أحد إلى الله فلا يضيع وقتاً في غير طاعة.

قصة الشيخ الألباني مع النجار وباب المكتبة :

يقول الشيخ على الحلبي : وأنا أذكر مرة أنه نادى النجار -نجاراً من النجارين ناداه مرة-

(١) ينظر " التفسير القيم " لابن القيم تفسير سورة التكاثر (ص ٥٨٥).

(٢) أخرج القصة بطولها الطبري في " جامع البيان " (١١ / ٤١) ، والبيهقي في " دلائل النبوة " (٣ / ٣٤)

(٣) (حسن) أخرجه أبو داود في " سننه " (١٦٧٨) ، والترمذي في " سننه " (٣٦٧٥) ، والدارمي في " سننه "

(١٧٠١) وحسنه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٦٠٣٠)

قال له أريد أن تقلب باب المكتبة بدل من أن يفتح على الجهة اليمنى تجعله يفتح على الجهة الشمال. نظر إليه النجار - يعني ما السر؟ قال يا شيخ يعني يمين ولا شمال ما المشكلة؟ قال - يعني الشيخ الألباني: -تستطيع؟ قال -النجار - طبعاً أستطيع لكن قل لي ما السبب؟ قال -الشيخ الألباني -أنا وضعت مكتبي هنا فإذا كان الباب يفتح هكذا سأضطر أن أمشي خمس خطوات زائدة لما أصل إلى المكتب فأنا أخرج من المكتب خمس صلوات في اليوم واليلة وقد أخرج مشواراً لأغراض البيت أو لمحاضرة أو كذا فهذه سبع مرات كل مرة بين ذهاب وإياب هذه حوالي ربع ساعة أو ثلث ساعة ضاعت مني في الأسبوع كم سيضيع؟ في الشهر كم سيضيع؟ لكن إذا فعلنا هكذا تكون رجل في الباب ورجل على المكتب فلا أضيع وقتي ﷺ^(١)

﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] تنافس واجتهد واحضر دروس العلم، واعمل بقول النبي ﷺ: " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار "^(٢)

وَمِنْ بَرَكَةِ ذَلِكَ أَنَّكَ إِنْ تَمَنَيْتَ لَوْ سَاقَ اللَّهُ لَكَ الرِّزْقَ لَعَمِلْتَ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَلَوْ مَتَّ وَلَمْ يَقْدِرْ اللَّهُ لَكَ غِنًى تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِدَ مِثْلَ عَمَلِهِ بِالتَّامِّ فِي صَحِيفَتِكَ بِبَرَكَةِ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ. قال أهل العلم " يدرك المرءُ بِنِيَّتِهِ مالا يدركه بعمله "^(٣).

قال ربُّنا جلَّ جلاله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ في المراد بها قولان :

أحدهما: حتى زرتم المقابر فعَدَدْتُم من فيها من موتاكم، فيفخرون بأشرافهم الذين ماتوا

(١) ذكره الشيخ على الحلبي في شريط الهمّة في طلب العلم.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٢٥)، ومسلم في "صحيحه" (٨١٥)، من حديث ابن عمر

رضي الله عنهما، به.

(٣) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (١٨٩)

على القبائل الأخرى .

والقول الثاني: وهو الذي عليه أكثر اهل العلم - أي حتى أدرككم الموت على تلك الحال،

فصرتم في المقابر زوّاراً ترجعون منها إلى منازلكم من الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله. ^(١)

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ " لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، قال النبي ﷺ: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهّد في الدنيا، وتذكر الآخرة) " ^(٢).

وقال أيضاً: " قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه - (الران غطاء وحجاب على القلب

(١) ينظر " زاد المسير " لابن الجوزي (٤ / ٤٨٥)، والجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٤٥٠) .

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٤٥١)، و الحديث (**ضعيف**) بهذا اللفظ، أخرجه ابن ماجه في " سننه " (١٥٧١)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٢٩٧)، والحاكم في " المستدرک " (١٣٨٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»، وضعفه الألباني في " ضعيف الجامع " (٩٧٦٢)، وأصل الحديث أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٧٧) عن ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَصْحَابِ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيدِ إِلَّا فِي سِقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا»

بسبب الذنوب) - ، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخباراً للقلب بما إليه المصير، وقائمٌ له مقام التخويف والتحذير، وفي مشاهدة مَنْ احتضر، وزيارة قبر مَنْ مات من المسلمين معاناةٌ ومشاهدةٌ، فلذلك كان أبلغ من الأول، قال عليه السلام: (ليس الخبر كالمعاينة) رواه ابن عباس رضي الله عنهما^(١)، فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات، وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث - أي القبور - فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمةٌ، ونعوذ بالله من ذلك، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر وإذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه، لأنه في زيارته كمخاطبته حياً، ولو خاطبه حياً لكان الأدب استقباله بوجهه، فكذلك ها هنا، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقتٍ لم يحتسبه، وهولٍ لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال مَنْ مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تُغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٤٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٠٦٨)، والحاكم في "المستدرک" (٣٢٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس الخبر كالمعاينة." وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٣٧٤)، وورد الحديث من طريق أنس عند الطبراني في "المعجم الأوسط" (٦٩٤٣)، وهو صحيح كذلك ينظر "صحيح الجامع" للألباني (٥٣٧٣).

في القبور أجزاءهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذلّ اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفيهم - (المال الحديث) - وتلادهم - (المال القديم الذي ورثوه عن الآباء) - ، وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائرٌ إلى مصيرهم^(١).

وقفّة: أدلة عذاب القبر:

واستدل السادة العلماء بهذه الآية على عذاب القبر ونعيمه^(٢)، وعذاب القبر عليه أدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأهل السنة والجماعة على هذا الاعتقاد السليم^(٣)، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأُدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، مجرد ما أغرق قوم نوح أُدْخِلُوا نَارًا، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "...وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟" قَالَ: "فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ:

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٥٢)

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٢ / ٧٩) وأطال في الحديث عن ذلك، و"تنمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨١ / ٩).

(٣) ينظر شرح ابن أبي العزلى "العقيدة الطحاوية" (٣٩٦)

قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ قَالَ: "فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ" قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيْبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ» قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: "وَتُعَادَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَالْبَسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ" قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» قَالَ: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]

وقال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرْثُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].
وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]."^(٢)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَدَثَ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبَرُ سِتَّةً أَوْ خَمْسَةً أَوْ أَرْبَعَةً -

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٥٣٤)، وأبو داود في "سننه" (٤٧٥٣)، والحاكم في "المستدرک" (١٠٨)

(١٠٨)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٦٣٠).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٦٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٧١)، بنحوه، من حديث

البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

قَالَ: كَذَا كَانَ يَقُولُ الْجُرَيْرِيُّ - فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْقُبْرِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟ " قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاقِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنَّ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ.^(١)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ...، ثُمَّ أَشْأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَجْعَلُوا فِي بَنَرٍ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاذْهَبُوا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَكَلَّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا».^(٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ»

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٧)، وأحمد في " مسنده " (٢١٦٥٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، به .

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٧٣)، والنسائي في " الكبرى " (٢٢١٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، به .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ زَادَ غُندَرُ: «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ»^(١).

ونصه عند مسلم عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمُغْرَمِ» قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ مِنَ الْمُغْرَمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(٢).

وَعَنِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَذَكَرَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ الَّتِي يَفْتَنُ فِيهَا الْمَرْءُ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ الْمُسْلِمُونَ ضَجَّةً»^(٣).

واسمع لهذا الحديث - نسأل الله أن يسترنا ويلطف بنا - ، في الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ إِنْ الْمَيِّتُ إِذَا وَضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعْلِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي قَبْرِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٌ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ قَالَ فَيَقُولُ أَنْظِرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا فَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيَقُولَانِ لَا دَرِيَّتَ وَلَا تَلِيَّتَ ثُمَّ يَضْرِبُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٧٢)، والنسائي في " الكبرى " (١٣٢٤)، وأحمد في " مسنده " (٢٥٤١٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٣٢)، ومسلم في " صحيحه " (٥٨٩)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٧٣)، والنسائي في " الكبرى " (٢٣٩٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

أُذِّنِيهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ عَلَيْهَا غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ^(١) .

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح صحيح الامام مسلم: " اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الآية، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده، وقد ذكر مسلم هنا أحاديث كثيرة في إثبات عذاب القبر، وسماع النبي ﷺ صوت مَنْ يُعَذَّبُ فيه، وسماع الموتى قرع نعال دافئهم، وكلامه ﷺ لأهل القلب، وقوله ما أنتم بأسمع منهم، وسؤال المَلَكَيْنِ الميت وإقعادهما إياه وجوابه لهما، والفسح له في قبره، وعرض مقعده عليه بالغداة والعشي، وسَبَقَ معظم شرح هذا في كتاب الصلاة وكتاب الجنائز .

والمقصود أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر كما ذكرنا خلافاً للخوارج ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة، نفوا ذلك .

ثم المُعَذَّبُ عند أهل السنة الجسدُ بعينه أو بعضه بعد إعادة الروح إليه أو إلى جزء منه، وخالف فيه محمد بن جرير وعبد الله بن كرام وطائفة، فقالوا: لا يُشترط إعادة الروح، قال أصحابنا: هذا فاسدٌ لأنَّ الألم والإحساس إنما يكون في الحي، قال أصحابنا: ولا يمنع من ذلك كونُ الميت قد تفرقت أجزاؤه كما نشاهد في العادة أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله تعالى يُعيدُه للحشر وهو سبحانه وتعالى قادرٌ على ذلك، فكذا يُعيد الحياة إلى جزء منه

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٣٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٧٠)، من حديث أنس

أو أجزاءٍ وإن أكلته السباع والحيتان.

فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يُسأل ويُقعد ويُضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر؟

فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وآلاماً لأنحس نحن شيئاً منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلاماً لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جلسه منه، وكذا كان جبرائيل يأتي النبي ﷺ فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهرٌ جليٌّ، قال أصحابنا: وأما إقعاده المذكور في الحديث فيُحتمل أن يكون مختصاً بالمقبور دون المنبوذ ومن أكلته السباع والحيتان، وأما ضربه بالمطارق فلا يمتنع أن يُوسَّعَ له في قبره فيقعَد ويُضرب والله أعلم.^(١)

حكم زيارة القبور:

بقيت مسألة مهمة في قوله جل جلاله ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: وهي حكم زيارة القبور.^(٢)
أما للرجال: فمستحبة، فقد كان النبي ﷺ يزور القبور ويحثُّ على زيارتها، وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة»^(٣) إلى غير ذلك من الأحاديث.

(١) ينظر "شرح مسلم" للنووي (١٧ / ٢٠٠) باب عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلَيْهِ وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّذُ مِنْهُ.

(٢) تكلم على هذه المسألة الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٣ / ١٤٨) و الشيخ محمد بن صالح العثيمين في "القول المفيد شرح كتاب التوحيد" (١ / ٤٣١).

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٩٧٧)، وأبو داود في "سننه" (٣٦٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

وأما للنساء: فهي محل خلاف بين أهل العلم، فبعض أهل العلم ذهبوا إلى منع النساء من زيارة القبور، وذهب آخرون إلى جواز زيارة القبور للنساء إذا أُمِنَت الفتنة، وقد خرجت المرأة غير متزينة ولا متعطرة بل خرجت للاعتبار والاعتاظ.

أدلة المانعين :

استدل أهل العلم الذين منعوا النساء من زيارة القبور بأدلة، منها :

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ "لَعَنَ اللَّهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ"^(١).

٢ - حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قَبَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي مَيْتًا فَلَمَّا فَرَعْنَا انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَانصَرَفْنَا مَعَهُ فَلَمَّا حَادَى بَابَهُ وَقَفَ فَإِذَا نَحْنُ بِامْرَأَةٍ مُقْبِلَةٍ قَالَ: أَظُنُّهُ عَرَفَهَا فَلَمَّا ذَهَبَتْ إِذَا هِيَ فَاطِمَةُ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَخْرَجَكَ يَا فَاطِمَةُ مِنْ بَيْتِكَ؟ فَقَالَتْ: أَتَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَرَحَّمْتُ إِلَيْهِمْ مَيْتَهُمْ أَوْ عَزَيْتُهُمْ بِهِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَلَعَلَّكَ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُدَى؟ قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ وَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ فِيهَا مَا تَذْكُرُ قَالَ: لَوْ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُدَى فَذَكَرَ تَشْدِيدًا فِي ذَلِكَ فَسَأَلْتُ رَبِيعَةَ عَنِ الْكُدَى؟ فَقَالَ: الْقُبُورُ فِيمَا أَحْسَبُ.^(٢)

أدلة المبيحين :

وأما من قال بجواز ذلك فاستدلوا بأدلة، منها :

١ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود الطيالسي في "مسنده" (٤٧٨)، وأحمد في "مسنده" (٨٤٤٩)، من حديث عبد

الله بن عمرو رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥١٠٩).

(٢) (ضعيف) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣١٢٣)، وأبو يعلى في "مسنده" (٦٧٤٦)، من حديث عبد الله بن

عمرو رضي الله عنه، به. وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (٢٠٧٦).

بَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَحِدْ عِنْدَهُ بَوَائِنَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).

قالوا مر عليها ولم يقل هذا حرام، بل ذكرها بالصبر على المصيبة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُنْكِرْ عَلَى الْمَرْأَةِ قُعُودَهَا عِنْدَ الْقَبْرِ وَتَقْرِيرُهُ حُجَّةً"^(٢).

٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّيْ فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنَ لِي»^(٣).

٣ - وبحديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو حديث طويل، وفيه -: قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ - يَعْنِي إِذَا زُرْتُ الْقُبُورَ - قَالَ "قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَفْدِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْآحِقُونَ"^(٤).
وقد أورد النووي رحمه الله هذه الأدلة مستدلاً بها على أَنَّ زِيَارَتَهُنَّ لَيْسَتْ حَرَامًا^(٥).

جوابهم على أدلة المانعين :

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ " (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لعن الله زوارات القبور)، قَالَ: هَذَا

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٨٣)، ومسلم في " صحيحه " (٩٢٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

(٢) ينظر " فتح الباري " للحافظ ابن حجر (٣ / ١٤٨).

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٧٦)، وأبو داود في " سننه " (٣٢٣٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٧٤)، والنسائي في " المجتبى " (٢٠٣٧)، و " الكبرى " (

٢١٧٥)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به .

(٥) ينظر " المجموع شرح المذهب " للنووي (٣١١ / ٥)

حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ رَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُرْخَصَ النَّبِيُّ ﷺ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَلَمَّا رُخِصَ دَخَلَ فِي رِخَصَتِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَكْرَهُ زِيَارَةَ الْقُبُورِ لِلنِّسَاءِ لِقَلَّةِ صَبْرِهِنَّ وَكَثْرَةِ جَزَعِهِنَّ" اهـ^(١)

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم إن هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة ؛ لأن ((زوارات)) للمبالغة، ويمكن أن يقال: إن النساء إنما يُمنَعْنَ من إكثار الزيارة ؛ لما يؤدي إليه الإكثار من تضييع حقوق الزوج، والتبرج، والشهرة، والتشبه بمن يلازم القبور لتعظيمها، ولما يخاف عليها من الصراخ، وغير ذلك من المفسد، وعلى هذا يفرّق بين الزائرات والزوارات" اهـ^(٢)

الراجع من القولين :

والراجع - والله أعلم - أن المرأة إذا أمنت الفتنة، وإذا خرجت للعبرة والعظة، فإن زيارتها للقبور جائزة، كجوازها للرجال، وأما إذا كانت هناك محظورات كوجود فتنة أو اختلاط فيحرم زيارتها، والله أعلم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ۝﴾
(كلا) كلمة ردع وزجر وتوبيخ، والمعنى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر، وتعداد النعم على سبيل المكاثرة، وسوف تعلمون عاقبة هذا التكاثر، والانشغال به

(١) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (١٠٥٦)، وأحمد في "مسنده" (٨٤٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وحسنه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (١٠٥٦).

(٢) ينظر "المفهم شرح مسلم" (٦٣٣ / ٢)

عن طاعة الله.^(١)

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي : سوف تعلمون مَعْبَةً هذا الانشغال والتكاثر عن طاعة الله عز وجل ، إذا وُضِعْتُمْ في قبوركم ، أو يوم القيامة .
﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ بعد تهديدٍ ووعيدٌ بعد وعيدٍ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : " ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب " ^(٢) ، يعني نزل الأولى على عذاب القبر ، ونزل الثانية على عذاب النار في الآخرة .
وعن أبي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عِنْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » ^(٣) .

فأعدَّ لهذا جواباً بين يدي الله تعالى .

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

علمُ اليقين : هو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات ، التي لا يشك ولا يهاري

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٤ / ٦٠٠)

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٢ / ٤٥٤) ، وقد رجح ابن القيم رحمه الله هذا القول واستدل له من عدة أوجه ، ينظر " التفسير القيم " (ص : ٥٧٨) .

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤١٧) ، والدارمي في سننه (٥٥٤) ، وأبو يعلى الموصلي في " مسنده

" (٧٤٣٤) ، من حديث أبي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه ، به . وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (

في صحتها وثبوتها.^(١)

وقوله ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(٢) : أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فالعين هنا بمعنى النفس، كما في (جاء زيد عينه) أي نفسه.

وإنما كانت نفس اليقين، لأن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة، فوق سائر الانكشافات.

فهو أحق بأن يكون عين اليقين.^(٣)

فلو أن إنساناً لم يذهب إلى مكة أبداً، لكنه يعلم يقيناً أن الناس يذهبون إلى مكة - شرفها الله - ، وهناك البيت الحرام يطوف الناس به، وجاءت أدلة أحدثت عنده علماً، فهذا هو علم اليقين، وإذا ذهب إلى مكة ورأى الكعبة، صارت بمشاهدته قد بلغ رتبة عين اليقين .

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ وقال بعض أهل العلم أن علم اليقين المقصود بها هنا الموت، وهو مروي عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ^(٤)، لأنه هو حق اليقين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، والمعنى لو أن عندك علماً يقينياً جازماً بأن الموت ينتظرك، لن تشغل بالدنيا عن الله، بل ستستخدم الدنيا في طاعته، ولا مانع أن يكون المرء غنياً أو عنده توكيلات شركات عالمية، أو عنده مصانع، أو مؤسسات، لكنه لا يشغل بها عن الله أبداً، فلا يقصّر في فريضة، ولا يتبع الحرام من أجل المال، بل هو مطيعٌ لربه سواء كان غنياً أو فقيراً، وكان من سادات الصحابة رضي الله عنهم من كان غنياً، كعثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي جهّز جيش العسرة،^(٥)

(١) قاله ابن القيم في "التفسير القيم" (ص: ٥٧٧) .

(٢) ينظر "محاسن التأويل" للقاسمي (٩/ ٥٣٤)

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٣/ ٤٥٦) عن قتادة قوله (كنا نتحدث أنه الموت)، ونسبه السيوطي في "الدر المنثور" (١٥/ ٦٢١) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قوله .

(٤) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٧٠١)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٦٣٠)، وحسنه الشيخ الألباني في " (حسن)

وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي تصدق بالآلاف^(١)، وسعد بن الربيع رضي الله عنه^(٢)، والحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٣)، وعروة البارقي رضي الله عنه^(٤) وغيرهم، ولو وجدوا في زماننا لكانوا من أغنى

مشكاة المصابيح " (٦٠٧٣) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ حِينَ جَهَزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَتَنَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ».

(١) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف الزهري أحد العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدرين، وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام ينظر "سير أعلام النبلاء" (١ / ٦٨) للذهبي، ومن فضائله ما جاء عن الزهري، قال: «تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله على عهد رسول الله ﷺ أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفاً، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة» أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٦٦)، وينظر "البداية والنهاية" لابن كير (١٠ / ٢٥٣)، وقال الذهبي في "تاريخ الإسلام" (٢ / ٢١٠) قلت: كان تاجراً سعيداً ففتح عليه في التجارة وتمول، حتى إنه باع مرة أرضاً بأربعين ألف دينار فتصدق بها، وحمل على خمس مائة فرس في سبيل الله، ثم على خمس مائة راحلة.

(٢) هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير الأنصاري، من شهداء غزوة أحد. ينظر "سير أعلام النبلاء" (١ / ٣١٩) للذهبي، ومن فضائله ما أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٩٣٧) عن أنس رضي الله عنه، قال: قدّم عبد الرحمن بن عوف المدينة فأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن يتأصّف أهله وماله، فقال: عبد الرحمن بآرك الله لك في أهلِكَ ومالك ذلّني على السوق.

(٣) قال سعيد بن عبد العزيز: سمع الحسن بن عليّ رجلاً إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فأنصرف، فبعث بها إليه. قال المدائني: أحصن الحسن تسعين امرأة، وعن حارثته، عن عليّ: أنه خطب، وقال: إنّ الحسن قد جمع مالا، وهو يريد أن يقسمه بينكم، فحضر الناس، فقام الحسن، فقال: إنّما جمعتهم للفقراء. فقام نصف الناس ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣ / ٢٦٠)

(٤) هو عروة بن عيَّاش ابن أبي الجعد البارقى استعمله عمر على قضاء الكوفة وذلك قبل أن يستقضي شريحاً قال

الأغنياء في العالم، والعجب أنك لم تسمع أن أحداً منهم فاتته صلاةٌ لانشغاله بتجارةٍ، فينبغي على العبدِ منا أن يعلمَ قيمةَ الدنيا التي قال عنها رسولُ الله ﷺ "لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافراً مِن شربةِ ماءٍ"^(١).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ - أيضاً - : كُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّ عِلْمَ الْيَقِينِ، أَنَّ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ بَاعَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ"^(٢).

والمؤمن لا يصحُّ إيمانه حتى يؤمنَ باليومِ الآخرِ وما يشملُه مِنَ الموتِ ونعيمِ القبرِ وعذابه، والبعثِ والنشورِ والحشرِ، والميزانِ وتطاييرِ الصُّحُفِ والجنةِ والنارِ وغيرِ ذلك، وأنه عند البعثِ يزولُ عن كُلِّ مخلوقٍ الشكُّ، يُبْعَثُ الخلائقُ ويُعَايَنُ كُلُّ العبادِ أَعْمَالَهُمْ، ويعلمون أن ما كانوا فيه لِعِبٍّ وهزلٍ.

وقيل أيضاً: في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: لو تطايرت الصحف^(٣)، لك أن تتخيَّلَ هذا المنظرَ المهيبَ، الخلقُ جميعُهُم محشورون، مِنَ الأولين والآخرين، الإنسُ والجنُّ

عليّ بن المدينيّ من قَالَ فِيهِ عُرْوَةَ بن الجَعْدِ فَقَدْ أَخْطَأَ إِنَّمَا هُوَ عُرْوَةُ ابن أبي الجَعْدِ وَتُوِّفِي هَفِي حُدُودِ السَّبْعِينَ وَرَوَى لَهُ الْجُمَاعَةُ - وينظر " الوافي بالوفيات " للصفدي (١٩ / ٣٦٠) ومن فضائله ما أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦٤٢) عَنْ عُرْوَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً، فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ، فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ، وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ، فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ، وَكَانَ لَوْ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ»

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٢٠) والبخاري في "مسنده" (٨١٧٦)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٦٨٦)

(٢) أخرجه عبد الرزاق في " تفسيره " (٤٥٦ / ٣)، والطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٦٠٢)

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٤٥٦) وَقِيلَ: كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَيُّ لَوْ قَدْ تَطَايَرَتِ الصُّحُفُ، فَشَقِيَّ وَسَعِيدٌ.

والملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله، وأنت ترى الصحف تتطاير، أناس كرام يأخذون صحفهم بأيانهم، وأناس لئام بدّلوا نعمة الله كفرًا، يأخذون صحائف أعمالهم بشماله فهو إلى النار وبئس القرار، ومن أخذها بيمينه فهو إلى الجنان وإلى النعيم المقيم، فعندها يقيناً يعلم المرء ثمرة عمله.

وقفة: قال قتادة رحمه الله ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي الموت، أي لو أن عندنا علماً

يقيناً بالموت، لم ننشغل عن طاعة ربنا، فما قيمة التجارة التي تشغل العبد عن صلاة الجماعة، فعلى العبد أن يفتح هذا النور المبين يومياً وأن يجعل لنفسه ورداً يومياً منه إحياء لقلبه، كما قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

[الإسراء: ٨٢] فبعدنا عن كتاب الله تعالى يجعلنا في تيه وضلال.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿١﴾ هذا وعيد آخر، وقال أهل العلم^(١):

هذا مُضْمَنُ القسم، والمعنى: والله لَتَرَوُنَّ الجحيم، جواب قسم محذوف، وفيه زيادة وعيد وتهديد، أي والله لترون الجحيم في الآخرة.

يقول القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿١﴾ هذا وعيد آخر، وهو على إضمار القسم، أي لَتَرَوُنَّ الجحيم في الآخرة، والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار، وقيل: هو عام، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فهي للكفار دار، وللمؤمنين ممر، وفي الصحيح: قال ﷺ "يُوضَعُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ" الحديث "اهـ".

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٥٦)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥ / ٦٩٥).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٥٦)

أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحَرِّقُونَهَا»^(١)

نارٌ عظيمةٌ، وقودُها الناسُ والحجارةُ، قال علماء التفسير: حجارة الكبريت العظيمة الضخمة^(٢)، لا يقوى على عذابها أحدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾^(٣) [الفجر: ٢٥].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٤) هذه آية ختام السورة، وهي مَسْوَقةٌ للحث على شكرِ نعمِ الله على العبد، فوالله لو ظلمت تشكر نعمةً واحدةً من نعم الله ما استطعت، وصدق الله حيث قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وتدبر معي هذا الحديث العظيم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"^(٥)

يعني عافيناك، وغيرُك نائمٌ على فراشه، لا يستطيع أن يمشي، ونُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ، وغيرُك لا يستطيع أن يشربَ قطرةً مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، والحاكم في "مستدركه" (٨٧٥٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (١٠٥/٢٣) حَطَبُهَا الَّذِي يُوقَدُ عَلَى هَذِهِ النَّارِ بَنُو آدَمَ وَحِجَارَةُ الْكِبْرِيَّتِ.

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٥٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٣٦٤)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٥٣٩)

(مَعْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) أي يبيعونها برخصٍ .

وهذه قصة حقيقية ذكرها بعض العلماء المعاصرين حدثت في مصر، وذلك أن بعض الناس الأثرياء كان يمشي بسيارةً فارهيةً جداً، وإذا به يمشي أمام حديقة، والناس جالسون، وفيها فلاحون يأكلون فولاً وبصلًا وخبزاً، فأحد هؤلاء نظر إلى صاحب السيارة وقال: هؤلاء الناس هم الذين يعيشون حقاً، فلما سمع صاحب السيارة تلك الكلمة رجع بسيارته، فقال له: يا بُني أنا عندي الملايين لا أعلم عددها، وأنا متزوج من ثلاثين عاماً ولم أرزق بذرية، وأتمنى أن أكل الطعام الذي تأكل منه لكنني ممنوعٌ منه، وعندي القولون والسكر والضغط وجلس يُعدّد له الأمراض، ثم قال له: هل أنت متزوج؟ قال له: نعم، قال: هل عندك أولاد؟ قال: نعم أربعة، قال: فما رأيك أن تعطيني أولادك وصحتك وأعطيك الملايين والسيارات وما أملك؟ فرفض الرجل وقال أنا سعيدٌ بما أنا عليه !

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٨) [التكاثر: ٨] قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسأل؟ فإنّهما الأسودان والعدو حاضر، وسُئِفْنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا؟ قال: «إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»^(٩).
للعلماء في قوله «إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ» قولان:

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤١٢)، والترمذي في " سننه " (٢٣٠٤)، والنسائي في "

الكبرى" (١١٨٠٠)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٢) (حسن) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٣٥٧)، وحسنه الألباني في " صحيح وضعيف سنن الترمذي " (٧/

٣٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

الأول: أي سَتَفْتَحْ لكم الدنيا وستَبْسِطْ لكم الأرزاق، وسيُسِّرُ الله عليكم وتَسألون عنه.
والثاني: أي ستسألون عن هذا وإن كان ماءً وتمراً.

وروى الامام مسلم في صحيحه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرَحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَظَنَرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعَذِقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ، وَالْحُلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذِقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعَ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمُ هَذَا النَّعِيمُ"»

النَّعِيمُ هُوَ لَحْمٌ وَتَمْرٌ وَمَاءٌ، فَكَيْفَ بَنَّا الْيَوْمَ وَبَيْتُ كُلِّ وَاحِدٍ مَنَا فِيهِ مِنَ اللَّحْمِ أَوِ السَّمَكِ أَوْ سَائِرِ الْخَيْرَاتِ، وَلَوْ مَرَّ يَوْمٌ وَلَمْ تَطْبَخْ لَحْمًا أَوْ سَمَكًا أَوْ دَجَاجًا يَتَذَمَّرُ الْأَوْلَادُ. وَعَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنُ أُخْتِي «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ»، فَقُلْتُ يَا خَالَهَ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: " الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٠٣٨)، والترمذي في " سننه " (٢٣٦٩)، والحاكم في " المستدرک

" (٧١٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

كَانَتْ لَهُمْ مَنَاحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا " (١).
 وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، يَمْدَحُ بِهَا أَبَا هَيْثَمَ بْنِ التَّيْهَانِ:
 فَلَمْ أَرْ كَالِإِسْلَامِ عِزًّا لِأُمَّةٍ ... وَلَا مِثْلَ أَضْيَافِ الْإِرَاشِيِّ مَعَشَرًا
 نَبِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَفَارُوقٍ أُمَّةٍ ... وَخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ " (٢) فَرَعًا وَعَنْصَرًا
 فَوَافُوا لِمِيقَاتٍ وَقَدَّرَ قَضِيَّةً ... وَكَانَ قَضَاءُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدَّرًا
 إِلَى رَجُلٍ نَجْدِيَّارِي بِجُودِهِ ... سُمُوسَ الصُّحَى جُودًا وَمَجْدًا وَمَقْخَرًا
 وَفَارِسٍ خَلَقَ اللَّهُ فِي كُلِّ غَارَةٍ ... إِذَا لَبَسَ الْقَوْمُ الْحَدِيدَ الْمُسَمَّرَ " (٣)
 فَقَدَّى " (٤) وَحَيَّا ثُمَّ أَدْنَى قِرَاهُمْ ... فَلَمْ يَقْرِهِمْ إِلَّا سَمِينًا مَتَمَّرًا " (٥)
 مجمل ما ذكر أهل العلم في النعيم الذي سنسأل عنه:
 قال القرطبي رحمه الله: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي النَّعِيمِ الْمُسْتَوَّلِ عَنْهُ عَلَى عَشْرَةِ أَقْوَالٍ:
 أَحَدُهَا: الْأَمْنُ وَالصَّحَّةُ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (٦)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٥٦٧)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٧٢)، من حديث أم

المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) يقصد أم التيهان.

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٤٥٨ / ٢٢)

(٤) أي ذبح.

(٥) أي شاة كاملة مقطعة قطع صغيرة

(٦) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٦٠٤ / ٢٤) وذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤٧٧ / ٨) عن

ابن أبي حاتم بسنده، وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٣٣٢ / ٦) والبغوي في "معالم التنزيل" ()

الثاني: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(١) وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ)^(٢).

الثالث: الْإِدْرَاكُ بِحَوَاسِّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الاسراء: ٣٦]. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ^(٤) قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا، وَمَالًا وَوَلَدًا ...)، الْحَدِيثُ. خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ فِيهِ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥).

الرابع: مَلَاذُ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ قَالَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ^(٦) وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٧) يَدُلُّ عَلَيْهِ.

- يعني أن الأطعمة التي تشتهيها وتتلذذ بها ستسأل عنها يوم القيامة، فعن سهل بن معاذ بن

(١) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣٢) والبغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٥٢٠) بلفظ الصَّحَّةِ وَالْفَرَاغِ وَالْمَالِ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣٢)، وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٦٠٤) بسنده عن ابن عباس^(٨)، في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قَالَ: النَّعِيمُ: صِحَّةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَسْعَاءِ وَالْأَبْصَارِ، قَالَ: يَسْأَلُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِيمَ اسْتَعْمَلُوها، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٥٢٠).

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤٢٨)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٩٧) من حديث أبي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ^(٩)، بِهِ.

(٥) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣٢) وأخرجه الطبري في "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٠٥) بسنده عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(١٠)، يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ^(١١) فَأَطَعَمْنَاهُمْ رُطْبًا، وَسَقَيْنَاهُمْ مَاءً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ

أَنَسَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»^(١).

الخامس: أَنَّهُ الْغَدَاءُ وَالْعِشَاءُ، قَالَهُ الْحَسَنُ^(٢).

- فليس كل الناس يجدون غداءً وعشاءً، فقد مر بالصحابة أوقات يمر اليوم ولا يأكلون التمرة الواحدة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِيَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَّ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَكَانَ مِزْوَدِي تَمْرًا، فَكَانَ يَقَوُّنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنِيَّ، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي تَمْرَةٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتُ ...^(٣)

السادس: قَوْلُ مَكْحُولٍ الشَّامِيَّ -: أَنَّهُ شَبِعُ الْبُطُونِ وَبَارِدُ الشَّرَابِ، وَظِلَالُ الْمَسَاكِينِ، وَاعْتِدَالُ الْخَلْقِ، وَلَذَّةُ النَّوْمِ. وَرَوَاهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثُمَّ لَتُسْعَلَنَّ

(١) (حسن) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٠٢٣) والترمذي في "سننه" (٣٤٥٨) وابن ماجه في "سننه"

(٣٢٨٥) وحسنه الألباني في "إرواء الغليل" (١٩٨٩)

(٢) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٣٣٢ / ٦) وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤٧٧ / ٨)

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤٨٣) ومسلم في "صحيحه" (١٩٣٥) مطولا، ولفظ

البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِيَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَّ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَكَانَ مِزْوَدِي تَمْرًا، فَكَانَ يَقَوُّنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنِيَّ، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي تَمْرَةٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرْبِ، فَأَكَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَضَبَا ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ، فَرَحَلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ مَحْتَمًا فَلَمْ تُصِبْهُمَا

يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿يَعْنِي عَنْ شَبَعِ الْبُطُونِ ... فَذَكَرَهُ﴾. ذَكَرَهُ الْمَأُورِدِيُّ، وَقَالَ: وَهَذَا السُّؤَالُ يَعُمُّ الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ، إِلَّا أَنَّ سَوَالَ الْمُؤْمِنِ تَبَشِيرٌ بِأَنْ يُجْمَعَ لَهُ بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ. وَسَوَالَ الْكَافِرِ تَقْرِيعٌ أَنْ قَابَلَ نَعِيمَ الدُّنْيَا بِالْكَفْرِ وَالْمُعْصِيَةِ.^(١)

وَقَالَ قَوْمٌ: هَذَا السُّؤَالُ عَنْ كُلِّ نِعْمَةٍ، إِنَّمَا يَكُونُ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَكَلْتُهَا مَعَكَ فِي بَيْتِ أَبِي أَهْيَشِمَ بْنِ التَّيْهَانِ، مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ وَلَحْمٍ وَبُسْرٍ قَدْ ذَنَّبَ، وَمَاءٍ عَذْبٍ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي نُسْأَلُ عَنْهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ذَلِكَ لِلْكَفَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَهَلْ نُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ﴾) [سبأ: ١٧].^(٢)

ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو نَصْرِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: لَا يُسْأَلُ عَنِ النَّعِيمِ إِلَّا أَهْلُ النَّارِ.^(٣) وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْبَارِ: أَنَّ الْكُلَّ يُسْأَلُونَ، وَلَكِنَّ سَوَالَ الْكُفَّارِ تَوْبِيخٌ، لِأَنَّهُ قَدْ تَرَكَ الشُّكْرَ. وَسَوَالَ الْمُؤْمِنِ سَوَالٌ تَشْرِيفٍ، لِأَنَّهُ شَكَرَ. وَهَذَا النَّعِيمُ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ. قُلْتُ: هَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ، لِأَنَّ اللَّفْظَ يَعُمُّ. وَقَدْ ذَكَرَ الْفَرَيَابِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ لَذَّةِ الدُّنْيَا.^(٤) وَرَوَى أَبُو الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَعُدَّ عَلَيْهِ: سَأَلْتَنِي فَلَانَهُ أَنْ

(١) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٣٣٢ / ٦) وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤٧٧ / ٨) وذكره

عن زيد بن أسلم مرفوعاً، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الواحدي في "البيسط" (٢٨٤ / ٢٤) والرازي في "التفسير الكبير" (٧٧ / ٣٢)

(٣) ذكره الواحدي في "البيسط" (٢٨٦ / ٢٤) و"الوسيط" (٥٤٩ / ٤) والرازي في "التفسير الكبير" (٧٧ / ٣٢)

والشوكاني في "فتح القدير" (٦٩٦ / ٥)

(٤) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٦١٠ / ٢٤) و"الورع" للإمام أحمد (٦٢٦). وذكره ابن كثير في "تفسير

القرآن العظيم" (٤٧٧ / ٨)

أَزْوَجَهَا، فَيَسْمِيهَا بِاسْمِهَا، فَرَوَّجَتْكَهَا^(١).

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ؟ فَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، وَسُيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا. قَالَ: (إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ)^(٢). وَعَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي الْعَبْدَ - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُنْصَحْ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُرْوِيكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ)^(٣) قَالَ: حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَوْفِقُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ جَاهِهِ كَمَا يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ .) وَالْجَاهُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا لَا مُحَالَةٌ^(٤).
وَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ صِحَّةُ الْبَدَنِ، وَطِيبُ النَّفْسِ^(٥). وَهُوَ الْقَوْلُ السَّابِعُ.

وَقِيلَ: النَّوْمُ مَعَ الْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ^(٦). وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ مَا سَدَّ الْجُوعَ وَسَتَرَ الْعَوْرَةَ مِنْ خَشَنِ الطَّعَامِ وَاللَّبَاسِ، لَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنِ النَّعِيمِ. قَالَ:

(١) أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٤٢٩٠) عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: مَنْ عَبْدُ اللَّهِ؟ قُلْتُ: ابْنُ قَيْسٍ، قَالَ: مَرْحَبًا يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُعِدُّ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً حَتَّى يُعِدُّ عَلَيْهِ فِيمَا يُعِدُّ يَقُولُ: سَأَلْتَنِي فَلَانَّةُ أَنْ أَرْوَّجَكَهَا بِاسْمِهَا فَرَوَّجَتْكَهَا. هَذَا مَوْقُوفٌ وَقَدْ رَوِيَ مَرْفُوعًا.

(٢) (حسن لغيره) وأخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٥٧) وصححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي".

(٣) تقدم تخريجه

(٤) (موضوع) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٤٤٨) و"الصغير" (١٨) والدينوري في "المجالسة

"(١١)، وينظر "السلسلة الضعيفة" للألباني (٢٦٩٠) قال ابن حبان: وهذا لا أصل له من كلام رسول

الله ﷺ

(٥) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤ / ٤٤٣).

(٦) لم أقف عليه إلا عند القرطبي.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَسْكَنَ آدَمَ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩ - ١١٨].^(١) فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْأَرْبَعَةُ - مَا يَسِدُّ بِهِ الْجُوعَ، وَمَا يَدْفَعُ بِهِ الْعَطَشَ، وَمَا يَسْتَكِنُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ، وَيَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ - لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِطْلَاقِ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِ فِيهَا، لِأَنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ مِنْهَا. قُلْتُ: وَنَحْوُ هَذَا ذَكَرَهُ الْقُسَيْرِيُّ أَبُو نَصْرٍ، قَالَ: إِنَّ مِمَّا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِهِ، وَطَعَامًا يُقِيمُ صُلْبَهُ، وَمَكَانًا يُكْنِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. قُلْتُ: وَهَذَا مُنْتَزَعٌ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ) خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٢). وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: جِلْفُ الْخُبْزِ: لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ.^(٣)

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: النَّعِيمُ: هُوَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].^(٤)

وَقَالَ الْحَسَنُ أَيْضًا وَالْمُقَضَّلُ: هُوَ تَخْفِيفُ الشَّرَائِعِ، وَتَيْسِيرُ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا

(١) ينظر " التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد " لابن عبد البر (٢٤ / ٣٤٠)

(٢) (ضعيف) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٣٤١) والحاكم في " المستدرک " (٨٠٧٩)، وقد حكم عليه بالنعارة الشيخ الألباني في " السلسلة الضعيفة " (١٠٦٣)

(٣) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٣٤١) (عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ. وَسَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ سَلِيمَانَ بْنَ سَلَمٍ الْبَلْخِيِّ يَقُولُ: قَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: جِلْفُ الْخُبْزِ يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ. وَضَعَفَهُ الْأَبَانِي فِي " مشكاة المصابيح " (٥١٨٦)

(٤) ينظر " النكت والعيون " للهاوردي (٦ / ٣٣٢)، و " معالم التنزيل " للبخوي (٨ / ٥٢١).

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].^(١)

قُلْتُ: وَكُلُّ هَذِهِ نِعَمٌ، فَيَسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهَا: هَلْ شَكَرَ ذَلِكَ أَمْ كَفَرَ. وَالْأَقْوَالُ الْمُتَقَدِّمَةُ أَظْهَرُ.

والله أعلم".^(٢)

اللهم اجعلنا من الذين إذا انعم عليهم شكروا، وإذا قُدِّرَ عليهم بلاءٌ صبروا.

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تم تفسير سورة التكاثر بحمد الله ومنتته.

(١) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦ / ٣٣٢)، وذكره البغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٥٢١)، والشعلبي

في "الكشف والبيان" (١٠ / ٢٨٢) عن الحسين بن الفضل، والرازي في "التفسير الكبير" (٣٢ / ٧٨)

عن الحسن بن الفضل.

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٥٩).

﴿سُورَةُ الْعَصْرِ﴾

هى مكية، وآياتها ثلاث^(١)، نزلت بعد سورة الشرح.

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر فى السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة الله، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار، وموقعة له فى الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شر نفسه، فكأن هذا تعليل لما سلف - إلى أنه ذكر فى السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه، وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التهلكة، وهنا ذكر من تجمل بأجل الطباع، فأمن بالله وعمل الصالحات، وتواصى مع إخوانه على الاستمسك بعرى الحق، والاصطبار على مكارهه.^(٢)

هذه السورة العظيمة على قَصَرِها وقِلَّةِ آياتها، لكنها سورة عظيمةٌ وجيزةٌ جامعةٌ، حتى قال الامام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "لو تدبَّرَ النَّاسُ هذه السورة لَكَفَّتْهُمْ"، وفي رواية أخرى قال: "لو ما أنزل الله تعالى إلا هذه السورة، لكفت العباد".^(٣)

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في " الدر المنثور " (١٥ / ٦٤٠) أَخْرَجَ ابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ بمكة.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٣٣)

(٣) هذا الأثر مما اشتهر نقله عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، ولم أقف له على سند، واستفاضته بين العلماء تغني عن سنده، وقد نقله النووي في " مقدمة المجموع " (١ / ١٢)، وابن تيمية في " الاستقامة " (٢ / ٢٥٩) وقال عقبها: وَهُوَ كَمَا قَالَ . وابن القيم في " مفتاح دار السعادة " (١ / ٥٦)، وابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (١ / ٢٠٢) وغيرهم .

يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ
وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

يقول الله جل جلاله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ اختلف المفسرون في المراد بالعصر في الآية على أقوال منها:

القول الأول: المراد بالعصر: الدهر، وهو الزمان^(١)، وقيل: الليل والنهار، وهذه الساعات وهذه الليالي وهذه الأيام، يُقَسِّمُ الله تعالى به لما فيه من آياتِ باهراتٍ، تدلُّ على قدرة الله القدير جلَّ جلاله، ففي هذه الأيام وهذه الليالي يُعْزُّ رَبُّكَ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويُغْنِي ويُفْقِرُ وَيُصِحِّحُ وَيُمَرِّضُ وَيُعَافِي وَيَبْتَلِي ويُحْدِثُ آياتٍ باهراتٍ تدلُّ على وحدانية الله جلَّ جلاله وعلى قدرته العظيمة.

فَيُقَسِّمُ الله تعالى في هذا الزمان بالعصر، وذلك أنه اشرف ما يكون بالنسبة للإنسان، وأعلى شيء بالنسبة للإنسان أيامه ولياليه، العاقل هو الذي يبادر الزمان بالعمل الصالح دائماً ابداً، ولذلك أقسم الله تعالى بالعصر، أقسم بالأيام التي يدمرها العباد تدميراً، يدمر العباد ساعاتٍ طوالاً ولا يحرصون على اغتنامها، ففي هذا العصر وهذه الأيام والليالي أناسٌ يرتفعون إلى أعلى درجات الجنان، وآخرون - عافانا الله وإياكم - يهوون إلى أسفل دركات النيران، لذلك يقسم ربنا

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٦١٢): الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ يُقَالَ: إِنَّ رَبَّنَا أَقْسَمَ بِالْعَصْرِ وَالْعَصْرُ اسْمٌ لِلدَّهْرِ، وَهُوَ الْعَشِيُّ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَمْ يُخَصَّصْ مِمَّا شَمَلَهُ هَذَا الْإِسْمُ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، فَكُلُّ مَا لَزِمَهُ هَذَا الْإِسْمُ، فَدَاخِلٌ فِيهِمَا أَقْسَمَ بِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ". اهـ

بالعصر لما فيه من باهرات تدل على وحدانية رب الأرض والسموات.

والقول الثاني: المراد بالعصر: زمانُ النبي محمد ﷺ^(١)، يقسم الله تعالى بهذا الزمان الشريف، أشرف زمان في الدنيا كلها، هو زمانُ النبي محمد ﷺ، هو عصره، وحياته، وأيامه ولياليه، وذلك لما تفضل الله به على هذه الدنيا ببعثته الشريفة المباركة، فبصر الله به من العمى وهدى الله به من الضلالة، وجمع الله تعالى به بعد الشتات، وأعزَّ الله تعالى به بعد الذلة، وكثر الله به بعد القلة، ﷺ.

القول الثالث: أن الله تعالى أقسم بالعصر، أي بصلاة العصر^(٢)، وأيضاً أقسم الله بوقت العصر، وذلك لما للصلاة العصر من مكانة عليّة.

فضل صلاة العصر :

- ١ - هي الصلاة الوسطى قال الله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ويجب على العبد أن يعتني بصلاة العصر خاصة، نعم جميع الصلوات يجب أن يعتني بها ولكنَّ الفجر والعصر لهما مزية خاصة.
- ٢ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»^(٣) وتر أي نقص.
- ٣ - وعن أبي المليح، قال: كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَزْوَةٍ فِي يَوْمٍ ذِي غَيْمٍ، فَقَالَ: بَكَّرُوا بِصَلَاةِ

(١) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦ / ٣٣٣)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٩ / ٣١٠)

(٢) وهو قول مقاتل ابن سليمان كما في "زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ٢٢٥)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨ / ٥٢٢)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٦٤).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٥٢)، ومسلم في "صحيحه" (١٣٦٢)، من حديث ابن عمر

العَصْرِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ»^(١).
فهذا التهاون السيء الذي تراه من المسلمين في الصلوات، أمرٌ مشينٌ فيجب على العبد أن يعتني بالصلوات.

٤ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢)، والبردان هما صلاة العصر وصلاة الصبح، لان الجوىكون فيهما بردا.

٥ - وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَصَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ -، ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].^(٣)

﴿وَالْعَصْرُ﴾^(٤): يقسم الله بالزمان وبالعم وبالدهر، على أمرٍ جليلٍ:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٥): بعض السادة العلماء^(٦) قال: المقصود بالإنسان هنا هو الإنسان الكافر، كما قال جل جلاله ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٧) [الزمر: ١٥]

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٥٣)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٣٦٣)، وابن ماجه في "سننه" (٦٩٤)، من حديث أبي مليح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٧٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٣٨٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٥٤)، ومسلم في "صحيحه" (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٤) قاله البغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٥٢٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢ / ٤٦٥).

والأصح: التعميم،^(١) والمعنى كل بني آدم في خَسَارٍ، إلا المستثنى في هذه السورة العظيمة،

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ جنس الانسان في خسارة، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع، ﴿إِلَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

سبب القسم بالعصر والضحي:

هنا قول جميل للرازي رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢) - وينبغي للعبد ان يحذر عند قراءة تفسيره، وفيه كلام من درر الكلام، وفيه عقيدة فاسدة، ففي بعض الأمور مأخذ كبيرة جداً عليه -، لكن من ضمن كلامه النفيس قال: " والسبب فيه وجوه: أحدها: أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحي، لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة، فإن كل بكرة - أي كل صباح - كأنها القيامة، يخرجون من القبور، وتصير الأموات أحياء، وتقام الموازين، وكل عشية تشبه تحريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل، ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسراً فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر "

- يعني لماذا أقسم ربنا بالعصر وأقسم بالضحي؟ يقول: لأن كل واحد فيهما له تذكير بيوم

القيامة، الناس يكونون نياماً فإذا جاء وقت الضحي انتشر الناس، استيقظوا وذهبوا لمعاشهم، هذا مسافر، وهذا ذاهب لعمله، وهذا لدراسته، وهكذا ينتشر الناس ويذهبون لمعاشهم الذي فيه صلاح أمر دينهم ودنياهم، فهو يذكر الناس بيوم القيامة يخرجون من القبور ويصير الأموات أحياء، وتقام الموازين، وكذلك كل عشية يشبهون بخراب الدنيا فالناس يهدؤون وينامون

(١) وهو ما رجحه الطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٦١٢) أخرجه عن علي و مجاهد..، ورجحه أيضاً الماوردي في " النكت والعيون " (٦ / ٣٣٣) .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٦٧٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٨)، من حديث أبي

فيذكر بخراب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحدٍ من هاتين الحالتين شاهدٌ عدلٌ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: " **وثانيها** : قال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إنها أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحدٍ ما هو حقه فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين، فكذا نقول والعصر أي عصر الدنيا قد دنت القيامة و (أنت) بعدُ لم تستعد، وتعلم أنك تُسأل غداً عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك، وتُسأل في معاملتك مع الخلق، وكلُّ أحدٍ من المظلومين يدعي ما عليك فإذا أنت خاسرٌ، ونظيره ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

وثالثها : أن هذا الوقت مُعْظَمٌ، والدليل عليه قوله عليه السلام (من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة) فكما أقسم في حق الرابع بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابع، وبشَّرَ الرسولُ أن أمره إلى الإقبال، وههنا في حق الخاسر توعد أنه أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعضُ النهارِ باقٍ، فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة، وعن بعض السلف: تعلمت معنى السورة من بائعِ الثلج، كان يصيحُ ويقولُ: ارحموا من يذوب رأس ماله ارحموا من يذوب رأس ماله، فقلت: هذا معنى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسرٌ^(١).

قصة طريفة يرويها الحافظ ابن كثير :

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ " ذكروا أن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بُعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال: لقد أنزل عليه سورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ، فقال: وما هي ؟ فقال: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ

(١) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٢ / ٨١)

إِنْسَنَ لَفِي حُسْرٍ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾، ففكر مسيلمته هنيهة، ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائر ك حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أي أعلم أنك تكذب "اهـ".^(١)

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قال أهل العلم: نجاة بني آدم وأسباب السعادة وأسباب النجاة، هي هذه الأربع، لذلك من جميل ما قال الرازي أيضاً: "هذه الآية فيها وعيدٌ شديدٌ وذلك لأنه تعالى حكم بالחסارِ على جميع الناس، إلا مَنْ كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فدلّ ذلك على أنّ النجاة مُعلّقةٌ بمجموع هذه الأمور، وإنّه كما يلزم المُكلّف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمورٌ، منها: الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يُحبّ له ما يجب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]".^(٢)

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٧٩). وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما في " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر (٣ / ٢). وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله في " الإصابة " (٣ / ٢٢٥): أن عمر بن العاص أرسله رسول الله ﷺ إلى البحرين وتوفي رسول الله ﷺ وهو هناك وأنه مر على مسيلمته وأنه أعطاه الأمان ثم قال له: إن محمدا أرسل في جسيم الأمر وأرسلت في المحقرات. فذكر نحو القصة، وعزاه لابن شاهين في الصحابة، فعلى هذا يكون ما جاء هنا بعد إسلام عمرو بن العاص وليس قبل إسلامه، والله أعلم.

(٢) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٢ / ٨٥)

إِذَا هَذِهِ الْأَرْبَعُ فِي قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لَا يَصْحُحُ مِنْ عَبْدٍ دِينٌ وَلَا إِيْمَانٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَيَحَقِّقَ الْإِيْمَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، هَذَا مَعْنَى الْإِيْمَانِ، وَكَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، الشَّهَادَتَانِ، وَالصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ وَالزَّكَاةُ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ، وَكَذَلِكَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَأَنْفُسِهِمْ مِنْ صَلَاةٍ وَاسْتِغْفَارٍ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلِغَيْرِهِمْ، أَيْ يَسَارِعُ فِي تَقْدِيمِ الصَّالِحَاتِ لِلْغَيْرِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ مَالٌ جَادَ بِهِ لِلْآخَرِينَ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ عَلَّمَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَشْفَعَ شَفَاعَةً حَسَنَةً شَفَعَ، وَيُحَسِّنُ إِلَى الْجَارِ وَهَكَذَا، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَشْمَلُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يَزَكِي بِهَا نَفْسَهُ، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يَزَكِي بِهَا غَيْرَهُ، مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى الْهُدَى وَالتَّذْكِيرِ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهَذِهِ مَا أَجْمَلَهَا وَأَعْلَاهَا.

وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١) كَلَامٌ نَفِيسٌ، حَيْثُ قَالَ: " قَالَ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَّتْهُمْ".

وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمَرَاتِبَ أَرْبَعَةَ، وَبِاسْتِكْمَالِهَا يَحْصُلُ لِلشَّخْصِ غَايَةُ كَمَالِهِ:

أَحَدُهَا: مَعْرِفَةُ الْحَقِّ. **الثَّانِيَّة:** عَمَلُهُ بِهِ. **الثَّالِثَةُ:** تَعْلِيمُهُ مِنْ لَا يَحْسُنُهُ. **الرَّابِعَةُ:** صَبْرُهُ عَلَى تَعَلُّمِهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَتَعْلِيمِهِ.

فَذَكَرَ تَعَالَى الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ:

(١) يَنْظُرُ "مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ" لِابْنِ الْقَيْمِ (١/٥٦).

* فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْعَصْرِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ فِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهم الذين عرفوا الحقَّ وصدقوا به. فهذه مرتبة.

* ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهم الذين عملوا بما علموا من الحقَّ، فهذه مرتبة أخرى.

* ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وصَّى به بعضهم بعضاً؛ تعليماً وإرشاداً، فهذه مرتبة ثالثة.

* ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ صبروا على الحقَّ، ووصَّى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال؛ فإنَّ الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكتملاً لغيره، وكمالُه بإصلاح قُوَّته العلمية والعملية، فصالحُ القوة العلمية بالإيمان، وصالحُ القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة -على اختصارها- هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً من كلِّ ما سواه، شافياً من كلِّ داءٍ، هادياً إلى كلِّ خير". اهـ

هذا نهاية الكمال، إنسانٌ هذبَ نفسه وزكاها وطهرها، وآمن بربه، وآمن بنبیه، وآمن بالرسول، وآمن بالكتب، وآمن بما أمره الله بالإيمان به، ثم عمل بمقتضى هذا الإيمان، الإيَّان يأمره بالصلاة فيصلي، ويأمره بغض البصر فيغض بصره، ويأمره بحسن الخلق فيحسن خلقه.

لذلك هذا يدلُّك على ضلال الطوائف التي تقول إن العمل الصالح ليس شرطاً لدخول الجنة، بل إن بعض الطوائف تقول: يكفي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما عليك أن تسجد للصنم وأن تكفر بالله، قيل لهم: فما الدليل؟ قالوا: قال الله تعالى: ﴿فَأَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا

جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: ٨٥].

وهذا ضلالٌ، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ

أَجَرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال هنا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

فجعل العمل الصالح شرطاً للإيمان، وأحياناً يكون واجباً للإيمان، وأحياناً يكون مستحباً للإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١)

وهذه الثلاث جمعت قول اللسان (لا اله الا الله)، وعمل الجوارح (إمطة الأذى عن الطريق)، وعمل القلب (الحياء)، العمل الصالح لا بد فيه من لسان يتكلم ويعمل بالصالحات، وقلب يعتقد عقيدة صالحة، وجوارح تعمل، لا بد أن تجتمع حتى يصح إيمان العبد.

فهذه السورة الكريمة على قصرها من أجمع ما يكون من الخير بحذافيره، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ تواصوا بالحق أي الثبات على الدين كما كان يوصي رسول الله ﷺ أصحابه، يقول: "لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا؛ وَإِنْ قُطِعَتْ أَوْ حُرِّقَتْ"^(٢)، والشرك هذا يَحِبُّطُ العمل كله، فلا تترك دينك أبداً، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: "أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩)، ومسلم في "صحيحه" (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (حسن) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، به. وحسنه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (ص ٣٨).

عِبَادَتِكَ" ^(١) العبد دائماً أبداً في حاجةٍ لإعانةٍ حتى يَسْتَوِرَّ على هذا الإيمان، وهذا العملِ الصالحِ.

وقفة: قول الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي يوصي بعضهم بعضاً بالتقوى، كان السلفُ الصالحُ يُرسلُ الواحدُ منهم إلى إخوانه: "أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبلُ غيرها، ولا يرحمُ إلا أهلها، ولا يُثبُّ إلا عليها، فإن الواعظين بها كثيرٌ، والعاملين بها قليلٌ، جعلنا الله وإياك من المتقين" ^(٢).

وكان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يرسل إلى ولده يقول: "يا بني أوصيك بتقوى الله فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جازاه، ومن شكره زاده، اجعل التقوى نُصْبَ عينيك وجلاء قلبك، واعلم أنه لا عملَ لمن لا نيةَ له، ولا أجرَ لمن لا خشيةَ له، ولا مالَ لمن لا رفقَ له، ولا جديداً لمن لا خلقَ له" ^(٣).

ولنَحذرَ الرِّسائلَ السيئةَ التي تأتي على وسائلِ الاتصالِ، وترسلُها للآخرين، فيَحْرُمُ على العبدِ أن يُرسلَ رسائلَ تنافي الشرعَ، فبعضُ الناسِ يرسلُ إليك رسائلَ ويقولُ أقسمُ عليك بالله العظيم ألا تغلقَ الجوالَ حتى تُرسلَها، انظرَ للرسالةِ إن كانت خيراً أُرسلَها وإن كانت شراً لا تُفكرَ بها، حتى لو أقسمَ عليك أيماً مُغلَظَةً.

واعلم أخي أن قولَ الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يدلُّك على أنك عندما ترى أخاك، يُثبِّتُك على الحقِّ خاصةً بزماننا هذا - وما أبرك مثل هذا - فتمسك به، فعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٥٢٢) والنسائي في "الكبرى" (١٠٠٤٧)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (١٣٦٢).

(٢) وهي وصية عمر بن عبد العزيز لرجل. ينظر "حلية الأولياء" لأبي نعيم (٥ / ٢٦٧)، و "تفسير ابن رجب الحنبلي" (١ / ٣٦٦).

(٣) ينظر "الخطب والمواظ" لأبي عبيد (١ / ٢٠٤)، و "تفسير ابن رجب الحنبلي" (١ / ٣٦٦).

قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ.^(١)

سَلَّ عَنْ إِخْوَانِكَ لَعْلَ أَخًا مِنْ إِخْوَانِكَ أَصَابَهُ فَتَوَرَّ فَتَشَّطَّهُ، أَوْ أَصَابَهُ ذَنْبٌ فَتَشَجَّعَهُ عَلَى التَّوْبَةِ، أَوْ أَصَابَهُ تَقْصِيرٌ فَتَأْخُذْ بِيَدِهِ إِلَى اللَّهِ، وَهَكَذَا كَانَ سَلْفُنَا الصَّالِح.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَفَقَّدُ إِخْوَانَهُ فِي الصَّلَاةِ فَقَدَّ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي حَتْمَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ غَدَا إِلَى السُّوقِ، وَمَسَكَنُ سُلَيْمَانَ بَيْنَ السُّوقِ وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَمَرَّ عَلَى الشَّفَاءِ أُمَّ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ لَهَا: لَمْ أَرِ سُلَيْمَانَ فِي الصُّبْحِ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَاتَ يُصَلِّي، فَعَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَقَالَ عُمَرُ: لِأَنِّي أَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ فِي الْجَمَاعَةِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُومَ لَيْلَةً.^(٢)

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ الْكَرَامُ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ نَسْتَفِيدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ يُوصِيَ بَعْضُنَا بَعْضًا بِالْحَقِّ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِهِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣] وَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دَلِّكُمْ وَصَلِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣] فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَوَاصَى بِهَذَا الْخَيْرِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أَيِ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ عَنِ الْحَرَامِ، وَكَذَلِكَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ، ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ تَسْتَكْمِلُ بِهَا دَرَجَاتِ الصَّبْرِ، وَتَكُونُ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ قَالَ رَبُّنَا فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].^(٣)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨١) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) أخرجه مالك في "الموطأ" (٣٤٧)، من حديث أبي بكر بن سليمان بن أبي حَتْمَةَ، به.

(٣) ينظر "مدارج السالكين" لابن القيم (٢/ ١٥٦)، في فصل أنواع الصبر.

الصبرُ على الطاعة : توصيني وأوصيك، اصبرْ لنصلي الفجر جماعة، واصبرْ لتعلم العلم، واحذر أن ترد على الوالد أو الوالدة، أو أن تخسر أمك أو أبك، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] يقول سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضي الله عنه : لما أسلمت جاءت إلي أمي وكنت من أبرَّ إخواني بها، فقالت لي يا سعدُ ألم تزعم أن ربك يأمرُك بطاعة والديك؟ قالت وانا أمك أمرك أن تترك هذا الدين، قال: لا والله لا أترك ديني أبداً، قالت إذن والله لا آكل ولا شربُ حتى أموت، فتعيرُكَ العربُ وتقول يا قاتلَ أمِّك، قال يا أمي تعلمين والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً على أن أترك ديني والله ما تركته، فكلي أو لا تأكلي فأكلت بعد ثلاث أيام^(١).

صبرٌ على الدين : ومن جميل ما يُذكرُ في الثبات والاستمساك بالدين أمام المغريات والفتن، قصة عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه عن أبي رافعٍ، قال:

وَجَهَّ عُمَرُ جَيْشًا إِلَى الرُّومِ، فَأَسْرَوْا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ.

فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ، وَأَعْطِيكَ نِصْفَ مُلْكِي؟ قَالَ: لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مُلْكِ الْعَرَبِ مَا رَجَعْتُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

قَالَ: إِذَا أَقْتُلُكَ. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. فَأَمَرَ بِهِ، فَصَلَبَ، وَقَالَ لِلرَّمَّةِ: ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ بَدَنِهِ. وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ، وَيَأْبَى، فَأَنْزَلَهُ، وَدَعَا بِقَدْرٍ، فَصَبَّ فِيهَا مَاءً حَتَّى احْتَرَقَتْ، وَدَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنْ

(١) (حسن) أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" ص (٣٥٢)، وينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١/ ١٠١)، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر (٢٠/ ٣٣١)، و"البداية والنهاية" لابن كثير (١١/ ٢٩٢) ونسبه ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٦/ ٣٣٧) والسيوطي في "الدر المنثور" (١١/ ٦٤٦) لأبي يعلى والطبراني وابن مردويه.

المُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا، فَأُلْقِيَ فِيهَا، وَهُوَ يَعْزِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ، وَهُوَ يَأْبَى، ثُمَّ بَكَى .
 فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: إِنَّهُ بَكَى . فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ جَزَعَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ . مَا أَبْكَاك؟ قَالَ: قُلْتُ: هِيَ نَفْسٌ
 وَاحِدَةٌ تُلْقَى السَّاعَةَ فَتَذْهَبُ، فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ شَعْرِي أَنْفُسٌ تُلْقَى فِي النَّارِ فِي اللَّهِ .
 فَقَالَ لَهُ الطَّاعِغَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي، وَأُخْلِيَ عَنْكَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَعَنْ جَمِيعِ الْأَسَارَى؟
 قَالَ: نَعَمْ . فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، وَقَدِمَ بِالْأَسَارَى عَلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ . فَقَالَ عُمَرُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ
 مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ ابْنِ حُدَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ . فَقَبَّلَ رَأْسَهُ^(١)

اليوم أولادنا يذهبون للدراسة في أمريكا يرجعون بعقيدة مختلفة، بدين غير الإسلام، لذلك
 الذي يسافر لا بد أن يكون مُحْصَنًا، علمياً وعملياً، الشاهد أنه رغم أنه عَرَضَهُ لجميع المغريات
 التي يحلُم بها أيُّ شابٍّ ما نظر إليها بل نظر إلى دينه الذي هو أعزُّ شيءٍ، فاستمسك به،
 ﴿فَاسْتَمْسَكَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]

صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله،

والصبرُ الثالثُ: صبرٌ على أقدارِ الله المؤلمة، أحياناً يصيبُ الإنسانَ مصيبةٌ في ماله أو في
 نفسه، أو في بعض أحبابه، فيذْكَرُ بالصبر، أن الله ما أخذ وله ما أعطى وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار .
 فهذه السورةُ على وجازتها لكنها فعلاً سورةٌ عظيمة، جامعةٌ لخصالِ الخيرِ كُلِّه، أسألُ الله أن
 ينفعني وإياكم بالقرآن الكريم .

وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

تم الانتهاء من تفسير سورة العصر بحول الله وقوته .

(١) ينظر " سير أعلام النبلاء " للذهبي (٢ / ١٤)، و " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر (١٠٦ / ٩٥) .

﴿سُورَةُ الْهُمَزَةِ﴾

هي سورة مكية بإجماع^(١)، وآياتها تسع.

ومناسبتها لما قبلها :

أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله - ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال.^(٢)

يقول الله تعالى في هذه السورة العظيمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ (٣) كَلَّا ۚ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ (٤) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخُطْمَةُ ۚ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ ۚ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۚ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۚ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۚ (٩)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الويل: هو وعيدٌ بالعذاب الشديد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، والويل أيضاً: شدة العذاب^(٣)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو وادي في جهنم يسيل فيه صديد أهل

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (١٥ / ٦٤٤) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزلت

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ بمكة . ، وقال ابن عطية رحمه الله في " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " (٥ /

٥٢١) وهي مكية بلا خلاف .

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٣٦)

(٣) ذكره الثعلبي في " الكشف والبيان " (١ / ٢٢٤) والواحدي في " البسيط " (٣ / ٩٠) والبغوي في " معالم

التنزيل " (١ / ١١٥) ، ورواه الطبري " في جامع البيان " (٢ / ١٦٣)

النار، والعياذ بالله^(١)، فالويل: وعيدٌ شديدٌ، وعذابٌ أليمٌ، ووادي في جهنم، كل ذلك ثابتٌ عن السلف الصالح رحمهم الله^(٢)، وقد ورد حديثٌ مرفوعٌ بهذا المعنى، ولا يصح عن النبي - ﷺ - فيه شيء^(٣)، ولكنه وعيدٌ شديدٌ بالعذاب^(٤).

وأما قوله تعالى ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾، فقد اختلف أهل العلم في "الهمزة واللمزة" هل هما بمعنى واحد أم مختلفان؟ على قولين:

أحدهما: أنها مختلفان، ثم فيهما سبعة أقوال:

أحدها: أن الهمزة المغتاب، واللمزة العيَّاب، قاله ابن عباس.

والثاني: أن الهمزة، الذي يهمز الإنسان في وجهه، واللمزة يلزمه إذا أدبر عنه، قاله الحسن وعطاء وأبو العالية.

والثالث: أن الهمزة، الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنساب الناس، قاله مجاهد.

(١) أخرجه يحيى بن سلام في "تفسيره" (١ / ٢٣٠)، وذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٤ / ٢٣)، و

السيوطي في "الدر المنثور" (١٥ / ١٧٨)

(٢) ينظر "أضواء البيان" (٧ / ٤٥٠)

(٣) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣١٦٤)، وأحمد في "مسنده" (١١٧١٢)، والحاكم في "المستدرک"

(٣٩١٩)، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٦١٤٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَيْلٌ أَوَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ.

(٤) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٦١٦) الْوَادِي يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِمْ، وقال

الرازي رحمه الله في "التفسير الكبير" (٣٢ / ٨٦) الويل لفظه الدم والسخط وهي كلمة كل مكروب

يتولون فيدعوا بالويل، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٦٧) و"تتمة أضواء البيان"

لعطية سالم (٩ / ٩٩)

والرابع: أن الهمزة بالعين، واللمزة باللسان، قاله قتادة .

والخامس: أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه، قاله

ابن زيد.

والسادس: أن الهمزة، الذي يهمز بلسانه، واللمزة الذي يلزم بعينه، قاله سفيان الثوري.

والسابع: أن الهمزة المغتاب، واللمزة الطاعن، على الإنسان في وجهه، قاله مقاتل.

والقول الثاني: أن الهمزة العيَّابُ الطعان، واللمزة مثله، وأصل الهمز واللمز الدفع، قاله

ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس، ويغضهم ، قال الشاعر

... إذا لقيتك عن كره تكاشرني ... وإن تغيبت كنت الهامز للهمزة ...

وقال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربةٌ راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الطعن، وإظهار العيب، ثم هذا على قسمين: فإنه إما أن يكون بالجد، كما يكون عند الحسد والحقد، وإما أن يكون بالهزل، كما يكون عند السخرية والإضحاك، وكلُّ واحدٍ من القسمين، إما أن يكون في أمرٍ يتعلق بالدين، وهو ما يتعلق بالصورة، أو المشي، أو الجلوس، وأنواعه كثيرةٌ، وهي غير مضبوطة، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة، قد يكون لحاضرٍ، وقد يكون لغائبٍ، وعلى التقديرين، فقد يكون باللفظ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما، وكل ذلك داخلٌ تحت النهي والزجر، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوعٌ لماذا، فما كان اللفظ موضوعاً له، كان منهياً بحسب اللفظ، ومالم يكن اللفظ موضوعاً له، كان داخلاً تحت النهي بحسب القياس الجلي، ولما كان الرسول أعظم الناس منصباً في الدين، كان الطعن فيه

عظيماً عند الله فلا جرم قال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١)

وفي الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(٢). فهذا تعريف الغيبة، على ما ذكره رسول الله - ﷺ -، نسأل الله العافية والسلامة.

وبعضهم قال العكس، الهمزة الذي يهمز بلسانه، واللمزة، الذي يلمز بعينه.^(٣)

والمقصود: الهمزة هو العياب الطعان، واللمزة هو الذي يعيب الناس في أعراضهم، ويغتابهم ويتقصصهم، إما بقول، وإما بإشارة، وإما بتمثيل هيئة، فذلك حرّم ربّ العالمين الخوض في أعراض المسلمين، قال ربنا تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال - جل جلاله - ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]

فالغيبة من كبائر الذنوب، ومع ذلك يستهين بها الخلق، فإذا كان يعيب بشيء ليس فيه،

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٢ / ٨٧)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٩ / ٢٢٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٦٨)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٨٩)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٧٤)، والترمذي في "سننه" (١٩٣٤) والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٤٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) قال الثعلبي في "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (١٠ / ٢٨٦) قال سفيان الثوري رحمته الله: يهمز بلسانه ويلمز بعينه.

فذلك بهتانٌ عظيمٌ، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ، وروى أبو داود في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ هُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَحْمُسُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ، قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ حُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ " ^(١).

نسأل الله العافية، يقعون في أعراض المسلمين، ويأكلون لحوم الناس، بالغيبة، والنميمة، والكذب، والزور، والبهتان، وهذه تجارة أغلب الناس اليوم، وهو أن يفترى الكذب على الآخرين، لا يروج أمره عند الناس إلا بهذا، يغتاب المسلمين، ويستهزئ بهم، فلذلك يأتي هذا يوم القيامة وله أظفارٌ من نُحَاسٍ، في منتهى القوة، يحمش بها صدره ووجهه، نعوذ بالله من الخزي والخذلان، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ» ^(٢).

الويل للهمَّاز اللَّمَّاز، كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه، وكما روى الإمام

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٨٧٨)، واللفظ له، وأحمد في "مسنده" (١٣٣٤٠)، والخرائطي في "مساوئ الأخلاق" (١٨٧)، من حديث أنس رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٥٣٣).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥١٤٣) ومسلم في "صحيحه" (٢٥٦٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

أبو داود في سننه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا " أي قصيرة " ، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِهَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «مَا أَحَبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا»^(١).

أي أن هذه الكلمة، لو كان لها رائحةٌ، واختلطت بهاء البحر لغيرته، ما بالك ب كلام أكثر الناس، - إلا من رحم الله -، كذبٍ، وزورٍ، وبهتانٍ، ورميٍ بالبلاء، والناس منه برآءٌ، حسبنا الله ونعم الوكيل، ماذا تكون ثمرة هذه الكلمة السيئة، قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ولذلك احذر لسانك، وكفّه عليك، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، حَتَّى بَلَغَ قَوْلُهُ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لُمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(٢).

كثيرٌ من المجالس تجدها والعياذ بالله خاويةٌ من ذكر الله، ومليئةٌ بالقليل والقال، أو برامج تلفزيون أو برامج على النت، والناس يجلسون يستمتعون والعياذ بالله.

فلا يجوز للعبد أن يجلس في مجلسٍ يُتَّقَصُّ فيه من مسلمٍ، فإما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويُذَكِّرُ الناس بالخير، أو يقوم فينصرف من هذا المجلس، وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٨٧٥) ، والترمذي في " سننه " (٢٥٠٢) ، وأحمد في " مسنده "

(٢٥٥٦٠) وصححه قال الألباني في " صحيح الجامع " (٥١٤٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا به .

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٦١٦) ، وابن ماجه في " سننه " (٣٩٧٣) ، وأحمد في " مسنده "

(٢٢٠١٦) ، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤١٣) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به .

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^(١). نعوذ بالله من الفضيحة، ونسأل الله العافية، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢).

فعنوان السعادة الصمت، إما أن تقول خيراً، أو تصمت، فقد أمرت أن تسكت عن اللغو والشر، الكلام الذي يستوي بين الحلال والحرام أمرت أن تتركه، ما بالك بالحرام، والغيبة، والنميمة، والكذب، والزور، والبهتان، ولذلك قال النبي ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَهَ فِي عَرَضِ الْمُسْلِمِ بَغَيْرِ حَقٍّ"^(٣)، لذلك وجب علينا أن نُمسِكَ أَلْسِنَتَنَا، ونحذر، حتى لا نكون من أهل هذه الآية العظيمة، "وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُزَّةٌ"، والله يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقد ذكر الله تعالى صفة هذا الهمَّاز اللَّمَّاز، الذي يعيهم، ويتقصهم بقوله وبفعله، فقال:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾^(٤)، هذه صفته، لسانه ليس له إلا القيل والقال، وفلانته فعلت،

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٨٨٠)، وأحمد في "مسنده" (١٩٧٧٦)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧٤٢٣) والخرائطي في "مساوئ الأخلاق" (١٩٠)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٣٤٠)، وهذا لفظ أبي داود عن أبي هريرة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠١٨) ومسلم في "صحيحه" (٤٧)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٨٧٦)، وأحمد في "مسنده" (١٦٥١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢٠٣) وهذا لفظ أبي داود، عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وفلانٌ فعل، ويتنقص الناس، ويظن أنه أفضل من الناس، وأنه خيرٌ منهم، وكذلك من صفته، أنه يَنْكَبُ على وجهه، إقبالاً على الدنيا، منهمكاً فيها، يجمع المال من حِلِّه ومن حرامه، قال الله تعالى عنه:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ﴾ أي جمع مالا وعدّه مرة بعد مرة، كم بلغ ماله ، مليون ومائة، مليون ومائة وخمسين، وهكذا لأن قلبه أُشْرِبَ حُبَّ الدنيا، ويظن أن هذا المال سببُ بقائه في الحياة الدنيا، وسببُ خلوده والعياذ بالله، "يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ".

وقفة: وما أكثر هذا الصنف من الخلق ، - نسأل الله العافية -، يهرع وراء المال، ويلهث خلفه، فعن مطرفٍ، عن أبيه، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَهْلَكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ " .^(١)

ولذلك فإن كثيراً من أصحاب الأموال، الذين افتخروا بأموالهم على عباد الله، عذبه الله بهذا المال، - إلا من رحم الله -، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ قَبَعَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَعَاتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، ماذا كان رده ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٢٩٥٨)، وأحمد في " مسنده" (١٦٣٢٧) وهذا لفظه مسلم عن

مطرف عن أبيه، به .

أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ [القصص: ٧٨]، أي على علم بصنوف التجارات وطرق تحصيلها، فلم يُسند النعمة إلى المنعم - جل جلاله -، فلذلك إذا أنعم الله عليك بنعمة فاشكر المنعم سبحانه، وإذا قدر الله محنةً - عافانا الله وإياك - فاصبر، فالأمر كلها بقدر الله وأمره، فالعيب كل العيب أن يجمع المرء المال من الحلال، والحرام، والعيب كل العيب، إن جمعه من الحلال ألا ينفقه في طاعة الله - عز وجل -، بل فيما حرم الله - عز وجل -، وهذا هو الإثم المبين، وأما أن يجمع الإنسان المال من الحلال، وينفقه في طاعة الله، فهنيئاً له، ويكفي أن نبي الله سليمان عليه السلام كان من أغنى عباد الله على الإطلاق، وكان الصحابة الكرام منهم من كان سيداً من سادات أغنياء العالم، كعبد الرحمن بن عوف وغيره، خلقه الله غنياً، من الله عليهم بأموال كثيرة، ذكروا في قسمة ميراث عبد الرحمن بن عوف أنهم كانوا يكسرون الذهب بالفؤوس^(١)، وكم من مرة يشاطر رب العالمين ماله كله، وليس خمسين ألفاً، ولا مائة ألف، ولا النصف، بل كان يزيد عن خمسمائة ألف، ويخرجه الله - عز وجل - ويبدأ من جديد في التجارة فيريح.

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(٢)، وهذه نظرة أكثر عباد الله - عز وجل - ينظرون إلى المال أنه سبب عزهم، وسبب بقائهم، ومكانتهم بين الناس، على قدر ما معهم من مال، هكذا يظنون ويغفلون عن قول الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فليسارع في التقوى، ويصلح أمره، ويصلح ما بينه وبين ربه، وما بينه وبين

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٣ / ١٠١)، وذكره الزيلعي في "نصب الراية" (٤ / ١١٣) و ابن الجوزي في "صفوة الصفوة" ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. قال ابن سعد في "الطبقات" أخبرنا عَارِمُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ تَوَقَّى وَكَانَ فِيهَا تَرَكَ ذهب قطع بالفؤوس حَتَّى مَحَلَّتْ أَيْدِي الرِّجَالِ مِنْهُ وَتَرَكَ أَرْبَعَ نِسْوَةٍ فَأَخْرَجَتْ امْرَأَةً مِنْ ثَمْنِهَا بِتْنَيْنِ أَلْفًا.

العباد، لذلك ذم الله هذا الصنف من الخلق،

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ردع وزجر، يُنْبَذَنَّ أي يُجمع رأسه إلى رجليه ويُطرح في النار طرْحاً، نعوذ بالله من النار، يُطرح بكل قوة، والحطمة هي النار، وسميت حطمة لأنها تحطم كل شيء يقع فيها، تحطم العظام، وتحطم بدن العبد الذي يلقي فيها، حتى تحرق بدنه كله، ثم تطلع على قلبه^(١)، هذا القلب الأثيم الذي ما عرف الله، وما وحده، ولم يتصف بمكارم الأخلاق، ولا بالدين، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾، معظماً ومفخماً لشأنها، ثم قال:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ﴾ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا»^(٢). وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ".

والمعنى أنه لو جمعت نار الدنيا كلها، بما فيها من آبار البترول، وجميع النار التي يوقدها العباد، تكون جزء، من سبعين جزء، من نار جهنم، "قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فَضَلَّتْ عَلَيْهِنَ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا"^(٣).

وقفة: احذر النار، واجتهد أن تجعل لك عملاً، يُنجيك الله به من النار، فعن أم سلمة رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ أَوْ ذَوَاتَا قَرَابَةٍ، فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ حَتَّى

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٧٣).

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، والحاكم في "المستدرک" (٨٧٥٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٤٣)، وهذا لفظه مسلم، من حديث أم سلمة رضي الله عنها، به.

يَكْفِيَهُمَا أَوْ يَغْنِيَهُمَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ كَانَتْ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(١).

ما أعظم ربحك، أن الله - عزو جل - يمن عليك بأختين، أو ابنتين - تتقي الله فيهما - وتربيهن على الخير، والهدى، والصلاح، وتنفق عليهما من الحلال هنئالك، ضمنت الجنة، - إن شاء الله - وقال - ﷺ - ، «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ (يعني رُزِقَ من هذه البنات بشيء) كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٢).

لو بنت واحدة، هنئاً لك، بابٌ من أبواب الجنة فتحه الله لك إن أحسنتَ إليها، وغاية الإحسان أن تربيهما على كتاب الله، وسنة رسوله - ﷺ -، وتربيهما على العفاف، وتذكرها بأعجاد سلفها الصالح، من أمهات المؤمنين، أمها فاطمة، وعائشة، وخديجة، وتذكرها بهؤلاء النسوة الكرام أمهات المؤمنين، وغيرهن من سادات النساء، وتربيهما على الدين المبارك تكن لك حجاباً من النار.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي تحرقهم حرقاً، حتى تطلع على قلوبهم فتحرقها، - نسأل الله العافية -

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾ أي مطبقة مُغلقة، روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه، قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ بِكُلِّ جَبَّارٍ وَكُلِّ شَيْطَانٍ، وَكُلِّ مَنْ كَانَ يَخَافُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا شَرَّهُ، فَأَوْثَقُوا فِي الْحَدِيدِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ أَوْصَدَوْهَا عَلَيْهِمْ، أَي: أَطْبَقُوهَا قَالَ: فَلَا وَاللَّهِ لَا تَسْقُرُ أَقْدَامُهُمْ عَلَى قَرَارٍ أَبَدًا، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَنْظُرُونَ فِيهَا إِلَى أَدِيمٍ سَمَاءٍ أَبَدًا، وَلَا وَاللَّهِ لَا

(١) (حسن لغره) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٦٥١٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٩٣٨)، وحسنه

الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٩٧٤).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٢٩)

تَلْتَقِي جُفُونُ أَعْيُنِهِمْ عَلَى غَمَضٍ نَوْمٍ أَبَدًا، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَدُوقُونَ فِيهَا بَارِدَ شَرَابٍ أَبَدًا^(١).

فهذا مآل عباد الله - الظلمة الأشرار - ، الذين حادوا عن طريق الله، وحادوا عن طريق رسله، فعليك أن تتخلق بخلق الكرام، فاحذر أن تغتاب مسلماً، أو أن تلمز عبداً، أو أن تشير بعينك على فلانٍ أو بلسانك عليه، انتقاصاً منه، أو أن تشير بيدك، كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا " تَعْنِي قَصِيرَةً " ، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَزَجَتْ بِإِءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ»^(٢).

عليك أن تتخلق بأخلاق نبيك محمد ﷺ - ، فأكرم الناس على الله أحسنهم خلقاً، وأثقل الناس في الميزان، أحسنهم أخلاقاً^(٣)، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً^(٤)، وإذا آتاك الله من هذا المال فعليك أن تعلم أنه عاريةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، أنت والمال سترجعان إلى الله، وسيؤخذ منك، فاستمتع به، وغاية المتعة أن تفرج عن مكروبٍ، وتيسر أمر عسيرٍ، وتذلل الصعاب لشابٍ وتكفل يتيماً، وتطعم ذا رحمٍ، وتصل إخوانك وأحبابك، فتكن كما كان محمد ﷺ - ، قالت له أُمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما قال والله لقد خشيت على نفسي يا خديجة، قالت: "كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك

(١) ينظر " تفسير ابن أبي حاتم " (٧ / ٥٤٦).

(٢) سبق تخريجه

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٧٩٩)، والترمذي في "سننه" (٢٠٠٣)، وأحمد في "مسنده" (٢٧٤٩٦)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٨٧٦) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٦٨٢)، والترمذي في "سننه" (١١٦٢)، وأحمد في "مسنده"

(١٠٨١٧)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٨٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»

لتصل الرحم، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.^(١)، أسأل
الله أن يجعلني وإياكم من أهله الطيبين الكرام.
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
تم الانتهاء من تفسير سورة الهمزة، بحمد الله ومنتته.

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣) ومسلم في "صحيحه" (١٦٠)، من حديث أم المؤمنين

عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، به

﴿سُورَةُ الْفِيلِ﴾

هي مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد سورة الكافرين^(١).

ومناسبتها لما قبلها:

أنه بين في السورة السابقة أن المال لا يغني من الله شيئاً وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل^(٢).

وهذه السورة آية من آيات الله جل جلاله، وكانت قصة أصحاب الفيل من الإرهاصات^(٣) لبعثة سيدنا محمد ﷺ، وهي من المقدمات التي هيأ الله تعالى الكون بسببها، وهيأها الله تعالى بقدره وحكمته، لما في ذلك من الحكمة البالغة - تبارك الله رب العالمين..

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۚ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۚ ﴿٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾ يقول الله تعالى لنبية ﷺ: ألم تعلم وتنظر

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (٦٥٢ / ١٥) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ بمكة. وقال ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥ / ٥٢٣) وهي مكية بإجماع

الرواة.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٤١)

(٣) في " المعجم الوسيط " (ص ٣٧٧) الإرهاص شرعا: الأمر الخارق للعادة يظهر للنبي قبل بعثته.

بعين قلبك فترى بها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنَ الْيَمَنِ^(١)، ألم تُخبر، وقد تواترت قصة أصحابِ الفيلِ فلم يبقَ أحدٌ من أهل مكة رجلٌ أو امرأة، كبيرٌ أم صغيرٌ إلا وقد علِمَ بهذه القصةِ العظيمة، وفيها آياتٌ باهراتٌ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الله جل جلاله يفعل ما يشاء، وفعله ليس كفعلِ البشر، بل فعله يليقُ به جل جلاله.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ والمعنى جعل كيدهم في هباءٍ وخسارة، وضيعَ سعيهم وأهلكهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ كلمة أبابيل معناها جماعات، جماعةٌ تلو جماعةٍ من كل ناحية^(٢).

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسِّجِّيلُ هو الطينُ المتحجّرُ حتى صارَ قاسياً جداً^(٣). ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ﴾ والعصفُ هو التبنُّ، وقال بعضهم: أن العصفَ هو ورقُ الشجرِ الذي تعصفهُ الرياحُ، فتأكلهُ الدوابُّ ثم يصيرُ بعرًا متفرّقًا، فمزقَ الله أوصالَ هذا الجيش، ودمّرهم تدميراً، ولم يبقَ منهم ولم يَدْرُ^(٤).

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٢٧)

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٢٧)

(٣) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٢ / ٧٤٤)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٩ / ١٠٣) و"روح المعاني" للألوسي (٢٩ / ٣٣٥).

(٤) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٦٤٣) {فَجَعَلَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْفِيلِ كَزَرْعٍ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ فَرَأَتْهُ، فَيَسَّ وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ؛ شَبَهَ تَقَطُّعَ أَوْصَالِهِم بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمْ، وَتَفَرَّقَ آرَابُ أَبْدَانِهِمْ بِهَا، بِتَفَرُّقِ أَجْزَاءِ الرُّوثِ، الَّذِي حَدَثَ عَنْ أَكْلِ الزَّرْعِ.}

قصة أصحاب الفيل:

ساق الطبري هذه القصة بطولها في تفسيره، وهذه القصة - وإن كان في سندها شيء - لكنها متواترة عند أصحاب السير.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قصة أصحاب الفيل: "كان السبب الذي مِنْ أَجْلِهِ حَلَّتْ عَقُوبُهُ اللهُ تَعَالَى بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، مَسِيرَ أِبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ بِجَنْدِهِ مَعَهُ الْفِيلَ، إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ لِتَخْرِيهِ". اهـ^(١)

وذلك أنه لما حَرَقَ الْمَلِكُ الظَّالِمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْيَمَنِ - فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ -، فَرَّ أَنْاسٌ مِنْهُمْ إِلَى النَجَاشِيِّ يَسْتَعِثُونَ بِهِ، فَأَرْسَلَ النَجَاشِيُّ جَيْشًا عَظِيمًا، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ قَائِدَيْنِ اثْنَيْنِ، وَجَاءُوا وَقَاتَلُوا هَذَا الْمَلِكَ وَخَلَّصُوا الْيَمَنَ مِنْ شَرِّهِ، وَكَانَ الْقَائِدَانِ أَحَدُهُمَا يُقَالُ لَهُ أَرِيَاطُ، وَالثَّانِي يُقَالُ لَهُ أِبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ، وَلَمَّا تَعَلَّبَا إِذَا بِهِمَا يَخْتَلِفَانِ فِي شَيْءٍ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَائِدًا عَلَى نَصْفِ الْجَيْشِ، فَقَالَا: نَبْرَزُ لِلْقِتَالِ، وَاصْطَفَى الْجَيْشَانِ، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ، فَقَالُوا: عَلَامَ نَهْلِكَ الْجَيْشَيْنِ، وَإِنَّمَا تَبَرُّزُ لِي وَتَبَرُّزُ لَكَ وَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ مَلِكَ الْجَيْشِ، فَرَفَعَ أَرِيَاطُ الْحَرْبَةَ فَضْرَبَ أِبْرَهَةَ يَرِيدَ يَافُوحَهُ^(٢)، فَوَقَعَتِ الْحَرْبَةُ عَلَى جِهَةِ أِبْرَهَةَ فَشَرَمَتْ حَاجِبَهُ وَعَيْنَهُ وَأَنْفَهُ وَشَفَتَهُ فَبَذَلَكَ سُمِّيَ أِبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ، وَحَمَلَ عَبْدٌ لِأِبْرَهَةَ عَلَى أَرِيَاطٍ مِنْ خَلْفِ أِبْرَهَةَ فَقَتَلَهُ، فَلَمَّا قُتِلَ أَرِيَاطُ أَخَذَ أِبْرَهَةَ الْجَيْشَ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ الَّذِي بَعَثَهُمْ إِلَى الْيَمَنِ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا عَلَى أِبْرَهَةَ، وَقَالَ: عَدَا عَلَى أَمِيرِي فَقَتَلَهُ بَغِيرَ أَمْرِي، ثُمَّ حَلَفَ لَا يَدْعُ أِبْرَهَةَ حَتَّى يَطَأَ بِلَادَهُ وَيَجُزَّ نَاصِيَتَهُ، فَحَلَقَ أِبْرَهَةَ رَأْسَهُ وَمَلَأَ جَرَابًا مِنْ تَرَابِ الْيَمَنِ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى النَجَاشِيِّ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ:

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٣٥)

(٢) "اليافوخ" وسط الرأس. ينظر "المصباح المنير" للفيومي ص: ١٤

أيها الملك: إنما كان أرباطُ عبدك وأنا عبدك، فاختلَفنا في أمرِك وكلُّ طاعته لك، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة، وأضبط لها وأسوسَ منه، وقد حَلَقْتُ رأسي كُلَّهُ حين بلغني قسَمُ الملك، وبعثتُ إليه بجرابِ ترابٍ من أَرْضِي لِيَضَعَهُ تحت قدميه فيبرَّ قسَمَه فيَّ، ولأُبَيِّنَنَّ لك كنيسةً يتحدَّثُ الناسُ عنها في اليمن، فبنى كنيسةً عظيمةً جداً مرتفعةً البناءِ شائخةً، ثم أراد أن يصْرِفَ حَجَّ الناسِ إلى هذه الكنيسة، وسَمَّتِ العربُ هذه الكنيسةَ (القُلَيْسَ) مِنَ الْقُلُسُوءِ أي القُبعة، لأن الذي ينظر إليها يظُلُّ ينظر حتى تسقطَ قلنسوتهُ مِن شِدَّةِ ارتفاعها وطولها الشامخ، فلما تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلك للنجاشي، غَضِبَ رَجُلٌ مِنَ العربِ، فخرج حتى أتى القُلَيْسَ فقعد فيها (أي تَعَوَّطَ وتَبَوَّأَ فيها) ثُمَّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ.

وبعضُ النَّاسِ يذكُرُ: أن بعضَ شبابِ العربِ، ذهبوا فأوقدوا فيها النيرانَ بالليل.

ولكنَّ القِصَّةَ الأولى عليها أكثرُ أهلِ السيرِ.

فأخبرَ أبرهةَ بذلك فقال: مَنْ صَنَعَ هذا؟ فقل: صَنَعَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ هذا البيتِ الذي تُحُجُّ العربُ إليه بمكة لما سَمِعَ مِنْ قولِكَ: أَصْرِفُ إليه حَاجَّ العربِ فغضب فجاء فقعد فيها، فغَضِبَ عند ذلك أبرهةُ وحلفَ لِيَسِيرَنَّ إلى البيتِ فيهدمه فأخذ معه جيشاً عظيماً عَرَمَرَمًا وأخذ معه فِيلَةً، وَكَانَتِ الْفِيلَةُ ثَمَانِيَّةً أو أكثرَ - على قولِ بعضِ أهلِ السيرِ -، والأصحُّ أنه فِيلٌ واحدٌ عظيمٌ يقال له محمود.

قال الإمامُ ابنُ جريرِ الطبري رَحِمَهُ اللهُ فيما ساق بسنده عن ابنِ إسحاق "ثُمَّ إِنَّ أَبْرَهَةَ حِينَ أَجْمَعَ السَّيْرَ إِلَى الْبَيْتِ، أَمَرَ الْحَبْشَانَ فَتَهَيَّأَتْ وَتَجَهَّزَتْ، وَخَرَجَ مَعَهُ بِالْفِيلِ، وَسَمِعَتِ الْعَرَبُ بِذَلِكَ، فَأَعْظَمُوهُ، وَفَطَعُوا بِهِ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ، حِينَ سَمِعُوا أَنَّهُ يَرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ، بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَخَرَجَ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ ذُو نَفَرٍ، فِدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ، إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَإِخْرَابِهِ،

فَأَجَابَهُ مَنْ أَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَعَرَضَ لَهُ، وَقَاتَلَهُ، فَهَزِمَ وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ، وَأَخَذَ لَهُ ذُو نَفَرٍ أُسِيرًا؛ فَلَمَّا أَرَادَ قَتْلَهُ، قَالَ ذُو نَفَرٍ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي، فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَكَ خَيْرًا لَكَ مِنْ قَتْلِي؛ فَتَرَكَهُ مِنَ الْقَتْلِ، وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَثَاقٍ. وَكَانَ أَبْرَهُةُ رَجُلًا حَلِيمًا. ثُمَّ مَضَى أَبْرَهُةُ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمَ، عَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ فِي قَبِيلِي خَثْعَمَ: شَهْرَانِ، وَنَاهِسٍ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ، فَقَاتَلَهُ فَهَزِمَهُ أَبْرَهُةُ، وَأَخَذَ لَهُ أُسِيرًا، فَأَتَى بِهِ؛ فَلَمَّا هَمَّ بِقَتْلِهِ، قَالَ لَهُ نُفَيْلٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي، فَإِنِّي دَلِيلُكَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَهَاتَانِ يَدَايَ لَكَ عَلَى قَبِيلِي خَثْعَمَ شَهْرَانِ، وَنَاهِسٍ، بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فَأَعْفَاهُ وَخَلَّى سَبِيلَهُ، وَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ، يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ؛ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِالطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعْتَبٍ فِي رَجَالٍ ثَقِيفٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّمَا نَحْنُ عُمَّدُكَ، سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ، لَيْسَ لَكَ عِنْدَنَا خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ، يَعْنُونَ اللَّاتِ، إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، يَعْنُونَ الْكَعْبَةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَبَعَثُوا مَعَهُمْ أَبَا رِغَالٍ؛ فَخَرَجَ أَبْرَهُةُ وَمَعَهُ أَبُو رِغَالٍ حَتَّى أَنْزَلَهُ الْمُغَمَّسَ، فَلَمَّا أَنْزَلَهُ بِهِ مَاتَ أَبُو رِغَالٍ هُنَاكَ، فَرَجَمَتِ الْعَرَبُ قَبْرَهُ، فَهُوَ الْقَبْرُ الَّذِي تَرَجُمُ النَّاسُ بِالْمُغَمَّسِ. وَلَمَّا نَزَلَ أَبْرَهُةُ الْمُغَمَّسَ، بَعَثَ رَجُلًا مِنَ الْحَبَشَةِ، يُقَالُ لَهُ الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ، عَلَى خَيْلٍ لَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَّةَ، فَسَبَقَ إِلَيْهِ أَمْوَالُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، وَأَصَابَ فِيهَا مِائَتِي بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا؛ وَهَمَّتْ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةٌ وَهَذَيْلٌ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ بِالْحَرَمِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ، وَبَعَثَ أَبْرَهُةُ حُنَاطَةَ الْحِمَيْرِيِّ إِلَى مَكَّةَ، وَقَالَ لَهُ: سَلْ عَنْ سَيِّدِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَرِيفِهِمْ، ثُمَّ قُلْ لَهُ: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَتِ لِحَرْبِكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا دُونَهُ بِحَرْبٍ فَلَا حَاجَةَ لِي بِدِمَائِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرِدْ حَرْبِي فَأَتِنِي بِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ حُنَاطَةُ مَكَّةَ، سَأَلَ عَنْ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وَشَرِيفِهَا، فَقِيلَ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنُ قُصَيٍّ، فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ مَا أَمْرُهُ بِهِ أَبْرَهُةُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا

بَذَلَكَ مِنْ طَاقَةٍ؛ هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ كَمَا قَالَ، فَإِنْ يَمْنَعُهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُجَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ عَنْهُ، أَوْ كَمَا قَالَ؛ فَقَالَ لَهُ خُنَاطَةُ: فَاَنْطَلِقْ إِلَى الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ. فَاَنْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ، حَتَّى أَتَى الْعُسْكَرَ، فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفَرٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا، فَذَلَّ عَلَيْهِ، فَجَاءَهُ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ، فَقَالَ: يَا ذَا نَفَرٍ، هَلْ عِنْدَكَ غَنَاءٌ فِيمَا نَزَلَ بِنَا؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفَرٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ فِي يَدَيْ مَلِكٍ، يَتَتَبَّرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدْوًا أَوْ عَشِيًّا؟ مَا عِنْدِي غَنَاءٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكَ، إِلَّا أَنْ أُنِيسَا سَائِقَ الْفِيلِ لِي صَدِيقٌ، فَسَارَسِلُ إِلَيْهِ، فَأُوصِيهِ بِكَ، وَأُعْظِمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَى الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمُهُ بِمَا تُرِيدُ، وَيَشْفَعُ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ، إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: حَسْبِيَ، فَبَعَثَ ذُو نَفَرٍ إِلَى أُنَيْسٍ، فَجَاءَ بِهِ، فَقَالَ: يَا أُنَيْسُ إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، وَصَاحِبُ عِيرِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ، وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَقَدْ أَصَابَ الْمَلِكُ لَهُ مَائَتِي بَعِيرٍ، فَاسْتَأْذِنَ لَهُ عَلَيْهِ، وَانْفَعَهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْتَ، فَقَالَ: أَفْعَلْ. فَكَلَّمَ أُنَيْسُ أَبْرَهَةَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ بِيَابِكَ، يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ، وَهُوَ صَاحِبُ عِيرِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ، وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، فَأَذِنَ لَهُ عَلَيْكَ، فَلْيُكَلِّمَكَ بِحَاجَتِهِ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَأَذِنَ لَهُ أَبْرَهَةُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا عَظِيمًا وَسَيِّمًا جَسِيمًا؛ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ وَأَكْرَمَهُ أَنْ يَجْلِسَ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَى بَسَاطِهِ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ مَا حَاجَتُكَ إِلَى الْمَلِكِ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التَّرْجُمَانُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: حَاجَتِي إِلَى الْمَلِكِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ مَائَتِي بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي؛ فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مَائَتِي بَعِيرٍ أَصْبَتْهَا لَكَ، وَتَتَرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ فَلَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟ قَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ، قَالَ: مَا كَانَ لِيُمنَعَ مِنِّي، قَالَ: فَأَنْتَ وَذَاكَ، ارْجُدْ إِلَيَّ إِبِلِي. وَكَانَ فِيمَا

زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أُبْرَهَةَ، حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِ حُنَاطَةً، يَعْمُرُ بْنُ نَفَاثَةَ
 بْنِ عَدِيِّ بْنِ الدَّيْلِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ كِنَانَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي كِنَانَةَ، وَخُوَيْلِدُ بْنُ وَاثِلَةَ
 الْهُذَلِيِّ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ هُذَيْلٍ، فَعَرَضُوا عَلَى أُبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ، عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ، وَلَا
 يَهْدِمَ النَّيْتَ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ أُبْرَهَةَ، قَدْ رَدَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْإِبِلَ الَّتِي أَصَابَ لَهُ،
 فَلَمَّا انْصَرَفُوا عَنْهُ انْصَرَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ،
 وَالتَّحَرُّزِ فِي شَعَفِ الْجِبَالِ وَالشَّعَابِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ؛ ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَأَخَذَ
 بِحَلَقَةِ الْبَابِ، بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ، وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أُبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ،
 فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ آخِذٌ حَلَقَةَ بَابِ الْكَعْبَةِ

يَا رَبِّ لَا أَرْجُوهُمْ سِوَاكَ... يَا رَبِّ فَاْمَنْعَ مِنْهُمْ حِمَاكَ
 إِنَّ عَدُوَّ النَّيْتِ مَنْ عَادَاكَ... اْمْنَعُهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُرَاكَ
 وَقَالَ أَيُّضًا:

لَا هُمْ إِلَّا الْعَبْدَ يَم... نَعِ رَحْلَهُ فَاْمَنْعَ حِلَالِكَ
 لَا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ... وَمَحَالَهُمْ عَدُوًّا مَحَالِكَ
 فَلَيْتُنْ فَعَلْتَ فَرَبِّمَا... أَوْلَى فَاْمُرُّ مَا بَدَا لَكَ
 وَلَيْتُنْ فَعَلْتَ فَإِنَّهُ... أَمْرٌ تُتِمُّ بِهِ فَعَالِكَ
 وَقَالَ أَيُّضًا:

وَكُنْتُ إِذَا أَتَى بَاغٍ بِسَلَمٍ... نُرْجِي أَنْ تَكُونَ لَنَا كَذَلِكَ
 فَوَلَّوْا لَمْ يَنَالُوا غَيْرَ خِزْيٍ... وَكَانَ الْحَيْنُ يُهْلِكُهُمْ هُنَالِكَ
 وَلَمْ أَسْمَعْ بِأَرْجَسَ مِنْ رِجَالٍ... أَرَادُوا الْعِزَّ فَانْتَهَكُوا حَرَامَكَ
 جَرُّوا جُمُوعَ بِلَادِهِمْ... وَالْفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيَالَكَ

ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلَقَةَ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَأَنْطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى شَعَفِ الْجِبَالِ، فَتَحَرَّزُوا فِيهَا، يَنْتَظِرُونَ مَا أَبْرَهُهُ فَأَعْلَى بِمَكَّةَ إِذَا دَخَلَهَا؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهُهُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيهِ، وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، وَكَانَ اسْمُ الْفِيلِ مُحَمَّدًا، وَأَبْرَهُهُ مُجْمَعٌ لِهَدْمِ الْبَيْتِ، ثُمَّ الْإِنْصِرَافُ إِلَى الْيَمَنِ. فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ، أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخُثْعَمِيُّ، حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ فَقَالَ: ابْرُكْ مُحَمَّدُ، وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ؛ ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ، وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لَيُثْمِرَ فَأَبَى، وَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بِالطَّبَرَزِينِ لَيُثْمِرَ، فَأَبَى، فَأَدْخَلُوا مُحَاجِنَ هُمْ فِي مَرَاقِهِ، فَبَزَعُوهُ بِهَا لَيُثْمِرَ، فَأَبَى، فَوَجَّهُوا رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَامَ يَهْرُولُ، وَوَجَّهُوا إِلَى الشَّامِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوا إِلَى الْمَشْرِقِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوا إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ، أَمْثَالُ الْخَطَاطِيفِ، مَعَ كُلِّ طَيْرٍ ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مَنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ مِثْلَ الْحَمَصِ وَالْعَدَسِ، لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَتَدَرُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي مِنْهُ جَاءُوا، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ، لِيَدْنَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حِينَ رَأَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ:

أَيْنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهِ الطَّالِبُ ... وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ

فَخَرَجُوا يَتَسَاقُطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلِكُونَ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ، فَأُصِيبَ أَبْرَهُهُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ، فَسَقَطَتْ أَنْامِلُهُ أَنْمَلَةً أَنْمَلَةً، كُلَّمَا سَقَطَتْ أَنْمَلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِدَّةٌ تَمُتُّ قِيحًا وَدَمًا، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ، وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّيْرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ^(١)

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٣٥).

وهزمهم الله شرَّ هزيمة، وذكر الطبري والقرطبي رحمهما الله وغيرهما من أهل العلم، أن كل طائر كان يحمل ثلاثة أحجار، حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره، مثل حبة العدس وأقل من حبة الحمص، ويرميها على هؤلاء تحرق الخوذة وتحرقهم حرقاً حتى مزقهم الله، وجعلهم عبرة وعظة لمن يتناول على بيت الله الحرام.^(١)

وفي هذا يقول نبينا ﷺ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ» قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُعْتُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».^(٢)

ولما خرج رسول الله ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِيَعُضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ» فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حُلْ حُلْ فَالْحَلَّتْ، فَقَالُوا: خَالَاتُ الْقَصَوَاءِ، خَالَاتُ الْقَصَوَاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَالَاتُ الْقَصَوَاءِ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».^(٣)

(١) ينظر "السيرة النبوية" لابن هشام " (١ / ٥٣) وجامع البيان " للطبري (٢٤ / ٦٣٥) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٤٨٣)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢١١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٨٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٣١)، وأبو داود في "سننه" (٢٧٦٥)، وأحمد في "مسنده" (١٨٩١٠).

تاريخ مولد رسول الله ﷺ:

وُلِدَ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَامَ الْفِيلِ^(١). وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: "قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ: وَُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفِيلِ.

...وَقَدْ رَوَى النَّاسُ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ أَلَّا يُخْبَرَ بِسَنَةِ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ صَغِيرًا اسْتَحْقَرُوهُ وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا اسْتَهْرَمُوهُ.

وَهَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ مَالِكًا لَا يُخْبِرُ بِسَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَكْتُمُ سَنَةَ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعُلَمَاءِ قُدُوءَ بِهِ. فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يُخْبَرَ الرَّجُلُ بِسَنَةِ كَانَ كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا". وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ مَرْوَانَ لِعَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ: أَنْتَ أَكْبَرُ أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أَكْبَرُ مِنِّي، وَأَنَا أَسَنُ مِنْهُ، وَوُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الْفِيلِ، وَأَنَا أَدْرَكْتُ سَائِسَهُ وَقَائِدَهُ أَعْمَيْنِ مُفْعَلَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ النَّاسَ^(٢) "اهـ".

حادثة الفيل من أدلة بعثة النبي ﷺ:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالَ عَلَمًاؤُنَا: كَانَتْ قِصَّةُ الْفِيلِ فِيمَا بَعْدَ مِنْ مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ كَانَتْ قَبْلَهُ وَقَبْلَ التَّحْدِي، لِأَنَّهُمَا كَانَتْ تَوْكِيدًا لِأَمْرِهِ، وَتَمْهِيدًا لِشَأْنِهِ. وَلَمَّا تَلَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السُّورَةَ، كَانَ بِمَكَّةَ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ شَهِدَ تِلْكَ الْوَقْعَةَ، وَهَذَا قَالَ: أَلَمْ تَرَ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ أَحَدٌ

(١) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "السيرة" (١ / ٢٥) وَكَانَ مَوْلِدُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَامَ الْفِيلِ، وَقَالَ ابْنُ

كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "البداية والنهاية" (٣ / ٣٧٥) وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ.

(٢) (ضعيف) أَخْرَجَهُ الترمذي فِي "سننه" (٣٦١٩)، وَاللَّفْظُ لَهُ وَأَحَدٌ فِي "مسنده" (١٧٨٩١)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي

دلائل النبوة " (٨٤)، وَالْحَاكِمُ فِي "المستدرک" (٦٧٨٩)، وَالطبراني فِي "المعجم الكبير" (٦٧٨٩)،

وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِي فِي "ضعيف سنن الترمذي" (٣٦١٩)

(٣) يَنْظُرُ "الجامع لأحكام القرآن" لقرطبي (٤٨٧ / ٢٢).

إِلَّا وَقَدْ رَأَىٰ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِقَهُ أَعْمِيْنَ يَتَكَفَّفَانِ النَّاسَ".

فكان الله سبحانه وتعالى يقول: يا أهل مكة، كففتُ عنكم هذا الجيش العظيم الذي ما كانت لكم طاقةٌ في دفعه، فأطيعوني ووجدوني، وأطيعوا رسولي وآمنوا به، ولكنهم كفروا فلما كفروا جعلهم الله مضرِباً للأمثال، ومزَقَهُمُ اللهُ كُلَّ مُزَقٍ، والذي آمنَ مِنْهُمْ سَعِدَ سَعَادَةً ليس بعدها سعادةٌ، فنسأل الله تعالى أن يُسَعِدَنَا بِدِينِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الانتهاء من تفسير سورة الفيل بحول الله ومده.

﴿سُورَةُ قُرَيْشٍ﴾

هى مكية، وآياتها أربع، نزلت بعد سورة التين.^(١)

ومناسبتها لما قبلها:

أن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة فالأولى تضمنت إهلاك عدوهم الذي جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزهم والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم، والثنام شملهم، ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء في تجارتهم، وجلب الميرة لهم.^(٢) يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ لِّإِلْفِهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ﴾

فهذه سورة عظيمة فيها ثناء من الله تعالى على قريش، وإظهار نعم الله تعالى عليهم، يقول الله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ﴾ والمعنى: من أجل ائتلاف قريش، جعلناهم يألفون رحلة الشتاء والصيف.

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (١٥ / ٦٦٩) أَخْرَجَ ابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : نزلت

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ بمكة.، وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥ / ٢٥٢) وهي مكية بلا خلاف.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٤٤)

﴿إِذْ لَفِهُمُ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١) والإيلاف أي الاجتماع، وقال الشنيطي رحمه الله: وَقِيلَ مِنَ الْإِلْفِ وَالتَّعَوُّدِ، أَي: أَلْفُوا الرِّحْلَتَيْنِ فَلِلْإِبْقَاءِ هُمْ عَلَى مَا أَلْفَوْهُ^(٢).

وقال الرازي رحمه الله: والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله ... وقد تكون المرأة سبباً للمؤانسة والاتفاق كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش ... فيكون المعنى: لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتهم^(٣).

يعني أن قريشاً كانت مجتمعة، وكان عندها عادة الاجتماع والاتحاد، فمن أجل ائتلافهم أيضاً أهلكنّا أصحاب الفيل، كي يدوم هذا الإلف عليهم.

وقال ابن كثير رحمه الله: حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾^(٤) أَي: لَا تَتْلَفُهُمْ وَاجْتَمَاعُهُمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلِفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي الْمَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ؛ لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ، لِكُونِهِمْ سُكَّانَ حَرَمِ اللَّهِ، فَمَنْ عَرَفَهُمْ احْتَرَمَهُمْ، بَلْ مَنْ صُوفِي إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ آمِنَ بِهِمْ.

هَذَا حَالُهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شَتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ، وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:

٦٧]^(٥).

(١) ينظر "تتمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (١١٠ / ٩).

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٩٩ / ٣٢).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٤٩١ / ٨).

والمعنى: أن الله أنعم على قريش بنعمٍ عظيمة بسبب ألفتهم، وعدم تفرق جماعتهم، ومنها: مَا كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَفِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ؛ لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ هُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ لَا يَمَسُّ بِسُوءٍ وَلَا يَهَيِّجُ وَلِذَلِكَ أَهْلَكَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْفِيلِ لَتَبْقَى قَرِيشٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، الَّتِي يَرْضَاهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ.

وأيضاً معنى ثالث: أن اعجبوا من إيلاف قريش وتعودهم رحلة الشتاء والصيف، ورغم ذلك يتركون عبادة الله وحده، فليعبدوه ويشكروه، فهو - سبحانه - الذي جعلهم يألفون، وهو الذي جعلهم يتعودون الذهاب إلى رحلة الشتاء والصيف، يذهبون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام، ويذهبون ويرجعون آمنين مطمئنين ورغم ذلك لا يعبدوه وحده، بل يشركوا معه غيره. ولذلك قال ربنا تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

ويستفاد من هذه الآيات: أن العبد إذا كان فيه خصلةٌ خيرٍ فيكرمه الله ببابٍ خيرٍ آخر، بسبب خصلة الخير التي فيه، أرأيتم إلى قريش لما كانت مؤلفةً مجتمعةً، جعل الله تعالى هذا البلد آمناً مطمئناً، وجعلهم مهابين في أعين الناس، وجعلهم يسرون في البلاد آمنين مطمئنين، يألفون رحلة الشتاء والصيف، أي يعتادون الذهاب إليها، في أمن وأمانٍ والناس يعظمونهم.

قال الله تعالى عن نبيه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ۚ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) [النمل: ٩١].

(١) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي - تفسير جزء عم (٢/ ٥٦٤)

يُذَكِّرُ ربنا تبارك وتعالى قريشاً بهذه النعمة العظيمة، والمعنى: يا مَنْ جعلهم الله يأمنون ذهاباً وإياباً في رحلة الشتاء والصيف، والناس يعظمونهم ويقولون: أهل حرم الله، ولا يمسونهم بسوءٍ، اعبدوا ربكم وأسلموا له.

قال أهل العلم: يُشَرِّعُ بذلك تذكيرُ العبدِ، بنعم الله تعالى عليه خاصةً عند حثه على العبادة، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكُتُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢﴾ يَمْرَيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣] والمعنى يا مَنْ اصْطَفَاكِ الله وطَهَّرَكِ وَشَرَّفَكِ على نساء العالمين، أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، ومنه قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ٢﴾ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح ١: ٦] فكل هذه نعمٌ يعددها الله على نبيه صلوات ربي وسلامه عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ١ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٢ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٣﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٤ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ٥ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ٦﴾ [الضحى ٦: ١١].

والمعنى: أنك تذكّر الإنسان بالخير الذي هو فيه، والذي أنعم الله به عليه، وتحثه بسبب ذلك على العبادة، فتقول: يا مَنْ أنعم الله عليك بكذا وكذا اعبُدْ رَبَّكَ وَأَطِعهُ. نسأل الله تعالى أن يجعلنا شاكرين لأنعمه، بأن نعبده ونطيعه، ونعظمه ونمثّل أمره ونجتنب نهيه.

فضل قريش:

كفى به شرفاً أن الله شَرَّفَ قريشاً بأن جعل هذه السورة خاصةً فيهم، لم يشركهم فيها غيرهم،

وقد ثبت في فضل قريش أحاديث كثيرة:

ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ»^(١).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»^(٢).
وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٣). والمعنى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خِيارٌ مِنْ خِيارِ.

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقُضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً»، قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»^(٤).

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ، إِلَّا كَبَّهَ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ»^(٥).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٠١)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٢٠)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم "صحيحه" (١٨١٩)، وأحمد في "مسنده" (١٤٥٤٥)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٢٦٣)

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٧٦)، والترمذي في "سننه" (٣٦٠٥)، وأحمد في "مسنده" (١٦٩٨٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه به .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٨٢١)، وأبو داود في "سننه" (٤٢٧٩)، والترمذي في "سننه" (٢٢٢٣) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه به .

(٥) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٠٠)، والنسائي في "الكبرى" (٨٦٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه به .

وكذلك ثبت في الصحيحين أَنَّ أَبَاهُ رَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ، أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»^(١). أي صالح نساء قريش المسلمات القانتات تحنوا على الأولاد فعندهن رحمة ورقة بهم، والواحدة منهن ترعى زوجها وتحفظه في ماله.

فالله جل جلاله يذكر قريشاً بهذه النعم العظيمة، وهذه السورة خاصة بقريش، أفرداها الله تعالى؛ ليدل على مكانة بيته وعلى مكانة أهله، فربنا يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاستقامة على دينه.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الانتهاء من تفسير سورة قريش بعون الله وتوفيقه.

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري، في "صحيحه" (٣٤٣٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٥٢٧) من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه، به.

﴿سُورَةُ الْمَاعُونِ﴾

سورة الماعون سورة مكية عند أكثر أهل العلم، ونقل بعض العلماء الاتفاق على ذلك .
 ﴿وآياتها سبع، نزلت بعد سورة التكاثر .

ووجه مناسبتها لما قبلها:

(١) أنه لما قال في السورة السابقة: «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» ذم في هذه من لم يحض على طعام المسكين.

(٢) أنه قال في السورة السابقة: لِيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ»، وهنا ذم من سها عن صلاته.

(٣) أنه هناك عدّد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويحسدون الجزاء، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه.

يقول الله تعالى في هذه السورة العظيمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُخْضُ عَلَى طَعَامِ

الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥ / ٥٢٧) وهي مكية بلا خلاف علمته ، و ذكره السيوطي في " الدر المنثور " (٨ / ٦٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ونسبه لابن مردويه ، وذكر أن ابن مردويه أخرجه مثله عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠ / ٢١٠) وهي مكية في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ومدنية في قول له آخر وهو قول قتادة وغيره .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ أي أرايت يا محمد إلى هذا الذي يكذب بيوم الجزاء.

" فيوم الدين " هو يوم الجزاء، لأن كل عبد يُدان بعمله، نسأل الله أن يسترنا ولا يفضحنا، وأن يجعل خير أيامنا يوم لقائه، ونعوذ بالله من الخزلان.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ أي أرايت هذا الإنسان، الذي يكذب بأن هناك يوماً اسمه يوم الدين، يوم الجزاء والحساب والثواب، يجازى المحسن بإحسانه، ويجازى المسيء بإساءته ^(١).

ثم ذكر الله تعالى صفاته:

﴿فَذلكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ يدْعُ أي يدفع ويقهر ويظلم ويطرد اليتيم، لأن قلبه قاسٍ ^(٢)، لأنه لا يؤمن بيوم القيامة، لأن الإحسان إلى الآخرين يحتاج إلى إيمانٍ عند العبد بالجزاء يوم القيامة، حتى يدفع العبد إلى الاستمرار، وإلى العمل بهذا الإحسان، فالذي يجعل الإنسان يحسن، أو يخرج من ماله، أو يقدم شفاعته، أو يقضي من وقته في الإحسان إلى الفقراء و المساكين، أو الإحسان إلى الأيتام، إنما هو إيمانه بيوم الدين، إيمانه بأن هناك يوماً سيجد فيه هذا العمل كاملاً مؤفوراً، فيجد هذه الحسنات أوفرَ ما كانت وهو في أشد الحاجة إليها.

و من صفاته أيضاً، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا يطعم

الفقراء ولا يطعم المساكين، ولا يساعد المحتاجين - بنفسه - وكذلك لا يحض غيره، - فالخير

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٩٣)

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨ / ٤٩٣)

يمكن أن تقوم به بنفسك، ويمكن أن تدل غيرك عليه - ، قال رسول الله ﷺ «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»^(١)، وقال: "فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ"^(٢)، وقال: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٣)، فالذي لا يؤمن بيوم الدين اتصف بشرّ الأفعال، لأن الإيثار به يخوِّفُ الظالمين، لأنهم سيقفون للحساب، ويحْفَظُ المحسنين لأنهم سيجازون على إحسانهم، فمن كفر به وكذب، قهر اليتيم وظلمه، وظلم الضعفاء والمساكين، وتلك أوصافُ كلِّ جبارٍ عنيدٍ، وقد صح عن جابرٍ رضي الله عنه ، قَالَ: لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرَةَ الْبَحْرِ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟»، قَالَ فِتْنَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بَنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التُّفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ:

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٨٩٣) والترمذي في "سننه" (٢٦٧١) وابن حبان في "صحيحه" (٢٨٩) وأحمد في "مسنده" (١٧٠٨٤) من حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أَبْذَعُ بِي فَأَحْمِلُنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَذْلُهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩٤٢) ومسلم في "صحيحه" (٢٤٠٤)، من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه ، به .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠١٧)، الترمذي في "سننه" (٢٦٧٥) والنسائي في "سننه" (٢٥٥٤)

(٢٥٥٤) وأحمد في "مسنده" (١٩١٥٦)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، به

سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ،
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«صَدَقْتُ، صَدَقْتُ كَيْفَ يَقْدُسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»^(١)

وهذا الذي يحدث للمسلمين ليلاً و نهاراً، لا يؤخذ من قويمهم لضعفهم، بل يؤخذ من
ضعفهم لقويمهم والعياذ بالله.

والمقصود أن هذا الذي يكذب بيوم الدين، دفعه تكذيبه بيوم الدين، إلى قهر الأيتام
وكذلك يمنع الواجب الذي عليه من الإحسان إلى الآخرين.

وبعض العلماء قال: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي الزكاة، ولكن هذا ليس بظاهر
في هذه الآية، وقد ضعفه عددٌ كبيرٌ من أهل العلم، فليس للزكاة موضعٌ في هذه السورة العظيمة
^(٢)

فائدة: قال أهل العلم: "إن الإنسان عندما يقوم بالعمل الصالح، لا بد أن يكون عنده رغبةٌ
في الثواب، أو رغبةٌ في عطاء الله، ويمتنع عن فعل الحرام رهبةً، والتكذيبُ بيوم الدين يدفع لكلِّ
فجور"^(٣).

فالذي لا يؤمن بيوم القيامة، ولا يؤمن بالبعث، ولا يؤمن بعذاب القبر، فكم ممن ينتسبون

(١) (صحيح لغيره) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٤٠١٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٠٥٨)، من حديث جابر
رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "صحيح موارد الظمان" (٢١٩١ - ٢٥٨٤).

(٢) ينظر "تتمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٩ / ١١٥).

(٣) المرجع السابق.

للإسلام اليوم، وقد تجدهم ممن يحافظون على صلاة الجماعة، ويشككون في عذاب القبر ونعيمه بل ينكرون ذلك أصلاً.

وقفه: جاءني بعض الأخوة الكرام وقالوا لي: نحن في حيرة شديدة، قلت لهم: ولم؟

قالوا: هل هناك عذاب قبر، ونعيمه، أم لا يوجد؟

قلت: هذه من الأمور الغيبية التي يجب على العبد الإتيان بها، قالوا: فإن فلاناً - وذكروا لي

رجلاً ممن يحافظ على الصلاة في جماعة - يقول لنا: لا يوجد شيء اسمها عذاب قبر أو نعيمه !

مصيبة وآفة عظيمة:

قال أهل العلم: عدم الإيمان بيوم الدين يدفع إلى كل الموبقات، من قتل وزناً وسرقة وقهر

الأيتام وسلب أموال الناس، وقد يمنعه من فعل تلك الموبقات مع عدم الإيمان باليوم الآخر

الخوف، يخاف أن يقتل فلاناً لأنه أقوى منه، يخاف أن يسرق مال فلان، لأن فلاناً لوجهته أو

لأن ماله في حرز جيد، وأما دفعه إلى قهر الأيتام وعدم إطعام المساكين، لسهولة ذلك عليه

والعياذ بالله.

اليتم من يدافع عنه؟ من يسأل عنه؟ لذلك لما ضعف حال اليتيم، وضعف حال المسكين،

فيقوم هو بقهره وظلمه، لأنه ضعيف، والعياذ بالله وكذلك اليتيم .

فضل الإحسان إلى الأيتام والمساكين وذوي الحاجات:

إن الإحسان إلى الأيتام من أعظم أبواب الخير، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول

الله - ﷺ -: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا"، وأشار بالسبابة والوسطى.^(١)

والمقصود: هو قرب السبابة من الوسطى، فكَذلك كافل اليتيم قريبٌ من النبي ﷺ، فإذا منَّ الله عليك ووفقك لهذا العمل، وكفلت يتيماً أو أكثر على حسب ما يسر الله لك، فأنت رفيقٌ للنبي ﷺ في الجنان، وخيرُ بيوتِ المسلمين بيتٌ فيه يتيماً يُحسن إليه، لذلك اجتهد أن تغنم هذا الخير العظيم، سل في مكانك عن بعض الأيتام، تقوم بكفالتهم، فالله عز وجل إن تفضل عليك واستخدمك لهذا الخير فقد فزت فوزاً عظيماً، والتمس البركة في حياتك وفي مالك، وفي عافيتك، ودوامُ الخير عندك بمثل هذه الأعمال الجليلة، كذلك إطعام المساكين وقضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، وتيسير أمورهم، هذه من أجل الأمور، فعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ، سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا أَوْ تَطْرُدَ عَنْهُ جُوعًا، وَلَيْسَ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَبْتِهَا لَهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ»^(٢)

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٠٥)، وأبو داود في "سننه" (٥١٥٠)، والترمذي في "

سننه" (١٩١٨)، من حديث سهل ابن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (حسن) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٣٦٤٦) والحاكم في المستدرک (٧٩١٧) و حسنه الألباني

نسأل الله أن يثبت قلوبنا وإياكم على طاعته، وأن يسترنا في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، وكم من أخ يقف مع أخيه لولا أن الله سخره له، لأصابه النصب والتعب في الحياة، وقد تحلّ عليك بعض المصائب وينجيك الله منها بأخ كريم صالح يقف معك، فلا تحرم نفسك هذا الخير أبداً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ المسكين هو الذي أسكنته الحاجة حتى سكن في الأرض، ولذلك سمي المسكين مسكيناً لأنه أسكن الى التراب^(١) فصار منكسراً، لكثرة حاجاته ولعدم استطاعته لقضاءها كأنه جلس على الأرض ساكناً.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ فهذا من أعظم البخل، والبخل الذي يبخل بهاله، والشحيح الذي يبخل بهال غيره .

فالبخل لا يحسن للآخرين، - عنده ما أنعم الله به عليه وزيادة عن حاجته -، ولكن لا يحسن للفقراء والمساكين، ولا الأقارب ولا ابن السبيل، أما الشحيح - والعياذ بالله - هو الذي يكره أن يحسن المحسن للفقراء، يكره أن يرى محسناً يحسن للأيتام والمساكين - فهذا أبخل البخل -

قال الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

فائدة: قال بعض سلفنا الصالح: الحمد لله الذي قال (عن صلاتهم)، ولم يقل (في صلاتهم)، لأن السهو في الصلاة لم يسلم منه أحدٌ، لا نبيٌ ولا نبيٌّ ولا وليٌ من أولياء الله، فعموم المسلمين يقعون في السهو، فقد سهى محمد - ﷺ - في صلاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صَلَّى

في "السلسلة الصحيحة" (٩٠٦) من حديث عمر رضي الله عنه، به .

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٤٢٧ / ٢٤) {الْمَسْكِينُ الْمَطْرُوحُ فِي التُّرَابِ}

النَّبِيُّ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَكْثَرُ ظَنِّي الْعَصْرَ - رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشْبَةٍ فِي مُقَدِّمِ الْمَسْجِدِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وَخَرَجَ سَرْعَانَ النَّاسِ فَقَالُوا: أَقْصَرَتِ الصَّلَاةُ؟

وَرَجُلٌ يَدْعُوهُ النَّبِيُّ ﷺ ذُو الْيَدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْسَيْتَ أَمْ قَصُرْتُ؟

فَقَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصِرْ، قَالَ: «بَلَى قَدْ نَسِيتَ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، فَكَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ»^(١)

وفي الصحيح ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُحَيْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ، فَقَامَ فِي رَكَعَتَيْنِ فَلَمْ يَجْلِسْ، فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ انْتَضَرْنَا أَنْ يُسَلَّمَ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ التَّسْلِيمِ، ثُمَّ سَلَّمَ». ^(٢) صلوات ربي وسلامه عليه .

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى؟ ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا؟ فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ، وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا، شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتِمَامًا لِأَرْبَعٍ، كَانَتْ تَرْغِيمًا

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٢)، ومسلم في " صحيحه " (٥٧٣)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٢٩)، ومسلم في " صحيحه " (٥٧٠)، من حديث عبد الله بن بَحَيْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

للشيطان).^(١)

والمقصود أن السهو في الصلاة واردٌ عن سيد الأنبياء - ﷺ -، وواردٌ عن الصحابة والتابعين وكبار العلماء، أما الذم هنا ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ عن صلاتهم أي متشاغلون عنها، يلهو وينشغل بالتلفزيون، والاتترنت، والمولات، والجلوس مع الأصدقاء، ولعب الكرة، وهذه البلايا التي ابتلي المسلمون بها، ولا يفكر في الصلاة حتى يخرج وقتها.

فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يدخل فيه الذين لا يصلون بالكلية، والذين يؤخرونها حتى يخرج وقتها، وكذلك الذين يغفلون ولا يبالون، صلوا أم لم يصلوا، وهذه مصيبةٌ، ولو نظرت في حال المسلمين - إلا من رحم الله - تجد أكثرهم على هذه الصفة، أكثرهم منشغلون عن الصلاة ، - والتي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين - ، والذين يصلون منهم قليلٌ منهم من يصلي الصلاة في جماعة ، - مصيبةٌ عظيمةٌ - ، ولذلك توعده ربنا الذي سهى عن صلاته، بالعذاب الأليم.

وليس المقصود بالسهو عن الصلاة هنا الذي يواظب على الصلاة ويحرص عليها ولكن حدث له أمرٌ شغله عنها، حتى نسى الصلاة يوماً ما مثلاً، فقد يحدث هذا لنا جميعاً، بل قد حدث لرسول الله محمد - ﷺ - . كما حدث في غزوة الأحزاب، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أُصَلِّيَ الْعَصْرَ، حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٧١)، وأبو داود في " سننه " (١٠٢٩)، والترمذي في " سننه ")

(٣٩٦) والنسائي في " سننه " (١٢٣٨)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

- أي صليت العصر في آخر وقتها والمغرب أدركتني - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا»
فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ، فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى
بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ" ^(١)

وفي الصحيح من حديث عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّا أَسْرَيْنَا حَتَّى
كُنَّا فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَقَعْنَا وَقْعَةً، وَلَا وَقْعَةَ أَحَلَّى عِنْدَ الْمُسَافِرِ مِنْهَا، فَمَا أَقِظْنَا إِلَّا حَرَّ الشَّمْسِ، وَكَانَ
أَوَّلَ مَنْ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ، ثُمَّ فُلَانٌ، ثُمَّ فُلَانٌ - يُسَمِّيهِمْ أَبُو رَجَاءٍ فَنَسِيَ عَوْفٌ ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
الرَّابِعُ - وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقَظْ حَتَّى يَكُونَ هُوَ يَسْتَيْقِظُ، لَأَنَّا لَا نَدْرِي مَا يَحْدُثُ لَهُ فِي
نَوْمِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ وَرَأَى مَا أَصَابَ النَّاسَ وَكَانَ رَجُلًا جَلِيدًا، فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ، فَمَا
زَالَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ حَتَّى اسْتَيْقَظَ بِصَوْتِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ شَكُّوا إِلَيْهِ الَّذِي
أَصَابَهُمْ، قَالَ: «لَا ضَيْرُ - أَوْ لَا يَضِيرُ - ازْجَلُوا»، فَارْتَحَلَ، فَسَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا
بِالْوُضُوءِ، فَتَوَضَّأَ، وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ ... " ^(٢)

والمقصود: أن مثل هذا السهو قد يحدث لنا جميعاً، فقد حدث مع هو أفضل منا، - مع سيد
الأولين والآخرين -، ومع الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

تنبيه: إن العيب كل العيب أن يترى أبناؤنا على الاستهتار بالصلاة، والجهل بمواقيتها، لا

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٩٦) والترمذي في "سننه" (١٨٠)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

به .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٥١٠)، من حديث

عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

يعرفون وقت صلاة الفجر، ولا وقت صلاة العشاء، وعنده مواعيد مع أصحابه وقت الصلاة، لا بد وأنت تعطي مواعيدك أن تتبها لمواقيت الصلاة، هذا هو العيب الشديد الذي وقع فيه كثير من المسلمين اليوم - إلا من رحم الله -، ولذلك ربنا تبارك وتعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾، فهو لاء من توعدهم الله بتلك الآية^(١).

ثم قال الله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝﴾ الرياء آفة عظيمة خطيرة، تُحبط عمل العبد، ولذلك ذم الله تعالى الرياء، وكذلك ذم رسولنا - ﷺ - الرياء، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوِفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [هود: ١٥، ١٦] هل تظن أن أحداً يصلي رياءً؟ بلى، هل تظن أن أحداً يتصدق رياءً؟ بلى، بل هناك من هذه الأمة من يبذل نفسه - للجهاد في سبيل الله رياءً، - إنها مصيبةٌ -، بل أعظم من ذلك يمكث سنين طوال يتعلم، ويحفظ القرآن، ويتعلم العلم، ثم يصير عالماً للأمة، وما فعل ذلك إلا رياءً، - نعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله العافية -، والواجب أن العلم ببركته يُصَحِّح مسيرة العبد، ويرزقه الله الإخلاص به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝﴾ [النساء: ١٤٥]، لأنهم كانوا يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ١١٠]

وقفه: خطورة الرياء:

فاحرص - رحمك الله - على الإخلاص، فأكثر شيء يُثقل ميزانك، أن تخلص لله في سائر أعمالك، الإخلاص - ولو مع قليلٍ من العمل -، عظيمٌ عند الله تعالى، قال الله تعالى في الحديث

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٦٦٣)

القدسي «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»^(١)، والله تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، سبحانه الله هذا سيد الأولين والآخرين، خيرٌ مَنْ عَبْدَ الله، وخيرٌ مَنْ صُلِيَ وصام، الله يقول له: أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد، وإلى إخوانك الأنبياء مِنْ قَبْلِكَ: لئن أشركت ليحبطن عملك، هذه شديدةٌ جداً.

وروى الإمام أحمد في مسنده، أن النبي - ﷺ - "إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ قَالُوا: وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً."^(٢) نسأل الله العافية.

وفي الصحيحين، من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»^(٣)، ما أخطر هذا الحديث، أن يعمل العبد عملاً ظاهره أنه لله، لكنه فعله ليراه الناس، وليشتموا عليه خيراً، وما أراد بذلك وجه الله، هذا يعامله الله بنقيض قصده في الدنيا قبل الآخرة، ويفضحه الله عز وجل يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، (مَنْ سَمِعَ): أي

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٨٥)، والترمذي في "سننه" (٤٢٠٢)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٩٩)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٣٦٣٠) والبغوي في "شرح السنة" (٤١٣٥)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩٥١).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٩٩) واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٨٧) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

تكلم بكلامٍ ظاهره أنه لله، وأنه على الشريعة، وعلى منهاج النبوة ولكنه ما تكلم، إلا رياءً وسمعةً، أيضاً يسمّع به ربُّ العالمين - سبحانه - يوم القيامة.

وذهب بعض أهل العلم أن المقصود أيضاً بقوله ﷺ (من سمع): أي ملأ أسماع الناس بعيب فلانٍ أو فلانٍ، الله - جل جلاله - يملأ أسماع العباد بنشر مساوئ هذا العبد، لترى مصيبة الإعلام الآن، الذي ما قام إلا على الإفك والكذب، - إلا من رحم الله - إعلامٌ يذمُّ في الصالحين والمصلحين، وفي الذين يسعون في الخير - ليلاً ونهاراً، ويرفع راية الفساق والمجرمين ويجعلهم أعلاماً، وقدوة للناس، بل ويكرمونهم ويرفعون شأنهم، فهؤلاء توعدهم الله جل جلاله على لسان رسوله - ﷺ - أنه سيُسَمِّعُ بهم في الدنيا والآخرة، ويُفضحون على رؤوس الأشهاد، فاحذر من هذه الخصلة، احذر أن تُسمّع، أو ترائي، أي مكسبٍ يُحصّله العبد إذا قام بعملٍ ظاهره أنه لله وما قام به إلا لغير الله، بل قد خسر آخرته وإن كسب ثناء الناس ومدحهم في دنياء، ولذلك العاقل الذي يحاول أن يُجدد الإخلاص دائماً وأبداً، ويعلم أن الناس لن ينفعوه في قبره، يوم أن يتولى عنه الخلق، كلُّ إنسانٍ يوضع في قبره وحيداً ليس معه مالٌ، ولا صاحبٌ، ولا صاحبةٌ، ولا والدٌ، ولا والدَةٌ، ولا ولدٌ، هنا تظهر ثمرة العمل الصالح، ويظهر للإنسان الغبن العظيم الذي كان فيه، إذا كان مقصراً في طاعة الله.

فالإخلاص من أبرك ما يلقي العبدُ به ربّه، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه والترمذي في السنن وهذه رواية الترمذي، عن عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، أَنَّ شَقِيّاً الْأَصْبَحِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَذَنُوتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ

بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسَأَلُكَ بِحَقِّ وَبِحَقِّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلْ، لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَّنَّا قَلِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعَلْ، لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا، وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًا عَلَى وَجْهِهِ فَاسْتَدْتُهُ عَلَى طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمَنَّكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيهَا عُلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيهَا آتَيْتَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَادَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَوْلَيْتَكَ

الثَّلَاثَةُ أَوَّلَ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عُمَيْرٍ: فَأَخْبَرَنِي عُقْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ أَنَّ شُفْيَا، هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا. قَالَ أَبُو عُمَيْرٍ: وَحَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، أَنَّهُ كَانَ سَيِّفًا لِمُعَاوِيَةَ: قَدْ فَعَلَ بِهِؤُلَاءِ هَذَا فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةَ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْنَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَلِطَلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود: ١٥-١٦] لذلك احذر الرياء رحمك الله .

فائدة : لو أنك عملت العمل لله ، تصدقت بصدقة ، والله وفقك ووفقت موقعها، ثم بعد ذلك جاء الناس يشنون عليك خيراً، يمدحونك ويشكرونك، وأنت ما أردت إلا وجه الله، هل هذا من الرياء ؟

قال أهل العلم: لا، فقد روى مسلم عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) "بُشْرَى بقبول الله عملك، ولذلك قال أهل العلم: نحن نشهد بالله، أن أمثال الإمام أبي حنيفة، والإمام

-
- (١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٨٢)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٨٢٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٠٨)، وصححه الألباني في "صحيح موارد الظمان" (٢١١٩ - ٢٥٠٢) من طريق الوليد بن أبي الوليد، أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ، حَدَّثَهُ بِهِ، وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٩٠٥) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ.
- (٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٤٢)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٢٥)، وأحمد في "مسنده" (٢١٣٨٠) من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، والنووي - رحمة الله عليهم -، بأنهم من أهل الجنة، فهل عندنا نصٌّ بأن هؤلاء الكرام في الجنة؟ وإنما لكثرة ثناء الأمة بأجمعها على هؤلاء الصالحين الكرام والأئمة الأعلام، فلذلك نص شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن الأئمة الكبار الذين أثنت الأمة عليهم وانتفعت الأمة بهم هؤلاء من أهل الجنة.^(١)

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في "النبوات" (ص: ١٠) وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره فهذا لا يمتنع لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة وفيها ثلاثة أقوال قيل لا يشهد بذلك لغير النبي وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلى بن المديني وغيرهم وقيل يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبراً صحيحاً كمن شهد له النبي بالجنة فقط وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما وكان أبو ثور يشهد لآحمد بن حنبل بالجنة وقد جاء في الحديث الذي في المسند يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قالوا بإذا يارسول الله قال بالثناء الحسن والثناء السيء وفي الصحيحين أن النبي ﷺ مر عليه بجنازة فأنشأ عليها خيراً فقال وجبت وجبت ومر عليه بجنازة فأنشأ عليها شراً فقال وجبت وجبت فقليل يارسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنازة أثنتم عليها الخير فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض وفي حديث آخر إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال تلك عاجل بشرى المؤمن والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن ولا يجوز للرجل أن يقول بها لا يعلم ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكنهم فصار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى فمرض فمرضناه ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ وما يدريك أن الله قد أكرمه قالت لا والله لا أدري فقال النبي ﷺ أما هو فقد أتاه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم قالت فوالله لا أزكي بعده أحدا أبداً قالت ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عينا تجري

فائدة أخرى: إذا عمل العبد عملاً لله، ثم طرأ عليه الرياء، - عافنا الله وإياكم -، وهو في أثناء

العمل هل هذا العمل يحبط أو لا؟^(١)

هذه مسألة مهمة جداً، مثال ذلك: قد يصلي المرء لله، لكن وهو يقرأ القرآن في الصلاة، يشعر بدخول أحدٍ، فيحسن في صلاته ويجمّل صوته كي يثني عليه خيراً، فهنا قد طرأ الرياء على أصل النية الصالحة، أي أن الأصل أنه دخل الصلاة بنية خالصة، وعرض الرياء عليها، فهذه صورة. والصورة الثانية: إذا أقام العمل لله ولغير الله في الأصل، أي دخل الصلاة بنية مختلطة من أصلها لله ولأجل فلان، فلكل صورة حكمها.

أما الصورة الأولى: وهي، إذا كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه، فلا يضره بغير خلافٍ، فإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟

في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد، وابن جرير الطبري، ورجحوا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري، وغيره.

وذكر ابن جرير رحمته الله أن هذا الاختلاف إنما هو في عملٍ يرتبط آخره بأوله، كالصلاة، والصيام، والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة، والذكر، وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع

فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال ذاك عمله.

(١) ينظر "جامع العلوم والحكم" لابن رجب الحنبلي (١ / ٧٩)، ومجموع فتاوى الشيخ العثيمين (٢ / ٢٩).

بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية، وكذلك روي عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال: ربما أُحْدِثُ بِحَدِيثٍ وَلِي نِيَّةٌ، فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهِ، تَغَيَّرَتْ نِيَّتِي، فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَاتٍ.

وأما الصورة الثانية : فهذا لا شك يُحْبِطُ العمل، " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ " وهذا يدل على خطر الرياء فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص .

فائدة: ينبغي على العبد منا أن يعبد الله عز وجل ، وأن يجمع الأدلة في المسألة، ولا يأخذ بدليل واحد فيها، حتى لا تذلَّ قدمه، أو يأخذ بجزءٍ من الدليل ويترك بعضه، خاصةً إن كان هناك قيدٌ، أو جاء الدليل في سياقٍ معين، كقصةٍ مثلاً، سبب نزولٍ للآية، أو سبب ورودٍ للحديث، أو استثناء مثلاً، فيهمل كل ذلك ويتنزع النص، مجرداً عما سبق، فيغير مراد الله أو مراد رسوله - ﷺ -، كما معنا في هذه الآية ، قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ﴾

لو أن إنساناً ضالاً، أخذ الجزء الأول من الآية ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ كما فعلها بعض الضلال قال ربك توعد المصلين بالويل، إذن لا نصلي ونترك الصلاة، كما قال شاعرهم الماجن:

دع المساجد للعباد تسكنها وسر إلى خانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للألى سكروا وإنما قال ويل للمصلينا^(١)

نعوذ بالله من الضلال، ولذلك فإننا في هذه السورة، نأخذ منهجاً قوياً، فالخوارج وغيرها

(١) أبو نواس " النصوص المحرمة "

من بعض الفرق الضالة، سلكت هذا المسلك الضالّ، فقد كفّروا المسلمين، وقالوا بوجوب الخروج على حكام المسلمين وقتالهم، وكفّروا المسلمين بالكبائر، وحكموا على مرتكب الكبيرة بأنه مخلّد في نار جهنم، وسبّب ذلك: هو هذا المسلك في الأدلة، أخذوا بعض الأدلة وتركوا بعضها، وهذا فعل الضال الزائع نسأل الله العافية.

فاستدلوا بنحو قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]، أي يقولون بأن مرتكب الكبيرة مخلّد في نار جهنم، وهذا بخلاف عقيدة أهل السنة والجماعة، فأهل السنة يقولون: بأن مرتكب الكبيرة مسلم، لا تخرجه كبريته من الإسلام، إلا إذا استحلها، أما إذا لم يستحلها فهذا مسلم عاصي، ينقص من إيمانه على قدر عصيانه لرب العالمين، ومع ذلك مُهَدَّدٌ بعذاب الله، ولكنّ مآله إلى الجنة، إذا شاء الله عذبه على ذنبه، ثم إذا شاء أخرجته من النار وأدخله الجنة، وقد يكون بعض العصاة له عملٌ جليلٌ، كبيرٌ، فالله يغفر له ابتداءً، ويدخله الجنة، ولكنّ الخوارج حكموا على مرتكب الكبيرة بأنه مخلّد في نار جهنم، السارق إلى جهنم، والزاني، وشارب الخمر إلى جهنم.

وَمِنْ أَدْلَتِهِمْ أَيْضًا: قول الله تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

و يقول النبي ﷺ " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ " (١) أي نائمٌ، وهذه أدلةٌ صحيحةٌ، ثابتةٌ في القرآن

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٥٦)، مسلم في "صحيحه" (١٠٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

والسنة.

وفي الصحيحين عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ^(١) واستدلوا به على أن قاطع الرحم في نار جهنم.

وكذلك استدلوا بقول النبي - ﷺ - " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"^(٢) واستدلوا أيضاً: بقول النبي - ﷺ - " مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ"^(٣)، وكذلك بقول النبي - ﷺ - " . مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ "^(٤)، وبما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - : " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ "^(٥)، قالوا: فمن فعل ذلك فهو مخلص في النار، وهذه عقيدة فاسدة.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٦)، وأحمد في "مسنده" (٨٨٥٥)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٣٢٦) ومسلم في "صحيحه" (٦٣) من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، به.

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٧٦٠)، والنسائي في "سنه" (٤٧٤٧)، والحاكم في "المستدرک" (١٣٣)، من حديث أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٣٥٦)

(٥) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٢٩٧)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

ومن عقيدتهم أيضاً وجوب الخروج على حكام المسلمين الذين يجورون، ويظلمون،
وقتلهم بالسيف ، فهم يُكفّرون المسلمين وبالتالي يستحلون قتلهم، فالمشركون والكفار من
اليهود والنصارى آمنون منهم ، وأهل الإسلام لا يأمنون منهم !

وقد استحلوا قتل عددٍ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، منهم عبدالله بن خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وبقروا
بطن زوجته، ثم وهم يمرّون وجدوا خنزيراً لبعض أهل الذمة فضربه واحدٌ منهم، فقال
أحدهم: كيف تضرب خنزيراً لأهل الذمة، والنبى ﷺ أوصى بأهل الذمة! فهذا جنونٌ، وضلالٌ،
نعوذ بالله من الخذلان .

وما أبلغ ما قاله النبى ﷺ فيهم ، " يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ
الإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ " ^(١)

ومن أصول مذهبهم أيضاً: أنهم يكفرون علياً، وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

وغفلوا أو تغافلوا عن قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] ، وهذه الآية
وحدها، تبطل مذهبهم كله، وما من صاحب بدعةٍ إلا ويستدلُّ بأدلةٍ هي دليلٌ عليه، وليست له .
ومذهب أهل السنة والجماعة، أن الزنا، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس،
وقطع الرحم، أنها ليست بشرك . إن لم يستحلها . ، فلا شك أنه دون الشرك .

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٤٤) ، ومسلم في " صحيحه " (١٠٦٤) ، من حديث أبي سعيد

إِذَا مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] ؟

أي أن صاحب الكبيرة في مشيئة الله، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عاقبه، ثم مآله إلى الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١)، وفي سنن أبي داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي^(٢)، إِذَا الشَّفْعَةُ نَائِلَةٌ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ أَيْضًا.

وأيضاً مما ينقض مذهبهم، قول النبي ﷺ - : "يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً"^(٣)

فهذه عقيدة فاسدة، ومذهب ضال، وجب علينا أن نتنبه لمثل هذه العقائد الباطلة حتى لا تنتشر، أحياناً هذه الأفكار الضالة، تنشأ بسبب ظلم الحكام، يرون ظلماً، ولا يرون عدلاً، ولا يرون متنفساً لهم، فيكفرون الحكام، ويكفرون المجتمع، ومن لم يكفر الكافر فهو كافر، وهكذا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤١١)، وأحمد في "مسنده" (٩٥٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٧٣٩)، والترمذي في "سننه" (٢٤٣٥)، وأحمد في "مسنده"

(١٣٢٢٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، به. صححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٦٤٩)

(٣) (متفق عليه) أخرجه في البخاري في "صحيحه" (٧٤١٠)، ومسلم في "صحيحه" (٣٩٧)، من حديث أنس

يمتد التكفير، ويسري على كل المجتمع، - خلافاً لمن يعتقد مذهبهم الضال -، فهذه آفة عظيمة جداً، وقد قال عنهم رسول الله - ﷺ - " يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمْرُوقِ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ " - سبحان الله -، تراه وهو يصلي من أحسن الناس صلاةً، وأخشاهم لله وأخشعهم، - اللهم ثبتنا على دينك يا رب ولا تفتنا، واربط على قلوبنا بالإيمان -، يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، يمرقون من الدين، أي يخرجون، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ وإرم، وفي رواية: قال النبي - ﷺ -: «تَمَرَّقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوَّلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»^(١)

وقد قال عنهم النبي - ﷺ -: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَنَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) لإفسادهم وذلك لإفسادهم، للأمم - نسأل الله العافية والسلامة -^(٣)

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠٦٤) وأبو داود في " سننه " (٤٦٦٧) والنسائي في " السنن الكبرى " (٨٤٥٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَمَرَّقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوَّلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦١١)، وأبو داود في " سننه " (٤٧٦٧)، والنسائي في " المجتبى " (٤١٠٢)، من حديث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري، به . ولفظه " عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نَعْمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَقُولُ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

والله لا نستطيع أن نحفظ إيماننا، لكن الله الذي يحفظه لنا، وهو الذي يُحِبُّ إليك الإيمان،
ويزينه في قلبك - سبحانه وبحمده -، لذلك وجب عليك دائماً وأبداً أن تلهث: "اللهم أعني على
ذكرِكَ وشُكْرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِكَ" ^(١)، و"يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" ^(٢)، كان هذا جل

ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ، بِذَهَبٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوطٍ لَمْ تُحْصَلْ مِنْ تَرَابِهَا، قَالَ: فَفَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَعَرٍ: بَيْنَ
عُمَيْتَةِ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعِ إِمَّا عَلَقْمَةُ بْنُ عَلَاتَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ، فَقَالَ
رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «أَلَا تَأْمَنُونِي؟ وَأَنَا أَمِينٌ
مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ، نَاشِئُ
الْجُبْهَةِ، كَثُ اللَّحْيَةِ، مَخْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَوْلَسْتُ أَحَقَّ
أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ:
«لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي
لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَتَقَبَّ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشَقَّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ
ضَنْضِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»
قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ: «لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٥٢٢)، والنسائي في "المجتبى" (١٣٠٣)، وفي "السنن الكبرى"
(٩٨٥٧)، وأحمد في "مسنده" (٢٢١١٩)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا
مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنِّي فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ
أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢)
(٢٦٢/

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢١٤٠)، وابن ماجه في "سننه" (٣٨٣٤)، وأحمد في "مسنده"
(١٢١٠٧)، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» وَ
صححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٠٢)

دعاء الرسول ﷺ، يعني أكثر دعاء الرسول ﷺ، فعن شهر بن حوشب، قال: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِهِ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَكْثَرَ دُعَاكَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ آدَمِيٍّ، إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا شَاءَ أَقَامَ، وَمَا شَاءَ أَزَاغَ»^(١).

فنسأل الله سبحانه أن يثبت قلوبنا على الإيمان.

وكل فرقة ضالة فيها غلو من وجه، تقابلها فرقة ضالة، تغلو من وجه آخر، وهكذا الباطل تتعدد مشاربهُ، لكن الحق واحد ومشربهُ واحد لا يتعدد.

فقابلت الخوارج فرقة أخرى، وهي المرجئة، يقولون: ما دمت تشهد ألا اله الا الله، وأن محمداً رسول الله، فأنت من أهل الجنة، حتى لو كنت لا تصلي، أو عاق للوالدين، ولهم أدلة على ذلك، منها:

قول الله عز وجل: ﴿فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥]، وهذا ضلالٌ في الفهم.

ويستدلون أيضاً: بقول النبي - ﷺ - " مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥٢٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٦٦٧٩)، وابن أبي شيبة في "مصنفه

" (٣٠٤٠٦)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، به. و صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٠٩١)

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ.^(١)

وبحديث عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَغَيَّرُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ".^(٢)

وبقول رسول الله - ﷺ - : «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣)

وبحديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ.^(٤)

أرأيت لو أن رجلاً صلى البردين، لكنّه يكفر بالله، ويسب الدين، ويسب النبي محمداً - ﷺ - . فهل هذا مؤمن؟ بل يكون كافراً.

أو يصلي البردين، ويسجد للصنم؟ لا شك أنه كافراً.

إذاً ينبغي على العبد منا أن يجمع الأدلة ولا يأخذ بدليل واحدٍ من طرفٍ في مسألة ما ويترك باقي الأدلة.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥١) من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٢٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٤٠)، من حديث عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم حديث في "صحيحه" (٢٦)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٨٨٧)، وأحمد في "مسنده" (٤٦٤)، من حديث عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

(٤) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٧٤)، ومسلم في "صحيحه" (٦٣٥)، من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، به .

وكذلك استدلووا بحديث عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال " مَنْ اغْبَرَّتْ

قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ " ^(١)

وبقوله - ﷺ - : « لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا » ^(٢) ، أي لو أن مسلماً ، قتل كافراً ، لا

يمكن أن يدخل النار أبداً ؟

لا ، بل عندنا أدلة أخرى ثابتة ، عن الرسول - ﷺ - :

فقد قال ﷺ : «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَقْصُ

لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ " ^(٣) .

وفي حديث آخر : قال - ﷺ - " يَوْمَ يُخْشَرُ الْعِبَادُ - أَوْ قَالَ : النَّاسُ - حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا بِهِمَا

لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدَّيَّانُ ، لَا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ ، وَلَا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ حَتَّى

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٨١١) ، والترمذي في "سننه" (١٦٣٢) ، من حديث عبد الرحمن

بن جبير رضي الله عنه ، به .

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٨٩١) وأحمد في "مسنده" (٩١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

، به .

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٥) وأحمد في "مسنده" (١١٠٩٥) من حديث أبي سعيد

رضي الله عنه ، به .

فهذا دينٌ عظيمٌ عادلٌ، فليس لأني مسلمٌ أفعلُ أيَّ شيءٍ - أسرق، أو أقتل، أو أنهب - لا، بل لك قانونٌ رباني تلتزم به، وتسير عليه حتى تسعد في الدنيا والآخرة.

وهؤلاء المرجئة، لما عملوا بأحاديث وآيات الرجاء فقط، وتركوا غيرها ضلُّوا، فمثلاً:

تركوا قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، والنفاق هنا " نفاق إعتقاد "، وتركوا قول الله تعالى في وصف المنافقين ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] فمن قام يصلي رياءً هل تنفعه صلاته؟ لا تنفعه أبداً، إلا إذا أخلصها لله، وكما مر معنا، أول من تسعر بهم النار ثلاثة، عالم، وشهيدٌ، وجوادٌ، لما كانت الأعمال لغير الله، صارت وبالاً على فاعلها، ولو خلُصت لكانت من أعظم القُرب، نسأل الله العفو والعافية، ونسأله أن يمجينا من عذابه ، فالإنسان كي يصبح طالب علم، لابد أن يتعلم سنين، لابد أن يتغرب، ويترك بلده، ويلتزم العلماء، ويبدل جهداً، ولكي يلقي درساً، لابد أن سبذل جهداً، أقل شيء ساعتين أو ثلاثة، ما بالك بمن عنده درسان، أو ثلاثة في اليوم، كأهل العلماء الكبار، وطلبة العلم الموفقين، لابد أن يجلس أمام الكتب ساعاتٍ طويلةً، كي يلقي درسين أو ثلاثة في اليوم، فانظر لشخصٍ أذهب سنين عمره، وتعرَّب وعانى، وقاسى الجوع والآلام والهموم، وحفظ، وراجع، حتى صار عالماً بعد عمرٍ طويلٍ، ثم بعد ذلك كله يفعله لغير الله،

(١) (حسن لغيره) أخرجه أحمد في " مسنده " (٣٦٠٨)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٣٣١)، والحاكم في "

المستدرک " (٨٧١٥)، من حديث جابر رضي الله عنه، به. وينظر "صحيح الترغيب والترهيب" للألباني (٣٦٠٨)

مصيبةٌ وآفةٌ عظيمةٌ، وكذلك عندما يقول له ربُّ العالمين: "كذبت"، وتقول له الملائكة: "كذبت"، الله عز وجل يقول للملائكة: خذوه إلى النار، فَيَجْرُ على وجهه، لأنه نكس والعياذ بالله، ولم يمشِ سويًا على صراط مستقيم، نسأل الله العافية، يؤخذ بهم إلى النار، هؤلاء أول من تسعر بهم النار.

إذاً لأبد للمرء منا، كي تستقيم عقيدته، يجمع ويوفِّق بين أحاديث النبي - ﷺ -، فيجمع مثلاً، بين قوله: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ"^(١) أي نهام، وقول - ﷺ - "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"^(٢)، وقول النبي - ﷺ - "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْحُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ"^(٣)، ويجمع كذلك بين بقول النبي - ﷺ - "مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ"^(٤)

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٥٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٦)، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٢١)، وأحمد في "مسنده" (٨٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٢٩٤) ومسلم في "صحيحه" (١٠٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩)، والترمذي في "سننه" (٢٦٣٨)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٩٠١)، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَهْلًا، لَمْ تَبْكِي؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ اسْتَشْهِدْتُ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شَفَعْتُ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ اسْتَطَعْتُ لَأَنْفَعَنَّكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ، إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمْ بِهِ الْيَوْمَ، وَقَدْ أَحِيطَ بِنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا

وقد قال - ﷺ - : " أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ :

إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)^(١)

وغير ذلك من الأحاديث، حتى يستقيم فكره، وينضبط مذهبه، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة، الجمع بين جميع النصوص، الوعد والوعيد، وإعمالها جميعاً .

قال الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٢) الماعون: هو الشيء اليسير الذي يحتاجه الناس بعضهم من بعض^(٣)، كان في الزمان الأول، زمان آبائنا، وأجدادنا، من الممكن أن يحتاج الجار من جاره فأساً، يعمل به في الأرض، أو قدراً تطبخ فيه المرأة، أو إبرة، أو حتى دلواً، فالجار يساعد جاره، ويعينه بما عنده، أما هذا المنافق، الذي صفته كذلك، يمنع هذا الماعون، ويبخل بأقل القليل، حتى لو بإبرة كي يخطط بها جاره لا تضره، فهذا - الماعون - الذي يمنع خيره عن غيره، وهذا الخير لا يكلفه، فهذا الجار الذي يمنع الماعون متوعدٌ بهذه الآية العظيمة، وهذه صفة المنافق

رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨١) ، وأحمد في " مسنده " (٨٠٢٩) ، وابن حبان في " صحيحه " (٤٤١١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، به .

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٤ / ٦٦٥) وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مَنَافِعَ مَا عِنْدَهُمْ وَأَصْلُ الْمَاعُونِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَنَفَعَةٌ؛ يُقَالُ لِلْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ: مَاعُونٌ.

وقال ابن كثير رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٤٩٧) بعد ذكره الأقوال في ذلك { تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ . وَهُوَ تَرْكُ الْمَعَاوَةِ بِإِلِ أَوْ مَنَفَعَةٍ {

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ ٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ فما أبرك العمل بالقرآن الكريم، وما أعظم التمسك به، يجعل فكر العبد مستقيماً، وأعماله صالحة، لذلك لم يقل: إن الله لا يدخل الجنة من قال لا إله إلا الله فقط، بل قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ٦٨ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٦٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، أي آمنوا بقلوبهم، مسلمين مستسلمين لأمر ربهم، لا يتركون الصلاة، ولا يقعون في الموبقات، بل يجمعون بين الاعتقاد في القلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح والأركان، حتى يكونوا من السعداء الناجين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى تفسير سورة الماعون، بحمد الله ومنته.

﴿سُورَةُ الْكَوْثَرِ﴾

هي مكية، وآياتها ثلاث، نزلت بعد سورة العاديات.^(١)

ومناسبتها لما قبلها:

أنه وصف في الأولى الذي يكذب بالدين بأمرٍ أربع:
البخل، والإعراض عن الصلاة، والرياء، ومنع المعونة.
وهنا وصف ما منحه رسوله ﷺ من الخير والبركة، فذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير
الكثير، والحرص على الصلاة ودوامها، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء.^(٢)
هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾

والكوثر نهر في الجنة، أعطاه الله لنبينا محمد ﷺ وهو حوض جميل في عرصات يوم القيامة،
تردُّ أمته المباركة عليه ﷺ فيه فمن ورد شرب، ومن شرب لا يظمأ أبداً.
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال الطبري رحمه الله: واختلف أهل التأويل في
معنى الكوثر، فقال بعضهم: هو نهر في الجنة أعطاه الله نبيه محمداً ﷺ...
والكوثر نهر في الجنة، أعطاه الله لنبينا محمد ﷺ وهو حوض جميل في عرصات يوم القيامة،
تردُّ أمته المباركة عليه ﷺ فيه فمن ورد شرب، ومن شرب لا يظمأ أبداً.

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور" (١٥ / ٦٩٤) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت

سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة رضي الله عنهما مثله.

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٢٥١).

ثم قال: وقال آخرون: هو حوضٌ أُعطيَهُ رسولُ الله ﷺ في الجنة...
ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: هو اسمُ النَّهرِ الَّذِي أُعطيَهُ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في الجنة^(١) اهـ.

فمن أنسِ ﷺ - واللفظ لمسلم - قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا إِذْ أَعْمَى
إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفَا سُورَةٍ» فَقَرَأَ:
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثُمَّ قَالَ:

«أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ
كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ،
إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحَدَثْتُ بِعَدْلِكَ»^(٢).

قال الزبيدي رحمه الله: الحوضُ معروف، وهو: مجتمعُ الماءِ^(٣)، ويأتيه الماء من الجنة، وهذا
الحوض قريبٌ من الجنة.

وروي الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الكوثرُ نهرٌ في
الجنة حافتاه من ذهبٍ مجراه على الدرِّ والياقوتِ تربته أطيبُ من المسكِ وماؤه أحلى من العسلِ وأبيضُ
من الثلجِ»^(٤).

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٤/ ٦٧٩: ٧٨٥)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٠٠)، وأبو داود في "سننه" (٤٧٤٧) مختصراً، من حديث أنس
رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "تاج العروس" للزبيدي (١٨ / ٣٠٨)

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٦١)، وابن ماجه في "سننه" (٤٣٣٤)، من حديث ابن عمر

وروى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله ما آيةُ الحَوْضِ قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاعِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخَرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ^(١) فِيهِ مِزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»^(٢). قال الحافظ رحمه الله: وظاهر الحديث أَنَّ الحَوْضَ بِجَانِبِ الْجَنَّةِ لِيَنْصَبَّ فِيهِ الْمَاءُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي دَاخِلُهَا^(٣).

وأما هل هو خاصٌّ بالنبي ﷺ دون غيره من الأنبياء أم لا؟

فأما نهر الكوثر الذي يُصبُّ من مائه في الحوض فإنه لم يُنقل نظيره لغير النبي ﷺ وقد امتنَّ الله عليه به في السورة، فلا يبعدُ أنه خاصٌّ بنبينا ﷺ دون غيره من الأنبياء.

وأما حوض الكوثر، فقد قال الحافظ رحمه الله: وَقَدْ اشتهر اختصاصُ نبيِّنا ﷺ بِالْحَوْضِ^(٤). ومن صرح بذلك القرطبي رحمه الله^(٥)، لكن أخرج الترمذي من حديث سمرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةٌ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ

رضي الله عنه، به.

وصححه الألباني في "صحيح الجامع وزيادته" (٤٦١٥).

(١) قال الزبيدي رحمه الله في "تاج العروس" (١٠٥ / ٣) الشَّخْبُ: السَّيْلَانُ. وَأَصْلُ الشَّخْبِ: مَا خَرَجَ مِنْ تَحْتِ يَدِ الْحَالِبِ عِنْدَ كُلِّ عَمْرَةٍ وَعَصْرَةٍ لِيَضْرَعَ الشَّاةُ.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٣٠٠)، والترمذي في "سننه" (٢٤٤٥)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (١١ / ٤٦٦).

(٤) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (١١ / ٤٦٧).

(٥) ينظر "التذكرة" للقرطبي (٢ / ٧١٣).

أَكْثَرُهُمْ^(١). وهذا الحديث جميعُ أسانيده ضعيفة^(٢)، لكن حكم بعض العلماء^(٣) له بالقبول؛ لكثرة أسانيده كما فعل الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي الصَّحِيحَةِ^(٤)، ومنهم مَنْ حكم عليه بالضعف .
فإذا ثبت الحديث كان المختص بنبينا ﷺ النهر دون الحوض، وإن لم يثبت فلا يبعد أن يكون الحوض أيضاً خاصاً به ﷺ دون غيره .

وهنا مسألة جليّة، نريد أن نعرف صفات الحوض وَمَنْ يَرُدُّ هَذَا الْحَوْضَ وَمَنْ يُرَدُّ عَنْهُ؟

لك أن تتخيل عندما تدنو الشمسُ مِنْ رُؤُوس العباد بمقدار ميلٍ، ما مدى العطش الذي يتتاب الخلق؟ عطشٌ لا يوصف، فعن المقداد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»^(٥).

أمّا عن صفات الكوثر: فعندنا ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهْرٍ، حَافَتَاهُ قَبَابُ الدَّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٤٣)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٦٨٨١). وصححه

الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٥٨٩)

(٢) قال الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ رَوَى الْأَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُرْسَلًا وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ: عَنْ سَمُرَةَ وَهِيَ أَصَحُّ.

(٣) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي " البداية والنهاية " (١٩ / ٤٦٩): هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَهُوَ مُرْسَلٌ عَنِ الْحَسَنِ، وَهُوَ حَسَنٌ، صَحَّحَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ وَغَيْرُهُ، وَقَدْ أَفْتَى شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُرِّي بِصِحَّتِهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ.

(٤) ينظر " السلسلة الصحيحة " للألباني (١٥٨٩)

(٥) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٤)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢١) وأحمد في " مسنده "

(٢٣٨١٣) وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٣٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، به .

قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِيئُهُ - أَوْ طِيئُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ^(١). قَالَ ابْنُ الْمَلْقَنِ: زَكِيُّ الرَّائِحَةِ^(٢).

وفي المسند عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « أُعْطِيَ الْكَوْثَرُ، فَإِذَا هُوَ نَهْرٌ يَجْرِي كَذَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حَافَّتَاهُ قِابُ اللَّوْلُؤِ، لَيْسَ مَشْقُوقًا، فَضْرَبْتُ بِيَدِي إِلَى تَرْبَتِهِ، فَإِذَا مِسْكُهُ ذَفْرَةٌ، وَإِذَا حَصَاهُ اللَّوْلُؤُ^(٣) ».

وفي المسند عَنْهُ أَيْضًا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَوْثَرِ، فَقَالَ: « نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَفِيهِ طَيْرٌ كَأَعْنَاقِ الْجُرُزِ (الإبل) ». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ تِلْكَ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ. فَقَالَ: « أَكَلْتَهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ ». وصححه الألباني^(٤).

وأما صفات الحوض الذي في أرض المحشر، فمنها:

مارواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ (شَهْرٌ أَيْضًا) مَاؤُهُ أَيْضُ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكَبِيرَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا^(٥) ».

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٨١)، وأحمد في "مسنده" (١٢٩٨٩)

(٢) ينظر "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" لابن الملقن (٤٧٤ / ٣٣)

(٣) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٢٥٤٢)، وأبو يعلى في "مسنده" (٣٥٢٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

، به. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٥١٣)

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥١٤)، وأحمد في "مسنده" (١٣٣٠٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٥١٤).

(٥) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٧٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٩٢)، من حديث عبد

الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

قال السادة العلماء: (وَكَيْزَانُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ) أي في البياض والتلألؤ وفي الكثرة، أي هناك أنية كثيرة جداً بعدد نجوم السماء وفي هيئتها في البياض والصفاء.

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال قال نبي الله ﷺ: "تُرَى فِيهِ أَبَارِيقُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ"^(١)، وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا»^(٢).

وفيه أيضاً عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ ؛ فَقَالَ : «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ يَغْتُ (يَصُبُّ) فِيهِ مِزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ (فضية)»^(٣).

وأحاديث الحوض لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ، فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمسين صحابياً، وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أَسْمَاءَهُمْ فِي الْفَتْحِ^(٤)،

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣٠٣) ، وأحمد في " مسنده " (١٣٤٩٦) وابن حبان في " صحيحه " (٦٤٥٤) ، من حديث أنس رضي الله عنه ، به .

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣٠٠) ، والترمذي في " سننه " (٢٤٤٥) ، وأحمد في " مسنده " (٢١٣٢٧) ، من حديث أنس رضي الله عنه ، به .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣٠١) ، وأحمد في " مسنده " (٢٢٤٠٩) والبخاري في " مسنده " (٤١٩٠) ، من حديث ثوبان ، به .

(٤) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي " تفسير القرآن العظيم " (٨ / ٥٠٢) { بَلْ قَدْ تَوَاتَرَ مِنْ طَرِيقٍ نُعِيدُ الْقَطْعَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ } .

وقال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللهُ فِي " شرح الطحاوية " (١ / ٢٧٧) الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بَضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا ، وَلَقَدْ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ بْنُ كَثِيرٍ ،

حتى قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي "المفهم": "ومما يجب على كُلِّ مَكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَهُ، وَيَصَدِّقَ بِهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَصَّ نَبِيَهُ مُحَمَّدًا - ﷺ - بِالْكَوْثَرِ الَّذِي هُوَ الْحَوْضُ الْمَصْرَحُ بِاسْمِهِ، وَصِفَتِهِ، وَشِرَافِهِ وَأَنِيَّتِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ الصَّحِيحَةِ الشَّهِيرَةِ، الَّتِي يَحْصُلُ بِمَجْمُوعِهَا الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ، وَالْيَقِينُ التَّوَاتُرِيُّ؛ إِذْ قَدْ رَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - مِنْ الصَّحَابَةِ نَيْفٌ عَلَى الثَّلَاثِينَ، فِي الصَّحِيحِينَ مِنْهُمْ نَيْفٌ عَلَى الْعَشْرِينَ، وَبَاقِيهِمْ فِي غَيْرِهِمَا، مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ، وَاشْتَهَرَتْ رِوَايَتُهُ، ثُمَّ قَدْ رَوَاهَا عَنْ الصَّحَابَةِ مِنَ التَّابِعِينَ أَمْثَالُهُمْ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تِلْكَ الْأَحَادِيثُ مَعَ تَوَالِي الْأَعْصَارِ، وَكَثْرَةِ الرِّوَاةِ لَهَا فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ، تَتَوَافَرُ هُمُ النَّاقِلِينَ لَهَا عَلَى رِوَايَتِهَا وَتَخْلِيدِهَا فِي الْأَمْهَاتِ، وَتَدْوِينِهَا، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَيْنَا، وَقَامَتْ بِهِ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْنَا، فَلَزِمْنَا الْإِيمَانَ بِذَلِكَ، وَالتَّصَدِيقَ بِهِ، كَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَأَهْلُ السَّنَةِ مِنَ الْخَلْفِ، وَقَدْ أَنْكَرْتَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، وَأَحَالُوهُ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَغَلَوُا فِي تَأْوِيلِهِ مِنْ غَيْرِ إِحَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَلَا عَادِيَّةٍ تَلْزَمُ مِنْ إِقْرَارِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَا مَنَازَعَةٍ سَمْعِيَّةٍ وَلَا نَقْلِيَّةٍ تَدْعُو إِلَى تَأْوِيلِهِ، فَتَأْوِيلُهُ تَحْرِيفٌ صَدَرَ عَنْ عَقْلِ سَخِيفٍ خَرَقَ بِهِ إِجْمَاعَ السَّلَفِ، وَفَارَقَ بِهِ مَذْهَبَ أَئِمَّةِ الْخَلْفِ..^(١)".

وأما عن موقع الحوض في أرض المحشر:

فقد اختلف العلماء في هذا:

فمنهم مَنْ قَالَ: إنه يكون بعد الصراط^(٢)، وهذا ليس بصحيح.

تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، الْمُسَمَّى بِ "الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ".

(١) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (١١ / ٤٦٨)

(٢) ينظر "المفهم" لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم "لأبي العباس القرطبي (٦ / ٩٠)

(٣) نسبه الإمام القرطبي في "التذكرة" (٢ / ٧٠٢) لصاحب القوت وتعقبه.

ومنهم من قال: إنه يكون قبل الصراط وهو قول الأكثرين، وهو الراجح والله أعلم؛ لأنه يؤخذ بعض من يرد عليه إلى النار، فلو كان موقعه بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه، لأنهم يكونون قد سقطوا في النار والعياذ بالله^(١).

ولا بد لنا أن نتعرف على أسباب الورود وأسباب الصدود عن هذا الحوض المبارك؛ فليس كل من انتمى للأمة المحمدية سينال نعمة وشرف الشرب من حوض النبي ﷺ، بل قد صرحت الأحاديث أن هناك من رجال هذه الأمة ممن يُذاد ويُدفع عن الحوض دفعا شديداً، نسأل الله العافية .

*** فَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سيشربون؟ وَمَنْ أولئك الذين سيدفعون؟**

لقد أجاب الرسول ﷺ على هذا السؤال إجابةً واضحةً شافيةً حتى لا يبقى لمعتذرٍ عذرٌ، ولا لمتقاعسٍ حجةٌ، فقد روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإننا إن شاء الله بكم لأحقون وددت أنأ قد رأينا إخواننا" قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: "أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد" فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أممتك يا رسول الله؟ فقال: "أرايت لو أن رجلاً له خيلٌ غرٌ محجلةٌ بين ظهري خيلٍ دهمٍ بهمٍ لا يعرف خيله؟" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا ليدادن رجالٌ عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم: ألا هلم فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك فأقول: سُحْقاً سُحْقاً"^(٢).

(١) قال ابن حجر رحمه الله في "فتح الباري" (١١ / ٤٦٦) : فَعَايَهُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ الْقُرْطُبِيِّ أَنَّ الْحَوْضَ يَكُونُ قَبْلَ الصَّرَاطِ فَإِنَّ النَّاسَ يَرُدُّونَ الْمُوقِفَ عَطَاشَى فَيَرِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْحَوْضَ وَتَسْقَاطُ الْكُفَّارُ فِي النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا عَطِشْنَا فَنُفِّرَعْ هُمْ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فَيَقَالُ أَلَا تَرُدُّونَ فَيَطْنُونَهَا مَاءً فَيَتَسَاقَطُونَ فِيهَا.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٤٩)، وابن ماجه في "سننه" (٤٤٤٨)، وأحمد في "مسنده" (٩٢٩٢).

والغُرَّةُ: بياضٌ في وجه الفرس^(١)، والتحجيلُ: بياضٌ في قوائمه^(٢). و(دُهمٌ بهم) أي: أسود شديدٌ خالصٌ لا يخالطه لونٌ آخر^(٣)، فَرَطُهُمْ: أَسْبَقُهُمْ^(٤).

انظر إلى شرف الوضوء، إذن احرص على أن تكون على طهارةٍ ما استطعت، واستمسك بالسُّنة - وإن أفتاك بخلافها مَنْ لا خلاقَ له - وخاصةً في زماننا هذا؛ حيث كثرت الفتنُ والمعاصي وتغيرتِ الأمورُ، ونحن نغبط إخواننا الذين توفاهم الله على الإيثار، ولم يروا هذه الفتنَ.

وفي البخاري ومسلم عن أبي حازمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْخَوْصِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَطْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ". قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ وَأَنَا أَحَدَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتُ سَهْلًا يَقُولُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فَيَقُولُ: [أي النبي ﷺ]: "إِنَّهُمْ مِنِّي" فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: "سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي"^(٥).

قوله: "ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ"، أي: الملائكة تطردهم طرداً، فاحذر ولا تغترَّ بالدعوة إلى تجديد الخطاب الديني، فالدين ثابتٌ وأساسه معلومٌ وشرائعه بيّنة واضحةٌ بينها رسولُ الله ﷺ.

(١) ينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١٦ / ٨)

(٢) ينظر "تهذيب اللغة" للأزهري {٨٨ / ٤}

(٣) ينظر "لسان العرب" (٣٧٧ / ١)

(٤) ينظر "الغريب المصنف" لأبي عبيد (٩٣٦ / ٣)

(٥) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٥٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٩٠)

والصحابه والتابعون، وبينها السادة العلماء وما زالوا يبينونها ويوضحونها للناس فنسأل الله اللطف والسلامة.

وعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَذُوْدَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيْبَةُ مِنَ الْإِبِلِ عَنْ الْحَوْضِ"^(١).

الأصل أن الملائكة هي التي تدفعهم، ولكن هو أيضاً - ﷺ - يدفع بعض المبتدعة والظلمة. والله حَسْرَةٌ ما بعدها حَسْرَةٌ، أن يقول الرسول ﷺ لأحد المسلمين: ارجع يا أيها المبتدع، ارجع يا أيها الظالم، ارجع يا سفك الدماء، ارجع يا أكل الربا، نسأل الله العافية .

قال القرطبي رحمته الله: " قال علماءنا رحمهم الله أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدّهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها (الذين يُكفّرون المسلمين بالكبيرة كالسرقة ويحكمون عليهم بالخلود في جهنم أبد الآبدين)، والروافض على تباين ضلالها (أي الشيعة الذين يسبون أبا بكر وعمر وعثمان ويوالون علياً ونفراً يسيراً من الصحابة كعمار وغيره قرابة خمسٍ أو ستٍ منهم) ، والمعتزلة على أصناف أهواءها، ومن نحا نحوهم أو سلك طريقهم، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطمس الحق وقتل أهله وإذلاله، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي (كالذي يستخف بالزنا أو قتل النفس أو الربا أو شرب الخمر)، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .. "^(٢).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٣٦٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٠٢)

(٢) ينظر " التذكرة " للقرطبي (٢ / ٧١٠).

لذلك وجب علينا أن نعتني بأنفسنا ونعمل أعمالاً صالحةً ليزيدَ إيماننا ونُرضيَ ربنا ونلقى نبيّنا كالصلاة والصيام وتلاوة القرآن وتدبره والاجتهاد في أعمال الخير وسلامة الصدر وطلب العلم والعمل به ودلالة الناس على الخير.

* ومن معاني الكوثر: الخير الكثير^(١).

ويدخل في الخير الكثير كثرة أتباعه ﷺ ويُسرُّ شريعته، والخير العظيم الذي أعطاه الله إياه في الدنيا والاخرة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي: كما أعطيناك الكوثر وأنعمنا عليك بالخير الكثير، فصلِّ لربك واجعل صلاتك كلها لله، وأنت كذلك أيها المتبع لشريعته ﷺ المعظم لسنته، اجعل صلاتك كلها لله فريضتها ونافلتها.

(وانحر) لا تذبح لغير الله كما كان المشركون يذبحون للأصنام؛ فهذا شرك بالله، والنحر: نحر الإبل، وهو يقوم مقام البقر والغنم وما شابه ذلك، يعني أن يطعن الرجل في لبتها أي لبة الابل، عند منتهى العنق، والمعنى: اجعل نحرك وصلاتك له جل جلاله.

ومن أهل العلم مَنْ قال: أن المراد بالصلاة صلاة العيد، والنحر المراد به الأضحية^(٢).

ومنهم مَنْ قال: اجعل يدك عند نحرك في الصلاة^(٣).

ومنهم مَنْ قال: الصلاة صلاة الغداة في فجر يوم مزدلفة، والنحر نحر البدن بمنى^(٤).

(١) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٦٨٢ / ٢٤) {وَقَالَ آخَرُونَ: عُنِيَ بِالْكَوْثَرِ: الْخَيْرُ الْكَثِيرُ}

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٦٩٣ / ٢٤) {وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ: صَلَّ يَوْمَ النَّحْرِ صَلَاةَ الْعِيدِ، وَأَنْحَرْ نُسُكَكَ}.

(٣) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٦٩١ / ٢٤) {وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِقَوْلِهِ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ، وَيَقُولُهُ ﴿وَأَنْحَرْ﴾ أَنْ يَرْفَعَ يَدَيْهِ إِلَى النَّحْرِ، عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ وَالْدُّخُولِ فِيهَا}

والقول الأول هو الذي عليه أكثر أهل العلم، أي: واجعل صلاتك كلها لله^(١).

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ شانتك يعني مبغضك، أي أن مبغضك يا محمد هو الأبتَر؛ لأن المشركين قالوا أن محمداً أبتَر والعياذ بالله، أي أن محمداً لا ذكْرَ له؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - ليس له ولدٌ يحمل اسمه مِن بعده، فقد تَوَفُّوا كُلُّهُمْ وهم صغارٌ، لكنَّ ربَّ العالمين أجاب عن ذلك بنفسه، فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وقال عن أعدائه وخصومه مِن المشركين ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي أن مبغضك هو المقطوع الذكر^(٢)، وهو الخسيس الذليل، أما أنت يا محمد فسأنتشر ذكرك، في الأولين والآخرين، ويغبطك الأولون والآخرين يوم القيامة، وآدم ومن بعده من الأنبياء يكونون تحت لواءك يا محمد، ولكن قطع الله ذكْرَ أبي جهل وأبي لهب وهؤلاء الكفار المشركين الذين حاربوا الدين، وأرادوا أن يطفئوا نور الله، ولكن أراد الله أن يتم نوره. وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم تفسير سورة الكوثر والحمد لله رب العالمين.

(١) ينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٢٤٩/٩) ونسبه لمجاهد.

(٢) قال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٤ / ٦٩١) وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأُقُولِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَاجْعَلْ صَلَاتَكَ كُلَّهَا لِرَبِّكَ خَالِصًا دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلِهَةِ، وَكَذَلِكَ نَحْرُكَ اجْعَلْهُ لَهُ دُونَ الْأَوْتَانِ، شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرِ الَّذِي لَا كُفَاءَ لَهُ، وَخَصَّكَ بِهِ، مِنْ إِعْطَائِهِ إِيَّاكَ الْكَوْثَرَ.

(٣) قال الفراء رحمه الله في "معاني القرآن" (٣ / ٢٩٦) { وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ كانوا يقولون: الرجل إذا لم يكن له ولد ذكر أبتَر أي: يموت فلا يكون له ذكر. فقالها بعض قريش للنبي ﷺ، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مبغضك، وعدوك هو الأبتَر الذي لا ذكر له بعمل خير، وأما أنت فقد جعلت ذكرك مع ذكري، فذلك قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

﴿سُورَةُ الْكَافُرُونَ﴾

هي مكية^(١)، وآياتها ستّ، نزلت بعد سورة الماعون.

ومناسبتها لما قبلها:

أنه في السورة السابقة أمر رسوله ﷺ بعبادته، والشكر له على نعمه الكثيرة، بإخلاص العبادة له، وفي هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف^(٢).

سبب نزولها:

لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شرّكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك كنت قد شرّكتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون: ١ - ٦] .. اهـ

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (٧١٠ / ١٥) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت

سورة ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال : أنزلت بالمدينة ﴿قُلْ

يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ، وقال ابن عطية رحمه الله في " المحرر الوجيز " (٥٣١ / ٥) وهي مكية إجماعاً.

(٢) تفسير المراغي (٢٥٤ / ٣٠)

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٧٠٣ / ٢٤)، وابن هشام في " السيرة " (٣٦٢ / ١) وينظر " الدر المنثور

" للسيوطي (٧١٢ / ١٥)

هذا سبب النزول، وهو وإن كان فيه ضعف، لكنه جاء بأكثر من طريق، ولذلك حسنه بعض أهل العلم^(١).

فسبب النزول هذا يدلنا على الاستمسك والاعتصام بالدين، وعدم التنازل عن الدين والهدى المستقيم أبدا مهما كانت المغريات.

وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَا لَا يَكُونُ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَيَزُوجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ وَيَطْئُونَ عَقِبَهُ فَقَالُوا: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدٌ وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آهَتِنَا وَلَا تَذْكُرْهَا بِشَرٍّ؛ فَإِنْ بَغَضْتَ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَلَكَ فِيهَا صَلَاحٌ. قَالَ ﷺ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: تَعْبُدُ إِلَهَنَا سَنَةَ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً قَالَ ﷺ: «حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي» فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ: ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾ السُّورَةُ^(٢).

يعني يا أيها المسلم مهما كانت المغريات - من محن وفتن وغير ذلك - فإياك إياك أن تتنازل عن هذا الدين العظيم فهو - والله - عزك وهو سبب غناك وسبب سعادتك في الدنيا والاخرة. وانظر كيف تلى عليهم الرسول ﷺ هذه السورة العظيمة فقطع أطماعهم.

(١) ينظر "الاستيعاب في بيان الأسباب" (٣/ ٥٧٢).

(٢) أي: يمشون خلفه.

(٣) (ضعيف) أخرجه الطبراني في "المعجم الصغير" (٧٥١)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ٧١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ضعيف؛ من أجل أبي خلف وهو ضعيف كما في التقريب. ينظر "الاستيعاب" {٣/ ٥٧١}

ومما يُذكر أيضاً في السيرة^(١) في زمان أبي طالب - لما كان حياً، وأيضاً في سندها ضعف^(٢) - أنَّ المشركين مشوا إليه ليُكفَّ رسول الله ﷺ عن دعوته فقال رسول الله ﷺ: يَا عَمَّ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِهِ.

من أسماؤها:

هذه السورة يسميها السادة العلماء: (براءة من الشرك)^(٣) ويسمونها مع سورة الإخلاص: سورتا التوحيد^(٤) وقد جمعنا أصناف التوحيد الثلاثة: فسورة الإخلاص تتحدث عن توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية، وسورة الكافرون تتحدث عن توحيد العبادة^(٥).

(١) أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" (٢/ ١٣٥٦)، وابن هشام في "السيرة" (٢/ ١٠١)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ١٨٧).

(٢) (ضعيف) ينظر "السلسلة الضعيفة" للألباني (٩٠٩) حكم بضعفه من أجل الإعضال، ولكن ذكر له طريقاً آخر بسند حسن بلفظ "جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: أ رأيت أحمد؟ يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فأنه عن أذانا، فقال: يا عقيل، اتنني بمحمد، فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم، وفي مسجدهم، ذلك، قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره (وفي رواية: فحلق رسول الله ﷺ ببصره) إلى السماء فقال: ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة. يعني الشمس قال: فقال أبو طالب: ما كذب ابن أخي. "السلسلة الصحيحة" (٩٢)

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٥٠٧). هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، وَهِيَ أَمْرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ

(٤) قال الشيخ خالد السبت في "المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير" وتسمى مع سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ بـ "المُفَشِّشَتَيْنِ" بمعنى أنهما تبرئان من الشرك وأوضاره، تقششان من الشرك، تبرئان منه، كما يقال لسورة براءة أيضاً: "المُفَشِّشَةُ" هذا يذكر في أسماؤها المتعددة.

(٥) وقال الحافظ: وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا الْمُفَشِّشَةُ أَيِ الْمُبَرِّئَةُ مِنَ النَّفَاقِ. فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٣٣)

فضلها:

هذه السورة براءةٌ من الشرك، لذلك يتأكد استحبابُ تلاوةِ هذه السورة في المواطن الآتية:

١- في ركعتي الطواف: روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ - رضي الله عنهم - قال له: أَخْبِرْنِي عَنْ حُجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾»...، الحديث^(١)

فيسن لك بعد الطواف أن تصلي ركعتين خلفَ مقام إبراهيم ﷺ تقرأ في الركعة الأولى: الفاتحة والكافرون وفي الركعة الثانية: الفاتحة والإخلاص.

٢- في الركعة الأولى من سنة الفجر وسنة المغرب: روى مسلم أيضاً في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٢). أي في سنة الفجر، وروى أحمد في مسنده عن ابنِ عمر: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةِ مَرَّةً: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٣).

إذن عندك سنة الفجر وسنة المغرب وركعتي الطواف تقرأ بالأولى: الكافرون وبالركعة الثانية: الإخلاص.

-
- (١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٢١٨) في قصة حجة النبي وهو حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل، والمراد بالركعتين في الحديث ركعتي الطواف عند مقام إبراهيم عليه السلام.
- (٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٦٣٧)، وأبو داود في "سننه" (١٢٥٦)، والنسائي في "سننه" (٩٤٥)، وابن ماجه في "سننه" (١١٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.
- (٣) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٧٦٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

٣- قبل النوم: لكن تنازع العلماء في صحته، روى الإمام أحمد في مسنده عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه، قال: دَفَعَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَهُ أُمَّ سَلَمَةَ، وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنْتَ ظُرِّي». فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ ﷺ: «مَا فَعَلْتَ الْجَارِيَّةُ، أَوِ الْجَوِيرِيَّةُ؟» قُلْتُ: عِنْدَ أُمِّهَا، قَالَ ﷺ: «فَمَجِيءٌ مَا جِئْتُ؟»، قُلْتُ: تُعَلِّمُنِي مَا أَقُولُ عِنْدَ مَنْأَمِي، فَقَالَ ﷺ: «اقْرَأْ عِنْدَ مَنْأَمِكَ» قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتَمَتِهَا؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرْكِ ﴿٢﴾.

وَعَنْ جَبَلَةَ بْنِ حَارِثَةَ - وَهُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فَرَاشِكَ فَاقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، حَتَّى تَمُرَّ بِأَخْرِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرْكِ» ﴿٣﴾. هَذَا الْحَدِيثُ ضَعْفُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ﴿٤﴾ وَلَكِنْ صَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ ﴿٥﴾.

ومما ثبت من أذكار النوم: حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ،

(١) (حسن) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٣٨٠٧)، والحاكم في "المستدرک" (٢١٠٥)، وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي "سننه" (٥٠٥٥)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٥٦٩)، والدارمي في "سننه" (٣٤٧٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٨٩)، ولفظه عَنْ فَرَوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لِنَوْفَلٍ: «اقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ نَمْ، عَلَى خَاتَمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرْكِ»، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٩٢).

(٢) (صحيح الإسناد) أخرجه "النسائي في "الكبرى" (١٠٥٦٨) "الطبراني في "الطبراني الكبير" (٢١٩٥)، وفي "المعجم الأوسط" (٨٨٨)، وينظر "عُجَالَةُ الرَّائِبِ الْمُتَمَنِّي فِي تَخْرِيجِ كِتَابِ «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»" لابن السُّنِّي لِلشَّيْخِ سَلِيمِ الْهَلَالِي (٢/ ٢٨٨) قد حكم بصحة إسناده

(٣) رجح الإمام الدارقطني رحمه الله في العلل وقفه على فروة بن نوفل الأشجعي، السؤال (٣١٧٤) - (١٣/ ٢٧٧).

(٤) ينظر "صحيح الجامع" (٢٩٢)

وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ^(١). فتقرأ سورة الكافرون وهذا الدعاء وآية الكرسي^(٢) وهكذا.

يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وهذه تشمل جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا الخطاب لجميع ملل الكفر من اليهود والنصارى والمشركين وعباد النار وعباد الأوثان وغيرهم. مثاله: قل يا أيها النصارى لا أعبد المسيح الذي تعبدونه؛ لأنه ليس بإله ولا يستحق العبادة إنما إلهي الذي أعبدته: الكامل في صفاته هو المستحق للعبادة لا شريك له. وقل يا أيها اليهود لا أعبد عَزِيزًا الذي تعبدونه؛ لأنه ليس بإله ولا يستحق العبادة إنما إلهي الذي أعبدته هو المستحق للعبادة لا معبود بحق إلا الله، وقس على

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٤٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧١٠)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، به.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٣١١)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٧٢٩)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٢٤٢٤).

هذا. فهذه السورة هي براءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي أمرَةٌ بالإخلاص في كل عمل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: وَلَا أَنْتُمْ تعبدون الله وحده لا شريك له؛ لأنكم تشركون مع الله غيره وهي عبادة غير مقبولة وليست بصحيحة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي: لا أسلك ولا أقتدي بهذه العبادة ما دمت لا تعبدون ما أعبد. وهذا ليس تكراراً، قال بعض السادة العلماء: إنها هو تأكيد^(١).

وبعضهم قال - ومنهم ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - بأن الموطن الثاني تأكيدٌ بجملته اسمية وهو أكد في النفي^(٢).

(١) كالرازي في " التفسير الكبير " { ٣٢ / ١٣٥ } المسألة الأولى في هذه الآية قولان أحدهما أنه لا تكرار فيها والثاني أن فيها تكراراً أما الأول فتقريره عن وجوه ثم قال (القول الثاني وهو أن نسلم حصول التكرار وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه الأول أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير أحسن ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله (ﷺ) في هذا المعنى مراراً وسكت رسول الله (ﷺ) عن الجواب فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال الوجه الثاني أنه كان القرآن ينزل شيئاً بعد شيء وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالمشركون قالوا استلم بعد آلهتنا حتى نؤمن بإهلك فأنزل الله ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إهلك شهراً فأنزل الله ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضرًا للبتة

(٢) ينظر " مجموع الفتاوى " لشيخ الإسلام بن تيمية (١٦ / ٥٣٤ - ٦٠١) ذكر فصلاً في ذلك.

وقال الامام البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: «الآن، ولا أُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي» وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: «لَكُمْ دِينُكُمْ»: «الكُفْرُ»، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ «الإِسْلَامُ»^(١).

وقفة: والحاصل أن هذه السورة العظيمة تدل على الثبات على المنهج القويم، فهذه تذكرة لنا سواء كنت في بلاد المسلمين أو سافرت إلى بلاد الكفار، فله در عبد الله بن حذافة، فعن أبي رافع، قال: وَجَّهَ عُمَرُ رضي الله عنه جَيْشاً إِلَى الرُّومِ، فَأَسْرُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ رضي الله عنه، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه. فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَصَرَّ، وَأَعْطِيكَ نِصْفَ مُلْكِي؟ قَالَ رضي الله عنه: لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مُلْكِ الْعَرَبِ مَا رَجَعْتُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه طَرَفَةَ عَيْنٍ^(٢).

وَمِنْ بركة الثبات أَنَّ ربنا جل جلاله يَخْتِمُ بالتوحيد للعبد إذا رآه وعلم أنه ثابت على دينه معتر بإسلامه. قال الحافظ ابن كثير: فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ^(٣).

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٧٨ / ٦)، وقال يُقَالُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ «الكُفْرُ»، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: «الإِسْلَامُ»، وَلَمْ يَقُلْ دِينِي، لِأَنَّ الْآيَاتِ بِالنُّونِ، فَحُذِفَتِ الْيَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿يَهْدِيَنِي﴾ [الكهف: ٢٤] وَ﴿يُشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]: «الآن، وَلَا أُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي»، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي (١١ / ٢)، و"الإصابة" للحافظ ابن حجر (٩٥ / ٠٦).

(٣) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٨٧ / ٢)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ

فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يحينا على البراءة من المشركين؛ فهذه ملة إبراهيم عليه السلام إذ تبرأ من أبيه وقومه قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. فنحن نعيش في زمانٍ تسمع الناس فيه يتحدثون عن قوانينٍ وضعيةٍ وكأنها قوانين من السماء، يريدون أن يستبدلوا بكلام الله جل جلاله هذه القوانين! فأنت كمسلمٍ وجب عليك أن لا ترضى بهذا أبدا بينك وبين الله؛ أنت لا تستطيع أن تغير شيئا ولكن عليك بنفسك. وبالمثل العالم كله الآن بدون استثناء، يردد الديمقراطية وكأنها شريعة من السماء، وهي ليست بدينٍ فنحن لا نرضى إلا بما شرعه الله ونتبرأ من كل دينٍ يخالف دين الإسلام، وكل طريقة لم يأت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونسأل الله أن يختم لنا جميعا بالصالحات،

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم تفسير سورة الكافرون بفضل الله وعونه وتوفيقه.

عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ.

﴿سُورَةُ النَّصْرِ﴾

هذه السورة آخر سورة نزلت من كتاب الله تعالى عند جماهير أهل العلم، وأما آخر آية نزلت فقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وهي آية مستقلة، وسورة النصر هي آخر سورة نزلت بتمامها^(١)، وهي مدنية بإجماع^(٢)، وتسمى سورة (التوديع)^(٣)، وهي ثلاث آيات، نزلت بعد سورة التوبة.

ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه، ودين الكفار الذي يعكفون عليه - أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول، وأن

(١) وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الجامع لأحكام القرآن" {٥٣٨ / ٢٢} {وهي آخر سورة نزلت جميعاً قاله ابن عباس رَحِمَهُمَا اللَّهُ فِي صحيح مسلم.

(٢) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الدر المنثور" (٧٢٠ / ١٥) أَخْرَجَ ابن مردويه عن ابن عباس رَحِمَهُمَا اللَّهُ قَالَ: أَنْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وَأَخْرَجَ ابن مردويه عن ابن الزبير رَحِمَهُمَا اللَّهُ قَالَ: أَنْزَلَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ الْمَدِينَةَ. وَأَخْرَجَ ابن جرير عن عطاء بن يسار قَالَ: نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كُلُّهَا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي الدِّينِ يَنْعَى إِلَيْهِ نَفْسَهُ. وَقَالَ ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "المحرر الوجيز" (٥٣٢ / ٥) وَهِيَ مَدْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ. وَكَذَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي "الجامع لأحكام القرآن" (٥٣٨ / ٢٢) ..

(٣) قَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "التفسير الكبير" {١٤٣ / ٣٢} فِي وَقْتِ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا أَنْ فَتَحَ مَكَّةَ كَانَ سَنَةً ثَمَانٍ وَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ سَنَةً عَشَرَ وَرَوَى أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ سَبْعِينَ يَوْمًا وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ سُورَةُ التَّوْدِيْعِ وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "فتح القدير" {٦٨٦ / ٥} وَتَسْمَى سُورَةُ التَّوْدِيْعِ هِيَ ثَلَاثُ آيَاتٍ وَهِيَ مَدْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ خِلَافَ

الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة.^(١)
وروى مسلم في صحيحه في كتاب التفسير عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَ لِي
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تَعَلَّمُ - وَقَالَ هَارُونُ: تَدْرِي - آخِرَ سُورَةِ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟
قُلْتُ: «نَعَمْ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»، قَالَ: صَدَقْتُ.^(٢)
قال الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ^(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا^(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا^(٣)﴾

يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ^(١)﴾ هل هناك فرق بين النصر والفتح؟
أرجح الأقوال هو أن النصر معناه النصر على الأعداء، والفتح تحصيل ثمرة هذا النصر، بها
أنعم الله به على العباد من خيرات في الدنيا وغير ذلك.^(٤)
والمراد بالفتح هنا فتح مكة^(٥)، أما قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا
مُبِينًا^(١)﴾ [الفتح: ١] المراد بالفتح هناك: صلح الحديبية، وقد روى البخاري في صحيحه، عَنْ

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٢٥٧)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٦٤٩)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٦٤٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(٣) هذا الذي رجحه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" تفسير جزء عم (ص ٦٤٩)، .

(٤) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٥١٣) وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَاهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا، فَإِنَّ
أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهَا فَتَحَ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ. فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ

عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ: أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلُهُ؟ قَالَ فَلَقِيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَتَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ، أَوْ: أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوُّمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤْمِّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا». فَظَنُّوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لَمَّا كُنْتُ أَتَلَّقِي مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصْتُ عَنِّي، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تُغَطُّوْنَا عَنَّا اسْتِ قَارِئُكُمْ؟ فَاشْتَرَوْا فَقَطَّعُوا لِي قِمِيصًا، فَمَا فَرَحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ^(١).

وغزوة فتح مكة كانت في رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، والحديث فيه يطول جداً وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «خَرَجَ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، فَسَارَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ، يَصُومُ وَيَصُومُونَ، حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ، وَهُوَ مَاءٌ بَيْنَ عُسْفَانَ، وَقُدَيْدٍ أَفْطَرَ وَأَفْطَرُوا»، قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْآخِرُ فَلَا خَيْرَ^(٢)». وفي رواية أبي سعيد قال: سَافَرْنَا

دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَلَمْ تَمُضْ سَنَتَانِ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيَّانَا، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهَرٌ لِلْإِسْلَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٣٠٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٦٨٥)، وابن خزيمة في "صحيحه" (١٥١٢)، من حديث عمرو بن سلمة رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٢٧٦)، واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (١١١٣)، من

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ وَتَحَنُّ صِيَامٍ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدْوِكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ» فَكَانَتْ رُخْصَةً، فَمِنَّا مَنْ صَامَ، وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدْوِكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَافْطِرُوا» وَكَانَتْ عَزْمَةً (واجبة)، فَافْطَرْنَا، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا نَصُومُ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ، فِي السَّفَرِ^(١).

واستدل به العلماء على أن الفطر جائز في السفر لمن شق عليه ذلك.

وقال النبي - ﷺ - يوم الفتح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا»^(٢)، وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: زُرْتُ عَائِشَةَ مَعَ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَتْ: «لَا هِجْرَةَ الْيَوْمَ، كَانَ الْمُؤْمِنُ يَقْرَأُ أَحَدُهُمْ بِدِينِهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، مُحَافَةً أَنْ يُفْتَنَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، فَلِلْمُؤْمِنِ يَعْبُدُ رَبَّهُ حَيْثُ شَاءَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»^(٣).

فهنا فوائد جلية حال المسلم في ديار الكفر:

قَالَ الْمَأُورِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا قَدَرَ عَلَى إِظْهَارِ الدِّينِ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ، فَقَدْ صَارَتِ الْبَلَدُ بِهِ دَارَ إِسْلَامٍ فَالْإِقَامَةُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الرَّحْلَةِ مِنْهَا لِمَا يُتَرَجَّى مِنْ دُخُولِ غَيْرِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَدْ

حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٢٩٤)، وأبو داود في "سننه" (٢٤٠٦)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٨٣)، ومسلم في "صحيحه" (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٨٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٨٦٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به.

تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ فِي أَوَائِلِ الْجِهَادِ فِي بَابِ وَجُوبِ النَّفِيرِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ حَدِيثِ بَنِ عَبَّاسٍ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّعْدِيِّ: "لَا تَنْقُطُ الْهَجْرَةُ".

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَتِ الْهَجْرَةُ أَيْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ مَطْلُوبَةً ثُمَّ افْتَرَضَتْ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَتِهِ لِلْقِتَالِ مَعَهُ وَتَعَلَّمَ شَرَائِعَ الدِّينِ وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ حَتَّى قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَ مَنْ هَاجَرَ وَمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ سَقَطَتِ الْهَجْرَةُ الْوَاجِبَةُ وَبَقِيَ الْإِسْتِحْبَابُ.

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي شَرْحِ السُّنَّةِ يَحْتَمِلُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِطَرِيقٍ أُخْرَى بِقَوْلِهِ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ" أَيْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَوْلُهُ: "لَا تَنْقُطُ" أَيْ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ فِي حَقِّ مَنْ أَسْلَمَ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ لَا هِجْرَةَ أَيْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ كَانَ بِنِيَّةِ عَدَمِ الرَّجُوعِ إِلَى الْوَطَنِ الْمُهَاجِرِ مِنْهُ إِلَّا بِإِذْنٍ وَقَوْلُهُ لَا تَنْقُطُ أَيْ هِجْرَةُ مَنْ هَاجَرَ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَصْفِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَنَحْوِهِمْ^(١). اهـ

فالصحابي الذي خرج من مكة، لا يحل له أن يرجع إليها مرة ثانية، بل ثبت في الصحيحين: أَنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضَرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لِلْمُهَاجِرِ بَعْدَ الصَّدْرِ»^(٢).

ولذلك لما مرض سعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ مَرَضٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: فَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ يَا

(١) ينظر "فتح الباري" (٧ / ٢٢٩).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٩٣٣)، واللفظ له، و مسلم في "صحيحه" (١٣٥٢)، من

حديث العلاء ابن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

سَعْدٌ، وَالثَّلَثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرِ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَلَسْتَ بِنَافِعٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا آجَرَكَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى اللَّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي أَمْرَاتِكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ، فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدَتْ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ ابْنِ خَوْلَةَ»^(١)

قال الحافظ رحمه الله: (قوله بَابُ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ):

أَيَّ فَتْحِ مَكَّةَ، أَوْ الْمُرَادُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ حُكْمَ غَيْرِ مَكَّةَ فِي ذَلِكَ حُكْمُهَا، فَلَا تَحِبُّ الْهِجْرَةَ مِنْ بَلَدٍ قَدْ فَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ. أَمَّا قَبْلَ فَتْحِ الْبَلَدِ فَمَنْ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ ثَلَاثَةٌ: **الأَوَّلُ:** قَادِرٌ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنْهَا لَا يُمَكِّنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ وَلَا أَدَاءُ وَاجِبَاتِهِ فَالْهِجْرَةُ مِنْهُ وَاجِبَةٌ.

الثَّانِي: قَادِرٌ لَكِنَّهُ يُمَكِّنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ وَأَدَاءُ وَاجِبَاتِهِ فَمُسْتَحَبَّةٌ لِتَكْثِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا وَمَعُونَتِهِمْ وَجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْأَمْنِ مِنْ غَدَرِهِمْ وَالرَّاحَةِ مِنْ رُؤْيَا الْمُنْكَرِ بَيْنَهُمْ.

الثَّالِثُ: عَاجِزٌ يُعَدِّرُ مِنْ أَسْرِ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ فَتَجُوزُ لَهُ الْإِقَامَةُ فَإِنْ حَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَكَلَّفَ الْخُرُوجَ مِنْهَا أَجَرَ. اهـ^(٢)

فائدة: من يمكنه إظهار دينه، فإنه إذا حصل منه ذلك، لم تكن الهجرة واجبة في حقه، بل مستحبة، أما أن يذهب الإنسان إلى بلاد الكفار طوعاً واختياراً، للفسحة وتكن هذه عادته، وكل سنة يذهب إلى هناك، ففيها كلام كثير لأهل العلم، لا ينبغي للإنسان أن يفعل مثل هذا خاصة للإنسان الذي عنده ولاء وبراء، وخاصة أنه يذهب إلى هناك، ويرى الفتن ليلاً ونهاراً، ولا

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٩٥)، واللفظ له، ومسلم في " صحيحه " (٤٢١٨)، من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (٦/ ١٩٠)

يستطيع أن ينكر أو أن يحفظ نفسه، فهنا قال أهل العلم: لا يجوز السفر في مثل هذه الحالات، إلا لعلاج أو علم ليس موجوداً في بلاد المسلمين أو تجارة، ويشترط أن يكون عنده علم يمنعه من الشبهات والشهوات^(١).

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن مجاشع رضي الله عنه، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِأَخِي بَعْدَ الْمَتَحِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُكَ بِأَخِي لِتُبَايَعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ، قَالَ: ذَهَبَ أَهْلُ الْهِجْرَةِ بِمَا فِيهَا، فَقُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُبَايَعُهُ؟ قَالَ: أَبَايَعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْجِهَادِ، فَلَقِيتُ أَبَا مَعْبُدٍ بَعْدُ، وَكَانَ أَكْبَرَهُمَا، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: صَدَقَ مُجَاشِعٌ^(٢).

وفي سنن أبي داود عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ»^(٣). إِذَا نَحْمَلُهُ عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقِيمَ دِينَهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرَكَ تِلْكَ الْبَلَدَ، فَفِي السَّنَنِ الْكُبْرَى لِلنَّسَائِيِّ أَنَّ بَهْزَ بْنَ حَكِيمٍ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ بَعْدَ مَا يُسْلِمُ عَمَلًا أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ»^(٤).

(١) كما ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين في "مجموع فتاوى ورسائل" السؤال (٣٨٨).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٣٠٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٦٣)، من حديث مجاشع رضي الله عنه، به.

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٦٤٥)، والترمذي في "سننه" حديث (١٦٠٤)، من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٢٠٧).

(٤) (حسن) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٢٣٦٠)، وابن ماجه في "سننه" (٢٥٣٦)، واللفظ له وأحمد في "مسنده" (٢٠٠٣٧)، مطولا، من حديث أبي سعيد، به. بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده، به. وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣٦٩).

والمعنى حتى يفارق المشركين، وقد صرح أهل العلم بالنهاي عن ذلك والتحذير منه، ووجوب الهجرة مع القدرة، اللهم إلا رجلٌ عنده علمٌ وبصيرةٌ، فيذهب إلى هناك للدعوة إلى الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وشرح محاسن الإسلام لهم^(١).

مسألة: الهجرة من مواطن الفساد إلى مواطن الصلاح باقية إلى يوم القيامة، حتى لو كان من بلدٍ مسلم، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوْءٌ، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله في "الأم": {٣٦٦ / ٥} "وَدَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى أَنْ فَرَضَ الْهَجْرَةُ عَلَى مَنْ أَطَاقَهَا إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَنْ فُتِنَ عَنْ دِينِهِ بِالْبَلَدِ الَّذِي يُسَلِّمُ بِهَا"، وقال الحافظ العراقي في "طرح الثريب" {٢٢ / ٢} وقال صرح بهذا أصحابنا، و ينظر "فتح الباري" لابن حجر {٣٩ / ٦} و "سبل السلام" للصنعاني {٤٦٢ / ٢}.

مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَلِئَلَّا آتِيَهُمَا كَانَ أَذْنَىٰ فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَىٰ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ" ^(١).

قال الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ سبب الفتح غدر قريش ^(٢)؛ لأن النبي ﷺ قد عقد صلحا معهم في سنة ست من الهجرة، صلح الحديبية، أن نضع الحرب بيننا وبينكم مدة عشر سنوات، ولكنهم غدروا بعد اثنتين، ومالؤوا بني بكر، وأمدوهم بالسلاح، وقتلوا معهم فغدروا وقتلوا أولاد خزاعة - وكانت عيبة نصيح للنبي ﷺ، فإذا بخزاعة يأتون إلى الحبيب ﷺ، ويناشدونه النصر ويخبرونه أن قريشاً أغارت عليهم وقتلتهم، فقال ﷺ: نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَلَمٍ. ثم خرج النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل، وفتح الله عليه مكة، ولما فتحها قال الله له:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي وجاءت القبائل من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ لكي يعلنوا إسلامهم، وهذه السنة وهى السنة التاسعة من الهجرة تسمى سنة الوفود، يقول الله لنبيه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي إذا نصرك الله على أعدائك، وفتح عليك مكة، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أمره بالتسبيح والاستغفار لذلك، ففي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكَيِّرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ" ^(٣).

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٧٠)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٦٦) واللفظ له، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٢) أخرجه ابن هشام في " السيرة " (٢ / ٣٩٥)، والبيهقي في " السنن الكبرى " (١٨٨٩١)، وفي " دلائل النبوة " (٧ / ٥).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨١٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٠١٩)، من حديث أم

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحٍ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَذَرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتُحَ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»^(١)

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: فَالَّذِي فَسَّرَ بِهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ مِنْ جُلَسَاءِ عُمَرَ، رضي الله عنهما أَجْمَعِينَ، مِنْ أَنَّهُ قَدْ أُمِرْنَا إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونِ أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَشْكُرَهُ وَنُسَبِّحَهُ، يَعْنِي نُصَلِّي وَنَسْتَغْفِرُهُ -مَعْنَى مَلِيحٌ صَاحِيحٌ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَقَتِ الضُّحَى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، فَقَالَ قَائِلُونَ: هِيَ صَلَاةُ الضُّحَى. وَأُجِيبُوا بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوَاطِبُ عَلَيْهَا، فَكَيْفَ صَلَّاهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَقَدْ كَانَ مُسَافِرًا لَمْ يَنْوِ الْإِقَامَةَ بِمَكَّةَ؟ وَهَذَا أَقَامَ فِيهَا إِلَى آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ قَرِيبًا مِنْ تِسْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا يُقْصِرُ الصَّلَاةَ وَيُفْطِرُ هُوَ وَجَمِيعُ الْجَيْشِ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ. قَالَ هُوَ لَاءٍ: وَإِنَّمَا كَانَتْ صَلَاةُ الْفَتْحِ، قَالُوا: فَيُسْتَحَبُّ لِأَمِيرِ الْجَيْشِ إِذَا فَتَحَ بَلَدًا أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ أَوَّلَ مَا يَدْخُلُهُ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ. وَهَكَذَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَوْمَ فَتْحِ الْمَدَائِنِ^(٢).

المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به.

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٢٩٤)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٦٤٧)، من حديث

ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٥١١).

وقال العلماء: إن مزيد النعم يحتاج منك إلى مزيد طاعة، ومزيد شكر، لذا قال ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، أي أكثر من التسييح، وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وأيضاً قول الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠] إلى أن قال ﷺ: ﴿اعْمَلُوا عَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾ [سبأ: ١٣]. بالقلب والجوارح.^(١)

وختاماً: طرح القرطبي سؤالاً، قال: فَإِنْ قِيلَ: فَمَاذَا يُغْفَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَتَّى يُؤْمَرَ بِالِاسْتِغْفَارِ؟ قِيلَ لَهُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئِي وَعَمْدِي، وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، إِنَّكَ عَلَى شَيْ قَدِيرٌ»^(٢). فَكَانَ ﷺ يَسْتَقْصِرُ نَفْسَهُ لِعِظَمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ، وَيَرَى قُصُورَهُ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ ذَلِكَ ذُنُوبًا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: كُنْ مُتَعَلِّقًا بِهِ، سَائِلًا رَاغِبًا، مُتَضَرِّعًا عَلَى رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ الْحُقُوقِ، لِئَلَّا يَنْقُطَعَ إِلَى رُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ. وقيل: الاستغفار تعبد يجب أتياه، لَا لِلْمَغْفَرَةِ، بَلْ تَعَبُّدًا. وَقِيلَ: ذَلِكَ تَنْبِيهُ لِأُمَّتِهِ، لِكَيْلَا يَأْمَنُوا وَيَتْرَكُوا الْإِسْتِغْفَارَ. وَقِيلَ: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اسْتَغْفِرْ لِأُمَّتِكَ.

(١) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي (ص ٦٥٨).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٣٩٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧١٩).

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾: أَي عَلَى الْمُسَبِّحِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ، يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ، وَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ. وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مَعْصُومٌ يُؤْمَرُ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟^(١) نسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يسترنا في الدنيا والاخرة.

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمّ تفسير سورة النصر بعون الله وتوفيقه.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي {٢٢ / ٥٤٢}، وينظر الرازي في "التفسير الكبير" {٣٢ / ١٤٩}.

﴿سُورَةُ الْمَسَدِ﴾

وهي مكيةٌ بإجماع أهل العلم، وآياتها خمس آيات، نزلت بعد سورة الفتح.^(١)

ومناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى. وهنا ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة.^(٢) يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝

وَأُمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾

وأبو لهب هو عم النبي ﷺ، واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكان رجلاً شديداً العداء لرسول الله ﷺ، كان من أشد الناس عداوة لابن أخيه ﷺ، ففي مسند أحمد عن ربيعة بن عباد رضي الله عنه، أنه قال: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تَفْلِحُوا». فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، إِلَّا أَنْ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (١٥ / ٧٣٢) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزلت

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة رضي الله عنهما مثله. وقال القرطبي رحمه الله

في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٢ / ٥٤٤) وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ.

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٣٠ / ٢٦٠)

وَصِيءَ الْوَجْهِ، ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو هَبٍ^(١). يَكْذِبُهُ ﷺ، وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى أَبِي هَبٍ.

سبب نزولها:

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا. فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهُ». (وكان هذا شعار خطر عظيم يأتي على القوم). فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ. فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بَنِي فَلَانٍ يَا بَنِي فَلَانٍ يَا بَنِي عَبْدٍ مَنْافٍ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بَسْفَحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا (بعد أربعين عاما عاشها معهم). قَالَ ﷺ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ فَقَالَ أَبُو هَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثُمَّ قَامَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِتَمَامِهَا: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢).

زاد الحميدي وغيره، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ (أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكِلاهُمَا كَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ) وَلَهَا وَلَوْْلَةٌ وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ (حجر) وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمَا أَبِينَا وَدِينُهُ قَلِينَا وَأَمْرُهُ عَصِينَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه. فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَقْبَلْتُ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّهَا لَنْ تَرَانِي» وَقَرَأْنَا فَأَعْتَصَمَ بِهِ كَمَا

(١) (صحيح) أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" (٤/ ٢١٥)، وأحمد في "مسنده" (١٦٠٢٣)، والحاكم في

"المستدرک" (٣٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٤٥٨٢)، من حديث ربيعة ابن عباد رضي الله عنه، به. وصححه

الألباني في "صحيح السيرة النبوية" (ص ١٤٣)

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٧١)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠٨)، من حديث ابن عباس

قَالَ: وَقَرَأَ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (وهي تقف امامهما) فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي (عدت القران هجاء وهو كذلك وشهد القرآن أنها من أهل النار). فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذَا الْيَتِّ مَا هَجَاكَ. فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشُ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا^(١).

وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ: مذمما؛ يسبونه بذلك، وكان ﷺ يقول: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتَمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمِّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمِّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ»^(٢).

قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٣) لماذا خُصَّتْ اليَدُ بالذكرِ في الآية الكريمة؟

قال بعض السادة العلماء: المراد باليدين: نفسه، وخصَّ اليدين بالتبَابِ؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما، والمعنى: خسرتا وخسرَ هو.

وقيل: وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ [الحج:

١٠]، يعني بما صنعته نفسك؛ لأنه سيحاسب على ما عملته قدماءه وما عملته جميع جوارحه ولا يخص ذلك اليدين، وهذا أكثر كلام العرب تعبر ببعض الشيء عن كله.^(٤)

(١) (صحيح) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٥٣)، والحميدي في "مسنده" (٣٢٥)، والحاكم في "المستدرک" (٣٤١٩)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. وصححه الألباني في "صحيح السيرة النبوية" (١٣٨).

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٣٣)، والنسائي في "المجتبى" (٣٤٣٨)، وفي "السنن الكبرى" (٥٦٠٢)، وأحمد في "مسنده" (٨٤٧٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) قاله البغوي في "معالم التنزيل" (٨ / ٥٧٨)، وينظر "تمة أضواء البيان" للشيخ عطية سالم (٩ / ١٤٤).

قوله ﷺ: (تَبَّتْ)، ومعناها: هلكت وخسرت، وهي إنشاء - يعني دعاء - والثانية إخبار^(١).
 الأولى: دعاء من الرسول ﷺ بالهلاك والخسار، والثانية: إخبار بأنه هلك وخسر - وحق له الهلاك - كما يقال: أهلكه الله وقد هلك، ولذلك صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إنَّ أول ما خلق الله القلم فأمره فكتب ما هو كائن، وكتب فيما كتب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(٢).
 قوله ﷺ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٣)، يحمل أنه استفهام^(٤)، والمعنى: ما الذي أغناه عنه ماله؟

قوله ﷺ: (وَمَا كَسَبَ) قال المفسرون: أولاده، ذهب إلى ذلك أكثر أهل العلم والمعنى: ما أغنى عنه ماله ولا اغنى عنه أولاده^(٥).
 وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»^(٦).
 وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٧).

-
- (١) قاله الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٧١٤)، وينظر "معاني القرآن" للفراء (٣ / ٢٩٨).
 (٢) (صحيح) أخرجه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" (١٦ / ٢٩٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.
 (٣) قال الزمخشري رحمه الله في "الكشاف" (٤ / ٨١٤) ما أغنى استفهام في معنى الإنكار، ومحلّه النصب، وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٢ / ١٥٦).
 (٤) قاله الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٧١٧).
 (٥) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (١٣٥٨)، وابن ماجه في "سننه" (٢٢٩٠)، وأحمد في "مسنده" (٢٥٢٩٦)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٦٢٦).
 (٦) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٥٢٨)، والنسائي في "المجتبى" (٤٤٥١)، وأحمد في "مسنده" (٢٤١٤٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢٠٨).

وَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَوْمًا فَجَاءَهُ بَنُو أَبِي هَبٍ يَخْتَصِمُونَ فِي شَيْءٍ بَيْنَهُمْ فَقَامَ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ، فَدَفَعَهُ بَعْضُهُمْ، فَوَقَعَ عَلَى الْفِرَاشِ، فَغَضِبَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَقَالَ: "أَخْرِجُوا عَنِّي الْكَسْبَ الْحَيْثُ" - يَعْنِي وَلَدَهُ - ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(١).

ورسولنا ﷺ كان معروفا بالرفق واللين واللفظ والصبر على أذى قومه، فكيف دعا على

عمه وقال ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؟

قال أهل العلم: لأن الله ﷻ أخبره بذلك، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يرفق بأبيه غاية الرفق، ويقول: ﴿يَنَابِتَ إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣] لكن ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]^(٢).

وفي قول الله تعالى: (أَبِي هَبٍ) قال العلماء: هل الكنية أفضل، أم الاسم أفضل؟

قال الشيخ مصطفى العدوي: وقد ذهب البعض إلى أن الاسم أفضل من الكنية؛ لأن الله تعالى ما ذكر الأنبياء إلا بأسمائهم... ولكن هذا الاستدلال ضعيفٌ عندي؛ لأن الله ﷻ ذكر بعض الكفار بأسمائهم أيضًا^(٣).

قال القرطبي رحمه الله: وَإِنَّمَا كَنَاهُ اللَّهُ بِأَبِي هَبٍ - عِنْدَ الْعُلَمَاءِ - لِمَعَانٍ أَرْبَعَةٍ: **الْأَوَّلُ**: أَنَّهُ كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ الْعَزَّى، وَالْعَزَّى: صَنَمٌ، وَلَمْ يُضِفِ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعِبُودِيَّةِ إِلَى صَنَمٍ. **الثَّانِي**: أَنَّهُ كَانَ بِكُنْيَتِهِ أَشْهَرَ مِنْهُ بِاسْمِهِ، فَصَرَّحَ بِهَا. **الثَّالِثُ**: أَنَّ الْإِسْمَ أَشْرَفُ مِنَ الْكُنْيَةِ، فَحَطَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْأَشْرَفِ إِلَى الْأَنْقَصِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْهُ، وَلِذَلِكَ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ بِأَسْمَائِهِمْ، وَلَمْ

(١) أخرجه عبد الرزاق في " تفسيره " (٣٧٣٠)، والطبري في " جامع البيان " (٢٤ / ٧١٧)، والحاكم في "

المستدرک " (٤٠٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٢) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٢ / ١٥٥).

(٣) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي تفسير جزء عم (١ / ٦٦٥)

يُكَنُّ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَيَذُلُّكَ عَلَى شَرِّ الْإِسْمِ عَلَى الْكُنْيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَمَّى وَلَا يُكْنَى، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِظُهُورِهِ وَبَيَانِهِ، وَاسْتِحَالَةِ نِسْبَةِ الْكُنْيَةِ إِلَيْهِ؛ لِتَقْدُسِهِ عَنْهَا. **الرابع:** أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ نِسْبَتَهُ، بِأَنْ يَدْخُلَهُ النَّارَ، فَيَكُونَ أَبَا هَا، تَحْقِيقًا لِلنَّسَبِ، وَإِمْضَاءً لِلْقَالَ وَالطَّيْرَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا لِنَفْسِهِ. وَقَدْ قِيلَ: اسْمُهُ كُنْيَتُهُ. فَكَانَ أَهْلُهُ يُسَمُّونَهُ (أَبَا هَبٍ)، لِتَلَهُّبِ وَجْهِهِ وَحُسْنِهِ، فَصَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْ أَنْ يَقُولُوا: أَبُو النَّورِ، وَأَبُو الضِّيَاءِ، الَّذِي هُوَ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْمُحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ، وَأَجْرَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَنْ يُضَيِّفُوهُ إِلَى (هَبٍ) الَّذِي هُوَ مَخْصُوصٌ بِالْمَكْرُوهِ الْمَذْمُومِ، وَهُوَ النَّارُ. ثُمَّ حَقَّقَ ذَلِكَ بِأَنْ يَجْعَلَهَا مَقَرَّةً^(١).

وقال الشيخ مصطفى العدوي أيضاً: الظاهر أنَّهما على العموم يستويان لكن إذا كان الأحب إلى شخص أن يدعى بالكنية دُعِيَ بالكنية، فهو أفضل^(٢). فعلا بعض الناس يجب أن تناديه يا أبا فلان؛ من باب الإكرام ولذلك تجد كثيراً من الصحابة يقولون: يا أبا بكر، وهكذا.

قوله ﷺ: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذات اشتعال وتلهب، نارٌ وقودها الناس والحجارة، أجارنا الله ﷺ منها.

قوله ﷺ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ امرأته: أم جميل، كانت من أشرف قريش، من أشرف القبائل، ورغم ذلك كانت تتفانى في أذية الرسول ﷺ، وهذا ما يفعله الكفر بأهله! إذا نزع الله وحرم الله العبد الإيمان صار أخس من البهائم، والله ﷻ قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، صدق الله جل جلاله، وكانت أم جميل عوناً لزوجها أبي لهب على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٤٨)

(٢) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" للشيخ مصطفى العدوي تفسير جزء عم (١ / ٦٦٥).

ولهذا قال عليه السلام: (حَمَالَةُ الْحُطْبِ) أي: حمالة الشوك؛ فكانت تحمل الحطب والشوك بحبلٍ في عنقها فتأتي باب الرسول عليه السلام وترميه على بابه - والعياذ بالله - فيخرج رسول الله عليه السلام فيتأذى به^(١).
وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي: المراد النميمة، كانت تمشي بالنميمة بين الناس^(٢)،

وقيل: كان لها قلادة ثمينةٌ جدًّا تلبسها في عنقها، فباعتها لأذية الرسول عليه السلام.
قوله عليه السلام: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ جزءٌ وفاقاً؛ فكما أنها باعت قلادةً نفيسةً لأذية الرسول عليه السلام وللصد عن دين الله، فإنَّ الله يقلدها يوم القيامة حبلًا من نارٍ في جهنم.
قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَتْ لَهَا قِلَادَةٌ فَاخِرَةٌ فَقَالَتْ: لَا تُنْفِقْنَهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ، يَعْينِي: فَأَعْقَبَهَا اللَّهُ بِهَا حَبْلًا فِي جِيدِهَا مِنْ مَّسَدِ النَّارِ^(٣).
المسد: الليف^(٤)، والمسد أيضاً: حبلٌ من ليفٍ أو خوصٍ، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها^(٥). وقال بعضهم: كانت تُعَيِّرُ رسول الله عليه السلام بالفقر، وكانت تحطّب فعُيِّرَتْ بأنها كانت تحطّب^(٦).

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (٧١٩ / ٢٤) وَأَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ عِنْدِي، قَوْلُ مَنْ قَالَ: كَانَتْ تَحْمِلُ الشَّوْكَ، فَتَطْرَحُهُ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَظْهَرُ مَعْنَى ذَلِكَ.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (٧٢٠ / ٢٤) وَقَالَ آخَرُونَ: قِيلَ لَهَا ذَلِكَ: حَمَالَةُ الْحُطْبِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْطُبُ الْكَلَامَ، وَتَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَتُعَيِّرُ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام بِالْفَقْرِ وَأَخْرَجَهُ عَنْ عِزِّهِ وَمَجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ.

(٣) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٥١٥ / ٨)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٥٥٤ / ٢٢)

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (٧٢٣ / ٢٤) وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَسْدُ: اللَّيْفُ وَأَخْرَجَهُ عَنْ عُرْوَةِ وَمَجَاهِدٍ وَسَفْيَانَ.

(٥) قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "معاني القرآن" (٣٧٦ / ٥) والمسد في لغة العرب الحبل إذا كان من ليفِ المقل، وقد

فخنقها الله ﷻ به فأهلكها، وهو في الآخرة جبل من نار، والمسد: القتل.

قال القرطبي رحمه الله: وَالْحُكْمُ بِيَقَاءِ أَبِي هَبٍ وَامْرَأَتِهِ فِي النَّارِ مَشْرُوطٌ بِبِقَائِهِمَا عَلَى الْكُفْرِ إِلَى الْمَوَافَةِ، فَلَمَّا مَاتَا عَلَى الْكُفْرِ صَدَقَ الْإِخْبَارُ عَنْهُمَا. فَفِيهِ مُعْجَزَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَأَمْرَأَتُهُ خَنَقَهَا اللَّهُ بِحَبْلِهَا، وَأَبُو هَبٍ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ - وهو مرضٌ يقتل وكانت العربُ تتحاشاه كما تتحرزُ من الطاعون - بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ بِسَبْعِ لَيَالٍ، بَعْدَ أَنْ شَجَّتْهُ أُمُّ الْفَضْلِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الْحِيسْمَانُ مَكَّةَ - وَكَانَ كَافِرًا - يُخْبِرُ خَبَرَ بَدْرٍ، قَالَ لَهُ أَبُو هَبٍ: أَخْبِرْنِي خَبَرَ النَّاسِ. قَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَقِينَا الْقَوْمَ، فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَفَانَا، يَصْعُونَ السَّلَاحَ مِنَّا حَيْثُ شَاءُوا، وَمَعَ ذَلِكَ مَا لُمْتُ النَّاسَ. لَقِينَا رَجُلًا بَيْضًا - الْمَلَائِكَةُ - عَلَى خَيْلٍ بُلْقِي، لَا وَاللَّهِ مَا تُبْقِي مِنَّا، يَقُولُ: مَا تُبْقِي شَيْئًا. قَالَ أَبُو رَافِعٍ: وَكُنْتُ غُلَامًا - مَمْلُوكًا - لِلْعَبَّاسِ أَنْحَتِ الْأَقْدَاحُ فِي صِفَةِ زَمْزَمَ، وَعِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ جَالِسَةً، وَقَدْ سَرَرْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْخَبَرِ، فَرَفَعْتُ طَنْبَ الْحُجْرَةِ، فَقُلْتُ: تِلْكَ وَاللَّهِ الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو هَبٍ يَدَهُ، فَضْرَبَ وَجْهِي ضَرْبَةً مُنْكَرَةً، وَثَاوَرْتُهُ - وَكَانَ أَبُو هَبٍ جَبَارًا - وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا، فَاحْتَمَلَنِي، فَضْرَبَ بِي الْأَرْضَ، وَبَرَكَ عَلَى صَدْرِي يَضْرِبُنِي. وَتَقَدَّمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمَدِ الْحُجْرَةِ، فَتَأْخُذُهُ وَتَقُولُ: اسْتَضَعَفْتُهُ أَنْ غَابَ عَنْهُ سَيِّدُهُ! وَنَضْرِبُهُ بِالْعَمُودِ عَلَى رَأْسِهِ فَتَفْلِقُهُ شَجَّةً مُنْكَرَةً. فَقَامَ يُجْرِي رِجْلَيْهِ ذَلِيلًا، وَرَمَاهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ، فَمَاتَ، وَأَقَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمْ يَدْفَنَ حَتَّى أَتْنِ، ثُمَّ إِنَّ وَلَدَهُ غَسَلُوهُ بِالْمَاءِ، قَذَفَا مِنْ بَعِيدٍ، مَخَافَةَ عَدَوِي الْعَدَسَةِ. وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَّقِيهَا كَمَا

يقال لما كان من أديار الإبل من الحبال مَسْدٌ. وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١٢ / ٢٦٤)، و"لسان

العرب" لابن منظور (٦ / ٤١٩٩).

(١) يُنْظَرُ "جامع البيان" للطبري (٢٤ / ٧٢١).

يُتَقَى الطَّاعُونَ. ثُمَّ اخْتَمَلُوهُ إِلَى أَعْلَى مَكَّةَ، فَأَسْنَدُوهُ إِلَى جِدَارٍ، ثُمَّ رَضَمُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ^(١). اهـ.
فهذه نهاية كل مجرم وكل ظالم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٢) وَأَمْرًا لَهُ وَحَمَالَةَ الْحَطَبِ^(٣) فِي حَيْدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ^(٤)، فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ، لَمْ يُقَيِّضْ لَهَا أَنْ يُؤْمِنَا، وَلَا وَاحِدَ مِنْهُمَا لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعَلِنًا، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ^(٥).

ومن فوائد السورة غير ما ذُكِرَ:

١ - ما من سورة وإن كانت قصيرة إلا وقد تحدى الله بها الإنس والجن، قال الله تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٦) [الإسراء: ٨٨].

٢ - ولعل أقرب الناس لك من أعدى الناس لك، وفي حياة الرسول ﷺ عبر وعظات، فقد وقف ضده أقرب الناس إليه، وهو عمه وامرأة عمه بدلاً من أن تخفف عنه آذته! ولكن قال الله له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾^(٧) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى^(٨) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى^(٩) [الضحى: ٦ - ٨] وقال الله له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١٠) [المائدة: ٦٧]. أي: الله يحميك وإن وقف في طريقك يا رسول الله أعمامك، بل وإن وقفت الدنيا كلها ضدك ما دمت على الحق فالله يعصمك من الناس.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥٥)

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨ / ٥١٧)

٣- إن وجدت من أقرب الناس إليك جفوةً، فتذكر رسول الله ﷺ، هذا عمه يؤذيه أعظم أذى، ورسول الله ﷺ يمشي يعرض نفسه على القبائل، وعمه أبو لهب يمشي خلفه ويقول لا تصدقوه، إنه كذاب، أنا أعلم به منكم، يقولون: من هذا؟ يقال: عمه أبو لهب! يكذبه عليه الصلاة والسلام، فقال الله ﷻ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

٤- هذا رسول الله وإمام الدعوة الهداة لم يُسلم من أعمامه إلا حمزة والعباس، وكلهم كفروا وماتوا على الكفر، فالمخذول من خذله الله، والموفق من وفقه الله، وإذا أراد الله بالعبد خيراً وفقه لطاعته، وإذا أراد الله بالعبد شراً خذله وحرمه الطاعة، وقال ﷻ: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. نسأل الله أن يستخدمنا لدينه، وأن يطيّل أعمارنا على البر والإحسان.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة المسد والله الحمد والمنة.

﴿سُورَةُ الْإِخْلَاصِ﴾

سورة الإخلاص سورةٌ مختلفٌ في نزولها، قال البعض أنها مكيةٌ وقال البعض أنها مدنيةٌ^(١)، وآياتها أربع، نزلت بعد سورة الناس^(٢).

سبب نزولها: ما رواه الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ، انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» [الإخلاص: ١ - ٤] ^(٣).

هذا الحديث ضعفه كثير من أهل العلم^(٤)، ولكن بسبب تعدد مخارجه وتعدد طرقه حسنه الألباني^(٥) - رحمته الله - وعدد من أهل العلم. يظن الكفار أن الله نسباً - فلان ابن فلانٍ مثل غيره من عباس رضي الله عنه والقرظي وأبو العالية هي مدنية.

(٢) تفسير المراغي (٣٠ / ٢٦٤)

(٣) (حسن) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٦٤) وأحمد في "مسنده" (٢١٢١٩) والحاكم في "المستدرک" (٤٠٣٥) عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلرَّسُولِ ﷺ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»

(٤) رجح الترمذي في "سننه" عقب الحديث الوجه المرسل فقال: (وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ. وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثٍ) وقال ابن كثير (وَقَدْ أَرْسَلَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ). ينظر "تفسير القرآن العظيم" (٨ / ٥١٨) وينظر "ميزان الاعتدال" (٤ / ٢٨٠) للإمام الذهبي.

(٥) حسنه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (٧ / ٣٦٤ / ٣٣٦٤).

الخلق - حاشا لله؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأنزل الله هذه السورة العظيمة وهي وإن كانت قصيرة لكن ما أعظمها.

مسألة: متى يتأكد استحباب تلاوة هذه السورة؟

١ - **دُبِّرَ كُلُّ صَلَاةٍ**: فقد روى أبو داود والنسائي عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْمُعَوِّذَاتِ دُبِّرَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(١)، والمعنى أنك بعد كل صلاة تقرأ المعوذات: الإخلاص والفلق والناس، وآية الكرسي كذلك.

٢ - **حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**: ففي سنن أبي داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطَرٍ، وَظُلُمَةٌ شَدِيدَةٌ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْنَاهُ، فَقَالَ: أَصَلَّيْتُمْ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(٢). لكن لضعف إيماننا ويقيننا وقلة اعتمادنا على الله، نقرأ - إذا قرأنا - وليس عندنا اليقين العظيم نسأل الله أن يرزقنا الإعانة والتوفيق والنية الصالحة وأن يحفظنا من كل سوء.

(١) (حسن) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٥٢٣) و النسائي في "المجتبى" (١٣٣٦) وفي "السنن الكبرى" (١٢٦٠) وأحمد في "مسنده" (١٧٤١٧) وابن خزيمة في "صحيحه" (٧٥٥) وابن حبان في "صحيحه" (٢٠٠٤) والحاكم في "المستدرک" (٩٢٩) وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٥١٤). من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٥٠٨٢) والترمذي في "سننه" (٣٥٧٥) والنسائي في "المجتبى" (٥٤٢٨) وفي "السنن الكبرى" (٧٨١١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٤٠٦). عن حديث مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، به.

٣- **قبل النوم:** ففي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا^(١) فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢) ».

٤- **الرقية حال المرض:** ففي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: « إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ^(٣) ». فلما نزلت المعوذات عوذهما بها وترك هذا^(٤).

٥- **في الركعة الثانية من سنة الفجر وسنة المغرب^(٥):** أما الركعة الأولى فنقرأ فيها - بعد

(١) النفث هو الهواء بدون ريق.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠١٧) وأبو داود في " سننه " (٥٠٥٦) والترمذي في " سننه " (٣٤٠٢) والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٥٥٦) وابن ماجه في " سننه " (٣٨٧٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٧١) وأبو داود في " سننه " (٤٧٣٧) والترمذي في " سننه " (٢٠٦٠) والنسائي في " السنن الكبرى " (٧٦٧٩) وابن ماجه في " سننه " (٣٥٢٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٠٥٨) والنسائي في " المجتبى " (٥٤٩٤) وفي " السنن الكبرى " (٧٨٠٤) وابن ماجه في " سننه " (٣٥١١) وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٤٩٠٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»

(٥) لا يخفى أن المقصود: الركعتان قبل الفجر والركعتان بعد المغرب.

الفاحة - سورة الكافرون، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " ^(١)

٦ - وفي ركعتي الطواف: نسأل الله أن يرزقنا الحج والعمرة، فمن السنة أن تصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام وتقرأ في الركعة الأولى الفاحة والكافرون وفي الركعة الثانية الفاحة والإخلاص، ففي صحيح مسلم في قصة حجة النبي من حديث جابر وفيه (قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه): لَسْنَا نَنْوِي إِلَّا الْحَجَّ، لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ، حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ، اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ - وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ " ^(٢)

فضل سورة الإخلاص:

١ - تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ: ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَفَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» ^(٣). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٢٦) وأبو داود في " سننه " (١٢٥٦) والنسائي في " المجتبى "

(٩٤٥) وفي " السنن الكبرى " (١٠١٩) وابن ماجه في " سننه " (١١٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٣) (صحيح) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠١٣) وأبي داود في " سننه " (١٤٦١) والنسائي في " المجتبى "

(٩٩٥) وفي " السنن الكبرى " (١٠٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، به.

لِبَعْضٍ: إِنِّي أَرَى هَذَا خَبْرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنِّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(١). وهذا الفضل ببركة الله العظيم سبحانه وبحمده؛ فالله العظيم أكرم أمة محمد ﷺ بها لم يكرم به أمة مثلهَا، فأعطاهَا أَجُورًا عَظِيمَةً على أَعْمَالٍ يَسِيرَةٍ، ومنها: قراءة سورة الإخلاص، يُكْتَبُ لَكَ بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ أَجْرُ ثُلُثِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ، وَمَا دَامَ الْحَدِيثُ قَدْ صَحَّ عَنْ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلَا مَجَالَ لِلْعَقْلِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنْ قَرَأْتَهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ يَكْرَمُكَ اللَّهُ ﷻ كَأَنَّكَ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ.

سؤال: هل تكفي قراءة سورة الإخلاص ثلاث مراتٍ عن قراءة القرآن كله؟

قال أهل العلم: هناك فرقٌ بين الجزاء والإجزاء، يعني هب أن إنسانًا قام إلى الصلاة وكبَّرَ وقرأ في كلِّ ركعة سورة الإخلاص ثلاث مراتٍ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ، لكن هل تجزئُ عن الفاتحة؟ الجواب: لا تجزئُ أبدًا.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَرَى أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ لَا يَحْصِلُ عَلَى ثَوَابِ خَتَمِ الْقُرْآنِ كَامِلًا وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْصِلُ عَلَى ثَوَابِ خَتَمَةٍ كَامِلَةٍ.

فإن قلت: وما وجه كونها تعدلُ ثُلثَ القرآن؟

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ قِيلَ فِيهِ وَجُوهٌ أَحْسَنُهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْجَوَابُ الْمُنْقُولُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ سُرَيْجٍ قَالَ: مَعْنَاهُ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ثُلُثٌ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَثُلُثٌ مِنْهَا وَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَثُلُثٌ مِنْهَا الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ. وَهَذِهِ السُّورَةُ جَمَعَتْ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتَ^(٢). اهـ

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨١٢) والترمذي في " سننه " (٢٩٠٠) وأحمد في " مسنده " (٩٥٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) ينظر " مجموع الفتاوى " (١٧ / ١٠٣). ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْأَجْرُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ لِمَنْ قَرَأَهَا فَلَا بَدَّ أَنْ

قلتُ: فلا غنى للمرء أبداً عن قراءة القرآن الكريم، ولكن بقراءة هذه السورة يكتب له ثوابُ قراءة ثلث القرآن الكريم.

- قَالَ الْمَازِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ: قصص (يعني الأنبياء) وأحكام (من أمر ونهي) وصفات لله تعالى و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ متمحضةٌ لِلصِّفَاتِ؛ فَهِيَ ثُلُثٌ^(١).

وفي صحيح مسلمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٢). وهذه رحمة من الله؛ فالضعفاء أمثالي إذا صَلَّوْا ركعتين وقرأوا الواحد منهم سورة الإخلاص واستحضر هذا الثواب العظيم، كم يحصل من الحسنات والأجر العظيم.

٢ - حُبُّهَا مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ:

في صحيح مسلمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»^(٣). وفيه فهمُ الصحابة عليهم الرضوان.

يَكُونُ قَدْ قَرَأَهَا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ. "مجموع الفتاوى" (١٧ / ١١٣)

(١) ينظر "شرح النووي على مسلم" (٦ / ٩٥-٩٤)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١١) والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٤٦٩) وأحمد في "مسنده" (٢١٧٠٥)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٣٧٥) ومسلم في "صحيحه" (٨١٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

٣- حُبُّهَا مِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ:

في سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْمِنُهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا هُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: يَقُولُ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَقْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ هَذِهِ السُّورَةَ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فِيمَا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَامًا أَنْ تَدْعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أُؤَمِّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يُؤَمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا آتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ» فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُهَا، فَقَالَ ﷺ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(١). فَاَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْهَدُكَ أَنَا نَحْبُهَا.

هنا كلمة جميلة لابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال تعليقا على الحديث: " فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ يُجَوِّزُ تَكَرُّرَ سُورَةٍ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ (أي أنه غير مكروه)، وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى بَابِ الْأَسْبَابِ (في المسجد الأقصى اللهم زلزل اليهود ومن عاونهم وشايعهم) فِيمَا يَقْرُبُ مِنْهُ إِمَامًا - مِنْ جُمْلَةِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ إِمَامًا - كَانَ فِيهِ يُصَلِّي التَّارَوِيحَ فِي رَمَضَانَ بِالْأَتْرَاكِ، فَيَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (أي: يخفف عليهم)، حَتَّى يُتِمَّ التَّارَوِيحَ؛ تُخَفِّفًا عَلَيْهِمْ وَرَعْبَةً فِي فَضْلِهَا، وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ خَتْمُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ (يقصد ليس حتما في الصلاة خاصة ان كان يشق على الناس)، حَسْبًا ذِكْرُنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَالْمَسَائِلِ"^(٢).

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٩٠١)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٥٣٧) والحاكم في " المستدرک " (٨٧٨)، وأخرجه البخاري في " صحيحه " (١ / ١٥٥) معلقا، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٢١٣٠)

(٢) ينظر " أحكام القرآن " لابن العربي (٤ / ٤٦٨)

وفي سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ». قُلْتُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ»^(١).

وجاء في فضل هذه السورة العظيمة أحاديث كثيرة ضعيفة لا تصح.
وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقَدْ أَسْقَطَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مَنْ أَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَخْرَاهُ، وَجَعَلَ النَّارَ مَقَامَهُ وَمَثْوَاهُ، وَقَرَأَ: (اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ) فِي الصَّلَاةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَمِعُونَ، فَأَسْقَطَ: {قُلْ هُوَ}، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ"^(٢).

والمعنى: جاء بعضُ المخذولين برأيٍ وهو: لماذا نقول لفظ {قل}؟ لما لا نقول: {الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد} وهكذا؟ الجواب: لا شك في كفر مَنْ قال هذا.
هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ أي أن الله واحدٌ في أسمائه وصفاته، أحد في ربوبيته، أحد في ألوهيته، أحد في أسمائه وصفاته ليس كمثله شيء، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، لكن ليست كأسماء المخلوقين، وليست كصفاتهم، بل أسماء وصفات تليق به ﷻ، ونؤمن بها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تمثيل.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ وفيه معانٍ: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٨٩٧) والنسائي في "المجتبى" (٩٩٤) وفي "السنن الكبرى"

(١٠٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٤٧٨)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥٩)

- ١- أَيُّ الَّذِي يُصَمِّدُ إِلَيْهِ فِي الْحَاجَاتِ. كَذَا رَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- ٢- وَقَالَ قَوْمٌ: الصَّمَدُ: الدَّائِمُ الْبَاقِي، الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ.
- ٣- وَقَالَ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا وَأَبُو وَائِلٍ شَقِيقُ بَنِي سَلَمَةَ وَسُفْيَانُ: الصمد: هو السَّيِّدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُودُّهُ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّودْدِ^(١).
- قلت:** أي: العظيم الذي كُمل في عظمته، الرحيم الذي كُمل في رحمته، العليم الذي كُمل في علمه، الرزاق الذي كُمل في رزقه، جَلَّالَهُ.
- ٤- وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ الْمُسْتَغْنَى عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَالْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلِّ أَحَدٍ. قلت: كلُّها معانٍ صحيحة^(٢).
- ٥- وَقَالَ السُّدِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ: الْمُقْصُودُ فِي الرَّغَائِبِ، وَالْمُسْتَعَانُ بِهِ فِي الْمَصَائِبِ.
- ٦- وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ.
- ٧- وَقَالَ مُقَاتِلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ: الْكَامِلُ الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ.
- ٨- وَقَالَ الْحَسَنُ وَعَكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الصَّمَدُ: الْمُصَمَّتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ^(٣). اهـ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥٨) وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "جامع البيان" (٢٤ / ٧٣٥).

وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُودُّهُ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ شَقِيقِ أَبِي وَائِلٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَدْ أَتَيْنَا عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُبَيَّنَةً فِي الصَّمَدِ، فِي (كِتَابِ الْأَسْنَى) وَأَنَّ الصَّحِيحَ مِنْهَا، مَا شَهِدَ لَهُ الْإِشْتِقَاقُ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ. ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥٩).

(٣) المصدر السابق نفسه، ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢ / ٥٥٩) والذي بعد (قلت) ليس من كلام القرطبي، بل هو للمؤلف، والطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ٧٣٢).

وهذا المعنى الأخير فارق بين اسم الخالق والمخلوق الضعيف؛ ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ ﷺ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمُّ الْكُلُّ»^(١). أما ربنا سبحانه فمتمزة عن ذلك، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ لأن الله ﷻ يُطْعَم ولا يُطْعَم، جل جلاله وتباركت أسماؤه.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمْ يَلِدْ كَمَا وَلَدَتْ مَرْيَمُ، وَلَمْ يُولَدْ كَمَا وَلَدَ عِيسَى وَعَزِيرٌ. وَهُوَ رَدُّ عَلَى النَّصَارَى، وَعَلَى مَنْ قَالَ: عَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ^(٢). قلت: وهم اليهود. وكيف يكون الإله مولودًا، هذا من السفه، ولا يجوز أبداً.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ كُفُوًا: شبيهًا، ونظيرًا ومثيلاً، فليس هناك شبيه لله ﷻ، ونسأل الله أن ينفعنا وإياكم بالقرآن الكريم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم تفسير سورة الإخلاص بفضل الله وحوله ومنه.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦١١) وأحمد في "مسنده" (١٢٥٣٩) وابن حبان في "صحيحه" (٦١٦٣) والحاكم في "المستدرک" (١٠٥)، من حديث أبي أنس رضي الله عنه، به.

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٢/ ٥٦٠) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمْ يُولَدْ كَمَا وَلَدَتْ مَرْيَمُ، وَلَمْ يُولَدْ كَمَا وَلَدَ عِيسَى وَعَزِيرٌ. وَهُوَ رَدُّ عَلَى النَّصَارَى، وَعَلَى مَنْ قَالَ: عَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ.

﴿سُورَةُ الْفَلَقِ﴾

هي مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد سورة الفيل.^(١)

من فضائل هذه السورة الجليلة:

هذه السورة مع سورة الناس لهما فضلٌ عظيمٌ -وكذلك سورة الإخلاص- من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرْ مِثْلُهُنَّ قَطُّ، قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»^(٢)، والمعنى أنه لم يُرْ مثل هاتين السورتين، وفي لفظ آخر عند مسلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أُنْزِلَ، أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرْ مِثْلُهُنَّ قَطُّ، الْمُعَوِّذَتَيْنِ»^(٣).

ولذلك قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة، وبراهين صدق رسالة محمد.

واقعة: تأمل غفلتنا! حتى عندما نقرأ هذه السور العظيمة في أذكار الصباح والمساء لا نستحضر فضلهن، ولذلك تكون الفائدة العائدة علينا من هذه السور العظيمة قليلة، فعلى قدر استحضار الخشوع، واستحضار معاني الآيات، يفيض الله عليك بركاته.

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٢٦٦)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١٤)، والترمذي في "سننه" (٢٩٠٢)، ابن حبان في "صحيحه" (٧٩٦)، وأحمد في "مسنده" (١٧٣٠٣)، والنسائي في "سننه" (٩٥٤)، من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١٤)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

مسألة: متى يتأكد استحباب تلاوة هذه السور؟

١ - **دُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ**: فقد روى أبو داود والنسائي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(١)، والمعنى أنك بعد كل صلاة تقرأ المعوذات: الإخلاص والفلق والناس، وآية الكرسي كذلك.

٢ - حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: ففي سنن أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُيَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَذْرَكُنَاهُ، فَقَالَ: أَصَلَّيْتُمْ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(٢).

٣ - قبل النوم: وفي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا»^(٣) فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَدًا بِيَدٍ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٤).

(١) (حسن) أخرجه النسائي في "سننه" (١٣٣٦) وأبو داود في "سننه" (١٥٢٣) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وحسنه الألباني في "الصحيحة" (١٥١٤).

(٢) (صحيح) أخرجه وأبو داود في "سننه" (٥٠٨٢)، والترمذي في "سننه" (٣٥٧٥)، وأحمد في "مسنده" (٢٢٦٦٤) من حديث عبد الله بن حبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٤٠٦).

(٣) النفث هو الهواء بدون ريق.

(٤) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠١٧)، وأبو داود في "سننه" (٥٠٥٦)، والترمذي في

٤ - الرقية حال المرض: ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»^(١).

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴿٥﴾

أنواع الشرور المستعاذ منها في المعوذتين:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الشرُّ الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

- ١ - إما ذنوبٌ وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ويكون هذا الشرُّ هو الذنوب وموجباتها وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدُّهما اتصالاً بصاحبه.
- ٢ - وإما شرٌّ واقع به من غيره وذلك الغير إما مكلفٌ أو غير مكلفٍ. والمكلف إما نظيره - وهو الإنسان - أو ليس نظيره وهو الجنى. وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحُمّة^(٢) وغيرها.

"سننه" (٣٤٠٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠١٦)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٩٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "النهاية" (١/ ٤٤٦): [الحُمّة] بالتَّخْفِيفِ: السَّمُّ.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرورِ كُلِّه بأوجز لفظٍ وأجمعِه وأدْلِه على المراد وأعمّه استعاذة؛ بحيث لم يبقَ شرٌّ من الشرورِ إلا دخل تحت الشرِّ المستعاذِ منه فيها^(١). اهـ

قلتُ: صدق؛ فإنَّ أعظمَ الشرِّ، وأعظمَ ما يخافه العبدُ: ذنوبُه، ووالله ما حُرِّم العبدُ خيرًا عظيمًا إلا بسبب ذنوبه، وما حلت النقمُ والبلايا والمحنُ على العبدِ إلا بسبب ذنوبه. وكلما كان العبدُ أطوعَ لربِّه ومجتهدًا في طاعته، كلما أحلَّ الله ﷻ عليه البركاتِ، في صحته، وفي عافيته، وفي أهله، وولده، وماله، وغير ذلك.

فالشرُّ الأولُ إذا: ذنوبٌ وقعت منه يعاقبُ عليها: كسارقٍ تُقَطَّع يده، أو زانٍ يُرَجَمُ وهكذا نسأل الله العفو والعافية.

والشرُّ الثاني واقعٌ به من غيره: من الإنسان أو الجنِّي أو الهوام وذوات الحُمَةِ كالحيات والعقارب وغيرها من ذوات السموم وانتبه؛ فهي غيرُ الحمَى؛ التي في حديث أنسٍ رضي الله عنه، في المستدرك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَا رُفِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَى، أَوْ دَمٍ لَا يَرِقُّ»^(٢).

والمعنى: أنك عندما تستعيز برَبِّ الفلقِ سبحانك ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٣) فأنت بذلك تستعيز من شرِّ كلِّ مخلوقٍ حتى من نفسك! فعملُ الذنبِ مخلوقٌ من فعلِكَ، فأنت تستعيز بالله مِنْهُ؛ لأنَّك لو ارتكبتَه وآخذكَ الله به عاقبك عليه. وأنت بذلك تستعيز من شرِّ غيرِكَ كالحاسد، والحاقد، وذِي العين السيئة، وكلِّ ظالمٍ كمدِيرٍ ظالمٍ ونحوه كذلك شرُّ الهوام والسباع وشرُّ الجن وشرُّ كلِّ ذي شرٍّ، فسبحان الله، كم هي كلمة جمعت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور.

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٠٤)

(٢) (صحيح دون، أو دم لا يرقأ) أخرجه وأبو داود في "سننه" (٣٨٨٩)، والحاكم في "المستدرك" (٨٢٧١)، والطبراني في "الكبير" (٧٣٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، به. وضعف الألباني الحديث بهذه اللفظة في "ضعيف الجامع" (٦٢٩١) والحديث في الصحيحين من دونها من حديث عمران بن حصين.

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: والشرُّ المستعاذُ منه نوعان:

أحدهما: موجود يطلب رفعه **والثاني:** معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه **والثاني:** معدوم فيطلب وجوده وحصوله. فهذه الأربعة هي أمهاتُ مطالبِ السائلين من رب العالمين وعليها مدارُ طلباتهم. وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله ﷺ حكايةً عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم:

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] فهذا الطلب لدفع الشر الموجود؛ فإنَّ الذنوبَ والسيئاتِ شرٌّ - كما تقدم بيانه - ثم قال: ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ فهذا طلبٌ لدوام الخير الموجود - وهو الإيمان - حتى يتوفاهم عليه فهذان قسمان ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَعَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ فهذا طلبٌ للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فهذا طلبٌ أن لا يوقع بهم الشرُّ المعدوم وهو خزي يوم القيامة فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسنَ انتظامٍ مرتبةً أحسنَ ترتيبٍ قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ثم اتبعاً بالنوعين اللذين في الآخرة وهما: أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله وأن لا يخزيهم يوم القيامة. فإذا عُرِفَ هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»^(١) يتناول الاستعاذة من شرِّ النفس الذي هو معدومٌ لكنه فيها بالقوة فيسأل دفعه وأن لا يوجد.

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٠٩٧)، والترمذي في "سننه" (١١٠٥)، والنسائي في "سننه"

(١٤٠٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به . وصححه الألباني في "تخريج الكلم الطيب" (٢٠٦).

وأما قوله «وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وُجِدَتْ فيكون الحديث قد تناول نوعي

الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها^(١). اهـ

قلت: فالشرُّ إمّا موجودٌ يُطلب رفعه كرجلٍ قَدَّرَ اللهُ عليه محنةً من مرضٍ أو تسلطٍ ظالمٍ...

فيستعِذ بالله من شره؛ ليرفع عنه هذا المرض أو هذا الشر عنه.

والآخر: شرٌّ معدومٌ - غيرٌ موجودٍ - يُطلب بقاءه على العدم لئلا ينزل عليه. ويصبيه.

كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما موجودٌ يُطلب دوامه وثباته كمن أنعم الله عليه بالزوجة

الصالحة وبوالدين الصالحين، وبالصحبة الصالحة .. فيسأل الله أن يديم هذه النعمة. ففي

صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ

بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»^(٢). والخير الثاني معدومٌ

يُطلب وجوده وحصوله.

تنبيه: هل الموعودتين من القرآن:

يُذَكَّرُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أنه: "كَانَ لَا يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ"^(٣)، بل إن

البخاري عندما روى هذا الحديث أبهم قول ابن مسعود رضي الله عنه ولم يصرح به^(٤)؛ لعلمه بطلانه

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٠٨-٢٠٧)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٠٤٤)، وأبو داود في "سننه" (١٥٤٥)، والنسائي في "الكبرى"

(٧٩٠٠) وغيرهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، به.

(٣) (صحيح) أخرجه وأحمد في "مسنده" (٢١١٨٥)، وابن حبان في "صحيحه" (٢١١٨٥)، وابن الصُّرَيْس في

"فضائل القرآن" (٢٩٢)، عن زُرَّيْنِ حُبَيْشٍ رضي الله عنه، به.

وخالفته إجماع الأمة، ففي صحيح البخاري عن زرٍّ، قال: سألتُ أبايَ بْنَ كَعْبٍ، قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «قِيلَ لِي فَقُلْتُ» قَالَ: فَتَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

والمعنى: كان ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ بأنها استعادةٌ ولم يتواتر في علمه أنها من القرآن الكريم، ولا شكَّ أنه مخالفٌ لجماعة المسلمين في هذا فالصحابة كلُّهم يثبتون أن هاتين السورتين في القرآن الكريم ومن كتاب الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هَكَذَا وَقَعَ هَذَا اللَّفْظُ مُبْهَمًا، وَكَانَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَهْمَهُ؛ اسْتِعْظَامًا لَهُ^(١).

معنى الفلق: الفلق: معناه الصبح، ومعناه أيضاً كل شيء ينفلق عن شيء، قال ابن القيم رحمه الله: واعلم أن الخلق كله فلق؛ وذلك أن فلُقًا: فعلٌ بمعنى مفعول كقبضٍ وسلْبٍ وقنصٍ بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﻻ **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ** ﴿[الأنعام: ٩٦] و **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَبِ وَالنَّوَى** ﴿[الأنعام: ٩٥] وفالق الأرض عن النبات والجال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأجنة والظلام عن الإصباح. ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقا وفرقا؛ يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه^(٢).

(١) قال الحافظ رحمه الله في "الفتح" (٨ / ٧٤٢)، وَأُظُنُّ ذَلِكَ مِنْ سُفْيَانَ؛ فَإِنَّ الْإِسْبَاعِيَّ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ الْعَلَاءِ عَنْ سُفْيَانَ كَذَلِكَ عَلَى الْإِبْهَامِ وَكَنتُ أَظُنُّ أَوَّلًا أَنَّ الَّذِي أَهْمَهُ الْبُخَارِيُّ.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٧٧)، والنسائي في "الكبرى" (١١٦٥٣)، وأحمد في "مسنده" (٢١١٨٩) عن زرٍّ بن حُبَيْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) ينظر "فتح الباري" للحافظ بن حجر (٨ / ٧٤٢)

(٤) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢ / ٢٢١-٢٢٠)

قلت: ومنه ﴿فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

مسألة: ما السرُّ في الاستعاذة برب (الفلق) في هذا الموضع؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الفلقُ الصبحُ الذي هو مبدأ ظهورِ النورِ وهو الذي يطرد جيشَ الظلامِ وعسكرَ المفسدين في الليل فيأوي كلَّ خبيثٍ وكلَّ مفسدٍ وكلَّ لصٍ وكلَّ قاطع طريقٍ إلى سربٍ أو غارٍ وتأوي الهوامُ إلى أحجرتها والشياطينُ التي انتشرت بالليل إلى أمكتها ومحالها. فأمرَ الله تعالى عباده أن يستعيذوا برب النورِ الذي يقهر الظلمةَ ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها.

ولهذا ذكر سبحانه في الكتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النورِ ويدع الكفار في ظلمات كفرهم قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوْ مِّن مَّيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال في أعمار الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. فالإيمان كله نورٌ وماله إلى نورٍ ومستقرُّه في القلب المضيء المستنير والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة. والكفر والشرك كله ظلمةٌ وماله إلى الظلمات ومستقرُّه في القلوب المظلمة والمقترن بها الأرواح المظلمة. فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ومن شر ما يحدث فيها ونزول هذا المعنى على الواقع

يشهدُ بأنَّ القرآنَ بل هاتان السورتانِ مِنْ أعظمِ أعلامِ النبوةِ وبراهينِ صدقِ رسالةِ محمدٍ ﷺ ومضادة لما جاء به الشياطينِ مِنْ كلِّ وجهٍ وأنَّ ما جاء به ما تنزلت به الشياطينُ وما ينبغي لهم وما يستطيعون فما فعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرُونَ عليه^(١). اهـ

لذلك قال العلامة صدِّيق حسن خان رَحِمَهُ اللهُ: وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيحاء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائد كل ما يخافه ويخشاه. وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح. وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثيرُ فائدةٍ تتعلق بالتفسير^(٢). اهـ

فلذلك قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ معناها أنك تستعِذُ برب الفلق الذي يفلق الضياء من الظلام، وهو فالق الاصبح، فالله القدير الذي يفلق الضياء والنور من الظلمة ويزيح الظلام عن العالم أجمع قادرٌ على أن يكفيك شرَّ الظالم، وقادرٌ أن يكفيك شرَّ ما أهلك، وقادرٌ على أن ينجيكَ من كربتك، وقادرٌ على أن يقضيَ لك حوائجك، وقادرٌ على أن يشفيكَ ويعافيكَ، فاجعلْ رغبَتَكَ فيه جَلَّالاً.

الشرُّ الأول:

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فليس معناها مِنْ شرِّ جميع ما خلق، قال ابن القيم: و{ما} هاهنا موصولة ليس إلا والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٢٠-٢١٩)

(٢) ينظر "فتح البيان في مقاصد القرآن" (١٥/ ٤٥٨-٤٥٧)

الذي هو فعله وتكوينه؛ فإنه لا شر فيه بوجه ما؛ فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى^(١).

وقال رحمه الله: وقد دخل في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة أو ريحا أو صاعقة .. وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله تعالى؛ فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر ... وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^(٢).

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ إِذَا سَافَرَ فَأَقْبَلَ اللَّيْلُ قَالَ: «يَا أَرْضُ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَدْبُ عَلَيْكَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»^(٣).

وفي الحديث الآخر: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ، وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَدَرَأً وَبَرَأً، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢١٠)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٩٧٧)، وأبو داود في "سننه" (٣٨٩٨)، والترمذي في "سننه" (٣٤٣٧) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها، به.

(٣) (ضعيف) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٦٠٣)، النسائي في "الكبرى" (١٠٣٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، به. وضعفه الألباني في. "الضعيفة" (٤٨٣٧).

الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يُخْرِجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ»^(١). اهـ^(٢)

قلت: إسناده ضعيفٌ ولكن لعله يُحَسِّنُ بمجموع طرقه. وهذا هديٌّ من أجل ما يكون، فإذا توقفت لأي سبب وأنت مسافرٌ فقلَّ أولَ ما تنزل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فأنت في أمانٍ ولن يضرَّك شيءٌ. وكم انتفعنا بذلك في أسفارنا والكريم يحفظك ويرزقك الأمان والأمان ببركة اتباع سنة الرسول ﷺ.

الشَّرُّ الثاني: ما ينتشر في الليل:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ولأهل العلم في معناه فيه أقوال:

١ - الليل

أ - في تسمية الليل بالغاسق: إذا أقبلَ بظلمته: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد قال أكثرُ المفسرين أنه الليل. قال عبد الله بن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: الليل إذا أقبلَ بظلمته من الشرق ودخل في كل شيءٍ وأظلم. والغسق: الظلمة. يقال: غسق الليل وأغسق: إذا أظلمَ ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وكذلك قال الحسن ومجاهد: "الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل والوقوب: الدخول وهو دخول الليل بغروب الشمس". وقال مقاتل: "يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار".

(١) (صحيح) وأحمد في "مسنده" (١٥٤٦١)، النسائي في "الكبرى" (١٠٧٢٦)، وعبد الرزاق في "مصنفه"

(١٩٨٣١)، والبيهقي في "الدلائل" (٩٦ / ٧) وغيرهم، من حديث خالد بن الوليد، وله شاهد ن طريق عبْدِ

الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٣).

(٢) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢ / ٢١٦-٢١٥)

ب. وفي تسمية الليل غاسقا قول آخر: إنه من البرد. والليل أبرد من النهار. والغسق: البرد. وعليه حمل عبد الله بن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧] وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبا: ٢٤] قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: "هو الذي انتهى برده". ولا تنافي بين القولين؛ فإن الليل باردٌ مظلمٌ فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه. والظلمة في الآية أنسبُ لمكان الاستعاذة؛ فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل. ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح والنور من شر الغاسق الذي هو الظلمة فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة^(١).

قلت: فحيث تنشر الشياطين لذا ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ - أَقْبَلَ بِظِلَامِهِ سَاعَةَ الْمَغْرَبِ -، فَكُفُّوا صِيَّانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْشُرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ سِقَاءِكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمَرُ إِنَاءِكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَلَيْهِ شَيْئًا^(٢)». اهـ **وقفة:** ونحن ليس عندنا قوانين ولا هدي في هذه المسألة وهذا خطأ عظيم! فيجب علينا أن نحبس أولادنا عند الغروب وبعده؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْشُرُ حِينَئِذٍ. وقال أهل العلم: وكذلك الهوام والسباع تخرج من أماكنها بالليل، وأهل الشر والفساد ينبعثون كذلك.

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٨٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠١٢)، من حديث جابر

بن عبد الله رضي الله عنه، به.

٢- **الثرى إذا سقطت:** فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها وترتفع عند طلوعها^(١).

٣- **القمر:** ففي سنن الترمذي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»^(٢).

مسألة: ما سرُّ الاستعاذة من شرِّ الغاسقِ إذا وقب؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال ﷺ: «فاكتفوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء»^(٣). وفي حديث آخر: «فإن الله يث من خلقه ما يشاء»^(٤). والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار؛ فإن النهار نورٌ والشياطين إنما سلطائهم في الظلمات والمواضع المظلمة وعلى أهل الظلمة. وروي

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢١٨)

(٢) (صحيح) أخرجه والترمذي في "سننه" (٣٣٦٦)، النسائي في "الكبرى" (١٠٠٦٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به. وصححه الألباني في "الصحيحة" (٣٧٢).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٠٤)، ومسلم في "صحيحه" (٥٣٠١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٤) (صحيح) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٢٣٢٧)، والحميدي في "مسنده" (١٣١٠) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبْحَ الْكَلْبِ بِاللَّيْلِ أَوْ نُهَاقَ الْحِمِيرِ فَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا تَرَوْنَ. وَأَقْلُوا الْخُرُوجَ إِذَا هَدَّاتِ الرَّجُلُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْثُ فِي لَيْلِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ. وَأَجِيفُوا الْأَبْوَابَ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا أُجِيفَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ. وَغَطُّوا الْجِرَارَ وَاكْفَتُوا الْآيَةَ وَأَوْكُوا الْقُرْبَ» وصححه الألباني في "الصحيحة" (٣١٨٤).

أن سائلا سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: " في ظلماء حندس " وسأل النبي ﷺ: كيف يأتيك؟ فقال: " في مثل ضوء النهار " فاستدلَّ بهذا على نبوته وأن الذي يأتيه ملكٌ من عند الله وأن الذي يأتي مسيلمةَ شيطانٌ. ولهذا كان سلطانُ السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار فالسحر الليليُّ عندهم هو السحر القوي التأثير. ولهذا كانت القلوبُ المظلمة هي محالُّ الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجولُ فيها وتتحكم كما يتحكم ساكنُ البيت فيه وكلما كان القلبُ أظلم كان للشيطانِ أطوعٌ وهو فيه أثبت وأمكن^(١). اهـ.

الشر الثالث: السُّحر:

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمِنْ شَرِّ اللَّفْقَتَيْنِ فِي الْعُقَدِ﴾ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر^(٢). فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ لأنه الأغلبُ. فالله أمرُك أن تستعيذ من شر السحرة الذين ينفثون في العقد.

مسألة: وهل السحر حقيقة، أم ليس بحقيقة؟ وهل فعلا يضر أم لا يضر؟

لا شك أنه يضر بإذن الله. وقالت بعض الطوائف: إن السحر ما هو إلا تخيل فقط، وليس له تأثيرٌ على بدن العبد^(٣). قال أهل السنة: السحر له تأثيرٌ على العبد بإذن الله ﷻ، ألم تر إلى قول الله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢١٩-٢١٨)

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٢١).

(٣) قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ في " التفسير الكبير " (٣٢/ ٣٧٥): أَتَكَرَّتِ الْمُعْتَرِلَةُ تَأْثِيرَ السُّحْرِ.

بِسْحَرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦] فَأَثَرُ السِّحْرِ فِي قُلُوبِهِمُ وَالسِّحْرُ الَّذِي وَقَعَ عَلَى الرَّسُولِ أَثَرٌ فِي بَدَنِهِ، فَالسِّحْرُ يُوَثِّرُ فِي الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وقد ثبت في الصحيحين عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ اللَّيْثُ: كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ أَنَّهُ سَمِعَهُ وَوَعَاهُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى كَانَ يُحِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: "أَسْعَرَتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي، أَتَانِي رَجُلَانِ: فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَافَةٍ وَجُفٍّ طَلَعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بئرِ ذَرَوَانَ " فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» فَقُلْتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا» ثُمَّ دُفِنَتِ الْبُئْرُ^(١).

ولكن سيأتي أن الرسول ﷺ أخرجه، فقد أمر علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرَهُ فَأَخْرَجُوا السِّحْرَ مِنْ تَحْتِ رَاغُوفَةٍ. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا تنافي بينهما؛ فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شَفِيََ وقول عائشة رضي الله عنها هلا استخرجته؟ أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه فأخبرها بالمانع له من ذلك وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك فيقع الإنكار ويغضبُ للساحر قومه فيحدث الشرُّ^(٢). اهـ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٢) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٢٣)

قلت: فرسول الله ﷺ ما بُعث متعَتًا، ولا يشقُّ على العباد، بل بُعث رحمةً للعالمين، فلم يردُّ أن يثير على الناس شراً، فإنه لو أظهر هذا السحرَ وقال إن الذي عملَ السحرَ فلانُ فهذا الرجل له أولياءُ وله أصحابٌ وله قبائلٌ يغضبون له وكان سيحدث خلافٌ بين الصحابة، فقد دفع الضررَ الأكبرَ بالضررِ الأخفِّ.

وفي الصحيحين عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ (بني المصطلق) ... فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَوْقَدْ فَعَلُوا، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ". وكان ابنُ سلولٍ يقصدُ الرسولَ ﷺ. وَبَلَغَ الصَّحَابِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِيهِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتُ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمَلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ رَجُلٍ أَبْرَ بَوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدْعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخَلَ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا»^(١).

اهـ

وَذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّ النَّاسَ لَمَّا قَتَلُوا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَمْشُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَأَيْكَ. فَقَالَ: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَجُوزُ مِنْ هَاهُنَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الذَّلِيلُ. فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَكَانَ إِنَّمَا يَسِيرُ سَاقَةً - فَشَكَا إِلَيْهِ

(١) ينظر "السيرة النبوية" لابن هشام (٢/ ٢٩٣-٢٩٢)

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِهِ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ. فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَمَا إِذْ أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَزِ الْآنَ^(١).

وقال ابن سلول أيضاً: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧] ، أي: امنعوا الأموال عنه ﷺ وعن أصحابه، لا تعطوه زكاةً ولا غيرها، فيضطرُّ الناسُ للانفضاض عنه، والأعراب الذين يأتون للمال لا يأتون، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(٢).

وهل عبدالله بن سلول من أصحاب النبي ﷺ؟

لا ولكنه معهم في الجملة، وهو منافقٌ نفاقٌ اعتقادٍ، والناس لا تعرفُ إلا أنه من أتباع هذا النبي ﷺ وأمر بقتله، إذن هذا الرجل يقتل أصحابه، لذلك كان ﷺ خيرَ مَنْ عبدَ الله ﷻ.

مسألة: إخراج السَّحَرِ:

سبق معنا أن النبي ﷺ أخرج السَّحَرَ ودليله في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَحَرًا، حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ - قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّحَرِ، إِذَا كَانَ كَذَا - فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالَ

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٣٢)

(٢) قولُ عُمَرَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد سبق مطلع الحديث قريباً - لكنه بعد مقولة ابن سلول:

﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وليس بعد قوله: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ فقد يكون القولُ صدرَ مَنْ عُمَرَ مرتين أو كان ردًّا منه على القولين في آنٍ والله أعلم.

الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا - قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذِكْرِ، تَحْتَ رَاغُوفَةٍ فِي بَيْتِ ذُرْوَانَ. قَالَتْ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبَيْتَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ، فَقَالَ: «هَذِهِ الْبَيْتُ الَّتِي أُرِيتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَفَاعَةُ الْحَيَاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَفَلَا؟ - أَيْ تَنْشُرَتْ - فَقَالَ: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا»^(١).

مسألة: ما النشرة؟

النشرة في عرف الناس: هي حل السحر بسحر. لكن النشرة الجائزة في ديننا الكريم: هي حل السحر بالرقى والتعوذات الشرعية. وأُطلق عليها نشرة؛ لأن الإنسان كأنها ينشط من عقله أي إذا قرئت عليه هذه الرقية، عافاه الله ﷻ.

ولكن النشرة المحرمة هي أن يذهب الإنسان إلى ساحر ويقول له: أنا مسحورٌ أو فلان مسحورٌ فالساحر يعمل له سحرًا يفك به السحر الأول والعياذ بالله، هذا حرام ولا يجوز وعلى أقل تقدير هو كبيرة من الكبائر نسأل الله العافية.

مسألة: هل أثر السحر على بلاغ الرسالة؟

كان رسولنا ﷺ في سحره محفوظًا من الله ﷻ فيما يبلغه عن الله، وما زاد وما نقص حرفًا، فهذه مهمة جدا، لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٧٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٨٩) من حديث عائشة

يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة: ٦٧] فحفظه الله في باب البلاغ. وقد ذهب بعض أهل البدع إلى

نفي المسألة تماماً، يقولون: إننا لو قلنا أن الرسول ﷺ سُحِرَ فيه مطعن على الشريعة.

قلتُ: وهذا ضلال واضح؛ كيف يكون مطعنًا في الشريعة! وماذا نقول في الأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ في الصحيحين، وهي في أعلى درجات الصحة؟ نقول كما قال جماهير السلف والخلف، وأهل السنة والجماعة بأن رسولنا محمدًا ﷺ سُحِرَ، وأصابه السحر ومريض بسببه، وكان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وفي خلال كل ذلك وقبله وبعده عصمه الله ﷻ في ما يبلغه عن الله ولم ينقص أو يزد شيئًا في شريعة الله قط ﷺ.

مسألة: ما الحكمة من ابتلاء النبي ﷺ بالسحر؟

أجرى الله تعالى السحر على نبيه ﷺ؛ حتى يعلم العباد أنه بشرٌ من البشر، يمرض ويصيبه ما يصيب البشر.

فائدة نفيسة: كم مكث رسولنا ﷺ في سحره؟

وَرَدَ فِي مَسْنَدِ أَحْمَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي وَلَا يَأْتِي، فَاتَّاهُ مَلَكَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ الْحَدِيثِ^(١)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَهْرَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيَّامًا.^(٢)

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٤٣٤٧) وأبو عوانة في "مستخرجه" (٩٦٠٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح الباري" (٢٢٦/١٠) وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَبِي صَمْرَةَ عِنْدَ الْإِسْعَاعِيِّ فَأَقَامَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَفِي رِوَايَةٍ وَهَيْبٍ عَنْ هِشَامٍ عِنْدَ أَحْمَدَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَيُمْكِنُ الْجُمُعُ بِأَن تَكُونَ السِّتَّةُ أَشْهُرًا مِنْ ابْتِدَاءِ تَغْيِيرِ مَزَاجِهِ وَالْأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ اسْتِحْكَامِهِ وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ لَمْ أَقِفْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى قَدْرِ الْمُدَّةِ الَّتِي مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا فِي السَّحْرِ حَتَّى ظَفَرْتُ بِهِ فِي جَامِعِ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ لَبِثَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ كَذَا قَالَ وَقَدْ وَجَدْنَاهُ مَوْصُولًا بِإِسْنَادٍ الصَّحِيحِ فَهُوَ الْمُعْتَمَدُ

فسبحان الله العظيم فأنت قد تصاب بعين أو تشكو من سحر - عافانا الله وإياك والمسلمين وحفظنا - فلا عليك امض في طريقك واعلم أن الساحر كيدَه ضعيفٌ، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]. وأخبر الله تعالى بأن كيدَ السحرة ضعيفٌ لا يصيب شيئاً إلا بإذن الله وإذا قدَّر الله عليك شيئاً إنما قدره ﷻ لحكم عظيمه شاءها الله، ولكن عليك أن تستغيث بالله وتزيد من الطاعة وتجتهد في اللجوء إليه وتكثر من قراءة القرآن وتأخذ بأسباب العافية من الرقى والتعوذات الشرعية، وتكثر من قول: لا اله الا الله وحده لا شريك له، والله يعافي العبد بفضله وجوده.

ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن جبريل عليه السلام، أتى النبي ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ اَشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(١). فعوذه جبريلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيهِ وَمِنْ شَرِّ عَيْنِ كُلِّ حَاسِدٍ لما اشتكى ﷺ. واستدل علماؤنا على أن التعوذ مزيلٌ لشكاية العبد عندما يشتكي من مرض، وسحر وعين وغير ذلك، نسأل الله العافية.

الشر الرابع: الحسد:

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحسد لا شك أنه مذموم، وأما الحسد الممدوح فهو المذكور في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال الرسول ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٢١٨٦)، والترمذي في "سننه" (٩٧٢)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٧٦١٣)،

وابن ماجه في "سننه" (٣٥٢٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

اِثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا»^(١).

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث سالم عن أبيه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَآتَاءَ النَّهَارِ»^(٢).

فهذا هو الحسد المحمود، أن يتمنى الإنسان ما للغير من دون زوال النعمة التي عنده. أما الحسد المحرم: فهو تمنى ما للغير مع زوال النعمة التي عنده.

في مسند أحمد عن أبي أمامة بن سهل رضي الله عنه قال: "اعْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَيْضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ، وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ مُحَبَّاةٍ (التي لا تخرج من خدرها) فَلَبِطَ بِسَهْلٍ (سقط مغشيا عليه)، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟ وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ، قَالَ: "هَلْ تَتَّهَمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟" قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: "عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَكْتَ؟" ثُمَّ قَالَ لَهُ: "اغْتَسِلْ لَهُ" فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٧٣) ومسلم في "صحيحه" (٨١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٥٢٩)، ومسلم في "صحيحه" (٨١٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، به.

قَدَحَ، ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاءَ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَهَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ، يُخْفِي الْقَدَحَ وَرَأَاهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَأَى سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ^(١).

أحيانا بعض الناس تكون عينه مؤذية تصيب بإذن الله، عندما يرى شيئا يعجبه. أعرف بعض إخواني معرفة شخصية وهذا الكلام تقريبا منذ ثلاثين عامًا، كان يؤم الناس في صلاه التراويح وكان صوته جميلاً فجاء إليه إنسان كي يوصله بسيارته إلى المسجد وصاحبنا كان بيته بعيداً عن المسجد. فخرج صاحبنا مستعجلاً فقال لأهله في البيت: جهزوا الشاي وسأشربه في السيارة وأخذ كوب الشاي وخرج فلما رآه اخونا صاحبُ السيارة قال له: أتشرب الشاي الساخن وأنت تصلي بالناس. قال: والله مكثت حوالي عشرة أعوام أصاب ببحّة في صوتي! والرسول ﷺ أخبرنا بالدواء: هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَكْتَ؟ فقل بسم الله ما شاء الله، تبارك الله اللهم باركْ وهكذا.

و في الصحيحين عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «اسْتَرِقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»^(٢). وفي صحيح مسلمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنِي أَنْ أَسْتَرِقِيَ مِنَ الْعَيْنِ»^(٣).

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده " (١٥٩٨٠)، وقال المحققون حديث صحيح. والطبراني في " المعجم الكبير " (٥٥٧٣)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٧٣٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢١٩٧)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٧٣٨) ومسلم في " صحيحه " (٢١٩٥) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

وبعض الناس على مواقع التواصل الاجتماعي، يصور طعامه وأولاده وينشر، وهذا كله يجلب العين، نسأل الله العافية والسلامة.

وفي صحيح مسلم أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، يقول: رخص النبي ﷺ لآل حزم في رقية الحية، وقال لأسماء بنت عميس: «مالي أرى أجسام بني أخي ضارعة تُصيّهم الحاجة» قالت: لا، ولكن العين تُسرّع إليهم، قال: «ارقيهم» قالت: فعرضت عليه، فقال: «ارقيهم»^(١). وهذا في زمن الصحابة، فما بالك بزمننا هذا المملوء بالسحر والعين. ومعنى ضارعة: أي نحيفة جدا.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٢). فالعين تدخل الرجل القبر^(٣)، نسأل الله العافية.

مسألة: ما هي الأسباب التي تدفع الحسد؟

معنا ثلاثة عشر سبباً:

١ - التوكل على الله تعالى: وقول حسبنا الله ونعم الوكيل وقد قال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله: والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم وهو من أقوى الأسباب في ذلك فإن الله حسبه أي كافية ومن كان الله

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢١٩٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٨)، والترمذي في " سننه " (٢٠٦٢)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٧٥٧٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٠٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٣) (حسن) أخرجه أبو نعيم في " حلية الأولياء " (٩٠ / ٧) والقضاعي في " مسند الشهاب " (١٠٥٧)، من حديث

ابن عباس رضي الله عنهما، به. وحسنه الألباني في " الصحيحة " (١٢٤٩)

كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً^(١). اهـ

قلت: وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» [آل عمران: ١٧٣].^(٢)

فجاء الجوابُ على إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا يِنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وكان موقفُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه: ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]

إذن أول سبب التوكل على الله، فالناس لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، الضرُّ والنفعُ بقدر الله وإن قدر الله ضرًّا فهو النافع والضرار، وإذا كان العبد له وردُّ يومي من ذكر الله وقراءة القرآن والدعاء والإقبال على الله وكان منيبًا إليه فبإذن الله لا يؤثر فيه الحسدُ فيكون عنده حماية.

٢ - تقوى الله: قال الله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. الظلمُ الذي يقع على العبد يدفعه أحياناً للانتقام ولكن إن صبر واتقى الله يصرف الله عنه الشرَّ.

(١) ينظر "بدائع الفوائد" (٢/ ٢٣٩)

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٥٦٣)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٣٦٤)، والحاكم في

"المستدرک" (٣١٦٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت الله، وإذا استعنت بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(١). فإذا حفظت الله ﷻ في نفسك، يحفظ الله عليك مالك وولدك ونفسك، وأعظم ما يحفظ عليك: الدين، فتخرج من الدنيا والله عنك راضٍ، وإن وقع بك أو بأهلك بلاءٌ عاملك الله بغاية اللطف، ببركة تقواك وصبرك وتوكلك عليه.

٣- **التعوذ من شر هذا الحاسد:** ومن شر كل حاسدٍ وذلك بقراءة المعوذات قال ﷺ: «ما تعوذ بمثلهنَّ أحدٌ»^(٢). وروى أبو داود والنسائي عن عتبة بن عامر رضي الله عنه، قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذات دبر كل صلاة»^(٣). فأكثر من قراءة الإخلاص والفلق والناس يحفظك الله من كل شيء.

- (١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥١٦)، وأحمد في "مسنده" (٢٦٦٩)، والحاكم في "المستدرک" (٦٣٠٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٠٥١-٧٩٥٧).
- (٢) (صحيح) أخرجه النسائي في "المجتبى" (٥٤٣٠)، وفي "السنن الكبرى" (٧٧٩٧)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٠٤٤-٧٩٥٠) عن عتبة بن عامر الجهنبي رضي الله عنه قال: «بينما أنا أقود برَسُولِ اللَّهِ ﷺ راحلته في غزوة إذ قال: «يا عتبة، قل فاستمعت»، ثم قال: «يا عتبة، قل فاستمعت»، فقالت الثالثة، فقلت: ما أقول؟، فقال: «قل هو الله أحد» فقرأ السورة حتى ختمها، ثم قرأ: «قل أعوذ برب الفلق» وقرأت معه حتى ختمها، ثم قرأ: «قل أعوذ برب الناس» فقرأت معه حتى ختمها، ثم قال: «ما تعوذ بمثلهنَّ أحدٌ» (٣) (حسن) وقد تقدم تخريجه.

٤ - عدم إخبار الحاسد بنعم الله عليك: وقد يكون الحاسدُ أحدَ جيرانك، أو حتى أخاك!

قال الله على لسان يعقوب: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]. قال أهل التفسير: أمره ألا يخبر إخوته بهذه الرؤيا؛ لما رأى وعلم أن الله سيرفعه، وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة رضي الله عنه، أن أبا قتادة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثُ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَّقِلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثُ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ»^(١). فعليك أن تكتم نعم الله وتستر على نفسك ولا تخبر بها إلا مَنْ يحبك ويدعو لك.

٥ - فراغ قلب المحسود من الاشتغال بالحاسد: قال ابن القيم رحمه الله: فراغ القلب من

الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر. وهكذا الأرواح سواءً فإذا علق روحه وشبها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظةً ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبها فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما: فإذا جذب روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطر به باله فإذا خطر به باله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بها هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا؛ فإن

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٦١)، من حديث أبي

قتادة رضي الله عنه، به.

الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً. وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية^(١).

٦ - الإقبال على الله والإخلاص له، قال ابن القيم رحمه الله: ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيتها تدب فيها ديب الخواطر شيئاً فشيئاً حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره ... قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّدَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٢٨) [ص: ٨٢-٨٣].^(٢) يعني المجتبيين الذين أخلصوا دينهم لله.

٧ - الصبر على كيد الحاسد: قال ابن القيم رحمه الله: والصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيرته وبغيه؛ فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوةً للمبغى عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه. ولو رأي المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه بل بغى عليه

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤٠)

(٢) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤١)

وهو صابر! وما من الذنوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغي وقطيعة الرحم وقد سبقت سنة الله أنه لو بَغَى جِبَلٌ على جبلٍ جعل الباغي منها دَكًّا^١. اهـ

قلت: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ ﷺ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفُهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^٢.

٨ - الإحسان الى الحسود: قال ابن القيم رحمه الله: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو: إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازدادت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة .. واسمع قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^٣ وَمَا يُقْلَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^٤ وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^٥ [فصلت: ٣٤ - ٣٦]^٦.

٩ - الصدقة: من اعظم أسباب دفع الحسد عن المحسود، قال ابن القيم رحمه الله: والصدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد. ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به. فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد وكانت له فيه العاقبة

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٣٩)

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٥٨)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٩٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٣) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤٣)

الحميدة. فالمحسنُ المتصدقُ في خفارة (حراسة) إحسانه وصدقته عليه من الله جنةٌ وافيةٌ وحصنٌ حصين. وبالجملة فالشكر حارسُ النعمة من كل ما يكون سبباً لزلواها^(١).

١٠ - التوبة: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: تجديد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلَّطت عليه أعداءه فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال خير الخلق وهم أصحاب نبيه ﷺ - دونه ﷺ -: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فما سلَّطَ على العبد من يؤذيه إلا بذنبٍ يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره وفي الدعاء المشهور: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ"^(٢). اهـ

١١ - اتباع السنة: بأن يغتسل الحاسد، أو يتوضأ ويصَبُّ ماءً الوضوء في إناءٍ ويؤخذ هذا الماء ويصَبُّ على المحسود فيبرأ بأذن الله. ففي صحيح مسلم عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاعْسِلُوا»^(٣). قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَصَفَةُ وُضُوءِ الْعَائِنِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ: أَنْ يُوْتَى بِقَدَحِ مَاءٍ وَلَا يُوَضَعُ الْقَدَحُ فِي الْأَرْضِ فَيَأْخُذَ مِنْهُ عَرَفَةً فَيَتَمَضَّمُضُ بِهَا ثُمَّ يَمَجَّجُهَا فِي الْقَدَحِ ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْهُ مَاءً يَغْسِلُ

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤٣-٢٤٢)

(٢) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤٢)

(٣) (صحيح) وقد تقدم تخريجه

وَجْهَهُ ثُمَّ يَأْخُذُ بِشِمَالِهِ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ كَفَّهُ الْيُمْنَى ثُمَّ يَمِينِهِ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ مِرْفَقَهُ الْأَيْسَرَ وَلَا يَغْسِلُ مَا بَيْنَ الْمِرْفَقَيْنِ وَالْكَعْبَيْنِ ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَهُ الْيُمْنَى ثُمَّ الْيُسْرَى . . إِلَى آخِرِ مَا قَالَ^(١).

١٢ - الرقية: ثبت في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اسْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(٢).

١٣ - تجريد التوحيد: راجع نفسك هل وقعت في شركٍ أصغرٍ أو حليفٍ بغير الله؟ وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٣).
إِذَا سُورَةُ الْفَلَقِ عَلَى قَصْرِهَا وَوَجَازَتِهَا، جُمِعَتِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَجُمِعَتِ لَكَ الْحِمَايَةُ مِنَ الْحَسَادِ وَالسَّحَرَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَلَا تَغْفَلَ عَنْ قِرَائَتِهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً وَفِي كُلِّ وَقْتٍ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَنَا وَايَاكُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَلَقِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

(١) قاله النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "شرح مسلم" (١٤ / ١٧٢).

(٢) (صحيح) وقد تقدم تخريجه

(٣) (صحيح) وقد تقدم تخريجه.

﴿سُورَةُ النَّاسِ﴾

هي مكية، وآياتها ست، نزلت بعد سورة الفلق.^(١)

مسألة لعن الشيطان:

صحَّ عن الرسول ﷺ أنه أردف صحابياً خلفه، فَعَثَرَتْ دَابَّتُهُ، فَقَالَ الصَّحَابِيُّ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ الرسول ﷺ: «لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاعَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(٢).

لذلك نصَّ السادة العلماء: أنه لا يجوز أن تقول: لعن الله الشيطان، لأنها تجعله يتعاضم ويكبر ويقول: بقوتي صرعته، بقوتي أغويته، إلى غير ذلك، إنما تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقول: بسم الله، وتقول: أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة. فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٣٠ / ٢٦٩)

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٨٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٥٩١)، والنسائي في "الكبرى"

(١٠٤٩٨)، وغيرهم، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣١٢٨)

شر من داخله .. فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة^(١).

لماذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؟

قال ابن الجوزي رحمه الله: خصَّ النَّاسَ هاهنا بأنه ربُّهم، وهو ربُّ كل شيء؛ لأنهم معظَّمون متميزون على غيرهم - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ولأنه لما أمر بالاستعاذة من شرِّهم أعلم أنه ربُّهم،
ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم^(٢).

وإذا تأملت هذه السورة العظيمة ستجد فيها ثلاث إضافات جليّة:

ففي الآية الأولى: (رب الناس)، وفي الآية الثانية: (ملك الناس)، وفي الآية الثالثة: (إله الناس)، ثلاث إضافات جليّة: الربوبية، والملك، والإلهية، فما مناسبة كلٍّ منها؟
قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتديرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه وهو المدبر لهم كما يشاء النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان التام عليهم فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٥٠).

(٢) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤/ ٥١٠).

عند الشدائد والنوائب وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به ويتديره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ... وإذا كان وحده هو ربنا ومالكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ... فهم جديرون أن لا يستعذوا بغيره ولا يستنصروا بسواه ولا يلجئوا إلى غير حمّاه؛ فهو كافهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملكه وإلهه^(١).

فإذا كان الله ربك ومالكك وإلهك، فهل تستعبدُ بسيدنا الحسين (عليه السلام)، أو بالسيد البدوي، أو بأم هاشم، أو بعبد القادر الجيلاني، أو بغيرهم من أصحاب القبور؟ لا والله، بل ولا يجوز أن تستعبدَ بالنبى نفسه - ﷺ -؛ فهذا شركٌ أكبر. لا يجوز للعبد أن يستعبدَ إلا بالله، ولا خلاصَ لنا ولا نَجاةَ من شرّ الشيطان الرجيم وشرّ شياطين الإنس إلا بالله جلّ جلاله، وتباركت أسماؤه، سبحانه تبارك وتعالى.

يقول الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِنَةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴿١﴾

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٤٨-٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝﴾ {أعوذُ} أي ألتجئ وأستجير وأعتصم، ومضى معنى {رَبِّ}.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝﴾ سبق معنى (ملك) كذلك، وليس فيها ألف بإجماع القراء، أما سورة الفاتحة ففيها قراءتان متواتران: {مالك يوم الدين، وملك يوم الدين}.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝﴾ الوسواس هو الشيطان، وها هنا أُنْبِئَ إلى بُطْلانِ قصة وهب بن منبه وفيها أَنَّ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ ابْنُ لِبْلِيسَ! هي قصةٌ ظريفةٌ لكن باطلة منكورة.

قال الحكيم الترمذي رحمه الله: عن وهب بن منبه أَنَّ إِبْلِيسَ لَهُ ابْنٌ جَاءَ بِهِ إِلَى حَوَاءَ، وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهَا وَقَالَ: اكْفُلِيهِ. فَجَاءَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا حَوَاءُ؟ قَالَتْ: جَاءَ عَدُوُّنَا بِهَذَا وَقَالَ لِي: اكْفُلِيهِ. فَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَطِيعِيهِ فِي شَيْءٍ؟ هُوَ الَّذِي غَرَّنَا حَتَّى وَقَعْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ. وَعَمَدَ إِلَى الْوَلَدِ فَقَطَعَهُ أَرْبَعَةَ أَرْبَاعٍ، وَعَلَّقَ كُلَّ رُبْعٍ عَلَى شَجَرَةٍ، غِيظًا لَهُ، فَجَاءَ إِبْلِيسُ فَقَالَ: يَا حَوَاءُ، أَيْنَ ابْنِي؟ فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا صَنَعَ بِهِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا خَنَاسُ، فَحَيِّي فَأَجَابَهُ. فَجَاءَ بِهِ إِلَى حَوَاءَ وَقَالَ: اكْفُلِيهِ، فَجَاءَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَرَقَهُ بِالنَّارِ، وَدَرَّ رَمَادُهُ فِي الْبَحْرِ، فَجَاءَ إِبْلِيسُ [عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ] فَقَالَ: يَا حَوَاءُ، أَيْنَ ابْنِي؟ فَأَخْبَرَتْهُ بِفِعْلِ آدَمَ إِيَّاهُ، فَذَهَبَ إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: يَا خَنَاسُ، فَحَيِّي فَأَجَابَهُ. فَجَاءَ بِهِ إِلَى حَوَاءَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ: اكْفُلِيهِ. فَنَظَرَ، إِلَيْهِ آدَمُ، فَذَبَحَهُ وَشَوَاهُ، وَأَكَلَاهُ جَمِيعًا. فَجَاءَ إِبْلِيسُ فَسَأَلَهَا فَأَخْبَرَتْهُ حَوَاءُ. فَقَالَ: يَا خَنَاسُ، فَحَيِّي فَأَجَابَهُ فَجَاءَ بِهِ مِنْ جَوْفِ آدَمَ وَحَوَاءَ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ، وَهَذَا مَسْكَنُكَ فِي صَدْرِ وَلَدِ آدَمَ، فَهُوَ مُلْتَقِمٌ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ مَا دَامَ غَافِلًا يُوسَّوسُ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ لَفِظَ قَلْبَهُ وَانْخَسَ^٥.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ذَكَرَ هَذَا الْخَبَرَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي نَوَادِرِ الْأُصُولِ بِإِسْنَادٍ عَنْ وَهْبِ ابْنِ مُنْبِهٍ. وَمَا أَظْنُهُ يَصِحُّ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ^(١). اهـ

قلت: بل هي منكورة باطلة؛ انظر كيف نسبوا الإجماع إلى الأنبياء، ونسبوا إلى إبليس القدرة على الإحياء! هذا كفر بالله أصلاً، لا يجوز أن يعتقد مثل هذا ولا يجوز حكاية هذه الحكايات إلا من باب التنبيه عليها، ونبراً إلى الله من هذا الضلال ولكن خشيت أن يغتر بها بعض الناس؛ لكونها مذكورة في تفسير القرطبي - مع أنه ضعفها - لذا وجب التنبيه.

فالوسواس هو الشيطان، والوسوسة هي الحديث الخفي، وهي الحديث سرّاً في الأذن، ومنه وسوسة الحلي. فالقرط - الحلق - إذا اهتز في أذن المرأة يقال له: وسواس، لأنه يحدث صوتاً خفيفاً وهو قريب من الأذن فكأنه يوسوس لها، و{الخناس} الذي يخنس ويختفي عند ذكر الله. والعبد الذاكر لربه يعطيه الله قوة أقوى بكثير من قوته العادية.

لماذا قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولم يقل: في قلوب الناس؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصله إلى القلب ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠] ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه^(٢).

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠ / ٢٦٢)

(٢) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢ / ٢٦٢)

وسياتي ذكر شيء من وساوسه بعد قليل إن شاء الله. وقال أيضًا: الوسوسة هي مبادئ الإرادة؛ فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوةً، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها. فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط. وينسى ما وراء ذلك. فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ الْحِجَّةُ وَالنَّاسِ﴾ فيه معنيان:

المعنى الأول: أن الذين يوسوسون جنٌّ وإنسٌ أيضًا، فهناك من شياطين الإنس - والله العظيم - أعتى من شياطين الجن، وهم - والعياذ بالله - يتفنون في أذية العباد، ويتفنون في الشر على كل المذاهب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

المعنى الثاني: أن الذين يوسوس لهم جنٌّ وإنسٌ أيضًا. قال ابن جزي الكلبي: يَعْنِي يَدْخُلُ فِي الْجَنِّ كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُوسَّسُ لِلْجَنِّيِّ كَمَا يُوسَّسُ لِلْإِنْسِيِّ^(٢).

وقيل للجن (ناس)؛ على سبيل التغليب، والله تعالى ذكر أن منهم رجالًا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ

مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٥٨)

(٢) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٥٩٧)

ذِكْرُ بَعْضِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ؛ لِنَحْذَرَهُ:

١ - إساءة الظن: في الصحيحين عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُبَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَأَنْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكُنُهَا فِي دَارِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رَسُولِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتِ حُبَيِّ» فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا - وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: شَرًّا -، أَوْ قَالَ: شَيْئًا»^(١).

أي لما قام الحبيب ﷺ معها ليوصلها إلى بيتها، والليل في زمانهم - كما تعرفون - ظلامٌ دامسٌ؛ إذ لا توجد لديهم أعمدة الإنارة المعروفة لدينا. فمرَّ رجلان من الأنصار فرأيا النبي ﷺ فأسرعا في المشي. فأخبرهما صلوات ربي وسلامه عليه أنها زوجته صفية. انظر إلى معلم الهدى يعلمنا أن ندفع عن أنفسنا، ونتجنب مواطن الشبهات والريبة وإذا استفاد العبد من سنة رسول الله ﷺ نجا من شر كثير. فقالا: سبحان الله أي: هل نشك فيك! فبينَ لهما خشيتَه عليهما من وسوسة الشيطان؛ لأنَّ الشيطان إذا قذف في قلب إنسانٍ شرًّا - ولو كان من الصحابة - فإساءة الظنَّ بالنبي ﷺ يهلك لا شك.

فعليك أن تتبعدَ عن كلِّ موطن فيه ريبة وأن تدفع عن نفسك سوءَ الظن. أذكرُ لما كنا عند شيخنا مصطفى العدوي - حفظه الله - كانت تأتي بعضُ النساء تسألنَّه، فلا يخرج الشيخ وحده أبداً ليجيها بل يمسك بيدِ أحدها؛ لئلا يبقى هناك مجالٌ للشيطان، ولأنَّ بعضَ الناسِ قد يسيءُ الظنَّ فيتحدثون بالشر نسأل الله العافية.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٨١)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٧٥)، من حديث صفية

بنت حبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

٢- الوسوسة في الصلاة: في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النَّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَطَّلَ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»^١.

أي أن الشيطان يُخرج صوتاً عظيماً حتى لا يسمع الأذان؛ لأن وقع الأذان على الشيطان أقوى من وقع السيوف على بدن الإنسان؛ لأنه توحيد، ودعوة تامة، فإذا انتهى الأذان رجع، فإذا أقيم للصلاة، أدبر فإذا قضيت الإقامة، أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، أي: يأتي له بخطر، مثل: تذكر أن سيارتك فيها عطل، أو أنت نسيت المفتاح، اذكر طلبات البيت، ... فيظل يذكره بأشياء كثيرة؛ حتى يذهب خشوعه بل لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً. فإذا لم يدرك أحدكم أثلاثاً صلى أم أربعاً، سجد سجدة للسهو، لذلك قال الرسول ﷺ عنهما: «تَرْغِيماً لِلشَّيْطَانِ»^٢. فكأنك لما تسجد للسهو يتمرغ أنف الشيطان في التراب، والרגام هو التراب.

٣- الوسوسة في الإيمان: وهذه عظيمة جداً، في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»^٣.

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (٣٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٧١)، والنسائي في "الكبرى" (٥٨٧) وغيرهم، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٣٤)، وأبو داود في "سننه" (٤٧٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

يعني يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلق السماء؟ ستقول: الله، مَنْ خلق الأرض؟ ستقول: الله، مَنْ خلق أباك؟ ستقول: الله، مَنْ خلقك؟ ستقول: الله، فَمَنْ خلق الله؟ فإذا وجدت شيئاً من هذا فقل: آمنت بالله وانتَه؛ فليس بعد ذلك كلامٌ، وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا تسترسل.

ومثل هذه الوسواس - غالباً - تأتي الإنسان الذي ليس له حماية إيمانية. فالبيت إذا تركته بدون نوافذ وأبواب، وفيه مجوهرات وأموال نفيسة جداً، وهذه الأموال ليست محفوظة في خزانة محكمة ... فما ظنك بالصوص هل يسلم منهم؟ وكذلك الإنسان الغير محصن بذكر الله. أما المؤمن الذي له حصن حصين بذكر الله، يحافظ على أذكار الصباح والمساء، ودبر الصلوات، وقراءة القرآن وقيام الليل ولو بركتين، وصيام الاثنين والخميس، ... فلا يأتيه مثل هذا غالباً. كما يجب على العبد أن يتفقه في الدين؛ ليعرف كيف يتصرف إذا وجد شيئاً من ذلك. وقد يكون الوسواس قهرياً وهو مرض لا يُلام العبد عليه. ولكن كلما تحصنت بالتحصينات الشرعية كلما حفظك الله تعالى وجعل بينك وبين الشيطان وقاية.

وقد يجد شيئاً من هذا بعض أفاضل المؤمنين، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء ناس من أصحاب ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»^(١). وفي مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»^(٢).

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٣٢)، وأبو داود في "سننه" (٥١١١)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٤٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٠٩٧)، وأبو داود في "سننه" (٥١١٢)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٤٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "الظلال" (٦٥٨)

فهؤلاء صحابة كرام، والواحد منهم ليجد في نفسه شيئاً عظيماً في ذات الله أو في الإيمان بالغيب، أو نحوهما فقال عليه السلام: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» أي أن كُرْهِهم لهذه الوسوسة العظيمة علامة على صريح إيمانهم.

ولا تنس ما في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسَوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»^(١). فإذا جاء الشيطان وجال في صدر الإنسان في حال ضعف ثم تذكر، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ شيئاً من القرآن، أو توضأ أو ما شابه ذلك صرف الله عنه الشيطان.

٤ - النسيان: فمن وسوسة الشيطان أن يشغل القلب بحديثه، حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إلى الشيطان، قال الله تعالى حكاية عن صاحب موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].

ذِكْرُ بَعْضِ شُرُورِ الشَّيْطَانِ غَيْرِ الْوَسَاوِسِ:

١ - سرقة الطعام: فمن شره أيضاً - غير الوسوسة -، أن الشيطان لص، يسرق كل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، حتى وإن كنت ترى الطعام لم ينقص في الظاهر. ولذلك من آداب الطعام، ما في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٦٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٢٧)، من حديث

أنس رضي الله عنه، به.

فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ»^(١). وفي صحيح مسلم عَنْ حَدِيثِ هُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٢).
٢ - المبيت: وكذلك إذا دخل العبد البيت فلم يذكر اسم الله ﷻ كان بيته مأوى للشيطان، ففي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشاءَ»^(٣).

٣ - الفضيحة: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وكذلك يبيت الشيطان في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، .. فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناما أنه فعل كذا وكذا. ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحدٌ من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به... فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله. ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته. وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة^(٤).

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٠٣٣)، والترمذي في "سننه" (١٨٠٣)، وأحمد في "مسنده" (١٢٨١٥)، (٦٥٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٠١٧)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢٤٩) من حديث هذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٠١٨)، أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٧٦٥)، والنسائي في "الكبرى" (٦٧٢٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٤) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (١٥٩ / ٢)

٤ - **عَقْدُ الْعُقْدَةِ لِلْمَنْعِ مِنَ الْيَقِظَةِ:** ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عَقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ»^(١). فيجتهد أن يمنع من اليقظة في الليل لصلاة القيام أو الفجر ويمنعه من النشاط في النهار للعمل نسأل الله العافية.

٥ - **أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح:** فمن شر الشيطان أنه يجعل العبد ينام طول الليل ولا يصلي ولو حتى ركعتين خفيفتين ويبول في أذنه حتى لا يسمعه الخير؛ فيقوم لذكر الله. ففي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ، مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ»^(٢). فالشيطان يُسمعه الأباطيل حتى لا يسمع الأذان ويقوم بعد الفجر، وأما قوله: «بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ» فهو على حقيقته وليس مجازاً، يعني يجعله الشيطان كريهاً وكنيفاً يقضي فيه حاجته؛ لأنه لم يذكر الله تبارك وتعالى.

٦ - **أنه يقعد لابن آدم في كل طريق خير:** جاء في سنن النسائي عَنْ سَبْرَةَ بِنِ أَبِي فَاكِهٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَفِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسَلِّمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءَ أَيْبِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٤٢)، ومسلم في "صحيحه" (٧٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (٧٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: مُجَاهِدٌ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتَقَاتِلُ فَتَقْتُلُ، فَتَنْكَحُ الْمَرْأَةَ، وَيُقَسِّمُ الْمَالَ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ^(١).

وقس على هذا فيقعدُ الشيطانُ لابنِ آدمَ بطريقِ الصدقة ويقول: أنت تريد أن تتزوج وتبني بيتك وتدفع مهرًا...، ويقعدُ له بطريقِ العمرة، فيقول: أولادك أولى، ويقعدُ لابنِ آدمَ بكل طريق من طرق الخير. ويكفي أنه أقسم الله تعالى أنه سيقعد لأبناء آدم الصراط المستقيم، قال تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ^(١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ^(١٧)﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] يأتينا من كل اتجاهٍ وهناك مشكلة أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَلُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ^(٢٧)﴾ [الأعراف: ٢٧]. فهو يوسوس لك في قلبك، ويجري منك مجرى الدم، ويأتيك من كل جهة فليس لك عاصمٌ إلا الله، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ^(١٨) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ^(١٩)﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ^(٢٠)﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ^(٢١)﴾، فعندما تقرأ القرآن يحفظك الرحمنُ جلَّ جلاله.

٧- ومن شره أنه أعمل الحيلة، حتى أخرج أبانا آدم عليه السلام وأمنا حواء من الجنة.

٨- الشرك: ومن شره أنه يوقع عددا كبيرا من بني آدم عليه السلام في الشرك والكفر، حتى أن رب العالمين ينادي يوم القيامة «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ عَلَيْهِ السلام: كَيْفَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ فَاشْتَدَّ

(١) (صحيح)، أخرجه النسائي في "الكبرى" (٣١٣٤)، وأحمد في "مسنده" (١٥٩٥٨)، من حديث سبرة رضي الله عنه،

به. وصححه الألباني في "الصحيحة" (١١٨٦ / ٦)

ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبْشُرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ»^(١).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلُهُ (مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ): أَيُّ مِنْهُمْ وَمَنْ كَانَ عَلَى الشَّرِّكَ مِثْلَهُمْ^(٢).

٩ - عداوة الأنبياء: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ويكفي من شره أنه تصدى لإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار فرد الله تعالى كيده عليه وجعل النار على خليله بردا وسلاما. وتصدى للمسيح عليه السلام حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وصان المسيح ورفعاه إليه. وتصدى لزكريا ويحيى - عليهما السلام - حتى قُتِلَا. واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى. وتصدى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهد الله تعالى يكتبته ويرده خاسئا. وتفلت على النبي ﷺ بشهاب من نارٍ يريد أن يرميه به وهو في الصلاة^(٣).

قلت: ففي صحيح مسلمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ» ثُمَّ قَالَ «أَلْعَنَكَ بِلْعَنَةِ اللَّهِ» ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ، قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِهِ، فَقُلْتُ: أَعُوذُ

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "فتح الباري" للحافظ ابن حجر (١١ / ٣٩٢)

(٣) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢ / ٢٦٠-٢٥٩)

بِاللهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وَلَدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ^(١). فإذا كان هذا مع النبي ﷺ فما بالنا بحالنا!

طرق الشيطان في إغواء الإنسان:

لو أن إنساناً يعمل في عملٍ خمسين عاماً، سيتقنه ويعرف أبوابه كلها، فما بالك بالشيطان فمئذ آلاف السنين يغوي بني آدم، فعرف المداخل وكيف يأتي الإنسان، وله في ذلك ستُّ طُرُق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ويمكن أن ينحصر شرُّه في ستة أجناس:

الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله: فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أُنْيُنِهِ واستراح من تبعه معه. وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه.

قلت: لذلك لا يوسوس الشيطان للكفرة، ولهذا قيل لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلب خرب؟! فهم لا عقيدة ولا دينَ عندهم ولا أخلاقَ عند أكثرهم، فالشيطان لا يوسوس لهم؛ فهم أصلاً شياطين.

الثاني: البدعة: وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعدي وهي ذنب لا يتاب منه وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاءً إلى خلاف ما جاءوا به وهي باب الكفر والشرك.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٤٢)، والنسائي في "الكبرى" (١١٣٩)، وابن حبان في "صحيحه"

قلتُ: لذلك قال أهل العلم: "السنة سفينة النجاة" فمن أراد النجاة يتمسك بسنة النبي ﷺ، في أكله، في شربه، في لباسه، في أخلاقه ومعاملاته، في عقيدته، في عبادته، في كل شيء، نسأل الله تعالى المدد والتوفيق.

الثالث: الكبائر: على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك؛ لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستتنب منهم من يشيعها ويذيعها لا نصيحة منهم؛ ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه.

الرابع: الصغائر: التي إذا اجتمعت فربما أهلك صاحبها كما قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْفَرَاتِ الدُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ هُنَّ مَثَلًا: «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»^(١). ومعناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطبٍ حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتوا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنُ حالاً منه.

الخامس: إشغاله بالمباحات: التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوتُ الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

قلتُ: فهذه مرتبة من مراتب شرِّ الشيطان، أو طريقٌ من طرق إغواء الشيطان لبني آدم ﷺ. وكم من الأفاضل، يضيع أوقاته فيما لا فائدة فيه، ينقضي يومٌ بعد يومٍ وما تعلم آيةً، ولا قرأً صفحتين، ولا أكثر من ذكرِ الله ﷻ، غاية الأمر أنه يصلي الفرائض ويرى أنه على خير! مع أنه

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١١٨١١)، والنسائي في "الكبرى" (٣٨١٨)، والطيالسي في "مسنده"

(٤٠٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في "الصحيحة" (٣١٠٢)

يضيع وقته بل يقتله قتلا، بقراءة الجرائد، أو بالنظر ساعاتٍ طويلةً للتلفاز - على فرضِ اجتناب ما فيه من قبيح المناظر - وهكذا ولا حول ولا قوة الا بالله.. فهذه وإن كانت مباحات، لكنها تفوّتُ على العبد خيرا عظيما.

السادس: إشغاله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه: ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه. وقل من يتنبه لهذا من الناس فإن الشيطان لا يأمر بخير.

قلتُ: كأن يحضه على النافلة رغم إقامة الصلاة ولا شك أن المبادرة إلى إدراك الجماعة أولى. فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل فكره وليمنع الناس من الانتفاع به.

قلتُ: فيرمونه بالفسق، أو يقولون عنه (إرهابي، تكفيري، ...) لتشويش قلبه.

قال الإمام رَحْمَةُ اللَّهِ: فحيثئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ومتى وضعها أضر أو أُصيب. فلا يزال في جهاد حتى يلقي الله فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان. ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه^٩.

(١) ينظر "بدائع الفوائد" لابن القيم (٢/ ٢٦٢-٢٦٠)

قلت: فلا بد للعبد منا أن يكون يقظاً حاملاً سلاحه، حتى يكبت عدوه وأعظم سلاح، هو قول الرسول ﷺ: «وإنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

كيف يُحصِّنُ العبد نفسه من الشيطان الرجيم؟

معنا جملة حصون، تحرز به نفسك من الشيطان الرجيم، وهي مهمّة جداً، يجب علينا ألا نغفل عنها وهي:

الحرز الأول: أن تذكر الله ﷻ على كل أحيانك:

ففي مسند أحمد عن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ.. فساق الحديث وفيه:

«وَأْمَرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ كَثِيرًا، وَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ»^(٢).

وهذه حقيقة؛ فإن الشيطان ليتمكن أعظم تمكن من الغافل، فيضره، ويؤذيه، ويؤزّه.. أما الذاكر لله، الذي يقرأ القرآن، ويستغفر الرحمن ﷻ، ويصلي على سيد الأنام ﷺ، ويصلي لله وهكذا، فهو أحسن ما يكون من الشيطان الرجيم.

الحرز الثاني: الإيمان بالله ﷻ والتوكُّل عليه:

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٧١٧٠)، والبغوي في "شرح السنة" (٢٤٦٠)، وأبو عبيد في "

الخطب والمواظ" (٩٥) من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، وصححه الألباني في "صحيح الجامع"

(٢٦٠٤)

(٢) (صحيح) سبق تخريجه

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. فاحذر الشرك صغيره وكبيره. أما الشرك الاكبر فهو يحبط الاعمال كلها وأما الشرك الأصغر فهو آفة عظيمة لكنه منتشر بين الناس، ومنه: الحلف بغير الله ﷻ (بالنبي ﷺ، والنعمة، ورحمة الآباء..). حتى الحلف بالمصحف إلا إذا قصد به كلام الله ﷻ، يعني المقصود أنك لا تحلف إلا بالله ﷻ.

فالمؤمن الموحد، ولو كان قليل العلم، يهزم شياطين الجن والإنس، بتوحيده وبإذن الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. ولا تنس هذا الحديث العظيم، الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما، أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(١).

قوله: «احفظ الله» يتضمن ثلاثة أشياء:

١ - احفظ أوامره: فمننا من يسمع المؤذن كل يوم ينادي: حي على الصلاة وينام في البيت بل ولا يؤدي الصلاة أحياناً إلا بعد خروج وقتها! وكلك الذي يضع أمر الله بالبر بالوالدين فهذا لم يحفظ ربه ﷻ؛ لأنه لم يحفظ أوامره.

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥١٦)، والطبراني في "الكبير" (١١٤١٦)، وأحمد في "مسنده"

(٢٦٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، به، وصححه الألباني في "ظلال الجنة" (٣١٦ - ٣١٨)

٢- احفظ نواهيه: فلا تقع فيها. حَرَّمَ اللهُ علينا النظرَ للنساءِ، فالذي يقضي ليله ونهاره أمام الشاشات يتابع النشرات فضلا عن الأفلام والمسلسلات وهذه البلايا .. هذا بلا شك يُضعف إيمانَ الإنسان.

٣- احفظ حدوده: فقِفْ عندها. فإذا حفظ العبدُ ربَّه، فحفظ أوامره فأداها، وحفظ نواهيه فاجتنبها، وحفظَ حدودَه يحفظه اللهُ ﷻ في نفسه وفي ماله، وفي اهله. وهذا والله حقٌّ، وأعظمُ من ذلك: يحفظُ اللهُ عليك الإيمانَ حتى تخرجَ من هذه الدنيا بإذنِ الرحمن.

الحرز الثالث: ذكر الله ﷻ والوضوء والصلاة عند الاستيقاظ؛ حلَّ عقدِ الشيطان: فأنت في حربٍ لا تضعُ أوزارها إلا عندما نضعُ قَدَمنا - إن شاء اللهُ - في الجنة. قيل للإمام أحمد: متى الراحةُ يا إمام؟ قال: عندما تضعُ أولَ قدمٍ لك في الجنة. فأنت في الدنيا في جهاد، تجاهدُ شياطينَ الإنسِ وشياطينَ الجن، فنسألُ الله العافية والسلامة.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عَقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عَقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا»^(١). فهذا الهدى النبوي يتضمن ثلاثة أشياء عند الاستيقاظ:

١ - **ذكر الله ﷻ:** فإذا استيقظت فقل: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(٢). واسمع لهذا الحديث الرائع العظيم الذي هو من أروع ما يكون وهو في صحيح البخاري عن

(١) (صحيح) سبق تخريجه.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٣١٢)، (٧٣٩٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧١١) من

حديث حذيفة، والبراء بن عازب رضي الله عنهما، به.

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»^(١).

فعنما تقوم بالليل فتدعو ربك بهذا الدعاء وبغيره مما تشاء، يجيبك الله ﻻ ﻳُﺠِﺐُ.

٢- الوضوء: فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ الْعُقْدَةُ الثَّانِيَّةُ.

٣- الصلاة: فإذا صلى انحلَّت عُقْدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ بلى، ولذلك تجد كثيرًا من الذين يتابعون الأفلام والمسلسلات وهذه البلايا، يسهرون الليل وينامون عن صلاة الفجر - فضلًا عن قيام شيء من الليل - ويستيقظون متأخرين، وتجد عليهم كآبةً ويظهر عليهم الكسل.

واستثنى بعض السادة العلماء من هذا الحديث أمورًا منها:

- الذي قرأ آية الكرسي عند النوم؛ لأنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَحْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٢).

- الذي صلى العشاء في جماعة؛ لأنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ»^(٣). إذن الشيطان ليس له عليه سبيلٌ.

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٥٤)، وأبو داود في "سننه" (٥٠٦٠) وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٥٦)، وأبو داود في "سننه" (٥٥٥)، وأحمد في "مسنده" (٤٠٨).

إِذَا عَلَيْكَ بَذَرَ اللَّهُ وَأَنْ تَجْعَلَ سُنَّةَ الرَّسُولِ ﷺ دِيْنَكَ دَائِمًا أَبَدًا. وَمَا أَجْمَلَ كَلِمَةَ الْإِمَامِ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ، فَهِيَ كَنْزٌ مِنَ الْكُنُوزِ، قَالَ: "إِنْ اسْتَطَعْتَ، أَلَّا تُحَكَّ رَأْسُكَ إِلَّا بِأَثَرٍ فَأَفْعَلْ"^(١). مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ هَذَا يَعْنِي أَنَّكَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ أَوْ مَشْرُوعٍ فِي كُلِّ عَمَلٍ أَوْ قَوْلٍ، ابْحَثْ عَنِ الدَّلِيلِ مِنَ السُّنَّةِ، وَاتَّبِعْ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَافْعَلْ كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

الحرز الرابع: الاستئثار عند الاستيقاظ من النوم:

وذلك لما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَتِرْ ثَلَاثًا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ»^(٢).

فإن قلت: كيف وأنا لا أشعر بشيء؟

أقول: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخْبَرَ وَصَدَّقَ. فَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ مِنْ نَوْمِكَ اسْتَتِرْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ - وَهَذَا غَيْرُ الْوَضُوءِ - فَتَأْخُذِ الْمَاءَ فَتَسْتَشْقِهُ وَتَسْتَتِرُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ؛ لِتَطْرُدَ الشَّيْطَانَ؛ لِأَنَّهُ يَبِيتُ عَلَى خَيْاشِيمِ الْإِنْسَانِ.

الحرز الخامس: ترك النوم إلى الصباح:

ففي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ، مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ»^(٣).

من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

(١) ينظر "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي (١٧٤)

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٩٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٣٨) بلفظ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ

يَبِيتُ عَلَى خَيْاشِيمِهِ» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به .

(٣) سبق تخريجه .

كان هذا الجليل العظيم لا ينفع عندهم هذا الكلام؛ فمن العيب عندهم أن ينام المسلم من العشاء إلى الفجر؛ لحرصهم على شعيرة عظيمة اسمها: قيام الليل. لكن أصبح الواحد منا اليوم إذا من الله ﷻ عليه فصلّى العشاء والفجر في جماعة - ولا شك أن هذا خيرٌ عظيمٌ - اكتفى! لكن أين نحن من قول الله ﷻ في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِذَّنَّهُ»^(١).

وقولهم: "مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ" لأهل العلم فيه تأويلان:

- **نام عن قيام الليل**، أي: صلى العشاء، ونام ولم يستيقظ إلا للفجر؛ لأنَّ الصباح يكون ساعة الفجر.

- **نام عن صلاة الفجر**. أي: فات منه الصبح.

الحرز السادس: ذَكَرَ اللهُ ﷻ عند دخول الخلاء:

وهذا مهمٌ جداً ويجب علينا أن نذكّر به الأبناء الصغار؛ فمن الممكن أن يدخل الواحد منهم الخلاء، بغيرِ ذِكْرِ اللهِ ﷻ وبعد ذلك يشتكي من مَسِّ الشيطان وغير ذلك. في الصحيحين عن أَنَسٍ، يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»^(٢). وفيه تأويلان:

- الخُبْث: ذكرُ الشياطين، والخَبَائِث: إناث الشياطين.

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٠٢)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٢)، ومسلم في "صحيحه" (٣٧٥)، من حديث

أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

- الخبث: الأفعال الخبيثة، والخبائث: الأقوال الخبيثة. وكلاهما صحيح.

مسألة: متى نقول هذا الذكر إذا كنا في الصحراء ونحوها؟

قال جمهور العلماء: إذا أراد أن يشمر ثيابه يذكر الله تعالى.

الحرز السابع: الأذان:

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا تُوبَّ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّوْبَةَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَطَّلَ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»^(١). فَإِنَّ وَقَعَ الْأَذَانُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مِنْ وَقَعِ السَّيْفُ؛ لِأَنَّهُ تَوْحِيدٌ، دَعْوَةٌ تَامَةٌ. فَإِذَا أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ يَأْتِي يَخْطُرُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَيُظِلُّ يَذْكُرُهُ وَيَمْنِيهِ حَتَّى يَسْهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ ذَهَبَ حَتَّى يَكُونَ مَكَانَ الرُّوحَاءِ»^(٢). وَالرُّوحَاءُ مِنَ الْمَدِينَةِ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مِيلًا.

ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه قصة، ففي صحيح مسلم عن سهيل، قال: أُرْسِلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ، قَالَ: وَمَعِيَ غُلَامٌ لَنَا - أَوْ صَاحِبٌ لَنَا - فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ قَالَ: وَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِيَ عَلَى الْحَائِطِ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ، وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادٍ بِالصَّلَاةِ فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ

(١) (صحيح)، سبق تخريجه.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٨٣)، ومسلم في "صحيحه" (٣٨٨) من حديث جابر رضي الله عنه،

الشَّيْطَانُ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ^(١). الحائط هو الحديقة وهذا النداء من فعلِ الشيطان. وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه يجوز للمسلم أن يؤذّن في غير وقت الصلاة إذا شعر بشيء من مسّ الشيطان له. فمثلاً إذا حدث خلافٌ بينك وبين زوجك أو بينك وبين أولادك فأذّن لطرده الشيطان بإذن الله ﷻ^(٢).

الحزب الثامن: الاستعاذة الدائمة من همزات الشياطين:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾^(٣) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ^(٤)

[المؤمنون: ٩٧، ٩٨]. وفي مسند أحمد عن الوليد بن الوليد رضي الله عنه - شقيق خالد ابن الوليد رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ وَحْشَةً، قَالَ ﷺ: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ، فَإِنَّهُ لَا يُضْرَكَ، وَبِالْحُرِيِّ أَنْ لَا يَقْرَبَكَ»^(٥).

فهذا علاج رباني وكثير من الناس يشكون صعوبة النوم. وأعرف رجلاً كان ينام بعد العشاء مباشرة على جنب واحد حتى الصباح ثم أصابته خسارة وبعض الإشكالات فمرّ عليه أسبوعٌ كاملٌ لا تكاد عينه تكتحل بنوم تعدّب عذاباً شديداً ولم يشعر بعظيم نعمة الله عليه إلا لما حدث له ذلك. فهذا الحديث حديث العظيم يحفظ العبد بإذن الله ﷻ.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٨٧)، وأبو عوانة في "مستخرجه" (٩٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) وقال النووي رحمه الله في "شرح مسلم" (٤ / ٩٢)، حُصَاصٌ أَي ضَرَاطٌ - كَمَا فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى - وَقِيلَ: الْحُصَاصُ شِدَّةُ الْعُدُوِّ.

(٣) (ضعيف) أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥٢٨)، وأحمد في "مسنده" (١٦٥٧٣)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٥٣٤)، وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٥١٣٩).

وفي مسند أحمد عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه: «كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْثِهِ، وَنَفْخِهِ». قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: " وَهَمْزُهُ: الْمَوْتَةُ^(١)، وَنَفْثُهُ: الشَّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبْرِيَاءُ^(٢) ».

- ومن ذلك: الاستعاذه بالله عند قراءة القرآن: قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال ابن كثير رحمه الله: وَالْمَعْنَى فِي الْإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ، لِئَلَّا يُلْبَسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَيُخْلَطَ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعَهُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ^(٣).

الحرز التاسع: يتفل المرء عن يساره؛ لدفع شيطان الصلاة:

ففي صحيح مسلم أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أتى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانُ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي^(٤).

الحرز العاشر: ترك الالتفات في الصلاة:

(١) أي: الجنون. والمراد بالشعر: المذموم منه.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٩٧٣٣)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٧٣٣)، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٢٥٨٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، به. وصححه الالباني في "التعليقات

الحسان على صحيح ابن حبان" (١٧٧٦)

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٤ / ٦٠٢)

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٠٣)، وأحمد في "مسنده" (١٧٨٩٧) من حديث عثمان بن أبي

العاص رضي الله عنه، به.

العبد إذا صلى ينبغي عليه ألا يلتفت في الصلاة ففي صحيح البخاري قالت عائشة رضي الله عنها،: سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة، فقال: «هو اختلاس يختلس الشيطان من صلاة أحدكم»^(١).

الحرز الحادي عشر: منع المارّين يدي المصلي:

فينبغي على العبد إذا شرع في الصلاة أن يصلي لستره إذا صلى منفرداً أو كان إماماً، في صحيح البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إذا مرّ بين يدي أحدكم شيء وهو يصلي فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإن أبى فليقاتله، فإنها هو شيطان»^(٢).

الحرز الثاني عشر: سجود التلاوة:

فينبغي على العبد الله ألا يترك السجود إذا قرأ بآية بها سجدة ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله - وفي رواية: يا ويلى - أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت في النار»^(٣). فأتت إذا سجدت تغيظه غيظاً عظيماً.

الحرز الثالث عشر: سجود السهو:

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شك أحدكم في صلاته، فلم يدر كم صلى ثلاثاً أم أربعاً، فليطرح الشك وليبن على ما استيقن، ثم

(١) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها، به.

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٧٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١)، وابن ماجه في "سننه" (١٠٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِمَامًا لِارْبَعٍ كَانَتْ تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ»^(١).

الحرز الرابع عشر: عدم الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها:

فهو من الشيطان؛ ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَحْنَتُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، أَوِ الشَّيْطَانِ»^(٢).

وحمل بعض العلماء هذا الحديث على وجهين:

- قالوا: عند طلوع الشمس وغروبها يأتي الشيطان يضع راسه فتطلع الشمس بين قرني راسه، فيكون الكفار الذين يسجدون لها عند ذلك ساجدين للشيطان فنهى العبد عن الصلاة في هذين الوقتين؛

حتى لا يكون تشبهاً بالكفار.

- وبعضهم قال: "بين قرني شيطان": يعني بين حزبه واتباعه وجنوده فيأتي الذين يسجدون للشمس في هذا الوقت وهم في الحقيقة يسجدون للشيطان»^(٣).

الحرز الخامس عشر: هذا الذكر العظيم:

في مسند أحمد عن عثمان رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةٌ بَلَاءٍ حَتَّى اللَّيْلِ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمَسِّي، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةٌ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٤).

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٧١)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٧٣)، ومسلم في "صحيحه" (٨٢٨) بلفظ: «لَا تَحَرَّوْا» من

حديث ابن عمر رضي الله عنهما، به.

(٣) انظر "شرح النووي على مسلم" (١٢٤ / ٥)، (١١٢ / ٦).

الحرز السادس عشر: هذا الذكر العظيم:

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَشْرُ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَنُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»^(١). وهذا الذكر يستغرق عشر دقائق لكن فعلا الشيطان يتفنن في صرفنا عن الخير، ويكثر لك العشر دقائق فيجعلهم ساعتين أو ثلاثة، لو قلت الذكر يومًا تركته في اليوم التالي، لماذا تركته وفيه صلاحك! والله أنا مرة استحييت من نفسي، ذهبتُ لإلقاء درسٍ، فلقيني أخٌ شرطي يعمل هناك وكنت ماسكًا بالمسبحة، فقال لي: يا شيخ كم مرة تسبّح باليوم؟ فقلت له: لا داعٍ للإحراج، قال: كم مرة تصلي على النبي ﷺ؟ قلت له: كم مرة تصلي عليه أنت؟ قال: ألف مرة، قلت: ويوم الجمعة؟ قال: طبعًا أكثر. فأحسست أننا نلعب.

وذكر لنا بعض مشايخنا الكرام الثقات الأحياء، أن رجلاً يعمل في موادّ البناء، سمع شيخاً يقول: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَكْثَرَ مِنْهَا يَوْشَكَ أَنْ يُجْتَمَعَ لَهُ بِهَا وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ. فإذا بهذا الأخ يقول: والله أنا ليلي نهاري أقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا أَتَكَلَّمُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ، أقولها باليوم قرابة مليون (ألف ألف) مرة، وأنا أحمل موادّ البناء مع كل نفس: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فهذه منة من الله أن يعينك على الطاعة ويحببها لك، فلا تبخل عن نفسك بهذا. وهذا علاج عظيم في طرد السحر والعين، والله

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٢٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٨٥٢)، من حديث عثمان رضي الله عنه، به.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٩٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٩١) من حديث أبي

جرب تجد، فحياتك أحيانا تجدها غير مستقيمة، فعليك بهذه البركات، التي جعلها الله لنا عافية وسلامة.

الحرز السابع عشر: سورة البقرة:

ففي صحيح مسلم قال أَبُو أَمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «افْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغَنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ: السَّحَرَةُ^(١). فالشياطين لا يستطيعون أن يمسوا قارئ البقرة بإذن الله تعالى.

الحرز الثامن عشر: هذا الذكر والدعاء العظيم:

في صحيح مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ»^(٢).

الحرز التاسع عشر: الإخلاص والمعوذتان:

لا تنسهم أبداً، ففي سنن أبي داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطَرٍ، وَظُلُمَةٌ شَدِيدَةٌ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْنَاهُ، فَقَالَ: أَصَلَيْتُمْ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً، فَقَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ؟

(١) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٠٤) أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٢٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

قَالَ: «قُلْ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

وفي سنن النسائي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَقُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاحِلَتُهُ فِي غُرُورَةٍ إِذْ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ فَاسْتَمَعْتُ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ فَاسْتَمَعْتُ»، فَقَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟، فَقَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فَقَرَأَ السُّورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» فَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ»^(٢). وفي رواية، قال ﷺ: «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِنَّ، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيزٌ بِمِثْلِهِنَّ»^(٣). فلمرء منا محاطٌ بالشياطين لولا ستر ربِّ العالمين، فاقراء سورة الإخلاص والفلق والناس، إذا أصبحت وإذا أمسيت، يحفظك الله من كل شيء.

الحرز العشرون: صلاة الضحى:

فهي شيء عظيمٌ مقدَّسٌ. يقول لي بعض اخواني: والله ما صليت الضحى في يومٍ فأشعر أن مصيبةً ستحلُّ فيه أبداً. هذا لأن الله وفقه لتعظيم الصلوات، أما الجماعة فأمرها منتهى، لكن لا بدَّ من السنن كذلك، ومنها الضحى، لذلك ورد في مسند أحمدَ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ الْغَطَفَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: «يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٥٠٨٢)، والترمذي في "سننه" (٣٥٧٥) وغيرهما من حديث عبد

الله بن خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٤٠٦)

(٢) (صحيح) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٧٧٩٧)، وأبو داود في "سننه" (١٣١٥) وغيرهما، من حديث

عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (١٣١٥).

(٣) (صحيح) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٨٠٠٩)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٠٢٢٠) من حديث عقبة

بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به. وصححه الألباني في "صحيح الجامع وزيادته" (٣٠٤٢)

النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»^(١). ولك أن تخفف الركعات، فتؤديها في دقائق معدودات، يكفيك الله ﷻ شر الهم كله، ويحفظ لك أهلك وأولادك وكل شيء.

الحرز الواحد والعشرون: تعويذ الصبيان:

ونحن في غفلة عن هذا، انظر إلى امرأة عمران ماذا قالت عن مريم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] وهي مولودة للتو، فلا مانع أن تعوذ أولادك بمثل هذا، فتقول: اللهم اني أعيذهم بك وذريتهم من الشيطان الرجيم، اللهم احفظهم. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قَوْلُهُ «وَهَامَّةٍ» بِالتَّشْدِيدِ: وَاحِدَةٌ الْهُوَامُ ذَوَاتِ السَّمُومِ وَقَوْلُهُ «وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُرَادُ بِهِ كُلُّ دَاءٍ وَآفَةٍ تَلُمُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ جُنُونٍ وَخَبَلٍ^(٣). فنسأل الله العافية والسلامة.

الحرز الثاني والعشرون: آداب معظمنا لا يطبقها:

في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ - أَقْبَلَ بِظُلَامِهِ سَاعَةُ الْمَغْرَبِ -، فَكُفُّوا صَبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْشُرُ حَيْثُذِ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٤٦٩)، وأبو داود في "سننه" (١٢٨٩)، الترمذي في "سننه"

(٤٧٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وأبي ذر به، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٤٦٥)

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٧١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٣) ينظر "فتح الباري" لابن حجر (٦/ ٤١٠) وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٣٤٢)

فَخَلَوْهُمْ، وَأَغْلَقَ بَابَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئِ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوَكِ سِقَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَحَمَّرِ إِنَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَلَيْهِ شَيْئًا»^(١).

فإذا جاء وقت المغرب امنعوا الأولاد من الخروج؛ لأن الشياطين تنتشر في الطرق، فيمسوهم وبعد العشاء يخرجون.

الحرز الثالث والعشرون: اتقاء مواطن الشبهات؛ حتى لا يظن الناس بك شيئاً:

في الصحيحين عن صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَاتَتْهُ أَزْوَرُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثَتْهُ ثُمَّ قُمْتُ فَأَنْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا - وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: شَرًّا -، أَوْ قَالَ: شَيْئًا»^(٢).

الحرز الرابع والعشرون: الإكثار من الصلاة والسلام على سيد الأنام:

ففي سنن الترمذي - وحسنه - عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ ﷺ: «مَا شِئْتَ». قُلْتُ: الرَّبْعَ، قَالَ ﷺ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ ﷺ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»،

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٨٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠١٢) من حديث جابر رضي الله عنه، به.

(٢) (صحيح) سبق تخريجه.

قُلْتُ: فَالثَّانِيْنَ، قَالَ ﷺ: «مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ ﷺ: «إِذَا تُكْفِيَ هَمَّكَ، وَيَغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ»^(١).

فَأَنْتَ إِذَا صَلَّيْتَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَاعَةً سَتَصَلِّي عَلَيْهِ أَلْفَ مَرَّاتٍ، وَلَكَ بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَيَصَلِّي عَلَيْكَ اللَّهُ الْعَظِيمُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عَشْرَ مَرَّاتٍ. فَكَمْ مَرَّةً تَصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْيَوْمِ! صَلِّ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي كُلِّ مَكَانٍ. قَالَ لِي أَحَدُ الْإِخْوَةِ: عِنْدَمَا أَكُونُ بِالطَّرِيقِ وَتَكُونُ الْإِشَارَةُ حُمْرَاءَ أَقُولُ: فَرِصَتُكَ، قُلْتَ لَهُ: مَاذَا تَفْعَلُ؟ قَالَ: أَصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الزَّحَامُ شَدِيدًا وَلَا أَصْلَ إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، فَأَكْثَرَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَجِدُ الْأُمُورَ تُفْتَحُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

الحزب الخامس والعشرون: تغيير الهيئة في حالة الغضب:

وَلَقَدْ أَوْصَانَا الرَّسُولُ ﷺ بِهَذَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»^(٢). وَعَلَيْكَ بِالْوَضُوءِ، وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، فَأُطْفِئْ هَذِهِ النَّارَ بِالْمَاءِ^(٣).

(١) (حسن) سنن الترمذي (٤ / ٦٣٦) من حديث، أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ. وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ" (٢٩٣ / ١)

(٢) (ضعيف) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٣٤٨) من حديث، أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ. وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ" (١٤ / ٣٩٤)، وَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي "مُسْنَدِهِ" (١٠٥٦٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَسَابَّ وَأَنْتَ صَائِمٌ، فَإِنْ سَبَّكَ أَحَدٌ، فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ»، وَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْعُدْ، قَالَ الْحَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "مَعَالِمِ السَّنَنِ" لِلْحَطَّابِيِّ (٤ / ١٠٨) الْقَائِمُ مَتَهَيِّئْ لِلْحَرَكَةِ وَالْبَطْشِ وَالْقَاعِدُ دُونَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَالْمَضْطَجِعُ مَمْنُوعٌ مِنْهَا، فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا أَمْرُهُ بِالْقُعُودِ وَالِاضْطِجَاعِ لثَلَاثَةِ تَبَدُّرٍ مِنْهُ فِي حَالِ قِيَامِهِ وَقُعُودِهِ بِإِدْرَاءِ يَنْدَمُ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والحروز والحصون مهمة جداً، وهي كثيرةٌ ولكن في هذا كفاية وغنية، ومَن عمل بها يحفظه الله ﻋَﻠَﻴْﻪِ ﺳَﻠَﻮَﺓُ ﻭَﺍﻟَﻪِ ﺍﻟﻤُﻮَﻟَﻲّ.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمّ تفسيرُ سورة الناس والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وبتمامها فقد تم تفسير جزء عم والله الحمد والمنة

(١) (ضعيف) أخرجه البيهقي في "الآداب" (١٣٤)، و"الشعب" (٧٩٣٨)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (٣٣)

وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٨٣٦٨) وإن كان حديث ضعيف لكن الاغتسال بالماء البارد أو غسل

الوجه واليدين به، توصية طبية لها أثرها البالغ في تهدئة الجهاز العصبي.

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

- ١ مقدمة فضيلة الشيخ أبي بكر الحنبلي حفظه الله.
- ٦ مقدمة فضيلة الشيخ أبي داود يحيى حزة حفظه الله.
- ٨ مقدمة المصنف.
- ١٤ تفسير سورة النبأ.
- ١٤ مناسبتها لما قبلها من وجوه:
- ١٤ فائدة في الفرق بين القرآن المكي، والمدني، وضابط ذلك:
- ٢١ فائدة في الاستدلال بأن القادر على الخلق قادرٌ على البعث من باب قياس الأولى:
- ٢٧ فائدة في دفع تعارضٍ ظاهري:
- ٤٨ تفسير سورة النازعات.
- ٦٠ هل خُلِقَت الأرضُ أولاً أم خُلِقَت السماءُ أولاً؟
- ٦٥ فائدة: أن الإنسان لا يشغل نفسه بالمسائل التي لا تعود عليه بفائدةٍ في دينه أو دنياه.
- ٦٧ تفسير سورة عبس.
- ٦٧ سبب نزولها:
- ٧٣ كيف نجتمع بين قوله تعالى {وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ}، وبين قوله تعالى {أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} ؟
- ٧٤ من فضائل ابن أم مكتوم رضي الله عنه.
- ٧٤ فضيلة أهل القرآن.
- ٨١ فائدة: أن الانسان تعلّم الدفن من الغراب.
- ٨٩ تفسير سورة التكوير.
- ٨٩ مناسبتها لما قبلها.

- ٩١ ما الحكمة من جمع هذه الحيوانات ؟
- ٩٦ مسألة تحديد النسل ما حكمها؟ وهل فيها تفصيل ؟
- ١٠٦ هل يجوز أن نقسم بحياة الرسول - ﷺ - أو نقسم بأي مخلوق ؟
- ١١٢ **تفسير سورة الانفطار**
- ١١٢ من فضائل هذه السورة
- ١٣١ **تفسير سورة المطففين**
- ١٣١ مناسبتها لما قبلها
- ١٤٣ فائدة في إثبات صفة الساق لله تعالى
- ١٤٤ ما هو الجسر ؟
- ١٤٤ ما هو الطرف ؟
- ١٤٨ حكم القيام للإنسان، والقيام لقادم
- ١٥٤ مسألة: هل يدخل المزاح في هذا الوعيد إن كان كذباً ؟
- ١٧٧ **تفسير سورة الانشقاق**
- ١٩٥ فائدة لطيفة في أن الناس إذا جهلوا السنة يعادونها :
- ١٩٧ فإن قيل كيف ييثر الإنسان بالعذاب؟ وهل عذابه يقال عنه بشارة ؟
- ١٩٨ **تفسير سورة البروج**
- ١٩٨ ومناسبتها لما قبلها
- ٢٣٢ **تفسير سورة الطارق**
- ٢٣٢ مناسبتها لما قبلها
- ٢٤٥ **تفسير سورة الأعلى**
- ٢٤٥ مناسبتها لما قبلها
- ٢٥٤ فائدة في الأسباب المعينة على حفظ القرآن وعدم نسيانه

تفسير سورة الغاشية . ٢٦٥

مناسبتها لما قبلها ٢٦٥

هل الغاشية عامة تَغْشَى المسلمين، والكافرين، أم تَغْشَى الكافرين بالعذاب فقط؟ ٢٦٦

فائدة: لا يأتي ملحدٌ ويقول كيف يكون النار نباتٌ؟ ٢٧٢

فائدة: اعتراض بعض الملحدين بقولهم كيف يكون إبليس مخلوقاً من النار ويُعَذَّب بالنار؟ ٢٧٣

تفسير سورة الفجر . ٢٨٣

مناسبتها لما قبلها ٢٨٣

حكم التعريف ٢٨٨

شواهد على قاعدة المعاصي سبب زوال النعم ٢٩٨

تفسير سورة البلد ٣١٤

مناسبتها لما قبلها ٣١٤

فائدة: لو وجد العبد في البلد الحرام لُقْطَةً. ٣١٧

فائدة: في قَسَمِ الله تعالى بمخلوقاته. ٣١٨

هناك عقبةٌ في الدنيا، وعقباتٌ في الآخرة ٣٢٧

فَكُ الرِّقَبَةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لكن هذا في زمان العبيد، فهل يستطيع أحدٌ الآن أن يقوم بهذا؟ .. ٣٣١

تفسير سورة الشمس ٣٣٥

مناسبتها لما قبلها ٣٣٥

بعضُ النَّاسِ يَحْتَجُّ بِالْقَدْرِ على انحرافه ومعاصيه، فيقول: لو أراد الله أن يهديني لهداني! .. ٣٤٢

مِنْ سُبُلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ٣٤٤

تفسير سورة الليل ٣٤٩

مناسبتها لما قبلها ٣٤٩

الهداية نوعان ٣٥٩

- هذه الآية فيها ردُّ على مذهب القدرية الغلاة الذين خالفوا أهل السنة ٣٥٩
- لماذا قدَّم الله سبحانه الآخرة على الأولى في الآية ؟ ٣٦١
- هل النار لا يدخلها إلا الكافر ؟ ٣٦٢
- تفسير سورة الضحى ٣٦٧**
- مناسبتها لما قبلها ٣٦٧
- هل يُشرع التكبير عند قراءة هذه السورة ؟ ٣٦٧
- فضلُ سُنَّةِ الضُّحَى : ٣٧١
- عطاءاتُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ : ٣٧٧
- الحِكْمَةُ مِنْ يَتِمُّ النَّبِيُّ ﷺ : ٣٨٢
- مظاهرُ إغناءِ الله لنبيه ﷺ : ٣٨٤
- وكيف نجتمع بين هذه الآية وبين قول الله تعالى ﴿ قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] ؟ ٣٩٠
- تفسير سورة الشرح ٣٩٢**
- صلتها بما قبلها ٣٩٢
- هل الأنبياء عليهم السلام تقع منهم ذنوبٌ أصلاً، أم أنهم معصومون ؟ ٣٩٦
- حكم الدعاء بعد الصلوات المكتوبة : ٤٠٤
- تفسير سورة التين ٤٠٨**
- مناسبتها لما قبلها ٤٠٨
- فضلها ٤٠٨
- فائدة في أن الله جل جلاله له أن يقسم بما شاء : ٤١٢
- الإنسان فعلاً أجمل المخلوقات ٤١٥
- مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَرُدَّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ وذكر أمثلة أهل العلم لذلك : ٤٢٠

هل أحكم الحاكمين من حكمته أن يخلق العباد عبثاً، ويتركهم هملاً؟ ٤٢٤

تفسير سورة العلق ٤٢٧

مناسبتها لما قبلها ٤٢٧

وقفه مع نزول الآية على النبي ﷺ: ٤٣١

ولذلك لو قلت لماذا لم يُعَلِّم الله نبيه محمداً ﷺ القراءة والكتابة؟ ٤٣٢

إكرام الله لعباده: ٤٣٣

مسألة كراهية كتابة العلم ٤٣٦

تفسير سورة القدر ٤٤٩

مناسبتها لما قبلها ٤٤٩

وردت عدة أقوال في سبب تسمية هذه الليلة بليلة القدر ٤٥١

تعيين ليلة القدر ٤٥٣

استدل أهل العلم بقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) على علو الله جل جلاله ٤٥٨

فائدة: في ذكر علامات ليلة القدر: ٤٦٠

مسألة: هل ليلة القدر تستتبع؟ بمعنى هل نهار ليلة القدر يكون تابعاً لها في الفضيلة؟ ٤٦٣

تفسير سورة البينة ٤٦٤

وجه مناسبتها لما قبلها ٤٦٤

الأعمال من الإيمان: ٤٧١

مسألة: التفضيل بين الملائكة وصالحى البشر ٤٧٤

تفسير سورة الزلزلة ٤٨١

وجه مناسبتها لما قبلها ٤٨١

ما ورد في فضيلتها ٤٨١

وقفه: كثرة الزلازل من علامات الساعة الصغرى: ٤٨٢

وقفة: الشهداء على العبد يوم القيامة: ٤٨٤

تفسير سورة العاديات ٤٩٤

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها: ٤٩٤

وقفة: ربنا تبارك وتعالى آلاءه عظيمة، فكيف يحجده المرء؟ ٥٠١

تفسير سورة القارعة ٥٠٩

مناسبتها لما قبلها ٥٠٩

موقفان واقعيان يظهران شدة حر الدنيا وكيف يعظنا بحر الآخرة ٥٢١

تفسير سورة التكاثر ٥٢٥

مناسبتها لما قبلها ٥٢٥

الفرق بين التكاثر المذموم والتكاثر المحمود ٥٣٠

قصة الشيخ الألباني مع النجار وباب المكتبة ٥٣١

أدلة عذاب القبر ٥٣٥

فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يُسأل ويُقعد ويُضرب بمطارق من حديد

ولا يظهر له أثر؟ ٥٣٩

حكم زيارة القبور ٥٤٠

تفسير سورة العصر ٥٥٩

مناسبتها لما قبلها ٥٥٩

فضل صلاة العصر ٥٦١

سبب القسم بالعصر وبالضحى ٥٦٣

قصة طريقة يرويها الحافظ ابن كثير ٥٦٤

تفسير سورة الهمزة ٥٧٣

مناسبتها لما قبلها ٥٧٣

تفسير سورة الفيل ٥٨٦

مناسبتها لما قبلها ٥٨٦

قصة أصحاب الفيل ٥٨٨

تاريخ مولد رسول الله ﷺ ٥٩٥

حادثة الفيل من أدلة بعثة النبي ﷺ ٥٩٥

تفسير سورة قريش ٥٩٧

مناسبتها لما قبلها ٥٩٧

فضل قريش ٦٠٠

تفسير سورة الماعون ٦٠٣

وجه مناسبتها لما قبلها ٦٠٣

مصيبة وآفة عظيمة ٦٠٧

وقفه: خطورة الرياء ٦١٣

فائدة: لو أنك عملت العمل لله، - تصدقت بصدقة، - والله وفقك ووقعت موقعها، ثم بعد ذلك جاء الناس يشنون عليك خيراً، يمدحونك ويشكرونك، وأنت ما أردت إلا وجه الله، هل هذا من الرياء؟ ٦١٧

فائدة أخرى: إذا عمل العبد عملاً لله، ثم طرأ عليه الرياء، - عافنا الله وإياكم، - وهو في أثناء العمل هل هذا العمل يحبط أو لا؟ ٦١٩

فائدة: ينبغي على العبد منا أن يعبد الله عز وجل، وأن يجمع الأدلة في المسألة، ٦٢٠

ما معنى قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟ ٦٢٣

تفسير سورة الكوثر ٦٣٤

مناسبتها لما قبلها ٦٣٤

- ٦٣٦ هل نهر الكوثر خاص بالنبي ﷺ دون غيره من الأنبياء؟
- ٦٣٧ صفات الحوض ومن يردُّ هذا الحوض ومن يردُّ عنه؟
- ٦٤٠ موقع الحوض في أرض المحشر:
- ٦٤٦ **تفسير سورة الكافرون**
- ٦٤٦ مناسبتها لما قبلها
- ٦٤٦ سبب نزولها
- ٦٤٨ من أسماؤها
- ٦٤٩ فضلها
- ٦٥٥ **تفسير سورة النصر**
- ٦٥٥ مناسبتها لما قبلها
- ٦٥٨ حال المسلم في ديار الكفر
- مسألة: المهجرة من مواطن الفساد إلى مواطن الصلاح باقية إلى يوم القيامة، حتى لو كان من بلد مسلم
- ٦٦٢ **تفسير سورة المسد**
- ٦٦٧ ومناسبتها لما قبلها:
- ٦٦٨ سبب نزولها:
- ورسولنا ﷺ كان معروفًا بالرفق واللين والطف والصبر على أذى قومه، فكيف دعا على عمه وقال ﴿تَبَّتْ يَدَايَ إِلَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؟
- ٦٧١ ومن فوائد السورة غير ما ذكر:
- ٦٧٥ **تفسير سورة الإخلاص**
- ٦٧٧ سبب نزولها
- ٦٧٨ متى يتأكد استحباب تلاوة هذه السورة؟

٦٨٠ فضل سورة الإخلاص.

٦٨١ هل تكفي قراءة سورة الإخلاص ثلاث مراتٍ عن قراءة القرآن كله؟

٦٨١ وما وجه كونها تعدلُ ثلث القرآن؟

٦٨٧ تفسير سورة الفلق

٦٨٧ من فضائل هذه السورة الجليلة.

٦٨٨ متى يتأكد استحبابُ تلاوة هذه السورِ؟

٦٨٩ أنواع الشرور المستعاذ منها في المعوذتين.

٦٩٢ هل المعوذتين من القرآن؟

٦٩٤ ما السرُّ في الاستعاذة برب (الفلق) في هذا الموضع؟

٦٩٩ ما سرُّ الاستعاذة من شرِّ الغاسقِ إذا وقب؟

٧٠٠ وهل السحر حقيقة، أم ليس بحقيقة؟ وهل فعلا يضر أم لا يضر؟

٧٠٣ هل عبدالله بن سلول من أصحاب النبي ﷺ؟

٧٠٣ مسألة: إخراج السحر.

٧٠٤ مسألة: ما النُّشْرة؟

٧٠٤ مسألة: هل أثر السحر على بلاغ الرسالة؟

٧٠٥ مسألة: ما الحكمة من ابتلاء النبي ﷺ بالسحر؟

٧٠٥ فائدة نفيسة: كم مكث رسولنا ﷺ في سحره؟

٧٠٩ مسألة: ما هي الأسباب التي تدفع الحسد؟

٧١٧ تفسير سورة الناس

٧١٧ مسألة لعن الشيطان.

٧١٨ لماذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاَلْسِ﴾؟

٧٢١ لماذا قال تعالى: ﴿اَلَّذِى يُؤَسَّوْسُ فِى صُدُوْرِ اَلنَّاسِ﴾ ولم يقل: في قلوب الناس؟

- ٧٢٣ ذكُرُ بعضِ وساوس الشيطان؛ لنحدَرَه .
- ٧٢٦ ذكُرُ بعضِ شرورِ الشيطان غيرِ الوسوس .
- ٧٣١ طرق الشيطان في إغواء الإنسان .
- ٧٣٤ كيف يُحصَنُ العبدُ نفسَه مِن الشيطان الرجيم؟ .
- ٧٤٠ مسألة: متى نقول هذا الذكرَ إذا كنا في الصحراء ونحوها؟ .

من مؤلفات الشيخ (تحت الإعداد)

شرح كتاب التوحيد

تأليف

فضيلة الشيخ / أبي أسامة مكي بن عبد الخالق

من مؤلفات الشيخ (تحت الإعداد)

نُورُ الْبَيِّنَاتِ

فِي تَفْسِيرِ آيِ الْقُرْآنِ

(تَفْسِيرُ جُزْءٍ تَبَارَكَ)

تأليف

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ / أَبِي إِسْمَاعِيلَ مُتَوَلِّي بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ

من مؤلفات الشيخ (تحت الإعداد)

نُورُ الْبَيِّنَاتِ

فِي تَفْسِيرِ آيِ الْقُرْآنِ

(تَفْسِيرٌ جَزْءٌ قَدْ سَمِعَ)

تأليف

فضيلة الشيخ / أبي أسامة مكي بن عبد الخالق